المملكة العربية السعودية

الصواعق المنزلة

على الطائفة الجهمية والمعطلة

للإمام ابن قيم الجوزية

الجزء الأول

تحقيق

الدكتور أحمد عطية الغامدي ، الدكتور علي ناصر الفقيهي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على البشير النذير، الهادى إلى صراط الله المستقيم نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فقد كان صحابة رسول الله ﷺ يتلقون عنه ﷺ ما يأتيهم به من خير أوحاه الله تعالى إليه بلسان عربي مبين، وصحابته عليه الصلاة والسلام من أفصح الناس وأعلمهم بمدلولات الوحي، وآيات العقيدة من أوضح النصوص التي لا تتحمل الجدل ولا المراء ولذلك لم يعرف عن أحد من الصحابة أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى آية من آيات العقيدة ولا استشكل أحد منهم شيئا من ذلك ولم ينقل إلينا أى اختلاف بينهم في هذا الشأن. كما نقل إلينا اختلاف بعضهم في بعض مسائل الفروع حتى انقضت المئة الأولى حيث ظهر دعاة البدعة ونشأ علم الكلام وظهر الاختلاف في مسائل لا مجال للاختلاف فيها فكانت بدعة الجهمية في أسماء الله وصفاته التي كان لها أثرها في مسار العقيدة الإسلامية فيما بعد. فكثر الاختلاف وتشعبت الأهواء بسبب البعد عن منهج الإسلام القويم (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) وفهم الصحابة ومن تبعهم باحسان وسار على منهجهم.

ولكن الله تعالى قيض لهذه العقيدة من يذب عنها ويفند مزاعم أعدائها ويبين زيف مناهجهم وبطلان معتقداتهم، والامام ابن القيم «رحمه الله» يعتبر بحق من عمالقة الفكر الإسلامي الذين كان لهم الأثر الكبير في ايضاح العقيدة الإسلامية الصحيحة والذب عنها.

ويسرنا أن نقدم للقراء الكرام الجزء الأول من كتابه القيم «الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة» أصل المختصر المعروف بالصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. وهي تمثل ثلث الكتاب الأصل أو أقل. ونسأل الله أن يهيىء العثور على باقي الكتاب الذي وصفه ابن رجب بأنه يقع في مجلدات، وهو كتاب عظيم يدل على علم واسع وبراعة لا نظير لها فاخراج هذا الكتاب اضافة جيدة للمكتبة الإسلامية طالما انتظرها الباحثون وبحث عنها المحققون ونرجو أننا قد ساهمنا باخراجنا لهذا السفر بجهد المقل لاخواننا طلاب العلم الباحثين عن النهج السليم الذي رسمه سلف هذه الأمة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل،،

المحققان

د. أحمد عطية الغامدي | د. على بن محمد ناصر الفقيهي

٢٩/٦/١٤٠٦هـ

ابن قيم الجوزية[1] (٦٩١ - ٧٥١)

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى أبو عبد الله شمس الدين، كان أبوه قيما على الجوزية ومديرا لشئونها، وقد صار ابنه ابن القيم صاحب الترجمة اماما بالمدرسة الجوزية، ومدرسا بالصدرية.

مولــده وطلبـه العلم:

ولد سنة احدى وتسعين وستمائة، وطلب العلم مبكرا وبرع في علوم شتى، يقول ابن كثير في ترجمته: وسمع الحديث واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعـددة لاسيـما علم التفسـير والحديث والأصلين[٢]، ولما عاد الشيخ تقى الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتى عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جما مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدا في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهارا وكثرة الابتهال[٣].

---

(١) مصادر ترجمته: أ ــ المصادر الأصلية:

البداية والنهاية ١٤/٢٣٤.

ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٨-٤٥٠.

البدر الطالع ١/١٤٣ - ١٤٥.

ب ــ رسائل علمية فى دراسة حياته وآثاره العلمية:

ــ ابن القيم من آثاره العلمية / أحمد ماهر محمود البقرى طبعه سنة ١٣٩٧هـ مؤسسة شباب الجامعة.

ــ ابن قيم الجوزية حياته وآثاره / بكر بن عبد الله أبو زيد / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.

ــ ابن قيم الجـوزيـة عصـره ومنهجـه وآراؤه فى الفقه والعقائد / عبد العظيم شرف الدين. الطبعة الثانية سنة ١٣٨٧هـ.

ــ ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامى / عوض الله حجازى/ مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) يعنى بالأصلين أصول الدين وأصول الفقه.

(٣) البداية والنهاية ١٤/١٣٤.

ويقـول الشـوكـاني في البـدر الطالع بعد ذكر اسمه: العلامة الكبير المجتهد المطلق المصنف المشهور، ولد سنة احدى وتسعين وستمائة، وسمع من ابن تيمية، ودرس بالصدرية، وأم بالجوزية، وأخذ الفرائض عن أبيه، وأخـذ الأصـول عن الصفي الهنـدي وابن تيمية وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق وتبحر في معرفة مذاهب السلف.. إلى أن قال: **قال الذهبي في المختصر**: جلس مدة لانكار شد الرحل لزيارة قبر الخليل، ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، ولكنه معجب برأيه جريء على أمور.

قال الشـوكـاني: قلت: بل كان متقيـدا بالأدلـة الصحيحـة معجبا بالعمـل بها غير معـول على الرأى صادعا بالحق لايحابي فيه أحدا ونعمت الجرأة. إلى أن قال وغالب أبحاثه الانصاف والميل مع الدليل حيث مال، وعـدم التعـويـل على القيل والقال، واذا استوعب الكلام في بحث وطول ذيـولـه أتى بما لم يأت به غيره، وسـاق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الـدليـل[1]، وأظنها سرت إليه بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء والقيام معه في محنه ومواساته بنفسه وطول تردده إليه فانه مازال ملازمـا له من سنـة اثنتي عشـرة وسبعمائة إلى تأريخ وفاته، وبالجملة فهـو أحـد من قام بنشـر السنـة وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جنة فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيرا. [2]اهـ.

صفاتـــه وأخـلاقـــه:

أمـا أخـلاقـه وحسن معاشرته وعبادته، فيقول تلميذه ابن كثير رحمه الله: وكـان حسن القـراءة والخلق كثـير التـودد لا يحسـد أحدا ولا يؤ ذيه، ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، قال: وكنت من أصحب الناس له وأحب

(١) وهذا يدل على أنه فاحص محقق لا يأخذ إلا ما دل عليه النص ولم يكن منتخبا كما يرى بعض الكتاب.

(٢) البدر الطالع ٢/١٤٣ ـ ١٤٥.

الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها ويمد ركوعها وسجودها. . إلى أن قال: وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة[١].

ويقول ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابلة: قال **الذهبي في المختصر**: عني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره وتدريسه، وفي الأصلين، وقد حبس مدة لانكاره شد الرحل إلى قبر الخليل، وتصدى للاشتغال بإقراء العلم ونشره، ثم قال ابن رجب: وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والانابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته لم أشاهد مثله في ذلك ولا رأيت أوسع منه علما ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الايمان منه، **وليس هو المعصوم**، ولكن لم أر في معناه مثله، وقد امتحن وأوذى مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

قال: ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة وسمعت عليه «قصيدته[٢] النونية الطويلة» في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها.

وحينما سرد مؤلفاته قال: وكتاب الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة في مجلدات[٣].

عقيدته: وموقفه من الفرق المخالفة لمنهج السلف:

يرى كثير من العلماء أن السلف هم أهل القرون المفضلة الذين قال

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) يعني بها الشافية الكافية، وهي القصيدة النونية، وهذا يوحي بأن ما جاء في الشافية متأخرا.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، ٢/٤٤٨.

عنهم رسـول الهـدى ﷺ : خير أمتى قرني ثم الـذين يلونهم ثم الـذين يلونهم ـ أخرجه البخارى في فضائل الصحابة(١).

قال عمـران بن حصـين رضى الله عنهـما راوى الحـديث : فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا .

وان الـذين اتبعـوهم في منهجهم وطـريقتهم هم الفرقة الناجية التي نص عليها رسول الله ﷺ حينها أخبر عن افتراق اليهود إلى احدى وسبعين فرقة والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وان هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وحينها سئل عنها قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابى(٢) .

وقـد نصت الآيـة الكريمة من سورة الحشرَ بعد ذكر أصحاب رسول الله ﷺ المهـاجـرين والأنصـار ـ على اتبـاعهم فأوضحت صفتهم التي استحقـوا بها أن يكـونـوا على منهـج المهاجرين والأنصار وهى اتباعهم لهم باحسـان قال تعـالى : ﴿**والـذين جاءوا من بعـدهم يقـولون ربنا أغفر لنا ولإخـواننـا الـذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾(٣) .

وقـد بين ابن القيم في كتبـه : أن السلف هم أفضـل النـاس مذهبـا وأهـداهم سبيـلا وأقـومهم طريقـة ، وأكمـل الأمـة ايـمانـا وعلما وعمـلا ، ومـذهبهم أسلم المـذاهب وأحكمهـا وأعلمهـا ، فهم على منهج الصحابة الذين لم يختلفوا في آيات الصفات وأحاديثها .

---

(١) فتح البارى ٧/٣ ح ٣٦٥٠ .

(٢) رواه أبو داود، كتاب السنة باب شرح السنة، ح (٤٥٩٦) ٥/٤ والترمذي فى كتاب الإيمان باب ما جاء فى افـتراق هذه الأمـة ح(٢٦٤١) ٥/٢٦ ، وابـن ماجـه ، كتـاب الـفـتـن باب افـتراق الأمـم ح(٣٩٩١، ٣٩٩٢) ٢/١٣٢١، ١٣٢٢ ، وأحمد في المسند ٢/٣٣٢ و٣/١٤٥ .

(٣) الحشر آية ١٠ .

ومجمل عقيدة السلف : الايمان بالله وأنه الاله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه لا شريك له في عبادته ، كما أنه ليس له شريك في ملكه ، والايمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبكل ما جاء في كتاب الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئا ولا يحرفون كلام الله وكلام رسوله عن مواضعه ، وأن محمدا عبد الله ورسوله وأنه خاتم الأنبياء وأفضلهم ، **وأن الجنة حق ، والنار حق وأنهما** موجودتان الآن **وباقيتان أبدا لاتفنيان** .

ويثبتون لله جميع ما أثبته لنفسه في كتابه من صفات الكمال وما أثبته له رسوله ﷺ في سنته المطهرة على أساس قوله تعالى : ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ .

وأنهم يفهمون معاني تلك الصفات ويؤمنون بها ، كما قال الإمام مالك رحمه الله في قوله تعالى : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة» .

وانه لايكون شيء في الأرض ولا في السماء من خير وشر إلا بمشيئة الله تعالى وان ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ ولا يشهدون لأحد من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا لمن شهد له رسول الله ﷺ ، ولا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب ولا يخرجونه من الإسلام بارتكاب معصية إلا أن يكون ذلك بنص صريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

هذه مجمل عقيدة السلف كما حكى ذلك الصابونى في كتابه «عقيدة السلف» واللالكائى فى شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ، وغيرهما من علماء السلف . ولم يثبت عن أحد منهم أنه قال : ان آيات الصفات من المتشابه ، بل انهم قالوا انها من المحكم الواضح البين ، ودليل ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله ﷺ عن كثير من الأحكام ،

ولم يثبت عنهم أنهم سألوه في آيات الصفات وأخبارها ولم يتنازعوا في شيء منها البتة، اذ لو حدث شيء من ذلك لنقل إلينا كما نقل عنهم كل صغيرة وكبيرة.

ولذلك فإن ابن القيم رحمه الله يؤكد في كتابه هذا الذي نقدمه للقراء وفى غيره ذلك فيقول: تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على اقرارها وامرارها مع فهم معانيها واثبات حقائقها وهذا يدل أنها أعظم النوعين بيانا وأن العناية ببيانها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين. . وسيأتى مزيد بيان لذلك فى وصف الكتاب ومباحثه ان شاء الله.

ولذلك كان منهجه في التأليف في هذا الكتاب وغيره الاعتماد على النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما ورد عن الصحابة والتابعين في تفسير تلك النصوص لأنهم أعرف الأمة بنصوص الوحى وقد حضر الصحابة التنزيل. ثم رده بشدة على المتأولين للنصوص الواردة في صفات الله تعالى من كتاب وسنة.

وذلك ما أشار إليه الشوكانى في ترجمته كما تقدم.

ثم انه يهدم قواعد المتأولين التى بنوعليها تأويل تلك النصوص الصريحة، وهى قولهم: ان كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد علما ولا يحصل منها يقين وقولهم: ان آيات الصفات وأحاديثها مجازات لا حقيقة لها. وقولهم: ان أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة لا تفيد العلم وغايتها أنها تفيد الظن وقولهم: اذا تعارض العقل ونصوص الوحى أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحى.

وقد سمى هذه الأنواع الأربعة بالطواغيت الأربعة التى هدم بها أصحاب الباطل معاقل الدين وانتهكوا حرمة القرآن ومحوبها رسوم الايمان.

وقد كان بعض الكتاب الذين كتبوا عن جوانب من حياة ابن القيم العلمية والعملية منصفين حينما يعرضون لذكر آثاره واهتمامه بما يشاهده من خطر على الإسلام.

فنجد أحمد ماهر محمود البقرى فى رسالته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه في جامعة الاسكندرية، في الفصل الأول: مؤلفات ابن القيم فى الفلسفة وعلم الكلام والأخلاق، حيث يقول: كان طبيعيا والخطر داهم على الإسلام أن يشرع ابن القيم قلمه دفاعا واستبسالا في سبيل الله فنجده يعنون كتبه فى الرد على الآراء الجانحة بعناوين ملتهبة - ان صح التعبير - مثل «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية».

عنوان طويل وكأنما آلى على نفسه وقد سمى كتابه «اجتماع الجيوش» ان يحشد كل صاحب رأي وحجة أمام الجهمية، فهو يسرد آراء الفقهاء كالأئمة الأربعة وعلى بن المديني شيخ البخارى، والمحدثين كالبخارى ومسلم.. والمفسرين، كالطبرى والبغوى والقرطبى، وأهل اللغة كأبى عبيدة بن المثنى، والصوفية كالفضيل بن عياض وعبد القادر الجيلانى وشيخ الاسلام الهروى الأنصارى والمتكلمين مثل أبى الحسن الأشعرى[1]، والشعراء مثل حسان بن ثابت ويحيى بن يوسف الصرصرى الأنصارى. إلى أن قال: وليس بمستغرب أن تتكرر أقوال يشرعها كل من هؤلاء في وجه الخصوم كما يتكرر السلاح فى يد الجند ومن شأن تكرار هذه الأقوال تعميقها فى نفوس القراء. وقد استمر فى ذكر مصنفاته مبينا ميزة كل منها والموضوعات التى تعالجها، وقد استنتج ان كتاب الروح وحادى الأرواح من أوائل مؤلفاته، ولما كان ابن القيم من الشخصيات العلمية

(١) أبو الحسن الأشعرى قد رجع فى آخر حياته عما كتبه فى علم الكلام ورد على المتكلمين وأصبح سلفى العقيدة يقول بما يقول به الإمام أحمد بن حنبل وأهل الحديث، انظر كتابه الابانة، ومقالات الاسلاميين. حينما سرد عقيدة أهل الحديث.

البـارزة فقـد عنى بترجمتـه وبيـان آثاره وحصر مؤلفاته في جميع فنون المعرفة عدد من المؤلفـين القـدامى ، ومن الكتـاب المعـاصـرين في رسـائل علمية تنـاولت جوانب مختلفـة من حيـاته العلمية وأخلاقه وعبادته وأمره بالمعروف ونهيـه عن المنكـر ومـا نالـه في سبيـل ذلـك ، لذلك فاننا سنقتصر على هذا التعريف الموجز به ونحيل القارىء إلى مصادر ترجمته في تلك الكتب التى سبقت الاشـارة إليهـا لمن أراد الاستزادة عن حياة هذا العالم وآثاره ، وحيث أن طبيعـة النـاس وعـاداتهم بين موافق ومخـالف والحق أبلج ، فهويدور مع الدليل حيث دار من كتاب وسنة فقد يجد القارىء أن بعض الكتاب الذين تنـاولـوا ترجمته لم يرق له رأى قال به المؤلف لمخالفته معتقده لذا فاننا ندعو القـارىء إلى مراقبـة الله أولا فهـو المطلع على ما في القلوب ، فقبل الحكم يجب عرض المختلف فيـه على من أمِرَ المؤمنـون بالمحـاكمـة إليهـما عنـد الاختلاف ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله**﴾[1] . فما وجد موافقا لهما أخذ وما لم يوافق الكتاب والسنة رد على صاحبـه ، وقـد قال الامـام مالـك رحمه الله ، كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ، ويعنى به رسول الله ﷺ ، لأن العصمة للأنبياء فقط .

وهنـاك مسألـة تعـرض لها الامـام ابن القيم في كتابه هذا الصواعق المنـزلـة وهـى في المـختصـر المطبـوع ٣٥٢/١ ، وفي شفـاء العليـل ص٢٥٨-٢٦٠ هذه المسألـة **هى القـول بدوام النـار وفنـائها** . لذا كان من المناسب ونحن نحقق ما وجدناه من كتابه الصواعق المنزلة أصل الكتاب - أن نتعرض لذكرها ونبدى ما نراه في ذلك .

فنقـول : قد بسـط ابن القيم القـول في هذه المسألة في كتابه «حادى الأرواح إلى بلاد الأفـراح» من ص**٢٥٤-٢٨٩** في البـاب السابع والستين ، الذى عقد تحته أربعة فصول أورد فيها الأقوال في أبدية الجنة والنار ، وبعد

---

(١) النساء / آيـة ٥٩ .

أن أورد الأقـوال قال في الفصـل الـذى تحته : والذين قطعوا بدوام النار لهم ست طرق وبعـد أن ذكـر تلك الطـرق قال في آخـر ص ٢٧٠ وأمـا عقـاب العصـاة فقـد دل السمـع أيضا دلالة على انقطاعه في حق الموحدين ، وأما دوامـه وانقطـاعـه في حق **الكفـار فهـذا معترك النزال** فمن كان **السمع من جانبه فهو أسعد بالصواب** .

ثم بدأ في الفصل الذي يليه فذكر الفرق بين دوام الجنة والنار عقلا وشـرعـا فسـرد خمسـة وعشـرين وجهـا وحينـما انتهى **من** الـوجـه الخـامس والعشرين قال :

فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة ، ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب .

ثم قال : **فان قيل : فإلى أين انتهى قدمكم** في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هى أكـبر من الـدنيـا بأضعاف مضاعفة؟ **قيل : إلى قوله تعالى ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾** .

إلى هذا انتهى قدم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فيهـا حيث ذكـر دخـول أهـل الجنة الجنة وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء وقال : ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء ، بل وإلى هنا انتهت أقدام الخلائق ، وما ذكرنا في هذه المسألة بل في الكتاب كله من صواب فمن الله سبحـانـه وهـو المـان به ومـا كان من خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريء منه ، وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده والله أعلم . اهـ .

نقـول هذا كلام ابن القيم في هذه المسألـة وقـد صرح بدوام النار في كتـابـه حادى الأرواح في ص **٣٩** وفي كتبـه الأخـرى وهى صريحة في القول **بدوام النار**، مع تصريحه بأن القول بفنائها هو من أقوال أهل البدع المخالفة للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وإليك تلك النصوص :

الأول: وهو ما جاء فى مقدمة زاد المعاد ص**١٤-١٥** قال فيه:

فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره فى الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره فى النار، فجعل الدور ثلاثة:

دار **أخلصت للطيبين** وهى حرام على غير الطيبين وقد جمعت كل طيب وهي الجنة.

ودار **أخلصت** للخبيث والخبائث ولا يدخلها إلا الخبيثون وهي النار.

ودار إمتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما... إلى أن قال وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها، فأسرعهم زوالا وتطهيرا أسرعهم خروجا، وأبطؤهم أبطؤهم خروجا، جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد، ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه بل لو خرج منها لعاد خبيثا كما كان، **كالكلب إذا دخل البحر** ثم خرج منه، فلذلك حرم الله على المشرك الجنة. اهـ.

الثاني: وهو صريح في أن النار لاتفنى وهو ما جاء فى كتابه حادى الأرواح ص**٣٩** حاكيا له بأنه قول أهل السنة مستدلا به على أهل البدع حيث قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما **ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا**، فان احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل **﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾** وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، **والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء** ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا. اهـ.

فهو في هذا النص يقطع ببقاء النار ودوامها. بخلاف ما جاء في آخر

الكتاب نفسه، الذي لم يقطع فيه بل كان مترددا كما سبق نص كلامه.

الثالث: وهو اصرح من النص الذى قبله وهو ما جاء فى كتابه الوابل الصيب ص**٤٩**.

قال: «ولما كان الناس على ثلاث طبقات، طيب لايشينه خبث، وخبث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب، **كانت دورهم ثلاثة دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لاتفنيان ودار لمن** معه خبث وطيب، وهى الدار التي تفنى، وهى دار العصاة، فانه لايبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد، فانهم اذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبيث المحض. اهـ.

قلنا: وبهذين النصين الصريحين اللذين لا يحتملان التأويل يتضح لنا أن ابن القيم يقول بدوام النار وبخلود الكفار فيها، كما أنه ورد فى النص الأول الاشارة إلى ما ذكره فى الوابل الصيب، وأوضح فيه أن المشرك لا تطهره النار من خبثه، مثل الكلب لا يطهره البحر من نجاسته فنجاسته ذاتية، فهو مخلد في النار محرم عليه دخول الجنة.

أما القول: هل هذا كان رأيه الأخير في هذه المسألة أولا؟.

فالجواب: على ذلك، وان لم نجزم بأحد القولين لأن الجزم يحتاج إلى دليل قاطع، إلا أننا نرى أن نسبة القول إليه **بدوام النار** وأنها لا تفنى وأن المشرك حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار خالدا فيها هو الأولى بأن ينسب إليه وأن يجعل هو رأيه في المسألة وأن لا ينسب إليه غيره، وذلك للأمور التالية:

١ ــ قال فى حادى الأرواح ص **٢٧٠** بعد نقله للأقوال في هذه المسألة: إن من كان السمع من جانبه فهو أسعد بالصواب.

٢ ــ القـول بفنـاء النـار عنـد القائلين به والذين حكى أقوالهم مبني على آثـار عن الصحـابـة لم تصـح عنهم لا رواية ولا دراية ، وقد ذكر العلماء عذر من عمـل بحـديث أو أثـر ثبت عنـد غيره عدم صحتـه ، فيبقى هو فى حكم المجتهـد المخطىء له أجـر واحـد على اجتهاده ومعفو عن خطئه وهو كان حاكٍ لأقوالهم .

٣ ــ ان ما ذكره فى حادى الأرواح من تلك الأقوال ، قد صرح هو فى أول الكتـاب نفسـه ص**٣٩** بأن **النار لا تفنى** وأنها باقية ، وأن القول بفنائها هو من أقوال أهل البدع .

وحينما جاء في آخـر بحثـه في الكتـاب نفسـه ص**٢٨٨-٢٨٩** ختمه بتلك العبـارة وهى قولـه : فهذا نهاية اقدام الفريقين فى هذه المسألة ولعلك لاتظفر به فى غير هذا الكتاب ثم أورد السؤال التالى فقال :

فان قيـل : إلى أين انتهى قدمكم فى هذه المسألـة العظيمـة الشأن التى هى أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟ .

قيل : إلى قوله تعالى ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ إلى هذا انتهى قدم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء ثم قال : ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ، بل إلى هنا انتهت أقدام الخلائق .

فكلامه هذا وان قيل أنه قد يعنى بقوله : ويفعل الله ما يشاء ، أى انه يفنى النار فهو لا يقابل فى التصريح النصين الثاني والثالث اللذين نقلناهما من كتبه عنه وخلاصتهما :

١ ــ فى كتـابـه حادى الأرواح قولـه : ان النـار **لا تفنى** ، وأن القـول بفنائها قول أهل البدع .

٢ ــ وفى الـوابـل الصيب ـ ان **النـار لا تفنى** وإنـما هى باقية وأهلها مخلدون فيها مثل الجنة وأهلها .

٣ ــ ثم ان هذا القول موافق لنصوص الشريعة من الكتاب والسنة .

فمن نصوص كتاب الله العزيز قوله تعالى في الكفار ﴿**لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ فاطر/٣٦ .

وقوله ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها**﴾ السجدة/ ٢٠ .

وقوله ﴿**ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون**﴾ الزخرف/٧٧ .

وقوله ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب**﴾ النساء/٥٦ .

وقوله ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص**﴾ إبراهيم/ ٢١ .

فهذه الآيات وغيرها ، آيات صريحة تنص على دوام النار وخلود الكفار فيها ومن نصوص السنة الصحيحة الصريحة في ذلك الأحاديث التالية :

١ ــ حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا الذي أخرجه البخارى في التفسير باب «وأنذرهم يوم الحسرة» فتح الباري ٨/٤٢٨ ح٤٧٣٠ ونصه :

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادى مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت ، وكلهم قد رآه . ثم ينادى: ياأهل النار فيشرئبون وينظرون . فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه . فيذبح . ثم يقول: ياأهل الجنة خلود فلا موت ، وياأهل النار خلود فلا موت . ثم قرأ «وانذرهم

يوم الحسرة اذا قضي الأمر وهم في غفلة ـ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ـ وهم لايؤمنون». اهـ.

٢ ـ وحديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه.

ثم يقال: ياأهل النار فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه، فيقال هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون، لا موت فيها أبدا» أخرجه ابن ماجه باسناد جيد كما قال المنذرى، وصححه ابن حبان (٢٦١٤) وأحمد ٢ / ٢٦١.

٣ ـ وحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ:

«أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولايحيون، ولكن اناس أصابتهم النار بذنوبهم أوقال بخطاياهم فأماتهم الله تعالى اماتة حتى اذا كانوا فحما اذن بالشفاعة». أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح (٣٠٦).

فهذه الأحاديث صريحة الدلالة في أن النار لاتفنى كما أن الجنة لاتفنى، وأن أهلها هم أهلها، أى الكفار مخلدون فيها.

وهو قول موافق لاجماع أهل السنة والجماعة على دوام النار وأنها لاتفنى، وأن عذاب الكفار فيها دائم، مثل دوام الجنة ونعيمها وخلود أهلها فيها كما جاءت بذلك نصوص الكتاب والسنة.

وابن القيم لا يخالف الاجماع ـ وقد نقلنا عنه من حادى الأرواح قوله ان من قال بفناء الجنة والنار، فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل.

وقد نقل هو نفسه كلام الامام أحمد في هذه المسألة وفيه الاشارة إلى الاجماع، مؤيداً به رأيه فقال بعد ذكر الاسناد قال أبوعبد الله أحمد بن

حنبل هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن **الجماعة** زائل عن **منهج السنة وسبيل الحق**، وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها وخلقت النار وما فيها خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما ولا يفنيان **ولا يفنى ما فيهما أبدا**، فان احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا. اهـ ـ حادى الأرواح ص**٣٩**.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فان الباحث اذا رجع إلى كتبه المطبوعة المتداولة بين أيدى الناس كالفتاوى وغيرها فى مظان هذا البحث فانه يجد عنه القول بدوام النار، بل انه ينقل أن إجماع سلف الأمة على ذلك ثبت بالنص والاجماع كالجنة ويجعل القول بفنائها وفناء غيرها مما ثبت بالنص والاجماع بقاؤه كالجنة والعرش وغيرهما، من أقوال أهل البدع الباطلة المخالفة لنصوص الكتاب والسنة، فقد جاء عنه فى الفتاوى المجلد **١٨/٣٠٧** ما يأتى:

«وسئل عن حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال:

سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء ـ النار وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسى، والعرش، فهل هذا الحديث صحيح أم لا؟.

فأجاب:

«هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبى ﷺ وإنما هو من كلام بعض العلماء، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة

على أن من المخلوقات مالا يعدم ولا يفنى بالكلية، **كالجنة والنار** والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم ابن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله **واجماع سلف** الأمة وأئمتها، لما في ذلك من الدلالة على بقاء الجنة وأهلها، وبقاء غير ذلك مما لا تتسع هذه الورقة لذكره. . .» اهـ.

وقد قال بخلود الكفار في النار، كما في الفتاوى **١/١٩٧** في تفسير قوله تعالى ﴿**ثم لا يموت فيها ولا يحيى**﴾.

فهذا كلام صريح في أن **النار لا تفنى** كالجنة وأن الكفار مخلدون فيها، فهل يمكن أن يقال: ان شيخ الإسلام ابن تيمية نقل هذا الاجماع عن سلف الأمة ثم بعد ذلك يناقضه، لا يظن بشيخ الاسلام ذلك قطعا.

ابن القيم وخصوم السنة

كثير من الناس المتنسبين للعلم ولاسيما الذين أخذوا بمذهب الخلف فى العقائد ولم يمعنوا النظر فى آراء السلف فى العقيدة التى مصدرها الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، الصحابة، ومن تبعهم باحسان، ومنهم الأئمة الأربعة.

حينما يجد هؤلاء أحد العلماء يسلك منهج السلف فى هذا الباب فيثبت لله ما أثبته لنفسه فى كتابه العزيز وهو أعلم بنفسه من خلقه، أويثبت له ما أثبته له رسوله ﷺ فى سنته الصحيحة وهو أعلم الناس بالله وأخشاهم وأتقاهم له.

ان هؤلاء حينما يجدون شخصا يسلك هذا المسلك يرمونه بالتشبيه والتجسيم والألقاب الأخرى المنفرة، كالحشوية والنابتة وغيرها.

وممن رمى ابن قيم الجوزية بمثل هذه الألقاب - أبو الحسن تقى الدين على ابن عبد الكافى السبكى الكبير المتوفى سنة (٧٥٦هـ) فقد ألف كتابا سماه «السيف الصقيل» ردا على ما كتبه ابن القيم فى «النونية» المعروفة بالكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية.

ثم كان لمحمد زاهد الكوثرى، حملات شنها على ابن القيم فى مقدمة تعليقاته على كتاب السبكى المذكور. ولما كانت هذه الشنشنة معروفة عن الكوثرى على علماء أهل الحديث والقائلين بما جاء فى الكتاب والسنة فى باب الأسماء والصفات يعرف ذلك عنه من قرأ تعليقاته على كثير من الكتب مثل كتاب الصفات للبيهقى، وكتاب - تبيين كذب المفترى

على أبي الحسن الأشعري لابن عساكر، ومقدمته على كتاب نصب الراية، والتى نشرها مستقلة عبد الفتاح أبو غدة ـ تحت عنوان ـ «من تأريخ الفقه الإسلامى» فقال: «فقه أهل العراق وحديثهم» بقلم **العلامة المحقق الإمام** محمد زاهد الكوثرى».

وقد قال فى وصفه أيضا فى مقدمته ص٤: «. . . ولم ينهض أحد بأداء هذا الحق على وجهه لذلك القطر العظيم ـ أى العراق وعلمائه ـ فيما أعلم سوى شيخنا **الامام البارع الجامع: الحجة المحدث الفقيه الأصولى المتكلم النظار المؤرخ النقاد البصير محمد** زاهد **الكوثرى** رحمه الله وجزاه عن العلم وأهله خيرا».

هذا ما يقوله ـ أبو غدة فى الثناء على الكوثرى.

ونريد أن ننقل هنا كلاما عن أحد الكتاب فقد سرد لنا ما قاله الكوثرى عن أهل السنة وكتبهم ورواة الحديث وطعنه فى عدالتهم، حتى نعرف مدى عدم صحة قول الشيخ أبى غدة فى وصفه له ـ بالامام والحجة والمحدث. . . الخ ثم رد هذا الكاتب عليه، ـ ورَدّ كاتب آخر من كلية دار العلوم جامعة القاهرة على الكوثرى أيضاً فى طعنه على ابن القيم، ولبيان حال الكوثرى وتعصبه الأعمى ننقل أيضا ما ذكره عنه صديقه الغمارى، الذى لقبه «بمجنون أبي حنيفة».

النص الأول: يقول الشيخ ـ أحمد عصام الكاتب فى مقدمته لتحقيق كتاب ـ «الاعتقاد» للبيهقى الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ منشورات دار الآفاق بيروت. ص١٦: «على أن بعض المتأخرين وخاصة أصحاب مدرسة الرأى. تعرضوا لأهل الحديث وحملوا عليهم، وكان الأولى بهم أن لا يحملوا فى صدورهم غِلاًّ لمن نقل لنا هذا الدين ومحص

الأخبار فميز صحيحها من سقيمها وغثها من سمينها . . . إلى أن قال : يقول الشيخ الفاضل محمد زاهد الكوثرى فى مقدمته لكتاب «الأسماء والصفات» للحافظ البيهقى : للمحدثين ورواة الأخبار منزلة عليا ، عند جمهرة أهل العلم . لكن بينهم من تعدى طوره وألف فيما لا يحسنه فأصبح مجلبة العار لطائفته ، بالغ الضرر لمن يسايره ويتقلد رأيه ، ومن هؤلاء غالب من ألف منهم فى صفات الله سبحانه ، فدونك مرويات «حماد بن سلمة» فى الصفات تجدها تحتوى على كثير من الأخبار التالفة ، يتناقلها الرواة طبقة عن طبقة ، مع أنه قد تزوج نحو مائة امرأة من غير أن يولد له ولد منهن ، وقد فعل هذا التزاوج والتناكح فى الرجل فعله ، بحيث أصبح في غير حديث «ثابت البنانى» لا يميز بين مروياته الأصلية وبين ما دسه فى كتبه أمثال ربيبه «ابن أبى العوجاء» وربيبه الآخر «زيد» المدعو بابن حماد . . . - ثم يقول -: وفعلت مرويات «نعيم بن حماد» أيضا مثل ذلك بل تحمسه البالغ أدى به إلى التجسيم ، كما وقع مثل ذلك لشيخ شيخه «مقاتل بن سليمان» ويجد آثار الضرر الوبيل فى مروياتهما فى كتب الرواة الذين كانوا يتقلدونها من غير معرفة منهم لما هنالك .

فدونك كتاب «الاستقامة» لخشيش بن أصرم» والكتب التى تسمى «السنة» لعبد الله ، وللخلال ، ولأبى الشيخ ، وللعسال ، ولأبى بكر بن أبى عاصم ، وللطبرانى ، والجامع - كذا - و«السنة والجماعة» لحرب بن اسماعيل السرجانى و«التوحيد» لابن خزيمة ، ولابن مندة ، و«الصفات» للحكم بن معبد الخزاعى . و«النقض» لعثمان بن سعيد الدارمى -، و«الشريعة» للآجرى ، و«الابانة» لأبى نصر السجزى ، ولابن بطة . و«ابطال التأويلات» لأبى يعلى القاضى ، و«ذم الكلام» و«الفاروق» لصاحب

منازل السائرين. تجد فيها ما ينبذه الشرع والعقل فى آن واحد»[1]اهـ.

يقــول: أحمد عصام الكاتب بعد أن نقل هذا القدح فى أهل الحديث، وفى الكتب المؤلفة من هؤلاء العلماء الأجلاء: «كان الأولى ان لا يخوض الشيخ الكوثرى فيما خاض فيه، فليس من الأمانة فى النقل أن يذكر «لحماد بن سلمة» هذه المثالب، وهو على ما هو عليه من جلالة القدر عند علماء الحديث. وقد أخرج له الإمام مسلم فى صحيحه عن «ثابت» فى الأصول، وعن غير «ثابت» فى الشواهد، وسئل عنه الامام أحمد فقال: «هو أعلم الناس بحديث خاله حميد الطويل وأثبتهم فيه» وقال عنه ابن المبارك: «ما رأيت أحدا كان أشبه بمسالك الأول من حماد». وقال ابن حبان: «لم ينصف من جانب حديث حماد، واحتج بأبى بكر بن عياش وعبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، وكان خزازا، وكان من العباد المجابى الدعوة وقال ابن المدينى: «من سمعتموه يتكلم فى حماد فاتهموه».... إلى أن قال وأما الكتب التى تعرض لذكرها، ومنها كل ما حمل تسمية «السنة» فما رأيته ذكر كتاب «السنة» لأحمد بن حنبل، وهو لا يستقصى دون شك، ولكن كتاب أحمد هذا من قديم ما كتب فى بابه.

قــال: وهـذه الكتب تتضمن عقيدة أصحاب الحديث، وهم يسوقون فيها الأدلة من الأخبار والآثار بأسانيدهم، لقربهم من ذلك العهد، فالطعن فى هذه الكتب هكذا على اطلاقه، هو بمثابة ضرب الصفح عن عقيدة أصحاب الحديث، أو على الأقل التشكيك فيها. واذا لم

---

(١) مقدمة الاعتقاد ص ١٧ نقلا عن مقدمة الصفات للبيهقى للكوثرى ـ وقد أثبتها فى آخر كتاب الصفات للبيهقى باسم «نظرة فى كتاب الأسماء والصفات ـ مرقمة بالحروف أ ـ ى والطبعة المصورة حذفت منها المقدمة، ولكن بقيت التعليقات فى داخل الكتاب على نصوص الكتاب وهى للكوثري، فليحذر القارىء تلبيسات الكوثري ـ وتدليس الناشر للكتاب بحذف المقدمة وترك التعليق غير منسوب إلى قائله، والتعليقات أكثرها بهت لأهل السنة المتمسكين بنصوص الكتاب والسنة.

نتلق العقيدة عن هؤلاء الرجال الذين هم أقرب الناس إلى أنفاس رسول الله ﷺ، وأعلم الناس بسنته، فعمن نتلقى بعدهم[1]؟؟ اهـ.

هذا كلام الكوثرى فى نقد أولئك العلماء والطعن عليهم وتجريحهم، وذم كتبهم المقتصرة على أحاديث الرسول ﷺ فى اثبات العقيدة الصحيحة. ونترك ذلك دون تعليق.

وعلى القارىء الكريم أن **يقارن** بين كلام **أبي غدة** فى مدح محمد زاهد الكوثرى الذى وصفه بأنه: «**الإمام** البارع الجامع الحجة المحدث النقاد البصير».

وبين ما نقله عنه محمد عصام الكاتب فى مقدمة تحقيقه لكتاب «الاعتقاد» للبيهقى - عن مقدمة محمد زاهد الكوثرى لكتاب «الصفات» للبيهقى، وطعنه على هؤلاء العلماء الذين تلقى المسلمون عقائدهم عن حديث رسول الله ﷺ بواسطتهم، وطعنه فى كتبهم التى قال عنها: تسمى بكتب السنة.

ثم نقد المؤلف محمد عصام الكاتب للكوثرى فى هذا الأسلوب الذي طعن به هؤلاء العلماء لأنه طعن فى العقيدة الصحيحة السليمة واننا اذا لم نأخذ عقيدتنا بواسطة نقلهم وهم الأئمة العدول فعمن نأخذ؟ وإلى هنا نترك الحكم للقارىء - على رأى **الشيخ أبى غدة المطلع الاطلاع** الواسع على كتب هؤلاء الأئمة وعلى أقوال العلماء فيهم، وأن مدحه هذا للكوثرى في هذه الرسالة المطبوعة عام **١٣٩٠هـ فيه تأييد سافر وموافقة تامة لما قاله الكوثرى** فى هؤلاء العلماء، والله تعالى وحده هو الذى سيحكم بين الفريقين.

أما طعن الكوثرى على ــ ابن قيم الجوزية ــ فاننا سوف ننقل **ما** أورده الدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين - فى رسالته - ابن قيم

(١) مقدمة الاعتقاد ص١٨، وانظر ترجمة حماد بن مسلمة، في ميزان الاعتدال ١/ ٥٩٠.

الجـوزيـة عصـره ومنهجه وآراؤ ه في الفقه والعقائد والتصوف «التي تقدم بها لنيـل شهـادة المـاجستـير في كليـة دار العلوم جامعـة القـاهرة ، فقد جاء في ص**٣٥٣** قولـه : «تـبرْىء ساحتـه مما نسب إليـه من القـول بالتشبيـه والتجسيم» قال : ومن هذه النصـوص التى أوردتهـا لابن القيم نستطيع أن نبر ىء ساحتـه مما نسب إليـه خصـومـه وحساده واعتبارهم اياه من المشبهة المجسمـة ، فقـد ألف أبـو الحسن تقى الدين على بن عبد الكافى السبكى الكبـير المتـوفي سنـة **٧٥٦**هـ كتابا سماه (السيف الصقيل) ردا على ما كتبه ابن القيم فى نونيته ، ومن يرجع إليها وإلى غيرها من كتب ابن القيم يجده بريئـا من كل ما نسبـه إليـه أعـداؤ ه ، ولأمْر ماً لم تنمح هذه الخصومة بزوال عصر ابن القيم فقد كان للشيخ **محمد زاهد الكوثرى** حملات شنها على ابن القيم ، ولكنها أشبه بالنار يوضع فيها **المسك فيفوح عبيره ، وينتشر شذاه ،** ولعمـــرى لقـد قرأت رد السبكى والكـوثـرى على ابن القيم فما ازددت **إلا إيمانا بنزاهة ابن القيم** وبراءته مما نسب إليه .

هذه شهـادة الدكتور عبد العظيم أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد في كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة لابن القيم ، على الكوثرى .

أما صديقه الغماري ـ وان كان يشاركه فى كثير من آرائه ـ إلا أن الله أنطقـه بالحق فأبـان أن طعن الكـوثـرى على علماء السنـة تعصباً لا لدليل يعتمـد عليـه فقـد جاء فى كتـاب عبـد الله محمـد الصديق «بدع التفاسير» ص**١٣٩** الطبعـة الأولى سنـة **١٣٨٥**هـ مكتبة القاهرة في الهامش رقم (١) بعـد أن ذكـر كلامـا يتعلق بمـوضـوع شخص سعى للافسـاد بينـه وبـين الكـوثـرى قال : (وكنا نعجب بالكوثرى لعلمه وسعة اطلاعه ، كما كنا نكره منـه تعصبـه الشـديـد للحنفية تعصبـا يفـوق تعصب الـزمخشرى لمذهب الاعتزال ، حتى كان يقول عنه شقيقنا الحافظ أبو الفيض : هو «مجنون أبي حنيفة» ، ولما أهدانى رسالته (احقاق الحق) فى الرد على رسالة امام الحرمين

في ترجيح مذهب الشافعى ، وقرأتها وجدته غمز نسب الامام الشافعى ، ونقل عبارة عن زكريا الساجي في ذلك . فلمته ، فقال لى : (متعصب رد على متعصب) هذه عبارته فاعترف بتعصبه . وزرته مرة ببيته أنا والشريف الجليل السيد محمد الباقر الكتانى ، وجرى الحديث بيننا فى مسائل علمية ، وجاء ذكر الحافظ ابن حجر، فأبدى السيد الباقر اعجابه بحفظه وبشرحه للبخارى . . وأيدته في ذلك ، فقلل من قيمة شرحه المذكور، وقال : كان يعتمد على الأطراف فى جمعه لطرق الحديث ـ وهذا غير صحيح ـ وذكر أنه أي الحافظ ابن حجر كان يتبع النساء فى الطريق ويتغزل فيهن ، وأنه تبع امرأة ظنها جميلة حتى وصلت إلى باب بيتها وهو يمشى خلفها وكشفت له البرقع فاذا هى سوداء دميمة فرجع خائبا .

قال عبد الله الصديق الغمارى : وسر هذه الحملة أن الحافظ كان يحمل على بعض الحنفية فى كتب التراجم مثل «الدرر الكامنة» ، «ورفع الأصر» .

وقال عن العينى الحنفى : كان يأخذ كراريس من فتح البارى من بعض طلبته فيستفيد منها فى شرحه ، فلما علم الحافظ ذلك منع اعطاء الكراريس للطلبة .

قال : أي الغمارى ـ وأكبر من هذا أن الكوثرى رمى أنس بن مالك رضى الله عنه بالخرف ، لأنه روى حديثا يخالف مذهب أبى حنيفة . وأقبح من هذا أنه حاول تصحيح حديث موضوع ، لأنه يفيد البشارة بأبي حنيفة ، وهو حديث «لو كان العلم بالثريا لتناوله رجال من فارس» . فإن الحديث فى الصحيحين بلفظ «الايمان» والنبى ﷺ لما قاله وضع يده على كتف سلمان رضى الله عنه فغير بعض الوضاعين لفظ «الايمان» بالعلم ـ كما بينه شقيقنا الحافظ أبو الفيض في «المثنوني والبتار» وقال : لو فرض صحته لم يكن فيه إشارة إلى أبى حنيفة ولكن إلى حفاظ الحديث الذين

خرجوا من فارس مثل أبي الشيخ، وأبى نعيم، لأن العلم في عرف الشرع يراد به الكتاب والسنة لا الرأى والقياس.

فتعرض له الكوثرى فى «تأنيب الخطيب» ورد عليه بعبارة فيها جفاء فكتب شقيقنا ردا عليه، جمع فيه سقطاته العلمية، وتناقضاته التي منشأها تعصبه البغيض، وقسا عليه بعض القسوة. اهـ.

نقــــول:

وهــذا هو مَنْ وصفـه الشيـخ «أبـو غدة» بالمحقق المحـدث الامـام الحجة، يغمز في نسب الشافعى الامام القرشى، ويرمى ابن حجر بما ليس فيـه، بل بما يترفـع عنه أقل الناس علما، ويتهم الصحابي الجليل أنس بن مالك بالخرف ويحاول تصحيح حديث موضوع ليؤيد به ما يهواه.

وحيث أن كل ما ذكـر عن الكـوثـرى أمر ثابت قد سطره قلمه، فإن واجب المنتسبين للعلـم النصيحة للمسلمين ولاسيما الشباب منهم، حتى لا يقعـوا في الأخطـاء متـابعـة له، وأبو غدة واحد من المعاصرين فيجب عليه نصيحة لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم اعادة النظر في تلك الأوصاف التى سردهـا للشيـخ الكوثرى والاقتصار على ما يرى المسلم أنه ينفعه عند الله فيذكر ماله وما عليه، والله يقول: ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾.

لأن مَنْ وجد ذلك المدح من الشباب وهو لا يعلـم حقيقة الحال أخذ عن الكوثرى كل ما يقوله فى كتبه عن العقيدة وعن أئمة السلف من محدثين وفقهـاء ولاينجـو المـروج للبـاطـل من تبعة عمله يوم القيامة حين يقف بين يدي من يعلـم السر وأخفى.

مَوضُوع الكِتَاب

أما موضـــوع الكتـــــاب :ـ

فهـو مبـاحث توحيد الأسماء والصفات ، والرد على المعطلين النفاة ، اذ انهم بتعطيلهم لخالقهم وخـالق العـالم جميعـا يعبدون عدما ، اذ لا يوجد معبـودهم الـذي سلبوه جميع صفات الكمال بقصد التنزيه إلا في الأذهان ، وذلـك أن ربـا معبـودا لا يوجـد داخـل العالم ولا خارجه ، ولا متصلا ، ولا منفصلا ، ولا فوق ولا تحت ، ولا أمام ولا خلف ، ولا محايث ، هذا الوصف لا ينطبق على ذات موجـودة في خارج الأذهـان ممكنـة الـوجود ، فضلا عن وجود واجب الوجود .

ورب العـالـين وإلههم كما وصف نفسه في كتابه ، ووصفه رسوله ﷺ في سنتـه الصحيحـة فوق العـالم جميعـا كما قال تعـالى : ﴿**يخافون ربهم من فوقهم . إليـه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾ وعرج بمحمد ﷺ ليلة الاسـراء والمعـراج إلى السموات العلى وفتح له من سماء إلى سماء إلى السـماء السـابعـة ثم إلى حيث شاء الله ، وكلمـه ربـه ، وفـرض عليـه الصلوات الخمس خمسـين ثم خففت إلى أن جعلهـا الله خمسـا في العمـل وخمسين في الأجر كما في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة .

وقـد ردّ ابن القيم أيضـاً على المشبهـة الـذين يعبـدون صنـما حيث شبهـوا الله سبحـانـه وتعـالى بخلقه والله سبحانه ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميـع البصـير**﴾ ﴿**قـل هو الله أحـد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد**﴾ .

ثم بين بعد ذلك أن الموحدين يعبدون ربا ﴿**ليس كمثله شيء وهو**

السميع البصير﴾، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ الأعراف ١٨٠.

عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ويتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصل إليه وهى شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لاينفذ، وقرة العين التى لا تنقطع.

كما بين أن هذين الأصلين تابعان للأصل الأول ومبنيان عليه، فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمى سبحانه ما أنزل على رسوله روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه ونورا لتوقف الهداية عليه، ثم ذكر الآيات الدالة على ذلك.

قال: وقد نَزَّهَ الله نفسه عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون فقال: ﴿**سبحان الله عما يصفون • إلا عباد الله المخلصين**﴾.

قال غير واحد من السلف هم الرسل. وقال ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون • وسلام على المرسلين • والحمد لله رب العالمين﴾ الصافات ١٨٠-١٨٢، فنزه نفسه عما وصفه به الخلق وسلم على المرسلين لسلامه ما وصفوه به ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد.

قال: ومن ها هنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن ادريس الشافعى خطبة كتابه حيث قال: الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه. فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته تتلقى بالسمع لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة اثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل وأن الذي وصف به نفسه فهو الذي يوصف به لا ما وصفه به الخلق.

ثم بين حكم من لم يتقيد بما جاء عن الله وما أخبر به رسوله وتحرج منه وقال ان الحق في خلاف ظاهر هذه النصوص، وان الهدى فى اخراجها عن ظاهرها إلى وحشي اللغات ومستكرهات التأويل وأن حقائقه ضلال وتشبيه قال: ان قائل ذلك ليس بمؤمن حقا، لأن الله يقول في محكم كتابه ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ النساء ٦٥.

كما بين أيضا أن الله قد أكمل على الناس نعمته ببعثة محمد ﷺ وأنه أكمل له الدين ومُحالٌ مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق وأرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب ونصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة وهو باب الايمان بالله ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبساً مشتبهاً حقه بباطله لم يتكلم فيه بما هو الحق، بل تكلم بما ظاهره الباطل، والحق في اخراجه عن ظاهره.

ثم استمر في ايضاح هذه المسألة المهمة في حياة الانسان وما خلق لأجله، مع ضرب الأمثلة في ايضاح قضايا أقل بكثير من مسائل العقيدة مبينا للقارىء أنه كيف يتصور ترك هذا الجانب المهم في حياة البشرية مع أن الشارع قد بين للناس آداب الطعام، والشراب، والبول، قبله وبعده، وآداب الوطىء وغير ذلك. مع أنه ﷺ القائل «تركتم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» وهو القائل «ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم».

ثم قال: فكيف يتوهم مَنْ لِلَّه ولِرَسُوله ودينه في قلبه وقار، أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم، ولم يتكلم فيه بالصواب، بل تكلم بما ظاهره خلاف الصواب. بل لا يتم الايمان لمسلم إلا باعتقاد أن بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتم الوجوه، وأوضحه

غاية الايضاح ولم يدع بعده لِقَائِل مقالاً ولا لمتأول تأويلاً، ثم من المحال أن يكـون خير الأمـة وأفضلهـا وأعلمها وأسبقها إلى كل فضل وهدى ومعرفة قصـروا فى هذا البـاب فجفـوا عنه أو تجاوزا فغلوا فيه، وانما ابتلى من خرج عن منهاجهم بهذين الدائين . . . الخ .

ثم رد على ما اتهم به المتأخـرون أهـل القـرون الأولى من كونهم شغلوا بالجهاد والعبادة والزهد عن هذا الأمر المهم بأوضح رد وأبينه وان هذه الـدعـوى فريـة عظيمـة على أصحاب القرون المفضلة، ثم ذكر نقولا عن حَيْرة علماء الكلام عند وفاتهم وكيف ندموا على ذلك المنهج الذي سلكوه وتركوا ما جاء فى القرآن والسنة فى هذا الباب العظيم .

كما أشار بعد ذلك إلى أن هذا الكتاب جواب لسؤال حيث قال :

« فصـــــل »

فهـذه مقـدمـة بين يدى جواب السؤال المـذكور، وانما تتبين حقيقة الجواب بفصول، ثم سردها فقال :

الفصل الأول: فى معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحا .

الفصل الثاني : فى انقسام التأويل إلى صحيح وباطل .

الفصل الثالث: فى أن التأويل اخبار عن مراد المتكلم لا انشاء .

وهكذا استمر في ذكر أسماء الفصول من ورقة ٨/ا سطر ١١ من «ل» إلى ورقة ٩/ب سطر ٦ حيث سقط سرد أسماء الفصول من الفصل الثاني إلى نهايـة الفصـل الخـامس والعشرين من الأصل وهو آخرها وعنوانه «ذكر الطـواغيت الأربعـة التي هدم بها أصحـاب التأويـل البـاطل معاقل الدين وانتهكـوا بها حرمـة القـرآن ومحـوبها رسوم الايمان وهي قولهم : ان كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لا تفيد علما ولا يحصل منها يقين .

وقولهم : إن آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها .

وقـولهم : إذا تعـارض العقـل ونصـوص الـوحى أخـذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحى .

ثم ختم ذلك بقوله: والله المسؤول أن يرينا الحق حقا ويوفقنا لاتباعه.

ثم بدأ بعـد ذلـك في ذكـر فصـول الكتـاب تفصيـلا ذاكرا تحت كل فصـل المبـاحث المتصلة به ، فبـدأ بفصـل معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحا ، وذلك من ورقة ١٤ سطر ٣٢ من الأصل ، وفى «ل» من ورقة ٩/أ سطر ١١ .

فذكـر أولا تعـريف التأويل لغة ، ثم ذكر تفسيره بجميع معانيه التي وردت فى اللغـة العـربيـة ، ومعـانيـه الواردة فى كتاب الله ، وفى سنة رسوله ﷺ ، وتفسـير الصحـابة له مستشهدا بأقوالهم كقول عائشة رضى الله عنها كان رســول الله ﷺ يقـول فى ركـوعـه وسجـوده : سبحـانـك اللهم ربنـا وبحمدك ، يتأول القرآن ، ثم قال فى ورقة ٥/أ من الأصل و٩/ب من «ل» وأمـا التأويـل فى اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث ، فمرادهم به معنى التفسير والبيان وفيه قول ابن جرير وغيره القول فى تأويل قولـه تعـالى : «كـذا وكذا» يريد تفسيره ، ثم مثل بقول الإمام أحمد فى الرد على الجهمية ، وغيره .

ثم قـال: وأمـا المعتـزلـة والجهميـة وغـيرهم من فرق المتكلمـين فمـرادهم بالتأويـل صرف اللفـظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهـره ، وهـو الشـائـع فى عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه . ولهذا يقولون : التأويل على خلاف الأصل ، والتأويل يحتاج إلى دليل .

قـال: وهذا التأويل هو الذى صُنِّفَ فى تسويغه وابطاله من الجانبين .

فصنف جماعة فى تأويل آيات الصفات وأخبارها، كأبى بكر بن فورك، وابن **مهدى** الطبرى وغيرهما.

وعارضهم آخرون، فصنفوا فى ابطال ذلك التأويل، كالقاضى أبى يعلى والشيخ موفق الدين بن قدامة، وهو الذى حكى عن غير واحد اجماع السلف على عدم القول به، كما سيأتى حكاية ألفاظهم إن شاء الله.

ثم انتقل إلى الفصل الثانى، وهو انقسام التأويل إلى **صحيح وباطل**، من آخر ورقة **٥**/ سطر **٢٥** من الأصل وأول ورقة **١٠/٢** سطر**٥** من «ل».

فذكر أن التأويل الصحيح ينقسم إلى قسمين:

الأول: حقيقة المعنى وما يؤول إليه فى الخارج.

والثانى: تفسيره وبيان معناه، وبين أن هذا يعم المحكم والمتشابه والأمر والخبر ثم ذكر الأمثلة على ذلك، كما بين أنه لم يرد فى هذا عن أحد من السلف ما يقصد به صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه.

ثم انتقل لذكر أنواع التأويل الباطل من ورقة ٦/ سطر**٢٤** من الأصل وفى «ل» من ورقة **١١**/أ سطر **٩** فقال: **أحدهما** ما لم يحتمله اللفظ بوضعه، كتأويل قوله ﷺ: «حتى يضع رب العزة عليها رجله» بأن الرجل جماعة من الناس، فان هذا لا يعرف فى شىء من لغة العرب البتة.

وهكذا استمر في ذكر هذه الأنواع الباطلة وبيان بطلانها مبينا أوجه الرد عليها حيث ختمها بالوجه العاشر وهو: تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه فان هذا لا يقصده المبين الهادى بكلامه. وفى ورقة ٨ سطر **٢٨** من الأصل وورقة **١٣**/ب سطر **١٣** من «ل» بدأ في الفصل الثالث وهو: أن التأويل اخبار عن مراد المتكلم لا انشاء.

قـال : وهذا الموضوع مما يغلط فيه كثير من الناس غلطا قبيحا ، فان المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه ، فاذا قيل :

معنى اللفظ كذا وكذا ، كان اخبارا بالذى عناه المتكلم ، فإن لم يكن هذا الخبر مطابقا كان كذبا على المتكلم ، ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة منها أن يصرح بإرادة ذلك المعنى . ومنها أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع ، ولا تبين قرينة تصحب الكلام انه لم يرد ذلك المعنى ، فكيف اذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له كقوله تعالى ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾ وقوله ﷺ (انكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب) ثم سرد أمثلة على هذا الفصل مبينا وجه الرد على المتأولين .

ثم بين أن الخطاب **نوعان** :

نوع يقصد به التعمية على السامع .

ونوع يقصد به البيان والهداية والارشاد .

فاطلاق اللفظ وإرادة خلاف حقيقته وظاهره من غير قرائن تختص به تبين المعنى المراد محله النوع الأول لا الثانى .

أما الفصل الرابع : وهوفى الفرق بين تأويل الخبر وتأويل الطلب فقد بدأ من ورقة **٩**/ سطر٨ من الأصل ، وورقة **١٤**/ب سطر**٢** من «ل» .

بيّن فى هذا الفصل أن الكلام نوعان : خبر وطلب ، والمقصود من الخبر تصديقه ، ومن الطلب امتثاله ، ثم ضرب الأمثلة لذلك ، وبين أن الخلاف بين العلماء في هذه النصوص فى زمن الصحابة والتابعين كله فى الأمور العملية مثل أحكام العدة والكلالة والميتة وغير ذلك من الأحكام ، قال : ولم يتنازعوا فى تأويل آيات الصفات وأخبارها فى موضع واحد ، بل اتفقت كلمة الصحابة والتابعين بعدهم على اقرارها وامرارها مع فهم معانيها واثبات حقائقها ، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانا ، وأن

العناية ببيانها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين واثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله ورسوله بيانا شافيا لا يقع فيه لبس ولا اشكال يوقع الراسخين في العلم فى منازعة ولا اشتباه، ثم استمر في ذكر الأمثلة لهذا الفصل التى تجعل القارىء يخرج بحصيلة علمية لا فى موضوع الكتاب فحسب بل فى موضوعات أخرى، كما تعرض للمحكم والمتشابه وضرب له الأمثلة وبين أنه لم يعرف عن أحد من الصحابة قط انه قال: ان المتشابه آيات الصفات، بل المنقول عنهم يدل على خلاف ذلك. اذ كيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم وهم لا يتنازعون فى شىء منها، وآيات الأحكام هى المحكمة وقد وقع بينهم النزاع في بعضها. قال: وإنما هذا قول بعض المتأخرين، وسيأتى اشباع الكلام على هذا فى الفصل المعقود له إن شاء الله.

والفصل الخامس: وهو فى الفرق بين تأويل التحريف وتأويل التفسير، يبدأ من ورقة ١٠ سطر ٢٦ من الأصل وورقة ١٦/٢ سطر ٣ من «ل».

قال: والأول وهو تأويل التحريف، يمتنع وقوعه في الخبر والطلب.

والثاني: يقع فيهما، ثم بين معنى التفسير، وانه ابانة المعنى وايضاحه قال تعالى ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾.

ومعنى التحريف هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره، وهو نوعان تحريف لفظه، وتحريف معناه. قال والنوعان مأخوذان فى الأصل عن اليهود فهم الراسخون فيها وهم شيوخ المحرفين وسلفهم، فانهم حرفوا كثيرا من ألفاظ التوراة وما عجزوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه، ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم، قال: ودرج على آثارهم في ذلك الرافضة، فهم أشبه بهم من القذة بالقذة، والجهمية سلكوا

فى تحريف النصوص الواردة مسالك اليهود، ولما لم يتمكنوا من تحريف نصوص القرآن حرفوا معانيه، وفتحوا باب التأويل لكل ملحد يكيد لدين الله ثم استمر في هذا الفصل مشبها لهؤلاء المتأولين برجلين أؤ تمنا على مال، فتأول أحدهما وأكل ديناراً، ثم تأول الآخر وأكل عشرة دنانير، فاذا أنكر عليه صاحبه، قال: ان حل أكل الدينار بالتأويل حل أكل العشرة به، إلى أن قال والمقصود أن التأويل يتجاذبه أصلان التفسير، والتحريف، فتأويل التفسير هو الحق، وتأويل التحريف هو الباطل، لأنه من جنس الالحاد وهكذا استمر في توضيح هذا الفصل بالأمثلة التى تبين هذه المعانى.

إلى الفصل السادس وهو فى تعجيز المتأولين عن حقيقة الفرق بين ما يسوغ تأويله من آيات الصفات وأحاديثها وما لا يسوغ فى ورقة **١١** سطر **٢١** من الأصل وورقة **٢/١٧** سطر**٣** من «ل»، بدأ هذا الفصل بقوله: لا ريب أن الله سبحانه وصف نفسه بصفات وسمى نفسه بأسماء، وأخبر عن نفسه بأفعال، فسمى نفسه بالرحمن الرحيم الملك القدوس... الخ ووصف نفسه بما ذكره من الصفات كسورة الاخلاص، وأول الحديد، وأول طه وغير ذلك، ووصف نفسه بأنه يحب ويكره ويمقت ويرضى ويغضب... الخ.

وبعد أن أورد عددا من هذه الأسماء والصفات والأفعال قال: فيقال للمتأول هل يتأول هذا كله على خلاف ظاهره ويمنع حمله على حقيقته؟ أو تقر الجميع على ظاهره وحقيقته؟. أو تفرق بين بعض ذلك وبعضه؟.

فإن تأولت الجميع وحملته على خلاف حقيقته كان ذلك عنادا ظاهرا وكفرا صراحا وجحدا لربوبيته، وحينئذ لا يستقر لك قدم على اثبات ذات الرب تعالى ولا صفة من صفاته ولا فعلا من أفعاله، فان أعطيت هذا من نفسك ولم تستهجنه التحقت باخوانك الدهرية الملاحدة الذين لا يثبتون

للعـالم خالقـا ولا ربـا، وهكذا استمر فى نقاش من يؤول جميع الصفات أو بعضهـا دون بعض ملزمـا لهم بالحجج المنطقية التى لا مفر لهم منها إلى أن قال: ولمـا تفطن بعضهـم لتعـذر الفرق قال: ما دل عليه الاجماع كالصفات السبع لا يتأول، وما لم يدل عليه اجماع فانه يتأول. قال: وهذا كما تراه من أفسد الفروق، ثم بين وجه فساده، إلى أن قال وحقيقة الأمر أن كل طائفة تتأول ما يخالف نحلتهـا ومـذهبهـا، فالمعيـار على ما يتأول وما لا يتأول هو المذهب الذي ذهبت إليه والقواعد التي أصلتها فما وافقها أقروه ولم يتأولوه، وما خالفها فان أمكنهم دفعه وإلا تأولوه ثم ضرب الأمثلة على ذلك فقال: ولهـذا لما أصلت **الـرافضـة** عداوة الصحـابـة ردوا كل ما جاء فى فضـائلهم والثناء عليهم.

ولمـا **أصـلت الجـهميـة** أن الله لا يتكلم ولا يكلم أحـدا ولا يرى بالأبصـار ولا هو فوق عرشـه مبـاين لخلقـه، أولوا كلما خالف ما أصلوه، وهكـذا استمـر في ذكـر هذه الفـرق المنحرفة وأصولهم التى أصلوها، وعن طريق تلك الأصول حرفوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وفى ورقة **١٤** سطر**٧** من الأصل وورقة **٢٠ / ٢** سطر**٢** من «ل» أورد **الفصـل السـابـع** وهوفى الزامهم فى المعنى الذي جعلوه تأويلا نظير ما فروا منـه، قال: هذا فصـل بديـع لمن تأمله يعلم به أن المتأولـين لم يستفيـدوا بتأويلهم إلا تعطيل حقائق النصوص والتلاعب بها وانتهاك حرمتها وانهم لم يتخلصوا مما ظنوه محذورا، بل هو لازم لهم فيما فروا إليه كلزومه فيما فروا عنه بل قد يقعـون فيـما هو أعظم محذورا. ثم ضرب الأمثلة لذلـك وهـو فصـل جدير بالدراسة للاطلاع على ما وصل إليه هؤلاء لمّا سلكوا هذا المنهج.

وفي آخـر ورقـة **١٤** من الأصل سطر**٣٤** وآخر ورقة **٢٠** /ب من «ل» ذكـر **الفصـل الثامن** وهوفى: بيان خطئهم فى فهمهم من النصوص المعانى البـاطلة التى تأولـوهـا لأجلهـا فجمعوا بين التشبيه والتعطيل، وقد استهل هذا الفصـل بقـولـه هذا الفصـل من عجيب أمـر المتأولين فإنهم فهموا من

النصوص الباطل الذي لا يجوز ارادته، ثم أخرجوها عن معناها الحق المراد منها فأساءوا الظن بها وبالمتكلم بها وعطلوها عن حقائقها التي هي عين كمال الموصوف بها، ثم أورد مثالا ذكره بعض الجهمية أوضح فيه أنه لو أخذ بظاهر القرآن لوجد هناك تناقض حيث ورد في القرآن ذكر الوجه، وذكر الأعين، والعين الواحدة، وذكر الجنب الواحد، والساق الواحد، وذكر الأيدى، وذكر اليدين، وذكر اليد الواحدة، قال هذا الجهمي: فلو أخذنا بالظاهر لزمنا اثبات شخص له وجه وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة.. الخ.

تعالى الله عن قول هؤلاء الظالمين علوا كبيرا. والله يقول: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾.

ولو رجعت لهذا الفصل لوجدت فيه الرد الواضح المفحم لهذا الجهمي وأمثاله وبيان ما يظنه هذا الجاهل وأمثاله متعارضا، كما بين في هذا الفصل أن هؤلاء جمعوا بين التشبيه والتعطيل.

وفي ورقة **٢١** سطر٦ وورقة **٢٨** / أ من «ل». ذكر **الفصل التاسع** الذي عقده للوظائف الواجبة على المتأول الذى لا يقبل منه تأويل إلا بها، واستهله بقوله: لما كان الأصل في الكلام هو الحقيقة والظاهر، كان العدول به عن حقيقته وظاهره مخرجا له عن الأصل، ثم ذكر أن مدعى ذلك يحتاج إلى دليل يسوغ له اخراجه عن أصله، وأورد أربعة أمور لا يتم له دعواه إلا بها موضحا أن هذه الأمور الأربعة لايمكن أن تتم للمتأول وبذلك يتضح بطلان تأويله واستمر في ايضاح ذلك حتى سطر٨ من «ل»، **٢٥** من الأصل، أما «ل» فقد اتفق مع الأصل في بداية الكلام عن هذا **الفصل** حتى نهاية ص٢ من ل **٢٨** ثم سقط بقية الكلام في هذا الفصل من «ل» حتى قبل نهاية الفصل الحادي عشر بأسطر.

أما **الفصل العاشر** فقد أورده المؤلف لبيان أن التأويل شر من التعطيل وكان ذلك من ورقة **٢٣** سطر٣٠ حتى ورقة **٢٥** سطر٨ من الأصل وقد ابتدأ هذا الفصل بقوله: فانه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب

بالنصـوص واسـاءة الظن بها فإن المعطل والمتأول قد اشتركا في نفي حقائق الأسـماء والصفـات، وامتـاز المؤول بتـلاعبه بالنصوص وانتهاكه لحرمتها، واسـاءة الظن بها، ونسبـة قائلهـا إلى المتكلم بما ظاهره الضلال والاضلال فجمعـوا أربعـة محاذيـر ثم شرع في ايضاح هذه المحاذير الأربعة التي تؤدي إلى الوقوع فى مزالق خطيرة وضلال بعيد.

أمـا **الفصـل الحـادي عشر** فهو في الورقة **٢٥** سطر٨ حتى نهاية ورقة **٢٦** من الأصـل حيث التقت النسخـة «ل» مع الأصـل في بضعة أسطر من نهايـة هذا الفصـل بعد أن سقط منها الفصل العاشر إلا ما أشرنا إليه آنفا، وقد عقد هذا الفصل لبيان أن قصد المتكلم من المخاطب حمل كلامه على خلاف ظاهره وحقيقته ينافى قصد البيان والارشاد، وأن القصدين يتنافيان.

وابتـدأ هذا **الفصـل** بقـوله: لما كان المقصود بالخطاب دلالة السامع وافهامه مراد المتكلم بكلامه، وتبيينه له ما فى نفسه من المعانى ودلالته عليها بأقـرب الطـرق كان ذلك موقوفا على أمرين، بيان المتكلم، وتمكن السامع من الفهم. ثم شرع ـ رحمه الله ـ فى ايضاح هذين الأمرين مبينا أنه لو أراد الله ورسوله من كلامه خلاف ظاهره وحقيقته الذي يفهمه المخاطب، لكان قد كلفه أن يفهم مراده بما لايدل عليه، بل بما يدل على نقيض مراده وأورد نصـا عن شيـخ الإسـلام ابن تيميـة يتضمن بيان أنه يلزم من هذا القول ـ الذى هو قول النفاة ـ لوازم باطله، ومن يطالع هذا الفصل يتبين له بطلان ما عليه النفاة من تصورات باطلة، وآراء مخالفة لمنهج الإسلام وعقيدته.

أمـا **الفصـل الثـاني عشر**: فقد عقده لبيان أنه مع كمال علم المتكلم وفصاحته وبيانه ونصحه يمتنع عليه أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته

وعـدم البيـان في أهم الأمور وما تشتد الحاجة إلى بيانه، ويبدأ هذا الفصل من نهايـة الـورقـة ٢٦ من الأصل إلى سطر ١٤ من الورقة ٢٨، ومن سطر ١٢ الـورقـة ٢٨/ب من «ل» إلى النورقة ٣٠/ب سطر٢، واكتفى فى هذا الفصل بذكر مناظرة جرت بين جهمى معطل وسنى مثبت ذكرها له شيخه الامام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى موضوع الباب، كانت نهايته عجز الجهمي عن الاستمرار فيها وطلب العدول بالكلام إلى غيرها بعد أن أفحمه السني وألزمه الحجة وبين عوار آرائه وسفاهة مذهبه.

أمـا **الفصـل الثـالث عشر** فهوفى: بيان أن تيسير القرآن للذكر ينافي حمله على التأويـل المخـالف لحقيقتـه وظاهره، وهويبدأ من الورقة ٢٨ من الأصـل سطـر١٤ وفى «ل» من ورقـة ٣٠/ب سطـر٢، وقـد أوضح في هذا الفصل أن تيسير القرآن للذكر يتضمن أنواعا من التيسير منها:

تيسير ألفاظه للحفظ، وتيسير معانيه للفهم، وتيسير أوامره ونواهيه للامتثال ثم بين على أنه لوكان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرا له بل كان معسرا عليه. وهكذا اذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليـه من المعـانى أويدل على خلافـه، فهذا من أشد التعسير وهو مناف للتيسير، فانه لا شىء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونـه سبحـانـه وتعالى لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا يرى بالأبصار عيانا... الخ.

وقـد استمـر فى توضيح ذلك بأمثلة ترد على هؤلاء آراءهم الفاسدة وتبين الحق الذي ينبغى اعتقاده بالأدلة من الكتاب والسنة.

ثم بدأ فى **الفصـل الـرابـع عشر** وهوفى: بيان أن التأويل يعود على المقصـود من وضـع اللغـات بالابطـال، وهـذا الفصـل يبـدأ من ورقة ٣٠ سطـر١٣ من الأصـل وفى «ل» من ورقـة ٣٢/ب سطـر٩، وبـين في هذا الفصل أن الله سبحانه علم الانسان البيان وذلك من كمال علمه وحكمته،

كما بين أن نوع الانسان يحتاج بعضه إلى بعض اذ لا يمكن لانسان أن يعيش وحده، وذلك يدعوا إلى التفاهم فيما بينهم فلو سلك في ذلك مسلك التأويل لأفسد على الناس مصالحهم وعاد على وضع هذه اللغات بالابطال.

كما بين هذا وفصَّله بما جاء في الفصل التالى له وهو: «في جنايات التأويل على أديان الرسل وأن خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأويل» ويبدأ من ورقة **٣١** سطر**٤** من الأصل وورقة **٣٣/ب** سطر**٢** من «ل» وهو فصل جدير بالقراءة إذ أوضح فيه بالأمثلة الواقعة المحسوسة ان فساد جميع الأديان قبل الإسلام كاليهودية والمسيحية لم يفسدها ويخرجها عن أصولها الحقة التى أنزلها الله بها على موسى وعيسى عليهما السلام إلا من باب التأويل والتحريف لنصوص التوراة والانجيل، ذاكراً لذلك الأمثلة مما عمله اليهود والنصارى فى دينهم ثم خلص إلى ما حدث من فرقة وشقاق، بل ومن استحلال دماء وأموال وتكفير بعض لبعض في الدين الاسلامى بين المسلمين بعضهم لبعض وأن ذلك ما حصل إلا من باب التأويل الفاسد والتحريف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد ذكر فرق المؤولة بل المحرفة كالقرامطة والباطنية، والجهمية، والمعتزلة والرافضة، كما بين أن من آفات التأويل انه إذا سلط على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها من أساسها إذ عمد أرباب التأويل إلى تلك الأصول فهدموها كما فعل الباطنية والقرامطة، كما ذكر أمثلة من جنايات التأويل وقعت على الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ.

أما **الفصل السادس عشر** فقد عقده لبيان ما يقبل التأويل من الكلام وما لا يقبله وقد بدأ من ورقة **٣٦** سطر **٣٠** من الأصل وورقة **٣٩/ب** سطر١٨ من «ل» بين فيه انه لما كان وضع الكلام للدلالة على مراد المتكلم وكان مراده لا يعلم إلا بكلامه انقسم كلامه إلى ثلاثة أقسام، ثم

ذكرها وذكر الأمثلة عليها وهو مبحث عظيم جدا قد لا تجد مثله فى بابه .

والفصل السابع عشر عقده لبيان أن التأويل يفسد العلوم كلها ان سلط عليها، وترفع الثقة بالكلام ان سلط عليه، ولا يمكن أمة من الأمم أن تعيش عليه، ويبدأ من ورقة **٣٩** سطر **١٠** من الأصل وورقة **٤٢** /ب من «ل» قال : معلوم أن العلوم إنما قصد بها مصنفوها بيانها وايضاحها للمتعلمين وتفهيمهم اياها بأقرب ما يقدرون عليه من الطرق . فان سلط التأويل على ألفاظهم وحملها على غير ظاهرها لم ينتفع بها وفسدت وعاد ذلك على موضعها ومقصودها بالابطال، ثم ضرب الأمثلة على ذلك كحمل كلام الأطباء على غير غرضهم، وهكذا أصحاب علم الحساب والنحو . . . الخ وهو كلام بديع جدا يخاطب العقل السليم الباقى على فطرته .

أما الفصل الثامن عشر: فهوفى بيان أنه ان سلط التأويل على آيات التوحيد القولى العلمى وأخباره، لزم تسليطه على آيات التوحيد العملى وأخباره، وفسد التوحيد معرفة وقصدا .

وقد أشار إلى أن هذا الفصل العظيم النفع الجليل القدر انما ينتفع به من عرف نوعى التوحيد القولى العلمى الخبرى، والتوحيد القصدى الارادى العملى، كما دل على الأول سورة الاخلاص، وعلى الثاني سورة (قل يا أيها الكافرون) كما بين في هذا الفصل ان مدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين النوعين من التوحيد، وأن أقرب الخلق إلى الله أقومهم بهما علما وعملا، ولهذا كان الرسل أقرب الخلق إلى الله .

كما بين أن على هذين الأصلين قطب رحى القرآن وعليهما مداره وبيانهما من أهم الأمور، والله سبحانه بينهما غاية البيان بالطرق الفطرية والعقلية والنظرية والأمثال المضروبة .

أما **الفصل التاسع عشر** فقد عقده لبيان انقسام الناس فى نصوص

الـوحي إلى أصحـاب تأويـل، وأصحـاب تخييـل، وأصحـاب تجهيـل، وأصحاب تمثيل، وأصحاب سواء السبيل، ثم بين أن الناس انقسموا إلى هذه الأصناف الخمسة في هذا الباب حسب اعتقادهم في نصوص الوحى، ما أريد بها؟ ثم بين منهج كل صنف فى نصوص الوحى واضطرابهم فيها، وبيان الحق الذى هدى إليه أصحاب سواء السبيل.

والفصـل العشـرون عقده لبيان الأسباب التى تسهل على النفوس الجاهلة قبول التأويل مع مخالفته للبيان الذى علمه الله الانسان وفطره على قبوله ـ ويبدأ من ورقة **٤٥** سطر**٢٢** عن الأصل وورقة **٤٩ /٢** سطر**٢٠** من «ل» بين فى هذا الفصـل أن التأويـل يجرى مجرى مخالفـة الطبيعة الانسانية والفطـرة التى فطـر عليهـا العبـد لأنـه رد الفهم عن جريانه مع الأمر المعتاد المألوف، إلى الأمر الذى لم يعهد ولم يؤلف، وأن ما كان كذلك فان الطباع السليمــة لا تقبله بل تنفـر منـه، ثم ضرب أمثلة للأسبـاب التى يسلكهـا هؤلاء المؤولـة لقبـول تأويـلاتهم وذلـك بتسميتهم لتأويلاتهم بأسماء جميلة وتلقيهم لأهـل السنـة بأسـماء قبيحـة للتنفير منهم، وهوبحث قيم يستحق العنـايـة والتأمل ففيه فوائد جمة ومعلومات قيّمة عن أهل السنة ومخالفيهم، تحكى الواقع الآن بين طلاب العلم في الوقت الحاضر.

والفصـل الحـادى والعشرون والذي يبدأ من ورقة **٤٨** سطر**٢٣** من الأصـل وورقـة **٥٢ /ا** سطـر**١** من «ل» فقـد عقـده لبيـان أن أهـل التأويل لا يمكنهم اقـامـة الـدليل السمعي على مبطل أبدا، وقد بين أن ذلك من أعظم آفـات التأويـل وجنـايتـه على الاسـلام لأنـه يبطل حجج الله على المبطلين على السنـة المتأولـين، وإلا فلا تبطـل حجج الله وبيناته أبدا، ثم ضرب أمثلة لذلـك نذكـر منهـا قوله: وذلك يعلم بالعقل الذي لا يدفع أنّ كل مبطـل أنكـر على خصمه شيئا من الباطل قد شاركه في بعضه أو نظيره فإنه لا يتمكن من دحض حجته وكسر باطله لأن خصمه يسلط عليه بمثل ما تسلط به هو عليـه، وهـذا شأن أهـل الأهواء مع بعضهم بعضا وغاية ما

عنـدهم كسـر بعضهم على بعض فقـط، وهكـذا استمـر في توضيـح هذا الفصـل إلى أن بين أن الأعجب من ذلـك هو أنـه لا يمكن لمبطل أن يقيم على **مبطل حجة عقلية أيضا**.

والفصـل الثـاني والعشـرون عقده لبيان الأسباب الجالبة للتأويل، وهـو يبـدأ من ورقـة **٥٦** سطر**٢٧** من الأصل وورقة **٢/٦٢** سطر**١** من «ل» وقد ذكر أن الأسباب أربعة: اثنان من المتكلم واثنان من السامع.

فالسببان اللذان من المتكلم: اما نقصان بيانه، واما سوء قصده.

واللذان من السامع: أما سوء فهمه وأما سوء قصده.

قال: فاذا انتفت هذه الأمـور الأربعـة انتفى التأويـل البـاطـل واذا وجدت أو بعضها وقع التأويل، ثم بدأ في توضيح ذلك بالأمثلة من القرآن والسنة وواقع الأمة.

وأما الفصل الثالث والعشرون الذي يبدأ من ورقة **٥٨** سطر**٢٥** من الأصـل وورقـة **٦٣**/ب سطر**١٥** من «ل» فقد عقده لبيان أنواع الاختلاف النـاشىء عن التأويـل وانقسـام الاختـلاف إلى محمود ومذموم، ثم بين أن الاختلاف في كتاب الله على نوعين.

أحدهمـا: أن يكون المختلفون كلهم مذمومين وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله ﴿**ولا تكونوا كالـذين تفـرقـوا واختلفوا**﴾ وهم الذين تسود وجوههم يوم القيامة قال الله تعـالى فيهم ﴿**ذلـك بأن الله نزل الكتـاب بالحق وان الـذين اختلفـوا فى الكتـاب لفى شقـاق بعيـد**﴾ فجعـل المختلفـين كلهم في شقاق بعيد وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي وهو الذى يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحزب والتباين.

والنـوع الثـانى: اختـلاف ينقسم أهله إلى محمـود ومـذموم، فمن أصـاب الحق فهـو محمـود، ومن أخطأه مع اجتهـاده فى الوصول إليه فاسم

الذم موضوع عنه ، وهو محمود على اجتهاده معفو عن خطئه . وان أخطأ مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم .

ثم بين أن الاختلاف المذموم كثيرا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقوله خصمه بل يجحده اياه بغيا ومنافسة فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التى مع خصمه ، وهذا شأن جميع المختلفين ، ثم ذكر سلوك أهل الحق مع من خالفهم فبين أنهم يأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ .

كما بين ما كان عليه السلف الصالح فى نوع هذا الاختلاف من اجتهاد فى تلك المسائل المباح الاجتهاد فيها وما يقدمه كل واحد منهم ، وبين أن هذا من باب التعاون والتناصر الذى لا يستغنى عنه الناس فى أمور دينهم ودنياهم . . . إلى أن قال : وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقا فى الكلمة ولا تبديدا للشمل ، ثم ضرب الأمثلة بالصحابة رضوان الله عليهم وانهم اختلفوا فى كثير من مسائل الفروع قال : فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة ولا قطع بينه وبينه عصمة بل كان كل واحد منهم يجتهد فى نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه ، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والمولاة من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغنا ، بل يشهد كل واحد لأخيه انه خير منه ، كما بين أن وقوع الاختلاف بين الناس أمر ضرورى لابد منه ، ولكن المذموم بغى بعضهم على بعض ، وهو فصل مهم جدا يحسن بطالب العلم قراءته .

أما الفصل الرابع والعشرون فقد عقده المؤلف لبيان أسباب الخلاف الواقع بين الأئمة بعد اتفاقهم على أصل واحد وتحاكمهم إليه وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وقد أورد في هذا ما نقله الحميدي عن شيخه ابن حزم فى بيان سبب الخلاف وهو فصل موجود فى أصول الأحكام أشرنا إلى صفحاته فى موضعه فى الكتاب، كما نقل أيضا عن شيخ الإسلام ابن تيمية ما كتبه في هذا الباب وهو يوجد في رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

أما الفصل الخامس والعشرون وهو آخرها وقد بدأ من ورقة ۷۷/ا سطر١٣ من «ل» وفى الأصل من ورقة ۷۲ سطر /٢ حيث يوجد سقط فى الأصل فقد عقده المؤلف لبيان الطواغيث الأربعة التى هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين وانتهكوا بها حرمة القرآن ومحوبها رسوم الايمان وهى قولهم:

١ ــ ان كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد علما ولا يحصل بها يقين.

٢ ــ وقولهم: ان آيات الصفات وأحاديثها مجازات لا حقيقة لها.

٣ ــ ان أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة لا تفيد علما وغايتها أنها تفيد الظن.

٤ ــ وقولهم: اذا تعارض العقل ونصوص الوحى أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحى.

وقد بدأ في تفصيل قولهم «ان كلام الله ورسوله أدلة لفظية من ورقة ١/٧٧ من «ل» حيث سقط عنوان الفصل ثم هذا القسم وهو ان كلام الله ورسوله أدلة لفظية من الأصل، وقد استغرق السقط ثلاثا وعشرين ورقة، اذ الموجود في الأصل يبدأ من الوجه الأربعون وهو قوله: ان الأدلة القاطعة قد قامت على صدق الرسول... الخ وهو فى الورقة ۷۲ سطر/١ من الأصل - وقد كتب الناسخ في الحاشية هذه العبارة «هكذا وجد فى الأصل».

أمـا الأوجـه التى وجـدت فى «ل» فتبـدأ من الوجه الأول إلى الوجه الثامن والثلاثين تبدأ فى ورقة ٧٧ إلى ورقة ١٠٠ من «ل» وهى تمام الأوراق التى تحصلنـا عليهـا من المكتبة الألمانية وقد سدت هذا السقط، وقد وجدنا كما أشـرنـا فى الأصل ورقة ٧٢ الوجه الأربعون فكان الساقط الوجه التاسع والثلاثين أى وجه واحد فقط.

وهكـذا استمـر فى ذكـر الأوجه التى رد بها على قولهم، ان كلام الله ورسـولـه أدلـة لفظيـة لا تفيـد علما ولا يحصـل بها يقـين إلى الوجه الثالث والسبعين ونصه: أن أدلة القرآن والسنة التى يسميها هؤلاء الأدلة اللفظية نوعان:

أحدهما يدل بمجرد الخبر.

والثـانى يدل بطـريق التنبيه والارشاد على الدليل العقلى، والقرآن مملوء من ذكـر الأدلـة العقليـة التى هى آيات الله الدالة عليه وعلى ربوبيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ورحمته فآياته العيانية المشهودة فى خلقه تدل على صدق النـوع الأول وهـو مجرد الخـبر، فلم يتجرد اخباره سبحانه عن آيات تدل على صدقهـا، بل قد بين لعبـاده فى كتـابـه من الـبراهين الدالة على صدقـه وصـدق رسـولـه ما فيـه شفاء وهدى وكفاية. . . إلى قوله: بل فيه الأدلـة المتعـددة الـدالـة على التـوحيـد واثبـات الصفات والنبوات والمعاد وأصـول الايـمان فلا تجد كتابا قد تضمن من البراهين والأدلة العقلية على هذه المطـالـب ما تضمنـه القـرآن فأدلته لفظية عقلية فان لم يفد اليقين فبأيّ حديث بعد الله وآياته يوقنون.

ثم قال: فان قيـل: فقـد دل القـرآن على أن فيـه محكـما ومتشابها، ومعلوم أن المتشـابـه هو الـذي يشبـه به غيره وهو آيات الصفات فلو أفادت

اليقين لم تكن متشابهة قيل: هذا السؤال مبنى على ثلاث مقدمات:

احداها : أن القرآن متضمن للمتشابه.

الثانية : ان المتشابه هو آيات الصفات.

الثالثة : ان المتشابه لا يمكن حصول العلم واليقين بمعناه.

قال : وسنفرد الكلام على هذا بفصل مستقل بعد كسر **الطواغيت الأربعة** التى نصبوها لهدم معاقل الدين ونبين معنى المحكم، ونبين أن آيات الصفات محكمة فإنها من أبين الكتاب احكاما وأن ما تضمنته من الأحكام أعظم مما تضمنه ما عداها بعون الله وتوفيقه. ولكن مع الأسف لم يشْمل المخطوط الموجود بين أيدينا هذا الفصل الذى وعد به، ولعل الله يسهل الحصول عليه.

وفى ورقة **٨٥** سطر**٢** من الأصل حيث انتهت أوراق المخطوطة «ل» بنهاية الطاغوت الأول بدء بذكر الطاغوت الثانى وهو قولهم:

إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل لأنه لا يمكن الجمع بينهما ولا ابطالهما، ولا تقديم النقل لأن العقل أصل النقل فلوقدمنا عليه النقل لبطل العقل وهو أصل النقل فلزم بطلان النقل، فيلزم من تقديم النقل بطلان العقل والنقل، فتعين القسم الرابع وهو تقديم العقل.

قال: فهذا الطاغوت أخو ذلك القانون، فهو مبنى على ثلاث مقدمات:

الأولى: ثبوت التعارض بين العقل والنقل.

الثانية : انحصار التقسيم فى الأقسام الأربعة التي ذكرت فيه.

الثالثة : بطلان الأقسام الثلاثة ليتعين ثبوت الرابع.

قال: وقد أشفى شيخ الإسلام في هذا الباب بما لا مزيد عليه فى كتابه الكبير ـ نقول ـ: يعنى به كتاب: درء تعارض العقل والنقل ـ ثم

قال : ونحن نشـير إلى كلمات يسـيرة هى قطـرة من بحـره تتضمن كسـره ودحضه وذلك يظهر من وجوه .

ثم بدأ فى تعـداد هذه الـوجـوه التى ترد على هذا الطـاغـوت الذى نصب لرد نصوص الكتاب والسنة ، وقد بلغت مائتين وواحداً وأربعين وجها .

وكان نص الوجه الحادى والأربعين بعد المائتين وهو آخرها ويبدأ من ورقة ٢٤٢ هكذا :

إن الله سبحانه أنزل على عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه فى أفضـل الأيـام وأفضـل الشهور وأفضل الأماكن ومعه أفضل الخلق ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسـلام دينـا**﴾ وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من حديث طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين آية تقرؤونها فى كتابكم . . . الحديث .

وبعد أن أكمل قصة هذا الحديث .

ذكر القصة التى أوردها الشهرستانى فى الملل والنحل حيث قال :

اعلم أن أول شبهة وقعت فى الخلق شبهة ابليس ومصدرها استبداده بالرأى فى مقابلة النص واختياره الهوى ، ثم أورد القصة ـ ثم ذكر وجه الرد عليهـا عنـد أهـل السنـة الآخذين بنصوص الكتاب والسنة ، كما بين أن رد المتكلمين على تلك الشبهة غير مستقيم ولذلك التزموا لوازم فاسدة ، وبهذا انتهى نص المخطوط الموجود بين أيدينا فى آخر ورقة ٢٧٢ فى الأصل .

وقـد ورد هذا الكـلام فى المختصـر المطبوع ١ / ٢٩٢ وذلك بعد ذكر الـوجـه الثـانى والخمسين من المختصر ونصه : ان هذه المعارضة بين العقل والنقـل وهى أصـل كل فسـاد فى العـالم وهى ضد دعوة الرسل من كل وجه

فانهم دعوا إلى تقديم الوحى على الآراء والعقول وصار خصومهم إلى ضد ذلك فأتباع الرسل قدموا الوحى على الرأى والعقل، واتباع ابليس أو نائب من نوابه قدموا العقل على النقل ـ ثم قال: قال محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل: اعلم أن أول شبهة... الخ فذكر قصة ابليس المشار إليها.

فيتضح لنا من هذا أنه سقط بعض أوجه الرد على المناظرة من الأصل، حيث أن الموجود عندنا فى الأصل الوجه الحادى والأربعين بعد المائتين.

وفى المختصر الوجه الثانى والخمسين فالساقط من الأصل ربما يكون من الوجه الثانى والأربعين بعد المائتين إلى الثانى والخمسين ـ كما فى المختصر.

ومما يوضح ذلك أنه وجد سقط فى الورقة **٢٦٣** من الأصل فى أثناء كلام المؤلف فى الرد على مناظرة ابليس التى نقلها المؤلف عن الشهرستانى وهى موجودة فى المختصر المطبوع[١] جـ١ /٣٠٨.

والله أعلم،،،

(١) وهذا يدل على أن أصل المخطوط فى مجلدات، كما قال ابن رجب فى ترجمة المؤلف.

اسم الكتاب ونسبته إلى المؤلف

١ ـ أما اسم الكتاب فقد جاء على الورقة الأولى هكذا:

«كتاب الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية المعطلة».

تصنيف الإمام العلامة محمد بن أبى بكر بن أيوب بن القيم الحنبلى رحمه الله وعليه تملك مؤرخ فى جمادى الآخرة سنة ١١١٢.

واسم الكتاب على النسخة المختصرة المطبوعة وأصلها المخطوطة لا يختلف على هذا إلا بعبارة «المرسلة» بدل «المنزلة».

أما نسبة الكتاب إلى المؤلف فأمر مشهور وليس هناك أى شك فى ذلك فكل من سرد مؤلفات ابن القيم ذكر من مؤلفاته كتاب الصواعق ونزيد هنا أن المؤلف نفسه قد ذكره فى كتابه «اغاثة اللهفان» جـ١ /٥٧، وذلك فى معرض رده على المتكلمين وبيان حيرتهم وشكوكهم حيث ذكر كلام الفخر الرازى والأبيات التى قالها يمثل بها نهايات اقدام المتكلمين وهى قوله:

نهاية اقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

إلى أن قال:

وهذا انشاده وألفاظه فى آخر كتبه وهو أفضل أهل زمانه على الاطلاق فى علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله فى مثل ذلك كثير جدا قد ذكرناه فى «كتاب الصواعق»[1] وغيره. اهـ.

---

(١) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان للمؤلف / الطبعة الأخيرة الحلبي سنة ١٣٨١هـ.

وصف المخطوطة وبيان أنها الأصل وليست المختصر

تقع هذه المخطوطة وهى نسخة مكتبة حلب والتى جعلناها الأصل فى مائتين واثنتين وسبعين صفحة، وفى الصفحة أربعة وثلاثون سطرا بخط دقيق ولكنه واضح.

أما النسخة الأخرى والتى رمزلها بالحرف «ل» فتقع فى مائة ورقة وفى الصفحة ثلاثة وعشرون سطرا، وهي من المكتبة الألمانية وخطها واضح أيضا، وقد حلت إشكالاً حيث وجد سقط فى النسخة الأصل تسعة وثلاثون وجها من أوجه الرد على القائلين بأن دلالة القرآن والسنة دلالات لفظية لا تفيد يقينا، وهو فى ٢٤ ورقة، ويبدأ من ورقة ٧٦/ب سطر ١٧ـ١٠٠، وذلك من قوله: «وصح عن طاووس انه كان لا يرى طلاقا ما خالف وجه الطلاق ووجه العدة وكان يقول وجه الطلاق أن يطلقها طاهرا.. الخ».

وقد جاء فى ورقة ٧٧/ا ذكر الطواغيت الأربع وهو الفصل الرابع والعشرون ويبدء فى /ب بذكر الرد على الطاغوت الأول وهو قولهم: ان نصوص الوحي أدلة لفظية وهى لا تفيد اليقين.

حيث وجد فى الأصل الوجه الأربعون فى أول ص٧٢ وهو أن الأدلة القاطعة قد قامت على صدق الرسول.. الخ وقد كتب الناسخ فى الحاشية امام السطر الأول هذه العبارة: «هكذا وجدناه فى الأصل» لأنه وَجَدَ الكلام غير مستقيم.

غير أن النسختين معا لا تمثلان من الكتاب إلا ثلثه تقريبا، وهذا يؤكد ما قاله ابن رجب فى وصفه الكتاب فقد قال فى ذيل طبقات الحنابلة

فى ترجمة ابن القيم ٢/ ٤٤٨ حين سرد مؤلفاته قال: وله كتاب «الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة» فى مجلدات، فنجده سمى الكتاب كما فى الأصل «المنزلة» بخلاف ما فى المختصر «المرسلة» ثم وصفه بأنه فى «مجلدات» وهو كما قال.

فهذا القدر الموجود الذى نقدم منه الجزء الأول سيخرج فى ثلاثة أجزاء.

وهو بالنسبة للمختصر المطبوع ينتهى فى الجزء الأول منه آخر ص٣٠٨، مع العلم أن المختصر المطبوع يقع فى ثمانمائة وتسع وثلاثين صفحة ص٨٣٩.

وسيجد القارىء صورا من أوراق المخطوطة الأصلية، وكذلك من أصل المختصر المطبوع، وذلك لبيان أن هذا هو الأصل وليس المختصر.

ونسأل الله جلت قدرته أن ييسر الحصول على باقيه ليستفيد منه طلاب العلم.

ولبيان كون هذا المخطوط هو الأصل فنرى من المناسب اضافة إلى ما سبقت الاشارة إليه أن نورد سطرين من خطبة الكتاب مقارنة بمثلها من المختصر المطبوع وأصلها المخطوط، فقد جاء فى افتتاحه الكتاب الأصل ما يأتى:

بسم الله الرحمن الرحيم، رب يسر بفضلك ياكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين.

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الموصوف بصفات الجلال ونعوت الكمال.. الخ.

وجاء فى المختصر المخطوط ـ والمطبوع :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلا هادى له الخ .

تاريخ النسـخ : ـ

أما تاريخ النسخ فقد جاء فى آخر النسخة الحلبية آخر صفحة **٢٧٢** قول الناسخ : أنهاه كاتبه يوم **١٧** من ذى القعدة سنة **١١١٠** على ما وجدناه فى الأصل ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان .

عملنا فى الكتـاب : ـ

ـ تحقيق النص الوارد فى الكتاب قدر الامكان فى أن يخرج النص على أقرب صورة تركه عليها مؤلفه ـ وقد اتبعنا فى ذلك مقابلة النسختين اللتين ورد ذكرهما مع المختصر فى الأماكن التى التقى فيها مع الأصل .

ـ أما النصوص الواردة فى الكتاب فقد رجعنا إلى أصولها .

ـ عزو الآراء التى ذكرها إلى أصحابها قدر الامكان .

ـ تخريج الأحاديث الواردة فى الكتاب .

ـ الاشارة إلى مواضع الآيات من السور بذكر رقم الآية والسورة .

ـ التراجم لبعض الأعلام الوارد ذكرهم فى الكتاب .

ـ التعليق على المسائل التى تحتاج إلى ذلك ، وقد يطول التعليق فى بعض المواضع من الكتاب بما يوضح المقصود ، وليس فيه إثقال على النص .

ـ ختمنا الكتاب بالفهارس العلمية الضرورية وهي :

- فهرس المراجع .
- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث ـ والآثار .
- فهرس الأعلام المترجم لهم .
- فهرس الفرق .
- فهرس الموضوعات :

أ ـ فهرس موضوعات المقدمـة .

ب ـ موضوعات الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

(رب يسر بفضلك يا كريم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين)[1].

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الموصوف بصفات الجلال المنعوت بنعوت الكمال، المنزه عما يضاد كماله من سلب حقائق أسمائه وصفاته المستلزم لوصفه بالنقائص[2] وشبه المخلوقين.

فنفي حقائق أسمائه وصفاته متضمن للتعطيل والتشبيه، واثبات حقائقها على وجه الكمال الذي لا يستحقه سواه هو حقيقة التوحيد والموحد (مثبت)[3] لحقائق أسمائه وكمال أوصافه وذلك قطب رحى التوحيد، فالمعطل يعبد عدما والممثل يعبد صنماً، والموحد يعبد ربا «ليس كمثله شيء»[4]، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وسع كل شيء رحمة وعلما، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه، وحجته على عباده فهو رحمته المهداة إلى العالمين، ونعمته التى أتمها على أتباعه من المؤمنين، أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب وطموس (من السبل)[5]، وقد استوجب أهل الأرض أن ينزل بساحتهم العذاب، وقد نظر الجبار جل جلاله إليهم، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب[6]، وكانت الأمم إذ ذاك ما بين مشرك بالرحمن عابد

(١) غير موجود فى «ل».

(٢) فى الأصل (بوصفه النقائص) وما أثبتناه من «ل» ولعله الأولى.

(٣) فى الأصل (مبين) وما أثبتناه من «ل».

(٤) الشورى ١١.

(٥) من «ل».

(٦) يشير بذلك إلى ما أخرجه مسلم فى كتاب الجنة ٢١٩٧/٤ ح٦٣ من رواية عياض بن حمار المجاشعى فى حديث طويل وفيه: «ان الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»، وأحمد فى المسند ١٦٢/٤.

للأوثان وعابد للنيران، وعابد للصلبان، أوعابد للشمس والقمر والنجوم[1] كافر بالله الحي القيوم، أوتائه في بيداء ضلالته حيران قد استهواه الشيطان وسد عليه طريق الهدى والايمان، فالمعروف عنده ما وافق ارادته ورضاه، والمنكر ما خالف هواه، قد تخلى عنه الرحمن وفاز به الخذلان، يسمع ويبصر بهواه لا بمولاه، ويبطش ويمشي بنفسه وشيطانه لا بالله، فباب الهدى دونه مسدود، وهو عن الوصول إلى معرفة ربه واتباع مرضاته مصدود، فأهل الأرض بين تائه حيران، وعبد للدنيا فهو عليها لهفان، ومنقاد للشيطان جاهل أو جاحد، أومشرك بالرحمن، فالأرض قد غشيتها ظلمة الكفر والشرك والجهل والعناد، وقد استولى عليها (أئمة)[2] الكفر وعساكر الفساد وقد استند كل قوم إلى ظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم، فسوق الباطل نافقة لها القيام، وسوق الحق كاسد لا تقام، فالأرض قد (صالت)[3] جيوش الباطل في أقطارها ونواحيها، وظنت أن تلك الدولة تدوم لها، وأنه لا مطمع (لجند)[4] الله وحزبه فيها.

فبعث الله رسوله وأهل الأرض أحوج إلى رسالته من غيث السماء ومن نور الشمس الذي يذهب عنهم حنادس[5] الظلماء، فحاجتهم إلى رسالته فوق جميع الحاجات، وضرورتهم إليها مقدمة على جميع الضرورات، فانه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا لذة ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله،

---

(١) عبادة الأوثان عرفت عن العرب وعبادة النيران عن المجوس، والصلبان عن النصارى، أما عبادة الكواكب كالشمس والقمر والنجوم فعرفت عن الصائبة وتبعهم بعض الهنود. انظر الملل والنحل للشهرستاني تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ٢/ ٥٩، ٣/ ١٠٣-١٠٤ ط الحلبي سنة ١٣٨٧هـ.

(٢) في الأصل (أمه) وما أثبتناه من «ل».

(٣) في الأصل (تعالت) والتصحيح من «ل».

(٤) في الأصل (بحند) والتصحيح من «ل».

(٥) الحندس: الظلمة، وفي الصحاح الليل الشديد الظلمة. لسان العرب مادة حندس.

ويكـون أحب إليهـا مما سواه، ويكـون سعيهـا في ما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته، ومن المحال أن تستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وادراكه على التفصيـل (فـاقتضت)(١) رحمـة العـزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين(٢)، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله(٣)، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة جميعها، فان الخوف والرجاء والمحبة والطـاعـة والعبـودية تابعة لمعرفة المرجو المخوف المحبوب المطاع المعبود، ولما كان مفتـاح الـدعـوة الالهيـة معـرفة الرب تعالى، قال أفضل الداعين إليه سبحـانـه (وخيرهـم)(٤) لمعاذ وقد أرسله إلى اليمن: «انك ستأتى قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فاذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة» وذكر باقى الحديث وهو فى الصحيحين وهذا اللفظ لمسلم(٥).

فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصل إليه، وهى شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

---

(١) فى الأصل (واقتضت).

(٢) قال تعـالى: ﴿رسـلا مبشـرين ومنـذرين لئـلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾ النساء ١٦٥.

(٣) قال تعـالى: ﴿ومـا أرسلنـا من قبلك من رسـول إلا نوحى إليـه أنـه لا إلـه إلا أنـا فاعبـدون﴾ الأنبياء ٢٥.

(٤) من «ل».

(٥) مسلم كتـاب الإيـمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الاسلام ١/٥٠ ح٢٩-٣١، والبخارى فى الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال فى الصدقة فتح البارى ٣/٣٢٢ ح١٤٥٨.

وهذا الحديث وغيره يدل على أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هى أول الأركان التى لا يطلب من المكلف شىء قبلها ثم يتبعها سائر الأركان، خلافا لما يقوله المتكلمون من أن أول شىء هو النظر، وذلك لأن المقام هنا مقام بيان، ولا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة. فدل ذلك على أنه لاشىء يطلب من المكلف قبل الشهادة لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

الثانى : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذى لا ينفد، وقرة العين التى لا تنقطع.

وهذان الأصلان تابعان للأصل الأول ومبنيان عليه، فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمى الله سبحانه ما أنزل على رسوله روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونورا لتوقف الهداية عليه، قال الله تبارك وتعالى : ﴿**يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾[1] فى موضعين من كتابه.

وقال عز وجل : ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا**﴾[2].

فلا روح إلا فيما جاء به، ولا نور إلا (فى الاستضاءة به)[3] فهو الحياة والنور والعصمة والشفاء والنجاة والأمن، والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به، ولا يقبل الله من أحد دينا يدينه به إلا أن يكون موافقا لدينه، وقد نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عما يصفه به العباد إلا ما (وصفه به المرسلون)[4] فقال : ﴿**سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين**﴾[5]، قال غير واحد من السلف هم الرسل، وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**﴾[6] فنزه نفسه عما يصفه به

(١) سورة غافر (١٥)، والموضع الثانى قوله تعالى : ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ النحل (٢).

(٢) سورة الشورى (٥٢).

(٣) فى الأصل (فيما استضاء به) والتصحيح من «ل».

(٤) فى الأصل (إلا ما وصف به المرسلين) والتصحيح من «ل».

(٥) الصافات (١٥٩ ، ١٦٠).

(٦) الصافات (١٨٠ ، ١٨٢).

الخلق، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد.

ومن ههنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن ادريس الشافعى قدس الله سره[١] ونور ضريحه خطبة كتابه حيث قال: «الحمد لله الذى هو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه»[٢]، فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته تتلقى بالسمع لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة اثبات صفات الكمال الذى أثبته (لنفسه)[٣] وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل وأن ما وصف به نفسه فهو الذى يوصف به لا ما وصفه (به)[٤] الخلق، ثم قال[٥]: «والحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدى شكر ماضى نعمة بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها»[٦]، فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر، وهذا يدل على أنه ـ رحمه الله ـ مثبت للصفات والقدر، وعلى ذلك (. . . . .)[٧] الاسلام والرعيل الأول ثم فرق[٨] على أثرهم التابعون، وتبعهم على منهاجهم اللاحقون، يوصى به الأول الآخر، ويقتدى فيه اللاحق بالسابق، وهم في ذلك بنبيهم مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، قال الله تعالى: ﴿**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى**﴾[٩]، فمن اتبعنى ان كان عطفا على الضمير فى

---

(١) فى «ل» (روحه).
(٢) الرسالة ص٧ ط الأولى بمطبعة الحلبى سنة ١٣٨٨هـ تحقيق محمد سيد كيلانى.
(٣) فى الأصل (لرؤيته) والتصحيح من «ل».
(٤) من «ل».
(٥) أى الامام الشافعى.
(٦) الرسالة ص٧.
(٧) كلمة غير واضحة ولعلها (أئمة).
(٨) فرّق: قال فى اللسان: فرق للصلاح فرقا، وفرّق للافساد تفريقا. انظر لسان العرب مادة فرق.
(٩) سورة يوسف: (١٠٨).

(ادعـو إلى الله) فهـو دليـل أن اتبـاعـه هم الدعاة إلى الله، وان كان عطفا على الضمـير المنفصـل فهـو صريح أن اتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله وقد شهد سبحانه لمن يرى أن ما جاء به من عنـد الله هو الحق لا آراء الـرجـال، بالعلم، فقـال تعالى: ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى**﴾[2]، فمن تعـارض عنـده حقـائق ما جاء به وآراء الـرجال فقدمها عليه (أو)[3] توقف فيه، أو قدحت فى كمال معرفته وإيمانه به لم يكن من الـذين شهـد الله لهم بالعلم، ولا يجوز أن يسمى بأنـه من أهل العلم، فكيف يكـون الـداعى إلى الله على بصـيرة الـذى وصفـه الله بأنـه سراج منير، وبأنه هاد إلى صراط مستقيم وبأن من اتبع النور الذى أنزل معه فهو المفلح لا غيره، وأن من لم يحكمـه فى كل ما يتنـازع فيـه المتنازعون، وينقاد لحكمه، ولا يكون عنده حرج منه، فليس بمؤمن، (لأن الرسول عنده)[4] قد أخـبر الأمـة عن الله وأسمائه وصفاته بما الحق فى خلاف ظاهره، والهدى فى اخـراجـه عن حقائقه وحمله على وحشى اللغات ومستكرهات التأويل، وأن حقائقه ضلال وتشبيه والحاد، والهدى والعلم فى مجازه واخراجه عن (حقـائقـه)[5]، وأحـال الأمـة فيـه على آراء المتحيرين وعقول المتهوكين، فيقول: «اذا أخبرتكم عن الله وصفاته العلى بشىء فلا تعتقدوا حقيقته، وخـذوا (معـرفـة)[6] مرادى به من آراء الرجال ومعقولها، فان الهدى والعلم

---

(١) سبـأ (٦).

(٢) الرعد (١٩).

(٣) فى الأصل (اذا).

(٤) ساقطة من «ل».

(٥) فى الأصل (حقائقها) وما أثبتناه من «ل».

(٦) فى الأصل (بمعرفة).

فيه، والدين (اذا أحيل)[1] على تأويلات المتأولين انتقضت عراه كلها، ولا تشاء طائفة من طوائف أهل الضلال أن تتأول النصوص على مذهبها إلا وجدت السبيل إليه، وقالت لمن فتح لها باب التأويل (انا تأولنا)[2] كما تأولتم، والنصوص أخبرت بما تأولناه كما أخبرت بما تأولتموه، فما الذي جعلكم فى تأويلكم مأجورين وجعلنا عليه مأزورين، والذى قادكم إلى التأويل ما تقولون انه معقول، فمعنا نظيره أو أقوى منه أو دونه وسيأتى تمام هذا فى بيان عجز المتأولين عن الفرق بين ما يسوغ تأويله ومالا يسوغ، والمقصود أن الله سبحانه قد أخبر أنه أكمل له ولأمته به دينهم وأتم عليهم به نعمته، ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق وأرسلت له الرسل، وأنزلت به الكتب، ونصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة، وهو باب الايمان به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ملتبسا مشتبها حقه بباطله لم يتكلم فيه بما هو الحق بل تكلم بما ظاهره الباطل، والحق فى اخراجه عن ظاهره، وكيف يكون أفضل الرسل وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه، مبين له بأكمل البيان موضح له غاية الايضاح مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجل ما حصلته القلوب، ومن أبين المحال أن يكون أفضل الرسل قد علم أمته آداب البول قبله وبعده ومعه، وآداب الوطيء، وآداب الطعام والشراب[3] ويترك أن يعلمهم ما يقولونه بألسنتهم، وتعتقده قلوبهم

---

(١) من «ل».

(٢) فى الأصل (أنا تأولتها) وما أثبتناه من «ل».

(٣) اهتمت كتب السنن بجمع ما ورد فى هذا الباب من الأحاديث، انظر أبو داود كتاب الطهارة «باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء ١/١٥» ح٤ عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء قال: (اللهم انى أعوذ بك - وفى لفظ -: أعوذ بك من الخبث والخبائث) انظر كتاب الطهارة فى أبى داود وغيره من كتب السنن.

وفى آداب الوطيء النكاح «باب ما يقول الرجل اذا أتى أهله» فتح البارى ٩/٢٢٨ ح ٥١٦٥ من حديث ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: (أما لو أن أحدكم يقول حين يأتى أهله: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما فى ذلك، أو قضى ولد لم يضره شيطان أبدا) =

في ربهم ومعبودهم، الذى معرفته غاية المعارف والوصول إليه من أجل المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم فيه بما ظاهره باطل والحاد ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات، ومستنكرات المجازات، ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم، وتوجبه آراؤهم هذا وهو القائل: (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى إلا هالك)[(1)]، وهو القائل: (ما بعث الله من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم)[(2)].

وقال أبو ذر: «لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علما»[(3)].

وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فذكر بدأ الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه» ذكره البخاري[(4)].

= وفي آداب الطعام انظر كتاب الأطعمة في أبي داود من مثل ما ورد في باب التسمية على الطعام من حديث جابر ٤/١٣٨ ح٣٧٦٥ أنه سمع النبى ﷺ يقول: (اذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء...) الحديث وغيره مما ورد فى نفس الكتاب وفي غيره من كتب السنن.

وفى آداب الشراب انظر كتاب الأشربة أبو داود باب الشراب من فى السقاء ٤/١٠٩ ح٣٧١٩ عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من في السقاء.. الحديث، وغيره من هذا الباب كثير.

ومن يطالع كتب السنن فى هذا الجانب يتبين له عناية الرسول ﷺ بجميع جوانب الحياة للانسان المسلم.

(١) ابن ماجه المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/١٥ ح٤٣ عن العرباض بن سارية.

(٢) مسلم الامارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ٣/١٤٧٢ ح٤٦ من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص. وابن ماجه الفتن باب ما يكون من الفتن ٢/١٣٠٦ ح (٣٩٥٦).

(٣) مسند أحمد ٥/١٥٣، ١٦٢ عن أبى ذر.

(٤) البخارى كتاب بدأ الخلق ٦/٢٨٦ ح٣١٩٢.

وصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الظهر ثم خطبهم حتى حضرت العصر، فصلى العصر، ثم خطب بهم حتى غربت الشمس فلم يدع شيئا كان ولا يكون من خلق آدم إلى قيام الساعة حتى أخبرهم به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه[1].

فكيف يتوهم من لله ولرسوله ودينه فى قلبه وقار أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم، ولم يتكلم فيه بالصواب، بل تكلم بما ظاهره خلاف الصواب، بل لا يتم الايمان إلا باعتقاد أن بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتم الوجوه، وأوضحه غاية الايضاح، ولم يدع بعده لقائل مقالا، ولا لمتأول تأويلا، ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأعلمها وأسبقها إلى كل فضل وهدى ومعرفة قد قصروا فى هذا الباب فجفوا عنه أو تجاوزا فغلوا فيه، وانما ابتلى من خرج عن منهاجهم بهذين الدائين، الانحرافيين (. . . . .)[2] الاسلام وعصابة الايمان وحماة الدين هم الذين كانوا فى هذا الباب قائلين بالحق معتقدين له داعين إليه.

فان قيل: القوم كانوا عن هذا الباب معرضين وبالزهد والعبادة والجهاد مشتغلين، لم يكن هذا الباب من همهم ولا عنايتهم به.

قيل: هذا من أبين المحال، وأبطل الباطل، بل كانت عنايتهم بهذا الباب فوق كل عناية واهتمامهم به فوق كل اهتمام وذلك بحسب حياة قلوبهم ومحبتهم لمعبودهم ومنافستهم فى القرب منه فمن فى قلبه أدنى حياة ومحبة لربه وارادة لوجهه، وشوق إلى لقائه فطلبه لهذا الباب وحرص على معرفته وازدياده من التبصر فيه، وسؤاله، واستكشافه عنه هو أكبر مقاصده

(١) مسلم / الفتن / باب أخبار النبى ﷺ في ما يكون إلى قيام الساعة ٢٢١٧/٤ ح٢٥ من حديث عمرو بن أخطب. ومسند أحمد ٣٤١/٥.

(٢) كلمة غير واضحة ولعلها (وأئمة).

وأعظم مطالبه وأجل غاياته وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنة إلى شيء من الأشياء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر، ولا فرحها بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق فيه، فكيف يمكن مع قيام هذا المقتضى الذى هو من أقوى المقتضيات أن يتخلف عنه أثره فى خيار الأمة، وسادات أهل العلم والإيمان الذين هممهم أشرف الهمم ومطالبهم أجل المطالب، ونفوسهم أزكى النفوس، فكيف يظن بهم الأعراض عن مثل هذا الأمر العظيم أو الغفلة عنه، أو التكلم بخلاف الصواب فيه، واعتقاد الباطل، ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة، وورثة الصابئين، وأفراخ اليونان الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك وعدم العلم الذى يطمئن إليه القلب، وأشهدوا الله وملائكته عليهم به، وشهد به عليهم الأشهاد من أتباع الرسل، أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأعرف به، ممن شهد الله ورسوله لهم بالعلم والايمان، وفضلهم على من سبقهم ومن يجيء بعدهم إلى يوم القيامة، ما خلا النبيين والمرسلين، وهل يقول هذا إلا غبي جاهل لم يقدر قدر السلف ولا عرف الله ورسوله وما جاء به؟.

قال شيخنا[1]: «والحال فى هؤلاء المبتدعة[2] الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها، واعتقدوا أنهم بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**﴾[3]، وأن طريقة المتأخرين هى استخراج

(١) هو ابن تيمية الامام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن مجد الدين بن عبد الله بن أبى القاسم الحرانى أحد الأعلام ولد فى ربيع الأول سنة ٦٦١ وتوفى فى العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ. تذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٦-١٤٩٨، وسوف نشير إلى موضع هذا النص المنقول عنه عند نهاية النص.

(٢) فى «ل» (وإنما أن هؤلاء المبتدعة).

(٣) البقرة آية (٧٨).

معـانى النصـوص وصـرفهـا عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستنكر التأويلات .

فهـذا الظن الفـاسـد أوجب تلك المقـالة التي مضمونها نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وراء ظهورهم فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف ، وسبب ذلــك اعتقــادهم أنـه ليس فى نفس الأمـر صفـة دلت عليهـا هذه النصـوص فلما اعتقـدوا التعطيـل وانتفـاء الصفات فى نفس الأمر ورأوا أنه لابد للنصوص من معنى بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهذا الذى هو طريقة السلف عندهم ، وبين صرف اللفظ عن حقيقته وما وضـع له إلى ما لم يوضـع له ولا دل عليـه بأنواع من المجازات وبالتكلفات التى هي بالألغـاز والأحـاجى أشبـه منهـا بالبيـان والهـدى كما سيأتى بيـانه مفصلا ان شاء الله .

وصار هذا الباطل مركبا من فساد العقل والجهل بالسمع ، فلا سمع ولاعقـل ، فان النفي والتعطيـل انـما اعتمدوا (فيه)[1] على شبهات فاسدة ظنـوهـا معقـولات صحيحة فحرفوا لها النصوص السمعية عن مواضعها ، فلما ابتنى أمـرهم على هاتـين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السـابقـين الـذين هم أعلم الأمـة بالله وصفـاته ، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنـزلـة الصـالحين البله الذين لم يتبحروا فى حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الالهي ، وأن الخلف هم الفضلاء العلماء الذين حازوا قصب السبق ، واستـولـوا على الغـايـة ، وظفـروا من الغنيمـة بما فات السـابقـين الأولــين ، فكيف يتـوهم من له أدنى مسكــة من عقـل وايـمان أن هؤلاء المتحـيرين الـذين كثـر فى باب العلم بالله اضطـرابهم ، وغلظ عن معـرفته حجابهم ، وأخبر الواقف على نهايات أقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم ،

---

(١) فى «ل» (عليه) .

وأنه الشك والحيرة حيث يقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم(١)

ويقول الآخر:

نهاية أقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال(٢)

وقال آخر: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوا عنه، والآن ان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لي وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي»(٣).

وقال آخر: «أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام»(٤).

(١) هذان البيتان للشهرستاني في مقدمة كتابه «نهاية الاقدام في علم الكلام» ص٣.

(٢) هذه الأبيات للفخر الرازي كما ذكر ذلك ابن تيمية في كتاب «النبوات» ص٥٩، وذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كلاما بعد هذه الأبيات وهو قوله: «.. لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الأثبات (الرحمن على العرش استوى)، «إليه يصعد الكلم الطيب»، واقرأ في النفي «ليس كمثله شيء»، «ولا يحيطون به علما» ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي». انظر الفتوى الحموية ضمن مجموعة النفائس ص٩١ والنبوات ص١٥٩. كما أورده ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان ١/٥٧ وأشار إلى أنه قد أورد كثيرا من كلام هؤلاء في كتابه «الصواعق» وهذا يدل ان إغاثة اللهفان ألفه بعد الصواعق.

(٣) هذا القول للجويني إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ. انظر شرح الطحاوية ص١٦٦ وسير أعلام النبلاء للذهبي ٨/٤٧١. وقال الجويني أيضاً ناصحاً لأصحابه: ياأصحابنا لاتشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به، وقال أيضا في مرض موته: «إشهدوا على أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وإني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور. انظر نفس المصدر ١٨/٤٧٤. وهذا الكلام من الجويني أكبر شاهد على فساد الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، وأن المنهج الصحيح القويم منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

(٤) قال شمس الدين الخسروشاهي ـ وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي ـ لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوماً فقال: ما تعتقده؟ فقال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد. انظر شرح الطحاوية ص١٦٦.

وقال آخر منهم عند موته: اشهدوا على أني أموت ما عرفت شيئا إلا أن الممكن يفتقر إلى واجب، ثم قال: والافتقار أمر عدمي فلم أعرف شيئا»[1].

وقال آخر - وقد نزلت به نازلة من سلطانه فاستغاث برب الفلاسفة فلم يغث - قال: «ثم استغثت برب الجهمية فلم يغثنى، ثم استغثت برب القدرية فلم يغثني، ثم استغثت برب المعتزلة فلم يغثنى قال: فاستغثت برب العامة فأغاثنى».

قال شيخنا: «وكيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون الحيارى المتهوكون أعلم بالله وصفاته وأسمائه وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان، ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، ومصابيح الدجى وأعلام الهدى الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء وأحاطوا من حقائق المعارف بما لو جمعت حكمة من عداهم وعلومهم إليه لاستحى من يطلب المقابلة ثم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين، وضلال

---

(١) هذا الكلام للخونجي، الحسن بن سعد بن الحسن المتوفى سنة ٥٧٥هـ. وما ذلك إلا لأنه أفنى عمره في القيل والقال، وفضول الكلام الذي لاينفع، بل يضر صاحبه في أغلى ما يملك وهو عقيدته، إذ يجني عليها جناية عظمى ويؤدي بصاحبه إلى الهلاك، والدواء الناجع من هذا الداء العضال يكمن في الاهتداء بهدى الله، والالتجاء إليه سبحانه، وطلب الهداية منه. كما قال شارح الطحاوية معلقاً على الأقوال السابقة: والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» خرجه مسلم، انظر شرح الطحاوية ص١٦٧.

الصابئين، وأشباههم وأشكالهم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان»[1].

(١) الحموية / ٨٩-٩٢ ضمن مجموعة النفائس ط بدون.

« فصــــــل »

فهذه مقدمة بين يدي جواب السؤال المذكور(١)، وانما تتبين حقيقة الجواب بفصول:

الفصل الأول: في معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحا.

الفصل(٢) الثانى: فى انقسام التأويل إلى صحيح وباطل.

الفصل الثالث: فى أن التأويل إخبار عن مراد المتكلم لا انشاء.

الفصل الرابع: فى الفرق بين تأويل الخبر وتأويل الطلب.

الفصل الخامس: فى الفرق بين تأويل التحريف وتأويل التفسير وأن الأول يمتنع وقوعه فى الخبر والطلب، والثاني يقع فيهما.

الفصل السادس: فى تعجيز المتأولين عن تحقيق الفرق بين ما يسوغ تأويله من آيات الصفات وأحاديثها وما لا يسوغ.

الفصل السابع: فى إلزامهم فى المعنى الذي جعلوه تأويلا نظير ما فروا منه.

الفصل الثامن: فى بيان خطئهم فى فهمهم من النصوص المعانى الباطلة التى تأولوها لأجلها، فجمعوا بين التشبيه والتعطيل.

الفصل التاسع: فى الوظائف الواجبة على المتأول التى لا يقبل منه تأويله إلا بها.

---

(١) يظهر أن الكتاب الف بسبب سؤال وجه للمؤلف.

(٢) من هنا بداية السقط من الأصل، وهو فى «ل» ورقة ٨/أ سطر ١٣ ـ ٩/أ سطر٩ وسنشير إلى نهاية السقط عند اتمام النص.

الفصل العاشر : فى أن التأويل شر من التعطيل فانه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب بالنصوص.

الفصل الحادى عشر : فى أن قصد المتكلم من المخاطب حمل كلامه على خلاف ظاهره وحقيقته تنافى قصد البيان والاعتقاد.

الفصل الثاني عشر : فى بيان أنه مع كمال علم المتكلم وفصاحته وبيانه ونصحه يمتنع عليه أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته وعدم البيان في أهم الأمور وما تشتد الحاجة إلى بيانه.

الفصل الثالث عشر : في بيان أن تيسير القرآن للذكر ينافى حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره.

الفصل الرابع عشر : فى أن التأويل يعود على المقصود من وضع اللغات بالابطال.

الفصل الخامس عشر : فى جنايات التأويل على أديان الرسل وأن خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأويل.

الفصل السادس عشر : فى بيان ما يقبل التأويل من الكلام وما لا يقبله.

الفصل السابع عشر : فى أن التأويل يفسد العلوم كلها إن سلط عليها ويرفع الثقة بالكلام ان سلط عليها ولا يمكن أمة من الأمم (أن) تعيش عليه.

الفصل الثامن عشر : فى بيان انه ان سلط على آيات التوحيد القولي العلمي وأخباره، لزم تسليطه على آيات التوحيد العملى وأخباره وفسد التوحيد معرفة وقصدا.

الفصل التاسع عشر : فى انقسام الناس فى نصوص الوحى إلى

أصحـاب تأويل، وأصحاب تخييل، وأصحاب تمثيل، وأصحاب تجهيل، وأصحاب سواء السبيل.

الفصل العشرون: في الأسباب التى تسهل على النفوس الجاهلة قبول التأويل مع مخالفته الذى علمه الله الانسان وفطره على قبوله.

الفصـل الحـادى والعشـرون: في بيـان أن أهل التأويل لا يمكنهم اقامة الدليل السمعي على مبطل أبدا.

الفصل الثانى والعشرون: في الأسباب الجالبة للتأويل.

الفصـل الثـالث والعشـرون: في أنـواع الاختـلاف النـاشئـة عن التأويل وانقسام الاختلاف إلى محمود ومذموم.

الفصـل الـرابـع والعشرون: في أسباب الخلاف الواقع بين الأئمة بعد اتفاقهم على أصل واحد، وتحاكمهم إليه وهوكتاب الله وسنة رسوله.

الفصل الخامس والعشرون: في ذكر الطواغيت الأربعة التى هدم بها أصحـاب التأويـل البـاطـل معـاقل الدين، وانتهكوا بها حرمة القرآن، ومحـوا بها رسـوم الايمان، وهى قولهم: ان كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لا تفيـد علما ولا يحصـل منهـا يقـين، وقولهم: ان آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها، وقولهم: ان أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة لا تفيـد العلم، وغـايتهـا أن تفيـد الظن، وقـولهم: اذا تعـارض العقـل ونصوص الوحي أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحي)[١]، والله المسئول أن يرينا الحق حقاً ويوفقنا لاتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويعيننا على اجتنابه، وأن لا يجعلنـا ممن يتقـدم بين يديه ويدي رسوله، ولا ممن يقدم آراء الرجال وما نحتته أفكارها على نصوص الوحى، وهو المسئول أن يوفقنا لما طلبناه، وأن يجعله خالصا لوجهه مُدْنياً من رضاه انه خير مسئول وأكرم مأمول، وبه المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) إلى هنا ينتهى السقط المشار إليه فى بداية تعداد الفصول.

الفصل الأول

في معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحا

التأويل تفعيل من آل يؤول إلى كذا، إذا صار إليه، فالتأويل التصيير، وأولته تأويلاً إذا صيرته إليه، فآل، وتأول وهو مطاوع أولته .

وقال الجوهري : التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته تأويلا وتأولته بمعنى. قال الأعشى :

على أنها كانت تأول حبها   تأول ربعي السقاب فأصحبا

قال أبو عبيدة : يعني تفسير حبها ومرجعه، أي أنه كان صغيرا في قلبه فلم يزل ينبت حتى صار قديما كهذا السقب الصغير لم يزل يشب حتى صار كبيرا مثل أمه، وصار له ابن يصحبه. اهـ(١).

ثم تسمى العاقبة تأويلا لأن الأمر يصير إليها، ومنه قوله تعالى : **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**(٢).

ويسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلا لأن الأمر ينتهي إليها ومنه قوله : **﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾**(٣)، فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به

---

(١) لسان العرب مادة «أول»، والصحاح للجوهري إسماعيل بن حماد ٤/١٦٢٧ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، والمقصود بالسقب: ولد الناقة، انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة «سقب» ٣/٨٥ ط الثانية سنة ١٣٩٠هـ.

(٢) النساء ٥٩ .

(٣) الأعراف / ٥٣ .

الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار، ويسمى تعبير الرؤيا تأويلا بالاعتبارين فإنه تفسير لها وهي عاقبتها وما تؤول إليه، وقال يوسف لأبيه: ﴿**يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل**﴾[1]، أي حقيقتها ومصيرها إلى هاهنا انتهت، وتسمى العلة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلا لأنها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي له غرضه به، ومنه قول الخضر لموسى عليهما السلام - بعد أن ذكر له الحكمة (المطلوبة بالفعل)[2] المقصودة بها فعله من تخريق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ولا عوض -[3]: ﴿**سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا**﴾[4]، فلما أخبره بالعلة الغائية التي انتهى إليها فعله قال: ﴿**ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا**﴾[5].

فالتأويل في كتاب الله سبحانه وتعالى المراد به حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه وهي الحقيقة الموجودة في الخارج، فإن الكلام نوعان: خبر وطلب، فتأويل الخبر هو الحقيقة، وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله نفس ما هو عليه سبحانه وما هو موصوف به من الصفات العلى، وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها...

قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» يتأول القرآن[6].

فهذا التأويل هو نفس فعل المأمور به، فهذا التأويل في كلام الله ورسوله.

---

(١) يوسف: ١٠٠.
(٢) ناقصة من «ل».
(٣) في المختصر «بلا عوض».
(٤) الكهف: ٧٨.
(٥) الكهف: ٨٢.
(٦) البخاري / التفسير ٨/٧٣٣ ح ٤٩٦٨.

وأما التأويل في إصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث فمرادهم به معنى التفسير والبيان. ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا[1]، يريد تفسيره.

ومنه قول الإمام أحمد في كتابه في الرد على الجهمية: فيما تأولته من القرآن على غير تأويله[2]. فأبطل تلك التأويلات التي ذكروها وهي تفسيرها المراد بها، وهو تأويلها عنده. فهذا التأويل يرجع إلى فهم (المعنى)[3]، (ويحصله)[4] في الذهن. والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج.

وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره (وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره)[5] وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه. ولهذا يقولون: التأويل على خلاف الأصل، والتأويل يحتاج إلى دليل، وهذا التأويل هو الذي صُنّف في تسويغه وإبطاله من الجانبين، فصنف جماعة في تأويل آيات

---

(١) هذه عبارة يستعملها ابن جرير في تفسيره عند بداية كل آية.

(٢) انظر الرد على الجهمية ضمن مجموعة عقائد السلف جمع وتحقيق على سامى النشار وعمار الطالبى ص٩٥.

(٣) فى الأصل «المؤمن» وما أثبتناه من «ل».

(٤) فى المختصر «ويحصل» ولعل الأولى «وتحصيله».

(٥) من «ل».

الصفات وأخبارها كأبي بكر بن فورك[1]، وابن مهدى الطبرى[2]، وغيرهما .

وعـارضهم آخـرون فصنفـوا في إبطال (ذلك التأويل)[3] كالقاضي أبي يعلى[4]، والشيخ موفق الدين بن قدامة[5]، وهو الذي حكى (عن)[6] غير واحـد اجمـاع السلف على عدم القول به كما سيأتى حكاية ألفاظهم - إن شاء الله تعالى -.

(١) هو محمـد بن الحسن بن فورك، أبـو بكـر الأنصـارى الأصبهانى . توفى سنة ست وأربعمائة، ومن كتبه فى ذلك كتاب «مشكل الحديث» وهو مطبوع . راجع ترجمته فى سير أعلام النبلاء للذهبى ١١/٤٨خ، وطبقات الشافعية للسبكى ٤/١٢٧، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/١٨١ .

(٢) أبـو الحسن على بن محمـد بن مهـدى الطبرى من أصحـاب أبى الحسن الأشعـرى، كان من المبرزين فى علم الكلام .

ومن كتبـه فى ذلـك تأويـل الأحـاديث المشكـلات الواردة فى الصفات . انظر تبيين كذب المفترى لابن عساكر ص١٩٥ ط مصورة سنة ١٣٩١هـ، وطبقات الشافعية للسبكى ٣/٤٦٦ .

(٣) فى «ل» تلك التأويلات .

(٤) هو العالم العلامة شيخ الحنابلة فى عصره الامام محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء القاضى أبو يعلى البغدادى الحنبلي ولد سنة ٣٨٠هـ وتوفى سنة ٤٥٨ .

انظر طبقات الحنابلة ٢/١٩٣ وما بعدها، وتاريخ بغداد ٢/٢٥٦ .

(٥) هو : أبـو محمـد عبـد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى صاحب التصانيف ولد سنة ٥٤١، من أشهر مؤلفاته المغنى شرح الخرقي كان إماما من أئمة المسلمين وعلما من أعلام الدين فى العلم والعمل ت سنة ٦٢٠هـ. شذرات الذهب ٥/٨٨، والبداية والنهاية ١٣/٩٩ .

(٦) من «ل» .

الفصل الثاني

انقسام التأويل إلى صحيح وباطل

وعلى هذا يبنى الكلام في الفصل الثاني وهو انقسام التأويل إلى صحيح وباطل، فالتأويل الصحيح هو القسمان الأولان، وهما حقيقة المعنى وما يؤول إليه في الخارج أو تفسيره وبيان معناه، وهذا التأويل يعم المحكم والمتشابه والأمر والخبر، قال جابر بن عبد الله في حديث حجة الوداع : « . . . ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ينزل عليه القرآن وهو يعلم تأويله فما عمل (به)[1] من شيء عملنا به»[2]، فعلمه صلوات الله وسلامه عليه بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه، ودخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلو فكل الخير في رسوله
(يارب اني مؤمن بقيله)[3] ... أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

قال ابن هشام : نحن قتلناكم على تأويله إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم، والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد

---

(١) «به» من مسلم.

(٢) مسلم / كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ ٢ / ٨٨٦ ح١٤٧.

(٣) في الأصل (رسالة هو من مثله) وما أثبتناه من «ل» وهو الأصح لموافقته لما ورد في سيرة ابن هشام.

المشركين، والمشركون لم يقروا بالتنزيل، وإنما يقاتل على التأويل من أقر بالتنزيل[1]، وهذا لا يلزم - إن صح الشعر عن ابن رواحة - لأن المراد بقتالهم على التأويل هو تأويل قوله تعالى: ﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**﴾[2]، وكان دخولهم المسجد الحرام عام القضية آمنين هو تأويل هذه الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ، وأنزلها الله في كتابه ويدل عليه أن الشعر إنما يناسب خطاب الكفار بنفي أن يقال فلم يكن هناك قتال حتى يقول نحن قتلناكم، فيقال هذا تخويف وتهديد، أي ان قاتلتمونا قاتلناكم وقتلناكم على التأويل والتنزيل، وعلى التقديرين فليس المراد بالتأويل صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، ومن هذا قول الزهري[3]: «وقعت الفتنة وأصحاب محمد متوافرون فأجمعوا أن كل مال أو دم أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، أنزلوهم منزلة أهل الجاهلية. أي ان (القبيلتين)[4] في الفتنة إنما اقتتلوا على تأويل القرآن (وهو تفسيره، وما ظهر لكل طائفة منه حتى دعاهم إلى القتال، فأهل الجمل وصفين إنما اقتتلوا على تأويل القرآن)[5] وهؤلاء يحتجون به (وهؤلاء يحتجون به)[6]، نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)[7] فقالوا نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا»[8].

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٩٩-٥٠٠ تعليق الدكتور/ محمد خليل هراس، الناشر مكتبة الجمهورية ط بدون.

(٢) الفتح / آية ٤٨.

(٣) هو أعلم الحفاظ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري ولد سنة ٥٠ وحدث عن ابن عمر وسهل ابن سعد وأنس بن مالك. ت في رمضان سنة ١٢٤هـ. تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨.

(٤) هكذا في الأصل ولعله القبيلين.

(٥) ما بين القوسين لا يوجد في «ل».

(٦) من «ل».

(٧) البخاري / كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المسجد فتح الباري ١/ ٥٤١ ح٤٤٧.

(٨) انظر البداية والنهاية ٧/ ٢٦٩.

فهـذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الـذي باشـر قتله لا من استنصـر به، ولهـذا رد عليهم من هو أولى بالحق والحقيقـة منهم، فقـالـوا : (فيكون)[١] رسول الله ﷺ وأصحابه هم الـذين قتلوا حمزة والشهـداء معـه لأنهم أتوا بهم حتى أوقعوهم تحت سيوف المشركين، ومن هذا قول عروة بن الزبير لما روى حديث عائشة : (فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر)، (فقيل له : فما بال عائشـة أتمت في السفـر؟)[٢]، قال تأولت كما تأول عثمان[٣]، وليس مراده أن عائشـة وعثمان تأولا آيـة القصر على خلاف ظاهرها، وإنما مراده أنهما تأولا دليـلا قام عنـدهما اقتضى جواز الاتمـام فعمـلا به، وكـان عملهـما به هو تأويله فإن العمـل بدليل الأمر هو تأويله، كما كان رسول الله ﷺ يتأول قولـه تعـالى : ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره**﴾[٤] بامتثـاله بقـولـه : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[٥]، فكأن عائشة وعثمان تأولا قولـه تعـالى : ﴿**فـإذا اطمأننتم فأقيمـوا الصـلاة**﴾[٦]، وأن اتمـامهـا من إقـامتها، وقيل تأولت عائشة أنها أم المؤمنين، وأن أمهم حيث كانت فكأنهـا مقيمـة بينهم وأن عثمان كان إمـام المسلمـين فحيث كان فهو منزله (أو أنه كان قد عزم على الاستيطان بمنى أو أنه كان قد تأهل بها ومن تأهل)[٧] ببلد لم يثبت له حكم المسافر، أو أن الأعراب كانوا قد كثروا في ذلـك المـوسم فأحب أن يعلمهم فرض الصـلاة وأنـه أربع أوغير ذلك من

---

(١) في المختصر «أفيكون».
(٢) لا توجد في «ل».
(٣) البخاري / تقصير الصلاة «باب يقصر إذا خرج من موضعه» فتح الباري ٢/ ٥٦٩ ح ١٠٩٠.
(٤) النصر / ٣.
(٥) تقدم ص ٧٨.
(٦) النساء / ١٠٣.
(٧) ما بين القوسين من «ل».

التأويـلات التي ظنـاهـا أدلـة مقيدة لمطلق القصر أو مخصصة لعمومه، وإن كانت كلها ضعيفة(١).

والصواب هدى رسول الله ﷺ فإنه كان إمام المسلمين، وعائشة أم المؤمنين في حياته وبعد وفاته وقد قصرت معه ولم يكن عثمان ليقيم بمكة وقد بلغـه أن رسـول الله ﷺ إنـما رخص بها للمهـاجـر بعد قضاء نسكه ثلاثا، والمسـافـر إذا تزوج في طريقـه لم يثبت له حكم الإقـامة بمجرد التزوج ما لم يزمـع الإقـامـة وقطـع السفر، وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد .

ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك، وكل تأويل يوافق ما جاء به الرسول فهو المقبول، وما خالفه فهو المردود، فالتأويل الباطل أنواع :

أحدهـا : ما لم يحتمله اللفظ بوضعه كتأويل قوله ﷺ : «حتى يضع رب العزة عليها رجله»(٢) بأن الرجل جماعة من الناس، فإن هذا لا يعرف في شيء من لغة العرب البتة .

الثاني : ما لم يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع وان احتمله مفردا كتأويل قوله : «لما خلقت بيدي»(٣) بالقدرة .

الثالث : ما لم يحتمله سياقه وتركيبه وان احتمله في غير ذلك السياق كتأويـل قولـه : ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيـات ربـك**﴾(٤) بأن إتيـان بعض آيـاتـه التي هي أمـره، وهذا يأباه

(١) هذه التأويلات استوفاها ابن حجر في فتح الباري ٢/٥٧٠-٥٧١ .

(٢) البخارى / التفسير باب (وتقول هل من مزيد) فتح البارى ٨/٥٩٥ ح٤٨٥٠ .
ومسلم / الجنة / باب النار يدخلها الجبارون ٤/١٨٦ ح٣٦.

(٣) سورة ص / ٧٥ .

(٤) سورة الأنعام / ١٥٨ .

السيـــاق كل الابـاء ، فإنـه يمتنـع حمله على ذلـك مع التقسيم والـترديـد والتنـويـع ، وكتأويـل قولـه : «انكم ترون ربكم عيـاناً كما ترون القمر ليلة البـدر صحـوا ليس دونـه سحـاب ، وكـما ترون الشمس في الظهيرة صحوا ليس دونهـا سحـاب»[1] فتأويـل الـرؤ ية في هذا السياق بما يخالف حقيقتها وظاهرها في غاية الامتناع ، وهو رد وتكذيب تستر صاحبه بالتأويل .

الـرابـع : ما لم يؤلف استعـماله في ذلك المعنى في لغة المخاطب وان ألف في الإصطـلاح الحـادث ، وهذا موضع زلت فيه أقدام كثير من الناس وضلت فيـه أفهـامهم ، حيث تأولـوا كثيرا من ألفاظ النصوص بما لم يؤ لف استعـمال اللفـظ له في لغـة العـرب البتـة ، وإن كان معهـودا في إصطـلاح المتأخـرين ، وهـذا مما ينبغي التنبـه له ، فإنه حصل بسببه من الكذب على الله ورسـولـه ما حصـل ، كما تأولت طائفـة قولـه تعـالى : ﴿**فلما أفل**﴾[2] بالحركة ، وقالوا : استدل بحركته على بطلان ربوبيته ، ولا يعرف في اللغة الــتي نزل بها الــقــرآن أن الأفــول هو الحــركــة الــبتــة[3] في موضــع

(١) البخـاري / التـوحيـد باب «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» فتح البارى ١٣ / ٤١٩ ح ٧٤٣٤ ، ٧٤٣٥ ، ٧٤٣٧ .

(٢) الأنعام / ٧٦ .

(٣) أصحاب هذا التأويل هم الفلاسفة ومن تبعهم من المتكلمين كالمعتزلة والأشاعرة زاعمين بذلك أنها طريقة إبراهيم عليه السلام ، وهذا تأويل باطل للأمور الآتية :

١ ـــ أن الأفـول ليس هو الحـركـة ـ كما يزعمـون ـ وذلـك باتفاق أهل اللغة والمفسرين ، فلا يسمى فى اللغة كل متحرك أو متغير أفلا ولا يقال للمتحرك أنه آفل ، فلا يقال للمصلي ، أو الماشى أنه آفل ، ولا يقال للتغير الذى هو استحالة كالمرض واصفرار الشمس أنه أفول ، فلا يقال للشمس إذا اصفرت أنها افلت وإنما يقال «افلت» إذا غابت واحتجبت ، وهذا من المتواتر المعلوم بالاضطرار من لغة العرب ، ان آفلا بمعنى غائب .

قال ابن فارس فى معجم مقـاييس اللغـة ١ / ١١٩ مادة «أفـل» : يقـال أفلت الشمس غابت ، ونجـوم أفل ، وكل شىء غاب فهو آفل ، قال :

فدع عنـك سعـدى إنـما تسعـف النـوى قران الـثـريـا مرة ثم تأفـل

قال الخليل : «واذا استقر اللقاح فى قرار الرحم فقد أفل» أهـ . . . =

واحـد[1]، وكـذلـك تأويـل الأحـد بأنه الذي لا يتميز منه شيء عن شيء البتـة، ثم قالـوا : لو كان فوق العـرش لم يكن أحداً فإن تأويل «أحد» بهذا المعنى لا يعرفه أحد من العرب ولا أهل اللغة، ولا يعرف استعماله في لغة القـوم في هذا المعنى في موضـع واحـد أصـلا، وإنـما هو إصطلاح الجهمية

= ٢ ــ ان الكواكب التى رآها إبراهيم عليه السلام كانت متحركة فى بزوغها، فلو أنه ـ عليه السلام ـ كان يستدل بالحركة التى يسمونها تغيرا، لكان قد قال ذلك من حين رآها بازغة، ولما انتظر أفولها.

٣ ــ ان إبـراهيم عليـه السـلام لم يكن بصدد اثبات وجود الله حتى يستدل بحادث على محدث، لأن قومـه كانـوا مشـركين يعبدون الكواكب والأصنام ويقرون بوجود الله تعالى، ولهذا قال الخليل عليه السـلام : ﴿أفرأيتم ما تعبدون أنتم وآباؤ كم الأقدمون فانهم عدو لى إلا رب العالمين﴾ الشعراء ٧٥ـ٧٧، فذكر ما كانوا يصنعـون من اتخـاذ الكـواكب والشمس والقمر ربا يعبدونه ويتقربون إليه فكانوا بذلك يشركون معه غيره فى العبادة فأراد أن يبين لهم أنه هو المستحق للعبادة وحده. انظر كتاب «البيهقى وموقفه من الالهيات للدكتور/ أحمـد عطيـة الغـامـدي ص١١٥، ١١٦، وانظر تفصيل الرد على التأويل عند ابن تيمية» درأ تعارض العقل والنقل» ١ / ١٠٠ـ١١٢ تحقيق محمد رشاد سالم ط الأولى سنة ١٣٩٩هـ.

(١) فى المختصر: ان الأفول هو الحركة فى موضع واحد البتة.

والفلاسفة والمعتزلة ومن وافقهم[1] وكتأويل قوله : ﴿**ثم استوى على العرش**﴾[2] بأن المعنى أقبل على خلق العرش، فإن هذا لا يعرف في لغة العرب بل ولا غيرها من الأمم أن من أقبل على الشيء يقال قد استوى

---

(١) الغرض من هذا التأويل نفي الصفات، وقد رد عليهم ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بقوله: «وأما استدلالهم بما في القرآن من تسمية الله أحدا وواحدا على نفي الصفات الذي بنوه على نفي التجسيم فيقال لهم: ليس في كلام العرب بل ولاعامة أهل اللغات أن الذات الموصوفة بالصفات لا تسمى واحدا، ولا تسمى أحدا في النفي والاثبات، بل المنقول بالتواتر عن العرب تسمية الموصوف بالصفات واحدا، وأحدا، حيث أطلقوا ذلك، ووحيدا، قال تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ المدثر/١١ وهو الوليد بن المغيرة، وقال تعالى: ﴿فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف﴾ النساء/١١، فسماها واحدة وهي امرأة واحدة متصفة بالصفات، بل جسم حامل للأعراض.

قال تعالى: ﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ التوبة/٦، وقال تعالى: ﴿قالت احداهما ياأبت استأجره﴾ القصص/٢٦، وقال تعالى: ﴿أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى﴾ البقرة/ ٢٨٢ وقال تعالى: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى﴾ الحجرات/ ٩ وقال: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ الاخلاص/٤، وقال: ﴿قل انى لن يجيرنى من الله أحد﴾ الجن/٢٢، وقال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ الكهف/ ١١٠، وقال تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ الكهف ٤٩.

فان كان لفظ الأحد لا يقال على ما قامت به الصفات، بل ولا على شيء من الأجسام التى تقوم بها الأعراض، لأنها منقسمة، لم يكن في الوجود غير الله من الملائكة والانس والجن والبهائم من يدخل في لفظ أحد، بل لم يكن في الموجودين ما يقال عليه في النفي إنه أحد، فاذا قيل: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ لم يكن هذا نفيا لمكافأة الرب إلا عمن لا وجود له، ولم يكن في الموجودات ما أخبر عنه بهذا الخطاب، أنه ليس كفؤا لله، وكذلك قوله: ﴿ولا أشرك بربى أحدا﴾ الكهف/٣٨ ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ فانه إذا لم يكن الأحد إلا ما لاينقسم وكل مخلوق وجسمه منقسم لم يكن في المخلوق ما يدخل في مسمى أحد، فيكون التقدير: ولا أشرك به ما لم يوجد، ولا يشرك بربه مالا يوجد، وإذا كان المراد النفي العام وان كل موجود من الانس والجن يدخل في مسمى أحد ويقال أنه أحد الرجلين، ويقال للأنثى: إحدى المرأتين، ويقال للمرأة: واحدة، وللرجل واحد ووحيد، علم أن اللغة التى نزل بها القرآن لفظ الواحد والأحد فيها يتناول الموصوفات، بل يتناول الجسم الحامل للأعراض، ولم يعرف أنهم أرادوا بهذا اللفظ ما لم يوصف أصلا ولا عرف منهم أنهم لايستعملونه إلا في غير الجسم، بل ليس في كلامهم ما يبين استعمالهم له في غير ما يسميه هؤلاء جسما فكيف يقال: لايدل إلا على نقيض ذلك، ولم يعرف استعماله إلا في النقيض ـ الذي أخرجوه منه ـ الوجودى دون النقيض الذي خصوه به وهو العدمي؟ وهل يكون في تبديل اللغة والقرآن أبلغ من هذا؟ أهـ.

«درأ تعارض العقل والنقل» ١/١١٣ـ١١٥.

وهكذا يتضح بعد هؤلاء في مصطلحاتهم التى يبنون عليها عقائدهم عن القرآن والسنة واللغة العربية التى نزل بها القرآن.

(٢) الأعراف / ٥٤.

عليـه، ولا يقـال لمن أقبـل على الرجل قد استوى عليه، ولا لمن أقبل على عمـل من الأعـمال من قراءة أوكتابـة أو صنـاعة قد استوى عليها، ولا لمن أقبل على الأكل قد استوى على الطعام .

فهذه لغة القوم وأشعارهم وألفاظهم موجودة ليس في شيء منها ذلك البتـة، وهـذا التأويـل يبطل من وجوه كثيرة سنذكرها في موضعها لولم يكن منهـا إلا تكـذيب رسول الله ﷺ لصاحب هذا التأويل لكفاه، فإنه قد ثبت في الصحيـح «ان الله قدر مقـاديـر الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسـين ألف سنـة وعـرشه على الماء»[1] فكان العرش موجودا قبل خلق السمـوات والأرض بأكثـر من خمسـين ألف سنـة، فكيف يقـال انـه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم أقبل على خلق العرش ؟ .

والتأويل إذا تضمن تكذيب (الرسول)[2] فحسبه ذلك بطلانا وأكثر تأويلات القوم من هذا الطراز، وسيمر بك منها ما هو قرة عين لكل موحد، وسخنة عين لكل ملحد .

الخـامس : ما ألف استعـمالـه في ذلـك المعنى لكن في غير التركيب الذي ورد به النص، فيحمله المتأول في هذا التركيب الذي لا يحتمله على مجيئـه في تركيب آخـر يحتمله، وهـذا من أقبح الغلط (والتلبيس)[3] كتأويل اليـدين في قولـه تعـالى : ﴿**مـا منعـك أن تسجـد لما خلقت بيـدي**﴾[4] بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول : لفلان عندي يد .

وقال عروة بن مسعود للصديق : لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك[5] .

---

(١) مسلم / كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى ٤/ ٢٠٤٤ ح١٦ .

(٢) من «ل» وفى الأصل (صاحبه).

(٣) فى «ل» (والبليه) .

(٤) ص / ٧٥ .

(٥) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٠٩ .

ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه، ثم تعدى الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير كتبت بالقلم، (وثنى)[1] اليد، وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر، كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه، وخص موسى بأنه كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك، فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب، وكذلك قوله: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[2] يستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب، فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله وعداه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين، ليس إلا، ووصف الوجوه بالنضرة التي لا تحصل إلا مع حضور ما يتنعم به لا مع التنغيص بانتظاره، فيستحيل مع هذا التركيب تأويل النظر بغير الرؤية، وإن كان النظر بمعنى الانتظار قد استعمل في قوله: ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**فناظرة بما يرجع المرسلون**﴾[4] ومثل هذا قول الجهمي الملبس: «إذا قال لك المشبه: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[5] فقل له: العرش له سبعة معان، والاستواء له خمسة معان، فأي ذلك المراد؟ فإن المشبه يتحير، ولا يدرى ما يقول، ويكفيك مؤنته».

فيقال لهذا الجاهل الظالم الفاتن المفتون: ويلك ما ذنب الموحد الذي سميته أنت وأصحابك مشبها وقد قال لك نفس ما قال الله؟ فوالله لو كان مشبها كما تزعم لكان أولى بالله ورسوله منك لأنه لم يتعد النص، وأما

---

(١) من «ل» وفي الأصل (وهي).
(٢) القيامة / ٢٢.
(٣) الحديد / ١٣.
(٤) النمل / ٣٥.
(٥) طه / ٥.

قولك : للعرش سبعة معان أو نحوها ، وللاستواء خمسة معان فتلبيس منك وتمويه على الجهال ، وكذب ظاهر ، فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد ، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معان فاللام (للعهد)[1] ، وقد صار بها العرش معينا ، وهو عرش الرب (الذي هو سرير ملكه الذي اتفقت عليه الرسل)[2] ، وأقرت به الأمم إلا من نابذ الرسل .

وقولك : الاستواء له عدة معان تلبيس آخر فإن الاستواء المعدى بأداة «على» ليس له إلا معنى واحد ، وأما الاستواء المطلق فله عدة معان ، فإن العرب تقول استوى كذا إذا انتهى وكمل ، ومنه قوله تعالى : ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾[3] ، وتقول استوى وكذا إذا ساواه ، نحو قولهم : استوى الماء والخشبة ، واستوى الليل والنهار ، وتقول : استوى إلى كذا إذا قصد إليه علوا وارتفاعا نحو استوى إلى السطح والجبل ، واستوى على كذا إذا ارتفع عليه وعلا عليه ، ولا تعرف العرب غير هذا ، فالاستواء في هذا التركيب نص لا يحتمل غير معناه كما هو نص في قوله : ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾ لا يحتمل غير معناه ، ونص في قولهم استوى الليل والنهار في معناه لا يحتمل غيره ، فدعوا التلبيس فإنه لا يجدي عليكم إلا مقتا عند الله وعند الذين آمنوا .

السادس : اللفظ الذي اطرد استعماله في معنى هو ظاهر فيه ، ولم يعهد استعماله في المعنى المؤل ، أو عهد استعماله فيه نادرا فتأويله حيث ورد ، وحمله على خلاف المعهود من استعماله باطل فإنه يكون تلبيسا وتدليسا يناقض البيان والهداية ، بل إذا أرادوا استعمال مثل هذا في غير معناه المعهود حفوا به من القرائن ما يبين للسامع مرادهم به لئلا يسبق فهمه إلى معناه المألوف ومن تأمل لغة القوم وكمال هذه اللغة وحكمة واضعها

(١) من «ل» وفي الأصل (للعرش) .

(٢) من «ل» .

(٣) القصص / ١٤ .

تبين له صحة ذلك، وأما أنهم يأتون إلى لفظ له معنى قد ألف استعماله فيه فيخرجونه عن معناه ويطردون استعماله في غيره مع تأكيده بقرائن تدل على أنهم أرادوا معناه الأصلى فهذا من أمحل المحال، مثاله قوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾(1) وقوله ﷺ: «ما منكم إلا من سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ولا حاجب يحجبه»(2)، وقوله: «انكم ترون ربكم عياناً»(3)، وهذا شأن أكثر نصوص الصفات إذا تأملها من شرح الله صدره لقبولها وفرح بما أنزل على الرسول منها، يراها قد حفت بها من القرائن والمؤكدات بما ينفي عنها تأول المتأول.

السابع: كل تأويل يعود على أصل النص بالإبطال فهو باطل، كتأويل قوله ﷺ: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير اذن وليها فنكاحها باطل»(4) بحمله على الأمة، فإن هذا التأويل مع شدة مخالفته لظاهر اللفظ يرجع على أصل النص بالإبطال، وهو قوله: «فإن دخل بها فلها

---

(1) النساء / ١٦٤.

(2) البخاري كتاب التوحيد «باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم» فتح البارى ٤٧٤/١٣ ح٧٥١٢ عن عدي بن حاتم. مسلم / الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق ثمرة ٧٠٣/٢ ح٦٧. وابن ماجه / الزكاة باب فضل الصدقة ٥٩٠/١ ح١٨٤٣. وابن خزيمة في التوحيد باب ذكر بعض ما يكلم به الخالق جل وعلا عباده ص١٥١ من حديث عدى وفيه زيادة «يترجم له».

(3) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ح (٧٤٣٥) فتح البارى ٤١٩/١٣.

(4) أبو داود / كتاب النكاح / «باب فى الولى» ٥٦٨/٢ ح٢٠٨٣ من حديث أبى موسى الأشعرى.

وقد ذكر الخطابى فى معالم السنن تأويلا آخر فقال: «وقد تأوله بعضهم على نفى الفضيلة والكمال، وهذا تأويل فاسد لأن العموم يأتى على أصله جوازا أو كمالا، والنفى فى المعاملات يوجب الفساد، لأنه ليس لها إلا جهة واحدة، وليس كالعبادات والقرب التى لها جهتان من جواز ناقص وكامل، وكذلك تأويل من زعم أنها ولية نفسها، وتأول معنى الحديث على أنها اذا عقدت على نفسها فقد حصل نكاحها بولي، وذلك أن الولى هو الذي يلي على غيره ولو جاز هذا فى الولاية لجاز مثله فى الشهادة، فتكون هي الشاهدة على نفسها، فلما كان فى الشاهد فاسدا كان فى الولي مثله» أهـ. انظر حاشية أبي داود ٥٦٨/٢. وكذا أخرجه ابن ماجه والترمذى فى النكاح «باب لا نكاح إلا بولى» انظر ابن ماجه ٦٠٥/١ ح١٨٨١ والترمذي مع تحفة الأحوذي ٢٢٦/٤ ح١١٠٧.

المهر بما استحل من فرجها»، ومهر الأمة إنما هو للسيد، فقالوا نحمله على المكاتبة، وهذا يرجع على أصل النص بالإبطال من وجه آخر، فإنه أتى فيه بأيْ الشرطية التي هي من أدوات العموم (وأكدها بما المقتضية تأكيد العموم)[1]، وأتى بالنكرة في سياق الشرط وهي تقتضي العموم، وعلق بطلان النكاح بالوصف المناسب له، المقتضى لوجود الحكم بوجوده وهو نكاحها نفسها، ونبه على العلة المقتضية للبطلان وهي افتياتها على وليها، وأكد الحكم بالبطلان مرة بعد مرة ثلاث مرات فحمله على صورة لا تقع في العالم إلا نادرا يرجع على مقصود النص بالإبطال، وأنت إذا تأملت عامة تأويلات الجهمية، رأيتها من هذا الجنس بل أشنع .

الثامن : تأويل اللفظ الذي له معنى ظاهر لا يفهم منه عند اطلاقه سواه بالمعنى الخفي الذي لا يطلع عليه إلا أفراد من أهل النظر والكلام كتأويل لفظ الأحد الذي تفهمه الخاصة والعامة بالذات المجردة عن الصفات التي لا يكون فيها معنيان بوجه ما، فإن هذا لو أمكن ثبوته في الخارج لم يعرف إلا بعد مقدمات طويلة ضعيفة جدا، فكيف وهو محال في الخارج، وإنما يفرضه الذهن فرضا، ثم يستدل على وجوده في الخارج، فيستحيل وضع اللفظ المشهور عند كل أحد لهذا المعنى الذي هو في غاية الخفاء، وسيمر بك نظائره إن شاء الله .

التاسع : التأويل الذي يوجب تعطيل المعنى الذي هو في غاية العلو والشرف ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة وهو شبيه بعزل السلطان عن ملكه، وتوليته مرتبة دون الملك بكثير، مثاله تأويل الجهمية قوله : ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾[2]، وقوله : ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾[3] ونظائره

(١) ما بين القوسين من «ل».

(٢) الأنعام / ١٨ ، ٦١ .

(٣) النحل / ٥٠ .

بأنها فوقية الشرف، كقولهم : الدرهم فوق الفلس، والدينار فوق الدرهم، فتأمل تعطيل المتأولين حقيقة الفوقية المطلقة التي هي من خصائص الربوبية وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله، وحطها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم، وأنه أشرف منهم، وكذلك تأويلهم علوه بهذا المعنى وأنه كعلو الذهب على الفضة وكذلك تأويلهم استواءه على عرشه بقدرته عليه، وأنه غالب له، فيالله العجب هل ضلت العقول وتاهت الأحْلام وشكت العقلاء في كونه سبحانه غالبا لعرشه، قادرا عليه حتى يخبر به سبحانه في سبعة مواضع من كتابه مطردة بلفظ واحد ليس فيها موضع واحد يراد به المعنى الذي أبداه المتأولون وهذا التمدح والتعظيم كله لأجل أن يعرفنا أنه قد غلب عرشه، وقدر عليه وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض ؟ أفترى (أنه)[1] لم يكن سبحانه غالبا للعرش قادرا عليه في مدة تزيد على خمسين ألف سنة ثم تجدد له ذلك بعد خلق هذا العالم ؟

العاشر : تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه، إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ، فإن الله سبحانه أنزل كلامه بيانا وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم تحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحد، لم يكن بيانا ولا هدى، فهذه بعض الوجوه التي يفرق بها بين التأويل الصحيح والباطل. والله المستعان .

(١) « انه من «ل» .

الفصل الثالث

في أن التأويل أخبار عن مراد المتكلم لا انشاء

فهذا الموضوع(١) مما يغلط فيه كثير من الناس غلطا قبيحا، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل : معنى اللفظ كذا وكذا كان اخبارا بالذي عناه المتكلم فإن لم يكن هذا الخبر مطابقا كان كذبا على المتكلم، ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة منها أن يصرح بإرادة ذلك المعنى، ومنها أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله : ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾(٢)، «وانكم ترون ربكم عيانا(٣) كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب»(٣)، و «الله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته بأرض دويه مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها، فنام ثم استيقظ فإذا راحلته عند رأسه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته»(٤)، فهذا مما يقطع السامع فيه بمراد المتكلم، فإذا أخبره عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة له كان صادقا في اخباره، وأما إذا تأول كلامه بما لم يدل عليه لفظه ولا اقترن به ما

---

(١) في «ل» (الموضع) .

(٢) النساء / ١٦٤ .

(٣) البخاري / كتاب التوحيد باب وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة فتح الباري ١٣ / ٤١٩ ح٧٤٣٥ وح٧٤٣٧.

(٤) مسلم كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها ٤ / ٢١٠٢ ح٢٧٤٤، قال ابن الأثير : الدوية : منسوبة إلى الدو وهو الصحراء التي لا نبات بها . انظر منال الطالب في شرح طوال الغرائب ص٤٠ تحقيق الدكتور / محمود محمد الطناجي .

يدل عليه فاخباره بأن هذا مراده كذب عليه، فقول القائل : ويحمل اللفظ على كذا وكذا، يقال له : ما تعنى بالحمل ؟ أتعنى به أن اللفظ موضوع لهذا المعنى، فهذا نقل مجرد موضعه كتب اللغة فلا أثر لحملك .

أم تعنى به اعتقاد أن المتكلم أراد ذلك المعنى الذي حملته عليه فهذا قول عليه بلا علم، وهو كذب مفترى إن لم تأت بدليل يدل على أن المتكلم أراده، أم تعني به (أنك أنشأت)[1] له معنى، فإذا سمعته اعتقدت أن ذلك معناه، وهذا حقيقة قولك وإن لم ترده .

فالحمل اما اخبار عن المتكلم بأنه أراد ذلك المعنى، فهذا الخبر اما صادق إن كان ذلك المعنى هو المفهوم من لفظ المتكلم، واما كاذب إن كان لفظه لم يدل عليه، واما إنشاء لاستعمال ذلك اللفظ في هذا المعنى، وهذا إنما يكون في (كلام)[2] تنشئة أنت لا في كلام الغير، وحقيقة الأمر أن قول القائل نحمله على كذا أو نتأوله بكذا إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ على ما وضع له، فإن منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده دفع معناه وقال أحمله على خلاف ظاهره .

فإن قيل : بل للحمل معنى آخر لم يذكروه وهو أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره ولا يمكن تعطيله استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء وانشاء .

قيل : فهذا المعنى هو الاخبار عن المتكلم أنه أراده وهو إما صدق أو كذب كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذي أراده، بل يقترن بكلامه ما يؤكد إرادة حقيقته ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره إذا قصد التعمية على

---

(١) في «ل» أن الشيء .

(٢) من «ل» ، وفي الأصل (في كلامه) .

السامع حيث يسوغ ذلك كما في المعاريض التي يجب أو يسوغ تعاطيها(١) ولكن المنكر غاية الإنكار أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته إذا قصد البيان والإيضاح وافهام مراده .

فالخطاب نوعان :

نوع يقصد به التعمية على السامع .

ونوع يقصد به البيان والهداية والارشاد .

فاطلاق اللفظ وإرادة خلاف حقيقته وظاهره من غير قرائن (تحتف)(٢) به تبين المعنى المراد محله النوع الأول لا الثاني . والله أعلم .

---

(١) قال الجوهري : التعريض خلاف التصريح ، يقال : عرضت لفلان وبفلان اذا قلت قولا وأنت تعنيه ، ومنه المعاريض فى الكلام ، وهى التورية بالشيء عن الشيء . انظر الصحاح بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار ١٠٨٧/٣ .

وفى الحديث : (ان فى معاريض الكلام مندوحة عن الكذب) وقد ترجم الامام البخارى بلفظ هذا الحديث حيث قال «باب : المعاريض مندوحة عن الكذب» كتاب الأدب باب ١١٦ .

قال ابن حجر: وهذه الترجمة لفظ حديث أخرجه المصنف فى الأدب المفرد من طريق قتادة عن مطرف ابن عبد الله قال : صحبت عمران بن حصين من الكوفة إلى البصرة فما أتى عليه يوم إلا أنشدنا فيه شعرا وقال : ان فى معاريض الكلام مندوحة عن الكذب . وأخرجه الطبري في التهذيب . والطبراني في الكبير ورجاله ثقات . انظر فتح البارى ٥٩٤/١٠ .

(٢) فى «الأصل» (تختص) بالصاد ، المهملة ، وما أثبتناه من «ل» .

الفصل الرابع

في الفرق بين تأويل الخبر وتأويل الطلب

لما كان الكلام نوعين : خبر وطلب، وكان المقصود من الخبر تصديقه، ومن الطلب امتثاله، كان المقصود من تأويل الخبر هو تصديق مخبره، ومن تأويل الطلب هو امتثاله، وكان كل تأويل يعود على المُخْبَر (به) بالتعطيل وعلى الطلب بالمخالفة، تأويلا باطلا، والمقصود الفرق بين تأويل الأمر والنهي، وتأويل الخبر .

فالأول معرفته فرض على كل مكلف، لأنه لا يمكنه الامتثال إلا بعد معرفة تأويله، قال سفيان بن عيينة[1]: السنة هي تأويل الأمر والنهي، ولا خلاف بين الأمة أن الراسخين في العلم يعلمون هذا التأويل وأرسخهم في العلم أعلمهم به، ولو كان معرفة هذا التأويل ممتنعا على البشر لا يعلمه إلا الله لكان العمل بنصوصه ممتنعا[2]، كيف والعمل بها واجب، فلابد أن يكون في الأمة من يعرف تأويلها، والا كانت الأمة كلها مضيعة لما أمرت به، وقد يكون معنى النص بينا جليا، فلا تختلف الأمة في تأويله، وان وقع الخلاف في حكمه لخفائه على من لم يبلغه أو لقيام معارض عنده، أو

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ فقيه إمام حجة من رؤوس الطبقة الثامنة مات في رجب سنة ثمان وتسعين - أي ومائة - وله احدى وتسعون سنة. تقريب التهذيب ١/٣١٢.

(٢) نقول: المقصود بالتأويل للأمر والنهي التفسير لهما للعمل بما دل عليه الأمر والنهي وهو ما درج عليه ابن جرير في تفسيره حيث يقول: القول في تأويل قوله تعالى، كذا، وقلنا في تأويل كذا يعني في تفسيره، وقال أهل التأويل: يعنى أهل التفسير.

لنسيـانـه ، فهذا يعذر فيه المخالف إذا كان قصده اتباع الحق(١) ، ويثيبه الله على قصده .

وأمـا من بلغـه النص وذكـره ولم يقم عنـده ما يعـارضه فإنه لا يسعه مخالفته ، ولا يعذر عند الله بتركه لقول أحد كائنا من كان ، وقد تكون دلالة اللفـظ غير جليـة فيشتبـه المـراد به بغـيره ، فهنـا معـترك النـزاع بين أهـل الاجتهـاد في تأويله ، ولأجـل التشـابـه وقـع النزاع ، فيفهم منها هذا معنى يؤ لهـا به ، ويفهم منهـا غيره معنى آخـر فيتأولها به ، وقد يكون كلا الفهمين صحيحا ، والآية دلت على هذا وهذا ، ويكون الراسخ في العلم هو الذي أولهـا بهذا وهـذا ، ومن أثبت أحـد المعنيـين ونفى الآخـر أقل رسوخا ، وقد يكون أحد المعنيين هو المراد لاسيما إذا كانا متضادين ، والراسخ في العلم هو الذي أصابه ، فالتأويل في هذا القسم مأمور به مأجور عليه صاحبه اما أجرا واحـدا وامـا أجرين ، وقد تنازع الصحابة في تأويل قوله تعالى : ﴿**أو يعفو الذي بيده عقدة**(٢) **النكاح**﴾(٣) وهل هو الأب أو الزوج ، وتنازعوا في تأويل

---

(١) مثـال ذلـك ما حصـل من خلاف بين أبي بكـر وعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ حين عزم أبو بكر رضي الله عنه على قتال ما نعي الزكاة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : (لما توفى رسول الله ﷺ وارتـد من ارتـد من العـرب قال عمـر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمـرت أن أقـاتـل النـاس حتى يشهـدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله؟ فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقها؟ فان الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤ دونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها ، فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر فعلمت أنه الحق) مسلم كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١ /٥٣ ح٣٦ . والبخـاري في كتـاب الاعتصـام باب قول الله تعـالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ فتح الباري ١٣ / ٣٣٩ .

(٢) وهذه الأمثلة التي أوردها المصنف واختلاف العلماء في تأويلها وهم مأمورون بالاجتهاد في التأويل ومأجـورون على ذلـك الاجتهـاد . توضـح للمنصـف المـريد للحق أنه لا خلاف بين علماء السلف في أصول العقائد ، لا في أسماء الله ولا في صفاته ، وإنما ذلك الخلاف والتأويل هو في مسائل الأحكام العملية .

(٣) البقرة / ٢٣٧ .

قولــه : ﴿أو لامستم النســـاء﴾[1] هل هو الجـماع أو اللمس باليـد والقبلة ونحوها، وتنازعوا في تأويل قوله : ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾[2] هل هو المسافر يصلي بالتيمم مع الجنابة، أو المجتاز بمواضع الصلاة كالمساجد وهو جنب ؟ وتنـازعوا في تأويل ﴿ذي القربى﴾[3] المستحقين من الخمس، هل هم قرابـة رسـول الله ﷺ أو قرابـة الإمام ؟ وتنازعوا في تأويل قوله تعالى : ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾[4] هل يدخل فيه قراءة الصلاة الـواجبـة أم لا[*]؟ وتنـازعـوا في تأويـل قولـه : ﴿والـذين يتـوفـون منكم ويـذرون أزواجـا يتربصن بأنفسهن أربعـة أشهـر وعشرا﴾[5] هل يتناول اللفظ الحامل أم هو للحايل فقط ؟ وتنازعوا في قوله : ﴿حرمت عليكم الميتـة﴾[6] هل يدخـل فيـه ما مات (في)[7] البحر أم لا ؟ وتنازعوا في تأويل الكـلالـة، وفي تأويل قوله تعالى : ﴿فإن كان له اخوة فلأمه السدس﴾[8] وأمثال ذلك .

---

(١) النساء / ٤٣ .

(٢) النساء / ٤٣ .

(٣) يقصـد المصنف ما ورد في قولـه تعـالى في سورة الأنفـال : ﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى . . . الآية﴾ الأنفال / ٤١ .

(*) قوله : قراءة الصلاة الواجبة ـ يعني قراءة الفاتحة للمأموم لقوله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» .

(٤) الأعراف / ٢٠٤ .

(٥) البقرة / ٢٣٤ .

(٦) المائدة / ٣ .

(٧) في الأصل (من) .

(٨) النساء / ١١ .

ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد(1) بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وامرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانا، وأن العناية ببيانها أهم، لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله ورسوله بيانا شافيا لا يقع فيه لبس ولا اشكال يوقع الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه، ومن شرح الله لها صدره ونور لها قلبه يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام، أعنى فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية، ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله : **﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾**(2) حتى بين لهم بقوله : **﴿من الفجر﴾** ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله : **﴿وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾**(3)، (وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة ولم يشكل عليه أول الحديد وآخر الحشر وأول سورة طه)(4)، وأمثالها من آيات الصفات، وأيضا فإن

(1) هذا هو المذهب الحق في صفات الله عز وجل لأن القول فيها توقيفي، فلا يجوز التعدى على ما ورد من نصوص في الكتاب أو السنة بتأويلها وصرفها عن ظاهر معناها المراد، ولأن السلف رضوان الله عليهم قد تلقوا هذه النصوص بالقبول وأجروها على ظاهرها مع فهم معناها من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل، ولم يحدث بينهم خلاف في ذلك أبدا ولو حصل لنقل إلينا كما نقل إلينا إختلافهم في بعض مسائل الفروع التي أشار إلى بعضها المصنف.

يقول المقريزي : (ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على إختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات) أنظر الخطط للمقريزي ٣٥٦/٢.

(2) البقرة / ١٨٧.

(3) البقرة / ١٨٦.

(4) ما بين القوسين من «ل».

بعض آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى : ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾[1] فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام فبينته السنة بأنه صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة[2].

(وكذلك قوله : ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ مجمل في مقدار الطواف فبينته السنة بأنه سبع)[3]، ونظائره كثيرة كآية السرقة[4] وآية الزكاة[5]، وآية الحج[6]، وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج، بل بيانها فيها، وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل فلم تكن آيات الصفات مجملة محتملة لا يعلم المراد منها إلا بالسنة، بخلاف آيات الأحكام .

فإن قيل هذا يرده ما قد عرف أن آيات الأمر والنهي، والحلال والحرام محكمة وآيات الصفات متشابهة فكيف يكون المتشابه أوضح من المحكم ؟ قيل التشابه والإحكام نوعان : تشابه وإحكام يعم الكتاب كله، وتشابه وإحكام يخص بعضه دون بعض .

---

(١) البقرة /١٩٦.

(٢) يشير بذلك إلى حديث كعب بن عجرة في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال له : (لعله آذاك هوامك؟ قال : نعم يارسول الله، فقال رسول الله ﷺ : إحلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك بشاة) البخاري كتاب المحصر باب قول الله تعالى : ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه . . .﴾ فتح الباري ١٢/٤ ح١٨١٤ ومسلم كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى . . .) ٢/٨٦٠ ح٨١.

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) هي قوله تعالى : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا . . .﴾ الآية المائدة/٣٨، فالآية لم تبين مواضع القطع ولا مقدار المسروق الذي يقطع فيه وبينته السنة.

(٥) الآيات التي تدل على وجوب الزكاة كثيرة وجميعها مجملة وقد بينتها السنة منها قوله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾ المزمل/٢٠.

(٦) قوله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من إستطاع إليه سبيلا﴾ آل عمران/٣، فهذه مجملة وقد بين الرسول ﷺ في حجة الوداع كيفية أداء مناسك الحج وقال : (خذوا عني مناسككم).

فالأول : كقوله تعالى : ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها**﴾[1]، وقوله : ﴿**كتاب أحكمت آياته**﴾[2]، وقوله : ﴿**يس والقرآن الحكيم**﴾[3].

والثاني : كقوله : ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات**﴾[4]، فإن أردتم بتشابه آيات الصفات النوع الأول فنعم هي متشابهة غير متناقضة يشبه بعضها بعضا، وكذلك آيات الأحكام .

وإن أردتم أنه يشتبه المراد بها بغير المراد فهذا وإن كان يعرض لبعض الناس فهو أمر نسبي إضافي، فيكون متشابه بالنسبة إليه دون غيره ولا فرق في هذا بين آيات الأحكام وآيات الصفات، فإن المراد قد يشتبه فيهما بغيره على بعض الناس دون بعض، وقد تنازع الناس في المحكم والمتشابه تنازعا كثيرا، ولم يعرف عن أحد من الصحابة قط أن المتشابه آيات الصفات، بل المنقول عنهم يدل على خلاف ذلك، فكيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم، وهم لا يتنازعون في شيء منها، وآيات الأحكام هي المحكمة، وقد وقع بينهم النزاع في بعضها، وإنما هذا قول بعض المتأخرين، وسيأتي اشباع الكلام في هذا في الفصل المعقود له إن شاء الله .

---

(١) الزمر/٢٣.

(٢) هود/١.

(٣) يس/١، ٢.

(٤) آل عمران/٧.

الفصل الخامس

في الفرق بين تأويل التحريف وتأويل التفسير

وأن الأول ممتنع وقوعه في الخبر والطلب، والثاني يقع فيهما، ذكر الله سبحانه التحريف وذمه حيث ذكره، وذكر التفسير، وذكر التأويل، فالتفسير هو إبانة المعنى وإيضاحه، قال الله تعالى : ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾(١) وهذا غاية الكمال أن يكون المعنى في نفسه حقا، والتعبير عنه أفصح تعبير وأحسنه، وهذا شأن القرآن وكلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

والتحريف : العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره وهو نوعان : تحريف لفظه، وتحريف معناه، والنوعان مأخوذان في الأصل عن اليهود، فهم الراسخون فيهما، وهم شيوخ المحرفين وسلفهم فيهما فإنهم حرفوا كثيرا من ألفاظ التوراة، وما غلبوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه، ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم، ودرج على آثارهم في ذلك الرافضة(٢) فهم أشبه بهم من القذة بالقذة،

---

(١) الفرقان/٣٣.

(٢) الرافضة : هم جماعة من غلاة الشيعة وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وهم مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على إستخلاف علي بن أبي طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الامامة لا تكون إلا بنص وتوقيف وأنها قرابة، وأنه جائز للإمام في حالة التقية أن يقول إنه ليس بإمام، وأبطلوا جميعا الإجتهاد في الأحكام، وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس. انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ١/٨٩.

وقيل : انما سموا رافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي وتركوه، ثم لزم هذا الاسم كل من غلا منهم في مذهبه، ويبغض السلف.

انظر : كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازى ص ٢٧٠ بتحقيق الدكتور/ عبد الله سلوم السامرائى . =

والجهميـة(١) فإنهم سلكوا في تحريف النصوص الواردة في الصفات مسالك اخـوانهم من اليهـود، ولما لم يتمكنـوا من تحريف نصـوص القـرآن حرفـوا معانيه، وسطوا عليها وفتحوا باب التأويل لكل ملحد يكيد الدين فإنه جاء فوجـد بابـا مفتـوحا وطريقا مسلوكة ولم يمكنهم أن يخرجوه من باب أو يردوه من طريق، وقد شاركوه فيها وإن كان الملحد قد وسع بابا هم فتحوه وطريقا هم اشتقـوه، فهـما بمنـزلـة رجلين أؤ تمنا على مال فتأول أحدهما وأكل منه دينارا فتأول الآخر وأكل منه عشرة، فإذا أنكر عليه صاحبه قال ان حل أكل الدينار بالتأويل حل أكل العشرة به، ولاسيما إذا زعم آكل الدينار أن الذي أئتمنه إنما أراد منه التأويل، وأن المتأول أعلم بمراده من الممسك، فيقول له صاحبه: أنا أسعد منك، وأولى بأكل هذا المال.

والمقصود أن التأويل يتجاذبه أصلان، التفسير والتحريف، فتأويل التفسير هو الحق، وتأويـل التحـريف هو البـاطـل، فتأويل التحريف من

= وقال عبد الله: سألت أبي عن الرافضة، فقال: هم الذين يشتمون أو يسبون أبابكر وعمر رضي الله عنهما (الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٥٦٧).

(١) الجهميـة: أتبـاع جهم بن صفـوان، وهـو من أهـل خراسـان ينسـب إلى سمـرقند وزمنه ومحتده الكوفة، ويكنى أبا محرز، وكان مولى لبني راسب من الأزد، أخذ الكلام عن الجعد بن درهم، وكان فصيحا وكان صاحب مجادلات ومخاصمات في مسائل الكلام التي يدعو إليها، وكان أكثر كلامه في الإلهيات.

يقول بعض من أرخه: لم يكن لجهم نفاذ في العلم - يعني بالعلم علم الحديث والأثر - فإن الجمهور كان منكبا على تحمل الحديث وآثار الصحابة ومروياتهم، إلا فئة المتكلمين وفي مقدمتهم الجهم وإخوانه فلم يكن لهم عناية برواية الحديث ولا تحمله، وكانوا يرون العلم ما هم فيه من علم الكلام، ولذا كانوا يلقبون حملة الأثر بالحشوية. انظر تاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمي ص١٠.

وقـد حدث مذهب الجهم بعـد عصـر الصحـابة رضي الله عنهم ببلاد المشرق فعظمت الفتنة به، فإنه نفى أن يكون لله تعالى صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثرت في الملة الإسلامية آثارا قبيحة تولد عنها بلاء كبير، وكـان قبيـل المـائـة من سني الهجرة فكثـر أتباعه على أقواله التي تؤول إلى التعطيل فأكبر أهل الإسـلام بدعتـه، وتمـالؤا على انكـارها وتضليل أهلها وحذروا من الجهمية وعادوهم في الله وذموا من جلس إليهم، وكتبوا في الرد عليهم ما هو معروف عند أهله. انظر الخطط للمقريزي ٢/٣٥٧.

جنس الإلحاد، فإنه هو الميل بالنصوص عن ما هي عليه اما بالطعن فيها أو باخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها، وكذلك الإلحاد في أسماء الله تارة يكون بجحد معانيها وحقائقها وتارة يكون بإنكار المسمى بها، وتارة يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها .

فالتأويل الباطل هو إلحاد وتحريف، وإن سماه أصحابه تحقيقا وعرفانا وتأويلا .

فمن تأويل التحريف والإلحاد تأويل الجهمية قوله تعالى : ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾[1] أي جرح قلبه بالحكم والمعارف تجريحا .

ومن تحريف اللفظ تحريف إعراب قوله : ﴿**وكلم الله**﴾ من الرفع إلى النصب[2] وقال : ﴿**وكلم الله**﴾ أي موسى كلم الله ولم يكلمه الله وهذا من جنس تحريف اليهود، بل أقبح منه، واليهود في هذا الموضع أولى بالحق منهم، ولما حرفها بعض الجهمية هذا التحريف قال له بعض أهل التوحيد فكيف تصنع بقوله : ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾[3] فبهت المحرف .

ومن هذا أن بعض الفرعونية سأل بعض أئمة العربية هل يمكن أن يقرأ العرش بالرفع في قوله : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[4] وقصد

---

(١) سورة النساء / ١٦٤ .

(٢) ذكر شارح الطحاوية أن أحد المعتزلة قال لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ : أريد أن تقرأ ﴿وكلم الله موسى﴾ بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال أبو عمرو : هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾؟ فبهت المعتزلي .
شرح الطحاوية ص ١٢٠ .

(٣) الأعراف / ١٤٣ .

(٤) طه / ٥ .

الفـرعـوني بهذا التحريف أن يكون الاستواء صفة للمخلوق لا للخالق[1] ولـو تيسـر لهذا الفـرعـوني هذا التحريف في هذا الموضع لم يتيسر له في سائر الآيـات، ومن تأويـل التحـريف تأويـل قوله ﷺ : «إذا تكلم الله بالوحي سمـع أهـل السموات كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون فيكون أول من يفيق جبريل»[2].

قالوا : تأويله إذا تكلم ملك الله بالوحي، لا أن الله يتكلم فجعلوا

---

(١) يقصـد ابن القيم ـ رحمـه الله ـ بهذا الكـلام أن عامـة المتكلمـين أخذوا عن المتقدمين من أئمتهم تحريف النصـوص عن دلالتهـا بحجـة أن العقـل يحيـل ظواهـرهـا ويقتضي تأويلها، إلا أن الحق أن العقل الصريح إنما يوافق ما أثبتته النصوص. وليس بين المعقول الصريح والمنقول الصحيح تناقض أصلا.

أما ما يذكره هؤلاء من المعقول المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إنما هو جهل وضلال تقلده متأخروهم عن متقدميهم وسموا ذلك عقليات، وإنما هي جهليات، ومن طلب منه تحقيق ما قاله أئمة الضلال بالمعقول لم يرجع إلا إلى مجرد تقليدهم، فهم يكفرون بالشرع ويخالفون العقل، تقليدا لمن توهموا أنه عالم بالعقليات.

انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧٢/٥.

ويـذكـر الإمـام ابن تيميـة رحمـه الله وجـه الشبه بين هؤلاء وبين قوم فرعون بقوله : «وهم مع أئمتهم الضلال كقوم فرعون معه حيث قال الله تعالى : ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال تعالى عنه : ﴿واستكبر هو وجنـوده في الأرض بغـير الحق وظنـوا أنهم إلينـا لا يرجعون، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في أليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ وفرعون هو إمام النفاة، ولهذا صرح محققوا النفاة بأنهم على قوله كما يصرح به الاتحـاديـة من الجهميـة النفاة، إذ هو أنكر العلو وكذب موسى فيه، وأنكر تكليم الله لموسى، قال تعالى : ﴿وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى واني لأظنه كاذبا﴾.

نفس المصدر ١٧٢/٥.

فتأويـلات المأولين تحريف صريـح حقيقتـه النفي المحض لمخـالفته النقل والعقل معا، لأن لازم قول هؤلاء أن القرآن والسنة لم يتكلما إلا بما يفيد الضلال، وأن عقولهم أهدى لهم من وحي الله، وأن الرسول ﷺ لم يأتهم إلا بما يرشدهم إلى الضلال، لا إلى الهدى، وتكون الجاهلية خيراً من رسالة الإسلام التي لم تجلب لهم ـ على حد مذهبهم وترهاتهم ـ إلا الضرر لا النفع، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة باب ٢٢ حديث ٤٧٣٨، ورواه البخاري تعليقا في كتاب التوحيد من صحيحه باب قول الله تعالى : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ الآية.

صعق الملائكة وخرورهم سجدا لكلام جبريل الذي قد صعق معهم من كلام نفسه .

ومن تأويل التحريف تأويل القدرية المجوسية نصوص القدر بما أخرجها عن حقائقها ومعانيها ، وتأويل الجهمية نصوص الصفات بما أخرجها عن حقائقها وأوجب تعطيل الرب جل جلاله عن صفات كماله كما عطلته القدرية عن كمال قدرته ومشيئته ، فنحن لا ننكر التأويل ، بل حقيقة العلم هو التأويل[1] ، والراسخون في العلم هم أهل التأويل ولكن أي التأويلين ؟ فنحن أسعد بتأويل التفسير من غيرنا ، وغيرنا أشقى بتأويل التحريف منا ، والله الموفق للصواب .

(١) قال تعالى : ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ الأعراف/ ٥٣ .

الفصل السادس

في تعجيز المتأولين عن تحقيق الفرق بين ما يسوغ تأويله من آيات الصفات وأحاديثها وما لا يسوغ

لاريب أن الله سبحانه وصف نفسه بصفات وسمى نفسه بأسماء وأخبر عن نفسه بأفعال، فسمى نفسه بالرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر إلى سائر ما ذكر من أسمائه الحسنى[(١)]، ووصف نفسه بما ذكره من الصفات كسورة الإخلاص، وأول الحديد، وأول طه، وغير ذلك، ووصف نفسه بأنه يحب ويكره، ويمقت ويرضى ويغضب ويأسف ويسخط ويجيء ويأتي وينزل إلى سماء الدنيا، وأنه استوى على عرشه، وأن له علما وحياة وقدرة وإرادة وسمعا وبصرا ووجها، وأن له يدين وأنه فوق عباده، وأن الملائكة تعرج إليه وتنزل بالأمر من عنده، وأنه قريب وأنه مع المحسنين ومع الصابرين ومع المتقين، وأن السموات مطويات بيمينه، ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك، وأن قلوب العباد بين أصابعه، وغير ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، فيقال للمتأول : هل تتأول هذا كله على خلاف ظاهره وتمنع حمله على حقيقته، أم تقر الجميع على ظاهره وحقيقته، أم تفرق بين بعض ذلك وبعضه . فإن تأولت الجميع وحملته على خلاف حقيقته كان ذلك عنادا ظاهرا، وكفرا صراحا، وجحدا لربوبيته، وحينئذ فلا يستقر لك قدم على إثبات ذات

---

(١) قال تعالى في آخر سورة الحشر : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ سورة الحشر آية ٢٢-٢٤ .

الرب تعالى ولا صفة من صفاته ولا فعل من أفعاله ، فإن أعطيت هذا من نفسك ولم تستهجنه التحقت باخوانك الدهرية الملاحدة الذين لا يثبتون للعالم خالقا ولا ربا .

فإن قلت : بل أثبت أن للعالم صانعا وخالقا ولكن لا أصفه بصفة تقع على خلقه ، وحيث وصف بما يقع على المخلوق أتأوله .

قيل لك : فهذه الأسماء الحسنى والصفات التي وصف بها نفسه هل تدل على معان ثابتة هي حق في نفسها أم لا تدل ، فإن نفيت دلالتها على معان هي حق ثابت ، قيل لك : فما الذي سوغ لك تأويل بعضها دون بعض ؟ وما الفرق بين ما أثبته ونفيته وسكت عن إثباته ونفيه من جهة السمع أو العقل ؟ ودلالة النصوص على أن له سمعا وبصرا وعلما وقدرة وإرادة وحياة وكلاما كدلالتها على أن له رحمة ومحبة وغضبا ورضا وفرحا وضحكا ووجها ويدين ، فدلالة النصوص على ذلك سواء ، فلم نفيت حقيقة رحمته ومحبته ورضاه وغضبه وفرحه وضحكه وأولتها بنفس الإرادة ؟

فإن قلت : لأن إثبات الإرادة والمشيئة لا يستلزم تشبيها وتجسيما وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم فإنها لا تعقل إلا في الأجسام ، فإن الرحمة رقة تعترى طبيعة الحيوان ، والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها والغضب غليان دم القلب طلبا للانتقام ، والفرح انبساط دم القلب لورود ما يسره عليه .

قيل لك : وكذلك الإرادة هي ميل النفس إلى جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها ، وكذلك جميع ما أثبته من الصفات ، إنما هي أعراض قائمة بالأجسام في الشاهد فإن العلم انطباع صورة المعلوم في نفس العالم ، أو صفة عرضية قائمة به ، وكذلك السمع والبصر والحياة أعراض قائمة بالموصوف ، فكيف لزم التشبيه والتجسيم من إثبات تلك الصفات ولم يلزم من إثبات هذه ؟

فإن قلت : (لأني)[1] أثبتها على وجه لا يماثل صفاتنا ولا يشابهها قيل لك : (فهلا اثبت الجميع على وجه لا يماثل صفات المخلوقين ولا يشابهها)[2]، ولم فهمت من اطلاق هذا التشبيه والتجسيم ، وفهمت من إطلاق تلك التنزيه والتوحيد ، وهلا قلت أثبت له رحمة ووجها ومحبة وغضبا ورضا وضحكا ليس من جنس صفات المخلوقين ؟

فإن قلت : هذا لا يعقل .

قيل لك : فكيف عقلت سمعا وبصرا وحياة وإرادة ومشيئة ليست من جنس صفات المخلوقين ؟

فإن قلت : أنا أفرق بين ما يتأول وبين ما لا يتأول ، بأن ما دل العقل على ثبوته يمتنع تأويله كالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر ، وما لا يدل عليه العقل يجب أو يسوغ تأويله كالوجه واليد والضحك والفرح والغضب والرضا ، فإن الفعل المحكم دل على قدرة الفاعل وإحكامه دل على علمه ، والتخصيص دل على الإرادة ، فيمتنع مخالفة ما دل عليه صريح العقل .

قيل لك : **أولا** : وكذلك الانعام والاحسان وكشف الضر وتفريج الكربات دل على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة سواء ، والتخصيص بالكرامة والاصطفاء والاجتباء دال على المحبة كدلالة ما ذكرت على الإرادة والاهانة والطرد والابعاد والحرمان دال على المقت والبغض كدلالة ضده على الحب والرضا ، والعقوبة والبطش والانتقام دال على الغضب كدلالة ضده على الرضا .

ويقال **ثانيا** : هب أن العقل لا يدل على إثبات هذه الصفات التي

---

(١) في الأصل (أنا) وما أثبتناه في «ل» .

(٢) ما بين القوسين ساقط من الأصل ، وأثبتناه من «ل» .

نفيتهـا، فإنـه لا ينفيهـا، والسمـع دليل مستقل بنفسه بل الطمأنينة إليه في هذا الباب أعظم من الطمأنينة إلى مجرد العقل، فما الذي يسوغ لك نفي مدلوله ؟

ويقـال لك **ثالثـا** : إن كان ظاهـر النصوص يقتضي تشبيها وتجسيماً فهو يقتضيه في الجميع فأول الجميع، وإن كان لا يقتضي ذلك لم يجز تأويل شيء منـه، وان زعمت أن بعضهـا يقتضيـه وبعضهـا لا يقتضيـه طولبت بالفرق بين الأمرين، وعادت المطالبة جذعا .

ولما تَفَطَّنَ بعضهم لتعذر الفرق قال : ما دل عليه الاجماع كالصفات السبـع، لا يتأول، ومـا لم يدل عليـه إجمـاع فإنـه يتأول، وهذا كما تراه من أفســد الفــروق، فإن مضمـونـه أن الإجمـاع أثبت ما يدل على التجسيم والتشبيـه، ولـولا ذلـك لتأولنـاه، فقد اعترفوا بانعقاد الاجماع على التشبيه والتجسيم، وهـذا قدح في الاجمـاع، فإنه لا ينعقد على باطل، ثم يقال : إن كان الاجمـاع قد انعقـد على إثبـات هذه الصفـات وظـاهـرها يقتضي التجسيم والتشبيه بطل نفيكم لذلك، وإن لم ينعقد عليها بطل التفريق به .

ثم يقال : ان خصومكم من المعتزلة لم تجمع معكم على إثبات هذه الصفات .

فإن قلتم : انعقد الاجماع قبلهم .

قيــل : صدقتم والله، والــذين أجمعـوا قبلهم على هذه الصفـات أجمعوا على إثبات سائر الصفات، ولم يخصوها بسبع، بل تخصيصها بسبع خلاف قول السلف وقـول الجهميـة والمعتـزلـة، فالنـاس كانـوا طائفتين : سلفية، وجهمية، فحدثت الطائفة السبعية واشتقت قولا بين القولين، فلا

السلف اتبعوا، ولا مع الجهمية بقوا[1]، وقالت طائفة أخرى : ما لم يكن ظاهره جوارح وأبعاضا كالعلم والحياة والقدرة والإرادة والكلام لا يتأول، وما كان ظاهره جوارح وأبعاضاً كالوجه واليدين والقدم والساق والأصبع فإنه يتعين تأويله لاستلزام إثباته التركيب والتجسيم .

قال المثبتون : جوابنا لكم بعين الجواب الذي تجيبون به خصومكم من الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات، فإنهم قالوا لكم لو قام به سبحانه صفة وجودية كالسمع والبصر والعلم والقدرة والحياة لكان محلا للأعراض ولزم التركيب والتجسيم والانقسام كما قلتم لو كان له وجه ويد وأصبع لزم التركيب والانقسام فحينئذ فما هو جوابكم لهؤلاء نجيبكم به .

فإن قلتم : نحن نثبت هذه الصفات على وجه لا تكون اعراضا ولا نسميها أعراضا، فلا تستلزم تركيباً ولا تجسيما .

قيل لكم : ونحن نثبت الصفات التي أثبتها الله لنفسه (و)[2] نفيتموها أنتم عنه على وجه لا يستلزم الابعاض والجوارح، ولا يسمى المتصف بها مركبا ولا جسما ولا منقسما .

فإن قلتم : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء والأبعاض .

قلنا لكم : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض .

---

(١) يعنى بالطائفة السبعية الأشاعرة الذين أثبتوا سبع صفات فقط هي : السمع، والبصر، والكلام، والإرادة، والعلم، والقدرة، والحياة، ، وسموها صفات عقلية، لأن العقل يدل عليها قبل ورود السمع بها، وفرقوا بينها وبين بقية الصفات التي عمدوا إلى تأويلها أو تفويضها، مخالفين بذلك منهج السلف الصالح، المعتمد على دلالة الوحي الذي لا تعارض بينه وبين العقل فأثبتوا جميع ما وردت به النصوص من صفات إثباتا لا تأويل فيه ولا تشبيه ولا تعطيل، بل وفق المنهج الذي رسمه القرآن الكريم في الإثبات : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فلا فرق بين صفة وصفة .

(٢) في « ل » (إذ) .

فإن قلتم : العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية (قديمة)[1] أبدية فليست أعراضا .

قلنا : وكذلك الأبعاض هي ما جاز مفارقتها وانفصالها وانفكاكها وذلك في حق الرب تعالى محال، فليست أبعاضا ولا جوارح، فمفارقة الصفات الإلهية للموصوف بها مستحيل مطلقا في النوعين، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قلتم : إن كان الوجه عين اليد وعين الساق، والأصبع فهو محال، وإن كان غيره لزم التمييز ويلزم التركيب .

قلنا لكم : وإن كان السمع هو عين البصر وهما نفس العلم وهي نفس الحياة والقدرة فهو محال، وإن تميزت لزم التركيب، فما هو جوابكم ؟

فالجواب مشترك : فإن قلتم : نحن نعقل صفات ليست أعراضا تقوم بغير جسم (متحيز)[2]، وإن لم يكن له في الشاهد نظير .

قلنا لكم : (فاعقلوا صفات ليست بأبعاض تقوم بغير جسم وإن لم يكن له في الشاهد نظير)[3]، ونحن لا ننكر الفرق بين النوعين في الجملة ولكن فرق غير نافع لكم في التفريق بين النوعين، وأن أحدهما يستلزم التجسيم والتركيب، والآخر لا يستلزمه، ولما أخذ هذا الالزام (بحلوق)[4] الجهمية قالوا : الباب كله عندنا واحد ونحن ننفي الجميع، فتبين أنه لابد لكم من واحد من أمور **ثلاثة اما** (هذا)[5] النفي العام والتعطيل المحض، **واما أن** تصفوا الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ولا تتجاوزوا

---

(١) في « ل » (بقدمه) .

(٢) ما بين القوسين من «ل» .

(٣) ما بين القوسين من «ل» .

(٤) في الأصل (بحراق) وما أثبتناه من «ل» وفي المختصر «بخناق» وهو أوضح .

(٥) في الأصل (هكذا) وما أثبتناه من «ل» .

القرآن والحديث وتتبعوا في ذلك سبيل السلف (الماضى)[1] الذين هم أعلم الأمة بهذا الشأن نفيا وإثباتا، وأشد تعظيما لله وتنزيها له عما لا يليق بجلاله، فإن المعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات، فيكون ردها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ولا يترك تدبرها ومعرفتها، فيكون ذلك مشابهة للذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صما وعميانا، ولا يقال: هي ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا يعرف المراد منها، فيكون ذلك مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل هي آيات بينات دالة على أشرف المعانى وأجلها، قائمة حقائقها في صدور الذين أوتوا العلم والإيمان إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل، كما قامت حقائق سائر صفات الكمال في قلوبهم كذلك، فكان الباب عندهم بابا واحدا قد اطمأنت به قلوبهم وسكنت إليه نفوسهم فأنسوا من صفات كماله ونعوت جلاله بما استوحش منه الجاهلون المعطلون، وسكنت قلوبهم إلى ما نفر منه الجاحدون، وعلموا أن الصفات حكمها حكم الذات، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات فصفاته لا تشبه الصفات، فما جاءهم من الصفات عن المعصوم تلقوه بالقبول، وقابلوه بالمعرفة والإيمان والإقرار، لعلمهم بأنه صفة من لا شبيه لذاته ولا لصفاته.

قال الإمام أحمد: إنما التشبيه أن تقول يد كيد أو وجه كوجه فأما إثبات يد ليست كالأيدي، ووجه ليس كالوجوه فهو كاثبات ذات ليست كالذوات وحياة ليست كغيرها من الحياة وسمع وبصر ليس كالأسماع والأبصار، وليس إلا هذا المسلك أو مسلك التعطيل المحض، **أو التناقض**[2] الذي لا يثبت لصاحبه قدم في النفي ولا في الإثبات. وبالله التوفيق.

---

(١) في «ل» (الماضي).

(٢) هذا هو الأمر الثالث.

وحقيقة **الأمر** أن كل طائفة تتأول ما يخالف نحلتها ومذهبها فالمعيار على ما يتأول وما لا يتأول هو المذهب الذي (ذهبت)[1] إليه والقواعد التي (أصلتها)[2]، فما وافقها أقروه ولم يتأولوه، وما خالفها فإن أمكنهم دفعه والا تأولـوه، ولهـذا لما **أصلت الـرافضـة عداوة الصحـابـة** ردوا كل ما جاء في فضائلهم والثناء عليهم أو تأولوه. ولما **أصلت الجهمية** أن الله لا يتكلم ولا يكلم أحداً ولا يرى بالأبصار، ولا هو فوق عرشه مباين لخلقه ولا له صفة تقوم به أولوا كلما خالف ما أصلوه[3].

ولـما **أصلت القـدريـة** أن الله سبحانه لم يخلق أفعال عباده ولم يقدرها عليهم أولوا كل ما خالف أصولهم في ذلك .

(ولـما **أصلت المعتـزلة** القول بنفوذ الوعيد وان من دخل النار لم يخرج منها ابدا أولوا كلما خالف أصولهم)[4].

---

(١) من «ل» وفي الأصل (ذهب) .

(٢) في الأصل (أصلها) وما أثبتناه من «ل» .

(٣) لقـد أصـل جهم مذهب التعطيـل فهـو أول من قال بتأويـل جميـع الصفـات الـواردة في الكتاب والسنـة، وبـذلـك نفى أن تكون لله تعالى صفات غير ذاته حيث قال : «لا أصفه بوصف يجوز اطلاقه على غيره كشيء، ومـوجـود، وحي، وعـالم، ومـريد، ونحو ذلك، ووصفه بأنه قادر، وموجد، وفاعل، وخالق، ومحي، ومميت لأن هذه الأوصاف مختصة به وحده» . الفرق بين الفرق للبغدادى ص٢١٢ .

وقد بنى رأيه في إثبات ما أثبته لله على أن هذه أوصاف لا يجوز اطلاقها على المخلوق لأنه مجبور على أفعاله فهو كالريشة في مهب الريح، وقد نظر في تأويله هذا إلى نصوص التنزيه ولم يقم لنصوص الإثبات أي معنى أو اعتبار وهو بهذا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ولذلك أجمع السلف على تكفير الجهمية لهذه المقالات الباطلة وغيرها مما اشتهر عنهم مما يخالف عقيدة الإسلام مخالفة صريحة واضحة .

(٤) ما بين القـوسـين من «ل» وأصحـاب هذه المقـالـة هم المعتـزلة ويلقبون بالقدرية لأنهم قالوا : ان العباد يفعلون مالا يريده الله عز وجل ولم يقدره من أفعال الشر مثل القتل والزنا وغير ذلك، وقالوا : هذا ليس بقدر الله، وقد قدر العباد على ما لا يريده الله من هذه الأفعال، فهذا هو الأصل الذي يجمعهم . الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية لأبي حاتم الرازي ص٢٧٢ .

ولما أصلت المرجئة أن الإيمان هو المعرفة وأنها لا تزيد ولا تنقص أولوا ما خالف أصولهم(١).

ولما أصلت الكلابية أن الله سبحانه لا يقوم به ما يتعلق بقدرته ومشيئته وسموا ذلك حلول الحوادث أولوا كلما خالف هذا الأصل(٢).

---

(١) مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان هو اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح يزيد وينقص وقد خالفتهم طوائف فأخروا العمل عن الركنية في الإيمان، ولذلك درج أهل السنة على تسمية كل من أخر العمل مرجئا، وكذلك فعل بعض مؤرخي الفرق وقد حصر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أصناف المرجئة فقال: «والمرجئة ثلاثة أصناف الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، ومنهم من لا يدخلها كجهم ومن اتبعه كالصالحي، والقول الثاني: من يقول هو مجرد قول اللسان وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية، والثالث: تصديق القلب وقول اللسان وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم». الإيمان لابن تيمية ص١٦٣.

كما عد ابن تيمية الأشاعرة من المرجئة وسبقه إلى ذلك ابن حزم انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٨٨/٣، إلا أن المرجئة الخالصة هم الذين يجمعهم قولهم المشهور عنهم: «لا تضر مع الإيمان معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة» يقول التفتازاني في شرح المقاصد: «وإنما المرجئة الخالصة الباطلة هم الذين يحكمون بأن صاحب الكبيرة لا يعذب أصلا، وإنما العذاب والنار للكفار». شرح المقاصد ١٧٥/٢.

والحق أن جميع أنواع الأرجاء المذكورة مخالفة لمذهب السلف المستمد من الكتاب والسنة إلا أن أكثرها تطرفا هو قول المرجئة الخالصة الذي ذكره التفتازاني.

(٢) الكلابية: هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب المتوفي بعد عام ٢٤٠ انظر نشأة التفكير الفلسفي للدكتور علي سامي النشار ٢٦١/١.

وهذا الأصل الذي أشار إليه ابن القيم هو ما بنى عليه الأشاعرة فيما بعد القول بتأويل جميع صفات الفعل الاختيارية إلا أن حلول الحوادث بذات الله تعالى الذي قال بنفيه هؤلاء ورتبوا عليه نفي قيام صفات الفعل الاختيارية بذاته تعالى ـ لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة وهو من الألفاظ المجملة التي لا يصح نفيها لاشتمالها على معنى صحيح ولا إثباتها لاشتمالها على معنى باطل فلابد من التفصيل فيها، فإن أريد بالنفي أنه تعالى لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن، فالنفي بهذا المعنى صحيح، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ولا أنه يغضب ويرضى وينزل ويأتي كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفي باطل. انظر شرح الطحاوية ص٦٦، ٦٧.

ولما أصلت الجبرية(1) أن قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل بوجه من الوجوه وأن حركات العباد بمنزلة هبوب الرياح وحركات الأشجار أولوا كلما جاء بخلاف ذلك، فهذا هو في الحقيقة هو (عيار)(2) التأويل عند الفرق كلها حتى المقلدين في الفروع اتباع الأئمة الذين اعتقدوا المذهب ثم طلبوا الدليل عليه، ضابط ما يتأول عندهم وما لايتأول ما خالف المذهب أو وافقه .

ومن تأمل مقالات الفرق ومذاهبها رأى ذلك عيانا وبالله التوفيق .

وكل من هؤلاء يتأول دليلا سمعياً، ويقر على ظاهره نظيره أوما هو أشد قبولا للتأويل منه، لأنه ليس عندهم في نفس الأمر ضابط كلى مطرد منعكس يفرق به بين ما يتأول وما لا يتأول إن هو إلا المذهب وقواعده وما قاله الشيوخ، وهؤلاء لا يمكن أحدا منهم أن يحتج على مبطل بحجة سمعية لأنه يسلك في تأويلها نظير ما سلكه هو في تأويل ما خالف مذهبه كما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله . . .

---

(1) الجبر : هو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى فالجبرية هم القائلون : ان العباد مضطرون إلى الأفعال المنسوبة إليهم، وليس لهم فيها اكتساب، ولا لهم عليها استطاعة وأن حركاتهم الاختيارية بمنزلة حركة العروق النوابض في اضطرارهم إليها، وهؤلاء هم الجهمية .

انظر أصول الدين للبغدادى / ١٣٤، والملل والنحل للشهرستانى ١ /٨٥.

وهذا هو المذهب المقابل لمذهب القدرية الذي سبق ذكره ويلحق بالجبرية الأشاعرة القائلون بالكسب، وقد عرفوا الكسب بأنه مقارنة قدرة العبد وإرادته لفعله الاختياري من غير أن يكون هناك منه تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلا له .

انظر تعليق الشيخ محمد يوسف الشيخ على شرح الجوهرة ص٨٧ .

وهذا كما ترى جبر خالص لأنه إذا لم يكن لقدرة العبد تأثير في فعله وليس لها إلا المقارنة لا التأثير فما الفرق بين هذا القول وقول الجبرية ؟ الواقع أنه لا فرق بينهما، وقد أدرك بعض الأشاعرة ذلك وأقروا بأنه لا معنى للكسب إلا أنه جبر، لذلك عدلوا عن القول به .

(2) هكذا في الأصل ولعل الأولى (معيار) وهو الضابط .

الفصل السابع

في إلزامهم في المعنى الذي جعلوه تأويلا نظير ما فروا منه

هذا فصل بديع لمن تأمله، يعلم به أن المتأولين لم يستفيدوا بتأويلهم إلا تعطيل حقائق النصوص والتلاعب بها وانتهاك حرمتها وأنهم لم يتخلصوا مما ظنوه محذورا، بل هو لازم لهم فيما فروا إليه كلزومه فيما فروا منه، بل قد يقعون فيما هو أعظم محذورا، كحال الذين تأولوا نصوص العلو والفوقية والاستواء فرارا من التحيز، والحصر[1]، ثم قالوا: هو في كل مكان بذاته فنزهوه عن استوائه على عرشه ومباينته لخلقه وجعلوه في أجواف البيوت والآبار والأواني والأمكنة (التي)[2] يرغب عن ذكرها فهؤلاء قدماء الجهمية، فلما علم متأخروهم فساد ذلك قالوا: ليس وراء العالم ولا فوق العرش إلا العدم المحض، وليس هناك رب يعبد ولا إله يصلى (له)[3] ويسجد، ولا هو أيضا في العالم، فجعلوا نسبته إلى العرش كنسبته إلى أخس مكان، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

وكذلك فعل الذين نفوا القدر السابق تنزيها لله عن مشيئة القبائح وخلقها ونسبوه إلى أن يكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون ولا

(١) المؤولون من المعتزلة والأشاعرة وأضرابهم يسلكون التأويل فرارا من الوقوع فيما تصوروه لازما للإثبات مما يعتقدون أنه يفضي إلى التشبيه إلا أن هذا الزيغ أوقعهم في زيغ مماثل لأنهم لا يفرون من إثبات صفة من الصفات إلا لوجود ما يماثلها في المخلوق ولذلك أولوا إلى معنى آخر يعتقدون فيه النجاة مما يفرون منه إلا أن تلك المعاني التي فروا إليها يلزمهم فيها ما يلزمهم فيما فروا منه لأنهم حينما سلكوا سبيل الزيغ والضلال فإن النتيجة الحتمية الوقوع في زيغ آخر مصداقا لقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فاللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

(٢) من «ل» في الأصل (الذي).

(٣) من «ل» وفي الأصل (إليه).

يقدر على أن يهدى ضالا ، ولا يضل مهتديا ، ولا يقلب قلب العاصي إلى الطاعة ولا المطيع إلى المعصية .

وكذلك الذين نزهوه عن أفعاله وقيامها به وجعلوه كالجماد الذي لا يقوم به فعل وكذلك الذين نزهوه عن الكلام القائم به بقدرته ومشيئته وجعلوه كالأبكم الذي لا يقدر أن يتكلم ، وكذلك الذين نزهوه عن صفات كماله ، وشبهوه بالناقص الفاقد لها ، أو بالمعدوم ، وهذه حال كل مبطل معطل لما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ، والمقصود أن المتأول يفر من أمر فيقع في نظيره ، مثاله : إذا تأول المحبَّة والرحمة والرضا والغضب والمقت بالإرادة .

قيل له : يلزمك في الإرادة ما لزمك في هذه الصفات كما تقدم تقريره ، وإذا تأول الوجه بالذات قيل له فيلزمك في الذات ما لزمك في الوجه ، فإن لفظ الذات يقع على القديم والمحدث (كما يقع لفظ الوجه على القديم والمحدث)(١) ، وإذا تأول لفظ اليد بالقدرة فالقدرة يوصف بها الخالق والمخلوق ، فإن فررت من اليد لأنها تكون للمخلوق ففر من القدرة لأنه يوصف بها ، وإذا تأول السمع والبصر بالعلم فرارا من التشبيه لزمه ما فر منه في العلم ، وإذا تأول الفوقية بفوقية القهر لزمه فيها ما فر منه من فوقية الذات ، فإن القاهر من اتصف بالقوة والغلبة ولا يعقل هذا إلا جسما ، فإن أثبته العقل غير جسم لم يعجز عن إثبات فوقية الذات لغير جسم ، وكذلك من تأول الأصبع بالقدرة ، فإن القدرة أيضا صفة قائمة بالموصوف وعرض من أعراضه ، ففر من صفة إلى صفة .

وكذلك من تأول الضحك بالرضا ، والرضا بالإرادة ، إنما فر من صفة إلى صفة ، فهلا أقر النصوص على ما هي عليه ولم ينتهك حرمتها

---

(١) ما بين القوسين من «ل» .

(إذا كان)[1] التأويـل لا يخرجـه مما فر منـه، فإن المتأول اما أن يذكـر معنى ثبوتيا أو يتأول اللفظ بما هو عدم محض، فإن تأوله بمعنى ثبوتي كائنا ما كان لزمـه فيـه نظـير ما فر منـه، فإن قال : أنـا أثبت ذلـك المعنى على وجه لا يستلزم تشبيها .

قيل له : فهلا أثبت المعنى الذي تأولته على وجه لا يستلزم تشبيها .

فإن قال : ذلك أمر لا يعقل .

قيـل له : فكيف عقلتـه في المعنى الـذي أثبتـه وأنت وسـائـر أهـل الأرض إنـما تفهم المعـانى الغـائبـة بما تفهمها به في المشاهد، ولولا ذلك لما عقلت أنت ولا أحد شيئا غائبا البتة (فما إبتديته في التأويل إن كان له نظير في الشاهد لزمك التشبيه، وإن لم يكن له نظير لم يمكنك تعقله البتة)[2]، وان أولت النص بالعدم عطلته، فأنت في تأويلك بين التعطيل والتشبيه مع جنـايتـك على النص وانتهـاكـك حرمتـه، فهـلا عظمت قدرهُ وحفظت حرمتـه، وأقـررتـه (وأمّـريتـه)[3] مع نفي التشبيه والتخلص من التعطيل. وبالله التوفيق .

(١) في الأصل (أو كان) والتصحيح من «ل».
(٢) ما بين القوسين من «ل» .
(٣) في «ل» وأمررته .

الفصل الثامن

في بيان خطئهم في فهمهم من النصوص المعاني الباطلة التي تأولوها لأجلها فجمعوا بين التشبيه والتعطيل

هذا الفصل من عجيب أمر المتأولين فإنهم فهموا من النصوص الباطل الذي لا يجوز إرادته، ثم أخرجوها عن معناها الحق المراد منها فأساءوا الظن بها وبالمتكلم بها، وعطلوها عن حقائقها التي هي عين كمال الموصوف بها ونقتصر من ذلك على مثال ذكره بعض الجهمية ونذكر ما عليه فيه .

قال الجهمي : ورد في القرآن ذكر الوجه وذكر الأعين وذكر العين الواحدة، وذكر الجنب الواحد وذكر الساق الواحد، وذكر الأيدي (وذكر اليدين وذكر اليد الواحدة)[1] فلو أخذنا بالظاهر لزمنا إثبات شخص له وجه، وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة، وله جنب واحد وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحد، ولا يرى في الدنيا شخص أقبح صورة من هذه الصورة المتخيلة، ولا نظن أن عاقلا يرى أن يصف ربه بهذه الصفة .

قال السني المعظم لحرمات كلام الله :

قد أدعيت أيها الجهمي أن ظاهر القرآن الذي هو حجة الله على عباده، والذي هو خير الكلام وأصدقه وأحسنه وأفصحه، وهو الذي هدى الله به عباده وجعله شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، ولم ينزل كتاب من السماء أهدى منه ولا أحسن ولا أكمل، فانتهكت حرمته

(١) ما بين القوسين لا يوجد في «ل» .

(وعضهتـه)[1] ونسبته إلى أقبح النقص والعيب فادعيت أن ظاهره ومدلوله إثبات شخص له وجه وفيه أعين كثيرة، وله جنب واحد وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحد، فادعيت أن ظاهر ما وصف الله به نفسه في كتابه يدل على هذه الصفـة الشنيعـة المستقبحـة، فيكون سبحانه وقد وصف نفسه بأشنع الصفـات في ظاهـر كلامـه، فأيُّ طعن في القرآن أعظم من طعن من يجعل هذا ظاهـره ومـدلـولـه، وهـل هذا إلا من جنس قول الـذين جعلوا القرآن عضين فعضهوه بالباطل، وقالوا هو سحر أو شعر أو كذب مفترى، بل هذا أقبح من قولهم من وجه، فإن أولئك أقروا بعظمة الكلام وشرف قدره وعلوه وجـلالتـه، حتى قال فيـه رأس الكفر[2]: والله ان لكلامه لحلاوة وان عليه لطـلاوة وان أسفله لمغـدق و ان أعـلاه لجنى وانه ليعلوا وما يعلى، وما يشبه كلام البشر[3]، ولم يدع أعداء الرسول الذين جاهروه بالمحاربة والعداوة أن ظاهـر كلامـه أبطـل البـاطـل وأبين المحال، ووصف الخالق سبحانه بأقبح الهيئـات والصـور، ولـوكان ذلك ظاهر القرآن لكان ذلك من أقرب الطرق لهم إلى الطعن فيـه[4]، وقـالوا: كيف يدعونا إلى عبادة رب له وجه وعليه عيون كثيرة وجنب واحد وساق واحد، وأيد كثيرة فكيف كانوا يسكتون له على ذلـك وهم يوردون عليـه ما هو أقـل من هذا بكثـير، كما أوردوا عليـه المسيح لما قال[5]: ﴿**انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾[6] فتعلقوا بظاهر ما لم يدل على ما أوردوه وهو دخول المسيح فيما

(١) في الأصل «وعظمته» ومثله في المختصر. وما أثبتناه من «ل» وسيأتي معنى العضه.
(٢) رأس الكفر: هو الوليد بن المغيرة ـ سيرة ابن هشام ١/٢٦٨. تعليق د. محمد خليل هراس.
(٣) في «ل» (لثمر).
(٤) في الأصل (وفيه).
(٥) في الأصل (وقالوا) والتصحيح من «ل».
(٦) الأنبياء/ ٩٨.

عبد من دون الله ، اما بعموم لفظ ما ، واما بعموم المعنى ، فأوردوا على هذا الظاهر هذا الإيراد ، «وأورد»(١) أهل الكتاب على قوله : ﴿**ياأخت هٰرون ما كان أبـوك أمـرء سوء**﴾(٢) أن بين هٰرون وعيسى ما بينهـما ، وليس ظاهـر القـرآن أنـه هارون بن عمـران بوجـه ، وكانوا يتعنتون فيها(٣) يوردونه (على القـرآن هذا ودونـه)(٤) فكيف يجدون (ما)(٥) ظاهره إثبات رب شأنه وهيأته ما ذكره هذا الجهمي ولا يصيحون به على رؤوس الأشهاد ويشنعون عليه بإثبـاتـه في كل حاضر وباد ، فالقوم على شركهم وشدة عداوتهم لله ورسوله كانوا أصح أذهانا(٦) من الجهمية الذين تسبوا ظاهر القرآن إلى هذه الصفة القبيحة ، ولكن الأذهان الغلف والقلوب العمي والبصائر الخفاشية لا يكثر عليها أن تفهم هذا من ظاهر القرآن .

قال أنصـــــار الله :

ونحن نبـين أن هذه الصـورة الشنيعـة ليست (تفهم)(٧) من ظاهـر القرآن من وجوه :

أحـدهـا : أن الله سبحـانه إنما قال : ﴿**تجرى بأعيننا**﴾(٨) وقال : ﴿**أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما**﴾(٩) ، فدعوى الجهمي أن ظاهـر هذا إثبـات أعـين كثـيرة وأيـد كثيرة ، فرية ظاهره فإنه إن دل ظاهره على إثبـات أعـين كثـيرة وأيـد كثيرة ، دل على خالقين كثيرين ، فإن لفظ الأيدي مضاف إلى ضمير الجمع ، فادع أيها الجهمي أن ظاهره إثبات أيد

(١) في الأصل «وأوردوا» والتصحيح من «ل» ومن المختصر .
(٢) مريم / ٢٨ .
(٣) في الأصل (ما) .
(٤) ما بين القوسين لا يوجد في «ل» . وفي المختصر بهذا أو دونه وهو أوضح .
(٥) (ما) من «ل» .
(٦) في «ل» (افهاما) .
(٧) قوله (تفهم) ليست في «ل» .
(٨) القمر / ١٤ .
(٩) يس / ٧١ .

كثيرة لآلهة متعددة، والا فدعواك أن ظاهره أيد كثيرة لذات واحدة خلاف الظاهر، وكذلك قوله: ﴿**تجري بأعيننا**﴾ (إنما ظاهره)[1] بزعمك أعين كثيرة على ذوات متعددة لا على ذات واحدة.

الثاني: أن يقال لك: دعواك أن ظاهر القرآن إثبات أيد كثيرة في جنب واحد كذب آخر، فأين في ظاهر القرآن أن الأيدي في الجنب، وكأنك إنما أخذت هذا من القياس على بني آدم فشبهت أولا، وعطلت ثانيا، وكذلك جعلك الأعين الكثيرة في الوجه الواحد ليس في ظاهر القرآن ما يدل على هذا، وإنما أخذته من التشبيه بالآدمي والحيوان، ولهذا قال بعض أهل العلم: ان كل معطل مشبه، ولا يستقيم له التعطيل الا بعد التشبيه.

الثالث: أن يقال أين في ظاهر القرآن إثبات ساق واحد لله وجنب واحد، فإنه سبحانه قال: ﴿**يوم يكشف عن ساق**﴾[2]، وقال: ﴿**أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله**﴾[3] فعلى تقدير أن يكون الساق والجنب من الصفات فليس في ظاهر القرآن ما يوجب أن لا يكون له إلا ساق واحد، وجنب واحد، ولو دل على ما ذكرت لم يدل على نفي ما زاد على ذلك لا بمنطوقه ولا بمفهومه حتى أن القائلين بمفهوم اللقب لا يدل ذلك عندهم على نفي ما عدا المذكور، لأنه متى كان للتخصيص بالذكر (سبب غير)[4] الاختصاص بالحكم، لم يكن المفهوم مرادا بالاتفاق، وليس المراد بالآيتين إثبات الصفة حتى يكون تخصيص أحد الآمرين بالذكر مرادا، بل المقصود حكم آخر وهو بيان تفريط العبد في حق

---

(١) ما بين القوسين من «ل». والآية من سورة القمر / ١٤.

(٢) القلم / ٤٢.

(٣) الزمر / ٥٦.

(٤) (سبب غير) من «ل».

الله ، وبيـان سجـود الخـلائق إذا كشف عن ساق ، وهـذا حكم قد يختص بالمذكور دون غيره فلا يكون له مفهوم

الـرابــع : هب أنـه سبحانه أخبر أن يكشف عن ساق واحدة هي صفـة ، فمن أين في ظاهـر (القرآن)(١) أنه ليس له إلا تلك الصفة الواحدة وأنت لو سمعت قائــلا يقـول كشفت عن عيني ، وأبـديت عن ركبتي وعن ساقي أو قدمي أو يدي ، هل يفهم منه أنه ليس لك إلا ذلك الواحد فقط ، فكم هذا التلبيس والتـدليس ، فلو قال واحـد من النـاس هذا لم يكن ظاهر كلامه ذلك ، فكيف يكون ظاهر أفصح الكلام (. . . . .)(٢) وأبينه ذلك .

الخـامس : أن المفـرد المضـاف يراد به ما هو أكثـر من واحد كقوله : ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾(٣) ، وقوله : ﴿**وصدقت بكلمات ربها وكتـابـه**﴾(٤) ، وقـوله : ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم**﴾(٥) ، فلو كان الجنب والسـاق صفـة لكـان بمنـزلـة قولـه : ﴿**بيـده الملك**﴾(٦) و ﴿**بيدك الخير**﴾(٧) و ﴿**لتصنع على عيني**﴾(٨) .

السادس : أن يقال : من أين في ظاهر القرآن إثبات جنب واحد هو صفة لله ، ومن المعلوم أن هذا لا يثبته أحد من بني آدم ، وأعظم الناس إثباتا للصفات هم أهل السنة والحديث الذين يثبتون لله الصفات الخبرية ، ولا يقولون : ان لله جنبا واحدا ولا ساقا واحدة ، قال عثمان بن سعيد

---

(١) ما بين القوسين من المختصر.
(٢) في الأصل زيادة (هذا لم يكن) وهو غير مستقيم مع السياق ومحذوف من «ل» .
(٣) إبراهيم / ٣٤ .
(٤) التحريم / ١٢ .
(٥) البقرة / ١٨٧ .
(٦) الملك / ١ .
(٧) آل عمران / ٢٦ .
(٨) طه / ٣٩ .

الـدارمي[1] في نقضـه على بشـر المريسى : وادعى المعارض ـ زورا ـ على قوم أنهم يقولون في تفسير قول الله : ﴿**ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله**﴾[2] أنهم يعنون الجنب الذي هو العضو وليس ذلك على ما يتوهمونه .

قال الدارمي : فيقال لهذا المعارض ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسـانـك ، فإن كنت صادقـا في دعـواك فأشر بها إلى أحد من بني آدم قاله ، والا فلم (تشيع الكذب)[3] على قوم هم أعلم بهذا التفسير منك ، وأبصـر بتأويـل كتـاب الله منـك ومن إمـامـك ، إنما تفسيرها عندهم تحسر الكفـار على ما فرطـوا في الإيـمان والفضـائـل التي تدعـو إلى ذات الله ، واختـاروا عليهـا الكفـر والسخـرية ، بأولياء الله فسماهم الساخرين ، فهذا تفسـير الجنب عنـدهم ، فمن أنبأك أنهم قالـوا جنب من الجنـوب ، فإنه لا يجهـل هذا المعنى كثـير من عوام المسلمـين فضـلا عن علمائهم ، وقـد قال أبوبكر الصديق : الكذب (مجانب الإيمان)[4]، وقال ابن مسعود : لا يجوز من الكذب جد ولا هزل ، وقال الشعبي : من كان كذابا فهو منافق[5] .

وتـوجيـه ذلـك : أن الله قال : ﴿**أن تقـول نفس ياحسـرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السـاخـرين ، أو تقـول لو أن الله هداني لكنت من المتقـين ، أو تقـول حين ترى العـذاب لو أن لي كرة فأكـون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من**

---

(١) هو الإمام عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني أبو سعيد محدث هراه ولد سنة ٢٠٠ وله تصانيف في الرد على الجهمية وله مسند كبير توفي بهراة سنة ٢٨٠هـ .

تذكرة الحفاظ ٢/١٧٧ ، وشذرات الذهب ٢/١٧٦ .

(٢) الزمر / ٥٦ .

(٣) في المختصر «تشنع بالكذب» .

(٤) في المختصر «مجانب للإيمان» .

(٥) انظـر كلام الـدارمي هذا في كتـابه النقض على بشر المريسى ضمن مجموعة عقائد السلف تحقيق الـدكتـور على سامي النشـار والدكتور عمار الطالبي ص٥٣٩ ، ٥٤٠ . ط شركة الاسكندرية للطباعة والنشر سنة ١٩٧١م .

الكـافـرين﴾(١)، فهـذا اخبار عما تقوله هذه النفس الموصوفة بها(٢) وصفت به، وعامة هذه النفوس لا تعلم أن لله جنبا ولا تقر بذلك كما هو الموجود منها في الـدنيـا، فكيف يكـون ظاهر القرآن أن الله أخبر عنهم بذلك، وقد قال عنهم: ﴿**يـاحسـرتـا على ما فرطت في جنب الله**﴾ والتفـريـط فعل أوترك فعـل، وهـذا لا يكـون قائـما بذات الله لا في جنب ولا في غيره، بل يكون منفصلا عن الله، وهذا معلوم بالحس والمشاهدة، وظاهر القرآن يدل على أن قول القـائـل: ﴿**ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله**﴾ ليس أنه جعل فعله أو تركه في جنب يكون من صفات الله وأبعاضه، فأين في ظاهر القرآن ما يدل على أنه ليس لله إلا جنب واحد يعنى به الشق؟.

السابع: أن يقال: هب أن القرآن دل ظاهره على إثبات جنب هو صفـة ـ فمن أين يدل ظاهـره أو باطنـه على أنـه جنب واحـد وشق واحـد (ومعلوم أن اطـلاق مثـل هذا لا يدل على أنـه شق واحد)(٣) كما قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: (صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب)(٤)، وهذا لا يدل على أنه ليس لعمران بن حصين إلا جنب واحد(٥).

فإن قيل: المراد على جنب من جنبيك.

---

(١) الزمر / ٥٦ ـ ٥٩.

(٢) في الأصل (ما) والتصحيح من «ل».

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) صحيح البخاري كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا يصلي على جنب حديث رقم (١١١٧)، وسنن أبي داود كتاب الصلاة، باب صلاة القاعد ح رقم / ٩٥٢ ترقيم عزت عبيد الدعاس ١/ ٥٨٥، وابن ماجة كتاب إمامة الصلاة، باب ما جاء في صلاة المريض ح / ١٢٢٣ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وسند أحمد ٤/ ٤٢٦.

(٥) في المختصر: وهذا لا يدل على أنه ليس للمرء إلا جنب واحد.

قلنا : فقد علم أن ذكر الجنب مفردا لا ينفي[1] أن يكون معه غيره، ولا يدل ظاهر اللفظ على ذلك بوجه، ونظير هذا اللفظ القدم إذا ذكر مفردا لم يدل على أنه ليس لمن نسب إليه إلا قدم واحد كما في الصحيح : (حتى يضع عليها رب العزة قدمه)[2]، وفي الحديث : (أنا العاقب الذي يحشر الناس على قدمي)[3].

الثامن : أن يقال من أين في ظاهر القرآن أن لله ساقا وليس معك إلا قوله تعالى : ﴿**يوم يكشف عن ساق**﴾[4]، والصحابة متنازعون في تفسير الآية، هل المراد بها الكشف عن الشدة[5]، أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه[6]، ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل (أن ذلك)[7] صفة الله، لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردا عن الإضافة منكرا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته

---

(١) في الأصل (ينهى) بالياء والنون والهاء، والتصحيح من «ل».

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير باب (وتقول هل من مزيد ح/٤٨٤٨، ٤٨٤٩، وسنن الترمذي كتاب التفسير ح/٣٢٧٢ تحقيق إبراهيم عطوة ٥/٣٩٠، ورواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ص٩٧.

(٣) البخاري كتاب المناقب باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ح/٣٥٣٢ وكتاب التفسير ح/٤٨٩٦، ومسلم كتاب الفضائل باب في أسمائه ﷺ ح/٢٣٥٤.

(٤) القلم /٤٢.

(٥)، (٦) انظر تفسير ابن جرير الطبري. ٢٩/٤٢ وتفسير ابن كثير ٨/٢٢٤. حيث أوردا عدة روايات عن السلف في تفسير هذه الآية. وإثبات الساق صفة ذاتية لله تعالى هو الصحيح لإضافتها إلى الله تعالى كما في حديث ابي سعيد الخدري الذي أشار إليه المصنف. وهو الوجه الصحيح لتفسير هذه الآية، وهو ما أختاره الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ لإيراده الحديث المذكور في تفسير هذه لآية.

(٧) في الأصل (أن بعد دلك) بزيادة كلمة بعد وقد حذفناها ليستقيم الكلام وهي غير موجودة في «ل».

وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه : «فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدا»(١) ومن حمل الآية على ذلك قال : قوله تعالى : ﴿**يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود**﴾ مطابق لقوله ﷺ : «فيكشف عن ساقه فيخرون له سجدا» وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال : يكشف عن ساق عظيمة جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه قالوا : وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال : كشفت الشدة عن القوم(٢) لا كشف عنها، كما قال الله تعالى : ﴿**فلما كشفنا عنهم العذاب**﴾(٣)، وقال : ﴿**ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر**﴾(٤) فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضا فهناك تحدث الشدة وتشتد. ولا تزول(٥) إلا بدخول الجنة، وهناك يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة .

التاسع : أن دعوى الجهمي أن ظاهر القرآن يدل على أن لله سبحانه أيديا كثيرة على جنب واحد، وأعينا كثيرة على وجه واحد عضه(٦) للقرآن وتنقص له وذم ولا يدل ظاهر القرآن ولا باطنه على ذلك بوجه ما، ولا فهمه من له عقل، ولو كان ذلك ظاهر القرآن لكان المخبر به منفرا للمدعوين عن الإيمان بالله ورسوله ومطرقا لهم إلى(٧) الطعن عليه

---

(١) البخاري كتاب التفسير، باب (يوم يكشف عن ساق) ح/٤٩١٩ وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ح/٧٤٣٩، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ح/٣٠٢، ومسند أحمد ١٧/٣ .

(٢) في الأصل «القدم» والتصحيح من المختصر .

(٣) الزخرف /٥٠ .

(٤) المؤمنون /٧٥ .

(٥) في «ل» (الاتزال وإنما تزل) .

(٦) أي افتراء وكذب عليه .

قال الجوهري : عضهه عضها رماه بالبهتان، وقد أعضهت يارجل أي جئت بالبهتان، قال الكسائي : العضه : الكذب والبهتان. انظر الصحاح للجوهري مادة (عضه) ٢٢٤٠/٦ .

(٧) (إلى) ليست في «ل» .

والله سبحانه قال : ﴿تجرى بأعيننا﴾[1] وقال : ﴿وأصنع الفلك بأعينـنـا﴾[2] وقـال : ﴿وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾[3]، وقال : أو لم يروا إنـا خلقنـا لهم مما عملت أيـدينـا أنعـاما﴾[4]، وقال في قصة موسى : ﴿ولتصنع على عيني﴾[5]، فذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد، والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع، وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة ليس إلا كما يقول القائل : أفعل هذا على عيني، وأجيك على عيني، وأحمله على عيني، ولا يريد به أن له عينا واحدة، فلو فهم أحد هذا (من)[6] ظاهر الكلام المخلوق لعد اخرق، وأما إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهـرا أو مضمـرا فالأحسن جمعهـا مشـاكلة للفـظ كقـوله : ﴿تجري بأعيننا﴾ وقوله : ﴿وأصنع الفلك بأعيننا﴾ وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد كقوله : ﴿بيده الملك﴾ و ﴿بيدك الخير﴾ .

(فـإن)[7]أضيفت إلى ضمـير جمع جمعت كقـولـه : ﴿أو لم يروا إنا خلقنـا لهم مما عملت أيـدينـا أنعـاما﴾ وكذلك إضافة اليد والعين إلى اسم الجمـع الظـاهر كقوله : ﴿بما كسبت أيدى الناس﴾[8]، وقوله : ﴿فأتوا به على أعين الناس﴾[9] .

وقد نطق القرآن والسنة بذكر اليد مضافة إليه سبحانه مفردة ومثناة

---

(١) القمر / ١٤ .
(٢) هـود / ٣٧ .
(٣) الطـور / ٤٨ .
(٤) يس / ٧١ .
(٥) طـه / ٣٩ .
(٦) (من) ليست في «ل» .
(٧) في الأصل (وان) والتصحيح من «ل» .
(٨) الروم / ٤١ .
(٩) الأنبياء / ٦١ .

ومجموعة[1]، وبلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة كما قال عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «أن العبد إذا قام في الصلاة قام بين يدي[2] عينى الرحمن فإن التفت قال له ربه إلى من تلتفت إلى خير لك منى»[3]، وقول النبي ﷺ : «أن ربكم ليس بأعور»[4] صريح في أنه ليس المراد إثبات عين واحدة ليس إلا، فإن ذلك عور ظاهر تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهل يفهم من قول الداعي : «اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام» أنها عين واحدة ليس إلا «إلا»[5] ذهن أقلف وقلب أغلف، قال خلف بن تميم[6] : حدثنا عبد الجبار بن كثير[7] قال : قيل لإبراهيم بن أدهم[8] : هذا السبع فنادى ياقسورة إن كنت أمرت فينا بشيء وإلا يعنى فأذهب، فضرب بذنبه وولى مدبرا فنظر إبراهيم إلى أصحابه وقال : قولوا : اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام

---

(١) قال تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾. الفتح/ ١٠، ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾. المائدة/ ٦٤، ﴿قال يأبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾. ص/ ٧٥، ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾. يس/ ٧١.

(٢) ، (٣) في المختصر «قام بين عيني الرحمن».

(٤) صحيح البخاري كتاب الفتن باب ذكر الدجال ح/ ٧١٣١، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ولتصنع على عينى﴾ ح٧٤٠٧، ٧٤٠٨.

ومسلم كتاب الفتن باب ذكر الدجال ح/ ٢٩٣٣.

وسنن أبي داود كتاب الملاحم باب خروج الدجال ح٤٣١٦.

(٥) «إلا» الثانية من المختصر.

(٦) هو الإمام الزاهد أبو عبد الرحمن التميمي الكوفي صحب إبراهيم بن أدهم، وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين : صدوق، توفى سنة ٢١٣هـ، وقيل ٢٠٦هـ. سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢١٢، وتذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٩.

(٧) عبد الجبار بن كثير بن سنان الحنظلي الرقي، روى عن أبيه وعن محمد بن بشير يكنى أبا إسحاق، صاحب غرائب. لسان الميزان ٣/ ٣٨٨. الجرح والتعديل ٦/ ٣٣.

(٨) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبو إسحاق، زاهد مشهور، توفى سنة ١٦١هـ وقيل ١٦٠هـ. تذكرة الحفاظ ١/ ٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، وحلية الأولياء ٧/ ٣٦٧.

واكنفنا بكنفك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا و(لا)[1] نهلك وأنت الرجا[2].

قال عثمان الدارمي: الأعور ضد البصير بالعينين[3]، وقد قال النبي ﷺ في الدجال: «إنه أعور وإن ربَّكم ليس بأعور» وقد احتج السلف على إثبات العينين له سبحانه بقوله: ﴿**تجرى بأعيننا**﴾ وممن صرح بذلك إثباتاً واستدلالاً أبو الحسن الأشعري[4] في كتبه كلها فقال في المقالات والموجز والإبانة[5] وهذا لفظه فيها: وجملة قولنا (أن)[6] نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله[7] إلى أن قال: وأن الله مستوعلى عرشه كما قال: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[8]، وأن له وجها كما قال: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**﴾[9] وأن له يدين كما قال: ﴿**بل يداه**

---

(١) (ولا) من «ل».

(٢) حلية الأوليا ٨/٤.

(٣) رد الدارمى عثمان بن سعيد على المريسى العنيد، ضمن مجموعة عقائد السلف ص ٤٠١.

(٤) على بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (أبو الحسن) صاحب التصانيف في الرد على سائر الملحدين والمبتدعة، بصري سكن بغداد وتوفي بها بعد سنة ٣٢٠هـ. تاريخ بغداد /٣٤٦ وتبيين كذب المفترى /٣٤.

(٥) هذه المؤلفات الثلاثة للأشعري تمثل مذهبه الذي استقر عليه أخيرا لأنها من آخر كتبه التي كتب بعد رجوعه إلى مذهب السلف، فأما الإبانة والمقالات فقد طبعت عدة مرات ومتداولة بين طلاب العلم أما الموجز فهو من كتبه التي لازالت مفقودة، وقد وصفه ابن عساكر بأنه يشتمل على إثني عشر كتابا على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها، وآخره كتاب الإمامة تكلم في إثبات إمامة الصديق رضي الله عنه وأبطل قول من قال بالنص، وأنه لابد من إمام معصوم في كل عصر. أنظر تبيين كذب المفترى ص١٢٩.

(٦) في الإبانة (أنا).

(٧) في الأصل (ورسوله) والتصحيح من الإبانة.

(٨) سورة طـه /٥.

(٩) سورة الرحمن / ٢٧.

مبسوطتان﴾[1]، (وقال)[2]: ﴿**لما خلقت بيدي**﴾[3]، وأن له عينين بلا كيف[4] كما قال: ﴿**تجرى بأعيننا**﴾.

فهذا الأشعري والناس قبله وبعده ومعه لم يفهموا من الأعين أعينا كثيرة على وجه، ولم يفهموا من الأيدي أيدياً كثيرة على شق واحد حتى جاء هذا الجهمي فعضه القرآن، وادعى أن هذا ظاهره، وإنما قصد هذا وأمثاله التشنيع على من بدعه وضلّله من أهل السنة والحديث، وهذا شأن الجهمية في القديم والحديث، وهم بهذا الصنيع على الله ورسوله وكتابه يشنعون ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾[5]، فما ذنب أهل السنة والحديث إذا نطقوا بما نطقت به النصوص وأمسكوا عما أمسكت عنه ووصفوا الله بما وصف به نفسه ووصفه رسوله، وردوا تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين الذين عقدوا ألوية الفتنة وأطلقوا عنه المحنة، وقالوا على الله وفي الله بغير علم فردوا باطلهم وبينوا زيفهم وكشفوا إفكهم، ونافحوا عن الله ورسوله فلم يقدروا على أخذ الثأر منهم إلا بأن سموهم مشبهة ممثلة مجسمة حشوية[6]، ولو كان لهؤلاء عقول لعلموا أن التلقيب بهذه

---

(١) المائدة / ٦٤.

(٢) (قال) من «ل».

(٣) سورة ص / ٧٥.

(٤) أورد ابن القيم ـ رحمه الله ـ كلام الأشعري هنا نقلا عن الإبانة مختصرا والنص كاملا موجود في المصدر المذكور ص ٢١-٢٢، وانظر مقالات الإسلاميين ١/٣٤٥.

(٥) سورة التوبة / ١٠٥.

(٦) لفظ «حشوية» من الألفاظ التي أطلقها أعداء أهل السنة والجماعة عليهم حين رأوا أن منهجهم التمسك بالكتاب والسنة في جميع مسائل الاعتقاد.

ففي باب الصفات مثلا يثبتون ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسول الله ﷺ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص، من غير تشبيه ولا تعطيل وفي إبطال تسمية أهل الإثبات باسم الحشوية يقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: مسمى «الحشوية» في لغة الناطقين به ليس هو اسما لطائفة معينة =

الألقاب ليس لهم وإنما هو لمن جاء بهذه النصوص وتكلم بها ودعى الأمة إلى الإيمان بها وبمعرفتها[1]، ونهاهم عن تحريفها وتبديلها، فدعوا التشنيع بما تعلمون أنتم وكل عاقل منصف أنه كذب ظاهر وإفك مفترى لا يُعلم به قائل يناظر عن مقالته، فهل تدفعون عن أنفسكم التعطيل ونفي حقائق صفات الكمال عن رب العالمين، وأنها مجاز لا حقيقة لها، وأن ظاهرها كفر وتشبيه وإلحاد، فلو كان خصومكم كما زعمتم - وحاشاهم - مشبهة ممثلة مجسمة لكانوا أقل تنقصا لرب العالمين وكتابه وأسمائه وصفاته منكم بكثير كثير، لو كان قولهم يقتضي التنقيص فكيف وهو لا يقتضيه لو صرحوا به، فإنهم يقولون: نحن أثبتنا لله غاية الكمال ونعوت الجلال ووصفناه بكل صفة كمال، فإن لزم من هذا تجسيم أو تشبيه لم يكن هذا نقصا ولا عيبا ولا ذما[2] بوجه من الوجوه، فإن لازم الحق حق، وما لزم من إثبات كمال الرب ليس بنقص.

= لها رئيس قال مقالة فاتبعته كالجهمية والكلابية والأشعرية، ولا اسما لقول معين من قاله كان كذلك، والطائفة إنما تتميز بذكر قولها أو بذكر رئيسها، ولهذا كان المؤمنون متميزين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالقول الذي يدعون إليه هو كتاب الله والإمام الذي يوجبون اتباعه هو رسول الله ﷺ وعلى هذا بنى الإيمان، وبذلك وجبت الموالاة والمعاداة.

فأول من عرف أنه تكلم في الإسلام بهذا اللفظ عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة - فقيههم وعابدهم - فإنه ذكر له عن ابن عمر شيء يخالف قوله، فقال: كان ابن عمر حشوياً، نسبه إلى الحشو وهم العامة والجمهور، وكذلك تسميهم الفلاسفة، كما سماهم بذلك صاحب هذا الكتاب - يعني الرازي في كتابه أساس التقديس - والمعتزلة ونحوهم يسمونهم «الحشوية» والمعتزلة تعني بذلك من قال بالصفات وأثبت القدر، وأخذ ذلك عنها متأخروا الرافضة فسموا الجمهور بهذا الاسم، وأخذ ذلك عنهم القرامطة الباطنية فسموا بذلك كل من اعتقد صحة ظاهر الشريعة، فمن قال عندهم بوجوب الصلوات الخمس والزكاة المفروضة وصوم رمضان وحج البيت وتحريم الفواحش والمظالم والشرك ونحو ذلك سموه حشويا، والفلاسفة تسمى من أقر بالمعاد الجسمي والنعيم الحسي «حشويا» وأخذ ذلك عن المعتزلة تلامذتهم من الأشعرية فسموا من أقر بما ينكرونه من الصفات، ومن يذم ما دخلوا فيه من بدع أهل الكلام والجهمية والارجاء «حشويا». (انظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/٢٤٢-٢٤٥.

(١) في «ل» ومعرفتها.

(٢) في «ل» (ذنبا).

وأمـا أنتم فنفيتم عنـه صفـات الكمال، ولا ريب أن لازم هذا النفي وصفـه باضـدادها من العيوب والنقائص فما سوّى الله ولا رسوله ولا عقلاء عبـاده بين من نفي كمالـه المقـدس حذرا من التجسيم وبين من أثبت كماله الأعظم وصفاته العلى بلوازم ذلك كائنة ما كانت، فلو فرضنا في الأمة من يقـول له سمـع كسمـع المخلوق، وبصـر كبصره لكان أدنى إلى الحق مِمَّنْ يقـول لا سمـع له ولا بصـر، ولـو فرضنـا في الأمة من يقول أنه متحيز على عرشه تحيط[1] به الحدود والجهات لكان أقرب إلى الصواب من قول من يقول[2] ليس فوق العرش إله يعبد ولا رب يصلى له ويسجد ولا ترفع إليه الأيـدي ولا ينـزل من عنـده شيء، ولا يصعـد إليـه شيء، ولا هو فوق خلقه، ولا محايثهم، ولا مباينهم، ولو فرضنا في الأمة من يقول : انه يتكلم كما يتكلم الآدمي وإن كان كلامـه بآلات وأدوات تشبـه آلات الآدميـين وأدواتهم لكان خيرا ممن يقول انه ما تكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول ولا يقـوم به كلام البتـة، فإن هذا القـائـل يُشَبّهـه بالأحجار والجمادات التي لا تعقل، وذلك المُشَبّه وصفه بصفات الأحياء الناطقين، وكذلك لو فرضنا في الأمة من يقول : له يدان كأيدينا لكان خيرا ممن يقول ليس له يدان، فإن هذا معطل لله راد على الله ورسوله، وذلك المشبه غالط مخطىء في فهمه، فالمشبه على زعمكم[3] الكاذب لم يشبهه تنقصا له وجحدا لكماله، بل ظنًّا أن إثبات الكمال لا يمكن إلا بذلك فقابلتموه بتعطيل كماله وذلك غاية التنقص .

العاشر : أنك أيها الجهميُّ في فهمك عن الله أن ظاهر كلامه إثبات أيـد متعـددة على جنب واحـد، وعيـون متعددة في وجه واحد قد ضاهيت

---

(١) في الأصل (محيط) بالميم .

(٢) (من يقول) ساقط من «ل» .

(٣) في الأصل (زعمهم) والتصحيح من «ل» والمختصر .

النصارى الذين احتجوا على تثليثهم وإثبات آلهة متعددة بظاهر قوله : ﴿إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير﴾[1]، وأمثاله .

وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾[2].

وفي الصحيح عن عائشة أن الرسول ﷺ قال : «ياعائشة إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[3].

وهذا الفهم الفاسد إنما أتى من قبل عجم القلوب والألسن، فهم الذين أفسدوا الدين وشوشوا (على)[4] الناس والا فلغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه فإن اضافوا الواحد المتصل إلى مفرد أفردوه، وان أضافوه إلى اسم جمع ظاهر أو مضمر جمعوه، وان اضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح من لغتهم جمعه كقوله تعالى : ﴿فقد صغت قلوبكما﴾[5] وأنهما[6] قلبان لا غير وقوله : ﴿والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما﴾[7]، وتقول العرب : أضرب أعناقهما، واقطع ألسنتهما وهذا أفصح استعمالهم، وتارة يفردون المضاف فيقولون : لسانها وقلبهما وظهرهما، وتارة يثنونه كقوله : ظهراهما مثل ظهور الترسين، والقرآن إنما نزل بلغة العرب لا بلغة العجم والطماطم والأنباط[8] الذين أفسدوا الدين

---

(١) سورة ق / ٤٣ .

(٢) آل عمران / ٧ .

(٣) البخاري كتاب التفسير باب (منه آيات محكمات) ح/٤٥٤٧ .
ومسلم كتاب العلم باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ح/٢٦٦٥ ح/٤ ص٢٠٤٣ .

(٤) (على) من «ل» .

(٥) سورة التحريم / ٤ .

(٦) في «ل» (وإنما هما) .

(٧) المائدة / ٣٨ .

(٨) الطمطمة : العجمة، ورجل طماطم «بالضم» أعجم، والطماطم العجم . تاج العروس ٣٨٢/٨ مادة طم . =

وتلاعبوا بالنصوص، وانتهكوا حرماتها وجعلوها عرضة لتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين تثنيتين ولا لبس هناك، فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه مجموعا أولى بالجواز، يدل عليه أنك لا تكاد تجد في كلامهم عينينا ويدينا ونحو ذلك، ولا يلتبس على السامع، قول المتكلم : نراك بأعيننا ونأخذك بأيدينا ونحو ذلك ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيونا كثيرة على وجه واحد، وأيديا متعددة على بدن واحد، فهل قدر القرآن حق قدره من زعم أن هذا ظاهره ؟

الوجه الحادي عشر : لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفردا، ومثنى، ومجموعا، فالمفرد كقوله : ﴿**بيده الملك**﴾(١)، والمثنى كقوله : ﴿**خلقت بيدي**﴾(٢)، والمجموع كقوله : ﴿**عملت أيدينا**﴾(٣).

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الافراد وعدا (الفعل)(٤) بالباء(٥) إليهما فقال : ﴿**خلقت بيدي**﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء(٦).

= وقال ابن الأثير : وفي صفة قريش : «ليس فيهم طمطمانية حمير»، شبه كلام حمير لما فيه من الألفاظ المنكرة بكلام العجم، يقال : رجل أعجم طمطمي، وقد طمطم في كلامه.

انظر النهاية في غريب الحديث لابن الاثير ٣/١٣٩.

أما الأنباط فهم جيل من الناس ينزلون سواد العراق، سموبذلك لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين.

تاج العروس ٥/٢٢٩، وانظر النهاية في غريب الحديث ٥/٩.

(١) الملك / ١.

(٢) سورة ص / ٧٥.

(٣) يس / ٧١.

(٤) كلمة (الفعل) غير موجود في «ل».

(٥) في الأصل (ثالثا)، والتصحيح من «ل».

(٦) في الأصل (ثالثا) بالثاء والتصحيح من «ل».

فهـذه «ثـلاثـة»[1] فروق فلا يحتمـل ﴿خلقت بيدي﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عملت أيدينا﴾، فإن كل أحد يفهم من قوله : ﴿عملت أيدينا﴾ ما يفهمـه من قولـه : ﴿ عملنـا وخلقنـا ﴾ كما يفهم ذلـك من قوله : ﴿ بما كسبت أيـديكم﴾، وأمـا قولـه : ﴿خلقت بيـدي﴾ فلوكان المراد منه مجرد الفعـل لم يكن لذكـر اليـد بعـد نسبـة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء، فكيف إذا (ثنيت)[2]، وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه، كقوله : ﴿بما قدمت يداك﴾. ﴿بما كسبت أيديكم﴾، وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدى بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو «مما»[3] باشرته يده، ولهذا قال عبد الله بن عمر، ان الله لم يخلق بيـده إلا ثلاثـا، خلق آدم بيده وغرس جنة الفردوس بيده[4]. فلو[5] كانت اليـد هي القـدرة لم يكن لها اختصـاص بذلك ولا كانت لآدم فضيلة بذلك (على شيء)[6] مما خلق بالقدرة .

---

(١) في الأصل (ثلاث) والتصحيح من المختصر .

(٢) في الأصل : سب ـ بالسين المهملة والباء الموحدة والتصحيح من «ل» .

(٣) في الأصل (ما) والتصحيح من المختصر.

(٤) في «ل» (وذكر الثالثة). وفي المختصر ١ / ٣٩ (وكتب التوراة بيده) .

(٥) أورده الدارمي في رده على بشر المريسي بلفظ : «خلق الله أربعة أشياء بيده ثم قال لسائر الخلق كن فكان» .

كما ذكره البيهقي عن ابن عمر أيضا بلفظ : «خلق الله تبارك وتعالى أربعة أشياء بيده العرش وجنات عدن وآدم والقلم» .

وعلق الدارمي على قول ابن عمر هذا بقوله : «أفلا ترى أيها المريسي كيف ميز ابن عمر وفرق بين آدم وسائر الخلق في خلقه باليد، أفأنت أعلم من ابن عمر بتأويل القرآن، وقد شهد التنزيل، وعاين التنزيل وكان بلغات العرب غير جهول؟ .

انظر الرد على بشر المريسي ص ٣٥، والأسماء والصفات للبيهقي ص٤٠٣ .

كما ذكر الدارمي بسنده في نفس الموضع عن أنس عن كعب قال : «لم يخلق الله بيده غير ثلاث، خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده» كما ذكره بسنده عن ميْسَرة بلفظ : «ان الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلاث. . .» .

(٦) في المختصر «على أي شيء» .

وقـد أخـبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يأتونه[1] يوم القيامة فيقولون : «ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكتـه، وعلمـك أسماء كل شيء فأشفع لنا إلى ربك»[2] فذكروا أربعة أشياء كلها خصائص .

وكـذلـك قال آدم لموسى في محاجته له : «اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده»، وفي لفظ آخر : «كتب لك التوراة بيده» وهو من أصح الأحاديث[3] .

وكـذلـك الحـديث الآخر المشهور أن الملائكة قالوا : «يارب خلقت بني آدم يأكلون ويشـربـون وينكحـون ويـركبـون، فأجعـل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال الله تعالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان»[4]، وهذا التخصيص إنما فهم من قولـه : ﴿خلقت بيـدي﴾ فلو كانت مثـل قولـه : ﴿**ممـا**[5] **عملت أيدينا**﴾ لكان هو والأنعام في ذلك سواء، فلما فهم المسلمون أن قوله : ﴿**ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾[6] موجبا[7] له تخصيصا وتفضيلا بكونه

---

(١) في «ل» (يأتون آدم).

(٢) البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿لما خلقت بيدي﴾ حديث ٧٤١٠، وباب ما جاء في قوله عز وجل ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ حديث ٧٥١٥.
انظر فتح الباري ١٣/ ٣٩٢ و٤٧٧.
ومسلم كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث (٣٢٢) ١/ ١٨٠.
ومسند أحمد ٢/ ٤٣٥.

(٣) البخاري كتاب القدر باب تحاج آدم وموسى حديث ٦٦١٤، انظر فتح الباري ١١/ ٥٠٥ ومسلم كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى حديث ٢٦٥٢ ٤/ ٢٠٤٢.

(٤) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠١.

(٥) في الأصل (ما).

(٦) ص / ٧٥.

(٧) من «ل» وفي الأصل (فوجب). وفي المختصر ١/ ٣٩ (يوجب).

مخلوقا[1] باليدين على من أمر أن يسجد له وفهم ذلك أهل الموقف حين[2] جعلوه من خصائصه، كان التسوية بينه وبين قوله: ﴿**أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما**﴾[3] خطأ محضاً، وكذلك قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى»[4]، وقوله: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع»[5]، وقال تعالى: ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان**﴾[6]، وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «في أعلى أهل الجنة منزلة أولئك الذين غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها»[7].

وقال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده، فقال لها تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون»[8].

وقال عبد الله بن الحارث[9]: قال النبي ﷺ: «ان الله خلق ثلاثة

---

(١) قوله (بكونه مخلوقا) ليست في «ل».

(٢) في «ل» (حتى).

(٣) يس / ٧١.

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد بلفظ: ان الله يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السموات بيمينه. ح رقم ٧٤١٢. انظر فتح البارى ٣٩٢/١٣، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ الزمر/٦٧.

(٥) البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿لما خلقت بيدي﴾ حديث ٧٤١١. انظر فتح البارى ٣٩٢/٣، ومسلم في كتاب الزكاة باب الحث على النفقة حديث ٩٩٣ جـ٢ / ٦٩٠.

(٦) المائدة / ٦٤.

(٧) مسلم كتاب الإيمان حديث ١٨٩ ج ١٧٦/١.

وابن خزيمة في كتاب التوحيد / ٦٩.

(٨) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٣.

(٩) هو عبد الله بن الحارث بن نوفل ولد على عهد رسول الله ﷺ فحنكه النبي ﷺ وروى عن النبي ﷺ مرسلا، قال العجلى: تابعي ثقة.

تهذيب التهذيب ٥ / ١٨٠.

أشياء بيده : خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثم قال : وعزتي (لا يسكنها)(١) مدمن خمر ولا ديوث»(٢).

وفي الصحيح عنه ﷺ : «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة»(٣).

وكان رسول الله ﷺ يقول في استفتاح الصلاة : «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك»(٤).

وفي الصحيح أيضا عنه ﷺ : «أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٥).

وقال عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ : «الأيدي ثلاثة، فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى»(٦).

وفي الصحيح عنه ﷺ : «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر

---

(١) في المختصر «لا يدخلها».

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٣، وعلق عليه قائلا : هذا مرسل، وفيه ان ثبت دلالة على أن الكتب ههنا بمعنى الخلق وإنما أراد خلق رسوم التوراة وهي حروفها، وأما المكتوب فهو كلام الله عز وجل صفة من صفات ذاته غير بائن منه اهـ. إلا أن تأويل الكتب بالخلق يأباه ظاهر الخبر، كما قال الشيخ محمد صديق خان في كتابه الجوائز والصلات ص١٨٤. ط الهندية.

(٣) البخاري كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض حديث ٦٥٢٠ (٣٧٢/١١)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ص٧٣.

(٤) مسلم كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل حديث ٧٧١ (٥٣٤/١).

وأبو داود في كتاب الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء حديث ٧٦٠ (٤٨١/١).

(٥) مسلم كتاب التوبة حديث ٢٧٥٩ (٢١١٣/٤).

وأحمد في المسند (٣٩٥/٤، ٤٠٤).

(٦) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ص ٦٥، ٦٦.

وأحمد في المسند ٤٧٣/٣.

من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(١).

وفي المسند وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : «لما خلق الله آدم ونفخ فيه (من)(٢) الروح عطس فقال : الحمد لله فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه : رحمك ربك ياآدم ، وقال له اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقل : السلام عليكم ، فذهب فقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ثم رجع إلى ربه فقال : هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم ، فقال الله تعالى - ويداه مقبوضتان -: اختر أيهما شئت ، فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته»(٣). وذكر الحديث .

وقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»(٤).

وقال هشام بن حكيم(٥) عن رسول الله ﷺ : «ان الله أخذ ذرية بني

---

(١) مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل حديث ١٨٢٧ (١٤٥٨/٣)، ومسند أحمد ١٦٠/٢ ، وسنن النسائي كتاب آداب القضاة ١٩٥/٨ .

(٢) «من» ليست في المختصر .

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير حديث ٣٣٦٨، وقال عنه : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من رواية زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

انظر الجامع الصحيح ٤٥٣/٥، ٤٥٤ .

(٤) أبو داود في كتاب السنة باب في القدر، حديث ٤٠٧٣ (٧٩/٥) والترمذي في كتاب التفسير حديث ٣٠٧٥ تفسير سورة الأعراف وقال: هذا حديث حسن (٢٦٦/٥)، وأحمد في المسند ٤٤/١، ٤٥ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤١٢ .

(٥) هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي، صحابي ابن صحابي ، مات قبل أبيه تقريب التهذيب ٣١٨/٢ .

آدم من ظهورهم، وأشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار»[1].

وقال عبد الله بن عمرو: «ولما خلق الله آدم نفضه نفض المزود فخرج منه مثل الذر فقبض قبضتين فقال: لما في اليمين في الجنة، ولما في الأخرى في النار»[2].

وقال أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «ان الله[3] خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض (فجاء بنوا آدم على قدر الأرض)[4] فمنهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والطيب والخبيث»[5].

وقال سلمان الفارسي: «ان الله تعالى خمر طينة آدم أربعين ليلة أو أربعين يوما ثم ضرب بيده فيها فخرج كل طيب بيمينه وكل خبيث بيده الأخرى، ثم خلط بينهما»[6].

وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا الا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره من عدة طرق بلفظ: عن هشام بن حكيم أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، أنبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء، فقال رسول الله ﷺ: «ان الله أخذ...» الحديث.

جامع البيان للطبري ١١٦/٩، وذكره ابن كثير في تفسيره ج ٥٠٥/٣.

(٢) رواه البيهقي وقال: هذا موقوف. انظر الأسماء والصفات ص ٤١٣.

(٣) (ان الله) ليست في الأصل وأثبتناها من «ل» وهي متفقة مع مصادر الحديث.

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ل».

(٥) أبو داود كتاب السنة «باب في القدر» حديث ٤٦٩٣ (٦٧/٥) وأحمد في المسند ٤٠٠/٤، ٤٠٦، والترمذي في كتاب التفسير حديث (٢٩٥٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٠٤/٥).

(٦) أورده الآجري، وفيه بعد قوله «ثم خلط بينهما» قال: فمن ثم يخرج الحي من الميت والميت من الحي. كتاب الشريعة ص٢٠٦.

في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» متفق على صحته[١].

وقال أنس، قال رسول الله ﷺ : «ان الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى أربعمائة ألف، فقال أبوبكر : زدنا يارسول الله، قال : وهكذا وجمع يديه، قال : زدنا يارسول الله، قال وهكذا، قال زدنا يارسول الله، فقال عمر : حسبك، فقال أبوبكر : دعنى ياعمر، وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا، قال عمر : إن شاء الله أدخل خلقه الجنة بكف واحدة، فقال النبي ﷺ : صدق عمر»[٢].

وقال نافع بن عمر[٣]: «سألت ابن أبي مليكة[٤] عن يد الله أواحدة أم اثنتان ؟ فقال : لا بل اثنتان» .

وقال ابن عباس : «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم»[٥].

وقال ابن عمر وابن عباس : «أول شيء خلقه الله القلم، فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين، فكتب[٦] الدنيا وما فيها (من عمل معمول)[٧] في

---

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ ح ٧٤٣٠.

(٢) أحمد في المسند ٣/١٦٥، ١٩٣.

(٣) هو نافع بن عمر بن عبد الله بن جميل الجمحي المكي ثقة ثبت من كبار السابعة، مات سنة تسع وستين. تقريب التهذيب ٢/٢٩٦.

(٤) هو عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة ـ بالتصغير ـ ابن عبد الله بن جدعان، ثقة فقيه من الثالثة، مات سنة سبع عشرة (أي ومائة) تقريب التهذيب ١/٤٣١.

(٥) أورده الطبرى عند تفسير قوله تعالى: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ انظر جامع البيان ٢٤/٢٥.

(٦) في الأصل (فكانت) والتصحيح من «ل».

(٧) في المختصر «من عامل ومعمول».

بر وبحر ورطب ويابس فأحصاه عنده»(1) .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿**والسموات مطويات بيمينه**﴾(2) . «يقبض الله عليها فما يرى طرفاها في يده» .

وقال ابن عمر : «رأيت رسول الله ﷺ قائما على المنبر فقال : ان الله تعالى إذا كان يوم القيامة جمع السموات والأرض في قبضته ثم قال : هكذا، ومد يده وبسطها، ثم يقول : أنا الله أنا الرحمن»(3)وذكر الحديث .

وقال ابن وهب عن أسامة عن نافع عن ابن عمر : (أن النبي ﷺ قرأ على المنبر ﴿**والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه**﴾ قال : مطوية في كفه يرمي بها كما يرمى الغلام بالكرة)(4) .

وقال عبيد الله بن مقسم(5): نظرت إلى عبد الله بن عمر كيف صنع حيث يحكى رسول الله ﷺ قال : «يأخذ الله سمواته وأرضه بيده فيقول : أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها ويقول : أنا الرحمن الرحيم، أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى اني أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ»(6) .

---

(1) هذا الحديث الذي ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ موقوفا على ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بسنده مرفوعا عن ابن عمر إلى رسول الله ﷺ وعلق عليه الشيخ الألباني بقوله : إسناده حسن ورجاله ثقات وفي ابن مصفى كلام لا ينزل حديثه عن مرتبة الحسن، وهو وبقية مدلسان، وقد صرحا بالتحديث، وأخرجه في الشريعة ص١٧٥ من طريق الربيع بن نافع عن بقية بن الوليد قال: حدثنا أرطأة بن المنذر به، فصح الحديث والحمد لله. انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم بتحقيق الشيخ الألباني المسمى ظلال الجنة ١/ ٥٠ .

(2) الزمر / ٦٧ .

(3) جامع البيان للطبري ٢٤/ ٢٧ .

(4) رواه ابن منده في الرد على الجهمية ص ٨١، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٢٦ مع اختلاف في اللفظ .

(5) هو عبيد الله بم مقسم القرشي مولى ابن أبي نمر المدني، ثقة مشهور من الرابعة .
تهذيب التهذيب ٧/ ٥٠، وتقريب التهذيب ١/ ٥٣٩ .

(6) مسلم كتاب صفات المنافقين ٤/ ٢١٤٨، وابن خزيمة في التوحيد ص٧٣، وابن منده في الرد

وقال زيد بن أسلم[1] : «لما كتب الله التوراة بيده قال : بسم الله هذا كتاب من الله بيده لعبده موسى يسبحني ويقدسني ولا يحلف باسمى آثما فإني لا أزكي من حلف باسمى آثما»[2] .

وإنما ذكرنا هذه النصوص التي هي غيض من فيض ليعلم الواقف عليها أنها[3] لا يفهم أحد من عقلاء بني آدم منها شخصا له شق واحد وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحد ووجه واحد وفيه عيون كثيرة .

فهذه نصوص القرآن والسنة كما ترى، هل يفهم منها ما ذكره الجهمي، أو أحد ممن له ادنى فهم، ومَنْ هذا قَدْرُ النصوص عنده فهو حقيق بأن لا يقبل منها شيئا ولا ينال منها هدى، ولا يظفر منها بعلم (وهي في حقه كما قال الله تعالى : ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم**﴾[5] وقوله : ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهمٌ عمى أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾[6]،

= على الجهمية وقال عنه : هذا حديث ثابت باتفاق ص٧٥ .

(١) هو زيد بن أسلم العدوى مولى عمر، أبو عبد الله أو أبو أسامة المدنى ثقة عالم وكان يرسل من الثالثة، مات سنة ٣٦ .

تقريب التهذيب ١/ ٢٧٢ .

(٢) لم نجد له مصدرا .

(٣) (أنها) هكذا في النسختين، والأولى (أنه) إلا أن قصد الحال والشأن .

(٤) الاسراء / آية ٨٢ .

(٥) التوبة آية ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) فصلت / آية ٤٤ .

وقوله : ﴿**يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين**﴾[1][2]، والله يعلم أن هذا من أعظم العضه[3] لها والتنقيص (والطعن على)[4] من تكلم بها وجاء بها، أو يقال له : هذا ظاهر كلامك وحقيقته، فانظر إلى اقبح التشبيه والتمثيل الذي ادعو أنه ظاهر النصوص، وإلى التعطيل الذي سطوا به عليها وسموه تأويلا، فصح أنهم جمعوا بين فهم التشبيه منها واعتقاد التعطيل، ونسبة قائلها إلى قصد ما يضاد البيان والإرشاد والله المستعان .

(١) البقرة / آية ٢٦ .

(٢) جميع الآيات غير موجودة في «ل» .

(٣) تقدم بيان معنى العضه ص ١٣٣

(٤) (والطعن على) غير موجود في «ل» .

الفصل التاسع

في الوظائف الواجبة على المتأول الذي لا يقبل منه تأويله إلا بها

لما كان . . . (١) الأصـل في الكـلام هو الحقيقة والظاهر كان العدول به عن حقيقته وظاهره مخرجا له (عن)(٢) الأصل، فاحتاج مدعى ذلك إلى دليـل يسـوغ له اخـراجه عن أصله، فعليه أربعة أمور لا (تتم)(٣) له دعواه إلا بها :

الأمـــــر الأول :

بيـان احتـمال اللفظ للمعنى الذي تأوله في ذلك التركيب الذي وقع فيـه والا كان كاذبـا على اللغـة منشئـا وضعـا من عنـده، فإن اللفظ قد لا يحتمـل ذلـك المعنى لغـة، وان احتمله فقـد لا يحتمله في ذلـك الـتركيب الخاص، وكثير من المتأولين لا يبالى إذا تهيأ (له)(٤) حمل اللفظ على ذلك المعنى بأي طريق أمكنـه أن يدعى حمله عليـه، إذ مقصـوده دفـع الصـايل فبأي طريق انـدفـع عنـه دفعه، والنصوص قد صالت على قواعده الباطلة فبأي طريق تهيأ له دفعهـا (دفعها)(٥) ليس مقصـوده أخـذ الهـدى والعلم والإرشاد منها فإنه قد أصل أنها أدلة لفظية لا يستفاد منها (يقين)(٦) ولا علم

---

(١) في «ل» (هــذ).

(٢) في «ل» (من) .

(٣) في الأصل «يتم» وما أثبتناه من المختصر.

(٤) (له) من «ل» .

(٥) (دفعها) من «ل» .

(٦) (يقين) من «ل».

ولا معرفة بالحق، وإنما المعول على آراء الرجال، وما تقتضيه عقولها، وأنت إذا تأملت تأويلاتهم رأيت كثيرا منها لا يحتمله اللفظ في اللغة التي وقع بها التخاطب وان احتمله لم يحتمله في ذلك التركيب الذي تأوله وليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على كل ما ساغ في اللغة أو الإصطلاح لبعض الشعراء أو الخطباء أو الكتاب أو العامة إلا إذا كان (ذلك غير مخالف لما علم من وصف الرب تعالى شأنه وما تضافرت به صفاته لنفسه وصفات رسوله له وكانت إرادة ذلك)(١) المعنى بذلك اللفظ مما يجوز ويصلح نسبتها إلى الله ورسوله، ولاسيما والمتأول يخبر عن مراد الله ورسوله، فإن تأويل كلام المتكلم بما يوافق ظاهره أو يخالفه(٢) إنما هو بيان لمراده، فإذا علم أن المتكلم لم يرد هذا المعنى، وأنه يمتنع أن يريده وأن في صفات كماله ونعوت جلاله ما يمنع من إرادته، وأنه يستحيل عليه من وجوه كثيرة أن يريده استحال الحكم عليه بإرادته.

فهذا أصل عظيم يجب معرفته (ومَنْ)(٣) أحاط به معرفة تبين له أنّ كثيرا (مما)(٤) يدعيه المحرفون من التأويلات مما يعلم قطعا أن المتكلم لا يصلح أن يريده بذلك الكلام، وإن كان ذلك مما يسوغ لبعض الشعراء أو كتاب الانشاء واللغة من القاصدين التعمية لغرض من الأغراض، فلابد أن يكون المعنى الذي تأوله المتأول مما يسوغ استعمال اللفظ فيه في تلك اللغة التي وقع بها التخاطب، وأن يكون ذلك المعنى مِمَّا(٥) يجوز نسبته إلى الله، وأن لا يعود على شيء من صفات كماله بالإبطال والتعطيل، وأن يكون معه قرائن تحف به تبين أنه مراد باللفظ والا كانت دعوى إرادته كذبا على المتكلم ونحن نذكر لذلك أمثلة :

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الأصل وأثبتناه من «ل».

(٢) من هنا إلى نهاية الفصل الحادى عشر ساقط من «ل».

(٣) في الأصل (ما) والتصحيح من المختصر ١/٤٤.

(٤)، (٥) في الأصل (ما) والتصحيح من المختصر ١/٤٤.

المثـــال الأول :

تأويـل قولـه تعـالى : ﴿**خلق السمـوات والأرض في ستـة أيـام ثم استـوى على العـرش**﴾[1] بأنـه أقبل على خلقه، فهذا انشاء منهم لوضع لفـظ (استـوى على) أقبـل على خلقه، وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة، فإنهم ذكـروا معـاني استـوى[2] ولم يذكـر أحد منهم أصلا في معانيه الاقبال على الخلق، فهــذه كتب اللغـة (طبق الأرض هل تجدون)[3] أحـداً منهم يحكى ذلـك عن اللغـة ؟ وأيضـا فإن استـوى الشيء والاستـواء إليه وعليه يستلزم وجـوده ووجـود ما نسب إليـه الاستـواء بإلى أوبعلى، فلا يقـال : استوى إلى أمر معدوم ولا استوى عليه، فهذا التأويل انشاء محض لا إخبار صادق عن استعمال أهل اللغة، وكذلك تأويلهـم الاستواء بالاستيلاء، فإن هذا لا تعـرفـه العـرب من لغاتها، ولم يقله أحد من أئمة اللغة، وقد صرح أئمة اللغة كابن الأعرابي وغيره بأنه لا يعرف في اللغة، ولو احتمل ذلك لم يحتمله هذا الـتركيب، فإن استيـلاءه سبحـانـه وغلبته للعرش لم يتأخر عن خلق السموات والأرض، والعرش مخلوق قبل خلقها بأكثر من خمسين ألف سنة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق فيما صح عنه[4].

---

(١) الحديد / آية ٤.

(٢) معانى الاستواء الصحيحة أربعة وهى : استقر وعلا وارتفع وصعد، وهي ما أجمع عليه الأئمة وقد ذكر ابن القيم رحمه الله هذه المعاني في نونيته حيث قال :

فلهـم عبـارات عليـهـا أربـع ... قد حصـلت للفـارس الطـعـان
وهـي استـقـر، وقـد علا وكـذلـك ار ... تفـع الـذي ما فيـه من نكـران
وكـذاك قد صعـد الـذي هو رابـع ... وأبـو عبـيـدة صاحـب الـشـيـباني
يختـار هذا الـقـول في تفـسـيره ... ادرى من الجـهـمـي بالـقـرآن

انظر نونية ابن القيم مع شرحها للدكتور محمد خليل هراس ١ / ٢١٠.

(٣) في المختصر «طبقت الأرض لا تجد...».

(٤) روى مسلم في صحيحـه من حديث عبـد الله بن عمـرو بن العـاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله =

وبطلان هذا التأويل من أربعين وجها سنذكرها في موضعها في هذا الكتاب ـ إن شاء الله ـ والمقصود ذكر الوظائف التي على المتأول، فعليه أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي ذكره أولا، ويبين تعيين ذلك المعنى ثانيا، فإنه إذا خرج عن حقيقته قد يكون له معان، فتعيين ذلك المعنى يحتاج إلى دليل .

الثالث : إقامة الدليل الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره فإن دليل المدعى للحقيقة والظاهر قائم، فلا يجوز العدول عنه إلا بدليل صارف يكون أقوى منه .

الرابع : الجواب عن المعارض فإن مدعى الحقيقة (قد أقام الدليل العقلي والسمعي)[1] على إرادة الحقيقة .

أم السمعي فلا يمكنك المكابرة أنه معه، وأما العقلي فمن وجهين عام وخاص، فالعام : الدليل الدال على كمال علم المتكلم وكمال بيانه، وكمال نصحه، والدليل العقلي على ذلك أقوى من الشبه الخيالية التي يستدل بها النفاة بكثير، فإن جاز مخالفة هذا الدليل القاطع فمخالفة تلك الشبه الخيالية أولى بالجواز، وان لم تجز مخالفة تلك الشبه فامتناع مخالفة الدليل القاطع أولى .

وأما الخاص : فإن كل صفة وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله فهي صفة كمال قطعا، فلا يجوز تعطيل صفات كماله وتأويلها بما يبطل حقائقها، فالدليل العقلي الذي دل على ثبوت الحياة والعلم والقدرة

= ﷺ يقول : «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء» .

انظر كتاب القدر حديث ٢٦٥٣ (٤/ ٢٠٤٤) .

(١) في المختصر «قد قام الدليل العقلي والسمعي عنده» .

والإرادة والسمع والبصر، دل نظيره على ثبوت الحكمة والرحمة والرضا والغضب والفرح والضحك، والذي دل على أنه فاعل بمشيئته واختياره دل على قيام أفعاله به، وذلك عين الكمال المقدس، وكل صفة دل عليها القرآن والسنة فهي صفة كمال، والعقل جازم بإثبات صفات الكمال للرب سبحانه ويمتنع أن يصف نفسه أو يصفه رسوله بصفة توهم نقصا، وهذا الدليل أيضا أقوى من كل شبهة للنفاة يوضحه أن أدلة (مباينة)(١) (الرب لخلقه وعلوه على جميع مخلوقاته أدلة، عقلية)(٢) فطرية توجب العلم الضروري بمدلولها، وأما السمعية فتقارب ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله، وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك، فنحن نطالبه بجواب صحيح عن دليل واحد، وهو أن الرب تعالى اما أن يكون له وجود (خارجي)(٣) عن الذهن ثابت في الأعيان أولا، فإن لم يكن له وجود خارجي كان خيالا قائما بالذهن لا حقيقة له، وهذا حقيقة قول المعطلة، وان تستروا بزخرف من القول، وإن كان وجوده خارج الذهن فهو مباين له، إذ هو منفصل عنه، إذ لو كان قائما به لكان عرضا من أعراضه، وحينئذ فاما أن يكون هو هذا العالم أو غيره، فإن كان هذا العالم فهو تصريح بقول أصحاب وحدة الوجود، وأنه ليس لهذا العالم رب مباين له منفصل عنه، وهذا أكفر أقوال أهل الأرض، وإن كان غيره، فاما أن يكون قائما بنفسه أو قائما بالعالم.

فإن كان قائما بالعالم فهو جزء من أجزائه أو صفة من صفاته وليس هذا بقيوم السموات والأرض، وإن كان قائما بنفسه وقد علم أن العالم قائم بنفسه فذاتان قائمتان بأنفسهما ليست احداهما داخلة في الأخرى، ولا

---

(١) في الأصل «مباينة» والتصحيح من المختصر.

(٢) ما بين القوسين من المختصر.

(٣) في المختصر «خارج».

خارجـة عنهـا، ولا متصلة بها، ولا منفصلة عنهـا، ولا محايثـة ولا مباينة ولا فوقها ولا تحتها ولا خلفها ولا أمامها ولا عن يمينها، ولا عن شمالها كلام له خبيء لا يخفى على عاقل منصف (و)[1] البديهة الضرورية حاكمة بامتناع هذا واستحـالـة تصـوره، فضلا عن التصديق به، قالوا : فنحن نطالبكم بجـواب صحيـح عن هذا الـدليل الواحد من جملة ألف دليل، ونعلم قبل المطـالبـة أنـه لو اجتمـع كل جهمي على وجـه الأرض لما أجـابوا عنه بغير المكـابرة والتشنيع على أهل الإثبات بالتجسيم والتفسير[2] والسب، وهذه وظيفـة كل مبطـل قامت عليـه حجة الله، فدعوا الشناعة بالفرية والكذب والاختلاف، هل يمكنكم الخروج من دائرة المعطلين الذين قالوا : لو كان للعـالم صانعـا قائما بنفسه لكان اما داخلا فيه أو خارجا عنه، واما متصلا أو منفصلا عنه، واما مجانبا له أو مُباينا له، واما فوقه أو تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه فحيث لم يثبت له شيء من ذلك استحال أن يكون مغايرا للعالم، قائما بنفسه، قالوا : وهذه العقول والفطر حاضرة، إذا عرض عليها ذلك وجدته من باب الجمع بين النقيضين فدعونا من اخراج نصوص الـوحي من حقـائقهـا، ودعـوى أنهـا مجازات لا حقائق لها لا تفيد يقينا ولا يستفـاد منهـا علم بما يجب لله ويمتنع عليه البتة إذ هي ـ أدلة لفظية وظواهر غير مفيدة للتعيين (. . . . . .)[3] ولا المعطلة وأولئك المجسمة بزعمكم والا فليستحي من مراجمة الناس بالأحجار من سقف بيته من الزجاج .

(١) (و) ساقطة من الأصل وأثبتناها من المختصر.

(٢) هكذا في الأصل «التفسير» ولعله و«التعيير» وهي غير موجودة في المختصر .

(٣) كلمة غير واضحة ويظهر أنه يوجد سقط لأن ما بعدها من الكلام غير مرتبط بها قبلها . وأخر هذا الفصل لا يوجد في المختصر.

الفصل العاشر

في أن التأويل شر من التعطيل

فإنه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب بالنصوص واساءة الظن بها (فان)[1] المعطل والمتأول قد اشتركا فى نفي حقائق الأسماء والصفات، وامتاز المتأول بتلاعبه بالنصوص وانتهاكه لحرمتها واساءة الظن بها ونسبة قائلها إلى المتكلم بها ظاهره الضلال والاضلال، فجمعوا بين أربعة محاذير، اعتقادهم (أن)[2] ظاهر كلام الله ورسوله محال وباطل، ففهموا التشبيه أولا، ثم انتقلوا عنه إلى المحذور الثاني وهو التعطيل، فعطلوا حقائقها بناء منهم على ذلك الفهم الذي يليق بهم ولا يليق بالرب جل جلاله.

المحذور الثالث: نسبة المتكلم الكامل العلم الكامل البيان التام النصح إلى ضد البيان والهدى والارشاد، وأن المتحيرين المتهوكين أجادوا العبارة في هذا الباب، وعبروا بعبارة لاتوهم من الباطل ما أوهمته عبارة المتكلم بتلك النصوص، ولا ريب عند كل عاقل أن ذلك يتضمن أنهم كانوا أعلم منه أو أنصح للناس.

المحذور الرابع : تلاعبهم بالنصوص وانتهاك حرماتها، فلو رأيتها وهم يلوكونها بأفواههم، وقد حلت بها المثلات، وتلاعبت بها أمواج التأويلات (وعصفت)[3] بها رياح الآراء، واحتوشتها رماح الأهواء ونادى عليها أهل التأويل فى سوق من يزيد فبذل كل واحد فى ثمنها من التأويلات ما يريد، فلو شاهدتها بينهم وقد تخطفتها أيدى الاحتمالات، ثم قيدت

---

(١) (فان) من المختصر.

(٢) فى الأصل (إلى) وفي المختصر (ان).

(٣) كلمة غير واضحة في الأصل، وقد أضفنا كلمة «وعصفت» ليستقيم الكلام.

بعدما كانت مطلقة بأنواع الاشكالات، وعزلت عن سلطنة اليقين وجعلت تحت حكم تأويل الجاهلين، هذا وطال ما نصبت لها حبايل (. . . . .)[1] المطاعن والافساد، وقعد النفاة على صراطها المستقيم بالدفع في صدورها والاعجاز، وقالوا لا طريق لك علينا، وان كان لابد فعلى سبيل المجاز، فنحن أهل المعقولات وأصحاب البراهين وأنت أدلة لفظية وظواهر سمعية لاتفيد العلم ولا اليقين فسندك آحاد وهو غرضة للطعن في الناقلين، وإن صح وتواتر ففهم مراد المتكلم منه موقوف على انتفاء عشرة، لاسبيل إلى العلم بانتفائها عند الناظرين والباحثين، فلا إله إلا الله والله أكبر، كم هدمت هذه المعاول من معاقل الايمان وثلمت بها حصون حقائق السنة والقرآن؟ وكم اطلعت[2] في نصوص الوحي من لسان كل جاهل أخرق ومنافق أرعن، وطرقت لأعداء الدين الطريق، وفتحت الباب لكل مبتدع وزنديق.

ومن نظر في التأويلات المخالفة بحقائق[3] النصوص، رأى من ذلك ما يضحك عجباً، ويبكي حزناً ويثير حمية للنصوص وغضباً، قد أعاد عذب النصوص ملحاً أجاجاً، وخرجت الناس من الهدى والعلم أفواجا، فتحيزت كل طائفة إلى طاغوتها وتصادمت تصادم النصارى في شأن ناسوتها ولاهوتها، ثم تمالأ (الكل)[4] على غزو جند الرحمن ومعادات حزب السنة والقرآن، فتداعوا إلى حربهم تداعى الأكلة إلى قصعتها، وقالوا نحن ان كنا مختلفين فانا على محاربة هذا الجند متفقون، فميلوا بنا عليهم

(١) ما بين القوسين كلام غير واضح.
(٢) هكذا في الأصل «اطلعت» بالعين المهملة، ولعلها «بالقاف» المثناه «أطلقت» لما يوحى به السياق.
(٣) بحقائق ـ هكذا في الأصل ـ والأولى: لحقائق.
(٤) في الأصل (الأكل) والأولى ما أثبتناه.

ميلة واحدة حتى تعود دعوتهم باطلة، وكلمتهم خامدة، وغرّ المخدوعين كثرتهم التى ما زادتهم عند الله ورسوله وحزبه إلا قلة وقواعدهم التى ما زادتهم إلا ضلالا وبعدا عن الملة، وظنوا أنهم بجموعهم المعلولة يملأون قلوب أهل السنة ارهابا منهم وتعظيما، (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)[1].

وأنت إذا تأملت تأويلات القرامطة والملاحدة والفلاسفة والرافضة والقدرية والجهمية ومن سلك سبيل هؤلاء من المقلدين لهم فى الحكم والدليل ترى الأخبار بمضمونها عن الله ورسوله لا يقصر عن الأخبار عنه بالأحاديث الموضوعة المصنوعة التى هى مما عملته أيدى الوضاعين وصاغته ألسنة الكذابين فهؤلاء اختلقوا عليه ألفاظاً وضعوها، وهؤلاء اختلقوا فى كلامه معانى ابتدعوها (ها نحن)[2] الكتاب والسنة بين الفريقين، وما نازلة نزلت بالاسلام من الطائفتين فهما عدوان للاسلام كايدان، وعن الصراط المستقيم ناكبان، وعن قصد السبيل حايران، فلو رأيت ما يصرف إليه المحرفون أحسن الكلام وأبينه وأفصحه وأحقه بكل هدى وبيان وعلم، من المعانى الباطلة والتأويلات الفاسدة لكدت تقضي من ذلك عجبا وتتخذ فى بطن الأرض سربا، فتارة تعجب وتارة تغضب وتارة تبكى، وتارة تضحك وتارة تتوجع لما نزل بالاسلام وحل بساحة الوحي ممن هم أضل من الأنعام، فكشف عورات هؤلاء وبيان فضائحهم وفساد قواعدهم من أفضل الجهاد فى سبيل الله، وقد قال النبى ﷺ لحسان بن ثابت إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن رسوله، وقال: أهجهم أو هاجهم وجبريل معك.

(١) سورة الأحزاب آية ٢٢.
(٢) هكذا في الأصل.

وقال: (اللهم أيده بروح القدس ما دام ينافح عن رسولك)[1] وقال عن هجائه لهم: (والذى نفسى بيده لهو أشد فيهم من النبل).

وكيف لا يكون بيان ذلك من الجهاد فى سبيل الله وأكثر من هذه التأويلات المخالفة للسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأهل الحديث قاطبة وأئمة الاسلام الذين لهم فى الأمة لسان صدق يتضمن من عبث المتكلم بالنصوص وسوء الظن به من جنس ما تضمنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه من أهل النفاق والالحاد لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه افك ومحال وكفر وضلال وتشبيه وتمثيل أو تخييل، ثم صرفها إلى معان يعلم أن ارادتها بتلك الألفاظ من نوع الأحاجى والألغاز، لا يصدر ممن قصده نصح وبيان، فالمدافعة عن كلام الله ورسوله والذبّ عنه من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، وأنفعها للعبد، ومن رزقه الله بصيرة نافذة علم سخافة عقول هؤلاء المحرفين وأنهم من أهل الضلال المبين وأنهم اخوان الذين ذمهم الله بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، والذين لا يفقهون ولا يتدبرون القول، وشبههم بالحمر المستنفرة تارة، وبالحمار الذي يحمل أسفارا، ومن قبل التأويلات المفتراة على الله ورسوله التي[2] هى تحريف لكلام الله ورسوله عن مواضعه، فهو من جنس الذين قبلوا قرآن مسيلمة المختلق المفترى، وقد زعم أنه شريك لرسول الله ﷺ، رئيسا وكبيرا مطاعا يجعله شريكا له فى التصديق والطاعة والقبول ان لم يقدمه عليه، لاسيما الغالية من الجهمية والباطنية والرافضة والاتحادية، فان عندهم من كلام ساداتهم وكبرائهم ما يضاهون به كلام الله ورسوله، وكثيرا ما يقدمونه عليه علما

---

(١) في الأصل (اهجم وهاجم) والتصحيح من الصحيحين.
انظر صحيح البخاري مع شرحه فتح البارى كتاب المغازي باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب حديث (٤١٢٣) جـ١/٤١٦، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان حديث (٢٤٨٦) (جـ٤/١٩٣٣).

(٢) في الأصل.

وعملا ويدعون فيه من التحقيق والتدقيق والعلم والعرفان ما لا يثبتون مثله للسنة والقرآن، ومن تلبس منهم بالإسلام يقول كلامنا يوصل إلى الله والقرآن وكلام الرسول يوصل إلى الجنة، وكلامنا للخواص، والقرآن للعوام، وكثير منهم يقول: كلامنا برهان، وطريق القرآن خطابه، ومنهم من يقول: القرآن والسنة طريق السلامة، وكلامنا طريق العلم والتحقيق وكثير منهم يقول: لم يكن الصحابة معنيين بهذا الشأن، بل كانوا أقواما أميين فتحوا البلاد، وأقاموا الدين بالسيف، وسلموا إلينا النصوص نتصرف فيها ونستنبط منها، فلهم علينا مزية الجهاد والزهد والورع ولنا (لهم)[1] مزية العلم بالحقائق والتأويل وان لم يعلموا هذا من قلوبهم والله يشهد به عليهم ويعلمه كامنا في صدورهم يبدوا على فلتات لسان من لم يصرح به منهم، ومن محققى هؤلاء من يدعى أن الرسل يستفيدون العلم بالله من طريقهم، ويتلقونه من مشكاتهم، ولكن يخاطبون الناس على قدر عقولهم، فلم يصرحوا لهم بالحق، ولم ينصحوا لهم به، وكل من هؤلاء قد نصب دون الله ورسوله طاغوتا يعول عليه، ويدعوا عند التحاكم إليه، فكلامه عنده محكم لا يسوغ تأويله ولا مخالفة ظاهره، وكلام الله ورسوله اذا لم يوافقه فهو مجمل متشابه يجب تأويله أو يسوغ، فضابط التأويل عندهم: ما خالف تلك الطواغيت ومن تدبر هذا الموضع انتفع به غاية النفع وتخلص به من أشراك الضلال فان الذين يقرون برسالة النبي ﷺ وفيهم نوع أيمان به، منهم من يجعل له شريكا فى الطاعة، كما كان المنافقون يطيعون عبد الله بن أبي رأس المنافقين وكبيرهم، وكان كثير ممن فى قلبه نوع مرض ان لم يكن منافقا خالصا يطيعه في كثير من الأمور ويقبل منه، كما قال تعالى: ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾[2]، والمعنى

(١) هكذا فى الأصل، والأولى (عليهم).
(٢) التوبة / آية ٤٧ .

على أصح القولين: وفيكم مستجيبون لهم، قابلون منهم، كما قال الله تعالى: ﴿سماعون للكذب﴾[1] أي قابلون له، ومن حمل[2] الآية على العيون والجواسيس فقوله ضعيف لوجوه كثيرة ليس هذا موضعها، وكما كان أصحاب مسيلمة يقولون: انه شريكه في الطاعة وأنه يقبل منه كما يقبل من النبي ﷺ، وكان عبد الله بن أبي يقدم سياسته ورأيه على ما جاء به أحيانا ويغضب اذا لم يسمع منه ويغضب له قومه، وكذلك رئيس الخوارج[3] السجاد العباد الذي بين عينيه أثر السجود، قدم عقله ورأيه على ما جاء به في قسمة وزعم أنه لم يعدل فيها[4]، وكذلك غلاة الرافضة قدموا عقولهم وآراءهم على ما جاء به، وزعموا أنه لم يعدل حيث أمر أبا بكر أن يصلي بالناس وابن عمه حاضر، ولم يعدل حيث أثنى على أبي بكر وعمر وعظمهما أوجب أن الأمة بعده ولوهما دون ابن عمه، وكذلك الجهمية قدموا عقولهم وآراءهم على ما جاء به، وزعموا أنه لم يعدل في العبارة حيث عدل عن العبارة التي عبروا هم بها عن الله سبحانه وعبّر بما أوقع الأمة في اعتقاد التشبيه والتجسيم وحملهم كلفة التأويل وجشمهم مشقته، وأوقع الخلاف بين الأمة بتلك العبارات التي هي عباراتهم - بزعمهم - أعظم تنزيها لله وأقل ايهاما للمحال منها، فهؤلاء وأمثالهم هم السلف لكل خلف،

---

(١) المائدة / آية ٤٢ .

(٢) في الأصل: (حلى) .

(٣) هو ذو الخويصرة التميمي .

(٤) في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما، اذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يارسول الله إعدل، فقال: ويلك، ومن يعدل اذا لم أعدل، قد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل، فقال عمر: يا رسول الله اذن فيه فأضرب عنقه، فقال، دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحديث. صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام، فتح الباري ٦١٧/٦ ح٣٦١٠.
ومسلم/ كتاب الزكاة / باب الخوارج وصفاتهم ٧٤١/٢، ٧٤٢ ح١٤٣، ١٤٤.

يدّعي أن لغير الله ورسوله معه حكما في مضمون الرسالة، إما في العلميات، وإما في العمليات، وإما في الأدوات والأحوال، وإما في السياسات وأحكام الأموال، فيطاع هذا الغير كما يطاع الرسول، بل الله يعلم أن كثيرا منهم أو أكثرهم قد قدموا طاعته على طاعة الرسول، فكل هؤلاء فيهم شبه من اتباع مسيلمة وابن أبيّ وذي الخويصرة، فلكل خلف سلف ولكل تابع متبوع ولكل مرؤوس رئيس، فمن قرن بالرسالة رياسة مطاعه أو سياسة حاكمة بحيث يجعل طاعتها كطاعة الرسالة ففيهم شبه من اتباع عبد الله بن أبي، ومن اعترض على الكتاب والسنة بنوع تأويل من قياس أو ذوق أو عقل أو حال ففيه شبه من الخوارج واتباع ذي الخويصرة، ومن نصب طاغوتا دون الله ورسوله يدعو أو يحاكم إليه ففيه شبه من اتباع مسيلمة وقد يكون في هؤلاء من هو شر من أولئك كما كان فيهم من هو خير منهم أو مثلهم، وهؤلاء كلهم قد أعقبهم هذا الصنيع نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقون ربهم، وانما يتبين لهم حقيقته إذا بليت السرائر وحدثت الضمائر، وبعثر ما في القبور وحصل مافي الصدور، ولا يستقر للعبد قدم في الإسلام حتى يعقد قلبه وسره على أن الدين كله لله (لا رب)(١) سواه، ولا متبوع غيره(٢)، وأن كلام غيره معروض على كلامه، فإن وافقه قبلناه لا لأنه قاله بل لأنه أخبر به عن الله ورسوله، وان خالفه رددناه وأطرحناه، ولا يعرض كلامه صلوات الله وسلامه عليه، على آراء القياسيين ولا عقول الفلاسفة والمتكلمين، ولا على سياسة الولاة الحاكمين والسلاطين، ولا أذواق المتزهدين والمتعبدين، بل تعرض هذه كلها على ما جاء به عرض الدراهم المجهولة(٣) على أخبر الناقدين، فما حكم بصحته منها فهو المقبول، وما حكم برده فهو المردود. والله الموفق للصواب.

---

(١) (لا رب) غير موجود بالأصل وأضفناها ليستقيم الكلام.

(٢) أيْ غير الرسول ﷺ.

(٣) في الأصل «المجهولة حاملها» وقد حذفنا كلمة «حاملها» إذ لا معنى لوجودها.

الفصل الحادى عشر

في أن قصد المتكلم من المخاطب حمل كلامه على خلاف ظاهره وحقيقته ينافي قصد البيان والإرشاد والهدى وأن القصدين يتنافيان، وان تركه بدون ذلك الخطاب خير له وأقرب إلى الهدى

لما كان المقصود بالخطاب دلالة السامع وافهامه مراد المتكلم بكلامه وتبيينه له ما في نفسه من المعاني ودلالته عليها بأقرب الطرق كان ذلك موقوفا(١) على أمرين: بيان المتكلم، وتمكن السامع من الفهم فان لم يحصل البيان من المتكلم أو حصل ولم يتمكن السامع من الفهم لم يحصل مراد المتكلم، فاذا بين المتكلم مراده بالألفاظ الدالة على مراده ولم يعلم السامع معاني تلك الألفاظ لم يحصل له البيان، فلابد من تمكن السامع من الفهم وحصول الأفهام من المتكلم (فحينئذ)(٢) فلو أراد الله ورسوله من كلامه خلاف حقيقته وظاهره الذي يفهمه المخاطب لكان قد كلفه أن يفهم مراده بما لا يدل عليه، بل بما يدل على نقيض مراده، وأراد منه فهم النفي بما يدل على غاية الاثبات وفهم الشيء بما يدل على ضده، وأراد منه أن يفهم أنه ليس فوق العرش إله يعبد ولا اله يصلى إليه ويسجد، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا خلفه ولا أمامه بقوله: ﴿**قل هو الله أحد**﴾(٣) وقوله: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾(٤) وأراد النبى ﷺ افهام أمته هذا

(١) في الأصل (مرفوعا) والتصحيح من المختصر.

(٢) في المختصر «وحينئذ» .

(٣) سورة الإخلاص / آية ١ .

(٤) الشورى / ١١ .

المعنى بقـولـه : (لا تفضلوني على يونس بن متى)[1] وأراد افهام كونه خلق آدم بقـدرتـه ومشيئتـه بقوله : «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى»[2] وأراد افهـام تخريب السمـوات والأرض واعـادتهـا إلى العدم بقوله : «يقبض الله سمـــواتـه بيـده اليمنى والأرض باليـد الأخـرى ثم يهزهن ثم يقـول : أنـا الملك»[3] وأراد افهام معنى : من ربك ومن تعبد بقوله : «أين الله»[4] وأشار بأصبعه إلى السماء مستشهدا بربه وليس هناك رب ولا إله ، وإنما أراد افهام السامعين أن الله قد سمع قوله وقولهم ، فأراد بالاشارة بأصبعه بيان كونه قد سمع قولهم ، وأمثال ذلك من التأويلات الباطلة ، كقول بعضهم فى معنى قوله (عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على شطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع)[5] أن معنـاه : ضرب عليهم الجـزية ، وهذا كذب على اللفظ وكذب على الـرسـول ، فانـه ليس ذلـك معنى اللفظ وأهل خيبر لم يضرب عليهم الجزية لأنه صالحهم وفتحها قبل نزول فرض الجزية ، وكتأويل بعضهم قوله ﷺ : (لا تحرم المصة والمصتان)[6] أن المراد به التقام الثدي من غير ارتضاع اللبن ودخوله إلى جوفه إلى أضعاف أضعاف ذلك من التأويلات الباطلة التي يعلم السامع قطعا أنها لم ترد بالخطاب بقصد المتكلم لها بتلك الألفاظ

(١) حديث لا تفضلوني لا أصل له بهذا اللفظ وقد رواه البخاري بلفظ : (ما ينبغي لعبد أن يقول انى خير من يونس بن متى) كتـاب أحـاديث الأنبيـاء باب قول الله تعـالى : ﴿وان يونـس لمن المـرسلين﴾ حديث ٣٤١٣ - فتح الباري ٦/٤٥٠ .

(٢) سورة ص / آية ٧٥ .

(٣) تقدم تخريجه

(٤) يشـير إلى حديث الجـاريـة التي سألهـا النبى ﷺ : أين الله فقـالـت في السماء . . الحديث . مسلم كتاب المساجد حديث رقم ٥٣٧ ، ١/٣٨٢ .

(٥) أورده البخـاري في كتـاب الاجـارة عقب ترجمـة باب استئجار المشركين عند الضرورة . انظر فتح الباري ٤/٤٤٢ .

(٦) مسلم كتـاب الـرضـاع ، باب فى المصـة والمصتـان حديث ١٤٥٠ (٢/١٠٧٣) وأبـو داود كتـاب النكـاح باب هل يحرم ما دون خمس رضعـات حديث رقم (٢٠٦٣) ٢/٥٥٢ ، والـترمـذي في كتاب الرضاع باب ما جاء لا تحرم المصة ولا المصتان ، حديث ١١٥٠ (٣/٤٤٦) وابن ماجة في النكاح باب لا تحرم المصة ولا المصتان حديث ١٩٤١ (١/٦٢٤) .

الدالة على نقيضها من كل وجه (فإن ذلك) لا يجامع قصد البيان والدلالة[1].

قال شيخ الإسلام: ان كان الحق فيما يقوله هؤلاء النفاة الذين لا يوجد ما يقولونه في الكتاب والسنة وكلام القرون الثلاثة المعظمة على سائر القرون، ولا فى كلام أحد من أئمة الإسلام المقتدى بهم، بل ما فى الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة يوجد دالا على خلاف الحق عندهم اما نصا واما ظاهرا، بل دالا عندهم على الكفر والضلال لزم من ذلك لوازم باطلة.

منها: أن يكون الله سبحانه قد أنزل فى كتابه وسنة نبيه من هذه الألفاظ ما يضلهم ظاهره ويوقعهم في التشبيه والتمثيل.

ومنها: أن يكون قد ترك بيان الحق والصواب لهم ولم يفصح به بل رمز إليه رمزا، والغزه الغازا لا يفهم منه ذلك إلا بعد الجهد الجهيد.

ومنها: أن يكون قد كلف عباده، أن لا يفهموامن تلك الألفاظ حقائقها وظواهرها، وكلفهم أن يفهموا منها ما لا تدل عليه ولم يجعل معها قرينة تفهم ذلك.

ومنها: أنه يكون دائما متكلما في هذا الباب بما ظاهره خلاف الحق بأنواع متنوعة من الخطاب تارة بأنه استوى على عرشه، وتارة بأنه فوق عباده، وتارة بأنه العلي الأعلى، وتارة بأن الملائكة تعرج إليه، وتارة بأن الأعمال الصالحة ترفع إليه، وتارة بأن الملائكة في نزولها من العلو إلى أسفل تنزل من عنده، وتارة بأنه رفيع الدرجات، وتارة بأنه في السماء، وتارة بأنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وتارة بأنه فوق سماواته على عرشه، وتارة

---

(١) أي ـ قصد المتكلم بما يريده من كلامه، ودلالة ذلك اللفظ على المعنى الذي أراده، وأضفنا «فإن ذلك» ليستقيم المعنى.

بأن الكتاب نزل من عنده، وتارة بأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وتارة بأنه يرى بالأبصار عيانا يراه المؤمنون فوق رؤوسهم إلى غير ذلك من تنوع الدلالات على ذلك، ولا يتكلم فيَّه بكلمة واحدة توافق ما يقوله النفاة ولا يقول في مقام واحد قط ما هو الصواب فيه لا نصا ولا ظاهرا ولا (يبينه)[1].

ومنها: أن يكون أفضل الأمة وخير القرون قد أمسكوا من أولهم إلى آخرهم عن قول الحق في هذا النبأ العظيم الذي هو من أهم أصول الإيمان، وذلك اما جهل ينافي العلم، واما كتمان ينافي البيان، ولقد أساء الظن بخيار الأمة من نسبهم إلى ذلك، ومعلوم أنه اذا ازدوج المتكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق تولد من بينهما جهل الحق واضلال الخلق، ولهذا لما اعتقد النفاة التعطيل صاروا يأتون من العبارات بما يدل على التعطيل والنفي نصا وظاهرا، ولا يتكلمون بما يدل على حقيقة الاثبات لا نصا ولا ظاهرا واذا ورد عليهم من النصوص ما هو صريح أو ظاهر في الاثبات حرفوه أنواع التحريفات وطلبوا له مستكره التأويلات.

ومنها: أنهم التزموا لذلك تجهيل السلف وأنهم كانوا أميين مقبلين على الزهد والعبادة والورع والتسبيح وقيام الليل، ولم تكن الحقائق من شأنهم.

ومنها: أن ترك الناس من إنزال هذه النصوص كان أنفع لهم وأقرب إلى الصواب، فانهم ما استفادوا بنزولها غير التعرض للضلال ولم يستفيدوا منها يقينا ولا علما، بما يجب لله ويمتنع عليه، اذ ذاك انما يستفاد من عقول الرجال وآرائها.

فان قيل: استفدنا منها الثواب على تلاوتها وانعقاد الصلاة بها.

قيل: هذا تابع للمقصود بها بالقصد الأول وهو الهدى والارشاد

(١) في الأصل يبينوه. والتصحيح من المختصر.

والـدلالـة على اثبـات حقـائقهـا ومعانيها والإيمان بها ، فإن القران لم ينزل لمجـرد التـلاوة وانعقـاد الصـلاة عليه بل أنزل ليتدبر ويعقل ويهدي به علما وعمـلا ويبصـر من العمى ويرشد من الغي ، ويعلم من الجهل ويشفى من العي ويهـدي إلى صراط مستقيم[1] ، وهـذا القصـد ينـافي قصـد تحريفـه وتأويـله بالتأويـلات البـاطلة المستكـرهـة التى هى من جنس الألغـاز والأحاجى ، فلا يجتمع قصد الهدى والبيان وقصد ما يضاده أبدا وبالله التوفيق .

وممـا[2] يبـين ذلـك أن الله تعالى وصف كتابه بأوضح البيان وأحسن التفسير ، فقال تعالى : ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾[3] وقال : ﴿**ومـا أنـزلنـا عليـك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾[4] .

فأين بيان المختلف فيه والهدى والرحمة فى ألفاظ ظاهرها باطل والمراد منها يطلب بأنواع[5] التأويلات المستنكرة المستكرهة لها التي لا يفهم منها ضدها[6] .

وقال تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾[7] .

فأين بين الرسول ما يقوله النفاة والمتأولون؟ .

---

(١) قال تعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة/ ١٥، ١٦ .

(٢) في الأصل (ما) والتصحيح من المختصر.

(٣) النحل/ ٨٩ .

(٤) النحل / ٦٤ .

(٥) في الأصل (أنواع) بدون باء.

(٦) في المختصر ١/ ٥٤ : «المستنكرة لها التى لايفهم منها بل يفهم منها ضدها .

(٧) النحل / ٤٤ .

وقال تعالى : ﴿**والله يقول الحق وهو يهدى السبيل**﴾(١) فأخبر أنه يقول الحق ويهدي السبيل بقوله، وعند النفاة انما(٢) حصلت الهداية بابكار أفكارهم ونتائج آرائهم وعقولهم.

وقال تعالى : ﴿**فبأى حديث بعده يؤمنون**﴾(٣)، وقال : ﴿**فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون**﴾(٤).

وعند النفاة المخرجين لنصوص الوحي عن افادة اليقين انما حصل له الايمان بالحديث الذي أسسه الفلاسفة والجهمية والمعتزلة ونحوهم فبه آمنوا وبه اهتدوا وبه عرفوا الحق من الباطل، وبه صحت عقولهم ومعارفهم.

وقال تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**(٥) **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾(٦) وأنت لا تجد الاختلاف فى شىء أكثر منه فى آراء المتأولين، وسوانح أفكارهم وزبالة أذهانهم التى يسمونها قواطع عقلية وبراهين يقينية، وهى عند التحقيق خيالات وهمية وقوادح فكرية نبذوا بها القرآن والسنة وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين، وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع**

---

(١) الأحزاب / ٤ .

(٢) في الأصل (اذا) والتصحيح من المختصر.

(٣) الأعراف / ١٨٥ .

(٤) الجاثية / ٦ .

(٥) إلى هنا ينتهي السقط من «ك» وقد سبقت الإشارة إلى بدايته ص ١٤٧ .

(٦) النساء / ٨٢ .

العليم، وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصـــون ان ربـك هو أعلم من يضـل عن سبيله وهـو أعلم بالمهتدين﴾[1].

---

(١) الأنعام / ١١٢ ـ ١١٧ .

الفصل الثاني عشر

في بيان أنه مع كمال علم المتكلم وفصاحته وبيانه ونصحه يمتنع عليه أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته وعدم البيان في أهم الأمور وما اشتد الحاجة إلى بيانه

نكتفي من هذا الفصل بذكر مناظرة جرت بين جهمي معطل وسني مثبت حدثني بمضمونها شيخنا عبد الله[1] بن تيمية ـ رحمه الله ـ أنه جمعه وبعض الجهمية مجلسا، فقال الشيخ: قد تطابقت نصوص الكتاب والسنة والآثار على اثبات الصفات لله وتنوعت دلالتها عليها أنواعا توجب العلم الضروري بثبوتها وارادة المتكلم اعتقاد ما دلت عليه والقرآن مملوء من ذكر الصفات والسنة ناطقة (على)[2] ما نطق به القرآن مقررة له مصدقة له مشتملة على زيادة في الاثبات، فتارة يذكر الاسم المشتمل على الصفة كالسميع البصير العليم القدير العزيز الحكيم، وتارة يذكر المصدر وهو الوصف الذي اشتقت منه تلك الصفة كقوله: ﴿**أنزله بعلمه**﴾[3] وقوله: ﴿**ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾[4]، وقوله: ﴿**اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**﴾[5]، وقوله: ﴿**قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين**﴾[6]، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح (حجابه النور لو كشفه

(١) هكذا في الأصل، وشيخه إنما هو شيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم. وهكذا ورد في المختصر ١/٥٥.

(٢) هكذا في الأصل، وفي «ل» (بمثل).

(٣) النساء / ١٦٦ .

(٤) الذاريات / ٥٨ .

(٥) الأعراف / ١٤٤ .

(٦) سورة ص / ٨٢ .

لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[1] وقوله في دعاء الاستخارة: «اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك»[2]، وقوله: (أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق)[3]، وقول عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات)[4] ونحوه.

وتارة (يذكر)[5] حكم تلك الصفة كقوله: ﴿قد سمع الله﴾[6] و﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾[7]، وقوله: ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾[8]، وقوله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾[9] ونظائر ذلك.

ويصرح في الفوقية بلفظها الخاص وبلفظ العلو والاستواء وأنه في السماء وأنه ذو المعارج، وأنه رفيع الدرجات، وأنه تعرج إليه الملائكة وتنزل من عنده، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا وأن المؤمنين يرونه بأبصارهم عيانا من فوقهم إلى أضعاف أضعاف ذلك مما لو جمعت النصوص والآثار فيه لم

---

(١) مسلم كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام: ان الله لا ينام حديث ٢٩٣، ٣٩٥ (١/١٦١)، وابن ماجة في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ح ١٩٥، ١٩٦، والهروى فى كتاب الأربعين في دلائل التوحيد ح ٧٣ ص٤٩، ٥٦.

(٢) البخاري مع شرحه كتاب التهجد باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ح١١٦٢ (٤٨/٣)، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿قل هو القادر﴾ ح ٧٣٩٠ (٣٧٥/١٣).

والترمذي، الوتر باب ما جاء في صلاة الاستخارة ح٤٨٠ (٣٤٥/٢).

وابن ماجة كتاب اقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة الاستخارة ح١٣٨٣ (٤٤٠/١)، ومسند أحمد ٣٤٤/٣.

(٣) أورده النسائي في كتاب السهو ٤٦/٣ وأحمد في المسند ٢٦٤/٤.

(٤) البخاري كتاب التوحيد باب وكان الله سميعا بصيرا (٣٧٢/١٣). وابن ماجة في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ح١٨٨ (٦٧/١) وأحمد في المسند ٤٦/٦.

(٥) (يذكر) ساقط من الأصل وأثبتناه من «ل».

(٦) المجادلة / ١.

(٧) طه / ٤٦.

(٨) المرسلات / ٢٣.

(٩) البقرة / ١٨٧.

تنقص عن نصوص الأحكام وآثارها.

ومن أبين المحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله على خلاف حقيقته وظاهره، ودعوى المجاز فيه والاستعارة وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين وأن تأويلاتهم هي المرادة من هذه النصوص (اذ يلزم ذلك أحد محاذير ثلاثة)[1] لابد منها أو من بعضها وهي:

القدح في **علم** المتكلم بها، أوفي **بيانه**، أوفي **نصحه**، وتقرير ذلك أن يقال: اما أن يكون المتكلم بهذه النصوص عالما أن الحق في تأويلات النفاة المعطلين أو لا يعلم ذلك، فان لم يعلم ذلك والحق فيها كان ذلك قدحاً في علمه، وان كان عالما أن الحق فيها فلا يخلو اما أن يكون قادرا على التعبير بعباراتهم التي هي تنزيه لله بزعمهم عن التشبيه والتمثيل والتجسيم وأنه لا يعرف الله من لم ينزهه بها أو[2] لا يكون قادرا على تلك العبارات، فان لم يكن قادرا على التعبير بذلك لزم القدح في فصاحته وكان (ورثة)[3] الصابئة وأفراخ الفلاسفة وأوقاح المعتزلة والجهمية وتلامذة الملاحدة أفصح منه وأحسن بيانا وتعبيرا عن الحق، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة أولياؤه وأعداؤه، موافقوه ومخالفوه، فان مخالفيه لم يشكوا في أنه أفصح الخلق وأقدرهم على حسن التعبير بما يطابق المعنى ويخلصه من اللبس والاشكال، وان كان قادرا على ذلك ولم يتكلم به وتكلم دائما بخلافه وما يناقضه كان ذلك قدحا في نصحه، وقد وصف الله رسله بكمال النصح والبيان فقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾[4] وأخبر عن رسله بأنهم أنصح الناس لأممهم فمع النصح والبيان والمعرفة

(١) في المختصر (إذ يلزم من ذلك محاذير ثلاثة).
(٢) في الأصل (إذ) بالذال والتصحيح من «ل».
(٣) في الأصل (روية) بالياء والتصحيح من «ل».
(٤) سورة إبراهيم / ٤.

التامة كيف يكون مذهب النفاة المعطلة أصحاب التحريف هو الصواب، وقول أهل الاثبات أتباع القرآن والسنة باطلا، هذا مضمون المناظرة.

فقال له الجهمي: أنزل بنا إلى الوطاة، قلت له: ما أراد بذلك؟ قال: أراد أنك خاطبتني من فوق وتجوهت(١) على بجاة لا يمكنني مقاومته فأنزل بنا إلى مباحث الفضلاء وقواعد النظار أو نحو هذا من الكلام.

فليتدبر الناصح لنفسه الموقن بأن(٢) الله لابد سائله عما أجاب به رسوله هذا المقام وليتخير بعد إلى أين شاء فلم يكن الله ليجمع بين النفاة المعطلين المحرفين، وبين أنصاره وأنصار رسوله وكتابه الا جمع امتحان وابتلاء كما جمع بين الرسل وأعدائهم في هذه الدار.

قلت: وقريب من هذه المناظرة ما جرى لي مع بعض علماء أهل الكتاب فانه جمعني واياه مجلس خلوة أفضى (بنا)(٣) الكلام إلى أن جرى ذكر مسبة النصارى لرب العالمين مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، فقلت له: (فأنتم)(٤) بانكاركم نبوة محمد ﷺ قد سببتم الرب تعالى أعظم مسبة، قال وكيف ذلك؟ قلت: لأنكم تزعمون أن محمدا ملك ظالم ليس برسول صادق، وأنه خرج يستعرض الناس بسيفه فيستبيح أموالهم ونساءهم وذراريهم، ولا يقتصر على ذلك حتى يكذب على الله ويقول: الله أمرني بهذا وأباحه لي، ولم يأمره الله ولا أباح له ذلك، ويقول: أوحى إلى ولم يوح إليه شيء وينسخ شرائع الأنبياء من عنده ويبطل منها ما يشاء، وينفى منها ما يشاء، وينسب ذلك كله إلى الله ويقتل أولياءه وأتباع رسله ويسترق

---

(١) قال الجوهري: يقال جاهه بالمكروه جوها أي جبهه. انظر الصحاح ٦/٢٢٣١.
فيكون المعنى حينئذ أنك أوقعتنى. وأفحمتني بأمر له منزلة وقدر لا يمكنني مقاومته. والله أعلم.
(٢) (بان) ساقطة من الأصل وأثبتناه من «ل».
(٣) في الأصل (بيننا) والتصحيح من المختصر.
(٤) في «ل» (وأنتم).

نسـاءهم وذريتهم. فاما أن يكون الله سبحانه رائيا لذلك كله عالما به مطلعا عليـه أولا، فان قلتم: ان ذلـك بغـير علمـه واطلاعه نسبتموه إلى الجهل والغباوة وذلك من أقبح السب.

وإن كان عالما به رائيا له مشاهدا لما يفعله، فإما أن يقدر على الأخذ على يديه ومنعه من ذلك أولا، فإن قلتم: إنه غير قادر على منعه (والأخذ على يده)[1] نسبتمـوه إلى العجـز والضعف، (وإن قلتم بل هو قادر على منعه ولم يفعله)[2] نسبتموه إلى السفه والظلم والجور.

هذا وهـو من حين ظهـر إلى أن توفـاه ربـه يجيب دعـواتـه ويقضي حاجاته ولا يسأله حاجة إلا قضاها له، ولا يدعوه بدعوة إلا أجابها له، ولا يقوم له عدو إلا أظفره به، ولا تقوم له راية إلا نصرها، ولا لواء إلا رفعه ولا من ينـاويـه ويعاديه إلا بتره ووضعه، فكان أمره من حين ظهر إلى أن توفى يزداد على الأيـام والليـالي ظهـورا وعلوا ورفعـة، وأمـر مخالفيه لا يزداد إلا سفـولا واضمحـلالا، ومحبته في قلوب الخلق تزيد على ممر الأوقات، وربه تعـالى يؤيـده بأنـواع التأييـد ويرفع ذكره غاية الرفع، هذا وهو عندكم من أعظم أعدائه ضررا على الناس، وأي قدح في رب العالمين، وأي مسبَّة له وأي طعن فيـه أعظم من ذلـك فأخـذ الكـلام منه مأخذا ظهر عليه وقال: حاش لله أن نقول فيه هذه المقالة بل هو نبيّ صادق كل من اتبعه فهو سعيد وكل منصف منا يقر بذلك ويقول: أتباعه سعداء في الدارين، قلت له: فما يمنعك من الظفر بهذه السعادة، فقال: وأتباع كل نبي من الأنبياء كذلك، فاتبـاع موسى أيضـا سعداء، قلت له: فإذا أقررت بأنه نبِّي صادق فهو قد كفَّـر من لم يتبعـه واستبـاح دمـه ومـاله وحكم له بالنار، فان صدقته في هذا

---

(١) ما بين القوسين من «ل» وفي الأصل: فان قلتم انه غير قادر على منعه ولم يفعل.. الخ ولا يستقيم المعنى بذلك.

(٢) ما بين القوسين من «ل».

وجب عليك اتباعه وإن كذبته فيه لم يكن نبيا، فكيف يكون اتباعه سعداء، فلم يحر جوابا، وقال: (حدثنا)[1] في غير هذا.

فانظر هذه الموازنة والمشابهة بين ما لزم الجهمية النفاة من القدح والطعن في التكلم بنصوص الصفات وما لزم منكري نبوة محمد ﷺ من الطعن والقدح فى الرب تعالى، واذا ضممت هذا إلى ما يلزمهم في كلامه وأمره واشتماله على ما ظاهره كفر وضلال وباطل ومحال علمت حقيقة الحال وتبين لك الهدى من الضلال والله المستعان.

---

(١) في «ل» (خذ بنا).

الفصل الثالث عشر

في بيان أن تيسير القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره

أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين(١)، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف سبحانه به كتابه في قوله: ﴿**ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾(٢).

فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه، والتفسير أصله من الظهور والبيان(٣)، (وتلاقيه)(٤) في الاشتقاق الأكبر الاسفار ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت وظهوره، ومنه السفر الذي يتضمن اظهار ما فيه من العلم وبيانه فلابد أن يكون التفسير مطابقا للمفسر مفهما له، وكل ما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان

(١) كما قال تعالى: ﴿ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾. يونس/ ٥٧، وقوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾. الاسراء/ ٨٢.

(٢) الفرقان / ٣٣.

(٣) الفسر: البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرا وفسره أبانه، وقوله عز وجل: ﴿وأحسن تفسيرا﴾، الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل.

لسان العرب/ مادة فسر.

ويقول ابن جرير في تفسير الآية: «ولا يأتيك يامحمد هؤلاء المشركون بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق بما نبطل به ما جاءوا به وأحسن منه تفسيرا». التفسير ١٩/ ١١.

(٤) في المختصر «ويلاقيه».

التفسير أكمل وأحسن، ولهذا لا تجد كلاما أحسن تفسيرا ولا أتم بيانا من كلام الله سبحانه، ولهذا سمّاه سبحانه بيانا[١]، وأخبر أنه يسره للذكر[٢] وتيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير :

احداها : تيسير ألفاظه للحفظ .

الثاني : تيسير معانيه للفهم .

الثالث : تيسير أوامره ونواهيه للامتثال، ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرا له، بل كان معسرا عليه، وهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه مالا يدل عليه من المعانى أو يدل على خلافه، فهذا من أشد التعسير، وهو مناف للتيسير فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مبايناً له ولا محايثا، ولا يرى بالأبصار عيانا، ولا له وجه ولا يد[٣]، من قوله : ﴿**قل هو الله أحد**﴾[٤] ومن قول رسوله : «لا تفضلونى على يونس بن متى»[٥] ومن قوله : ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به**﴾[٦] وأن يجهدوا أنفسهم ويكابدوا أعظم المشقة في طلب أنواع الاستعارات وضروب المجازات، ووحشي اللغات، ليحملوا عليه آيات الصفات وأخبارها، فيصرفوا قلوبهم وأفهامهم عما يدل عليه، ويفهموا منها مالا يدل عليه، بل يدل على خلافه ويقول : اعلموا ياعبادي أني أردت منكم أن تعلموا أني لست فوق العالم ولا تحته، ولا فوق عرشى ولا ترفع الأيدى

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ آل عمران/ ١٣٨ .

(٢) كما في قوله تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ . القمر/ آية ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠ .

(٣) نيل المرام في علم الكلام للآمدى ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٤) سورة الأخلاص / ١ .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) غافر / ٧ .

إلـى ، ولا يعــرج إلـى بشيء ، ولا ينــزل من عنــدي شيء من قولي : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾(١) ومن قولي : ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾(٢) ومن قولي : ﴿**تعـرج الملائكـة والروح إليه**﴾(٣) ومن قولي : ﴿**رفيـع الـدرجـات ذو العرش**﴾(٤) ومن قولي : ﴿**وهو العلي العظيم**﴾(٥) ومن قولي : ﴿**سبـح اسم ربـك الأعلى**﴾(٦) ومن قولي : ﴿**وجـوه يومئـذ ناضـرة إلى ربهـا ناظـرة**﴾(٧) ومن قولي : ﴿**أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض**﴾(٨) ومن قولي : ﴿**تنـزيـل من حكيم حميد**﴾(٩) ومن قولي : ﴿**قل نزله روح القدس من ربك بالحق**﴾(١٠) وأن تفهموا أنه ليس لي يدان من قولي : ﴿**لما خلقت بيدي**﴾(١١) ومن قولي : ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾(١٢) ولا عين من قولي : ﴿**ولتصنع على عينى**﴾(١٣) فانكم إذا فهمتم من هذه الألفاظ حقائقها وظواهرها فهمتم خلاف مرادى منها ، بل مرادى منكم أن تفهموا منها ما يدل على خلاف حقائقها وظواهرها ، فأي تيسر يكون هناك ، وأي تعقيد وتعسير لم يحصل بذلك ، ومعلوم أن خطاب الـرجـل بما لا يفهمـه الا بترجمة أيسر عليه من خطابه بما كلف أن يفهم منه

---

(١) طـه / ٥٠ .
(٢) النحـل / ٥٠ .
(٣) المعارج / ٤ .
(٤) غافـر / ١٥ .
(٥) البقرة / ٢٥٥ .
(٦) الأعلى / ١ .
(٧) القيامة / ٢٢ ، ٢٣ .
(٨) الملك / ١٦ .
(٩) فصلت / ٤٢ .
(١٠) النحـل / ١٠٢ .
(١١) ص / ٧٥ .
(١٢) المائـدة / ٦٤ .
(١٣) طـه / ٣٩ .

خلاف موضوعه[1] وحقيقته بكثير فتيسير القرآن مناف لطريقة النفاة المحرفين أعظم منافاة، ولهذا لما عسر عليهم أن يفهموا منه النفى وعز عليهم ذلك عولوا فيه على الشبه الخيالية التي سموها قواطع عقلية وقواعد[2] يقينية وإذا تأملها من نور الله قلبه وكحل عين بصيرته بمرود الإيمان رآها لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى وهي من جنس خيالات المَمْرورين وأصحاب الهوس وقد سودوا بها القلوب والأوراق، فطريقتهم ضد طريقة القرآن من كل وجه، إذ طريقة القرآن حق بأحسن تفسير وأبين عبارة، وطريقتهم معان باطلة بأعقد عبارة وأطولها وابعدها من الفهم، فيجهد الرجل الظمآن نفسه وراءهم حتى تنفذ قواه فإذا هو قد طلع على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور[3] والله يعلم انا لم نقل ذلك تقليدا لغيرنا بل اخبارا عما شاهدناه ورأيناه، وإذا أحببت أن تعلم ذلك حقيقة فتأمل عامة مطالبهم وأدلتهم عليها كيف تجدها مطالب بعد التعب الشديد والجهد الجهيد، لا يحصل منها على مطالب صحيح، فإنهم بعد الكد والجهد لم يثبتوا للعالم ربا مباينا عنه منفصلا منه، بل بعد الجهد الشديد في إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه[4] هم شاكون في وجوده هل هو

---

(١) في الأصل «موضعه» والتصحيح من «ل» ومن المختصر.

(٢) في الأصل «وقواطع يقينيه» والتصحيح من «ل».

(٣) إشارة إلى الآيتين ٣٩، ٤٠ من سورة النور.

(٤) انظر غاية المرام في علم الكلام للآمدى ص ١٩٨ - ٢٠٠.

وتحفة المريد على جوهرة التوحيد للبيجورى ص ٥٦ مطبعة الخيرية سنة ١٣١٠هـ عند شرحه للبيت الذي فيه: =

نفس ماهيته أوزايد عليها، فمن ذاهب إلى أنه زايد ومن ذاهب إلى أنه ليس بزايد، ومن متوقف في وجوده شاك فيه هل هو نفس ذاته أوزايد عليها، ثم هم شاكون في أن صفاته هل هي وجودية أوعدمية، أولا وجودية ولا عدمية، وهل هي زايدة على الموصوف أوليست زايدة، فكيف يثبت له على وجه لا يوجب تكثرا في الذات، ولا مغايرة بينها، فبعضهم يجعلها أمورا عدمية، وبعضهم أحوالا نسبية[1]، وبعضهم يتوقف فيها، ومنهم من يجعل علمه نفس ذاته، فجعل ذاته علما، ومنهم من يجعل علمه نفس معلومه، ومنهم من يجعل علمه واحدا لا يتعدد ولا ينقسم، فيجعل علمه بوجود الشيء هو «عين» علمه بعدمه، وعلمه بكونه يطاع هو نفس علمه بكونه يعصى، هذا إذا أثبت علمه بالمعينات والجزئيات ومن لم يثبته منهم قال لا يعلم من الموجودات المعينة شيئا البتة[2] وكذلك اضطربوا في كلامه، فمنهم من لم يثبت له كلاما البتة، فلا قال عنده ولا يقول، ولا أمر ولا نهي ولا كلم ولا يتكلم، ومن يقرب منهم إلى الإسلام قال كل ذلك مخلوق، خلقه في الهواء أوفي اللوح المحفوظ[3]. ومنهم من قال : كلامه معنى واحد، فالمعنى ليس له بعض ولا كل وليس بحروف ولا أصوات وذلك المعنى الواحد الذي لا ينقسم هو معاني كتبه كلها، فالقرآن هو نفس التوراة وهما نفس الانجيل والزبور، اختلفت أسماؤ ها باختلاف التعبير عن ذلك المعنى الواحد[4]، ثم ذلك المعنى ليس من جنس المعلوم ولا الإرادات، بل هي حقيقة مغايرة لحقيقتها، ثم ذلك المعنى المشار إليه يجوز

= ويستحيل ضد ذى الصفات في حقه كالكون في الجهات

قال في شرحه : أي ككونه تعالى في جهة من الجهات الست ومنها جهة العلو.

(١) انظر غاية المرام في علم الكلام، القاعدة الأولى مسألة الأحوال ص ٢٧.

(٢) في الأصل : «بالمغيبات شيئا البتة» وما أثبتناه من «ل».

(٣) انظر الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٥٢٨.

(٤) انظر أصول الدين للبغدادى ص ١٠٨.

تعلق الحواس الخمس به فيسمع ويرى ويلمس ويشم ويذاق، وكذلك سائر الاعراض يجوز تعلق الادراكات كلها بها، فيجوز أن تشم الأصوات وترى وتذاق وتلمس، ويجوز أن تسمع الروائح وترى وتلمس.

قالوا: وهكذا هم في(1) سائر الصفات، فجعلوا الإرادة واحدة(2) بالمعنى(3).

---

(1) في «ل» وهذا حكم.

(2) انظر أصول الدين للبغدادي ص١٠٢، والأسماء والصفات للبيهقي ص٢٧٠ ونهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني ص٣٠٧ ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص١٣٤، والعقيدة النظامية للجويني ص١٨ وهم ـ كما ترى ـ يقولون بأن كلام الله تعالى واحد لا يتجزأ ولا يتبعض، فكلام الله لموسى هو عين كلامه لعيسى ولمحمد عليهم الصلاة والسلام، فهو عندهم عبارة عن معنى واحد، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا، وكلامه تعالى لأنبيائه ليس هو كلامه حقيقة، وإنما هو عبارة عنه، ويترتب على هذا أن القرآن الذي بين أيدينا نقرؤه ونتعبد به ليس هو كلام الله حقيقة، وإنما هو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق. وهذا المذهب في كلام الله تعالى أقبح من مذهب المعتزلة.

يقول شارح الطحاوية موضحاً فساد هذا القول: وكلما تبين الإنسان هذا القول تبين له فساده، وعلم أنه مخالف لكلام السلف، والحق أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك. قال تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾. الكهف/١٠٩، وقال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾. لقمان/٢٧. ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه، ولو كان ما يقرؤه القارىء ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءته. بل كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسن، مكتوب في المصاحف. شرح الطحاوية ص١٣٠.

أما قولهم بأن كلام الله لا يتبعض فإن هذا قول مردود أيضاً، لأن موسى عليه السلام حين سمع كلام الله تعالى لا يخلو أن يكون قد سمعه كله أو بعضه، فليس لهم إلا أحد جوابين، إما أن يقولوا: سمع كلام الله كله فيكون موسى قد علم علم الله، وإما أن يكون سمع بعضه، وإذا قالوا سمع بعضه ولن يجدوا محيصا ـ فقد تبعض كلام الله.

وقصارى القول: إن ما ارتضاه الأشاعرة من القول بأن كلام الله تعالى معنى واحد قديم لا يتعدد ولا يتبعض غير منطقي، ولا ينسجم مع الواقع، ولا مع الوحي الذي نراه تارة يأمر، وأخرى ينهى، ومرات ينادي، وكل نوع من هذه الأنواع لا يشبه الآخر بل يختلف عنه، ولو كان الأمر كما قالوا لما كان ثمة حاجة إلى تفسير كلام الله تعالى في تلك الأسفار الضخام التي هي ثمرة جهد كبير بذله علماء هذه الأمة، بينوا فيها ما أراد الله تعالى حين أمر، وما أراده حين نهى، ليكون المسلم على بصيرة من مقاصد التشريع.

(3) في «ل» بالعين.

وإرادة إيجاد الشيء هي عين إرادة اعدامه، وإرادة تحريكه هي عين إرادة تسكينه، وإرادة ابقائه هي عين إرادة افنائه، وإنما المختلف تعلقاتها فقط، وكذلك قالوا في القدرة، وأما إذا حضروا[1] على مطلب الجوهر الفرد ومطلب العرض هل يبقى زمانين أم لا، ومطلب الأجسام هل هي متماثلة أو متباينة، ومطلب الأحوال هل هي ثابتة أم لا، وهل هي وجودية أو عدمية، أو لا ذا ولا ذا، ومطلب الزمان والمكان ما حقيقتهما وهل هما وجوديان أو عدميان، ومطلب الكسب هل له حقيقة أم لا وما حقيقته، ومطلب الفعل هل هو قائم بالفاعل أم لا، فإن قام به فهل هو مقارن له أم لا فإن تأخر عنه فما الموجب لتأخره، وان قارنه فهل كان قديما بقدمه، وان لم يقم به فكيف يكون فاعلا بلا فعل يقوم به، كما لا يكون سميعا بصيرا مريدا قادرا، بلا سمع ولا بصر ولا إرادة تقوم به إلى غاية مطالبهم الذي إذا انتهى «جمعهم»[2] وصلوا إلى ما (يحيله)[3] العقل والسمع، فترى أحدهم يبني حتى إذا ظن أنه قد ارتفع بناؤه جاء الآخر بمعاول من الشبه والتشكيك فهدم عليه جميع ما بناه، وبنا مكانه بناء آخر حتى إذا ظن أن بناءه قد اكتمل عاد الباني[4] الأول بنظير[5] تلك المعاول فهدم بناءه، فلا يزالون كذلك كما قال شاعرهم :

ونظيري في العلم مثلي أعمى ... فترانا في حندس نتصادم

فهذه القواعد الفاسدة هي التي حملتهم على تلك التأويلات الباطلة لأنهم رأوها لا تلائم نصوص الوحي بل بينها وبينها الحرب العوان فأجهدوا

---

(١) في «ل» حفروا ـ بالحاء المهملة والفاء.

(٢) في «ل» فإذا انتهى «حفرهم» بالحاء والفاء.

(٣) في «ل» ما «تخيله» بالمثناة من فوق والخاء المعجمة، وفي الأصل يحيله بالمثناة التحتية ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

(٤) في الأصل «الثاني» بالثاء، والتصحيح من «ل».

(٥) في الأصل «ينظر» والتصحيح من «ل».

أنفسهم وكدوا خواطرهم في الصلح وزعموا أن ذلك إحسان وتوفيق، وكأن الله سبحانه أنزل هذه الآيات في شأنهم ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾[1].

(١) النساء الآيات/ ٦٠ ـ ٦٢.

الفصل الرابع عشر

في أن التأويل يعود على المقصود من وضع اللغات بالابطال

لما جعل الله سبحانه نوع الإنسان يحتاج بعضه إلى بعض فلا يمكن لإنسان أن يعيش وحده، بل لابد له من مشارك ومعاون من بني جنسه، كما قيل الإنسان مدني بالطبع، وكان لا يعرف كل منهم ما يريد صاحبه من الأفعال والتروك إلا بعلامة تدل على ذلك وتلك العلامة اما تحريك جسم من الأجسام المنفصلة عنه، أو تحريكه بعض اعضائه، فيجعل لك معنى حركة خاصة، ومعلوم أن في الأول من العسر والمشقة وعدم الإحاطة بالتعريف ما يمنع وضعه، فكان تحريك الاعضاء أسهل وأدل وأعم، وكانت حركة الأعضاء نوعين :

نوع للبصر، ونوع للأذن. والذي للأذن أعم، والإنسان إليه أحوج وكان أولى هذه الأعضاء بأن يجعل حركاته دالة معرفته هو اللسان(١) لأن حركته أخف وأسهل، وتنوعها أعظم وأكثر من تنوع حركة غيره، وترجمته عما(٢) في القلب أظهر من ترجمة غيره، ويتمكن المعرف بحركاته(٣) من حركات مفردة ومؤلفة يحصل بها من الفرق والتمييز ما لا يحصل لغيره(٤) كان أقرب الطرق إلى هذا القصد هو الكلام الذي جعله الله سبحانه في اللسان وجعله دليلا على ما في الجنان وجعل ذلك من دلائل ربوبيته ووحدانيته وكمال علمه وحكمته، قال الله تعالى :

---

(١) في الأصل : هو الإنسان. والتصحيح من «ل».

(٢) في الأصل «كما» بالكاف والميم والتصحيح من «ل».

(٣) في الأصل : المعروف لحركاته والتصحيح من «ل».

(٤) في «ل» بغيره.

﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾[1] وقال تعالى : ﴿ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين﴾[2].

وقال الشاعر :

ان البيان من الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا[3]

هكذا قال الشاعر هذا البيت وهكذا «هو»[4] في ديوانه .

وقال أبو البيان[5] أنا رأيته في ديوانه كذلك فحرفه عليه بعض النفاة وقالوا :

---

(١) الرحمن آية / ١ ـ ٤ .

(٢) البلد / الآية ٨ ـ ١٠ .

(٣) هذا البيت للأخطل غياث بن غوث بن الصلت بن طارفة شاعر نصراني مشهور توفي سنة (٩٠هـ). انظر الاعلام ٥/٣١٨، وقد استدل به المبتدعة القائلون بالكلام النفسي ومن المعروف ضلال النصارى في كلام الله عز وجل حيث زعموا أن عيسى عليه السلام هو نفس كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت، فمن أعجب العجائب أن يستدل مسلم بأقوال هؤلاء الضالين على مسألة من مسائل العقيدة، مع رده الاستدلال بكلام رسول الله ﷺ بحجة أنه أحاديث آحاد وأحاديث الآحاد ـ عندهم ـ لا تصلح للاستدلال في العقيدة .

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

ودليلهم في ذاك بيت قاله فيما يقال الأخطل النصراني
ياقوم قد غلط النصارى قبل في معنى الكلام وما اهتدوا لبيان
ولأجل ذا جعلوا المسيح الهم إذ قيل كلمة خالق رحمن
ولأجل ذا جعلوه ناسوتا ولا هوتا قديما بعد متحدان

انظر القصيدة النونية مع شرحها للدكتور محمد خليل هراس ص ١٠٠ .

وقد أنكر الإمام ابن حزم على ما استدل بهذا البيت واحتد في انكاره للاستدلال به لأنه صادر من نصراني والاستدلال بأقوال النصارى في الدين من الأمور الشنيعة المستقبحة فقال : ملعون ملعون قائل هذا البيت وملعون من جعل قول هذا النصراني حجة في دين الله عز وجل وليس هذا من باب اللغة التي يحتج فيها بالعربي وإن كان كافرا .

الفصل في الملل والنحل /٣/٢١٩ .

(٤) «هو» من «ل» .

(٥) في الأصل «البنان» بالنون والباء الموحدة، وفي «ل» بالياء المثناة من تحت وهو : بيان بن محمد بن=

ان الكــلام لفـي الـفؤاد وإنـــما   جعـل اللســان على الكـلام دليلا

والمقصود : أن العبد لا يعلم ما في ضمير صاحبه إلا بالألفاظ الدالة على ذلك فإذا حمل السامع كلام المتكلم على خلاف ما وضع له وخلاف ما يفهم منـه عنـد المخـاطب(١) عاد على مقصـود اللغـات بالإبطـال، ولم يحصل مقصود المتكلم ولا مصلحة(٢) المخاطب، وكان ذلك أقبح من تعطيـل(٣) اللســان عن كلامـه، فإن غايـة ذلك أن تفوت مصلحة البيان، وإذا حمل على ضد مقصـوده فوت مصلحـة البيـان وأوقع في ضد المقصود، ولهذا قال بعض العقلاء : اللسان الكذوب شر من اللسان الأخرس، لأن اللسان الأخرس قد تعطلت منفعته ولم يحدث منه فساد ولسان الكذوب قد تعطلت منفعتـه وزاد بمفسـدة الكـذب فالمتكلم بها ظاهره وحقيقته ووضعه باطـل وضـلال وهـو يريـد أن يفهم منـه خلاف وضعـه وحقيقته أضر على المخاطب، ولسان الأخرس أقل مفسدة منه، فترك وضع اللغات أنفع للإنسـان(٤) من تعريضها للتأويل المخالف لمفهومها وحقائقها، وهكذا كل عضو خلق لمنفعة إذا لم يحصل منه إلا ضد تلك المنفعة كان عدمه خيرا من وجـوده، يوضـح(٥) ذلـك أن المتكلم بكـلام له حقيقـة وظـاهر لا يفهم منه غيره، مريدا بكلامه حقيقته وما يدل عليه «و»(٦) يفهم منه، فإذا ادعى أنى

= محفوظ القرشي المعروف بابن الحوراني شيخ الطائفة البيانية (من المتصوفة) بدمشق.

قال ابن قاضي شهبـة : كان عالمـا عامـلا إماما في اللغة، شافعي المذهب، سلفي العقيدة، له تآليف ومجاميـع وشعـر كثـير (ت سنـة ٥٥١هـ). انظـر الاعـلام للزركلي ٨/ ٣٢٠، ومعجم الادباء ١٩/ ٢١٣، وطبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣١٨.

(١) في «ل» عند التخاطب.

(٢) في الأصل «مصالحة» والتصحيح من «ل».

(٣) في الأصل «تعليل» بلامين، والتصحيح من «ل».

(٤) في «ل» للناس.

(٥) في الأصل أوضح، والتصحيح من «ل».

(٦) في الأصل «ما» والواو من «ل».

أردت بكلامي خلاف ظاهره وما يفهم منه كان كاذبا، إما في دعوى إرادة ذلك أو في دعوى إرادته البيان والافهام، فحمل كلامه على التأويل الباطل تكذيب له في أحد الأمرين ولابد، «و»[1] لهذا كان التأويل الباطل فتحا لباب الزندقة والإلحاد وتطريقا لاعداء الدين على نقضه[2] وبيانه بذكر: الفصل الخامس عشر.

---

(١) الواو من «ل».

(٢) في الأصل على «بعضه» بالباء التحتانية والعين. والتصحيح من «ل».

الفصل الخامس عشر

في جنايات التأويل على أديان الرسل وأن خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأويل .

إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق [١] والاختلاف وما دفع إليه أهل الإسلام، وجده ناشئا من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن وأخبار الرسول صلوات الله وسلامه عليه التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه، فإنها أوجبت ما أوجبت[٢] من التباين والتحارب وتفرق الكلمة ونشأة الأهواء وتصدع الشمل وانقطاع الحبل وفساد ذات البين حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضا، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين، وتستحل منهم «في»[٣] أنفسهم وحرمهم وأموالهم ما هو أعظم مما ترصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم فالآفات التي جنتها ويجنيها كل وقت أصحابها على الملة والأمة من التأويلات الفاسدة أكثر من أن تحصى، أو يبلغها وصف واصف أو يحيط بها ذكر ذاكر ولكنها في جملة القول، أصل كل فساد وفتنة، وأساس كل ضلال وبدعة، والمولدة لكل اختلاف وفرقه، والناتجة أسباب كل تباين وعداوة وبغضة، ومن عظيم آفاتها ومصيبة الأمة بها، أن الأهواء المضلة والآراء المهلكة التي تتولد من قبلها لا تزال تنمو وتتزايد على ممر الأيام وتعاقب الأزمنة، وليست الحال في الضلالات التي حدثت من قبل أصول الأديان الفاسدة «لذلك»[٤] فإن فساد تلك معلوم عند الأمة،

---

(١) في الأصل «التفريق» والتصحيح من «ل».
(٢) في الأصل : أوجب ما أوجب، والتصحيح من «ل».
(٣) «في» ليست في «ل».
(٤) في «ل» كذلك .

وأصحابها لا يطمعون في ادخالها في دين الإسلام، فلا يطمع أهل الملة اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية ولا الثنوية ونحوهم أن يدخلوا أصول «ملتهم»[١] في الإسلام، ولا يدعوا مسلما إليه ولا يدخلوه إليهم من بابه أبدا، بخلاف فرقة التأويل فإنهم يدعون المسلم من باب القرآن والسنة وتعظيمهما، وأن لنصوصهما تأويلا لا يوجد إلا عند خواص أهل العلم والتحقيق وأن العامة في عمى عنه، فضرر هذه الفرقة على الإسلام[٢] وأهله أعظم من ضرر اعدائه المنابذين له، ومثلهم ومثل أولئك كمثل قوم في حصن حاربهم عدوهم، فلم يطمعوا[٣] في فتح حصنهم والدخول عليهم، فعمد جماعة من أهل الحصن ففتحوه له وسلطوهم على الدخول إليه فكان مصاب أهل الحصن من قبلهم وبالجملة فالاهواء المتولدة من قبل التأويلات الباطلة فغير محصورة ولا متناهية، بل هي متزايدة، نامية بحسب سوانح المتأولين وخواطرهم وما تخرجه[٤] إليه ظنونهم وأوهامهم، ولذلك لا يزال المستقصي عند نفسه في البحث عن المقالات وتتبعها يهجم على أقوال من مذاهب أهل التأويل لم تكن تخطر له على بال ولا تدور له في خيال، ويرى أمواجا من زبد الصدور تتلاطم ليس لها ضابط إلا سوانح وخواطر وهوس تقذف به النفوس التي لم يؤيدها الله بروح الحق ولا[٥]

---

(١) في «ل» مللهم.

(٢) تجد أن أشدها بعداً عن الإسلام، ومحاربة له وهدما لمعاقله فرق الباطنية بجميع فروعها المتشعبة منها، وتليهم من فرق التأويل الجهمية، ثم المعتزلة، ثم الأشاعرة وهم أقرب الفرق إلى أهل السنة والجماعة، ونعنى بهم من ينتسب إلى أبي الحسن الأشعري، اما الأشعرى نفسه فهو بريء من ذلك فقد أثبت لنفسه في كتبه الأخيرة وأهمها ـ الإبانة عن أصول الديانة ـ أن جميع ما يعتقده ويقول به هو عقيدة الإمام أحمد بن حنبل. انظر عن الباطنية ـ فضائح الباطنية للغزالي. تحقيق عبد الرحمن بدوى. مؤسسة دار الكتب الثقافية الكويت وعن أقوال الفرق الناتجة أقوالها عن التأويل. مقالات الإسلاميين ـ للأشعرى، والملل والنحل / للشهرستانى، والفصل/ لابن حزم، واعتقاد فرق المسلمين والمشركين/ للرازي.

(٣) في الأصل ـ فلم يطيعوا ـ والتصحيح من «ل».

(٤) في الأصل تخرجهم، وفي «ل» تخرجه.

(٥) (لا) ليست في «ل».

أشـرقت عليهـا شمس الهـدايـة ، ولا باشـرت حقيقـة الإيمان ، فخواطرها وهوسها لا غاية له يقف عندها فإن أردت الإشراف على ذلك فتأمل كتب المقـالات والآراء والـديـانـات تجد كل ما يخطر ببالك قد ذهب إليه ذاهبون وصار إليه صائرون ، ووراء ذلك ما لم يخطر لك على بال ، وكل هذه الفرق تتأول نصـوص الـوحي على قولهـا وتحملهـا على تأويلها ، ومع ذلك فتجد أولى العقـول الضعيفـة إلى الاستجـابـة لهم مسـارعـين وفي القبول عنهم راغبين ، فهم مبادرون إلى أخذ ما يوردونه عليهم وقبولهم إياه عنهم ، وعلى الدعوة إليه أشد حرصا منهم على الدعوة إلى الحق الذي جاءت به الرسل ولم يوجد الأمر في قبول دعوة الرسل كذلك ، بل قد علم ما لقي المرسلون في الـدعـوة إلى الله من الجهـد والمشقـة والمكابدة ، ولقوا أشد العناء والمكروه ، وقـاسـوا أبلغ الأذى حتى استجـاب لهم من استجـاب إلى الحق الذي هو موجب الفطر وشقيق الأرواح وحياة القلوب ، وقرة العيون ونجاة النفوس ، حتى إذا أطلع شيطان التأويل رأسه وأبدى لهم عن ناجذيه ، ورفع لهم علماً من التأويل طاروا إليه زرافات ووحدانا فهم اخوان السفلة الطغام ، أشباه الأنعام بل أضل من الأنعام ، طبل يجمعهم وعصى تفرقهم ، فانظر ما لقيه نوح وإبـراهيم وصـالـح وهـود وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، في الدعوة إلى الله من الرد عليهم والتكذيب لهم وقصدهم بأنواع الأذى حتى ظهرت دعوة من ظهرت دعوته منهم ، وأقاموا دين الله ، وانظر سرعة المستجيبين لدعاة **الرافضة والقرامطة الباطنية ، والجهمية ، والمعتـزلـة**[1] ، واكـرامهم لدعـاتهم ، وبذل أموالهم وطاعتهم لهم ، من غير برهـان أتـوهم به أو آيـة أروهم إياها ، غير انهم دعوهم إلى تأويل تستغربه

(١) تقدم في الصفحة السابقة الإشارة إلى المراجع التي تبين ما أصاب عقيدة المسلمين وفرق وحدتهم من جراء ما ادخلتـه هذه الفـرق على الأمـة الإسـلاميـة ، وتجد الأمثلة لما ذكره المؤلف في هذه الكتب وأهمها كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي .

النفوس وتستظرفه العقول، وأوهموهم أنه من وظيفة الخاصة الذين ارتفعوا به عن طبقة العامة، فالصائر إليه معدود في الخواص مفارق للعوام فلم تر شيئا من المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة المستخرجة بالتأويل قوبل الداعي إليه الآتى به، أولا بالتكذيب له والرد عليه بل ترى المخدوعين المغرورين يحفلون إليه احفالا[1]، ويأتون إليه ارسالا، تؤزهم شياطينهم ونفوسهم إليه أزا، وتزعجهم إليه ازعاجا، فيدخلون فيه أفواجا يتهافتون فيه تهافت الفراش في النار، ويثوبون إليه مثابة الطير إلى الأوكار، ثم من عظيم آفاته سهولة الأمر على المتأولين في نقل[2] المدعوين عن مذاهبهم وقبيح اعتقادهم إليه[3] ونسخ الهدى من صدورهم، فإنهم ربما اختاروا للدعوة إليه رجلا مشهورا بالديانة والصيانة، معروفا بالأمانة، حسن الأخلاق جميل الهيئة فصيح اللسان، صبورا على التقشف والتزهد مرتاضا لمخاطبة الناس على اختلاف طبقاتهم[4]، وتهيأ لهم مع ذلك من عيب أهل الحق والطعن عليهم والإزراء بهم ما يظفر به المفتش عن العيوب فيقولون للمغرور المخدوع وازن بين هؤلاء وهؤلاء، وحكّم عقلك وانظر إلى نتيجة الحق والباطل فَيَتهيأ لهم (بهذا الخداع ما لا يتهيأ بالجيوش وما لا يطمع في الوصول إليه بدون تلك الجهة)[5].

ثم من أعظم جنايات التأويل على الدين وأهله وأبلغها نكاية فيه أن

---

(١) احفالا : أي جماعات . مختار الصحاح . مادة، حفل .

(٢) في الأصل ـ فعل ـ بالفاء والعين، والتصحيح من «ل» .

(٣) في «ل» عليهم .

(٤) انظر اسماء بعض دعاتهم في كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي وما دعوة الماسونية ومحافلها ودعاتها إلا من هؤلاء .

انظر فضائح الباطنية من ص ٢٤ ـ ٣٢ وذلك في درجات حيلهم وسبب الاغترار بهم ومن ص ٣٣-٣٦ وذلك في سبب رواج حيلهم وانتشار دعوتهم تجد ان دعوة الماسونية وخططها هي دعوة الباطنية بعينها .

(٥) ما بين القوسين من «ل» .

المتأول يجد بابا مفتوحا لما يقصده من تشتيت كلمة أهل الدين وتبديد نظامهم، وسبيلا سهلة إلى ذلك فإنه يحتجز[1] من المسلمين بإقراره معهم بأصل التنزيل، ويدخل نفسه في زمرة أهل التأويل، ثم بعد ذلك يقول ما شاء، ويدعى ما أحب، ولا يقدر على منعه من ذلك لادعائه ان أصل التنزيل مشترك بينك وبينه وأن عامة الطوائف المقرة به[2] قد تأولت كل طائفة لنفسها تأويلا ذهبت إليه، فهو يبدى نظير تأويلاتهم ويقول: ليس لك أن تبدى في التأويل مذهبا إلا ومثله سائغ لي، فما الذي أباحه لك وحظره علي، وأنا وأنت قد أقررنا بأصل التنزيل، واتفقنا على تسويغ[3] التأويل، فلم كان تأويلك مع مخالفته لظاهر التنزيل سائغا وتأويلي أنا محرما فتعلقه بهذا أبلغ مكيدة يستعملها، وأنكى سلاح يحارب به، فهذه الآفات وأضعافها إنما لقيها أهل الأديان من المتأولين[4] فالتأويل هو الذي فرق اليهود احدى وسبعين فرقة والنصارى اثنين وسبعين فرقة وهذه الأمة ثلاثا وسبعين فرقة[5]، فأما اليهود فإنهم بسبب التأويلات التي استخرجوها بآرائهم من كتبهم صاروا فرقا مختلفة بعد اتفاقهم على أصل الدين والإيمان بما في التوراة والزبور وكتب أنبيائهم التي يدرسونها ويؤمنون بها وبسبب

---

(١) الحجز: الفصل بين الشيئين، واسم ما فصل بينهما الحاجز. قال تعالى: ﴿وجعل بين البحرين حاجزا﴾ لسان العرب.

وهؤلاء المحرفون لكتاب الله على اختلاف نحلهم، قد أقروا بأصل التنزيل كما قال المصنف فأخذوا حكم المسلمين. فصار حاجزا بينهم وبين المسلمين، كما فعل المنافقون.

(٢) في الأصل ـ المعروفة. والتصحيح من «ل».

(٣) في الأصل ـ تنويع. والتصحيح من «ل».

(٤) في الأصل من التأويل والا «والصواب ما أثبتناه من «ل».

(٥) أحمد /٢/٣٣٢ من حديث أبي هريرة، وأحمد /٣/١٢٠، ١٤٥ من حديث أنس. أبو داود في السنة/ باب ١ شرح السنة ٥/٤/ ح٤٥٩٦ من حديث أبي هريرة.

الترمذي/ في أبواب الإيمان/ باب ١٨ افتراق هذه الأمة تحفة الأحوذي ٧/٣٩٧ ح ٢٧٧٨ من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديث حسن صحيح.

ابن ماجة/ الفتن/ باب ١٧/ افتراق الأمم ٢/١٣٢١-١٣٢٢.

التأويــلات البــاطلة مسخـوا قردة وخنـازيـر[1]، وجـرى عليهم من الفتن والمحن ما قصه الله، وبالتأويل الباطل عبدوا العجل[2] حتى آل أمرهم إلى ما آل، وبـالتأويـل الباطل فارقوا حكم التوراة واستحلوا المحارم، وارتكبوا المـآثم، وهم أئمـة التأويـل، والتحريف والتبديل (والناس لهم فيه تبع فلا تبلغ فرقـة مبلغهم فيـه)[3]، وبـالتأويـل استحلوا محارم الله بأقـل[4] الحيل وبــالتأويــل قتلوا الأنبيـاء[5]، فإنهم قتلوهم وهـم مصـدقـون[6] بالتـوراة

---

(١) كما جاء في الآيات١٦١-١٦٦ من سورة الاعراف. والبقرة آية ٦٥.

(٢) كما جاء في الآية ٥١ من سورة البقرة و١٤٨ من سورة الاعراف و٨٨ من سورة طه.

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) في «ل» بأدنى.

(٥) من ذلك ما حكاه الله عنهم حين قال سبحانه: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقـولـوا حطة، وادخلوا البـاب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الـذي قيـل لهم، فأرسلنـا عليهم رجـزا من السماء بما كانوا يظلمون، وسئلهم عن القرية التي كانت حاضـرة البحـر إذ يعـدون في السبت إذ تأتيهم حيتـانهم يوم سبتهم شرعـا ويـوم لا يسبتـون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسـقون﴾. الاعراف ١٦١-١٦٣.

وفي قتلهم الأنبيـاء يقـول الله تعـالى: ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصـبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنـا مما تنبت الأرض﴾ إلى قولـه: ﴿وضـربت عليهم الـذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصواوكانوا يعتدون﴾. البقرة ٦١.

وعن التحـريف قولـه تعـالى: ﴿فـويـل للذين يكتبـون الكتـاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾. البقرة ٧٩.

وفي قتـل اليهـود الأنبيـاء يقـول تعـالى: ﴿ولقـد آتينـا موسى الكتـاب وقفينـا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينـات وأيـدنـاه بروح القـدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾. البقرة ٨٧.

ومن تحريف اليهـود وتأويـلاتهم ما أخـرجـه البخـاري وغـيره، قال رسـول الله ﷺ: «قـاتـل الله يهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها» البخاري كتاب البيوع باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه. فتـح البـارى ٤/٤١٤ ح ٢٢٢٤ وفي الأنبيـاء ح ٣٤٦٠ (٦/٦٩٦) والتفسير باب «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» فتح البارى ٨/٢٩٥ ح ٤٦٣٣ ومسلم كتاب المساقاه باب تحريم بيع الخمر والميتة ح٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، (٣/١٢٠٧).

وابن ماجة، التجارات (باب مالا يحل بيعه) ٢/٧٣٢ ح ٢١٦٧.

(٦) في الأصل (مصدقوهم) والتصحيح من «ل».

وبموسى، وبالتأويل والتحريف حلت بهم المثلات، وتتابعت عليهم العقوبات، وقطعوا في الأرض أمما وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، وبالتأويل دفعوا نبوة عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وقد استهلت التوراة وكتب الأنبياء بالبشارة بهما وظهورهما، ولاسيما البشارات بمحمد ﷺ[1]، فإنها متظاهرة في كتبهم بصفة رسول الله ﷺ ومخرجه ومبعثه ودعوته وكتابه وصفة أمته[2]، وسيرتهم وأحوالهم بحيث كان علماؤ هم لما رأوه وشاهدوه عرفوه معرفتهم أبناءهم، ومع هذا جحدوا أمره ﷺ ودفعوه على قومه، وظهوره[3]، بالتأويلات التي استخرجوها من تلك الألفاظ التي تضمنتها البشارات، حتى التبس الأمر بذلك على اتباعهم ومن لا يعلم الكتاب إلا أماني، وخيل إليهم بتلك التأويلات التي هي من جنس تأويلات الجهمية والرافضة والقرامطة، وأنه ليس هو فسطوا[4] على تلك البشارات بكتمان ما وجدوا السبيل إلى كتمانه، وما غلبوا على كتمانه حرفوا لفظه عن[5] ما هو عليه، وما عجزوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه

(١) انظر البشارات بمحمد ﷺ في التوراة، وفي كتاب اظهار الحق ٢/ ٢٣٩-٢٨٧ توزيع مكتب الوحدة العربية الدار البيضاء.

ويقول الله تعالى مبينا معرفتهم لمحمد ﷺ: وأنه الرسول الذي جاء خبره في التوراة بأوصافه التي لا تشتبه عليهم وذلك كما يعرف الأب ابنه حين يلقاه: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾. البقرة ١٤٦.

وقال أيضا: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ البقرة/ ٨٩.

وانظر صحيح البخاري كتاب بدء الوحي. فتح الباري ١/ ٣١-٣٣ في قصة هرقل عظيم الروم حينما كتب له رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وأسئلته التي وجهها لأبي سفيان، ثم قوله في آخر الحديث فإن كان ما تقوله حقا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم اكن أظن أنه منكم...» الحديث.

(٢) في الأصل أمتهم والتصحيح من «ل».

(٣) هكذا في الأصل وفي «ل».

(٤) في الأصل فتسلطوا وما أثبتناه من «ل».

(٥) في الأصل (على) والتصحيح من «ل».

بالتأويـل وورثهم أشباههم من المنتسبـين إلى الملة في هذه الأمور الثلاثة، وكان عصبة الوارثين لهم في ذلك ثلاث طوائف: الرافضة(١) والجهمية(٢) والقـرامطـة(٣)، فإنهم اعتمـدوا في النصوص المخالفة لضلالهم هذه الأمور الثلاثة، والله سبحانه ذمهم على التحريف والكتمان.

---

(١) الـرافضـة: يقـول أبو الحسن الأشعري في المقالات ١/٨٩: الرافضة «الامامية» أربع وعشرون فرقة. ثم قال: وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر.

ثم قال: وهـم مجمعـون على أن النبي ﷺ نص على استخـلاف علي بن أبي طالب باسمـه، وأظهر ذلك وأعلنه وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ، وان الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف، وأنها قرابة وانه جائز للإمام في حال التقية أن يقول انه ليس بإمام... الخ.

ويقـول ابن تيميـة في منهـاج السنـة ١/٢١٣: والنفاق والزندقة في الرافضة أكثر من سائر الطوائف بل لابـد لكـل منهم من شعبـة نفـاق فإن أسـاس النفاق الذي بنى عليه الكذب، وهو أن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. والرافضة تجعل هذا من أصـول دينهـا وتسميـه التقية وتحكى هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله من ذلك حتى يحكوا ذلك عن جعفر الصادق انه قال: التقية ديني ودين آبائي وقد نزه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك بل كانوا من أعظم الناس صدقا وتحقيقا للإيمان، وكان دينهم التقوى لا التقية.

راجع الجزء المشار إليه لزيادة الايضاح في هذه الفرية على أهل البيت. وانظر الكافي للكليني ٢/١٧٢ باب التقية ج٣، ٤، ٥، منسوبة لأبي جعفر الصادق.

(٢) الجهميـة: تقـدم التعريف بهم وبـرئيسهم. ويقـول عنـه أبـو الحسن الأشعـري في مقـالات الإسلاميين ١/٣٣٨ والذي تفرد به «جهم» القول: بأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان وان الإيمان هو المعرفة بالله فقـط والكفـر هو الجهـل بالله فقـط، وانـه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وان الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك... الخ.

وأضاف البغدادي في الفرق بين الفرق ص٢١١: وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء، أو حيّ، أو عالم، أو مريد، وقال: لا اصفه بوصف يجوز اطلاقه على غيره كشيء وموجود الخ. وإنما يصفه بأنه قادر، ومـوجـد، وفـاعـل وخـالق... الخ لأن المخلوق عنده لا يفعل شيئا وإنما الله هو الفاعل والعبد مثل الشجرة تحركها الرياح فالفاعل هو الله.

قال البغدادي: واكفره أصحابنا في جميع ضلالاته اهـ.

(٣) القـرامطـة: هم البـاطنيـة، وقـد أسس هذه الـدعـوة الهـدامـة لدين الإسـلام جماعة: «منهم» ميمون بن ديصار المعروف بالقداح، وكان سن الأهواز، ومنهم: محمد بن الحسين الملقب بدندان، اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان في سجن والى العراق، فأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، وقد دخل في =

والتحريف نوعـــــان :

تحريف اللفـظ، وهـو تبديله، وتحريف المعنى وهو صرف اللفظ عنه إلى غيره مع بقـاء صورة اللفـظ(١)، وأمـا فسـاد دين النصـارى من جهـة التأويل فأول ذلك ما عرض في التوحيد الذي هو عمود الدين، فإن سلف المثلثة قالوا في الربوبية بالتثليث، وحديث الاقانيم، والأب والابن وروح القدس(٢). ثم اختلف من بعدهم في تأويل كلامهم اختلافا تباينوا به غاية التبـاين، وإنـما عرض لهم هذا الاختـلاف من جهـة التأويـلات الباطلة، وكـانت حالهم فيـما جنت عليهم التأويلات الباطلة أفسد حالا من اليهود، فإنهم لم يصلوا بتأويلهم إلى ما وصـل إليـه عبـاد الصليب من نسبـة الـرب تعـالى إلى ما لا يليق به، ثم دفعـوا بالتأويـل إلى إبطـال شرائـع التـوراة فأبطلوا الختـان(٣)، واستحلوا السبت(٤)، واستبـاحـوا الخنزير(٥)، وعطلوا

= دعـوتهم غلاة الـرفض والحلولية، ثم ظهر في دعوته إلى دين الباطنية رجل يقال له : حمدان بن قرمط، لقب بذلك لقرمطة في خطه أو في خطوه، والذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وقد حرفوا كتاب الله وشرائعه بتأويلاتهم الفاسدة.

انظر لتفصيل مذهبهم واعتقاداتهم الفاسدة المضللة: الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٨١.

اخبار القرامطة لعدد من المؤلفين، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور سهيل زكار- الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.

(١) انظر : كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي.

(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

وكتاب - المسيح في القرآن - فصل الأناجيل والتثليث - لعبد الكريم الخطيب.

وقد بين الله كفرهم بقوله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة﴾.

(٣) انظر: هداية الحيارى في أجوبة النصارى ص ١٤١ للمؤلف.

والمسيح في القرآن ص ٢٤٣ - في اعفاء المجمع المسكونى الأمم غير اليهود من الختان عام ٥١م.

(٤) استحلوا السبت. انظر هداية الحيارى ص ١٤١.

(٥) المسيح حرم الخنزير. انظر هداية الحيارى ص١٤١.

والمسيح في القرآن ص ٢٤٥.

وأعمال الرسل، الإصحاح العاشر/ رؤية بطرس من آية ٦-١٦ وفيها احلال كل شيء ومنها الخنزير.

الغسل من الجنابة[1]، وكان الذي فتح عليهم أبواب هذه التأويلات بولس[2]، فاستخف جماعة من ضعفاء العقول فقبلوا منه تلك التأويلات، ثم أورثت الخلاف بينهم حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه من انسلاخهم عن شريعة المسيح في التوحيد[3] والعمليات[4] ثم تأولت اليعقوبية أتباع يعقوب[5] البراذعي تأويلا، فتأولت النسطورية أتباع نسطورس[6] غيره، فتأولت الملكيـــة[7] وهم الـــذين على دين الملك غيره فاضمحـل الـدين، وخرجوا منه خروج الشعر من العجين .

---

(١) انظر : هداية الحيارى ص ١٤١ .

(٢) «بـولـس» كان والـده مواطنـا رومـانيـا وقد التقى بأتباع المسيح ولكنه بشخص اليهودى انضم إلى اليهـود في مطـاردة اتبـاع المسيـح والتنكيل بهم وكان أشد الناس ايذاء لهم وأكثرهم ارهابا، ثم دخل بولس في المسيحية دخولا مفاجئا، على أثر حلم يقول أنه رآه فغير مجرى حياته كلها، فأصبح داعية المسيحية الأول، ولكنـه استطـاع ان يمـزج مبادىء اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان، ثم بدأ في تغيير المسيحية وادخال العقائد الوثنية فيها، فبدأ بعقيدة التثليث وفلسفتها ثم العقائد الأخرى وتحليل ما حرم الله في التوراة، حتى أصبحت المسيحية عقيدة وثنية .

انظر المسيح في القرآن ص٣٠٥ - ٣١٩ التثليث وص٣٤٤ الصلب .

(٣) ففي عقيـدة التـوحيـد التي اجمعت عليهـا الكتب السماوية - جعلوا الله ثالث ثلاثة، والله يقول : ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا اله واحد﴾ . مريم/٧٣ .

(٤) وفي العمليـات : استحلوا ما حرم الله - بالحيـل والتأويـلات الباطلة فخرجوا من دين الله الحق، اعتقادا وعملا .

(٥) اليعقوبية : أصحاب يعقوب البراذعي - وفي الفصل : البرذعاني قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا انهم قالوا : انقلبت الكلمة لحما ودما، فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده، بل هو هو.

وعنهم أخبرنا الله في كتابه الكريم ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم﴾ . المائدة/٧٢ .

انظر : تفصيل مقالتهم في الملل والنحل للشهرستاني ٢ / ٣٠-٣٣ . والفصل : لابن حزم ١ / ٤٠ .

(٦) «النسطورية» أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. قال : ان الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الجود، والعلم، والحياة .

وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتـزاج كما قالت الملكـانيـة، ولا على طريق الظهـور به كما قالت اليعقـوبيـة، ولكن كاشـراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم .

انظر : تفصيل ذلك في الملل والنحل ٢ / ٢٩-٣٠ : والفصل ١ / ٣٩ .

(٧) الملكانية أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها . ومعظم الروم ملكانية .

فلو تأملت تأويـلاتهم لرأيتهـا والله من جنس تأويـلات الجهمية والرافضة والمعتزلة، ورأيت الجميع من مشكاة واحدة، ولولا خوف التطويل لذكرنا تلك التأويلات ليعلم أنها وتأويلات المحرفين من هذه الأمة

رضيعـا لبـان ثدي أم تقـاسـما   بأسـحم داج عوض لا نتفـرق(١)

ولـو رأيت تأويـلاتهم لنصوص التوراة في الأخبار والأمر والنهي لقلت أن أهـل التأويـل الباطل من هذه الأمة إنما تلقوا تأويلاتهم عنهم، وعجبت من تشابه قلوبهم ووقوع الحافر على الحافر، والخاطر على الخاطر، ولم يزل أمـر بني إسـرائيـل مستقيـما حتى نشأ فيهم المـولدون أبناء سبايا (الأمم)(٢) فاشتقـوا لهم الـرأى وسلطـوا التأويل على نصوص التوراة فضلوا وأضلوا،

= قالـوا: ان الكلمـة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القـدس: أقنـوم الحيـاة، ولا يسمـون العلم قبـل تدرعـه ابنـا، بل المسيـح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: ان الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن، وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث.

وأخبر الله عنهم بقوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة﴾ المائدة/٧٣.

ولتفصيل أقوالهم انظر الملل والنحل ٢/٢٧-٢٩ الفصل ١/٣٩.

(١) يريد ابن القيم ـ رحمه الله ـ إن تأويلات المحرفين وتأويلات من سبقهم من أرباب الملل الأخرى من جنس واحد، مصداقاً لقوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة...» الحديث.

وهـذا البيت للأعشى يمـدح رجـلاً ـ كما قال الجـوهـرى ـ والممـدوح المحلّق، واسمه عبد العزى بن حبشم بن شداد بن ربيعة وهو من أبيات يقول فيها:

لعـمـرى لقـد لاحـت عيـون كثـيرة   إلـى ضوء نار في يفـاع تحرق
تشـب لمقـرورين يصطـليـانهـا   وبـات على الـنـار الـنـدى والمـحـلق
رضـيـعـي لبـان ثدي أم تقـاسـما   بأسْـحَـم داج عوض لا نـتـفـرق

قال الجوهرى: يقول: هو والندى رضعا من ثدي واحد...

وأراد باسحم داج الليل وقيل سواد حلمة الثدى. وقيل: أراد بالاسحم هنا: الرحم. انظر الصحاح للجوهرى، وتاج العروس، ولسان العرب مادة عَوَضَ.

وَعَـوْضُ معنـاه الأبـد، يضم ويفتـح بغـير تنـوين، وهـو للمستقبل من الزمان كما أن قط للماضى من الزمان، لأنك تقول: عَوْضُ لا أفارقك، تريد لا أفارقك أبدا. كما تقول في الماضي: قط ما فارقتك. انظر الصحاح نفس المادة ٣/١٠٩٣.

(٢) الأمم من «ل».

وهؤلاء النصارى لم يزل أمرهم بعد المسيح على منهاج الاستقامة حتى ظهر فيهم المتأولون فأخذت[1] عرى دينهم تنتقض والمتأولون يجتمعون مجمعا بعد مجمع وفي كل مجمع يخرج لهم تأويلات تناقض الدين الصحيح فتلقتهم أصحاب المجمع الآخر، ولا يوافقونهم عليها، حتى جمعهم الملك قسطنطين من أقطار الأرض فبلغوا ثلاثمائة وثمانية عشر[2] بتريكاً وأسقفاً، فتلوا لهم هذه الأمانة[3] التي بأيديهم اليوم وأبطلوا من دين المسيح ما شاءوا، وازدادوا فيه ونقصوا، ووضعوا من الشرائع ما شاءوا، وكل ذلك بالتأويل، وقد ذكروا الظواهر التي تأولوها، وبالتأويل جعلوا الله ثالث ثلاثة، وجعلوا المسيح ابنه وجعلوه هو الله فقالوا هذا وهذا وهذا، تعالى الله

(١) في الأصل «فأخذوا» والتصحيح من «ل».

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣٣/٣.

(٣) يقول المصنف في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة النصارى ص ١٤٣ تحت عنوان «أمانة المثلثة أكبر خيانة» ولفظها أي الأمانة: «نؤمن بالله الأب الواحد خالق ما يرى ومالا يرى، وبالرب الواحد اليسوع المسيح ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده اتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول وحبلت به مريم البتول وولدته وأخذ وصلب، وقتل أيام فيلاطس الرومي، ومات ودفن، وقام في اليوم الثالث، كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بالرب الواحد روح القدس روح الحق الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثليقية، وبقيام ابداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين» اهـ.

ثم استمر بعد ذلك في نقض هذه الأمانة، حسب تسميتهم لها. ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا﴾.

ثم انظر الكتاب المقدس انجيل مرقس الإصحاح الخامس عشر، والسادس عشر، فقد اشتملا على صلب المسيح، وقيامه من قبره، وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الله، وكذلك الإصحاح السابع والعشرين، والثامن والعشرين من انجيل متى. والإصحاح الثالث والعشرين، والرابع والعشرين، من انجيل لوقا.

عن قولهم، وبـالتأويـل تركـوا الختـان واباحوا الخنزير (وهـم)[1] يعلمون أن المسيح اختتن وحرم الخنزير وبالتأويل نقلوا الصوم من محله إلى الفصل الـربيعي[2]، وزادوا حتى صار خمسـين يومـا، وبـالتأويـل عبدوا الصليب والصور، وبالتأويل فارقوا حكم التوراة والإنجيل[3].

---

(١) (وهم) من «ل».

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ١١ وفيه سبب ذكر النقل غير هذا.

(٣) قد استوفى المؤلف هذه المباحث في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى». طبع وتوزيع الجامعة الإسلامية.

فصـــــل

ومن أعظم آفـات التأويـل وجناياته أنه إذا سلط على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان خمس وهي :

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[١].

وأصول الإسلام خمس :

كلمـة الشهـادتـين وإقـام الصـلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فعمـد أربـاب التأويـل إلى أصـول الإيـمان والإسـلام فهـدمـوها بالتأويـل، وذلـك ان معقـد هذه الأصـول العشـرة[٢] تصديق الرسول فيما اخبر، وطاعته فيما أمر فعمدوا إلى أجلّ الأخبار وهو ما اخبر به عن الله من اسمائـه وصفـاتـه ونعـوت كماله، فاخرجوه عن حقيقته وما وضع له، وهذا القسم من الاخبار اشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن بل والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه وتنوع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوعها في غيره .

وذلـك لشـرف متعلقـه وعظمته وشدة الحاجة إلى معرفته فكانت[٣] الطـرق إلى تحصيـل معرفته أكثر وأسهل وابين من غيره، وهذا من كمال[٤] حكمـة الـرب تبـارك وتعـالى وتمـام نعمته وإحسانه انه كل ما كانت حاجة العبـاد إلى الشيء أقـوى واتم كان بذلـه لهم أكثـر وطرق وصولهم إليه أكثر

---

(١) السادس من أصول الإيمان ـ الإيمان بالقدر خيره وشره، كما في حديث جبريل ـ الذي عدد فيه ـ أركان الإسلام، والإيمان، والإحسان. انظر صحيح مسلم/ كتاب الإيمان ١/٣٦ ح ١.

(٢) ذكر من أصول الإيمان الخمسة، وقد نبهنا على السادس. ثم ذكر أركان الإسلام الخمسة وهذا ما يقصده بقوله : هذه الأصول العشرة، التي هي : أركان أصول الإيمان والإسلام.

(٣) كا«نت» من «ل».

(٤) في الأصل «حال» والتصحيح من «ل».

واسهل، وهذا في الخلق والأمر، فإن حاجتهم لما كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت كان موجودا معهم في كل مكان وزمان وهو أكثر من غيره، وكذلك لما كانت حاجتهم بعده إلى الماء شديدة إذ هو مادة اقواتهم ولباسهم وفواكههم وشرابهم كان مبذولا لهم أكثر من غيره، وكذلك حاجتهم إلى القوت لما كانت أشد من حاجتهم إلى الابزار كان وجود القوت أكثر، وهكذا الأمر في مراتب الحاجات، ومعلوم ان حاجاتهم إلى معرفة ربهم وفاطرهم ومعبودهم (جل جلاله)[1] فوق مراتب هذه الحاجات كلها[2]، فإنهم لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بان يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ونهاية مرادهم، وذكره والتقرب إليه قرة عيونهم وحياة قلوبهم فمتى فقدوا ذلك كانوا اسوأ حالا من الأنعام بكثير، وكانت الأنعام أطيب عيشا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل[3]، وإذا علم أن ضرورة العبد إلى معرفة ربه ومحبته وعبادته والتقرب إليه فوق كل ضرورة كانت الطرق المعرّفة لهم ذلك ايسر طرق العلم على الإطلاق واسهلها واهداها واقربها، وبيان الرب تعالى لها فوق كل بيان .

وإذا سلط التأويل على النصوص المشتملة عليها، فتسليطه على النصوص التي ذكرت[4] فيها الملائكة اقرب بكثير، يوضحه ان الرب تعالى لم يذكر للعباد من صفات ملائكته وشأنهم وأفعالهم وأسمائهم عشر معشار ما

---

(١) (جل جلاله) من «ل».

(٢) لأنه بفقدهم لما يحتاج إليه البدن، أكثر ما يلحقهم به موت هذا البدن، واما إذا فقدوا الإيمان بالله وعبادتهم له خسروا الدنيا والأخرة، وذلك هو الخسران المبين .

(٣) لأنها غير مكلفة، وإنما خلقت لمصلحة هذا الإنسان المكلف، ومع ذلك فهي في الدنيا أطيب عيشا من الإنسان لأنه قد سُخّر هو لخدمتها، وهي أيضا إذا رأت ما يضرها فلا تقدم عليه كما لو أججت لها نار فلا يمكن ان تقتحمها، اما الإنسان الذي لم يوفق لمعرفة ربه وعبادته والخوف منه ـ فهو يرتكب الجرائم والمعاصي التي توبقه في نار جهنم .

(٤) في الأصل (دارت) والتصحيح من «ل».

ذكر لهم من نعوت جلاله وصفات كماله وأسمائه وأفعاله، فإذا كانت هذه قابلة للتأويل فالآيات التي ذكرت فيها الملائكة أولى بقبوله، ولذلك تأولها الملاحدة[1] كما تأولوا نصوص المعاد واليوم الآخر وأبدوا له تأويلات، ليست بدون تأويلات الجهمية لنصوص الصفات، وأولت هذه الطائفة عامة نصوص الأخبار الماضية والآتية، وقالوا للمتأولين من الجهمية بيننا وبينكم حاكم العقل، فإن القرآن، بل الكتب المنزلة مملوءة بذكر الفوقية وعلو الله على عرشه وأنه يكلم ويتكلم، وأنه موصوف بالصفات، وأن له أفعالا تقوم به، هو[2] بها فاعل، وأنه يرُى بالأبصار، إلى غير ذلك من نصوص الصفات التي إذا قيس إليها نصوص حشر هذه الاجساد وخراب هذا العالم واعدامه وانشاء عالم آخر وجدت نصوص الصفات أضعاف أضعافها فهذه الآيات والأخبار الدالة على علو الرب تعالى على خلقه وفوقيته واستوائه على عرشه قد قيل انها تقارب الألف، وقد أجمعت عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم فما الذي يسوغ لكم تأويلها وحرم علينا (تأويل)[3] نصوص حشر الأجساد وخراب العالم[4].

فإن قلتم الرسل أجمعوا على المجيء به فلا يمكن تأويله، قيل وقد أجمعوا على أن الله فوق عرشه وأنه متكلم مكلم فاعل حقيقة موصوف بالصفات فإن منع إجماعهم هناك من التأويل وجب أن يَمْنَع هاهنا .

---

(١) يقول الفلاسفة : ان الملائكة ـ هي ما يتشكل من الصور النورانية في النفوس الصافية . فلا يثبتون ملائكة خارجة عما في النفوس الصافية . وكذلك يقولون في كلام الله : انه ما يفيض على النفوس الصافية ، فلا يثبتون كلاما خارجا عما في نفوس البشر .

انظر : فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٢/١٥٦ .

وفضائح الباطنية ص ٤١ .

(٢) في «ل» يقوم هو بها فاعل .

(٣) «تأويل» ليست في الأصل، وهي في «ل» .

(٤) انظر فضائح الباطنية ص٤٤ الطرف الرابع : بيان مذهبهم في القيامة والمعاد.

فإن قلتم : العقل أوجب تأويل نصوص الصفات ولم يوجب تأويل نصوص المعاد، قلنا : هاتوا أدلة العقول التي تأولتم بها الصفات ونحضر «نحن»(١) أدلة العقول التي تأولنا بها المعاد وحشر الأجساد، ونوازن بينها لنتبين أيها أقوى .

فإن قلتم : انكار المعاد تكذيب لما علم من دين الرسل بالضرورة .

قلنا : وانكار صفات الرب وأنه متكلم آمر (ناه)(٢) فوق سمواته وأن الأمر ينزل من عنده ويصعد إليه تكذيب لما علم أنهم جاءوا(٣) به ضرورة .

فإن قلتم : تأويلنا للنصوص التي جاءوا بها لا يستلزم تكذيبهم ورد أخبارهم .

قلنا : فمن أين صار تأويلنا للنصوص التي جاءوا بها في المعاد يستلزم تكذيبهم ورد أخبارهم دون تأويلكم، إلا لمجرد التحكم والتشهي، فصاحت القرامطة والملاحدة والباطنية وقالت : ما الذي سوغ لكم تأويل الأخبار وحرم علينا تأويل الأمر والنهي والتحريم والايجاب، ومورد الجميع من مشكاة واحدة فنحن سلكنا في تأويل الشرائع العملية نظير ما سلكتم في تأويل النصوص الخبرية(٤) .

---

(١) في الأصل (عن) .

(٢) (ناه) ليست في الأصل وأثبتناها من «ل» .

(٣) أي الرسل .

(٤) انظر في هذا قول الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية» ص٥٣ في معرض رده على الباطنية تأويلهم التكاليف الشرعية وغيرها، قال: فإن قيل: فهذا ينقلب عليكم، فأنتم تجوزون أيضا تأويل الظواهر كما أولتم آية الأستواء، وخبر النزول وغيرهما، قال: قلنا: ما ابعد هذا القلب فإن لنا معيارا في التأويل وهو ان ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة ان المراد غير ذلك بشرط ان يكون اللفظ مناسبا له بطريق التجوز والاستعارة، فقد دل الدليل على بطلان الاستواء والنزول فإن ذلك من صفات الحوادث، فحمل على الاستواء وهو مناسب اللغة اهـ.

فقالت طائفة : تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة ، وغره عدو الله بأن جنس تلك الشجرة هي شجرة الخلد وأطمعه في أنه ان أكل منها لم يخرج من الجنـة . وفي هذا الـذي قالـوه نظر ظاهر فإن الله سبحانه أخبر أن ابليس قال له : ﴿**ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾(١) فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نُهِيا عنها إما بعينها أو بجنسها ، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها ، ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجـرة المعينـة دون سائـر النوع لم يكن عاصيا بأكله من غيرها ، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه .

= والثالث : تصديرها بأداة التأكيد .

والرابع : الاتيان بلام التأكيد في الخبر .

والخامس : الاتيان به اسم فاعل لا فعلا دالا على الحدث .

والسادس : تقديم المعمول على العامل فيه .

ولم يظن آدم أن أحدا يحلف بالله كذبا يمين غموس ، فظن صدقه ، وأنه ان أكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين في اثناء ذلك باعتذار أو توبة . كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية اهـ .

قال ابن مفلح : فآدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل ، فالتأويل لنص الله أخرجه ، والا فهو لم يقصـد المعصيـة والمخـالفـة ، وأن يكـون ظالمـا مستحقـا للشقاء . انظر تفسير القاسمي ٢/١٠٨ ، ١٠٩ ، وسيورد المؤلف هذا النص ص ٢١٤ .

وقـال ابن حزم : لا سلامـة ولا براءة من القصـد إلى المعصيـة ولا أبعد من الجرأة على الذنوب أعظم من حال من ظن أن أحدا لا يحلف حانثا ، وهكذا فعل آدم عليه السلام ، فإنه إنما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسيا بنص القرآن ، ومتأولا وقاصدا إلى الخير ، لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله تعالى ، فيكون ملكا مقربا ، أو خالدا فيما هو فيه أبدا فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله عز وجل به .

وكان من الواجب أن يحمل أمر ربه عز وجل على ظاهره ، ولكنه تأول وأراد الخير فلم يصبه ، ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجورا ، ولكن آدم عليه السلام لما فعله ووجد به خروجه من الجنة إلى نكد الدنيا كان بذلك ظالما لنفسه .

وقد سمى الله عز وجل قاتل الخطأ قاتلا ، كما سمى العامد ، والمخطىء . لم يتعمد معصية ، وجعل في الخطأ في ذلك كفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين لمن عجز عن الرقبة وهو لم يتعمد ذنبا .

الملل والنحل ٤/٤ .

(١) الاعراف /٢٠ .

وقالت فرقة أخرى : تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم على الأكل لذلك وهذا باطل قطعا من وجوه كثيرة يكفي منها قوله تعالى : ﴿**فتكونا من الظالمين**﴾(١) .

وأيضا فحيث نهى الله عن فعل الشيء بقربانه لم يكن إلا للتحريم ، كقوله تعالى : ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾(٢) ﴿**ولا تقربوا الزنى**﴾(٣) ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم**﴾(٤) .

وأيضا لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة ، وأخبر أنه عصى ربه .

وقالت طائفة : بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معا لا عن أكل كل منهما على انفراده ، لأن قوله : ﴿**ولا تقربا**﴾ نهى لهما على الجمع ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد(٥) ، وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب(٦) في تفسيره ، وهو كما ترى في البطلان والفساد .

ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة ، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهاما ، أفترى فَهِمَ أحد عن الله من قوله : ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم**﴾ ، ﴿**ولا تقربوا الزنى**﴾ ونظائره ، أي إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به فيا للعجب من

---

(١) الاعراف / ١٩ .

(٢) البقرة / ٢٢٢ .

(٣) الاسراء / ٣٢ .

الأنعام / ١٥٢ .

(٥) أورد جميع هذه الآراء الرازي في تفسيره . انظر ٣/٤ ، ٥ ، ١٣ ، ١٥ .

(٦) ابن الخطيب هو : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري ، فخر الدين الرازي ، ولد في الري سنة (٥٤٤هـ) وإليها نسبته ، ويقال له : «ابن الخطيب الرازي» له مؤلفات كثيرة في التفسير ، وعلم الكلام ، والفلسفة وغيرها توفي في هراة سنة (٦٠٦هـ) الاعلام ٧/٢٠٣ ، والبداية والنهاية ١٣/٥٥ . وطبقات الشافعية للسبكي ٨/٨١ وما بعدها .

الزبير[1] ونصب المجانيق على البيت بالتأويل - ثم كانت فتنة ابن الأشعث، وقتل من قتل من المسلمين بدير الجماجم[2] بالتأويل، ثم كانت فتنة الخوارج وما لقي المسلمون من حروبهم وأذاهم بالتأويل[3]، ثم خروج أبو مسلم[4] وقتله بنى أمية وتلك الحروب العظام بالتأويل، ثم خروج العلويين[5] وقتلهم وحبسهم ونفيهم بالتأويل، إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا من حوادث الإسلام التي جرها التأويل وما ضرب مالك[6] بالسياط وطيف به إلا بالتأويل، ولا ضرب الإمام أحمد[7] بالسياط وطلب قتله إلا بالتأويل، ولا قتل أحمد بن نصر الخزاعي[8] إلا بالتأويل، ولا جرى على نعيم بن حماد الخزاعي[9] ما جرى وتوجع أهل الإسلام لمصابه إلا بالتأويل، ولا جرى على محمد بن اسماعيل البخاري[10] ما جرى ونفي وأخرج من بلده إلا بالتأويل، ولا قتل من قتل من خلفاء الإسلام وملوكه إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام عبد الله بن إسماعيل الأنصارى[11] ما جرى وطلب قتله بضعة وعشرين مرة إلا بالتأويل، ولا جرى على أئمة السنة والحديث ما جرى حتى حبسوا وشردوا وأخرجوا من

---

(١) انظر البداية والنهاية ٨/٢٢٥، ٣٣٠.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩/٣٥، ٤٧.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٠/٣٥.

(٤) انظر البداية والنهاية ١٠/٣٠ وما بعدها.

(٥) انظر البداية والنهاية ١٠/٩١ وما بعدها.

(٦) انظر: وفيات الأعيان ٤/٢١٣٧.

(٧) انظر البداية والنهاية ١٠/٣٣٠ وما بعدها.

(٨) انظر العبر ١/٤٠٨.

(٩) انظر العبر ١/٤٠٥.

(١٠) انظر: تاريخ بغداد ٢/٣٣.
وفيات الاعيان ٤/١٨٨، وتهذيب التهذيب ٩/٥٢، ٥٣.

(١١) انظر: تذكرة الحفاظ ٣/١١٨٦، ١١٩٠ والعبر في خبر من غبر ٣/٢٩٨ طبعة الكويت سنة ١٩٦١م.

ديارهم إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام ابن تيمية ما جرى من خصومه بالسجن[1] وطلب قتله أكثر من عشرين مرة إلا بالتأويل، فقاتل الله التأويل (الباطل)[2] وأهله، وأخذ حق دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم، فماذا هدموا من معاقل الإسلام وهدوا من اركانه وقلعوا من قواعده، ولقد تركوه أرق من الثوب الخلق البالي الذي تطاولت عليه السنون وتوالت عليه الأهوية والرياح، ولو بسطنا هذا الفصل وحده وما جناه التأويل على الأديان والشرائع وخراب العالم لقام منه عدة أسفار، وإنما نبهنا تنبيها يعلم به العاقل ما وراءه وبالله التوفيق .

(١) انظر الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص٧٦، للحافظ عمر بن علي البزار. ط المكتب الإسلامي سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) قوله «الباطل» من «ل».

وتكـوينـه، وأن له ملائكـة مدبـرات بأمـره للعالم، تصعد وتنزل وتتحرك، وتنتقل من مكان إلى مكان، وأنه يذهب بالدنيا ويخرب هذا العالم، ويأتي بالآخرة ويبعث من في القبور (جل جلاله)[1] إلى أمثال ذلك من النصوص التي هي في الدلالة على مرادها كدلالة لفظ العشرة والثلاثة على مدلوله، وكـدلالـة لفـظ الشمس والقمـر والليـل والنهار والبر والبحر والخيل والبغال والإبل والبقر والغنم والذكر والأنثى على مدلولها، لا فرق بين ذلك البتة، ولهـذا لما سلطت الجهميـة التأويـل على نصوص الصفات سلطت الباطنية التأويل على هذه الأمور وجعلوها أمثالا مضروبة أريد بها خلاف حقائقها وظـواهـرهـا وجعلوا القـرآن والشـرع إمثـالاً كله[2]، ولهم في التأويل كتب مستقلة نظـير كتب الجهميـة في تأويـل آيات الصفات وأحاديثها[3]، فهذا القسم إن سلط التأويل عليه عاد الشرع كله. متأولا[4]. لأنه أظهر أقسام القرآن ثبوتا وأكثرها ورودا، ودلالة القرآن عليه متنوعة غاية التنوع فقبو«ل»[5] ما سواه للتأويل أقرب من قبوله بكثير.

---

(١) ما بين القوسين من «ل».

(٢) في «ل» . . . القرآن والشرع كله مؤلا.

(٣) تقدم في الفصل السابق.

لهذا ذكر تأويلاتهم للكلام. والملائكة والمعاد، والكتب التي ألفت في الرد عليهم.

(٤) في «ل» كله مؤلا.

(٥) اللام من «ل».

فصـــــل

القسم الثاني :

ماهـــو ظاهـر في مراد المتكلم ولكنـه يقبـل التأويـل ، فهـذا ينظـر في وروده ، فإن أطـــرد استعـمالـه على وجـه واحـد استحـال تأويله بما يخالف ظاهـره ، لأن التأويـل إنـما يكون لموضع جاء نادرا خارجا عن نظائره منفردا عنها فيؤول حتى يرد إلى نظائره ، وتأويل هذا غير ممتنع ، لأنه إذا عرف من عادة المتكلم باطراد كلامه في توارد استعماله معنى ألفه ، أي «المخاطب»[1] فإذا جاء موضـع يخالفـه رده السـامع بما عهد من عرف المخاطب إلى عادته المطـردة هذا هو المعقـول في الأذهان والفطر وعند كافة العقلاء ، وقد صرح أئمـة العـربيـة بأن الشيء إنـما يجوز حذفه إذا كان الموضع الذي ادعى فيه حذفـه قد استعمـل فيه ثبوته أكثر من حذفه ، فلابد أن يكون موضع ادعاء الحذف (عندهم صالحا للثبوت ويكون الثبوت مع ذلك أكثر من الحذف)[2] حتى إذا جاء ذلك محذوفا في موضع ، علم بكثرة ذكره في نظائره أنـه قد أزيـل من هذا المـوضـع فحمـل عليه ، فهذا شأن من يقصد البيان والـدلالـة ، وأمـا من يقصـد التلبيس والتعميـة فله شأن آخر ، والقصد أن الظـاهـر في معنـاه إذا اطـرد استعـمالـه في «مـورده»[3] اطرادا مستوياً امتنع تأويله ، وان جاز تأويـل الظـاهـر ما لم يطـرد في موارد استعماله . ومثال ذلك اطـراد قولـه : ﴿**الـرحمن على العـرش استـوى**﴾[4] ، ﴿**ثم استـوى على**

---

(١) في «ل» المخاطبون .

(٢) ما بين القوسين من «ل» .

(٣) في «ل» في مراده .

(٤) فقد ورد في سبعة مواضع من كتاب الله تعالى وهي كالتالي :

١ ـ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش . . . ﴾ الآية/ الاعراف ٥٤ . =

وجدتها كلها من هذا الباب ومما يقضى منه العجب أن كلام شيوخهم ومصنفيهم عندهم نص في مرادهم لا يحتمل التأويل، وكلام «الواقفين»[١] عندهم نص لا يجوز تأويله حتى إذا جاءوا إلى كلام الله ورسوله وقفوه على التأويل، ووقفوا التأويل عليه، فقل ما شئت وحرف ما شئت، أَفَتَرى بيان هؤلاء لمرادهم أتم[٢] من بيان الله ورسوله لهم (أم)[٣] كانوا مستولين على بيان الحقائق التي سكت الله ورسوله عن بيانها، أولئك هم الجاهلون المتهوكون[٤].

---

(١) في الأصل «الموافقين» وما أثبتناه من «ل» وهو أوفق.

(٢) في الأصل «أهم» والتصحيح من «ل».

(٣) (ام) ليست في الأصل وهي في «ل».

(٤) المتهوك: المتحير انشد ثعلب:

إذا ترك الكعبي والقول سادرا ... تهوك حتى ما يكاد يريع

لسان العرب مادة ـ هوك.

فصل

القسم الثالث :

الخطاب بالمجمل الذي أحيل بيانه على[1] خطاب آخر، فهذا أيضا لا يجوز تأويله إلا بالخطاب الذي يبينه، وقد يكون بيانه معه، وقد يكون منفصلا عنه، والمقصود أن الكلام الذي هو عرضة التأويل أن يكون له عدة معان، وليس معه ما يبين مراد المتكلم، فهذا للتأويل فيه مجال واسع، وليس في كلام الله ورسوله من هذا النوع شيء من الجمل المركبة، وإن وقع في الحروف المفتتح «بها»[2] السور، بل إذا تأمل من بصّره الله طريقة القرآن والسنة وجدها متضمنة لدفع ما يوهمه الكلام من خلاف ظاهره، وهذا موضع لطيف جدا في فهم القرآن نشير إلى بعضه فمن ذلك قوله تعالى : ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾[3] رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان ان المراد به إثبات تلك الحقيقة، كما تقول العرب (مات موتا) (ونزل نزولا) ونظيره التأكيد بالنفس والعين، وكل وأجمع، والتأكيد بقوله : حقا، ونظائره[4]، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في**

---

(١) في الأصل عن ـ بالنون ـ والتصحيح من «ل».

(٢) «بها» من «ت».

(٣) النساء / ١٦٤.

(٤) يقصد بهذا القاعدة المقررة في النحو المعروفة بالتوكيد.

يقول ابن مالك في ألفيّته :

بالنفس أو بالعين الاسم أكدا ... مع ضمير طابق المؤكدا

إلى قوله : وما من التوكيد لفظي يجي ... مكررا كقولك ادرجي ادرجي

قال الأشموني في تعريف التوكيد هو على نوعين : لفظي، ومعنوي وهو التابع الرافع احتمال إرادة غير =

زوجهـا وتشتكى إلى الله والله يسمـع تحاوركـما ان الله سميع بصير﴾(1) فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجـه، في إثبـات صفـة السمع للرب تعالى حقيقة، وأنه بنفسه سمع(2)، ومن ذلـك قولـه : ﴿والـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾(3) فرفع توهم السامع أن المكلف به عمـل جميـع الصـالحات المقـدورة والمعجـوز عنهـا، كما يجوزه

= نظاهر. وله ألفاظ أشار إليها بقوله :

بالنفس أو بالعين. كقولك: جاء زيد نفسه أو عينه، والمراد حقيقته. اي لرفع توهم أنه جاء رسوله أو امره مثلا .

واللفظي كقولك: جاء زيد زيد. وقوله: ونكاحها باطل باطل باطل قال الشارح قوله ﷺ: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير ولي فنكاحها... الخ.

ففي حاشية الصبان ٣/٧٣، ٨٠ وهمع الهوامع ٥/١٩٧ قال: وعلى هذه القاعدة المقررة المتفق عليها فإن التوكيد بالمصدر أو بأي من ألفاظ التوكيد يثبت به أن المراد بذلك اللفظ ظاهرهُ ويرفع عنه احتمال المجاز.

وهذه القاعدة أخذها النحاة باستقرائهم لغة العرب، والقرآن الكريم نزل بلغتهم، ولما كان الذين نزل القرآن بلسانهم وهم عرب يفهمون ما خوطبوا به لم ينكروه ولم يؤلوه، فلما جاء الذين أخذوا بمنطق اليونان، ولم يعـرفـوا نصـوص القـرآن ومـا تدل عليه واستعجمت قلوبهم عن فهم كتاب الله مع السنتهم شكوا في تلك النصوص فصرفوها عن ظاهرها بناء على تلك القواعد التى اصلوها فصدت الناس عن فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(1) المجادلـة / ١ .

(2) يدل لذلـك ما أورده ابن كثـير في تفسـير هذه الآية ٨/٦٠ حيث قال روى الإمام أحمد في مسنده ٦/٤٦ ثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما اسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجـل: ﴿قـد سمـع الله قول التي تجادلـك في زوجهـا﴾... إلى آخر الآية ورواه البخاري في كتاب التوحيد ١٣/٣٧٢ فتح الباري تعليقا فقال: وقال الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة فذكره...

وأخرجه ابن ماجة في المقدمة / باب فيما انكرت الجهمية ١/٦٧ ح ١٨٨.

وفي رواية لابن أبي حاتم عن الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وعى سمعـه كل شيء، إني لأسمـع كلام خولـة بنت ثعلبـة، ويخفى عليّ بعضـه، وهي تشتكى زوجهـا إلى رسـول الله ﷺ وهي تقـول : يارسـول الله أكـل شبـابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدى ظاهر منى اللهم انى أشكو إليك. قالـت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ وقال: زوجها «أوس بن الصامت» ا. هـ.

(3) الاعـراف / ٤٢ .

أصحـــاب تكليف مالا يطـاق، رفـع هذا التـوهم بجملة اعـترض بها بين المبتـدأ وخـبره ليـزيـل الاشكـال، ونظـيره قولـه تعـالى : ﴿**وأوفوا الكيل والميـزان بالقسـط لا نكلف نفسـا إلا وسعها**﴾(١) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿**فقـاتـل في سبيـل الله لا تكلف إلا نفسـك وحرض المؤمنين**﴾(٢) فلما أمره بالقتـال أخـبره انـه لا يكلف بغـيره بل إنـما يكلف نفسـه، ثم أتبـع ذلك بقوله : ﴿**وحرض المؤمنين**﴾ لئلا يتوهم سامع أنه ان لم يكلف بهم فإنه(٣) يهملهم ويتركهم .

ومن ذلـك قولـه تعـالى : ﴿**والـذين آمنـوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين**﴾(٤) فتأمل كم في هذا الكلام من رفع للإيهام وإزالة ما (عسى أن)(٥) يعرض للمخاطب من لبس .

فمنهـا قولـه : ﴿**واتبعتهم ذريتُهم بإيـمان**﴾ لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب أو تربية أو حرية أو رق أو غير ذلك .

ومنها قوله : ﴿**وما ألتناهم من عملهم من شيء**﴾ رفعا لوهم متوهم انه يحط الآباء إلى درجة الأبناء ليحصل الالحاق والتبعية فأزال هذا الوهم بقوله ﴿**وما ألتناهم**﴾(٦) أي ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئا من عملهم، بل رفعنا الذرية إليهم قرة لعيونهم وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة .

---

(١) الانعام / ١٥٢ .

(٢) النساء / ٨٤ .

(٣) في الأصل : «انهم» وفي «ل» انه .

(٤) الطـور آية ٢١ .

(٥) ما بين القوسين من «ل» .

(٦) ما بين القوسين من «ل» .

ومنها قوله : ﴿**كل امرىء بما كسب رهين**﴾ فلا يتوهم متوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار، بل هو للمؤمنين دون الكفار، فإن الله سبحانه لا يعذب أحدا إلا بكسبه، وقد يثيبه من غير كسب منه ومنها قوله تعالى : ﴿**يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا**﴾[1] فلما أمرهن بالتقوى التي (من)[2] شأنها التواضع ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول لئلا يطمع فيهن ذو المرض ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف دفعاً لتوهم الإذن في الكلام المنكر، لما نهين عن الخضوع بالقول، ومن ذلك قوله : ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾[3] فرفع توهم فهم الخَيْطَينِ من الخيوط بقوله : ﴿**من الفجر**﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم**﴾[4] فأثبت لهم مشيئة فلعل[5] متوهما يتوهم استقلاله بها، وأنه إن شاء أتى بها، وان شاء لم يأت، فأزال سبحانه ذلك بقوله : ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله**﴾ ثم لعل متوهما يتوهم أنه يشاء الشيء بلا حكمة ولا علم[6] بمواقع مشيئته، وحيث تصلح، فأزال ذلك بقوله : ﴿**ان الله كان عليما حكيما**﴾[7] ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿**كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة**﴾[8] ومن ذلك

---

(١) الأحزاب / ٣٢.

(٢) «من» من «ل».

(٣) البقرة / ١٨٧.

(٤) التكوير / ٢٨.

(٥) في الأصل ـ فعل ـ والتصحيح من «ل».

(٦) في الأصل ـ والعلم ـ والتصحيح من «ل».

(٧) الإنسان / ٣٠.

(٨) المدثر / ٥٤ ـ ٥٦.

قوله تعالى : ﴿وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن﴾[1] «فلعل»[2] متوهما يتوهم أن الله سبحانه يجوز عليه ترك الوفاء بما وعد به، فأزال ذلك بقوله : ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾[3] فلما ذكر اتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد اتيان بعض آياته، أزال هذا الوهم ورفع الاشكال بقوله : ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصاً صريحا في معناه لا يحتمل غيره، وإذا تأملت أحاديث الصفات رأيت هذا لائحاً على صفحاتها، بادياً على ألفاظها، كقوله ﷺ : «انكم ترون ربكم عيانا كما ترى الشمس في الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»[4] وقوله : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ولا حجاب يحجبه»[5] فلما كان تكليم الملوك قد يقع بواسطة الترجمان ومن وراء الحجاب أزال هذا الوهم من الأفهام .

وكذلك الحديث الآخر أنه ﷺ قرأ : ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾[6] ووضع ابهاميه على أذنيه وعينيه دفعاً لتوهم متوهم أن المراد بالسمع والبصر غير (الصفتين)[7] المعلومتين[8]، وأمثال هذا كثير في القرآن والسنة كما في

(١) التوبة / ١١١ .

(٢) في الأصل - فعل - والتصحيح من «ل» .

(٣) الانعام / ١٥٨ .

(٤) تقدم تخريجه ص ٢٢٣ هامش ١، ٢ .

(٥) البخاري / التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فتح الباري ١٣/٤٢٣ ح ٧٤٤٣ .

(٦) النساء / ١٣٤ .

(٧) في الأصل «العينين» والتصحيح من «ل» .

(٨) أخرج الحديث أبو داود في السنة - باب في الجهمية ٥/٩٦ ح ٤٧٢٨، وابن خزيمة في التوحيد ص ٤٣ .

الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : «يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى»[1] ثم جعل رسول الله ﷺ يقبض بيده ويبسطها تحقيقا لإثبات اليد وإثبات صفة القبض، ومن هذا إشارته بأصبعه إلى السماء حين استشهد ربه تبارك وتعالى على الصحابة أنه قد بلغهم[2] تحقيقا لإثبات صفة العلو، وأن الرب الذي استشهده فوق العالم مستوعلى عرشه، فهذه أمثلة يسيرة ذكرناها، ليعرف الفهم المنصف القاصد للهدى والنجاة، منها ما يقبل التأويل وما لا يقبله ولا عبرة (بغيره)[3] والله المستعان .

(١) مسلم في كتاب صفات المنافقين ٤/٢١٤٨ ح ٢٤، ٢٥٦.
(٢) صحيح مسلم الحج ـ باب ١٩ حجة النبي ﷺ ٢/٨٨٦ ح ١٤٧.
(٣) «بغيره» من «ل» .

الفصل السابع عشر

في أن التأويل يفسد العلوم كلها إن سلط عليها ويرفع الثقة بالكلام ولا يمكن لأمة من الأمم أن تعيش عليه

معلوم ان العلوم إنما قصد بها مصنفوها بيانها وإيضاحها للمتعلمين وتفهيمهم إياها بأقرب ما[1] يقدرون عليه من الطرق، فإن سلط التأويل على ألفاظهم وحملها على غير ظاهرها لم ينتفع بها وفسدت وعاد ذلك على موضوعها ومقصودها بالإبطال، فإذا حمل كلام الأطباء على ـ غير عرفهم المعروف من خطابهم، وتأول المخاطب كلامهم على غير ظاهره، لم يصل إلى فهم مرادهم البتة، بل أفسد عليهم عِلْمَهم وصناعتهم، وهكذا أصحاب علم الحساب والنحو وجميع أرباب العلوم، إذا سلط التأويل على كلامهم لم يوصل إلى شيء من تلك العلوم، مع أنه يجوز عليهم الخطأ والتناقض والتلبيس في بعض المواضع والتعمية، ومع قصورهم في البيان وجودة[2] التعبير، وقع نقصان إدراكهم للحقائق وعلومهم ومعارفهم، فكيف يسلط التأويل على كلام من لا يجوز عليه الخطأ والغلط والتناقض وضد البيان والإرشاد، هذا مع كمال علمه وكمال قدرته على أعلى أنواع البيان، وكمال نصحه وهداه وإحسانه وقصده الافهام والبيان، لا التعمية والالغاز، ولهذا لما سلط المحرفون التأويلات الباطلة على نصوص الشرع فسد الدين فسادا، لولا أن الله سبحانه تكفل بحفظه[3] وأقام له حرسا[4]

---

(١) في الأصل ـ من ـ وفي «ل» ما .

(٢) «د» من «ل» .

(٣) كما في قوله تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾ . الحجر/ ٩.

(٤) وهم العلماء الذين سلكوا مسلك صحابة رسول الله ﷺ في التمسك بكتاب الله وما ثبت في سنـ

وكلهم به وبحمايته من تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين لجرى عليه ما جرى على الأديان السالفة ولكن الله برحمته وعنايته بهذه الأمة، يبعث لها عند دروس السنة وظهور البدعة من يجدد لها دينها، ولا يزال يغرس في دينه غرسا يستعملهم فيه علما وعملا، وكما أن التأويل ان سلط على علوم الخلائق أفسدها فكذلك إذا استعمل في مخاطباتهم أفسد الأفهام والفهم، ولم يمكن أمة أن تعيش عليه أبدا، فإنه ضد البيان الذي علمه الله الإنسان لقيام مصالحه في معاشه ومعاده، وقد تقدم تقرير ذلك بما فيه كفاية وبالله التوفيق .

= رسول الله ﷺ، فقد وضعوا القواعد الدقيقة للذب عن سنة رسوله ﷺ بحيث ينفون عنها تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، إذ خص الله هذه الأمة بالاسناد الذي جعله الله من الأسباب التي تحقق بها حفظ ما أنزله على رسوله من كتاب وسنة إذا أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، وسنته بيان لكتاب الله كما قال تعالى: ﴿ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ .

فحفظت ونفى عنها ما انتحله المبطلون لأنها البيان والتفسير والتوضيح لكتاب الله تعالى. وبذلك تحقق وعده بحفظ هذا الدين الخاتم للأديان السابقة والتي ضيعها أصحابها فحرفوا وبدلوا، لأن الله سبحانه وتعالى وكل حفظها إلى علماء تلك الأمم فلم يؤدوا ما كلفوا به. حيث استحفظهم الله على تلك الكتب فلم يحفظوها يقول تعالى في ذلك: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. المائدة/ ٤٤ .

الفصل الثامن عشر

في بيان أنه إن سلط على آيات التوحيد القولي العلمي وأخباره لزم تسليطه على آيات التوحيد العملي وأخباره، وفسد التوحيد معرفة وقصداً

هذا فصل عظيم النفع جليل القدر، إنما ينتفع به من عرف نوعي **التوحيد** : القولي العلمي الخبري[1]، والتوحيد القصدي الإرادي العملي[2] كما دل على الأول سورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾[3] وعلى الثاني سورة ﴿**قل ياأيها الكافرون**﴾[4].

وكذلك دل على الأول قوله تعالى : ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**﴾[5].

وعلى الثاني قوله تعالى : ﴿**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**﴾[6]. الآية.

---

(١) وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وهو توحيد المعرفة والإثبات وقد أشار المصنف إلى أن دليله سورة الإخلاص ﴿قل هو الله أحد﴾.

(٢) وهو توحيد الالهية والعبادة. وهو توحيد في الطلب والقصد. وقد أشار المصنف ان دليل هذا النوع سورة ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ كما دلت سورة الفاتحة على الأنواع الثلاثة :

توحيد الربوبية.

توحيد الأسماء والصفات.

توحيد الألوهية.

(٣) الاخلاص / ١.

(٤) الكافرون / ١.

(٥) البقرة / ١٣٦.

(٦) آل عمران / ٦٤.

ولهـذا كان النبي ﷺ يقـرأ بهاتـين السـورتـين في سنة الفجر[1] وسنة المغـرب، ويقـرأ بهما في ركعتي الطـواف[2] ويقـرأ بالآيتـين في سنة الفجر[3] لتضمنهما التوحيد العلمي والعملي .

والتوحيد العلمي أساسه إثبات صفات الكمال للرب تعالى ومباينته لخلقه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل .

والتـوحيـد العمـلي أسـاسـه تجريـد القصـد بالحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله وحـده (لا شريـك له)[4] فمدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين التـوحيـدين، وأقـرب الخلق إلى الله أقـومهم بهما علما وعملا، ولهذا كانت الـرسـل صلوات الله وسـلامه عليهم أقرب الخلق إلى الله، وأقربهم إليـه وسيلة أولـو العـزم[5] وأقـربهم الخليـلان[6]، وخـاتمهم سيـد ولـد آدم

---

(١) مسلم : صلاة المسافرين باب ١٤ استحباب ركعتي سنة الفجر. . . الخ ٢/٥٠٢ ح ٩٨.

(٢) مسلم : الحج ـ باب حجة النبي ﷺ ٢/٨٨٦ ح ١٤٧.

(٣) مسلم : صلاة المسافرين ـ باب ١٤، ٢/٥٠٢ ح ٩٩، ١٠٠.

(٤) ما بين القوسين من «ل» .

(٥) ألو العزم : يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ أي على تكـذيب قومهم لهم . وقـد اختلفـوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم، محمد ﷺ، وقد نص الله على اسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، قال : وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، وتكون «من» في قوله ﴿من الرسل﴾ لبيان الجنس .

والله أعلم اهـ ٧/٢٨٨ .

والآيتان المشار إليهما من سورة الأحزاب والشورى هما :

قولـه تعـالى : ﴿وإذ أخـذنـا من النبيـين ميثـاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ الأحزاب/٧ .

وقـولـه : ﴿شَـرع لكم من الـدين ما وصى به نوحـا والـذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ . الشورى الآية١٣ .

(٦) الخليـلان هما إبـراهيم ومحمـد عليهـما الصـلاة والسـلام . فعن إبراهيم يقول الله تعالى : ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ النساء/١٢٥ =

وأكرمهم على الله، بكمال توحيده وعبوديته لله، فهذان الأصلان هما قطب رحا القرآن وعليهما مداره، وبيانهما من أهم الأمور، والله سبحانه بينهما غاية البيان بالطرق الفطرية والعقلية والنظرية والأمثال المضروبة، ونوع سبحانه الطرق في إثباتها أكمل التنويع بحيث صارت معرفة القلوب الصحيحة والفطر السليمة لهما بمنزلة رؤية الأعين المبصرة التي لا آفة بها للشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء، فذاك للبصيرة بمنزلة هذه للبصر فإن سلط التأويل على التوحيد الخبرى العلمى كان تسليطه على التوحيد العملى القصدى أسهل، وانمحت رسوم التوحيد وقامت معالم التعطيل والشرك، ولهذا كان الشرك والتعطيل متلازمين لا ينفك أحدهما عن صاحبه، وإمام المعطلين المشركين فرعون فهو إمام كل معطل ومشرك إلى يوم القيامة، كما أن إمام الموحدين إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما إلى يوم القيامة، قال الله تعالى لإمام المعطلين وأتباعه: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار**﴾[1] وقال لإمام الحنفاء: ﴿**اني جاعلك للناس إماما**﴾[2] وقال لاتباعه: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾[3] ولا يأتى المعطل للتوحيد الخبرى بتأويل إلا أمكن المشرك المعطل للتوحيد العلمي أن يأتي بتأويل من

= يقول ابن كثير في تفسير الآية ٢ / ٣٧٤ قوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ وهذا من الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي ارفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ قال كثيرون من السلف: أي قام بجميع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير... الخ اهـ.

وعن محمد ﷺ ما جاء في صحيح مسلم في الفضائل - باب فضل أبي بكر رضى الله عنه - ٤ / ١٨٥٥ ح ٣، ٦ عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا، ولكنه أخى وصاحبى. وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا».

(١) القصص / ٤١.

(٢) البقرة / ١٢٤.

(٣) السجدة / ٢٤.

جنسه، وقد اعترف بذلك حذاق الفلاسفة وفضلاؤهم .

فقال أبو الوليد ابن رشد[١] في كتاب الكشف عن مناهج الأدلة[٢] :

«القول في الجهة : وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخروا الأشعرية كأبي المعالي[٣] ومن اقتدى بقوله، وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة مثل قوله : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[٤] ومثل قوله : ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾[٥] ومثل قوله : ﴿**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**﴾[٦] ومثل قوله : ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**﴾[٧] ومثل قوله تعالى : ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه**﴾[٨] ومثل قوله : ﴿**أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض**﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات التي ان سلط عليها التأويل عاد الشرع كله متأولا[١٠] وإن قيل فيها انها من المتشابهات عاد الشرع كله

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد يكنى أبا الوليد، زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب، ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه .

الديباج المذهب لابن فرحون ٢ /٢٤٨ .

(٢) من هنا إلى آخر هذا الفصل ص ٢٤٢ من الكشف عن مناهج الأدلة من ص ١٧٧-١٨٣ الطبعة الثانية. تحقيق الدكتور محمود قاسم .

(٣) أبو المعالي الجويني عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الفقيه الشافعي أحد الأعلام عاش ستين سنة . توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . العبر للذهبي ٢ /٣٣٩ .

طبقات الشافعية للسبكي ٥/١٦٥ .

(٤) طه / ٥ .

(٥) البقرة / ٢٥٥ .

(٦) الحاقة / ١٧ .

(٧) السجدة / ٥ .

(٨) المعارج / ٤ .

(٩) الملك / ١٦ .

(١٠) في «ل» مؤولا .

متشـابهـا ، لأن الشـرائـع كلهـا (مبينة أن الله في السماء)[1] «ومنه»[2] تنزل المـلائكـة بالـوحي إلى النبيـين ، وأن من السماء نزلت الكتب ، وإليها كان الاسـراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى ، وجميـع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والمـلائكـة في السـماء كما اتفقت جميـع الشـرائـع على ذلـك ، والشبهة التي قادت نفاة الجهة إلى نفيها هي أنهم اعتقدوا أن اثبات الجهة يوجب إثبـات المكـان ، وإثبـات المكـان يوجب إثبـات الجسمية ، ونحن نقول : ان إثبات هذا كله غير لازم ، فإن الجهة غير المكان وذلك أن الجهة هي امـا سطـوح الجسم نفسـه المحيـط به وهي ستـة ، وبهـذا نقـول : ان للحيوان فوق وأسفل ويمينا وشمالا وأمام وخلف .

وأمـا سطـوح جسم آخـر يحيـط بالجسم ذى الجهـات الست . فأمـا الجهـات التي هي سطـوح الجسم نفسـه فليست بمكـان للجسم نفسـه أصلا ، وأما سطوح الأجسام المحيطة به فهي له مكان ، مثل سطوح الهواء المحيطة بالإنسان ، وسطوح الفلك المحيطة بسطوح الهواء هي أيضا مكان للهواء ، وهكذا الافلاك بعضها محيطة ببعض ومكان له ، وأما سطح الفلك الخـارجى فقـد تبرهن أنـه ليس خارجه جسم ، لأنه لو كان ذلك[3] كذلك لوجب أن يكون خارج ذلك الجسم جسم آخر ، ويمر الأمر إلى غير نهاية ، فإذاً سطح آخر أجسام العالم ليس مكانا أصلا ، إذ ليس يمكن أن يوجد فيه جسم ، لأن كل ما هو مكان يمكن أن يوجد فيه جسم ، فإذاً إنْ قَامَ البرُهَانُ على وجـود موجـود في هذه الجهـة ، فواجب أن يكـون غير جسم ، فالذي يمنـع وجـوده هناك هو عكس ما ظنه القوم وهو موجود هو جسم ، لا موجود

---

(١) في الأصل وفي «ن» (مبنية على أن الله في السماء) والتصحيح من المختصر.

(٢) في «ن» وأن منه .

(٣) ذلك من «ل» وهي في طبعة مصر ـ لمناهج الأدلة كما قال المحقق .

ليس بجسم، وليس لهم أن يقولوا ان خارج العالم خلاء وذلك أن الخلاء قد تبين في العلوم النظرية امتناعه، لأن ما يدل عليه اسم الخلاء ليس هو شيئا أكثر من أبعاد ليس فيها جسم، أعنى طولا وعرضا وعمقا لأنه ان رفعت الأبعاد عنه عاد عدما، وان (فرضت)[1] الخلاء موجودا لزم أن تكون أعراضٌ موجودة في غير جسم، وذلك أن الأبعاد هي أعراض من باب الكمية ولابد، ولكنه قيل في الآراء السالفة القديمة والشرائع الغابرة أن ذلك الموضع هو مسكن الروحانيين يريدون الله والملائكة، وذلك أن ذلك الموضع ليس هو بمكان، ولا يحويه زمان، وذلك ان كل ما يحويه الزمان والمكان فاسدا، فقد يلزم أن يكون ما هنالك غير فاسد ولا كائن.

وقد تبين هذا المعنى مما[2] أقوله، وذلك أنه «لما»[3] لم يكن هاهنا شيء إلا هذا الموجود المحسوس أو المعدوم[4]، وكان من المعروف بنفسه أن الموجود إنما ينسب إلى الوجود، أعنى أنه يقال انه موجود أي في الوجود، إذ لا يمكن أن يقال انه موجود في العدم، فإن كان هاهنا موجود هو أشرف الموجودات، فواجب أن ينسب من الموجود والمحسوس إلى الجزء الأشرف وهي السموات، ولشرف هذا الجزء قال تعالى: ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[5].

وهذا كله يظهر على التمام للعلماء الراسخين في العلم، فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأنه الذي جاء به الشرع وانبنى عليه، وأن ابطال هذه القاعدة إبطال للشرائع، وان وجه

---

(١) في الأصل وفي «ل» (أنزل) والتصحيح من المختصر.

(٢) في الأصل (ما) وفي «ل» مما وكذلك في مناهج الأدلة.

(٣) من «ل» ومن مناهج الأدلة.

(٤) في الأصل (المعدوم) وفي «ل» ومناهج الأدلة (العدم).

(٥) غافر / ٥٧.

العسر في تفهيم هذا المعنى مع نفى الجسمية(١) هو أنه ليس في الشاهد مثال له، فهو بعينه السبب في أنه لم يصرح الشرع بنفى الجسم عن(٢) الخالق سبحانه لأن الجمهور إنما يقع لهم التصديق بحكم الغائب متى كان ذلك معلوم الوجود في الشاهد، مثل العلم بالصانع(٣) فإنه لما كان في الشاهد شرطا في وجوده(٤)، كان شرطا في وجود الصانع الغائب، وأما متى كان الحكم الذي في الغائب غير معلوم الوجود في الشاهد عند الأكثر ولا يعلمه إلا العلماء الراسخون فإن الشرع يزجر عن طلب معرفته ان لم تكن بالجمهور حاجة إلى معرفته. مثل العلم بالنفس (لم يضرب له مثال في الشاهد إن كان بالجمهور حاجة إلى معرفته في سعادتهم وإن لم يكن ذلك المثال هو نفس الأمر المقصود تفهيمه مثل كثير مما جاء في أحوال المعاد)(٥) والشبهة الواقعة في نفي الجهة عند الذين نفوها ليس يتفطن الجمهور إليها لاسيما إذا لم يصرح لهم بأنه ليس بجسم، فيجب أن يمتثل في هذا كله فعل الشرع، وإن لم يتأول ما لم يصرح الشرع بتأويله، والناس في هذه الأشياء في الشرع على ثلاث مراتب :

صنف لا يشعرون(٦) بالشكوك العارضة(٧) في هذا المعنى، وخاصة متى تركت هذه الأشياء على ظاهرها في الشرع وهؤلاء هم الأكثر، وهم الجمهور.

وصنف عرفوا حقيقة هذه الأشياء، وهم العلماء الراسخون في

(١) في الأصل (الجهمية) والتصحيح من «ل» ومن مناهج الأدلة.

(٢) في الأصل (على) والتصحيح من «ل» ومن مناهج الادلة.

(٣) (بالصانع) ليست موجودة في نص مناهج الأدلة.

(٤) أي في وجود المصنوع، لأنه لابد من بانٍ للبيت، وصانع للسيارة، وهكذا إذ لا يوجد شيء اتفاقاً ومصادفة كما يظن الملاحدة مغالطة لمن سلبت عقولهم.

(٥) ساقط من الأصل ـ والتصحيح من كتاب الكشف عن مناهج الأدلة.

(٦) في الأصل : (لا يسعدون) والتصحيح من «ل» ومن مناهج الأدلة.

(٧) في الأصل (للمعارضة) والتصحيح من «ل» ومن مناهج الأدلة.

العلم، وهؤلاء هم الأقل من الناس .

وصنف عرضت لهم في هذه الأشياء شكوك ولم يقدروا على حلها، وهؤلاء هم فوق العامة ودون العلماء. وهذا الصنف هم الذين يوجد في حقهم التشابه في الشرع، وهم الذين ذمهم الله .

وأما عند العلماء والجمهور فليس في الشرع تشابه، فعلى هذا المعنى ينبغي أن يفهم التشابه .

ومثال ما عرض لهذا الصنف مع الشرع، مثال ما يعرض في خبز البر مثلا الذي هو الغذاء النافع لأكثر الأبدان أن يكون لأقل الأبدان ضارا وهو نافع للأكثر، وكذلك التعليم الشرعى هو نافع للأكثر، وربما ضرّ الأقل، ولهذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين**﴾[1] .

لكن هذا إنما يعرض[2] في آيات الكتاب العزيز في الأقل منها، والأقل من الناس. وأكثر ذلك هي الآيات التي تتضمن الاعلام عن (أشياء)[3] في الغائب ليس لها مثال في الشاهد، فيعبر عنها بالشاهد الذي هو أقرب الموجودات إليها وأكثرها شبها بها فيعرض لبعض الناس أن يأخذ الممثل به هو المثال نفسه، فتلزمه الحيرة والشك، وهو الذي يسمى متشابها في الشرع، وهذا «ليس»[4] يعرض للعلماء ولا للجمهور وهم صنفا الناس في الحقيقة، لأن هؤلاء هم الأصحاء (والغذاء الملائم إنما يوافق ابدان الأصحاء)[5] وأما أولئك فمرضى، والمرضى هم الأقل ولذلك قال الله

---

(١) البقرة / ٢٦ .

(٢) في الأصل (يتعرض) والتصحيح من «ل» ومن مناهج الأدلة .

(٣) ما بين القوسين من «ل» ومن مناهج الأدلة .

(٤) في الأصل (الذي) والتصحيح من «ل» ومن مناهج الأدلة .

(٥) ما بين القوسين من «ل» وهو نص مناهج الأدلة .

تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾(١) ابتغاء الفتنة .

وهؤلاء أهل الجدل(٢) والكلام ، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره ، وقالوا ان هذا التأويل هو المقصود به ، وإنما أتى الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده ، واختبارا لهم ، ونعوذ بالله من هذا الظن بالله ، بل نقول : ان كتاب الله العزيز إنما جاء معجزا من جهة الوضوح والبيان ، فإذاً ما ابعد من مقصد الشرع مَنْ قال فيما ليس بمتشابه إنه متشابه ، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه وقال لجميع الناس : ان فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل مثل ما قالوه في آيات الاستواء على العرش ، وغير ذلك كما قالوا : ان ظاهره متشابه .

وبالجملة فأكثر التأويلات التي زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تؤملت وجدت ليس يقوم عليها برهان ، ولا تفعل فعل الظاهر في قبول الجمهور لها وعملهم بها ، فإن المقصود الأول بالعلم في حق الجمهور إنما هو العمل ، فما كان أنفع في العمل فهو أجدر .

وأما المقصود بالعلم في حق العلماء فهو الأمران جميعا ، أعنى العلم والعمل .

ومثال من أول شيئا من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع وصرح بذلك التأويل للجمهور . مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو الأكثر ، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء المركب الأعظم لرداءة مزاج كان به ليس يعرض إلا للأقل من الناس ، فزعم أن بعض «تلك» الأدوية التي صرح باسمه الطبيب الأول في

(١) آل عمران / ٧ .

(٢) (الجدل) من «ل» وهو في مناهج الأدلة .

ذلك الدواء العام المنفعة المركب لم يرد به ذلك الدواء الذي جرت العادة في اللسان أن يدل بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه الذي قصده الطبيب، وقال للناس هذا هو الذي قصده الطبيب الأول، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول ففسدت به أمزجة كثير من الناس فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب فراموا إصلاحه بأن أبدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول، فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني، فعرض من ذلك للناس نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة فعرض منه للناس نوع رابع من الأمراض غير الأمراض المتقدمة، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، وسلط الناس التأويل على أدويته وغيروها وبدلوها، عرض منه للناس أمراض شتى حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس، وهذه هي حال هذه الفرق الحادثة في الشريعة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت في الشريعة تأويلا غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه الذي قصده صاحب الشرع، حتى تمزق الشرع كل ممزق، وبعد جدا عن موضوعه الأول.

ولما علم صاحب الشرع ﷺ أن مثل هذا يعرض ولابد في شريعته. قال: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»[1]

(١) أبو داود في السنة / باب شرح السنة ٤/٥ ح ٤٥٩٦ عن أبي هريرة.
والترمذي / في الإيمان باب افتراق هذه الأمة «تحفة الأحوذي» ٣٩٧/٧ ح ٢٧٧٨ وقال حديث حسن صحيح.
ابن ماجة في الفتن / باب ١٧ افتراق الأمم ١٣٢١/٢ ح ٣٩٩١.

يعنى بالـواحـدة التي سلكت ظاهـر الشـرع ، ولم تؤولـه وأنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشـريعـة في هذا الـوقت من الفسـاد العـارض فيها من قبل التأويل تبينت أن هذا المثال صحيح ، وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخـوارج ، ثم المعتـزلـة بعـدهم ، ثم الأشعـرية ، ثم الصوفية ، ثم جاء أبو حامـد فطم الـوادى على القـرى[1] وذكر كلاما بعد ذلك يتعلق بكتب أبي حامد ليس لنا غرض في حكايته .

(١) إلى هنـا انتهى النص الـذي نقله المؤلف من كتـاب (الكشف عن مناهج الأدلة) في مسألة الجهة وإثبات العلو لله سبحانه وتعالى وهو من ص١٧٧ ـ١٨٣ من مناهج الأدلة كما سبق في بداية النص .

الفصل التاسع عشر

في انقسام الناس في نصوص الوحي إلى أصحاب تأويل وأصحاب تخييل وأصحاب تجهيل وأصحاب تمثيل وأصحاب سواء السبيل .

هذه خمسة أصناف انقسم الناس إليها في هذا الباب بحسب اعتقادهم ما أريد بالنصوص .

الصنف الأول :

أصحاب التأويل ، وهم أشد الناس اضطرابا ، إذ لم يثبت لهم قدم في الفرق بين ما يتأول ومالا يتأول ، ولا ضابط مضطرد منعكس تجب مراعاته ، وتمتنع مخالفته بخلاف سائر الفرق ، فإنهم جروا على ضابط واحد وإن كان فيهم من هو أشد خطأ من أصحاب التأويل ، كما سنذكره .

الصنف الثاني :

أصحاب التخييل ، وهم الذين اعتقدوا ان الرسل لم تفصح للخلق بالحقائق[1] إذ ليس في قواهم إدراكها ، وإنما خيلت لهم ، وابرزت المعقول

---

(١) يقول ابن تيمية في كتابه «درء تعارض العقل والنقل ١ /٨-٩ بعد أن ذكر قانون المبتدعة الكلي الذي افترضوا فيه تعارض العقل والنقل ، ثم قرروا تقديم العقل على النقل ، وقد دحض تلك الشبهة قال : ولهؤلاء في نصوص الأنبياء طريقتان : طريقة التبديل ، وطريقة التجهيل ، أما أهل التبديل فهم نوعان : أهل الوهم والتخييل .

وأهل التحريف والتأويل . قال : فأهل الوهم والتخييل : هم الذين يقولون : ان الأنبياء أخبروا عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وعن الجنة ، بل وعن الملائكة ، بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون به أن الله جسم عظيم ، وان الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيما محسوسا ، وعقابا محسوسا ، وان كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر ، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر =

في صورة المحسوس، قالوا: ولو دعت الرسل أممهم إلى الإقرار برب لا داخل العالم ولا خارجه، ولا محايثا له ولا مباينا له، ولا متصلا به، ولا منفصلا عنه، ولا من فوقه ولا من تحته، ولا عن يمينه ولا عن يساره[1]، لنفرت عقولهم من ذلك ولم تصدق بامكان وجود هذا الموجود، فضلا عن وجوب وجوده[2]، وكذلك لو أخبروهم بحقيقة كلامه وأنه فيض فاض (من)[3] المبدأ الأول على العقل الفعال، ثم فاض من ذلك العقل على النفس الناطقة الزكية المستعدة لم يفهموا ذلك[4]. ولو أخبروهم عن المعاد الروحاني[5] بما هو عليه لم يفهموه، فقربوا لهم الحقائق المعقولة في ابرازها في

= هكذا، وإن كان هذا كذباً فهو كذبٌ لمصلحة الجمهور إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذا الطريق. قال: وقد وضع ابن سينا وامثاله قانونهم على هذا الأصل، كالقانون الذي ذكره في «رسالته الأضحوية» اهـ. فراجعه تجد فيه زيادة إيضاح وبيان لِخَبْط هؤلاء المنحرفين المحرفين.

(١) يقول صاحب جوهرة التوحيد في هذا المعنى ص ٦٠ :

ويستحيل ضد ذي الصفات   في حقه كالكون في الجهات

يقول الشارح قوله: «كالكون في الجهات» أي ككونه تعالى في جهة من الجهات الست. ومنها العلو والفوقية التي ورد بها النص في الكتاب والسنة. وقد سبق في الفصل السابق لهذا قول المؤلف في مسألة جهة العلو وما نقله في ذلك عن ابن رشد من كتابه الكشف عن مناهج الأدلة فراجعه.

(٢) وهذا حق فإن هذا الوصف ينطبق على المعدوم. والله سبحانه وتعالى موجود لا شك في وجوده، وهو فوق العالم مستو على عرشه كما أخبر بذلك في كتابه وأخبر عنه رسوله ﷺ وانظر ما يقوله الآمدي في كتابه «غاية المرام في علم الكلام» ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٩١هـ ص ٢٠٠ بعد أن أورد تلك الصفات محاولا نفي الجهة عن الله تعالى - وهذه اللفظة - وان لم ترد في النصوص وإنما ورد لفظ العلو والفوقية إلا أن النفاة استعملوها في النفي - كما يقول الأشاعرة مثلا، أن الله يرى لا في جهة فاستعملها أهل السنة والجماعة لبيان الحق - يقول الآمدي: ولعل الخصم قد يتمسك هاهنا بظواهر من الكتاب والسنة وأقوال بعض الأئمة وهي بأسرها ظنية لا يسوغ استعمالها في المسائل القطعية، فلهذا آثرنا الاعراض عنها ولم نشغل الزمان بايرادها. اهـ.

قلنا: وهذه طريقة أصحاب علم الكلام في الاعراض عن هدى الوحي الذي لا يريدون اشغال الزمان بنصوصه الواضحة الجلية، وندعوك أيها القارىء الكريم أن تقرأ صفحات في كتابه المشار إليه لتعرف بأي شيء أشغل الزمان في هذا الكتاب. سبحانك اللهم وبحمدك.

(٣) «من» من المختصر.

(٤) تقدم ذكر رأيهم في الملائكة

(٥) انظر تفصيل المعاد الروحاني عند المؤولة كتاب - فضائح الباطنية للغزالي ص ٤٤-٤٦.

الصور المحسوسة، وضربوا لهم الأمثال بقيام الأجساد من القبور في يوم العرض والنشور، ومصيرها إلى جنة فيها أكل وشرب ولحم وخمر، وجوار حسان، أو نار فيها أنواع العذاب تفهيما للذة الروحانية بهذه الصورة، وللألم الروحاني بهذه الصورة. وهكذا فعلوا في وجود الرب وصفاته وأفعاله، ضربوا لهم الأمثال «بوجود»[1] عظيم جدا أكبر من كل موجود، وله سرير عظيم وهو مستوٍ فوق سريره، يسمع ويبصر، ويتكلم، ويأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويأتي ويجيء، وينزل، وله يدان، ووجه، ويفعل بمشيئته وإرادته، وإذا تكلم العباد يسمع كلامهم، وإذا تحركوا رأى حركاتهم، وإذا هجس في قلب أحد منهم هاجس علمه، وأنه ينزل كل ليلة لهم إلى سمائهم فيقول: «من يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[2] إلى غير ذلك مما نطقت به الكتب الالهية، قالوا: ولا يحل لأحد أن يتأول ذلك على خلاف ظاهره للجمهور لأنه يفسد ما وضعت له الشرائع والكتب الألهية[3].

وأما الخاصة فهم يعلمون أن هذه أمثال مضروبة لأمور عقلية[4] تعجز عن ادراكها عقول الجمهور، فتأويلها جناية على الشريعة والحكمة، (وإقرارها «موافق»[5] للشريعة والحكمة. قالوا: وعقول الجمهور بالنسبة إلى هذه الحقائق)[6] أضعف من عقول الصبيان بالنسبة إلى ما يدركه

---

(١) في المختصر «بموجود».

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين / باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل... الخ ١/ ٥٢١ ح ١٦٨.

وقد روى أحاديث النزول اثنا عشر صحابياً، انظر كتاب النزول ـ للدارقطني مع كتابه الصفات ص٨٤ بتحقيق الدكتور علي بن ناصر فقيهي.

(٣) انظر «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ٩.

(٤) انظر «درء التعارض» ١/ ١٨٠.

(٥) موافق ليست في الأصل ولا في «ل» واضفناها ليستقيم الكلام.

(٦) ما بين القوسين من «ل» ـ والمعنى ـ أي تركها على ظاهرها من غير تأويل أولى.

عقـلاء الـرجـال وأهل الحكمة منهم ، والحكيم إذا أراد أن يخوف الصغير أو يبسـط أمله خوّفـه ورجـاه بما ينـاسب فهمه وطبعه ، وحقيقة الأمر «عند»[1] هذه الطـائفـة أن الـذي أخـبرت به الـرسل عن الله وصفاته وأفعاله ، وعن اليـوم الآخـر ، لا حقيقـة له تطـابق ما أخـبر وه به ، ولكنـه أمثال وتخييل[2] وتفهيم بضـرب (الأمثـال)[3] ، وقـد ساعـدهم أربـاب التأويـل على هذا المقصـد في باب معـرفـة الله وأسـمائـه وصفاته ، وصرحوا في ذلك بمعنى ما صرح به هؤلاء في باب المعاد وحشر الأجساد ، بل نقلوا كلماتهم بعينها إلى نصوص الاستواء والفوقية ، ونصوص الصفات الخبرية لكن هؤلاء أوجبوا أو سوغـوا تأويلهـا بما يخرجهـا عن حقـائقهـا وظـواهـرها ، وظنوا أن الرسل قصـدت ذلـك ، من المخـاطبـين ، تعـريضـا لهم إلى الثواب الجزيل ببذل الجهـد بتأويلهـا واستخـراج معـان تليق بها وحملهـا عليها[4] وأولئك حرموا التأويل ، ورأوه عائدا على ما قصدته الأنبياء بالابطال ، والطائفتان متفقتان على انتفاء حقائقها المفهومة منها في نفس الأمر[5] .

---

(١) في الأصل «على» والتصحيح من «ل» .

(٢) انظر قولهم في فضائح الباطنية ص ٣٨ ـ ٤٠ وقد جاء عنهم القول ، بقديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان إلا أن احدهما علة لوجود الثاني ، واسم العلة السابق ، ثم قالوا : السابق لا يوصف بوجود ولا عدم ، فإن العـدم نفي ، والـوجـود سببـه فلا هو موجـود ولا هو معـدوم ، ولا هو معلوم ولا هو مجهول ، ولا هو موصوف ولا هو غير موصوف . . . الخ .

فانظر ياأخي القارىء إلى هذا الزيغ والضلال . وأحمد الله على العافية وسلامة العقل واستقامة الفطرة على هدى الإسلام .

(٣) في الأصل الأمثلة والتصحيح من «ل» والمختصر .

(٤) فأهل التأويل يقررون أن هذه النصوص غير دالة على حقائق معانيها فليس هناك استواء معلوم ولا فوقية ، ولا دلالة لأي صفة وصف الله بها نفسه حقيقة ، بل كل ذلك مجاز .

(٥) وأهل التخييل ـ أقبح من أهل التأويل ـ فهم يقولون ان ما اخبرت به الأنبياء كله كذب وخداع ولا حقيقـة له ، لكن يجب بقـاؤ ه على ظاهـره ليتم انقيـاد الجمهـور لظـاهـر هذه الألفاظ وان كانت لا تدل على حقائق فكلا الطائفتين اتفقت على أن هذه النصوص لا حقيقة لها في نفس الأمر كما قال المصنف .

والصنف الثالث :

أصحاب التجهيل الذين قالوا : نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا يدرى ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤ ها ألفاظا لا معانى لها، ونعلم أن لها تأويلا لا يعلمه إلا الله . وهي عندنا بمنزلة «كهيعص»، «وحمعسق»، والمص»، فلو ورد علينا منها ما ورد، لم يعتقد فيها تمثيلا(١) ولا تشبيها(٢)، ولم نعرف معناه وننكر على من تأوله ونكل علمه إلى الله . وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات، ولا يفهمون معنى قوله : ﴿**لما خلقت بيدي**﴾ وقوله : ﴿**والأرض جميعا قبضته يوم القيامة**﴾ وقوله : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ وامثال ذلك من نصوص الصفات، وبنوا هذا المذهب على أصلين :

أحدهما : أن هذه النصوص من المتشابه .

والثاني : أن للمتشابه تأويلا لا يعلمه إلا الله .

فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرءون ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ و ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ ويروون «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا» ولا يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به، ولازم قولهم أن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه(٣)، ثم تناقضوا

---

(١)، (٢) التمثيل والتشبيه كلاهما باطل، وإنما أهل الحق يعتقدون أن ما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ حق يجب اثباته واعتقاد معناه، وليس ذلك كالحروف المقطعة في أوائل السور، بل أن للصفات معانى معلومة كما قال الإمام مالك في الاستواء : الاستواء معلوم والكيف مجهول . وذلك على أساس قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ١٤-١٥ موضحا لفظ التأويل الذي جر أصحابه إلى التضليل والتجهيل قال : وقد ذكرنا في غير موضع أن لفظ «التأويل» في القرآن يراد به :

=

أقبح تناقض، فقالوا : تجرى على ظواهرها، وتأويلها بما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلا ويقولون : تجرى على ظواهرها ويقولون : الظاهر منها غير مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا(١)؟ وهؤلاء غلطوا في المتشابه وفي جعل هذه النصوص من المتشابه(٢)، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله(٣)، فأخطأوا في المقدمات الثلاث، واضطرهم إلى هذا

= ١ ـ ما يؤول الأمر إليه، وإن كان موافقا لمدلول اللفظ ومفهومه في الظاهر.

٢ ـ ويراد به تفسير الكلام وبيان معناه، وإن كان موافقا له، وهو إصطلاح المفسرين المتقدمين كمجاهد وغيره.

٣ ـ ويراد به صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك.

قال : وتخصيص لفظ التأويل لهذا المعنى إنما يوجد في كلام بعض المتأخرين، فأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم، فلا يخصون لفظ «التأويل» بهذا المعنى، بل يريدون بالتأويل المعنى الأول أو الثاني. قال : ولهذا لما ظن طائفة من المتأخرين ان لفظ «التأويل» في القرآن والحديث في مثل قوله تعالى : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ أريد به هذا المعنى الإصطلاحي الخاص، واعتقدوا أن الوقف في الآية عند قوله : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ لزم من ذلك أن يعتقدوا أن لهذه الآيات والأحاديث معاني تخالف مدلولها المفهوم منها، وان ذلك المعنى المراد بها لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه الملك الذي نزل بالقرآن وهو جبريل، ولا يعلمه محمد ﷺ ولا غيره من الأنبياء، ولا تعلمه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأن محمدا ﷺ كان يقرأ قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ وقوله : ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وغير ذلك من آيات الصفات بل ويقول : «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا» ونحو ذلك، وهو لا يعرف معاني هذه الأقوال، بل معناها الذي دلت عليه لا يعلمه إلا الله، ويظنون أن هذه طريقة السلف.

قال : وهؤلاء أهل التضليل والتجهيل الذين حقيقة قولهم : أن الأنبياء واتباع الأنبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء) اهـ.

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/١٦-١٧.

(٢) لم يرد عن العلماء بالتفسير، جعل اسماء الله وصفاته من المتشابه، وإنما هي من المحكم، انظر تفسير ابن كثير ٢/٧٠٦.

(٣) فصل المحققون في القول في كون المتشابه لا يعلمه إلا الله، وذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿... وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾. الآية. فقالوا : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : **احدهما** : التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾ فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة، لأن حقائق الأمور =

التخلص من تأويـلات المبطلين وتحـريفـات المعطلين وسدوا على نفوسهم البـاب وقـالـوا : لا نرضى بالخطأ، ولا وصـول لنا إلى الصواب، وهؤلاء تركـوا التـدبر المأمور به والتذكر والتعقل لمعاني النصوص الذي هو أساس[1] الإيـمان وعمـود اليقين، واعرضوا عنه بقلوبهم وتعبدوا بالألفاظ المجردة التي أنـزلت في ذلـك، وظنـوا انهـا أنـزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتـدبـرهـا، والتفكر فيها، فأولئك جعلوها عرضة للتأويل والتحريف، كما جعلها أصحاب التخييل امثالا لا حقيقة لها .

وقابلهم الصنف الرابع وهم : أصحاب التشبيه والتمثيل، ففهموا منها مثل ما للمخلوقين، وظنوا أن لا حقيقة لها سوى ذلك وقالوا : محال أن يخاطبنا الله سبحانه بما لا نعقله[2] ثم يقول ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ . ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾ . ﴿**ليدبروا آياته**﴾ . ونظائر ذلك، وهؤلاء هم المشبهة[3] .

= وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ، ﴿ويقولون آمنا به﴾ خبره .

والثاني : وهو التأويل بمعنى التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتفسيره فإن أريـد به هذا المعنى فالـوقف على ﴿والـراسخـون في العلم﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وان لم يحيطوا علما بحقائق الاشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا يكون قوله ﴿يقولون آمنا به﴾ حالا منهم . . . الخ .

انظر تفسير ابن كثير ٢/٨ .

(١) في الأصل «تباين» والتصحيح من «ل» .

(٢) هذا رأيهم واعتقـادهم وفهمهم الفـاسـد لمعنى النصـوص حيث لم يعـرفـوا منهـا إلا ما اتصف به المخلوق، والله سبحانه وتعالى خاطب عباده بما يعقلون ويفهمون ودعاهم لتدبر ذلك ـ وقد فهم خطابه أولو الألباب وهم أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة على أساس قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

ولكن هؤلاء سدوا على أنفسهم أبواب الخير، فأعمى الله أبصارهم عن الهدى جزاء وفاقا .

(٣) لأنهم لم يفهمـوا من نصـوص الصفـات إلا ما يشـاهـدونـه في المخلوق، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فهو : الله الأحد الصمد الذي لم يكن له كفوا أحد ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

فهذه الفرق لا يزال يبدع بعضهم بعضا، ويضلله ويجهله، وقد تصادمت كما ترى، فهم كزمرة من العميان تلاقوا فتصادموا كما قال أعمى البصيرة والبصر منهم :

ونظيري في العلم مثلي أعمى فترانا في حندس[1] نتصادم

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق، وأدناسها[2]، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات، وكان مذهبهم مذهبا بين مذهبين، وهدى بين ضلالين خرج من بين مذاهب المعطلين، والمخيلين والمجهلين، والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، وقالوا نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نعطل، ولا نؤول ولا نمثل ولا نجهل، ولا نقول ليس له يدان ولا وجه ولا سمع ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا استواء على عرشه، ولا نقول له يدان كأيدي المخلوقين ووجه كوجوههم، وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم، بل نقول له ذات حقيقة ليست كالذوات، وله صفات حقيقة لا مجازا ليست كصفات المخلوقين، وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالى، ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه .

ولا يمنعنا ذلك أن نفهم المراد من تلك الصفات وحقائقها كما لم يمنع ذلك مَنْ أثبت لله شيئا من صفات الكمال، من فهم معنى الصفة وحقيقتها، فإن من أثبت له سبحانه السمع والبصر، أثبتهما حقيقة وفهم

---

(١) الحندس : الظلمة . مختار الصحاح .

(٢) دنس ـ الثوب، توسخ . مختار الصحاح / باب الدال .

معناهما، فهكذا سائر صفاته «المقدسة»[1] يجب أن تجرى هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها[2]، فإن الله سبحانه لم يكلف عباده بذلك ولا أراده منهم، ولم يجعل لهم إليه سبيلا، بل كثير من مخلوقاته أو أكثرها لم يجعل لهم سبيلا إلى معرفة كنهه وكيفيته[3] وهذه أرواحهم التي هي أدنى إليهم من كل دانٍ قد حجب عنهم معرفة كنهها وكيفيتها[4]، وجعل لهم السبيل إلى معرفتها والتمييز بينها وبين أرواح البهائم .

وقد أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة، وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم، ولم يعرفوا كيفيته وكنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارا من خمر، وأنهارا من عسل، وأنهارا من لبن[5] ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته، إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من فم دود القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلا لما في الدنيا، كما قال ابن عباس :

(١) في الأصل «المتقدمة» والتصحيح من «ل» .

(٢) كما قال الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء . الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، وهكذا جميع أئمة السلف يثبتون جميع الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ حقيقة لا مجازا، وينفون عن أنفسهم معرفة كيفيتها وكنهها، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فعباده لا يحيطون به علما . وقد وضح المصنف رحمه الله ذلك في الصفحات التالية .

(٣) الضمير هنا يعود إلى المخلوق لا إلى الرب تعالى وصفاته .

(٤) كما قال تعالى : ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ . الاسراء/ آية ٨٥ .

(٥) كما قال تعالى : ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾ سورة محمد/ آية ١٥ .

«ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء والصفات»(١).

ولم يمنعهم انتفاء نظيرها(٢)في الدنيا ومثالها من فهم حقائقها، (ولم يمنعهم) عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك، فهكذا الأسماء والصفات، لم يمنعهم انتفاء نظائرها في الدنيا ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها(٣) وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته سبحانه لنفسه في ثلاث مواضع من القرآن .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٦١ طبعة الشعب ولا توجد كلمة «الصفات» .

(٢) وفي «ل» عدم النظير في الدنيا، وهو ما كرر في السطر التالي بحذف «ولم يمنعهم» .

(٣) ضرب الإمام ابن تيمية مثلين لإثبات صفات الله عز وجل حقيقة من غير مشابهتها لصفات المخلوقات فقال ـ رحمه الله ـ : . . . . وأما المثلان المضروبان : فإن الله سبحانه وتعالى أخبر عما في الجنة من المخلوقات من اضافة المطاعم والملابس والمناكح والمساكن. فأخبر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا وماء ولحما وحريرا وذهبا وفضة وفاكهة وحورا وقصورا، وقد قال ابن عباس : «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء» وإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها بل بينها من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق، وهذا بين واضح .

المثل الثاني : أن الروح التي فينا قد وصفت بصفات ثبوتية وسلبية وقد أخبرت النصوص أنها تعرج وتصعد من سماء إلى سماء، وأنها تقبض من البدن وتسل منه كما تسل الشعرة من العجينة، والناس مضطربون فيها، فمنهم طوائف من أهل الكلام يجعلونها جزءا من البدن، أو صفة من صفاته كقول بعضهم انها الحياة، أو المزاج أو نفس البدن، ومنهم طوائف من أهل الفلسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود، وهي أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود فيقولون : لا هي داخل البدن ولا خارجه، ولا مباينة له ولا مداخله، ولا متحركة ولا ساكنة، ولا تصعد ولا تهبط، ولا هي جسم ولا عرض، وقد يقولون : انها لا تدرك الأمور المعينة والحقائق الموجودة في الخارج، وإنما تدرك الأمور الكلية المطلقة .

وقد يقولون انها لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينة له ولا مداخله . . . واضطراب النفاة والمثبتة في الروح كثير . . . والمقصود أن الروح إذا كانت موجودة حية عالمة قادرة سميعة بصيرة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء، ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها لأنهم لم يشاهدوا لها نظيرا، والشيء إنما تدرك حقيقته بمشاهدته أو مشاهدة نظيره، فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته، وأهل العقول هم أعجز عن أن يحدوه أو يكيفوه منهم عن أن يحدوا الروح أو يكيفوها، فإذا كان من نفى صفات =

أحدها : قوله : ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾[1].

والثاني : قوله : ﴿وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2].

الثالث : قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[3].

فنفى سبحانه المماثلة عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سماواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته، فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الالهية، المقبولة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة، فإذا قال المثبت : ياالله قام بقلبه ربا قيوما[4] بنفسه مستويا على عرشه[5] مكلما

= الروح جاحدا معطلا لها، ومن مثلها بما يشاهده من المخلوقات جاهلا ممثلا لها بغير شكلها، وهي مع ذلك ثابتة بحقيقة الاثبات مستحقة لما لها من الصفات، فالخالق سبحانه وتعالى أولى أن يكون من نفي صفاته جاحدا معطلا، من قاسه بخلقه جاهلا به ممثلا. وهو سبحانه وتعالى ثابت بحقيقة الإثبات، مستحق لما له من الأسماء والصفات.

انظر الرسالة التدمرية ص ١٩ ـ ٢٢.

(١) النحل / آية ٦٠.

(٢) الروم / آية ٢٧.

(٣) الشورى / آية ١١.

(٤) كما قال تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾. البقرة/ آية ٢٥٥. وفي المختصر : «قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه مستوى على عرشه مكلم متكلم».... الخ.

(٥) كما قال تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ طه/ آية ٥.

متكلما[1]، سامعا قديرا[2] مريداً[3] فَعَالاً لما يشاء[4] يسمع دعاء الداعين[5]، ويقضى حوائج السائلين ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي[6]، تعرج الملائكة بالأمر إليه[7]، وتنزل بالأمر من عنده[8]، وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى فَقَدِّرْ قُوَى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوته إلى قوة الرب تبارك وتعالى لم تجد لها نسبة «إليها»[9] البتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لرجل واحد، ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة، كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور من بحر، وإذا قدرت حكمة جميع المخلوقين على هذا التقدير لم يكن لها نسبة إلى حكمته، وكذلك إذا قدرت «كل»[10] جمال في الوجود اجتمع لشخص واحد، ثم كان الخلق كلهم بذلك الجمال، كان نسبته إلى جمال الرب تعالى وجلاله دون

---

(١) كما قال تعالى: ﴿... وكلم الله موسى تكليما﴾ النساء/ آية ١٦٤.

(٢) كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾. الملك آية ١. كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض انه كان عليما قديرا﴾. فاطر / آية ٤٤.

(٣) كما قال تعالى: ﴿... ان ربك فعالٌ لما يريد﴾. هود/ آية ١٠٧.

(٤) كما قال تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾. إبراهيم/ آية ٢٧.

(٥) كما قال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير﴾. المجادلة/ آية ١.

(٦) كما قال تعالى: ﴿ان تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم...﴾ الزمر/ آية ٧.

(٧) كما قال تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ المعارج/ آية ٤.

(٨) كما قال تعالى: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا﴾. مريم/ آية ٦٤.

(٩) في الأصل (أياها) والتصحيح من المختصر.

(١٠) في الأصل «على» والتصحيح من «ل».

نسبة السراج الضعيف إلى جرم الشمس، وقد نبهنا سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿**ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم**﴾(١) فقدر البحر المحيط بالعالم مدادا ووراءه سبعة أبحر تحيط به كلها مداد يكتب به كلمات الله، نفذت البحار وفنيت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خُلِقَتْ إلى آخر الدنيا، ولم تنفذ كلمات الله.

وقد أخبر النبي ﷺ أن السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة(٢)، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله(٣)، وهو سبحانه فوق عرشه يرى ما عِبَادَهُ عَلَيْه، فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به فأحبوه وخافوه ورجوه وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك فهم استوائه على عرشه، وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط علمهم بأنه لا نظير لذلك ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيء من المخلوقات وقد أعلمهم سبحانه على لسان رسوله أنه يقبض سمواته بيده والأرض(٤) باليد الأخرى ثم يهزهن(٥)، وأن السموات السبع والأرضين السبع في كفه تعالى كخردلة في كف

(١) لقمان / آية ٢٧.

(٢) ابن جرير في التفسير ٣ / ١٠، وذكره ابن كثير في التفسير ١ /٤٥٨.

(٣) ابن جرير الطبري في التفسير ٣ / ١٠ موقوفا على ابن عباس، والحاكم في المستدرك ٢ / ٢٨٢ من طريق سفيان به موقوفا على ابن عباس، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، كما أخرجه الدارقطني في الصفات ص٥٠ ح ٣٦، وذكره ابن كثير في التفسير ١ /٤٥٧.

(٤) في الأصل: والأخرى - والتصحيح من «ل».

(٥) تقدم تخريجه ص ٢٢٩.

أحـدكم[1]، وأنـه يضـع السمـوات على أصبـع والأرضـين على أصبع، والجبـال على أصبـع والشجـر على أصبـع، وسائر الخلق على أصبع[2]، فأيّ أيـدى للخلق وأيّ أصبـع تشبـه هذه اليـد وهـذه الأصبع حتى يكون اثبـاتهـا تشبيهـا وتمثيلا، فقاتل الله أصحاب التحريف والتأويل وأصحاب التخييـل (وأصحـاب التجهيل)[3] وأصحاب التشبيه والتمثيل ماذا حرموه من الحقـائق الإيـمانيـة والمعارف الإلهية، وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان ونخالة الأفكار، فما اشبههم بمن كان غذاؤ هم المن والسلوى بلا تعب ولا كلفة، فآثروا عليه الثوم والعدس والبصل[4] وقد جرت عادة الله سبحانه أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى، ويجعله عبرة للعقلاء، فأول هذا الصنف ابليس، ترك السجـود لآدم كِبراً، فابتـلاه الله بالقيـادة لفسـاق ذريتـه[5]، وعبـاد الأصنـام لم يقـروا بنبي من البشر ورضوا بآلهة من الحجر[6] والجهمية

(١) رواه ابن مندة في الرد على الجهمية موقوفا على وهب بن منبه ح ٦٧ ص ٨٦.

(٢) البخاري ـ كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾. فتح البارى ١٣/٣٩٣ ح ٧٤١٥، وبـاب قول الله تعـالى: ﴿إن الله يمسـك السموات والأرض ان تزولا﴾ فتح البارى ١٣/٤٣٨ ح ٧٤٥١، ومسلم ـ كتاب المنافقين ٤/٢١٤٨ ح ٢١.

ابن خزيـة في التـوحيـد ص ٧٦، والبيهقي في الأسماء والصفـات ص٣٣٣، وابن منـدة في الرد على الجهمية ص٨٢ ح ٦٢، ٦٣، ٦٤.

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائهـا وفـومهـا وعـدسهـا وبصلهـا قال أتستبـدلـون الـذي هو ادنى بالذي هو خير...﴾ البقرة آية ٦١.

(٥) يقـول الله تعـالى: ﴿فسـجـد المـلائكـة كلهم اجمعـون. الا ابليس أبى ان يكـون مع السـاجـدين...﴾ إلى قولـه: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وان جهنم لموعدهم أجمعين﴾ الحجر آيات ٣٠-٤٣، وغير ذلك من الآيات.

(٦) يقول الله تعالى في ذلك في قصة إبراهيم مع قومه: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ الأنبياء/ آية ٥٢-٥٤.

نزهـوا الله عن عرشـه لئـلا يحويه مَكان، ثم جعلوه في الآبار والأنجاس وفي كل مكـان[1]، وهكـذا طوائف البـاطـل لم يرضـوا بنصوص الوحي فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين وورثة الصابئين، وأفراخ الفلاسفة الملحدين ﴿**من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا**﴾[2].

---

(١) الرد على الجهمية ـ للدارمي ص١٨.
(٢) الكهف / ١٧.

الفصل العشرون

في الأسباب التي تسهل على النفوس الجاهلة[1] قبول التأويل مع مخالفته «للبيان»[2] الذي علمه الله الإنسان وفطره على قبوله

التأويل يجرى مجرى مخالفة الطبيعة الإنسانية والفطرة التي فطر عليها العبد، فإنه رد الفهم من جريانه مع الأمر المعتاد المألوف، إلى الأمر الذي لم يعهد ولم يؤلف، وما كان هذا سبيله فإن الطباع السليمة لا تتقاضاه[3] بل تنفر منه وتأباه، فلذلك وضع له أربابه أصولا، ومهدوا له أسبابا تدعو إلى قبوله وهي :

السبب الأول : أن يأتي به صاحبه مموها مزخرف الألفاظ، ملفق المعاني مكسوا حلة الفصاحة، والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته.

قال الله تعالى : ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، ولو شاء ربك ما**

---

(١) في الأصل «الجاهلية» والتصحيح من «ل».

(٢) ما بين القوسين من «ل».

(٣) لا تتقاضاه ـ أي ـ لا تقبله . مختار الصحاح مادة «قضى».

فعلوه فذرهم وما يفترون﴾(١) فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول فيغتر به الأغمار(٢) وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل .

ثم ذكر انفعال هذه النفوس الجاهلة عنه بصغوها وميلها إليه، ورضاها به، لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولا وعملا، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات المستحسنة، وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك (حتى ان الفجار)(٣)ليسمعون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح(٤)، ويسمون اللقمة (الكفرية)(٥) التي هي الحشيشة(٦) لقيمة الذكر والفكر (الذي)(٧) يثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن. ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس (الطيبة)(٨)، حتى ان بعضهم لما عذل عن شيء من ذلك قال لعاذ له ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظنّ برحمة الله وجرأة

(١) الأنعام / اية ١١٢.
(٢) (الأغمار) رجل «غمر» بسكون الميم وضمها أي لم يجرب الأمور مختار الصحاح «غمر» .
(٣) في الأصل «جيران» والتصحيح من «ل».
(٤) أم الخبائث ـ هي الخمر كما سماها رسول الله ﷺ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنه يأتي في آخر الزمان من يسميها بغير أسمها ـ وقد كثر في هذا الزمان تسمية المسكرات بأسماء متعددة، وفي زمن ابن القيم وقبله سموها (بأم الأفراح) وفي العصر الحاضر تسمى بالمشروبات الروحية. . . الخ.
(٥) في المختصر «الملعونة».
(٦) (التي هي الحشيشة) من المختصر .
(٧) في «ل» التي .
(٨) في الأصل «الطبيعة» والتصحيح من «ل».

على سعة عفوه ومغفرته ، فانظروا ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلىء بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة .

فصـــــل

السبب الثاني : أن يخرج المعنى الذي يريد ابطاله بالتأويل في صورة مستهجنة تنفر عنها القلوب ، وتنبوا عنها الأسماع ، فيخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولا إلى القلوب ، وأشدها نفرة عنها . فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ ، فيسمى التدين ثقالة(١) ، وعدم الأنبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين سوء خلق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والغضب لله ، والحمية لدينه ، فتنة وشرا وفضولا ، وكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف ، هذا «معظم»(٢) ما يُنَفِّرُون به عن الحق ، ويدعون به إلى الباطل ، فيسمون إثبات صفات الكمال لله تشبيها وتجسيما وتمثيلا(٣) ، ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيبا ، ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزا وتجسيما ويسمون العرش حيزا وجهة ، ويسمون الصفات اعراضا ، والافعال حوادث ، والوجه واليدين أبعاضا ، والحكم والغايات التي تفعل لأجلها أغراضا ، فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة الشنيعة ، تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه ، فقالوا للأغمار(٤)

---

(١) في «ن» مقالة .

(٢) في «ل» تعظم .

(٣) فيظن السامع لمثل هذا الكلام والذي لا علم عنده ان هذا القول صحيح فيقع في حبائلهم ، ولو علم مذهب أهل الحق في ذلك وهو إثبات هذه الصفات لله كما أثبتها لنفسه على أساس قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ لنجى من تلبيساتهم الباطلة ، وهكذا بقية ما جاء ذكره في الصفحات التالية من تلبيساتهم وتمويههم على من لا يعرف باطلهم ، ولا علم عنده بمذهب سلف الأمة في هذا الباب .

(٤) الأغمار : الذين لم يجربوا الأمور ، وتقدم شرحها .

والأغفال : غفل عن الشيء : تركه . مختار الصحاح . غفل ، وفي المختصر : فقالوا لضعفاء =

والأغفال : اعلموا أن ربكم منزه عن الأعراض والأغراض والابعاض والجهات والتركيب والتجسيم والتشبيه، فلم يشكَّ أحدٌ لله في قلبه وقار وعظمة في تنزيهه الرب تعالى عن ذلك، وقد اصطلحوا على تسمية سمعه وبصره وعلمه وقدرته وارادته وحياته أعراضاً، وعلى تسمية وجهه الكريم ويديه المبسوطتين أبعاضاً، وعلى تسمية استوائه على عرشه وعلوه على خلقه وأنه فوق عباده تحيزاً، وعلى تسمية نزوله إلى سماء الدنيا وتكلمه بقدرته ومشيئته إذا شاء وغضبه بعد رضاه ورضاه بعد غضبه حوادث، وعلى تسمية الغاية التي يفعل ويتكلم لأجلها غرضاً، واستقر ذلك في قلوب «المتلقين»[١] عنهم، فلما صرحوا لهم بنفي ذلك بقي السامع متحيرا أعظم حيرة بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسه، وأثبتها له جميع رسله، وسلف الأمة بعدهم، وبين إثباتها، وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقاه عنهم[٢]، فمن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم من فر إلى التعطيل ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله[٣] وكشف زيف هذه الألفاظ، وبين زخرفها وزغلها[٤]، وأنها ألفاظ مموهة بمنزلة طعام طيب الرائحة في اناء حسن اللون والشكل ولكن الطعام مسموم، فقالوا ما قاله إمام السنة باتفاق أهل السنة أحمد بن حنبل

= العقول : وهم الأغمار، الذين لم يجربوا الأمور ومثلهم المغفل الذى لا يفهم شيئا بل يسمع تلك المقالة فيتبعها .

(١) في «ل» «المبلغين» بالغين المعجمة .

(٢) وذلك بقلبهم حقائق الصفات وتسميتها بتلك الأسماء التي اصطلحوا عليها والتي ينزه الله عنها كل مؤمن بربه، لأن المؤمنين به يثبتونها له سبحانه وتعالى حقيقة كما اثبتها لنفسه على أساس قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ انظر في ذلك منهاج الاعتدال ص ١٠٨ .

(٣) انظر الفصل السابق على هذا ففيه توضيح أهل التخييل، والتعطيل، والتجهيل وأهل سواء السبيل .

(٤) زغل - بالزاي والغين المعجمة الشيء زَغْلاً وأزغله : صبَّه دفعا وَمجَّه. مختار الصحاح. مادة «زغل» .

«لا نُزيلُ عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين» ولما أراد المتأولون المعطلون تمام هذا الغرض اخترعوا لأهل السنة الألقاب القبيحة، فسموهم(١) حشوية(٢) ونوابت، ونواصب، ومميزة، ومجسمة ومشبهة(٣).

---

(١) في الأصل ـ وسموه، وفي «ل» فسموهم، وكذا المختصر.

(٢) «الحشوية» هذا اللقب القبيح أطلقه الجهمية المعطلة ومن سلك مسلكهم على أهل السنة أهل الحديث الذين يثبتون لله كل صفة أثبتها لنفسه في كتابه أو أثبتها له رسول الله ﷺ في سنته الصحيحة، والقصد من ذلك تنفير الناس عنهم، ويعنون بذلك ان أهل السنة والحديث من حشو الناس وسقطهم فلا يعتد بكلامهم في العقيدة، لأنهم لم يتعمقوا تعمقهم في التأويل، ولا ذهبوا مذاهبهم في الإنكار والتعطيل، فكل من آمن بظواهر النصوص، ولم يصرفها عن ظاهرها فهو حشوي بعيد عن التحقيق.

وهناك قول آخر لمعنى الحشوي. وهو انهم لما أثبتوا ان الله في السماء كما نص عليه القرآن، وحديث الجارية في صحيح مسلم، فهموا من ان الحرف «في» من قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ للظرف فهم حشوية لأنهم جعلوا ربهم حشو هذا الكون.

وأهل السنة يبرؤن إلى الله من ذلك وإنما هذا بهت لهم بما لم يقله أحد منهم، وأسمع لقول المؤلف في قصيدته النونية في هذا الموضوع:

ومن العجائب قولهم لمن اقتدى ... بالوحي من أثر ومن قرآن

حشوية يعنون حشوا في الوجو ... د وفضلة في أمة الإنسان

ويظن جاهلهم بأنهم حشوا ... رب العباد بداخل الأكوان

إذ قولهم فوق العباد وفي السماء ... الرب ذو الملكوت والسلطان

ظن الحمير بأن في للظرف والـ ... ـرحمن محويٌّ بظرف مكان

ثم يبين أن أهل السنة براء من هذا القول المفترى بل غيرهم من الأمم السابقة لم يعرف عنهم مثل هذا فيقول:

والله لم يسمع بذا من فرقة ... قالته في زمن من الأزمان

لا تبهتوا أهل الحديث به فما ... ذا قولهم تبا لذي البهتان

بل قولهم ان السموات العلى ... في كف خالق هذه الأكوان

حقا كخردلة ترى في كف ... ممسكها تعالى الله ذو السلطان

أترونه المحصور بعد أم السما ... ياقومنا ارتدعوا عن العدوان

النونية مع شرحها ١/ ٣٣٠.

وانظر مقدمة الكوثري لتبيين كذب المفتري / لابن عساكر من ص١٥-١٩ في وصف الحشوية. وحاشية ص٩٢.

وانظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص١١٤-١١٥.

(٣) ويقول في وصفهم لأهل السنة، بأنهم مجسمة، ومشبهة، ونوابت، سبالهم بهذه الألقاب تنفيرا =

ونحو ذلك، فيتولد من تسميتهم لصفات الرب تعالى، وأفعاله ووجهه ويديه وحكمته بتلك الأسماء، وتلقيب من أثبتها له بهذه الألقاب «ولعن أهل الإثبات من أهل السنة»[1] وتبديعهم وتضليلهم، وتكفيرهم وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقى الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم[2] وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها[3].

فصل

السبب الثالث : أن يعزو المتأول تأويله وبدعته إلى جليل القدر نبيه الذكر من العقلاء، أو من آل البيت النبوي، أو من «حصل»[4] له في الأمة

= منهم، فيسمونهم مجسمة لأنهم لما اعتقدوا علو الله تعالى على خلقه مستو على عرشه ـ فقالوا: جعلتموه جسما متحيزا حالا بالمكان ثم يسمونهم مشبهة ـ لأن من أثبت الصفات كما وردت في القرآن والسنة الصحيحة اعتبروه مشبها.

واحيانا يسمونهم: نوابت، ويعنون بذلك، أنهم نبتوا في الإسلام بأقوال بدعية يقول المؤلف في ذلك في النونية ١/٣٣٢.

كم ذا مشبهة مجسمة نوا ... بتة مسبة جاهل فتان
أسماء سميتم بها أهل ... الحديث وناصرى القرآن والإيمان
سميتموهم أنتم وشيوخكم ... بهتا بها من غير ما سلطان
وجعلتموها سبة لتنفروا ... عنهم كفعل الساحر الشيطان
ما ذنبهم والله إلا أنهم ... أخذوا بوحي الله والفرقان

إلى أن قال:

والله ما قال امرؤ منا بأن ... الله جسم يا أولى البهتان
والله يعلم أننا في وصفه ... لم نعد ما قد قال في القرآن
أو قاله أيضا رسول الله فهو ... الصادق المصدوق بالبرهان

... الخ.

(١) في الأصل وفي «ل» (لعنة أهل الإثبات والسنة) والتصحيح من المختصر.

(٢) انظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١١٣.

(٣) وواقع الحال في أيامنا هذه يثبت ذلك، فكتب تنشر ومقالات تكتب للطعن على من يثبت لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ.

(٤) في الأصل وفي «ل» (حل) بالحاء واللام، والتصحيح من المختصر.

ثناء جميل، ولسان صدق ليحلّيه بذلك في قلوب الأغمار والجهال فإنه من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه، وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم، حتى انهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله، ويقولون هو أعلم بالله ورسوله منا، وبهذه الطريق توصل الرافضة(١) والباطنية(٢) والاسماعيلية(٣)، والنصيرية(٤) إلى تَنْفِيق باطلهم وتأويلاتهم، حتى أضافوها إلى أهل بيت

(١) يقول الذهبي في اختصاره لمنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية في المنتقى ص١٩ في رده على الرافضة الإمامية قال في وصفهم: اكذب الناس في النقليات وأجهل الناس في العقليات، ولهذا كانوا عند العلماء اجهل الطوائف، وقد دخل منهم على الدين من الفساد مالا يحصيه إلا رب العباد، والنصيرية والإسماعيلية والباطنية من بابهم دخلوا، والكفار والمرتدة بطريقهم وصلوا. فاستولوا على بلاد الإسلام وسبوا الحريم وسفكوا الدم الحرام. اهـ.

وقد أورد ابن كثير في البداية والنهاية ١٣ / ٢٠١ في حوادث سنة ٦٥٦هـ أن من الرافضة الذين تسببوا في سفك دماء مئات الآلاف من أهل السنة ـ الوزير ابن العلقمي، ونصير الدين الطوسي فإن ابن العلقمي خان الخليفة العباسي المستعصم بالله، حيث كاتب التتار واطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك وحكى لهم حقيقة الحال وكشف لهم ضعف الرجال وذلك كله طمعا منه ان يزيل السنة بالكلية وان يظهر البدعة الرافضة وان يقيم خليفة من الفاطميين... الخ انظر تفصيل ذلك في الصفحة المشار إليها وما بعدها.

(٢) سبق أن أشرنا إلى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من ان ـ الباطنية ـ عن طريق الرافضة دخلوا على الإسلام فافسدوا فيه ما افسدوا، ويقول الغزالي في كتابه فضائح الباطنية مما يؤكد قول ابن تيمية قال ـ «الباب الرابع في نقل مذهبهم جملة وتفصيلا» أما جملة: فهو أنه مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض، ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم، ثم مضى في ذكر معتقداتهم التي تبين كفرهم الصريح. انظر فضائح الباطنية ص ٣٧ وما بعدها.

والفرق بين الفرق ص ٢٨١ ـ ٣١٣.

(٣) الاسماعيلية ـ فرقة من الشيعة، وهي تثبت الإمامة لإسماعيل بن جعفر مع اتفاق أصحاب التواريخ على موت اسماعيل في حياة أبيه، كما يقول البغدادي. ومنهم من قال بموته، ومنهم من قال: انه لم يمت وإنما أظهر موته تقية عليه حتى لا يقصد بالقتل. ويقول الشهرستاني: أن لهم ألقابا وأشهرها: الباطنية، وذلك لقولهم: ان لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا، قال ـ ففي العراق يسمون: الباطنية والقرامطة، والمزدكية، وفي خراسان: التعليمية والملحدة، وهم يقولون: نحن الاسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم، وهذا الشخص، ثم ذكر بعض معتقداتهم.

انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ / ١٩١ـ١٩٨، والفرق بين الفرق للبغدادي ١ / ٦٢ـ٦٣.

(٤) النصيرية: من غلاة الشيعة، ولهم أقوال في اطلاق اسم الالهية على الأئمة من أهل البيت، ورئيس الفرقة محمد بن نصير النميري، ادعى أنه نبي بعثه أبو الحسن العسكري، وكان يقول بالتناسخ =

رسول الله ﷺ لما علموا أن المسلمين متفقون على محبتهم وتعظيمهم، وموالاتهم، واجلالهم فانتموا إليهم، وأظهروا من محبتهم وموالاتهم واللهج بذكرهم وذكر مناقبهم ما خيل إلى السامع أنهم أولياؤ هم، و«أولى»[1] الناس بهم، ثم نَفَّقُوا باطلهم وافكهم بنسبته إليهم، فلا إله إلا الله كم من زندقة والحاد، وبدعة وضلالة قد نَفَقَتْ في الوجود بنسبتها إليهم، وهم برآء منها براءة الأنبياء من التجهم والتعطيل، وبراءة المسيح من عبادة الصليب والتثليث، وبراءة رسول الله ﷺ من البدع والضلالات وإذا تأملت هذا السبب رأيته هو الغالب على أكثر النفوس «وليس»[2] معهم سوى إحسان الظن بالقائل بلا برهان من الله ولا حجة قادتهم إلى ذلك، وهذا ميراث بالتعصيب من الذين عارضوا دين الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف[3]، فإنهم لحسن ظنهم بهم وتعظيمهم لهم، آثروا ما كانوا عليه على ما جاءتهم به الرسل، وكانوا أعظم في صدورهم من أن يخالفوهم ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كل مقلد لمن يعظمه فيما خالف فيه الحق إلى يوم القيامة[4].

= والغلو في أبي الحسن ويقول بربوبيته، ويقول بإباحة المحارم ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضا . . . الخ
انظر الملل والنحل ١/١٨١ وتعليق محب الدين الخطيب على المنتقى ص ٩٧ حاشية (١).

(١) في الأصل (وأولياء) والتصحيح من «ل».

(٢) في «ل» فليس ـ بالفاء.

(٣) الأباء والأسلاف هم الذين عارضوا الرسل وأهلكهم الله، كان رأس مالهم ما حكاه الله عنهم في آيات كثيرة، وهو ما ورثوه عن آبائهم من التقليد الأعمى، كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا وجدنا ءاباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون. قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءاباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون﴾. الزخرف / ٢٣، ٢٤.

يوضح ذلك قول أبي جهل وعتبة بن ربيعة لأبي طالب حينما حضرته الوفاة وجاءه رسول الله ﷺ وقال له: ياعم قل لا إله إلا الله احاج لك بها عند الله، فقالا له: اترغب عن ملة عبد المطلب.

(٤) وقد جاء بعدهم من دخل في الإسلام لا محبة فيه وإنما للكيد له، فأدخلوا فيه عقائد باطلة وافكاراً سيئة لغرض هدم قواعده الأساسية ألا وهو الطعن في كتاب الله بتحريفه وتغيير مادلت عليه نصوصه الصريحة، وكذا سنة رسوله ﷺ الصحيحة، وقد ورث عنهم هذه المبادىء الهدامة ـ الرافضة، والباطنية، =

فصـــــل

السبب الـرابـع : أن يكـون ذلـك التأويـل قد قبله ورضيه مبرز في صناعة من الصناعات، أو علم من العلوم الدقيقة أو الجليلة، فيعلوله بما برز به ذكر في الناس ويشتهر له به صيت، فإذا سمع الغمر[1] الجاهل بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له، أحسن الظن به وارتضاه مذهبا[2] لنفسه، ورضي من قَبْله إماماً له وقال : انه لم يكن ليختار مع جودة قريحته وذكـائـه وصحـة ذهنـه ومهـارتـه بضـاعتـه وتبريزه فيها على بني جنسه إلا الأصـوب والأفضـل من الاعتقـادات، والأرشـد والأمثـل من التأويلات، وأين يقع اختياري من اختياره، فرضيت لنفسي ما رضيه لنفسه، فإن عقله وذهنه وقريحته إنما تدله على الصواب، كما دلته على ما خفى عن غيره من صناعته وعلمه[3].

وهـذه الآفـة قد هلك[4] بها أمم لا يحصيهم إلا الله، رأوا الفـلاسفة قد برزوا في العلوم الـريـاضية والطبية، واستنبطوا بعقولهم وجودة قرائحهم وصحـة أفكـارهم ما عجـز أكثـر النـاس عن تعلمـه، فضلا عن استنباطه

= والاسـماعيليـة، والنصـيريـة، وكلهـا تنتشر باسم آل بيت رسول الله ﷺ وهذه الفرق وما تفرع عنها من فرق ضالة مضلة ورثت ما تركه اسلافهم من أفكار الوثنيين اليونانيين والمجوس الصابئين، واليهود الحاقدين الذين أدخلوا في العقائد الإسلامية أمورا غريبة قصدوا بها افساد هذا الدين فتقبل منهم الرافضة وكل الفرق المنحرفة تلك الأفكـار الهـدامـة لعقائد الإسلام الصافية النقية فحرفوا بها كتاب الله، وسنة رسوله الصحيحة، فتحقق لأعـداء الإسـلام ما أرادوا بواسطـة تلك الفـرق التي لبست ثوب الإسـلام فضلت وأضلت، حيث أخـذت ميراث أسلافهم كاملا، فهم عصبتهم التي حازت ذاك الميراث السيء كله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. انظر الفصل في الملل والنحل ج ٢/ ١٠٠ لابن حزم.

(١) الغمر : تقدم شرحها.
(٢) في الأصل (تنزيها) والتصحيح من «ل».
(٣) سيذكر المؤلف بعد هذا الأمثلة لهذا التقليد.
(٤) في الأصل (الأزقد تملك) والتصحيح من «ل».

فقالوا : للعلوم الالهية والمعارف الربانية[1] أسوة بذلك ، فحالهم فيها مع الناس كحالهم في هذه العلوم سواء ، فلا إله إلا الله كم أهلكت هذه البلية من أمة ، وكم خربت من دار ، وكم أزالت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وجرأت كثيراً من النفوس على تكذيب الرسل ، واستجهالهم ، وما عرف أصحاب هذه الشبهة أن الله سبحانه قد يعطى أجهل الناس به وبأسمائه وصفاته وشرعه من الحذق في العلوم الرياضية ، والصنائع العجيبة ما تعجز عنه عقول (أعلم)[2] الناس به ، ومعارفهم ، وقد قال النبي ﷺ «أنتم أعلم بدنياكم»[3] ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه ، فإن العلوم الرياضية والهندسية ، وعلم الارثماطيقي والموسيقى وجغرافيا وأيرن وهوعلم جر الأثقال ، ووزن المياه ، وحفر الأنهار ، وعمارة الحصون وعلم الفلاحة ، وعلم الحميات ، وأجناسها ، ومعرفة الأبوال[4] وألوانها وصفاءها وكدرها ، وما تدل عليه ، وعلم الشعر وبحوره وعلله وزحافه وعلم الغنيطة[5] ونحو ذلك من العلوم ، هم أعلم بها وأحذق منها[6] ، وأما العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك فإلى الرسل ، قال الله تعالى : ﴿**وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾[7] .

---

(١) في الأصل (الزمانية) بالزاي والميم والنون والياء المثناة من تحت والتصحيح من «ل» .

(٢) (أعلم) من «ل» .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل . باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا . ح (٢٣٦٣) ٤/١٨٣٦ وأحمد في المسند ٦/١٢٣ ، وابن ماجة في كتاب الرهون ، باب تلقيح النخل ح (٢٤٧١) ٢/٨٢٥ .

(٤) في الأصل (الأنوار) والمثبت من «ل» والسياق يدل عليه .

(٥) وفي الأصل (العطه) وكلها غير واضحة وإن كان المقصود تسمية علم من العلوم .

(٦) هكذا في الأصل ولعل الأولى «لها» بدل منها .

(٧) الروم / ٦ ، ٧ .

قال بعض السلف : «يبلغ من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفـره، فيعلم وزنـه، ولا علم له بشيء من دينـه، وقـال تعـالى في علوم هؤلاء واغـترارهم بها : ﴿**فلما جاءتهم رسلهم بالبينـات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾[1]، وقد فاوت الله سبحانه بين عبـاده فيـما تنـالـه عقـولهم وأذهانهم أعظم تفاوت، والعقل يعطى صاحبه فائـدتـه في النوع الذي يلزمه به، ويشغله به، ويقصره عليه ما لا يعطيه في غيره، وإن كان غيره أسهـل منـه بكثـير كما تعطيه همته وقريحته في الصناعة التي هو معني بها، ومقصـود العنـايـة عليهـا ما لا يعطيـه في صنـاعة غيرها وكثـيرا ما تجد الـرجـل قد برز في اللطيف من أبواب العلم والنظر، وتخلف عن الجليـل فيهـا، وأصـاب الأغمض الأدق منها، وأخطأ الأجل الأوضح هذا أمر واقع تحت العيان، فكيف وعلوم الأنبياء ومعارفهم من وراء (أمـور)[2] العقـل، والعقـل وإن لم يستقـل بإدراكها فإنه لا يحيلها، بل إذا وردت عليه (أقَرَّ)[3]، وبادر إلى[4] قبولها، وأذعن بالانقياد إليها (وعلم أن نسبـة العلوم التي نالهـا النـاس بأفكارهم إليها)[5] دون نسبة علوم الصبيان ومعارفهم إلى علوم هؤلاء بما لا يدرك .

---

(١) غافر ٨٣.

(٢) في «ل» (طور) بالطاء.

(٣) (أقر) من «ل».

(٤) في الأصل (بادراك) والتصحيح من «ل».

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ل».

فصـــــل

السبب الخـامس : (الإغـراب عن النفـوس بما لم تكن عارفة به من المعاني الغريبة)[1] التي إذا ظفر الذهن بإدراكها ناله لذة من جنس لذة الظفر بالصيد الوحشي الذي لم يكن يطمع فيه، وهذا شأن النفوس، فإنها موكلة بكـل غريب تستحسنـه وتؤثـره وتنـافس فيه، حتى إذا كثر ورخص، وناله المثـري والمقـل زهـدت فيـه (وأعْـرضَت عنه)[2] مع كونه أنفع لها وخيرا لها ولكن لرخصـه وكثـرة الشـركـاء فيه، تزهد فيه وتطلب ما (تتميز به)[3] عن غيرها، للذة التفرد والاختصاص، ثم اختاروا لتلك المعاني الغريبة ألفاظا أغـرب منهـا، وألقَوْهَا في مسامع الناس وقالوا : ان المعارف العقلية والعلوم اليقينيـة (تحتهـا)[4] فتحـركت النفـوس لطلب فهم تلك الألفـاظ الغـريبة وادراك تلك المعاني، واتفق أن صادفت قلوبا خالية من حقائق الإيمان، وما بعث الله به رسوله، فتمكنت منها، فعز على أطباء الأديان استنقاذها منها وقد تحكمت فيها كما قيل :

تا الله ما أسَـرَ الهـوى من واثـق إلا وعَـزّ على الـورى استنقـاذه

ولما كان الاستغـراب وقبول النفس بكل غريب لهج الناس بالأخبار الغـريبـة وعجـائب المخلوقـات، والألغـاز والاحاجي والصور الغريبة وإن كانت المألوفة أعجب منها، وأحسن، وأتم خلقه .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الأصل وهو في «ل».
(٢) في الأصل (ما مهر به) والتصحيح من «ل».
(٣) في الأصل (عنها) والتصحيح من «ل».
(٤) قوله (تحتها) لعله يريد أن العلوم تحت تلك الألفاظ الغريبة، وهو الظاهر من السياق.

فصــــل

السبب السادس : تقديم مقدمات قبل التأويل تكون كالأَطْنَابِ والأوتادِ لفسطاط ، **فمنها** ذم أصحاب الظواهر وعيبهم والإزراء بهم ، وأنهم قوم جهال (لا عقول)[1] لهم ، فإنما هم أصحاب ظواهر سمعية وينقلون من مثالبهم وبلههم ما بعضه صدق وأكثره كذب ، كما يحكى أن بعضهم سئل عن قوله : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ هل هو حقيقة أو مجاز قال : لا حقيقة ولا مجاز، فقال له جزاك الله عن ظاهريتك خيرا .

وأمثال هذا ، ويحكون عنهم انكار أدلة العقول ، والبحث والنظر وجدال أهل الباطل ، والنفوس طالبة للنظر والبحث والتعقل .

ومنها قولهم : ان الخطاب بالمجاز والاستعارة أعذب وأوفق وألطف ، وقد قال بعض أئمة النحاة : أكثر اللغة مجازا (فإذا كان أكثر اللغة مجازا)[2] سهل على النفوس أنواع التأويلات ، فقل ما شئت وأول ما شئت ، وأنزل عن الحقيقة ولا يضرك أي مجاز ركبته .

ومنها قولهم : ان أدلة القرآن والسنة أدلة لفظية وهي لا تفيد علما ولا يقينا ، والعلم إنما يستفاد من أدلة العقول وقواعد المنطق .

ومنها قولهم : إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل على النقل فهذه المقدمات ونحوها هي أساس التأويل ، فإذا انضمت هذه الأسباب بعضها إلى بعض وتقاربت ، فيا محنة القرآن والسنة ، وقد سلك في قلوب قد تمكنت منها هذه الأسباب فهنالك التأويل والتحريف والتبديل والاضمار والاجمال .

---

(١) في «ل» (لا معقول لهم) .

(٢) ما بين القوسين من «ل» .

الفصل الحادي والعشرون

في بيان أن أهل التأويل لا يمكنهم إقامة الدليل السمعي على مبطل أبداً

هذا من أعظم آفات التأويل وجنايته على الإسلام أنه يبطل حجج الله (على المبطلين على أَلْسِنَـةِ المتأولـين، وإلا فلا تبطـل حجـج الله)[1] وبيناته أبداً ..

ومن المعلوم أن كل منكـر أنكـر على خصمـه شيئـا من البـاطل وقد شاركــه في بعضـه أو في نظـيره، فإنـه لا يتمكن من دحض حجتـه وكسـر باطله، لأن خصمه يُسلط عليه (بمثل)[2] ما تسلط هو به عليه، (وهذا شأن)[3] أهـل الأهـواء مع بعضهـم بعضا، ولهذا كان غاية ما يأتون به أبداً يناقض بعضهم بعضا، وكسر أقوال بعضهم ببعض، وفي هذا منفعة جليلة لطالب الحق فإنه يكتفى بابطال كل فرقة لقول الفرقة الأخرى، فيقول إذا احتـج المتأول بِحُجَّـةٍ سمعيـة على مبطل، أمكن خصمه أن يقول له : أنا أتأول هذه الحجة كما تأولت أنت كيت وكيت .

مثـاله أن يحتج من يتأول الصفات الخبرية، وآيات الفوقية والعلو[4] على من ينكـر ثبـوت صفة السمع والبصر والعلم[5]، بالآيات والأحاديث الدالة على ثبوتها .

(١) ما بين القوسين ساقط من الأصل وأثبتناه من «ل» .

(٢) في الأصل (على) والتصحيح من «ل» .

(٣) في الأصل (وهو المار) والتصحيح من «ل».

(٤) كالأشاعرة والماتوريدية .

(٥) كالجهمية ومن قال بقولهم .

فيقـول له خصمـه : هذه عنـدي مؤولـة ، كما أولت أنت نصـوص الاستـواء والفـوقيـة والـوجـه واليـدين ، والنـزول ، والضحـك ، والفرح ، والغضب والرضا ، ونحوها ، فما الذي جعلك أولى بالصواب في تأويلك مني[1] .

فلا يذكر سببا حمله على التأويل إلا أتاه خصمه بسبب من جنسه أو أقوى منه أو دونه يحمله على التأويل .

وإذا استـدل المتأول على منكـرى المعاد وحشر الأجساد[2] بنصوص الوحي ، ابدوا لها تأويلات تخالف ظاهرها وحقائقها ، وقالوا لمن استدل بها عليهم : تأويلنـا لهذه الظـواهر كتأويلك لنصوص الصفات ، ولاسيما فإنها أكثر وأصْرَح ، فإذا تطرق التأويل إليها فهو إلى ما دونها أقرب تطرقا .

وإذا استدل على الرافضة بالنصوص الدالة على فضل الشيخين[3] وسـائـر الصحـابـة ، تأولـوهـا بما هو من جنس تأويـلات الجهمي (لآيـات الصفات ، وقد تكون تأويلاتهم في كثير من المواضع أقوى من تأويلات الجهمي)[4] كما تكون مثلها ودونها .

وإذا احتـج الجهمي على الخـارجي بالنصـوص الـدالـة على إيمان

---

(١) ولو سلك مسلك أهل الحق والصواب وأثبت لله كل ما أثبته لنفسه في كتابه ، وأثبته له رسوله ﷺ في سنته الصحيحة من صفات الكمال ونعوت الجلال على أساس قوله تبارك وتعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، لما ورد عليه هذا الالزام ، وهو لازم له ، لأن الصفات التي أولها في الثبوت وما تدل عليه ، مثل التي أثبتها ، فصفة السمع والبصر والعلم وردت في كتاب الله ، وكذلك نصوص الاستواء والوجه واليدين والرضا وردت في كتاب الله ، والمؤمن الحق لا يفرق بين الثابت في كتاب الله تعالى لأن الجميع اخبار من الله سبحانه عن نفسه واخبار الله كلها حق وصدق ، والله المستعان .

(٢) كالفلاسفة القائلين بأن المعاد روحاني .

(٣) ومن الرافضة : الشيعة الامامية .

(٤) ما بين القوسين ليس في الأصل وأثبتناه من «ل» .

مرتكب الكبائر وأنه لا يكفر ولا يخلد في النار[1]، واحتج بها على الوعيدية القـائلين بنفـوذ الـوعيد والتخليد[2]، قالوا : هذه متأولة وتأويلها أقرب من تأويل نصوص الصفات .

وإذا احتـج على المـرجئـة[3] بالنصوص الدالة على أن الإيمان قول

---

(١) الخوارج في الأصل : هم الذين خرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن عقائدهم تكفير مرتكب الكبيرة في الدنيا والآخرة، فهو في الدنيا كافر لا يرث ولا يورث ولا يدفن في مقابر المسلمين، وفي الآخرة مخلد في النار، وقد استندوا إلى أدلة من القرآن والسنة، كآيات الوعيد وأحاديثها كقوله تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ . النساء/ ٩٣.

ومن السنة كقوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» .

فحملوا ذلك على أنه كافر مادام نفى عنه الإيمان .

وأهـل السنـة والجـماعـة بينوا معنى هذه الأحاديث وان المنفي هو الإيمان الكامل، وأن القاتل ومرتكب الكبيرة دون الشرك لا يكفر ولا يخرج بذلك من الإسلام لقوله تعالى : ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فكل ذنب دون الشرك تحت المشيئة .

ثانيـا : لقـولـه ﷺ في حديث أبي ذر : «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وفيه : وان زنى وان سرق ثلاثا، فقال : وان زنى وان سرق» أخرجه البخاري .

فمرتكب الكبيرة إن شاء الله عذبَّه بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة، وإن شاء الله عَفى عنه من أول وهلة . والله أعلم .

(٢) وهم المعتزلة : بناء على أحد أصولهم الخمسة : وهو القول بانفاذ الوعيد إذ يوجبون على الباري سبحـانـه وتعـالى، بأن يخلد العصـاة في النـار، فقد خالفوا الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة في الدنيا فجعلوه في منـزلـة بين المنـزلـتين، أما في الآخرة فوافقوا الخوارج في الحكم عليه بالخلود في النار. انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٦٦٦ ط الأولى سنة ١٣٨٤هـ تحقيق عبد الكريم عثمان .

(٣) الارجاء في اللغة يأتي على معنيين :

الأول : التأخـير، تقـول : أرجأت كذا، تريـد أخـرتـه، وفي القـرآن في قصة موسى عليه السلام : ﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾ أي أخره وأمهله .

والثاني : اعطاء الرجاء، تقول : أرجيت فلانا، تريد أنك اعطيته الرجاء .

فعلى المعنى الأول يكون تسمية المرجئة، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية وعقد القلب .

وعلى المعنى الثاني : لقولهم : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقـد جعلهم أبـو الحسن الأشعـري في كتـابـه مقالات الإسلاميين اثنتي عشرة فرقة . انظر ج ١/ ٢١٣ الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩هـ تحقيق محي الدين .

وعمـل ونيـة يزيـد وينقص، قالـوا : هذه النصوص قابلة للتأويل كما قبلته نصـوص الاستـواء والفوقية والصفات الخبرية، فنعمل فيها ما عملتم أنتم في تلك النصوص والقواعد التي حملتكم على تأويلها، عندنا قواعد حملتنا على تأويل هذه الظواهر .

وإذا احتـج أهـل الجبر[1] على أهل القدر[2] بالنصوص الدالة على أن (أعمال)[3] العباد مخلوقة لله واقعة بقدرته ومشيئته، تأولوها بنظير ما تأول به خصـومهم النصـوص الـدالة على أنها افعال للعباد حقيقة، وأنها واقعة بقدرتهم ومشيئتهم، وكذلك خصومهم معهم بهذه المثابة .

وإذا احتج من أثبت الرؤية في الآخرة من أهل التأويل[4]، على من نفاها[5] قال له : أنا أتأول هذه الظواهر بما تأولت به أنت آيات الصفات الخبرية وأحاديثها .

وإذا احتج من أثبت العلم بجميع المعلومات جزئياتها وكلياتها لله من

---

(١) الجبرية : أتباع الجهم بن صفوان، وهم القائلون بأن العبد مجبور على الأعمال، وأنه مثل الشجرة تحركها الرياح، ليس له أي اختيار في عمله، وهذا المذهب من أفسد المذاهب. فهو مصادم لنصوص الشريعة. ومسقط للتكاليف عن العباد، والقائلون به من أكذب الناس في تطبيقه على أنفسهم، فلو أن إنسانا ضرب جبريا، وقال له اني مجبور على هذا. لما رضي الجبري بذلك بل سوف ينتصر لنفسه ويطالب بحقه، وبهذا يظهر مخالفة هذا المذهب للفطرة البشرية وللشرع معا.

(٢) المقصود بأهل القدر هنا : هم المعتزلة القائلون بأن الله لا يقدر المعاصي ولا يشاؤها من عباده، وإنما العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، وقصدهم من ذلك تنزيه الباري سبحانه من أن يشاء المعاصي ويقدرها على العباد، ولكن وقعوا في ادهى مما فروا منه، حيث جعلوا مع الله شريكا يخلق كخلقه، وهذا من افبح الشرك، . انظر خلق افعال العباد للبخاري ص ١٧ .

(٣) (أعمال) من «ل».

(٤) مثل الأشاعرة الذين يثبتون الرؤية، ويؤولون الصفات الخبرية .

(٥) مثل المعتزلة الذين ينفون الرؤية .

أهـل التأويـل، بالنصـوص الدالة على ذلك[1]، قال له المنكر[2]: ليست هذه النصـوص بأكثـر من نصـوص الفوقية والعلو واستواء الرب على عرشه ونزول الأمر من عنده، وعروج الملائكة إليه، فإذا كانت تلك مؤولة عندك على كثرتها وتظافرها، فهذه أولى بقبول التأويل .

فقـد بان أنـه لا يمكن أهـل التأويل أن يقيموا على مبطل حجة من كتـاب ولا سنـة في شيء، وحينئـذ فيترك الاستدلال بالكتاب والسنة على كل مبطـل، ولم يبق لهم إلا تصـادم الآراء ونتـائج الأفكار لاسيما وقد أعطى الجهمي من نفسه أن أكثر اللغة مجاز، وأن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين وأن العقل إذا عارض السمع وجب تقديم العقل، والاعراض عن السمع واهداره .

ثم اما أن يشتغل بتأويله وهي طريقة الخلف العالمين[3] .

أو يفوضه، ولا يحتج به، وهي طريقة السلف السالمين[ ] .

(١) مثل أهل الكلام الذين يؤلون هذه الصفات التي ذكرها المصنف وهم الأشاعرة والماتوريدية ومن يسلك مسلكهم في هذا الباب .

(٢) وهم الفلاسفة الذين يقولون إن الله سبحانه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات .

(٣) ، (٤) يشـير المصنف بهذا إلى قول المتكلمـين ان طريقـة السلف أسلم وطـريقـة الخلف أعلم وأحكم، ذلك أن المتكلمين يظنون أن السلف رضوان الله عليهم في اثباتهم لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال انهم أثبتوها من غير فهم لمعانيها التي دلت عليها، وهذا الفهم السقيم من هؤلاء المتكلمين طعن في الصحابة ومن تبعهم بإحسان في إثبات هذه الصفات، لأن الذي لا يفهم معاني هذه النصوص الواردة في الكتاب والسنة يشبه الذي يحمل اسفارا لا يعلم ما فيها، وقد شبه الله اليهود الذين يحملون تلك الأسفـار ولا يعملون بما فيهـا بأخس خلق الله حيث قال : ﴿مثـل الـذين حملوا التـوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا﴾ .

والصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم يعلمون معانى تلك الأسماء والصفات ويعملون بما تضمنته فيدعون الله بها، وقد فسر الإمام مالك رحمه الله آية الاستواء حينما سئل عنها وهي قوله تعالى : ﴿الرحمن على العـرش استـوى﴾ كيف استـوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فقوله معلوم اي معلوم معناه من لغة العرب، ولكن الكيف مجهول، لأننا لا نعلم كيفية الذات، فكذلك كيفية الصفات، =

فكيف يقوم بعد هذا حجة من كتاب أوسنة على مبطل من العالمين
ولهذا كان فتح باب التأويل على النصوص يتضمن عيبها والطعن فيها

= وما قاله مالك في صفة الاستواء يقال في جميع الصفات على أساس قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

فالتفويض في كيفيات الصفات ، لا في معانيها ، وما ورد عن الأئمة من مثل قولهم في آيات الصفات وأحاديثها ، أمروها كما جاءت أي لا تتعرضوا لها بتأويل أو تحريف ، بل أثبتوها كما جاءت ، وذلك على معنى ما قاله الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء . والله أعلم .

أما طريقة الخلف ، فهي تأويل هذه الصفات الواردة في الكتاب وصحيح السنة وصرفها عن ظاهرها ، كتفسير الاستواء بالاستيلاء واليد بالقدرة وهكذا ، وقد استدلوا على تفسير الاستواء بالاستيلاء بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

والاستيلاء هو المغالبة ، ولا ندرى من الذي كان مستوليا على العرش حتى غلب عليه ، وهل يصح أن نفسر كلام الله بكلام لا يعرف له قائل .

وكتفسير اليد بالقدرة ، فإنه من أفسد التفسيرات ، ذلك أنه تعالى خلق آدم بيده ، وتلك فضيلة له على المخلوقات كما جاء في كتاب الله ، وثبت في سنة رسول الله ﷺ ، فتفسيرها بالقدرة يبطل معناها تماماً ، ولا تكون لآدم عليه السلام أي مزية على المخلوقات لأنها كلها خلقت بقدرته تعالى ، وقد قال الله في خلق آدم : ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ .

وانظر صحيح البخاري محاجة آدم وموسى ، كتاب القدر باب ١١ تحاج آدم وموسى عند الله ، فتح الباري ١١/٥٠٥ ح ١١١٤ .

ومسلم في القدر باب ٢ حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٢ ح/١٣ .

وابن ماجة المقدمة باب ١٠ ١/٣١ ح ٨٠ .

وأحمد في المسند ٢/٣٩٨ .

ومالك في الموطأ / القدر ص ٥٦٠ ح ٢ .

وابن منده في الرد على الجهمية ص ٦٨-٧١ ح ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

ولفظ الحديث فيها : عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «ان موسى عليه السلام قال لآدم - عليه السلام - ياآدم خلقك الله عز وجل بيده ونفخ فيك من روحه . . . » الحديث .

ومما يدل على أن طريقة السلف أعلم وأحكم رجوع كثير من علماء الكلام عن آرائهم عند وفاتهم ونصيحتهم لأتباعهم بترك علم الكلام والرجوع إلى مذهب السلف ، وذلك بعد تلك التجربة الطويلة من العمر في البحث في تلك المسائل ، كما هو ثابت عن الرازي والجويني وغيرهما .

فالناصح لنفسه يبدأ من حيث انتهى غيره وان كرر التجربة مرة أخرى فذلك العمل دليل على أن صاحبه لا يبالى بارتكاب العبث في تضييع الوقت والجهد ، وقد يدل على نقص في عقله وتفكيره .

وعزلها عن سلطانها، وولاية الأراء الباطلة والشبه الفاسدة .

بل نقول إنه لا يمكن أرباب التأويل أن يقيموا على مبطل حجة عقلية أبدا وهذا أعجب من الأول .

وبيانه : أن الحجج السمعية مطابقة للمعقول، والسمع الصحيح لا ينفك عن العقل الصريح، بل انهما اخوان نصيران (وصل)[1] الله بينهما وقرن أحدهما بصاحبه فقال الله تعالى : ﴿**ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه**[2] (. . . **وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾[3] .

فذكر ما ينال به العلوم، وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل، وقال تعالى :﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾[4] .

فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وقال تعالى : ﴿**ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾[5]، ﴿**ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾[6] وقال : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[7] فدعاهم إلى استماعه بأسماعهم وتدبره بعقولهم .

ومثله قوله : ﴿**أفلم يدبروا القول**﴾[8] وقال تعالى : ﴿**ان في ذلك**

---

(١) في الأصل (وكل) والتصحيح من «ل» .
(٢) من هنا يبدأ السقط من الأصل، وستأتي الإشارة إلى نهايته .
(٣) الأحقاف / آية ٢٦ .
(٤) الملك / آية ١٠ .
(٥) يونس / آية ٦٧ .
(٦) الرعد /آية ٤ .
(٧) محمد / آية ٢٤ .
(٨) المؤمنون / آية ٦٨ .

لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد﴾[1] .

فجمع سبحانه بين السمع والعقل وأقام بينهما حجته على عباده فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلا ، فالكتاب المنزل والعقل المدرك حجة الله على خلقه[2] ، وكتابه هو الحجة العظمى ، فهو الذي عرفنا ما لم يكن لعقولنا سبيل إلى استقلال بادراكه أبدا ، فليس لأحد عنه مذهب ولا إلى غيره مفزع في مجهول يعلمه ، ومشكل يستبينه وملتبس يوضحه ، فمن ذهب عنه فإليه يرجع ، ومن دفع حكمه فبه يحاج خصيمه إذْ كان بالحقيقة هو المرشد إلى الطرق العقلية ، والمعارف اليقينية ، التي بالعباد إليها أعظم حاجة ، فمن رد من مدعي البحث والنظر حكومته ، ودفع قضيته ، فقد كابر وعاند ، ولم يكن لأحد سبيل إلى إفهامه ، ولا محاجته ولا تقريب الصواب عنده ، وليس لأحد أن يقول : اني غير راض بحكمه بل بحكم العقل ، فإنه متى رد حكمه فقد رد حكم العقل الصريح ، وعارض الكتاب والعقل ، والذين زعموا من قاصري العقل والسمع ، أن العقل يجب تقديمه على السمع عند تعارضهما ، إنما أتوا من جهلهم بحكم العقل ومقتضى السمع ، فظنوا ما ليس بمعقول معقولا وهو في الحقيقة شبهات توهم أنه عقل صريح وليست كذلك ، أو من جهلهم بالسمع اما نسبتهم إلى الرسول ما لم يرده بقوله[3] ، واما لعدم تفريقهم بين ما يدرك بالعقول وبين ما لا يدرك استحالته بالعقول ، فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظن التعارض بين السمع والعقل :

---

(١) ق / ٣٧ .

(٢) لأن العقل مناط التكليف ، وفي الحديث : رفع القلم عن ثلاثة ، ومنهم المجنون حتى يفيق . والكتاب المنزل لأن الله سبحانه لا يعذب عباده قبل قيام الحجة عليهم وذلك بارسال رسله وأنزاله كتبه كما قال تعالى : ﴿. . . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ الاسراء/ آية ١٥ .

(٣) في المختصر : «اما بنسبتهم إلى الرسول ما لم يقله ، أو نسبتهم إليه ما لم يرده بقوله» .

أحدها : كون القضية ليست من قضايا العقول .

الثاني : كون ذلك السمع ليس من السمع الصحيح المقبول(١) .

الثالث : عدم فهم مراد المتكلم به .

الرابع : عدم التمييز بين ما تخيله العقل وبين ما لا يدركه .

والله سبحانه حاج عباده على ألسن رسله وأنبيائه فيما أراد تقريرهم به والزامهم إياه بأقرب الطرق إلى العقل وأسهلها تناولا وأقلها تكلفا وأعظمها غناء(٢) ونفعا وأجلها ثمرة وفائدة ، فحججه سبحانه العقلية التي بينها في كتابه ، جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة ، قليلة المقدمات ، سهلة الفهم ، قريبة التناول ، قاطعة الشكوك والشبه ، ملزمة للمعاند والجاحد(٣) .

ولهذا كانت المعارف التي استنبطت منها في القلوب أرسخ ، ولعموم الخلق أنفع ، وإذا تتبع المتتبع ما في كتاب الله مما حاج به عباده في إقامة التوحيد وإثبات الصفات ، وإثبات الرسالة والنبوة ، وإثبات المعاد وحشر الأجساد ، وطرق إثبات علمه بكل خفي وظاهر ، وعموم قدرته ومشيئته وتفرده بالملك والتدبير ، وانه لا يستحق العبادة سواه ، وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه من تَصَرّفِ)(٤) المخَاطَبَةِ منه سبحانه في ذلك على أجل وجوه الحجاج وأسبقها إلى القلوب وأعظمها ملاءمة للعقول وأبعدها من الشكوك والشبه ، في أوجز لفظ وأبينه واعذبه وأحسنه وأرشقه وأدّلهُ على

(١) مثل الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة شديدة الضعف بحيث لا تقوم بها حجة .

(٢) في المختصر «غنى» .

(٣) سيذكر المصنف في الصفحات التالية أمثلة لتلك المحاجة في أصول الدين وأولها إقامة التوحيد وابطال الشرك وقطع أسبابه ، وإثبات الصفات ، وإثبات الرسالة والنبوة ، وإثبات المعاد وحشر الأجساد وطرق إثبات علمه بكل خفي وظاهر . . . الخ .

(٤) إلى هنا نهاية السقط من الأصل الذي أشرنا إلى بدايته ص ٢٨١ . وهو في «ل» من ورقة ٥٣/ ب سطر ٤ إلى ورقة ٥٤/ أ سطر ١٤ ويوجد بعض ذلك في المختصر ١/ ٩٢-٩٤ .

المراد، وذلك مثل قوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد[1] وبطلان الشرك وقطع أسبابه وحسم مواده كلها، ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن اذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير**﴾[2].

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسد بها عليهم أحكم سد وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، والا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكا لمالكها، أو ظهيرا أو وزيرا ومعاونا أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة[3] من كل وجه وبطلت وانتفت

---

(١) إقامة التوحيد وإثبات الصفات والرسالة والنبوة والمعاد وحشر الأجساد هذه مباحث أصول الدين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الاجابة على سؤال وجه له في ذلك قال: وكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر، إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المرام وتمام الواجب والمستحب، إلى أن قال: وأما ما يدخله بعض الناس في هذا المسمى من الباطل فليس ذلك من أصول الدين، وإن أدخله فيه، مثل المسائل والدلائل الفاسدة مثل: نفي الصفات والقدر... الخ.

انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٧-٤٣.

ورسالة في أصول الدين - لابن تيمية - مشتملة على نفس السؤال والاجابة عليه ط الثالثة سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) سبأ / آية ٢٢، ٢٣.

(٣) الأربعة هي: ١) الشركة في الملك. ٢) الظهير. ٣) الوزير والمعاون. ٤) الشفاعة.
وقد نفى سبحانه وتعالى عن آلهتهم ذلك كله، فتبين أنه هو الإله الحق الذي يجب أن تصرف جميع أنواع العبادة له جل شأنه، وليس ابلغ من محاجة المشركين في عبادتهم لتلك الآلهة المزعومة من هذا الحجاج الذي يصل إلى فهمه وادراكه كل مخاطب وكيف لا يكون ذلك وهو من اللطيف الخبير، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

أسبـاب الشـرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم ان تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك : هي شريكة المالك الحق، فنفى شركتها له، فيقول المشرك : قد تكون ظهيرا ووزيرا ومعاونا، فقال : ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾ فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا باذنه فهو الذي يأذن للشافع، وان لم ياذن له لم يتقدم بالشفـاعـة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته، وان لم ياذن له فيها، وأما من كل ما سواه فقـير إليـه بذاتـه، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنـده أحـد بدون إذنه، وكذلك قوله سبحانه مقررا لبرهان التوحيد أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه : ﴿**قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا**﴾[١].

فإن الآلهـة التي كانـوا يثبتونها معه سبحانه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكـه ومحتـاجـة إليـه، فلو كانوا آلهة كما يقولون (لعبدوه وتقربوا)[٢] إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم من دونه، وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قولـه : ﴿**أولئـك الـذين يدعـون يبتغـون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾[٣].

أي هؤلاء الـذين تعبـدونهم من دوني هم عبيـدي، كما أنتم عبيدى يرجـون رحمتى ويخـافـون عذابي كما ترجـون أنتم رحمتي وتخـافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني.

وقـال تعـالى : ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب**

---

(١) الاسراء / ٤٢.

(٢) في الأصل (يعبدون لتقربوا) والتصحيح من «ل».

(٣) الاسراء / آية ٥٧.

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[1].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز(البين)[2] فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل ان قدر على قهره وتفرده بالالهية دونه فعل، وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن (بعضهم بعضا)[3] بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة :

اما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه .

واما أن يعلو بعضهم على بعض .

واما أن يكونوا كلهم (تحت)[4] قهر إله واحد، وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم (عليه)[5] ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله (الحق)[6] وهم العبيد المربوبون المقهورون، وانتظام أمر العالم العلو والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذاك تمانع في الفعل (والإيجاد)[7]، وهذا تمانع في الغاية والالهية .

فكما يستحيل أن يكون للعالم (ربان خالقان متكافئان)[8] يستحيل

---

(١) المؤمنون / ٩١.

(٢) (البين) من المختصر ١/٩٥.

(٣) في المختصر (بعضهم عن بعض) .

(٤) (تحت) ليست في الأصل، وهي في «ل».

(٥) (عليه) ليست في الأصل وهي في «ل».

(٦) (الحق) من «ل» .

(٧) في «ل» الاتحاد بالتاء الفوقية والحاء المهملة .

(٨) في الأصل (ربان خالقين متكافئين).

أن يكون له الهان معبودان، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه . . .﴾(١).

ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك فإنهم ان زعموا أن آلهتهم خلقت شيئا مع الله طولبوا بأن يروه إياه، وان اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت الهيتها باطلا ومحالا، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾(٢).

فطالبهم بالدليل العقلي والسمعي، وقال تعالى : ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل افتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾(٣).

فاحتج على تفرده بالالهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر، وقال تعالى : ﴿ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز﴾(٤).

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه فمن لم يستمعه فقد

---

(١) لقمان / ١١.
(٢) الأحقاف / ٤.
(٣) الرعد / ١٦.
(٤) الحج / ٧٣.

عصى أمره، كيف تضمن ابطال الشرك وأسبابه بأوضح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضا وعاونه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي إله (من)[1] أضعف من هذا الإله المطلوب، ومن عابده الطالب نفعه (وخيره)[2] فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها، فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين (إفك)[3] أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها لم يستكرهها غموض ولم يشنها تطويل ولم يعبها تعقيد[4]، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز مالا يتوهم متوهم، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشرف[5] البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ .

ومن ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله وصحة ما جاء به من الكتاب، وأنه من عنده، وكلامه الذي تكلم به وأنه ليس من صنعة[6] البشر، ولا من كلامهم بقوله : ﴿**وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين**﴾[7] .

فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي نزّله (على)[8] عبده وأنه كلامه

---

(١) في الأصل ورقة ٥٠ سطر ٣٢ (من) ويظهر أنها زائدة، وفي «ل» (شيء) .
(٢) (وخيره) من «ل» وفي الأصل (وحده) .
(٣) (افك) من «ل» وفي الأصل (أولى) .
(٤) في «ل» (تقصير) وكذا في المختصر .
(٥) في المختصر (الشأن) .
(٦) في المختصر (من صنع) .
(٧) البقرة / ٢٣ .
(٨) (على) من «ل» .

ان يأتي بسورة واحدة مثله وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له ان عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين فقال تعالى : ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين**﴾[١]، وقال تعالى : ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين**﴾[٢]، وقال : ﴿**ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين**﴾[٣]، ثم سجل سبحانه عليهم (تسجيلا)[٤] عاما في (كل)[٥] زمان ومكان بعجزهم عن ذلك ولو تظاهر عليه الثقلان فقال : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾[٦].

فانظر (أي موقع)[٧] يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج القاطع الجليل الواضح الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدا ولا فوقه مزيدا ولا وراءه غاية ولا أظهر منه آية ولا (أصح)[٨] (منه)[٩] برهانا ولا أبلغ منه بيانا، وقال في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله وتأمل دعوته وما جاء به : ﴿**أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون**﴾[١٠].

---

(١) يونس / ٣٨.
(٢) هود / ١٣.
(٣) الطور / ٣٣، ٣٤.
(٤) في الأصل وفي «ل» (اسجالا)، والتصحيح من المختصر.
(٥) (كل) من «ل».
(٦) الاسراء / ٨٨.
(٧) في المختصر (إلى أي موقع).
(٨) في المختصر (أوضح).
(٩) (منه) من «ل» والمختصر.
(١٠) المؤمنون / ٦٨-٧٠.

فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبا وزورا يعلم من نفس القول تارة (وتارة من تناقضه)[1] واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب بأعلى صفحاته، بادٍ على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتي منه من القول والفعل ما يتأتي من[2] البار الصادق المُبرَّأ مِنْ كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضا، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ يتبين لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به (من)[3] أعلى مراتب الصدق، وقال تعالى: ﴿**قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون**﴾[4].

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين (تحت)[5] هذا اللفظ الوجيز، أحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، فإن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم فلم اتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من (درايته)[6] وفهمه، الحجة الثانية: اني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالى وتصحبوني حضراً أو سَفراً، وتعرفون دقيق أمري وجليله وتتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم، فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح

---

(١) ما بين القوسين من المختصر.
(٢) (من) من «ل» وفي الأصل (على).
(٣) في «ل» (في).
(٤) يونس / ١٦.
(٥) (تحت) من «ل» في الأصل غير واضحة، وفي المختصر (بهذا).
(٦) من «ل» وفي الأصل (هدايته).

سيرة ممن جاهر ربه وخالقه بالكذب والفرية عليه، وطلب افساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق، هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابا ولا أخطه بيميني ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتم[1]أنتم في أسفاركم من[2] تتعلمون منه وتسألونه عن أخبار الأمم، والملوك، وغيرها مما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان و (ما)[3] سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا، وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له، وقال تعالى : ﴿**قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد**﴾. (سبأ/ ٤٦).

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب (حالتان)[4] :

إحداهما : أن يكون مناظرا مع نفسه .

والثانية : أن يكون مناظراً (لغيره)[5]أمرهم بخصلة واحدة وهي : أن يقوموا لله اثنين اثنين فيتناظران ويتساءلان بينهما واحدا واحدا، يقوم كل واحد مع نفسه فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه ويستدعى أدلة الصدق والكذب، ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال، فهذا هو الحجاج الجليل والانصاف البين والنصح التام .

وقال سبحانه في تثبيت أمر البعث : ﴿**وضرب لنا مثلا ونسى خلقه**

---

(١) في الأصل، وفي «ل» (صحبتكم). وفي المختصر (بل صحبتم أنتم) وهو أظهر.

(٢) في الأصل، وفي «ل» (لمن)، وفي المختصر (من).

(٣) (ما) من «ل».

(٤) في الأصل (حالتين).

(٥) (لغيره) من «ل».

قال من يحي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾(١) إلى آخر السورة .

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان ان يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان، لألفىَ نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحكم الناس(٢) من ذلك، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابا فكان في قوله سبحانه ﴿ونسي خلقه﴾ ما وَفَّي بالجواب وأقام الحُجة وأزال الشبهة لولا ما أراد سبحانه من تأكيده حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة، لو لم ينس خلق نفسه، ومبدأ كونه، وذكر خلقه لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكتةً له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله ﴿ونسي خلقه﴾ وصرح به جواباً له عن مسألته فقال : ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾(٣) فاحتج بالابداء على الاعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه (وأنه)(٤) لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله : ﴿وهو بكل خلق عليم﴾، فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله، وجزئياته ومواده وصورته، وعلله الأربع(٥) .

وكذلك هو عليم بالخلق الثاني، وتفاصيله، ومواده، وكيفية انشائه، فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم، ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر، يتضمن جوابا عن سؤال

---

(١) يس ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) هكذا في الأصل وفي «ل» ولعله (اليأس) .

(٣) يس / ٧٩ .

(٤) (وأنه) من «ل» .

(٥) لعله يقصد بها المواد التي يتكون منها المخلوق وهي : الماء، والهواء والتراب، والنار .

ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة (رطبة لتقبل صورة الحياة، فتولى سبحانه جواب هذا السؤال)[1] بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معا، فقال : ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾، فأخبر سبحانه باخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا[2] يستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم، ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر وان كل عاقل يعلم ان من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر (وأقدر)[3]، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا، فقال : ﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم**﴾[4] فأخبر سبحانه ان الذي أبدع السموات والأرض[5] على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحي العظام وقد صارت رميما فيردها إلى حالتها الأولى كما قال في موضع آخر : ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[6] وقال : ﴿**أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير**﴾[7] ثم أخذ سبحانه ذلك وبينه بيانا آخر يتضمن

---

(١) ما بين القوسين من «ل».

(٢) في الأصل (فلا يستعصى عليه)، وفي «ل» (ولا).

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) يس / ٨١.

(٥) ما بين القوسين من «ل».

(٦) غافر / ٥٧.

(٧) الأحقاف / ٣٣. وهذه الآية لا توجد في الأصل وهي موجودة في المختصر.

مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد، وهو أنه ليس في فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لابد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي (في)(١) خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله لِلْمُكَوَّن، كن فإذا هو كائن كما شاءه وأراده، فأخبر عن نفاذ مشيئته وارادته وسرعة تكوينه، وانقياد المكون له وعدم استعصائه عليه، ثم ختم هذه الحجة باخباره ان ملكوت كل شيء بيده يتصرف فيه بفعله، وقوله ﴿**وإليه ترجعون**﴾ فتبارك الذي (تكلم)(٢) بهذا الكلام الذي (جمع في نفسه بوجازته وبيانه)(٣) وفصاحته وصحة برهانه كل ما تلزم الحاجة إليه، من تقرير الدليل، وجواب الشبهة، ودحض حجة الملحد، واسكات المعاند، بألفاظ لا أعذب منها عند السمع، ولا أحلى (منها)(٤) من معانيها للقلب، ، ولا أنفع من ثمرتها للعبد، ومن هذا قوله سبحانه : ﴿**وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم إلا قليلا**﴾(٥).

فتأمل ما اجيبوا به عن كل سؤال (سؤال)(٦) على التفصيل، فإنهم قالوا أولا : ﴿**أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا**﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال : إن كنتم تزعمون انه لا خالق لكم ولا رب (فهلا

---

(١) (في) من «ل».
(٢) في الأصل (يعلم) والتصحيح من «ل».
(٣) في المختصر (الذي جمع مع وجازته وبيانه...).
(٤) (منها) في الأصل وليست في «ل» ولا في المختصر والكلام مستقيم دونها.
(٥) الاسراء / ٤٩ - ٥٢.
(٦) (سؤال) الثانية من «ل».

كنتم خلقا لا يفنيه الموت)[1] كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وانشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدا فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم (فما)[2] (الذي يحول بينكم وبين خالقكم ومنشئكم وبين إعادَتِكم خلقا جديدا)[3]، وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، لكان قادرا على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالافناء، والاحالة، ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بافنائه، واحالته، ونقله من حال إلى حال، ثم أخبر سبحانه أنهم يسألون سؤ الا آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت، فأجابهم بقوله: ﴿**قل الذي فطركم أول مرة**﴾ وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿**مَنْ يحى العظام وهي رميم**﴾ فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلا انتقلوا إلى سؤ ال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج[4] بمثل ذلك وهو قولهم ﴿**متى هو؟**﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿**عسى أن يكون قريبا، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا**﴾، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يُمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى**﴾[5] فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملا معطلا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فان من

---

(١) ما بين القوسين من «ل» وهو غير واضح في الأصل.

(٢) (فما) من «ل».

(٣) في المختصر: (فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وإعادتكم خلقاً جديدا).

(٤) في الأصل (بالحجارة) والتصحيح من «ل».

(٥) القيامة / ٣٦ - ٤٠.

نقله من نطفة مني إلى العلقة ثم إلى المضغة، ثم خلقه وشَقَّ سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أسره[1]، وأتقن خلقه، وأحكمه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الاشكال، كيف يعجز عن اعادته وإنشائه مرة ثانية .

أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته، فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه، وكذلك ما احتج به سبحانه على النصارى مبطلا لدعوى الهية المسيح كقوله : ﴿**لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين**﴾[2]. فأخبر أن هذا الذي أضافه من نسب الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل، ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفى لنفسه ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوى، الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر، المجبول على الثبات والبقاء، لا من جواهر هذا العالم الفانى الداني الكثير الأوساخ والأدناس والأقذار، ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله : ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾[3].

ونظير هذا قوله : ﴿ **لو أراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء**﴾[4]، وقال سبحانه : ﴿**ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من**

---

(١) أسره من «ل» وفي الأصل (أشده) .

(٢) الأنبياء / ١٧ .

(٣) الأنبياء / ١٨ .

(٤) الزمر / ٤ .

قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾[1].

وقد تضمنت هذه الحجة دليلين يبطلان الهية المسيح وأمه :

إحداهما : حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما بل هي محتاجة فيما يقيمهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلها إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا .

الثاني : أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها، ولهذا والله أعلم (كَنَّى)[2] سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه ان يتخذ صاحبة وولدا من هذا الجنس ؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يستحي منها ويرغب عن ذكرها، فانظر ما تضمنه هذا الكلام الوجيز البليغ المشتمل على هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمزا له ولا مطعنا فيه ولا تشكيكا ولا سؤالا يورده عليه، بل يأخذ بقلبه وسمعه، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين**﴾[3]، احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأنّ أحدهم لا يرضى بالبنات، وإذا بشر بالانثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتا، فكيف تجعلونها لي، كما قال

(١) المائدة / ٧٥ .

(٢) (كنى) من «ل» .

(٣) الزخرف / ١٧ ـ ١٨ .

تعالى : ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[1] ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وانه[2] انقص الجنسين، ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية، واضعفها[3] بيانا، فقال تعالى : ﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ فأشار بنشأتهن في الحلية إلى (انهن)[4] ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وانهن عييات فلا يَبِنّ عن حجتهن وقت الخصومة، مع ان في قوله : ﴿أو من ينشأ في الحلية﴾ تعريضا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن، وتعريضا بأنهن لا يثبتن في الحرب والطعان والشجاعة، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن، ومن هذا ما حكاه سبحانه في محاجة إبراهيم قومه بقوله : ﴿وحاجهُ قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[5].

فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره مخرج كلام البشر الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة، بل خرج في صورة كلام خبري مشتمل على مباديء الحجاج (ومقاطعه)[6] مشيرا إلى مقدمات الدليل ونتائجه بأوضح عبارة وأفصحها وأقربها تناولا والغرض منه، ان إبراهيم قال لقومه متعجبا مما دعوه إليه من الشرك : ﴿اتحاجوني في الله﴾ وتطمعون ان

---

(١) النحل / ٦٢.

(٢) في الأصل (وانكم) والتصحيح من «ل».

(٣) في المختصر (وهو أضعف الجنسين بيانا).

(٤) في النسختين (وأنها) وما أثبتناه يقتضيه السياق، وهو كذلك في المختصر.

(٥) الأنعام / ٨٠ - ٨٢.

(٦) ما بين القوسين من «ل».

تستنزلوني عن توحيده بعد أن هداني وتأكدت بصيرتي واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها، وقد علمتم ان من كانت هذه حاله في اعتقاده أمرا من الأمور عن بصيرة لا يعارضه فيها ريب ولا يخالجه فيها شك، فلا سبيل إلى استنزاله عنها.

وأيضا فإن المحاجّة والمجادلة بعد وضوح الشيء وظهوره نوع من العبث بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس وقد رآها من (يحاجونه)(١) بعينه، فكيف يؤثر حجاجكم له أنها (لم)(٢) تطلع بعد، ثم قال: ﴿**ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربى شيئا**﴾ فكأنه صلوات الله وسلامه عليه يذكر انهم خوفوه آلهتهم أن يناله منها معرة كما قال قوم هود له: ﴿**ان نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾(٣)، فقال إبراهيم: (ان أصابني مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله وهي أقل من ذلك فإنها ليست ممن يرجى ويخاف، بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحي الفعال الذي يفعل ما يشاء الذي بيده الضر والنفع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام مُنَبها على موقع احتراز لطيف، وهو أن لله سبحانه علما في وفيكم، وفي هذه الآلهة (لا)(٤)يصل (إليه)(٥) علمي، فإذا شاء أَمْراً من الأمور فهو أعلم بما يشاء فإنه وسع كل شيء علما، فإن أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي من أي جهة أتانى، فعلمه محيط بما لم أعلمه، وهذا غاية التفويض والتبرىء من الحول والقوة وأسباب النجاة، وأنها بيد الله لا بيدى، وهكذا قال شعيب لقومه: ﴿**قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا**

---

(١) في المختصر (يحاجه) ص ١٠٦.

(٢) (لم) من «ل».

(٣) هود / ٥٤.

(٤)، (٥) (لا) و(إليه) من «ل».

أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا﴾(١).

فردت الرسل العلم بما يفعله الله إليه، وانه إذا شاء شيئا فهو أعلم بما يشاؤه، ولا علم لنا بامتناعه وعدم كونه، ثم رجع الخليل إليهم مقررا للحجة فقال : ﴿وكيف أخاف ما اشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾(٢) يقول لقومه كيف يسوغ في عقل أوعند ذي لُب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكا في الالهية وهي ليست بموضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الالهية أشياء لم ينزل بها حجة عليكم، ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفاطره وبارئه الذي يقر بأنه خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه، ومالك الضر والنفع آلهة لا تخلق شيئا وهي مخلوقة ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وجَعَلَها نداً له ومثْلاً في الالهية تعبد، ويسجد لها ويخضع لها ويتقرب إليها، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلها آخر، بل وحَّدَه وأفرده بالالهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب وأقرت به الفطر، وانقادت له العقول، فقال : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾(٣).

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم واحاطته بكل ما وجب في العقل أن يردَّ به ما دَعَوهُ إليه، وأرادوا حمله عليه، وأخذه بمجامع الحجة (التي لم تبق لطاعن مطعنا ولا سؤالا)(٤)، ولما كانت بهذه المثابة أشاد

---

(١) الاعراف / ٨٩.

(٢) الأنعام / ٨١.

(٣) الأنعام / ٨٢.

(٤) في المختصر : (بحيث لم يبق لطاعن مطعن ولا سؤال).

سبحانه بذكرها، وعظَّمها بالإشارة إليها، وأضافها إلى نفسه تعظيما لشأنها فقال: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء**﴾[1] فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله ولقاه إياها، وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفى بحجة يكون الله عز وجل ملقنها لخليله وحبيبه، ان تكون قاطعة لمواد العناد، قامعة لأهل الشرك والإلحاد، (وشبيه)[2] بهذا الاحتجاج القصة الثابتة لإبراهيم في محاجة المشرك الذي أخبر الله سبحانه عما جرى بينه وبينه في قوله: ﴿**ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ان آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدى القوم الظالمين**﴾[3].

فإن من تأمل موقع الحجاج، وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية، وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة، فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحي ويميت أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد، ويستبقى من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة ان يتصرف في (حركة)[4] الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها (إذ كان)[5] بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقا فليتصرف في الشمس تصرفا تصح به دعواه، وليس هذا انتقالا من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار، وإنما هو الزام للمدعي (في طرد)[6] حجته إن كانت صحيحة.

---

(١) الأنعام / ٨٣.
(٢) ما بين القوسين من «ل» والمختصر.
(٣) البقرة / ٢٥٨.
(٤) في الأصل (حكمة) والتصحيح من «ل».
(٥) ما بين القوسين من «ل».
(٦) في «ل» (بطرد).

ومن ذلك احتجاجه سبحانه على إثبات علمه بالجزئيات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصحه حيث يقول : ﴿**وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور**﴾(١)، ثم قرر علمه بذلك بقوله : ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾(٢)، وهذا من أبلغ التقرير، فإن الخالق لابد أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه، وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور، فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها، ، ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه، فكفرهم السلف قاطبة(٣)، وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني تقدير أن يكون مَنْ في محل رفع على الفاعلية أو في محل نصب على المفعولية .

فعلى التقدير الأول «ألا يعلم الخالقُ الذي شأنه الخلق، وعلى التقدير الثاني»(٤): ألا يعلم الرب مخلوقَهُ ومصنوعه ؟ ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها، وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير الذي انتهى علمه إلى الاحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور .

---

(١) الملك / ١٣ .

(٢) الملك / ١٤ .

(٣) المقصود - القدرية المعتزلة - القائلين بأن العبد يخلق أفعاله، ولا دخل لقضاء الله وقدره فيها، لأنهم يرون أن العدل الذي هو أحد أصولهم الخمسة يقتضي أن الله لا يحاسب إنسانا إلا على فعله الذي يحدثه ويخلقه هو بنفسه، فالله لا يخلق أفعال الفاعلين بل هم الخالقون لأفعالهم ويكونون بذلك قد أثبتوا مع الله شركاء في خلقه .

انظر عن مذهب المعتزلة في أفعال العباد كتاب شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٢٢٣ وما بعدها، ورسائل العدل والتوحيد ٢ / ٣٤ وما بعدها .

(٤) ما بين القوسين من «ل» .

ومن هذا احتجاجه سبحانه على المشركين (بدليل المقسم الخاص)[1] الذي لا يجد سامعه إلى رده ولا معارضته سبيلا، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون**﴾[2].

فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق (وأفصح)[3] عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد ان لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات (محكمة)[4] لم يخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها، وبانيا بناها، ثم قال: ﴿**أم هم الخالقون**﴾ وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر ان يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة، كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه، وإذا بطل القسمان تعين ان لهم خالقا خلقهم وفاطرا

---

(١) هكذا في الأصل، وفي «ل» (بالدليل المقسم للحاظر الذي ألخ)، وقد أوضح ذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان ٤ / ٣٦٥ في سورة مريم في تفسير قوله تعالى: ﴿اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا﴾، فقال: أعلم أن هذا هو الدليل المعروف عند الجدليين بالتقسيم والترديد، وعند الأصوليين بالسبر والتقسيم، وعند المنطقيين بالشرطي المنفصل، وبعد أن أورد أمثلة على ذلك أورد نفس الآية قال: ومثال ما كان الحصر والابطال فيه قطعيين قوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ قال: لأن حصر أوصاف المحل في الأقسام الثلاثة قطعي لاشك فيه لأنهم اما أن يخلقوا من غير شيء أو يخلقوا أنفسهم أو يخلقهم خالق غير أنفسهم ولا رابع البتة.

وابطال القسمين الأولين قطعي لاشك فيه، فيتعين أن الثالث حق لاشك فيه، وقد حذف في الآية لظهوره فدلالة هذا السبر والتقسيم على عبادة الله وحده قطعية لاشك فيها.

أضواء البيان ٤ / ٣٧٠ الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) الطور / ٣٥ - ٣٦.

(٣) في المختصر (وأوضح).

(٤) في الأصل (محله) والتصحيح من «ل».

فطرهم فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم ؟.

فإن قيل : فما موقع قوله : ﴿**أم خلقوا السموات والأرض**﴾ من هذه الحجة ؟

قيل : أحسن موقع فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقاً وفاطرا وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث انهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن، بخلق العالم العلوي والسفلي، وما فيه، ومن هذا ما حكاه الله سبحانه عن محاجة صاحب يس لقومه بقوله : ﴿**ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون**﴾[1].

فنبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع رسولا لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى، وأنه على هداية، ونبه على انتفاء المانع، وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة، فموجب الاتباع كونه مهتديا والمانع منه منتف، وهو طلب العلو في الأرض والفساد، وطلب الأجر ثم قال : ﴿**ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾[2] أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفا لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها فإن خلقه لعبده أصل انعامه عليه، ونعمه كلها بعد تابعة لايجاده وخلقه، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقول

---

(١) يس / ٢٠ ـ ٢١.

(٢) يس / ٢٢.

نفـاة التحسـين والتقبيـح[1] في ذلـك، فإنـه من أفسـد الأقـوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع، ثم أقبل عليهم مخوفا لهم تخويف الناصح فقال: ﴿**وإليه ترجعون**﴾، ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دونه أنها باطلة، وأن عبـادتهـا باطلة فقـال: ﴿**ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفـاعتهم شيئـا ولا ينقذون**﴾[2] فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه دائما (إذا)[3] أرادني الرحمن (الذي)[4] فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما تنقذوني بها من ذلك الضر، ولا من الجاه والمكانة عنده، ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر، فبأي وجه تستحق العبادة ﴿**اني إذا لفى ضلال مبين**﴾[5] ان عبدت من دون الله مَنْ هذا شأنه .

وهذا الذي ذكرناه من حجاج القرآن يسيرٌ من كثير، وإنما نبهنا على ما لم نذكر منه .

والمقصود انه يتضمن الأدلة العقلية والبراهين القطعية التي لا مطمع في التشكيك (فيها)[6] والأسئلة عليها، إلا لمعاند مكابر، فالمتأول لا يمكنه أن يقيم على مبطـل حجـة نقليـة ولا عقليـة، أمـا النقـل فلأنه عنده قابل للتأويل وهو لا يفيد اليقين .

وأمـا العقـل فلأنـه قد خرج عن صريحه وموجبه بالقواعد التي قادته إلى تأويـل النصـوص[7] واخراجها عن ظواهرها وحقائقها، فصارت تلك

---

(١) وهم الأشاعرة : ومما يدل على خلاف قولهم القرآن والسنة ـ فقد قالت خديجة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ حين جاءه الملك في غار حراء ـ وقال لها : لقد خشيت على نفسي . قالت : كلاَّ والله لا يخزيك الله . انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق . فقد ادركت بعقلها السليم ان من كانت هذه الخصال الحميدة صفاته وأخلاقه لا يخزيه الله سبحانه . وآيات القرآن الكريم صريحة في ذلك .

(٢) يس / ٢٣ .

(٣) في المختصر (وأنه إذا) .

(٤) من «ل» .

(٥) يس / ٢٤ .

(٦) (فيها) من المختصر .

(٧) في الأصل (فا) وفي «ل» (و) وهو الأولى .

القواعد الباطلة حجابا بينه وبين العقل والسمع[1]، فإذا احتج على خصمه بحجة عقلية نازعه خصمه في مقدماتها بما سلم له من القواعد التي تخالفها، فإن المعقول الصريح هو ما دلت عليه النصوص، فإذا أبطله بالتأويل لم يبق معه منقول صحيح يحتج به على خصمه، كما لم يبق معه معقول صريح، فإنه قد عرض المنقول للتأويل، والمعقول الصريح قد خرج عنه بالذي ظن أنه معقول.

ومثال هذا ان العقل الصريح الذي لا يكذب ولا يغلط قد حكم حكما لا يقبل الغلط، ان كل ذاتين قائمتين (بأنفسهما)[2] اما أن يكون كل منهما مباينة للأخرى أو محايثة لها، وأنه يمتنع أن تكون هذه الذات قائمة بنفسها وهذه قائمة بنفسها واحداهما ليست فوق الأخرى ولا تحتها، ولا عن يمينها، ولا عن يسارها، ولا خلفها، ولا أمامها، ولا متصلة (بها)[3] ولا منفصلة عنها، ولا مجاورة لها، ولا محايثة، ولا داخلة فيها، ولا خارجة عنها، فإذا خولف مقتضى هذا المعقول الصريح ودفع موجبه، فأيُّ دليل عقلي احتج به المخالف بعد هذا على مبطل أمكنه دفعه بما دفع هو به حكم هذا العقل.

فإذا قال الجهمي: هذا من حكم الوهم لا من حكم العقل.

قال له خصمه فيما احتج به عليه من قضايا العقل: هذا أيضا من

---

(١) هكذا شأن صاحب الباطل فإنه مهما سلك من طرق الحجاج فإنه لا يمكنه ان يستقيم له استدلاله الذي يستدل به على باطله، فكيف يمكنه أن يقيم الحجة العقلية أو النقلية على صاحب باطل مثله والحال أن الحجة لم تقم له على باطله الذي هو منطلق رده على من يخالفه إلى باطل مثل باطله، لأن الجاهل بالحق لا يثمر جداله وحجاجه إلى باطلا فالنتيجة عند الجميع واحدة، وقد تقدم البيت الذي أورده ابن القيم رحمه الله وهو:

ونظيري في الجهل مثلي أعمى فكلانا في حندس نتصادم

(٢) في الأصل (بأنفسها) والتصحيح من «ل» ومن المختصر.

(٣) (بها) من «ل».

حكم الوهم ، فإنك أعطيت ان في النفس حاكمين ، الوهم ، والعقل ، فإذا ادعيت فيـما تشهـد به العقول والفطر، انه من حكم الوهم كان ادعاء ذلك فيما هو دون هذه القضية بكثير أقرب وأقرب ، وأمثلة ذلك لا يتسع لها هذا المـوضـع ، وإذا تأملت القواعد الحاملة لأرباب التأويل عليه وجدتها تخالف صريح العقل ومن خالفه صريح العقل لم تقم له حجة عقلية ولا سمعية . وبالله التوفيق .

الفصل الثاني والعشرون

في الأسباب (الجالبة)(1) للتأويل

وهي أربعة أسباب : اثنان من المتكلم واثنان من السامع . **فالسببان** اللذان من المتكلم : اما نقصان بيانه ، واما سوء قصده .

واللذان من السامع : اما سوء فهمه ، واما سوء قصده .

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة انتفى التأويل الباطل ، وإذا وجدت أو بعضها وقع التأويل فنقول وبالله التوفيق :

لما كان المقصود من التخاطب التقاء قصد المتكلم وفهم المخاطب على محزّ واحد ، كان أصح الافهام واسعد الناس بالخطاب ما التقى فيه فهم السامع ومراد المتكلم ، وهذا هو حقيقة الفقه الذي أثنى الله ورسوله به على أهله ، وذم من فقده فقال تعالى : ﴿**ولكن المنافقين لا يفقهون**﴾(2) .

وقال : ﴿**فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا**﴾(3) .

وقال في الثناء على أهله : ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾(4) .

وقال النبي ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»(5) .

---

(1) ما بين القوسين من «ل» .

(2) المنافقون / ٧ .

(3) النساء / ٧٨ .

(4) الانعام / ٩٨ .

(5) البخاري / العلم / باب ١٠ فتح الباري ١ / ١٦٠ .
وفي الخمس / باب ٧ ، فتح الباري ٦ / ٢١٧ ح ٣١١٦ .
وفي الاعتصام / باب ١٠ فتح البارى ١٣ / ٢٩٣ ح ٧٣١٢ .

وقال لزياد بن لبيد[1]، «إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة»[2].

فالفقه فهم مقصود المتكلم من كلامه، وهذا أمر زائد على مجرد الفهم، فإذا كان المتكلم قد وفى البيان حقه، وقصد افهام المخاطب وإيضاح المعنى له واحضاره في ذهنه، فوافق من المخاطب معرفة بلغة المتكلم، وعرفه المطرد في خطابه، وعرف من كمال نصحه أنه لا يقصد بخطابه التعمية والالغاز، لم يخف عليه معنى كلامه، ولم يقع في قلبه شك في معرفة مراده، وإن كان المتكلم قد قصرّ في بيانه وخاطب السامع بالفاظ مجملة تحتمل عدة معان، ولم يتبين له ما أراده منها، فإن كان عاجزا عن ذلك أُتى السامع من عجزه لا من قصده، وإن كان قادرا عليه ولم يفعله حيث ينبغي فعله أتى السامع من سوء قصده، وقد يحسن ذلك من المُتكلم إذا كان في التعمية على المخاطب مصلحة راجحة، فيتكلم بالمجمل ليجعل لنفسه سبيلا إلى تفسيره بما يتخلص به أو ليوهم السامع انه أراد ما لا يخاف افهامه إياه أو لغير ذلك من الأسباب التي يحسن معها التعريض والكناية والخطاب بضد البيان، وهذا من خاصة العقل، وقد قال تعالى :

= ومسلم / الزكاة / باب النهي عن المسألة ٢/٧١٨ ح ٩٨. ١٠٠.
والترمذي / العلم / تحفة الاحوذى ٧/٤٠٤ ح ٢٧٨٣.
وابن ماجة / مقدمة / باب ١٧ / ٨٠ ح ٢٢٠.
ط / في القدر ص ٥٦١ ح ٨.
حم / ١ / ٣٠٦.
حم / ٢ / ٢٣٤.
حم / ٤ / ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩.
والدارمى / في المقدمة ١/٦٥ ح ٢٣٠.

(١) زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية الأنصارى الخزرجي أبو عبد الله، قال ابن حبان: كان من فقهاء الصحابة. توفي سنة احدى وأربعين، التهذيب ٣/٣٨٢، والاصابة ١/٥٤٠ ط سنة ١٣٥٨هـ.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢١٨، ٢١٩.
ابن ماجة / الفتن / باب ذهاب القرآن والعلم ٢/١٣٤٤ ح ٤٠٤٨.

﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾(1) وفي الحديث «ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب»(2) وقد عرّض إبراهيم الخليل للجبار بقوله عن امرأته «هذه أختى»(3) وعرض النبي ﷺ للرجل الذي سأله في طريقه : ممن أنتم ؟ فقال : «نحن من ماء»(4)، وعرض الصديق لمن جعل يسأله في طريق الهجرة، من هذا معك ؟ فقال : «هاد يهديني السبيل»(5) فهذه المواضع ونحوها يحسن فيها (ترك)(6) البيان، اما بكناية عن المقصود أو تعريض عنه والفرق بينهما أنه في الكناية قاصداً لإفهام المخاطب مراده بلفظ أخفى، لا يفهمه كل أحد، فيكنى عن المعنى الذي يريده. بلفظ أخفى من لفظ الصريح، كما كنى الله سبحانه عن الجماع بالدخول(7) أو بالمس(8) واللمس(9) والافضاء(10)، وكما يكنى عن الفرج بالهن(11) ونحو ذلك .

---

(1) البقرة / 235 وقد ذكر ابن جرير الطبري - رحمه الله - عدة ألفاظ من صيغ التعريض، منها أن يقول الرجل لامرأة: اني أريد التزويج، واني لأحب امرأة من أمرها وأمرها، يعرض لها بالقول بالمعروف. انظر جامع البيان 2 /517.

(2) تهذيب الآثار / مسند علي بن أبي طالب 1 /145 تحقيق محمود شاكر. ط مطبعة المدني.

(3) البخاري، الأنبياء، باب في قوله تعالى : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾. فتح الباري 6 /388 ح 3358. ومقصوده أنها أخته في الإسلام.

(4) الروض الأنف / غزوة بدر 5 /92 تحقيق عبد الرحمن الوكيل.

(5) البخاري، كتاب مناقب الأنصار. باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ح (3911) 7 /249، وأحمد في المسند 3 /122، 211، 287.

(6) (ترك) ليست في «ل».

(7) في قوله تعالى : ﴿وربائبكم اللتي في حجوركم من نسائكم اللتي دخلتم بهن﴾ النساء/ 23.

(8) كما في قوله تعالى : ﴿وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ البقرة 237.

(9) كما في قوله تعالى : ﴿ . . . أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا . . . ﴾ المائدة آية 6.

(10) في قوله تعالى : ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض . . . ﴾ النساء/ 21.

(11) في الأصل (المنى) والتصحيح من «ل» وفي حاشية الصبان : أن الحديث مذكور في الجامع الصغير عن الإمام أحمد والنسائي . وقد ذكره الأشموني بلفظ «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا» 1 /69، وهمع الهوامع 1 /128.

وأمـا التعـريض : فإيهـام السـامع معنى ويراد خلافه ، كالتعريض بالقـذف مثـلا ، فإذا قال : ما أنـا بزان ، أوهم السـامع نفى الزنا عن نفسه ومراده اثباته للسامع كما قال الحماسي[1] :

لكـن قومـى وان كانـوا ذوى عدد ... ليسـوا من الشـر في شيء وان هانـا
كأن ربـك لم يخلق لخشيتـه سواهم ... من جميـع الـنـاس إنـسـانـا

فانـه أوهم السـامـع تنزيههم عن الشر ووصفهم بخشية الله ، ومراده وصفهم بالعجز والجبن . ومثله قول الآخر :

قبـيـلة لا يغـدرون بذمـة ... ولا يظلمـون النـاس حبـة خردل
ولا يردون المـاء الا عشـيـة ... إذا صدر الـورّاد عن كل منهـل[2]

فصـــل

وأمـا السببـان اللذان من السامع فأحدهما سوء الفهم ، فإن درجات الفهم متفاوتة في الناس أعظم تفاوت ، فإن قوى الأذهان كقوى الأبدان ، والنـاس متفـاوتـون في هذا وهـذا تفاوتا لا ينضبط ، وقد سئل على بن أبي طالب رضى الله عنـه : هل خصكم رسـول الله ﷺ بشيء دون النـاس ؟ فقـال : لا . والـذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه وما في هذه الصحيفة : وكان فيها العقل ـ أي الديات ـ وفكاك الأسير»[3]

---

(١) هو قريط بن انيف من بلعنبر ، ولعلهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، والبيتان ضمن ثمانية أبيات في أول الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائى ، وقد ذكر ترجمته المحقق للحماسة الدكتور عبد الله العسيلان . انظر ج ١ /٥٧-٥٨ ، طبع المجلس العلمي / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠١هـ .

(٢) هذان البيتان للنجاشي ، قيس بن عمرو بن مالك ، من بنى الحارث بن كعب من قصيدة يهجو بها بني العجـلان . انظـر الشعـر والشعراء لابن قتيبة ١ /٣٣٠ والعمدة لابن رشيق القيرواني ١ /٥٢ . والنقائض لأبي عبيدة معمر بن المثنى ١ /٢٢٩ .

(٣) البخـاري / الـديـات / باب العـاقلة ، فتـح الباري ١٢ /٢٤٦ ح ٦٩٠٣ وباب لا يقتل المسلم بالكافر ح ٦٦١٥ ، ومسند أحمد ١ /١٧٩ .

وكان أبوبكر الصديق أفهم الأمة لكلام الله ورسوله . ولهذا لما أشكل على عمر مع قوة فهمه قوله تعالى : ﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**﴾[1] وقول النبي ﷺ للصحابة : «انكم تأتونه وتطوفون به» فأورده عليه عام الحديبية . فقال له الصديق : أقال لك انك تأتيه العام . قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به ، فأجابه بجواب النبي ﷺ[2] وأشكل عليه قتال الصديق لمانعي الزكاة وقد قال النبي ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» فقال : ألم يقل إلا بحقها ، فإن الزكاة من حقها[3] . ولما أخبرهم النبي ﷺ : «أن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله» بكى أبوبكر وقال : نفديك بآبائنا وأمهاتنا ، فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبوبكر هو أعلم الأمة به[4] وكذلك فهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ، من سورة ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ إنها اعلام لرسول الله ﷺ بحضور أجله[5] .

وكذلك كان الصحابة أعلم الأمة على الاطلاق : وبينهم وبين من بعدهم في العلم واليقين كما بينهم وبينهم في الفضل والدين ، ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أولى أن يصار إليه مما فهمه من بعدهم ، فأنضاف حسن قصدهم إلى حسن فهمهم ، فلم يختلفوا في التأويل في باب

---

(١) الفتح ٢٧ .

(٢) البخاري / كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، فتح الباري ٥/٣٢٩ ح ٢٧٣١-٢٧٣٢ .

(٣) البخاري / كتاب استتابة المرتدين / باب قتل من أبي قبول الفرائض . فتح الباري ١٢/٢٧٥ ح ٧٢٨٤-٧٢٨٥ .

(٤) البخاري / فضائل الصحابة / باب قول النبي ﷺ «سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر . . .» فتح الباري ٧/١٢ ح ٣٦٥٤ .

(٥) البخاري / كتاب التفسير / باب ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا﴾ فتح الباري ٨/٧٣٤ ح ٤٩٧٠ .

معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله واليوم الآخر، ولا يحفظ عنهم «في»[1] ذلك خلاف لا مشهور ولا شاذ، فلما حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه وساء قصده وقعوا في أنواع من التأويل[2] بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا[3] اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق ومعاداة لأهله، واستحلال لأهله، واستحلال ما حرم الله منهم، **وإذا تأملت** أصول المذاهب الفاسدة رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسة رياسة أومال، أوتوصل إلى عرضٍ من أعراض الدنيا تخضه الآمال وتتبعه الهمم وتشرئب إليه النفوس، فيتفق للعبد شبهة وشهوة، وهما أصل كل فساد ومنشأ كل تأويل باطل وقد ذم الله سبحانه من اتبع الظن وما تهوى الأنفس (فالظن الشبهات وما تهوى الأنفس)[4] الشهوات، وهما اللذان ذكرهما في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿**كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا** . . .﴾[5].

فذكر الاستمتاع بالخلاق وهو التمتع بالشهوات وهو نصيبهم الذي آثروه في الدنيا على حظهم من الآخرة، فالخوض الذي اتبعوا فيه الشبهات فاستمتعوا بالشهوات، وخاضوا بالشبهات، فنشأ عنهما التفرق المذموم الذي ذم الله أهله في كتابه، ونهى عباده المؤمنين عن التشبه بهم فقال: ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك**

(١) (في) من «ل».
(٢) في «ل» في أنواع التأويل (دون) «من».
(٣) في «ل» فإذا.
(٤) ما بين القوسين من «ل».
(٥) براءة / ٦٩.

لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾[1] . قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف[2] .

وأخبر سبحانه ان الحامل لهم على التفرق بعد البيان إنما هو البغي فقال تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[3] .

فأخبر سبحانه ان الذين آمنوا، هدوا لما اختلف فيه أهل التأويل الباطل الذي أوقعهم في الاختلاف والتفرق .

وقال تعالى : ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[5] .

---

(١) آل عمران / آية ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) الدر المنثور ٢/٦٣ قال : واخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه واللالكائي في السنة عن ابن عباس في هذه الآية قال : ﴿تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ قال : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدع والضلالة .

(٣) البقرة ٢١٣ .

(٤) الشورى ١٤ .

(٥) الجاثية ١٦ ـ ١٧ .

ان المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم (السلام)[1] وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن، كقوله: ﴿**ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوء صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة**﴾[3] فهؤلاء المختلفون بالتأويل بعد مجيء الكتاب كلهم مذمومون، والحامل لهم على التفرق والاختلاف البغي وسوء القصد.

(١) (السلام) ليست في الأصل ولا في «ل» وهي دعاء وأضفناها لتمام الكلام.

(٢) يونس ٩٣.

(٣) البينة ٤.

الفصل الثالث والعشرون

في أنواع الاختلاف الناشئ عن التأويل، وانقسام الاختلاف إلى محمود ومذموم

الاختلاف في كتاب الله نوعان :

احدهما : أن يكون المختلفون كلهم مذمومين وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله : ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا**﴾[1] وهم الذين تسود وجوهُهم يوم القيامة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا في الكتاب لفى شقاق بعيد**﴾[2] فجعل المختلفين فيه كلهم في شقاق بعيد[3] .

وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي، وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحَزّب والتباين .

والنوع الثاني : اختلاف ينقسم أهله إلى محمود ومذموم، فمن أصاب الحق فهو محمود، ومن اخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه فَاسْمُ الذَّم **موضوع عنه**[4] وهو محمود على اجتهاده، معفو عن خطئه، وان أخطأه مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم، ومن هذا النوع المنقسم قوله

---

(١) آل عمران (١٠٥).

(٢) البقرة (١٧٦).

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) لقوله ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران وان أخطأ فله أجر. أي أجر اجتهاده»، والخطأ معفو عنه.

تعالى : ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾(٢) .

والاختلاف المذموم كثيرا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق ، فلا يقوله خصمه بل يجحده إياه بغيا ومنافسة فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه ، وهذا شأن جميع المختلفين(٣) .

بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم ، فهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾(٤) .

فأخبر سبحانه أنه هدى عباده لما اختلف فيه المختلفون ، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه : «اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لم اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء إلى

---

(١) البقرة (٢٥٣) .

(٢) الشورى (١٠) .

(٣) أي ، الذين سبب اختلافهم المنافسة وانتصار كل منهم لرأيه وهضم حق خصمه للوصول إلى ما يريده سواء بحق أو بباطل ، وذلك العمل دليل على أن صاحبه فقد مراقبة الله عليه ومحاسبته له على كل ما يعمل فهو ناس لقوله تعالى : ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ بخلاف الذين يقصدون الوصول إلى الحق ، فلا يظلمون أحداً حقه وهم الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة : ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق . . .﴾ .

وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٥ - ٣٦٦ فقد ذكر أمثلة لما اختلف فيه وهدى الله أهل الحق إليه .

(٤) سورة البقرة (٢١٣) .

صراط مستقيم»[1] فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق، فهذا اعلم الناس وأهداهم سبيلا وأقومهم قيلا .

وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى يقر بعضهم بعضا عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل باب التعاون والتناصر الذي لا يستغنى عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم بالتناظر والتشاور، واعمالهم الرأي، واجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى «درك»[2] الصواب فيأتى كل منهم بما قدحه زناد فكره وادركته قوة بصيرته، فإذا قوبل بين الآراء المختلفة، والأقاويل المتباينة، وعرضت على الحاكم الذي لا يجور، وهو كتاب الله وسنة رسوله، وتجرد الناظر عن التعصب والحمية، واستفرغ وسعه، وقصد طاعة الله ورسوله «فقلَّ»[3] ان يخفى عليه الصواب من تلك الأقاويل، وما هو أقرب إليه «والخطأ وما هو أقرب إليه»[4] فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه، ومراتب القرب والبعد متفاوتة .

وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقا في الكلمة ولا تبديداً للشمل، فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع : كالجد مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وفي الخلية والبرية والبتة، وفي بعض مسائل الرّبَا، وفي بعض نواقض الوضوء وموجبات الغسل، وبعض مسائل

---

(١) مسلم كتاب المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ١/٥٣٤ ح ٢٠٠ .

(٢) وفي الأصل (دار) والتصحيح من «ل» .

(٣) في الأصل «قول» والتصحيح من «ل» .

(٤) ما بين القوسين من «ل» .

الفـرائض وغـيرها، فلم ينصب «بعضهم»[1] لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كان كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعـون بعـد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة، من غير أن يضمـر بعضهم لبعض ضغنـا ولا ينطـوى له على معتبـة ولا ذم، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له، ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه .

فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر، وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق. وهنا نوع آخر من الاختلاف وهو وفاق في الحقيقـة وهـو اختـلاف في الاختيـار والأولى بعـد الاتفـاق على جواز الجميـع، كالاختـلاف في أنـواع الأذان، والإقـامـة وصفـات التشهـد، والاستفتـاح، وأنـواع النسـك الـذي يحرم به قاصـد الحج والعمرة، وأنواع صلاة الخـوف، والأفضـل من القنـوت أو تركـه. ومن الجهـر بالبسملة أو اخفائها ونحو ذلك .

فهذا وإن كان صورته صورة اختلاف فهو اتفاق في الحقيقة .

(١) ما بين القوسين من «ل».

فصـــــل

ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لابد منه لتفاوت اراداتهم وأفهامهم وقوى ادراكهم ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحَزُّب وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لابد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحدا والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة، لم يكن يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافا لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة .

الفصل الرابع والعشرون

في أسباب الخلاف الواقع بين الأئمة بعد اتفاقهم على أصل واحد وتحاكمهم إليه وهو كتاب الله وسنة رسوله.

ذكر الحميدي[1] في هذا فصلا من كلام أبي محمد بن حزم، وهو من أحسن كلامه، فرأينا سياقه بلفظه، قال الحميدي: «قال لنا الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد اليزيدي الفارسي[2] في بيان أصل الاختلاف الشرعي وأسبابه: تطلعت النفس بعد تيقنها أن الأصل المتفق (عليه)[3] المرجوع إليه أصل واحد لا يختلف وهو ما جاء عن صاحب الشرع، إما في القرآن، وإما من فعله أو قوله الذي لا ينطق عن الهوى فيه: لما رأيت وشاهدت من اختلاف علماء الأمة فيما سبيله واحد وأصله غير مختلف فبحثت عن السبب الموجب للاختلاف ولترك من ترك كثيرا مما صح من السنن.

فوضح لها بعد التفتيش والبحث أن كل واحد من العلماء (بشر)[4]

---

(١) الحميدي: الحافظ الثبت الإمام القدوة أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح الأزدي الحميدي الاندلسي الظاهري، كان من كبار تلامذة ابن حزم، قال: ولدت قبل سنة عشرين وأربعمائة، قال الذهبي: مات في سابع عشر ذى الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.
تذكرة الحفاظ ٤/١٢١٨.

(٢) ابن حزم الإمام الحافظ الفقيه المجتهد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الفارسي الأصل الأموى اليزيدي القرطبي الظاهري صاحب التصانيف، روى عنه أبو عبد الله الحميدي فأكثر عنه، توفي في شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة. تذكرة الحفاظ ٣/١١٤٦.

(٣) ما بين القوسين من «ل».

(٤) من هنا بدأ النص من أصول الأحكام لابن حزم ج ١/٢٣٧، وينتهي ص ٢٣٤، فصل، فيه بيان سبب الاختلاف الواقع بين الأئمة في صدر هذه الأمة.

ينسى كما ينسى البشر، وقد يحفظ الرجل الحديث ولا يحضره ذكره فيفتي بخلافه وقد يعرض هذا في آي القرآن، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أمر على المنبر أن لا تزاد مهور النساء على عدد ذكره ميلا إلى أن النبي ﷺ لم يزد على ذلك العدد في مهور نسائه حتى ذكّرته امرأة من جانب المسجد بقول الله تعالى : ﴿**وآتيتم إحداهن قنطارا**﴾[1].

فترك قوله وقال كل واحد اعلم منك حتى النساء، وفي رواية أخرى : امرأة أصابت ورجل أخطأ، علما منه رضي الله عنه بأن النبي ﷺ وإن كان لم يزد في مهور النساء على عدد ما، فإنه لم يمنع مما سواه، والآية أعم، وكذلك أمر رضي الله عنه برجم امرأة ولدت لستة أشهر، فذكره على رضي الله عنه بقوله تعالى : ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهرا**﴾[2] مع قوله تعالى : ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾[3]، فرجع عن الأمر برجمها، وهم أن يسطوا بعيينة بن حصن إذ جفا عليه[4]، حتى ذكره الحر بن قيس بقول الله عز وجل : ﴿**وأعرض عن الجاهلين**﴾، فأمسك عمر[5].

وقال رضي الله عنه يوم مات رسول الله ﷺ : والله ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يكون آخرنا، حتى قرأ عليه ﴿**انك ميت وأنهم ميتون**﴾[6].

فرجع عن ذلك، وقد كان علم الآية ولكنه نسيها، لعظم الخطب الوارد عليه.

---

(١) النساء / ٢٠.
(٢) الأحقاف / ١٥.
(٣) البقرة / ٢٣٣.
(٤) في أصول الأحكام : إذ قال له : ياعمر ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل.
(٥) في أصول الأحكام : وقال له : ياأمير المؤمنين هذا من الجاهلين.
(٦) الزمر / ٣٠.

وقد يذكر العالم الآية والسنة، ولكن يتأول فيهما تأويلا من خصوص أو نسخ، أو معنى مّا، وإن كان كل ذلك يحتاج إلى دليل، ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بالمدينة حوله صلوات الله وسلامه عليه مجتمعين وكانوا ذوى معايش يطلبونها، وفي ضنك من القوت[1]، من محترف في الأسواق، ومن قائم على نخلة، ويحضره ﷺ في كل وقت منهم طائفة إذا وجدوا أدنى فراغ مما هم بسبيله[2]، وقد نص على ذلك أبو هريرة فقال: ان إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق، وان إخواني من الأنصار كان يشغلهم القيام على نخلهم، وكنت امرأ مسكينا أصحب رسول الله ﷺ على ملىء بطني[3]، وقد قال عمر رضي الله عنه: ألهاني الصفق بالأسواق، في حديث استئذان أبي موسى[4] وكان ﷺ يسأل عن المسألة ويحكم بالحكم، ويأمر بالشيء، ويفعل الشيء، فيحضره من حضره، ويغيب عمن غاب عنه، فلما مات صلوات الله وسلامه عليه، وولى أبو بكر[5] كان إذا جاءته القضية ليس عنده فيها نص سأل من بحضرته من الصحابة عنها، فإن وجد عندهم نصا رجع إليه، والا اجتهد

---

(١) في أصول الأحكام (من القوت شديد وقد جاء ذلك منصوصا ـ وأن النبي ﷺ وأبابكر وعمر أخرجهم الجوع من بيوتهم فكانوا من محترف) ص١ /٢٣٨.

(٢) في أصول الأحكام: هذا مالا يستطيع أحد أن ينكره.

(٣) البخاري / العلم / باب حفظ العلم، فتح الباري / ٢١٣ ح ١١٨.

(٤) البخاري / البيوع / فتح الباري ٤/ ٢٨٧ ح ٢٠٤٧،
والحرث / باب ٢١ فتح الباري ٥/١٢٨ ح ٢٣٥٠.
والاعتصام بالسنة / باب ٢٢ / فتح الباري ١٣/ ٣٢١ ح ٧٣٥٤.
والبيوع / باب الخروج في التجارة / فتح الباري ٤/٢٩٨ ح ٢٠٦٢.
والاستئذان / باب التسليم والاستئذان، فتح الباري ١١/ ٢٦، ح ٦٢٤٥.
والاعتصام / باب ٢٢، فتح الباري ١٣/ ٣٢٠ ح ٧٣٥٣.
ومسلم / الآداب / باب ٧ الاستئذان، ٣/١٦٩٤ ح ٣٣، ٣٤، ٣٥.
الموطأ / الاستئذان / باب ١ ص ٥٩٧ ح ٣.

(٥) في أصول الأحكام: «فمن حينئذ تفرق الصحابة للجهاد إلى مسيلمة وإلى أهل الردة وإلى الشام والعراق، وبقى بعضهم مع أبي بكر رضي الله عنه بالمدينة.

في الحكم فيها (وكان اجتهاده، واجتهاد غيره منهم رضي الله عنهم رجوعهم إلى نص عام، أو إلى أصل إباحة متقدمة، أو إلى نوع من هذا يرجع إلى أصل، ولا يجوز أن يظن أحد أن اجتهاد أحد منهم هو أنه شرع شريعة باجتهاد ما، أو يخترع حكما لا أصل له، حاشاهم من ذلك)[١].

فلما ولي عمر رضي الله عنه فتحت الأمصار، وتفرقت الصحابة في الأقطار فكانت الحكومة[٢] تنزل بمكة أو بغيرها من البلاد، فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها نص حكم به، والا اجتهدوا في ذلك، وقد يكون في تلك القضية نص موجود عند صاحب آخر في بلد آخر، وقد حضر المدني ما لم يحضر المصري، وحضر المصري ما لم يحضر الشامي، وحضر الشامي ما لم يحضر الكوفي والبصري، والبصري ما لم يحضر الكوفي، والكوفي ما لم يحضر البصري، والمدني ما لم يحضر الكوفي والبصري، كل هذا موجود في الآثار، وتقتضيه الحالة التي ذكرنا من مغيب بعضهم عن مجلسه في بعض الأوقات، وحضور غيره، ثم يغيب الذي حضر، وحضور الذي غاب، فيدرى كل واحد منهم ما حضره، ويفوته ما غاب عنه، هذا أمر مشاهد[٣]، وقد كان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا لا يتيمم الجنب ولو لم يجد الماء شهرين[٤]، وكان حكم المسح على الخفين عند علي وحذيفة ولم تعلمه عائشة ولا ابن عمر، ولا أبو هريرة على أنهم مدنيون[٥]، وكان توريث بنت الابن مع البنت عند ابن

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في أصول الأحكام، وهو تفصيل لما سبق.

(٢) الحكومة : أي القضية.

(٣) في أصول الأحكام : معلوم ببديهة العقل ١/٣٥٥.

(٤) البخاري / التيمم / باب إذا خاف الجنب على نفسه فتح الباري ١/٣٥٥ ح ٣٤٥، ٣٤٦.

(٥) مسلم / الطهارة / باب التوقيت في المسح على الخفين ١/٢٣٢ ح ٨٥.

الموطأ / الطهارة / باب ما جاء في المسح على الخفين ص ٤٨ ح ٤٣.

وقد أشار إليه البخاري / الوضوء / باب المسح على الخفين فتح الباري ١/٣٠٥ ح ٢٠٢.

مسعـود، وغـاب ذلك عن أبي موسى(١)، وكان حكم الاستئذان عند أبي موسى وأبي سعيد الخدري وغاب عن عمر(٢)، وكان حكم الأذن للحائض في أن تنفـر قبـل أن تطـوف عنـد ابن عبـاس وأم سليم، ولم يعلمه ابن عمر وزيـد بن ثابت(٣) وكـان حكم (تحـريم)(٤) المتعة والحمر الأهلية عند علي وغـيره، ولم يعلمـه ابن عبـاس(٥)، وكـان حكم الصرف(٦) عند عمر وأبي سعيد وغيرهما، وغاب ذلك عن طلحة وابن عباس وابن عمر(٧)، وكذلك حكم اجلاء أهل الذمة من بلاد العرب كان عند ابن عباس وعمر، فنسيه عمـر سنـتـين فتركـهـم حتى ذكـر بذلـك فذكـره فأجـلاهـم(٨)،

---

(١) البخاري / الفرائض / باب ٨ ميراث ابنة ابن مع ابنة، فتح الباري ٣٠٥/١ ح ٢٠٢ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٣٧ هامش (٤).

(٣) البخـاري / الحج / باب إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت، فتح الباري ٥٨٦/٣، ح ١٧٥٨، ١٧٥٩، ١٧٦١.

وفي الأصل، وفي «ل» (عمير)، وفي البخاري (ابن عمر).

ومسلم / الحج / باب وجوب طواف الإفاضة وسقوطه عن الحائض ٩٦٣/٢ ح ٣٨١.

(٤) مابين القوسين من أصول الأحكام .

(٥) البخاري / المغازي / خيبر / فتح الباري ٤٨١/٧ ح ١٤٢٦.

البخاري / النكاح / باب نهي الرسول ﷺ عن نكاح المتعة أخيرا، فتح الباري ١٦٦/٩ ح ٥١١٥.

(٦) الصرف : بيع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة .

(٧) البخاري / البيوع / باب بيع الشعير بالشعير، فتح الباري ٣٧٧/٤، ح ٢١٧٤، باب ٧٨ بيع الفضة بالفضة، فتح الباري ٣٧٩/٤، ح ٢١٧٦.

وباب بيع الدينار بالدينار نساء، فتح الباري ٣٨١/٤ ح ٢١٧٨، ٢١٧٩.

(٨) اجلاء عمر لليهود ـ ينظر الحديث في صحيح البخاري / في الشروط / باب إذا اشترط في المزارعة (إذا شئت اخرجتك) فتح الباري ٣٢٧/٥ ح ٢٧٣٠ ونصه : (عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما فدع أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيبا فقال : ان رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم وقال : نقـركم ما أقـركم الله، وان عبـد الله بن عمـر خرج إلى مالـه هنـاك فعـدى عليـه من الليـل ففـدعت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا، وقد رأيت اجلاءهم، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحـد بني أبي الحقيق فقـال : ياأمير المؤمنين، أتخرجنا وقد أقرنا محمد ﷺ وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا ؟ فقال عمر : أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ : كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعد وبك قلوصك ليلة بعد ليلة، فقال : كان ذلك هزيلة من أبي القاسم، فقال : كذبت ياعدو الله، فأجلاهم عمر. . . الحديث). =

ومثل[1] هذا كثير، فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم وكل طبقة من التابعين في البلاد التي ذكرنا، فإنما تفقهوا بمن كان عندهم من الصحابة، فكانوا لا يتعدون فتاويهم، لا تقليدا لهم، ولكن لأنهم أخذوا ورووا عنهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم، كاتباع أهل المدينة في الأكثر فتاوى ابن عمر واتباع أهل مكة في الأكثر (فتاوى ابن عباس، واتباع أهل الكوفة في الأكثر فتاوى ابن مسعود)[2]، ثم أتى من بعد التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة[3] وسفيان[4] وابن أبي ليلى[5]،

= وقال ابن حجر في اثناء شرح الحديث: «وهذا لا يقتضي حصر السبب في اجلاء عمر إياهم، وقد وقع لي فيه سببان آخران:

أحدهما: رواه الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: مازال عمر حتى وجد الثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا يجتمع بجزيرة العرب دينان. فقال: من كان له من أهل الكتابين عهد فليأت به انفذه له، والا فإني مجليكم فأجلاهم.

أخرجه ابن أبي شيبة وغيره، وهذا ما أشار إليه ابن القيم.

ثانيهما: رواه عمر بن شبة في «أخبار المدينة» من طريق عثمان بن محمد الأخني، قال: لما كثر العيال - أي الخدم - في أيدي المسلمين وقووا على العمل في الأرض أجلاهم عمر. اهـ.

(١) وقد أورد في أصول الأحكام آخر ص ٢٢٩ - ٢٣٠ أمثلة أخرى لم يذكرها المؤلف هنا - لأن الغرض هو التمثيل - ثم عاد لنقل النص من قوله: ومثل هذا كثير... الخ.

(٢) ما بين القوسين من «ل» ومن أصول الأحكام.

(٣) أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت أحد الأئمة الأربعة، رأى أنس بن مالك وسمع عطاء بن أبي رباح وأبا إسحاق السبيعي ومحارب بن دثار وغيرهم. انظر تأريخ بغداد ١٣/٣٢٣.

(٤) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، روى عن أبيه وأبي إسحاق الشيباني وأبي إسحاق السبيعي، قال الخطيب كان إماما من أئمة المسلمين وعلما من أعلام الدين مجمعا على إمامته، توفى سنة احدى وستين ومائة. تهذيب التهذيب ٤/١١١.

(٥) ابن أبي ليلى - هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصارى أبو عبد الرحمن الكوفى الفقيه قاضي الكوفة، روى عن نافع مولى ابن عمر وأبي الزبير المكى وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، توفى سنة ثمان وأربعين ومائة. تهذيب التهذيب ٩/٣٠١.

وابن جريج[1] بمكة، ومالك[2] وابن الماجشون[3] بالمدينة، وعثمان البتى[4] وسوار بالبصرة[5] والأوزاعي[6] بالشام، والليث[7] بمصر، فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده وتابعوهم عن الصحابة فيما كان عندهم، وفي اجتهادهم فيما ليس عندهم

---

(١) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم أبو لبيد وأبو خالد المكي، روى عن أبيه وعطاء بن أبي رباح والزهري وغيرهم، وهو من أول من ألف الكتب، توفى سنة خمسين ومائة. تهذيب التهذيب ٦/٤٠٢.

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأسبحي أبو عبد الله المدني الفقيه إمام دار الهجرة، رأس المتقين وكبير المثبتين حتى قال البخاري أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر، من السابعة، مات سنة تسع وسبعين، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين، وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة. تقريب التهذيب ٢/٢٢٣.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة المحاجسون المدني أبو عبد الله الفقيه أحد الأعلام، روى عن أبيه وعمه يعقوب ومحمد بن المنكدر والزهري، توفى سنة أربع وستين ومائة.
تهذيب التهذيب ٦/٣٤٣.

(٤) لعله عثمان بن مسلم ويقال اسم جده جرموز، وفي الأنساب: البتى ـ بفتح الموحدة وبعدها مثناة مكسورة، أبو عمرو البصرى، قال ابن سعد كان ثقة له أحاديث، وكان صاحب رأى وفقه، أخبرنا الأنصاري قال: كان عثمان البتى من أهل الكوفة فانتقل إلى البصرة فنزلها، ومات سنة ثلاث وأربعين ومائة.

تهذيب التهذيب ٧/١٥٣، والأنساب / للسمعاني ٢/٨٢ مطبعة دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٨٣هـ.

(٥) لعله ـ سوار بن عبد الله بن سوار بن عبد الله بن قدامة بن عنزة التميمي العنزى البصرى القاضي، نزل بغداد وولى قضاء الرصافة، روى عن أبيه وعبد الوارث وغيرهما، توفى سنة خمس وأربعين ومائتين، وكذا... أبو العباس السراج وأحمد بن كامل وقال: فقيها قاضيا اديبا شاعرا.
تهذيب التهذيب ٤/٢٦٨.

(٦) عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الشامي الأوزاعي الفقيه، نزل بيروت في آخر عمره فمات بها مرابطا، أحد أئمة الحديث، قال ابن مهدى: ما كان بالشام أعلم منه بالسنة، توفى سنة ثمان وخمسين ومائة.
تهذيب التهذيب ٦/٢٣٨.

(٧) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري، ثقة، ثبت فقيه إمام مشهور، من السابعة. تقريب التهذيب ٢/١٣٨.

وهو موجود عند غيرهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها[1]، وكل ما ذكرنا مأجور على ما أصاب فيه أجرين، ومأجور فيما خفي عنه ولم يبلغه أجرا واحدا[2]، قال تعالى : ﴿**لأنذركم به ومن بلغ**﴾[3]، وقد تبلغ الرجل ممن ذكرنا نصان ظاهرهما التعارض فيميل إلى أحدهما بضرب من الترجيحات، ويميل غيره إلى النص الآخر الذي تركه بضرب آخر من الترجيحات كما روى عن عثمان بن عفان في الجمع بين الأختين، أحلتهما آية وحرمتها آية[4]، وكما مال ابن عمر إلى تحريم نساء أهل الكتاب جملة بقوله تعالى : ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾[5] وقال : لا أعلم شركا أعظم من قول المرأة ان عيسى ربها[6] وغلب ذلك على الإباحة المنصوصة في الآية الأخرى[7]، ومثل هذا كثير .

فعلى هذه الوجوه ترك بعض العلماء (ما تركوا)[8] من الحديث ومن

---

(١) وهذا من لطف الله بعباده ان لا يكلف إنسانا ما لا يطيق، فالمسلم مكلف بما بلغه من شرع الله، إذ لا يجوز له العدول عنه بعد بلوغه له بالطريق الصحيح الملزم له، وهكذا كان سلف هذه الأمة لا يتجاوز أحدهم النص إذا بلغه من وجه صحيح .

(٢) لقوله ﷺ : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر. أخرجه البخاري في الاعتصام بالسنة / باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

فتح الباري ٣١٨/١٣ ح ٧٣٥٢.

(٣) سورة الأنعام / ١٩ .

(٤) ويعنى به أن تكون احداهما بملك اليمين، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وان تجمعوا بين الأختين إلّا ما قد سلف﴾ وقد نقل الاجماع على تحريم الجمع بين الاختين مطلقا، انظر ذلك في تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢١-٢٢٢، وأشار إلى الخلاف في الجمع بينهما بملك اليمين والمشهور عن الجمهور تحريمه، وأشار ابن حجر في فتح الباري ٩ / ١٦٠ إلى ذلك .

(٥) البقرة / ٢٢١ .

(٦) ذكر هذا الأثر ابن كثير في تفسير آية البقرة ١ / ٣٧٦ قال : وقال البخاري وقال ابن عمر لا أعلم شركا أعظم من أن تقول : ربها عيسى .

وقد أخرجه البخاري في الطلاق باب ١٨، فتح الباري ٤١٦/٩ ح ٥٢٨٥.

(٧) الآية الأخرى هي قوله تعالى : ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية المائدة/٥ .

(٨) ما بين القوسين من «ن»، وفي أصول الأحكام : «ترك مالك ومن كان من قبله ما تركوا» .

الآيات ، وعلى هذه الوجوه خالفهم نظراؤهم ، فأخذ هؤلاء ما ترك أولئك وأخـذ أولئك ما ترك هؤلاء[1] لا قصـدا إلى خلاف النصـوص ولا تركـا لطـاعتهـا ، لكن لأحـد الأعـذار التي ذكـرنـا ، امـا من نسيـان ، واما أنها لم تبلغهم ، واما لتأويل ما ، وإما لأخذ بخبر ضعيف لم يعلم الأخذ به ضعف روايتـه ، وعلمـه غيره فيأخـذ بخبر آخر أصح منه ، أولظاهر آية ، وقد يتنبه بعضهم في النصوص الواردة إلى معنى ويلوح منه حكم بدليل ما ، ويغيب عن غيره .

وقـد كثـرت الـرحـل إلى الآفـاق[2] وتداخل الناس ، وانتدب أقوام لجمـع حديث النبي ﷺ ، وضمـه وتقييـده ، ووصل من البلاد البعيدة إلى من لم يكن عنـده ، وقـامت الحجـة على من بلغـه شيء منـه ، وجمعت الأحـاديث المثبتـة لصحـة أحـد التأويـلات المتأولـة في الحـديث ، وعـرف الصحيـح من السقيم (وراق)[3] الاجتهـاد المؤدى إلى خلاف كلام رسول الله ﷺ وإلى ترك عمله ، وسقـط العـذر عمن خالف ما بلغـه من السنن ببلوغها إليه وقيام الحجة بها عليه ، ولم يبق إلا العناد والتقليد .

وعلى هذه الطـريقـة كان الصحـابـة رضي الله عنهم ، وكثـير من التـابعـين يرحلون في طلب الحديث الأيام الكثيرة طلبا للسنن والتزاما لها ، وقد رحل أبو أيوب من المدينة إلى مصر في حديث واحد إلى عقبة بن

---

(١) ثم قال ابن حزم في أصول الأحكام : فهي وجوه عشرة كما ذكرنا ، ثم سردها مرقمة وهي ضمن هذا الكلام المذكور إلى قوله : ثم كثرت الرحل .

(٢) في الأصل (الإيمان) والتصحيح من «ل» ومن أصول الأحكام .

(٣) هكـذا في الأصـل (راق) بالـراء والألـف والقاف المثناة ، وفي «ل» : (زاف) بالزاى والفاء الموحدة ، وفي أصول الأحكام : (وزيف) بالزاي والياء والفاء الموحدة ، ولعله الأولى أي أن الاجتهاد مع وجود النص لا محل له ، فهو زائف ، أي مردود ، يقال : زافت عليه دراهمه ، أي صارت مردودة لغش فيها .
لسان العرب / مادة : زيف .

عامر(١)، ورحل علقمة والأسود إلى عائشة وابن عمر، ورحل علقمة إلى أبي الدرداء بالشام(٢)، وكتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : أكتب ما سمعته من رسول الله ﷺ ومثل هذا كثير. انتهى كلامه(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : جماع الأعذار(٤) لمن ترك من الأئمة حديثا ثلاثة أصناف :

احـدها : عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله .

الثاني : عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول .

الثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة :

السـبب الأول :

أن لا يكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، فإذا لم يبلغه وقد قال في تلك النازلة بموجب ظاهر آية، أو حديث آخر، أو بموجب قياس، أو استصحاب، فقد يوافق الحديث المتروك تارة، ويخالفه أخرى، وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث، فإن الاحاطة بحديث رسول

---

(١) المسند ٤/١٥٣ .

(٢) المسند ٦/٤٤٩، وقد أخرج ما يشير إلى ذلك البخاري في التفسير فتح الباري ٨/٧٠٦ ح ٤٩٤٣. كما ذكره ابن كثير في التفسير ٨/٤٣٨ .

(٣) انتهى النص الذي ذكر الحميدي تلميذ ابن حزم أنه نقله عنه، وقد نبهنا على السقط لأننا لم نجده في كتاب الحميدي نفسه، ويظهر أن الحميدي نقله من أصول الأحكام فقد ورد فيها ج١/٢٣٧-٢٤٢ تحت «فصل» في بيان سبب الاختلاف الواقع بين الأئمة في صدر هذه الأمة .

(٤) من قوله جماع الأعذار بدء النقل من رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية من ص ٥-٢٩، ثم تصرف في نصوص أخرى من رفع الملام بالتقديم والتأخير والزيادة للايضاح والبيان، كما أضاف بعض المباحث والأمثلة المتعلقة بهذا الموضوع .

الله ﷺ لم يكن لأحد من الأئمة، واعتبر ذلك بالخلفاء الراشدين (الذين)[1] هم أعلم الأمة بأمور رسول الله ﷺ وسننه وأحواله، وخصوصا الصديق الذي لم يكن يفارقه لا سفرا ولا حضرا، وكان عنده غالب الأوقات حتى كان يسهر عنده بالليل، وكان ﷺ كثيرا ما يقول: «دخلت أنا وأبوبكر وعمر، وخرجت أنا وأبوبكر وعمر، وذهبت أنا وأبوبكر وعمر»، ثم مع ذلك الاختصاص خفي عن أبي بكر ميراث الجدة وكان علمه عند المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة[2] وعمران بن حصين، وليس هؤلاء الثلاثة مثل أبي بكر ولا قريبا منه في العلم، وخفي على عمر سنة الاستئذان[3]، وتوريث المرأة من دية زوجها حتى أخبره الضحاك بن سفيان الكلابي ـ أميراً لرسول الله ﷺ على بعض البوادى ـ أن رسول الله ﷺ ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها فترك رأيه لذلك وقال: لولم أسمع بهذا لقضينا بخلافه[4] (وخفي عليه حكم المجوس حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»)[5].

وخفي عليه حكم الطاعون حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن

---

(١) ما بين القوسين من «ل».

(٢) الترمذي / الفرائض / باب ما جاء في ميراث الجدة، تحفة الأحوذى ٦/٢٧٨ ح ٢١٨٣، وقال: حديث حسن صحيح.

والموطأ / الفرائض / باب ميراث الجدة ص ٣١٧ ح ٤.

وابن ماجة / الفرائض / باب ميراث الجدة ٢/٩٠٩ ح ٢٧٢٤.

وأبو داود / الفرائض / باب في الجدة ٣/٣١٦ ح ٢٨٩٤.

(٣) تقدم تخريجه ص ٣٢٥ هامش (٤).

(٤) الترمذي / الديات / باب ما جاء في المرأة ترث من دية زوجها، تحفة الأحوذى ٤/٦٧٤ ح ١٤٢٣ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وأبو داود / الفرائض / باب في المرأة ترث من دية زوجها ٣/٣٣٩ ح ٢٩٢٧.

وابن ماجة / الدين / باب الميراث من الدية ٢/٨٨٣ ح ٢٦٤٢.

(٥) ما بين القوسين من «ل».

رسـول الله ﷺ قال : «إذا وقـع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه»(١).

وتذاكر هو وابن عباس أمر الذي يشك في صلاته فلم يكن قد بلغته السنـة في ذلـك حتى حدثـه عبـد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ أنه يطرح الشك ويبنى على ما استيقن(٢)، وكان مرة في السفر فهاجت ريح، فجعل يقـول : من يحدثنـا عن الـريـح ؟ فقـال أبـو هريـرة، فبلغني ذلـك وأنا في أخريات الناس، فحثثت راحلتي حتى أدركته فحدثته بها أمر النبي ﷺ عند هبوب الريح(٣).

فهذه مواضع لم يكن يعلمها حتى بلغه إياها من عمر أعلم منه بكثير.

ومـواضـع أخـر لم يبلغـه ما فيها من السنة فقضي وأفتى بغيرها، كما قضى (في)(٤) دية الأصابع أنها مختلفة بحسب منافعها، وقد كان عند أبي موسى وابن عباس وهما دونه في العلم أن النبي ﷺ قال : «هذه وهذه

---

(١) البخاري / الطب / باب ما يذكر في الطاعون، فتح الباري ١٠/ ١٧٩ ح ٥٧٢٩، ٥٧٣٠.
وفي الحيل / باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، فتح الباري ١٢/ ٣٤٤ ح ٦٩٧٣.
ومسلم / في السلام / باب الطاعون والطيرة والكهانة ٤/ ١٧٤٠ ح ٩٨.

(٢) المسند ١/ ١٩٠ وهو ما ذكره المؤلف من سؤال عمر بن عباس، ولفظه : إذا شك أحد في صلاته ماذا يصنع ؟.
أمـا روايـة : (فليطـرح الشـك . . . الـخ) فأخرجها مسلم في المساجد من رواية أبي سعيد الخدري، مسلم ١/ ٤٠٠ ح ٨٨، وابن ماجة في الاقامة ١/ ٣٨٢ ح ١٢١٠ بلفظ : فليلغ الشك.
وفي المسند ٣/ ٨٣.
ورواية عبد الرحمن بن عوف أخرجها ابن ماجة / في الاقامة / باب ما جاء فيمن شك في صلاته فرجع إلى اليقين ١/ ٣٨١ ح ١٢٠٩ ولفظه : إذا شك أحدكم في الثنتين والواحدة.

(٣) ابن ماجة / الأدب / باب النهي عن سب الريح ٢/ ٢٢٨ ح ٣٧٢٧.
وأبو داود / الأدب / باب ما يقول إذا هاجت الريح ٥/ ٣٢٨ ح ٥٠٩٧.
مصنف عبد الرزاق / باب الريح والغيث ١١/ ٨٩ ح ٢٠٠٠٤.
وابن مندة في التوحيد / باب ذكر الفرق بين الريح والرياح، ح ٥٥.

(٤) (في) من «ل».

سواء»(١) فبلغت هذه السنة معاوية في إمارته فقضى بها، ولم يجد المسلمون بدا من اتباع ذلك، وكان عمر ينهى المحرم عن التطيب قبل الإحرام وقبل الافاضة إلى مكة بعد رمي الجمرة هو وابنه عبد الله وغيرهما من أهل العلم، ولم يبلغهم حديث عائشة رضي الله عنها : طيبت رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت(٢) وكان يأمر لابس الخف أن يمسح عليه إلى أن يخلعه من غير توقيت، واتبعه على ذلك طائفة من السلف ولم يبلغهم أحاديث التوقيت(٣) التي صحت عند مَنْ عُمَر (أعْلَمُ منه، وكذلك عثمان لم يكن عنده علم بأن المتوفى(٤))عنها زوجها تعتد في منزل الموت حتى حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقصتها لما توفي زوجها وأن النبي ﷺ قال لها : «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»(٥)، فأخذ به عثمان وترك فتواه، وأهدي له مرةً صيدٌ صيد لأجله وهو محرم فهم بأكله حتى أخبره علي رضي الله عنهما بأن النبي ﷺ رد لحما أهدي له وهو محرم، وأفتى علي وابن عباس وغيرهما أن المتوفى عنها إذا كانت حاملا تعتد أقصى الأجلين، ولم يكن (قد)(٦) بلغتهم سنة رسول الله ﷺ في سبيعة الأسلمية أن رسول الله ﷺ أفتاها حين وضعت حملها بأنها

(١) «يعني الابهام والخنصر» أخرجه البخاري / في الديات / باب دية الأصابع، فتح الباري ١٢/٢٢٥ ح ٦٨٩٥ عن ابن عباس، وقد أشار ابن حجر في الشرح إلى أصل الخلاف.

وأبو داود / الديات / باب ديات الأعضاء / ٥/٦٨٨ ح ٤٥٥٦ عن أبي موسى، وص ٦٩٠ ح ٤٥٥٨ عن ابن عباس.

وابن ماجة / الديات / باب دية الأصابع ٢/٨٨٥ ح ٢٦٥٢ عن ابن عباس، وص٨٨٦ ح ٢٦٥٤ عن أبي موسى الأشعري.

(٢) البخاري في الحج / باب الطيب عند الاحرام / فتح الباري ٣/٣٩٦ ح ١٥٣٩، ومسلم / كتاب الحج، باب الطيب للمحرم عند الإحرام ٢/٨٤٩ ح (٣١، ٣٣، ٤٧، ٤٩).

(٣) مسلم / الطهارة / باب التوقيت في المسح على الخفين ١/٢٣٢ من حديث علي بن أبي طالب.

(٤) ما بين القوسين من «ل».

(٥) المسند ٦/٣٨٠.

(٦) (قد) من «ل».

قد حلت للأزواج(١)، وأفتى هو وزيد بن ثابت وابن عمر وغيرهم بأن المفوضة إذا مات عنها زوجها فلا(٢) مهر لها ولم يكن بلغتهم سنة رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق وهذا باب واسع .

وأما المنقول فيه عمن بعد الصحابة والتابعين فأكثر من أن يحصى ، فإذا خفي على أعلم الأمة وافقهها بعض السنة ، فما الظن بمن بعدهم فمن اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل فرد فرد من الأئمة أو اماما معينا فقد أخطأ خطأ فاحشا (قال أبو عمر : وليس أحد بعد رسول الله ﷺ إلا وقد خفيت عليه بعض سنة رسول الله ﷺ من الصحابة فمن بعدهم وصدق أبو عمر رضي الله عنه أن مجموع سنة رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وإقراره لا يوجد عند رجل واحد أبدا ، ولو كان أعلم أهل الأرض .

فإن قيل فالسنة قد رويت(٣) وجمعت وضبطت ، وصار ما تفرق منها عند الفئة الكثيرة مجموعا عند واحد .

قيل : هذه الدواوين المشهورة في السنن إنما جمعت بعد انقراض عصر الأئمة المتبوعين ، ومع هذا فلا يجوز أن يدعى انحصار سنة رسول الله

---

(١) البخاري / التفسير / سورة الطلاق / فتح الباري ٨/٦٥٣ ح ٤٩٠٩ .
ومسلم / الطلاق / ٢ / ١١٢٢ ح ١٤٨٥ .
والموطأ / الطلاق / باب المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا ص ٣٦٤ ح ٨٣ .
والنسائي / الطلاق / باب عدة الحامل المتوفى عنها زوجها ٥/١٥٧ .
وأبو داود / في الطلاق / باب في عدة الحامل ٢ / ٧٣٠ ح ٢٣٠٧ ، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره ٨/١٧٧ في ذكره للحديث ، قال : بلغ ابن مسعود أن عليا يقول آخر الاجلين ، وقال : رواه أبو داود وابن ماجة ، ولكن لم يرد فيهما ذكر علي ولا في الروايات السابقة ، وإنما ذكر في تلك ابن عباس وأبو هريرة وأبو سلمة .
وابن ماجة ١/٦٥٤ ح ٢٠٣٠ .
الترمذي / الطلاق / باب ما جاء في الحامل المتوفي عنها زوجها تضع .
تحفة الأحوذي ٤/٣٧٥ ح ١٢٠٧ .
(٢) في الأصل (ولا) ، وفي «ل» فلا بالفاء وهو الأولى .
(٣) في «ل» (وقد دونت) والسياق يدل عليه .

ﷺ في دواوين معينة، ثم لو فرض انحصار السنة في هذه الدواوين فليس كل ما فيها يعلمه العالم، ولا يكاد يحصل ذلك لأحد أبدا، بل قد يكون عند الرجل الدواوين الكثيرة وهو لا يحيط علما بما فيها، بل الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين كانوا أعلم بالسنة من المتأخرين بكثير، لأن كثيرا مما بلغهم وصح عندهم قد لا يبلغنا إلا عن مجهول، أو باسناد منقطع، أو لا يبلغنا بالكلية، وكانت دواوينهم صدورهم التي تحوى أضعاف ما في الدواوين(١).

فصـــل(٢)

السبب الثـــاني :

أن يكون الحديث قد بلغه (لكنه)(٣) لم يثبت عنده، لأن محدثه أو من فوقه مجهول عنده، أو سيىء الحفظ، أو متهم، أو لم يبلغه مسندا بل منقطعا، أو لم يضبط له لفظ الحديث، ويكون ذلك الحديث بعينه قد رواه الثقات لغيره بإسناد صحيح متصل بأن يعلم غيره عدالة ذلك المجهول، أو يرويه له ثقة غيره ويتصل له من غير تلك الجهة المنقطعة ويضبطه له من لم يضبطه للآخر، أو يقع له من الشواهد والمتابعات ما لم يقع لغيره فيكون الحديث حجة على من بلغه من هذا الوجه، وليس حجة على من بلغه من الوجه الأول، ولهذا علق كثير من الأئمة القول بموجب الحديث على صحته فيقول : قولي فيها كيت وكيت، وقد روى فيها حديث بخلافه فإن صح فهو قولي(٤)، وأمثلة هذا كثيرة جدا.

(١) إلى هنا نقلا من رفع الملام ص ١٩، وقد نبهت على ما لم يوجد فيه، ثم بدأ بالسبب الثاني وهو في رفع الملام يبدأ من ص ١٩.

(٢) (فصل) في «ل».

(٣) (لكنه) من «ل» ومن رفع الملام.

(٤) إلى هنا ينتهي السبب الثاني الوارد في رفع الملام ص ٢١، وفيه بعض الزيادة من ابن القيم للتوضيح، ثم يبدأ السبب الثالث من ص ٢١ أيضا.

فصـــل

السبب الثـــالث :

اعتقاد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره، فقد يعتقد أحد المجتهدين ضعف رجل، ويعتقد الآخر ثقته، وقوته (وقد يكون الصواب مع المضعف لاطلاعه على سبب خفي على الموثق)[1]، وقد يكون الصواب مع الآخر لعلمه بأن ذلك السبب غير قادح في روايته وعدالته، اما لأن جنسه غير قادح، واما لأن له فيه عذرا وتأويلا يمنع الجرحَ، وقد لا يعتقد الذي بلغه الحديث (ان رواية معه من غيره لأسباب معروفة عنده خفيت على غيره)[2]، وقد يكون للمحدث حالان، حال استقامة، وحال اضطراب ولا يدرى الرجل أن حديثه المعين حدث به في حال الاستقامة أو في حال الاضطراب فيتوقف فيه، ويعلم غيره أنه حدث به في حال الاستقامة فيقبله، وقد يكون المحدث قد نسي الحديث الذي حدث به فينكره، فيبلغ المجتهد انكاره له فلا يعمل به، ويرى غيره أن نسيانه له لا يقدح في صحة الحديث ووجوب العمل به .

وأيضا فكثير من الحجازيين لا يحتج بحديث عراقي ولا شامي إن لم يكن له أصل بالحجاز حتى قال بعض من يذهب هذا المذهب : نزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقيل لبعض من كان يذهب إلى هذا المذهب : سفيان عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله حجة قال : إن لم يكن له أصلا بالحجاز فلا .

وكان الشافعي يرى هذا المذهب أولا ثم رجع عنه وقال للإمام أحمد

(١) ما بين القوسين ليس في «ل».

(٢) هكذا في الأصل وفي «ل».

يأبا عبد الله : إذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شاميا كان أو عراقيا ولم يقل أو حجازيا، لأنه لم يكن يشك هو ولا غيره في أحاديث أهل الحجاز وأكثر أهل العلم على خلاف هذا المذهب، وأن الحديث إذا صح وجب العمل به من أي مصر من الأمصار كان مخرجه[1] وعلى هذا اجماع أهل الحديث قاطبة .

فصـــــل

السبب الرابـــع :

اشتراط بعضهم في خبر الواحد العدل شروطا يخالفه فيها غيره كاشتراط بعضهم أن يكون الراوى فقيها إذا خالف ما رواه القياس، واشتراط بعضهم انتشار الحديث وظهوره إذا كان مما تعم به البلوى[2]، واشتراط بعضهم أن لا يكون الحديث قد تضمن زيادة على نص القرآن لئلا يلزم فيه نسخ القرآن به، وهذه مسائل معروفة .

فصـــــل

السبب الخـــامس :

ان ينسى الحديث أو الآية كما نسي عمر قوله تعالى : ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾[3]، ونسي قوله تعالى : ﴿**وآتيتم احداهن قنطارا**﴾[4] ونسي فتوى النبي ﷺ له ولعمار بالتيمم للجنابة في السفر[5].

(١) إلى هنا انتهى السبب الثالث من رفع الملام ص ٢٤، وفيه تصرف من ابن القيم حيث لم ينقل النص كما ورد، وقد يضيف شيئا من عنده للتوضيح .

(٢) إلى هنا نص رفع الملام من السبب الرابع ص ٢٥.

(٣) الزمر / ٣٠.

(٤) النساء / ٢٠.

(٥) تقدم ص ٣٣٠ هامش (٧).

وكـذلـك ما روى أن عليـا ذكـر الـزبير يوم الجمل شيئا عهده إليهما رسول الله ﷺ فذكره، فانصرف عن[1] القتال[2].

قلت : فيكـــون النـاسي معـذورا بفتـواه بخـلاف النص، فما عُذْرُ الذّاكر للنص إذا قلد الناسي وخالف الذّاكر والذّكر.

فصـــــل

السبب الســـادس :

عدم معـرفتـه بدلالـة الحـديث، اما بكون لفظ الحديث غريبا عنده مثـل لفـظ المـزابنـة[3]، والمحـاقلة[4]، والمخـابـرة[5]، والمـلامسـة[6]، والمنـابـذة[7]، والحصـاة[8]، والغـرر[9] ونحـوهـا من الكلمات الغريبة التي

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٧/٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) إلى هنا انتهى النص من رفع الملام السبب الخامس ص ٢٩.

(٣) المزابنة : هي بيـع الـرطب في رؤوس النخـل بالثمر، ونهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة. النهاية ٢/٢٩٤.

(٤) المحاقلة : مختلف فيها، قيل : هي اكتراء الأرض بالحنطة، هكذا جاء مفسرا في الحديث، وقيل المزارعة على نصيب معلوم كالثلث والربع وقيل بيع الطعام في سنبلة بالبر، وقيل غير ذلك. النهاية ١/٤١٦.

(٥) المخـابـرة : نهي عن المخابرة، وقيل : هي المزارعة على نصيب معين كالثلث والربع، وقيل غير ذلك. النهاية ٢/٧.

(٦) الملامسة : هو أن يقول : إذا لمست ثوبي أو لمست ثوبك فقد وجب البيع. النهاية ٤/٢٦٩.

(٧) المنـابـذة في البيـع : هو أن يقـول الـرجل لصاحبه : انبذ إلى الثوب أو انبذه إليك ليجب البيع، وقيـل : هو أن يقـول : إذا نبـذت إليـك الحصـاة فقـد وجب البيع، فيكون البيع معاطاة من غير عقد، ولا يصح. النهاية ٥/٦.

(٨) نهى عن بيـع الحصـاة : هو أن يقـول البـائـع أو المشـتري : إذا نبـذت إليك الحصاة فقد وجب البيع... الخ، وهو فاسد لأنه من بيوع الجاهلية لما فيه من الغرر. النهاية ١/٣٩٨.

(٩) نهى عن بيع الغرر : هو ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول. النهاية ٣/٣٥٥.

يختلف العلماء في تأويلها، ومثل قوله : لا طلاق ولا عتاق في اغلاق[1]، فإنهم فسروا الاغلاق بالاكراه .

قلت : هذا تفسير كثير من الحجازيين، ومنهم من فسره بالغضب وهو تفسير العراقيين ونص عليه أحمد، وأبو عبيد، وأبو داود، ومنهم من فسره بجمع الثلاث في كلمة واحدة فإنه مأخوذ من غلق الباب، أي أغلق عليه باب الطلاق جملة، وصحح بعضهم هذا التفسير وجعله أولى التفاسير وممن حكى الأقوال الثلاثة صاحب مطالع الأنوار، وصاحب مشارق الأنوار[2]. وهذا الباب يعرض منه اختلاف كثير، سببه أن يكون لذلك اللفظ في لغته وعرفه معنى غير معناه في لغة الرسول ﷺ اما أعم منه، أو أخص فتفطن لهذا الموضع فإنه منشأ لغلط كثير على صاحب الشرع، والصواب في لفظ الاغلاق انه الذي يغلق على صاحبه باب تصوره أو قصده كالجنون والسكر والاكراه والغضب كأنه لم ينفتح قلبه لقصده، ولا وطر له فيه، ومن هذا لفظ الخمر، فإنه في لغة الشارع اسم لكل مسكر لا يختص بنوع من أنواعه وهذا المعنى مطابق لاشتقاقه فتخصيصه ببعض الأنواع المسكرة دون بعض إصطلاح حادث حصل بحمل كلام الشارع عليه، تخصيص لما قصد الشارع تعميمه[3] ولهذا لم

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق / باب في الطلاق على غلط ٢/٦٤٢ ح ٢١٩٣، وقد ورد في شرح الحديث الأقوال التي ذكرها المصنف.

وابن ماجة في الطلاق / باب طلاق المكره ١/٦٥٨ ح ٢٠٤٦، وفي الاسنادين عنعنة محمد بن إسحاق عن ثور .

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض ج ٢/١٣٤ طبع دار التراث .

(٣) جاء في لسان العرب مادة (خمر) تعريف الخمر بما يأتي : الخمر ما أسكر من عصير العنب، لأنها خامرت العقل، والتخمير التغطية يقال : خمر وجهه، وخمر اناءك، وقال أبو حنيفة : قد تكون الخمر من الحبوب، فجعل الخمر من الحبوب، قال ابن سيدة : وأظنه تسمحا منه لأن حقيقة الخمر إنما هي من العنب دون سائر الأشياء . . . اهـ.

نقول : هذا الذي يقوله ابن سيدة من قصر الخمر على العنب، هو الذي يشير إليه ابن القيم من حمل ألفاظ الشارع العامة على إصطلاح حادث فيحمل كلام الشارع عليه، ولفظ الرسول ﷺ في هذا : كل=

يختلف المخاطبون بالقرآن أولا، وهم الصحابة في تحريم ذلك كله[1].

فصـــــل

ومن هذا الخلاف (العارض)[2] من جهة كون اللفظ مشتركا، أو مجملا أو مترددا بين حمله على معناه عند الاطلاق، وهو المسمى بالحقيقة، أو على معناه عند التقييد، وهو المسمى بالمجاز، كاختلافهم في المراد من القرء، وهل هو الحيض أو الاطهار، ففهمت طائفة منه الحيض وأخرى الطهر، وكما فهمت طائفة من الخيط الأبيض والأسود الخيطين المعروفين، وفهم غيرهم بياض النهار وسواد الليل[3]، وكما فهمت طائفة من قوله في التيمم: ﴿**فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾[4]، المسح إلى الآباط

= مسكر خمر وكل خمر حرام. مسلم / الأشربة / باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/١٥٨٨ ح ٧٥.

فهو لفظ عام يشمل كل مسكر سواء كان من العنب أو الحبوب أو غيرهما لأن الخمر ما خامر العقل.

(١) فقد جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام عمر على المنبر فقال: أما بعد، نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل.

فتح الباري / الأشربة / باب الخمر من العنب وغيره ١٠/٣٥ ح ٥٥٨١.

وفي حديث أنس بن مالك رقم ٥٥٨٤ قال: ان الخمر حرمت والخمر يومئذ من البسر والتمر.

قال ابن حجر في فتح الباري ١٠/٤٦ في شرح باب ما جاء في أن الخمر ما خامر العقل من الشراب، قال: وأراد عمر بنزول تحريم الخمر الآية المذكورة في أول كتاب الأشربة وهي آية المائدة: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى آخرها، ويوافقه حديث أنس الماضي، فإنه يدل على أن الصحابة فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر سواء كان من العنب أم من غيرها، وقد جاء هذا الذي قاله عمر عن النبي ﷺ صريحا فذكره، انظر الصفحة المشار إليها.

(٢) ما بين القوسين من «ل».

(٣) كما صنع عدى بن حاتم رضي الله عنه، انظر فتح الباري الصوم / باب قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ٤/١٣٢ ح ١٩١٦، وقد قال له رسول الله ﷺ: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار».

(٤) المائدة / ٦.

ففعلوه(١)، وفهم آخرون المسح إلى الكوع(٢) ففعلوه ؟ وفهم آخرون المسح إلى المرافق ففعلوه(٣)، وأسعد الناس بفهم الآية من فهم منها المسح إلى الكوع، وهذا هو الذي فهمه رسول الله ﷺ من الآية(٤)، وهو نظير فهمه صلوات الله وسلامه عليه القطع من الكوع من آية السرقة، وكما فهمت طائفة من قوله : ﴿**وامسحوا برؤوسكم**﴾(٥) البعض مقدرا(٦) أو غير مقدر(٧)، وفهم آخرون(٨) مسح الجميع، وفهمهم مؤيد بفعل الرسول ﷺ، وكما فهم بعضهم من قوله تعالى : ﴿**فإن كان له اخوة فلأمه السدس**﴾(٩) الثلاثة فصاعدا اعتمادا على الحقيقة، وفهم الآخرون الاثنين

---

(١) كما ورد ذلك في بعض روايات حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عند أبي داود في كتاب الطهارة حديث ٣١٨.

وعند ابن ماجة في التيمم حديث ٥٦٥، والنسائي في الطهارة حديث ٣١٥، قال الخطابي معلقا على هذه الرواية : «لم يختلف أحد من أهل العلم أنه لا يلزم المتيمم أن يمسح بالتراب ما وراء المرفقين وإنما جرى القوم في استيعاب اليد بالتيمم على ظاهر الاسم وعموم اللفظ، لأن ما بين مناط المنكب إلى أطراف الأصابع كله اسم لليد».

انظر معالم السنن على حاشية سنن أبي داود ١/٢٢٤.

(٢) ذكر الخطابي، أنه رأيُ ابن عمر وابنه سالم والحسن والشعبي، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري، وهو قول مالك والشافعي.

انظر معالم السنن بحاشية أبي داود ١/٢٢٥.

(٣) ذكر ابن كثير في التفسير ٢/٢٨٠ ان ذلك مذهب الشافعي في الجديد وذكر وجهة نظره في ذلك كما حكى القول القديم له، وأنه مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين.

(٤) وهو قول الإمام أحمد، حكاه ابن كثير في تفسير الآية ٢/٢٨٠ وقد جاءت الرواية عنه في المسند ٤/٢٦٣ من حديث عمار.

(٥) المائدة / ٦.

(٦) ذكر ابن كثير في تفسير سورة المائدة ٣/٤٦ : ان الحنفية تقول بوجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية.

(٧) قال : وذهب أصحابنا ـ ويعني به الشافعية إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، ولا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه، ثم ذكر حجة الفريقين والرد عليهم.

(٨) الآخرون ـ هما الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل قالا : ان المسح لجميع الرأس دليلهما حديث عبد الله بن زيد. أخرجه مالك في الموطأ / الطهارة / باب العمل في الوضوء ص ٣٨ ح ٢.

(٩) النساء / ١١.

فصاعدا اعتمادا على فهم الجنس الزائد على الواحد، وهؤلاء أسعد[1] بفهم الآية .

وكما فهم الصديق ومن معه من الكلالة التي يرث معها الإخوة والاخوات للأب عدم الولد وان سفل، والأب وان علا، وفهم آخرون منها عدم الأب[2] دون من فوقه، والصديق أسعد[3] بفهم الآية، كما اتفق المسلمون على أن الكلالة في قوله : ﴿**وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس**﴾[4]، انها عدم الولد وان سفل والأب وان علا كما فهم الصديق[5] .

وكما فهم من فهم من السلف والخلف من قوله تعالى : ﴿**الطلاق مرتان**﴾[6] انه مرة بعد مرة[7] مثل قوله : ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾ وقوله : ﴿**فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله . . .**﴾[8]، وقوله في الحديث : (فلما أقر أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ)[9] .

وقوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات**﴾[10] .

وجميع ما ذكر فيه تعدد المرة فهذا سبيله، فالثلاث المجموعة بكلمة

---

(١) وهو رأي الجمهور حكاه ابن كثير في تفسير الآية ٢/١٩٨ .

(٢) ابن جرير الطبري / التفسير ٤ / ٢٨٥ .

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٤/٢٨٤، ووافقه عمر بن الخطاب على ذلك .

(٤) النساء / ١٢ .

(٥) ذكر ابن كثير في التفسير ٢/٤٣٦ أن هذا قول الجمهور وهو قضاء الصديق رضي الله عنه .

(٦) البقرة / ٢٢٩ .

(٧) ذكر ذلك في اغاثة اللهفان ١/٣٠١.

(٨) النور / ٦ .

(٩) البخاري / الحدود / باب لا يرجم المجنون والمجنونة .
فتح الباري ١٢/١٢٠ ح ٦٨١٥.

(١٠) النور / ٥٨.

واحــدة مرة واحــدة، وفهم آخـرون منهـا الجمـع والافـراد، ولا يخفى أي الفهمـين أولى، وكـما فهم من أبـاح نكاح التحليل ذلك من قوله : ﴿**حتى تنكـح زوجـا غيره**﴾[1]، وفهم المحرمون المبطلون له بطلانه من نفس الآية من عدة أوجه :

منهـا قولـه : ﴿**حتى تنكح زوجا غيره**﴾ ونكاح التحليل لا يدخل في النكـاح المطلق كما لم يدخـل فيـه نكـاح الشغـار، والمتعة، ونكاح المعتدة، ونكاح المحرمة، فإن الذي أخرج هذه الأنواع من النكاح المطلق المأذون فيه هو الذي أخرج نكاح التحليل منه بنصوص أكثر وأصرح من تلك النصوص .

ومنهـا : تسميتـه سبحـانـه لهذا الثـاني زوجـا، وأحكام الزوج عرفا وشـرعـا منتفيـة عن المحلل، وانتفـاء الأحكام مستلزم لانتفاء الاسم شرعا وعرفا وكذلك هو فإن أهل العرف لا يسمونه زوجا، والشارع إنما سماه تيسا مستعـارا، فلا يجوز تسميتـه زوجـا إلا على وجـه التقييـد بأن يقال : زوج ملعون أو زوج في نكاح تحليل، أو في نكاح باطل .

ومنهـا : انـه جعل الزوج الثاني وطلاقه بمنزلة الزوج الأول وطلاقه فالمفهوم منها (واحد)[2] وغير ذلك من الوجوه التي فهمت من الآية بطلان نكـاح المحلل وهي عشـرة قد ذكـرناها في موضع آخر[3]، ولا ريب ان فهم هؤلاء أولى بالصواب .

ومن هذا فهم بعضهم إبـاحـة العينـة[4] من قولـه تعالى : ﴿**الا أن**

---

(١) البقرة / ٢٣٠ .

(٢) ما بين القوسين من «ل» .

(٣) انظر تفصيل ذلك في اغاثة اللهفان ١ /٢٩٣ وما بعدها .

(٤) بيـع العينـة هو : أن يبيـع شيئـا من غيره بثمن مؤجـل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن نقدا أقل من ذلك القدر. انظر نيل الأوطار للشوكاني ٥ /٢٣٤ .

تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾[١].

وفهم آخرون منها تحريمها وبطلانها، فإن لفظ التجارة البيع المقصود الذي يقصد به كل واحد من المتعاقدين الربح والانتفاع ولا يعرف أهل اللغة والعرف من لفظ التجارة إلا ذلك، ولا يعد أحد منهم قط الحيلة على الربا تجارة[٢]، وإن كان المرابي يعد ذلك تجارة، كما يعد بيع الدرهم بالدرهمين، فالعينة لا تعد تجارة لغة ولا شرعا ولا عرفا وكما فهم من فهم من قوله تعالى: ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة**﴾[٣] أنه العقد وفهم آخرون أنه نفس الوطىء، وفهم الأولين أصوب لخلو الآية عن الفائدة إذا حمل على الوطىء[٤]، وكما فهم أهل الحجاز من قوله تعالى: ﴿**أو ينفوا من الأرض**﴾[٥] طرده من الأرض من موضع إلى موضع[٦]، وفهم منه أهل العراق الحبس[٧]، وبالجملة فهذا الفصل معترك النزاع.

فصـــــل

السبب السابع:

أن يكون عارفا بدلالة اللفظ وموضوعه، ولكن لا يتفطن لدخول هذا الفرد المعين تحت اللفظ، اما لعدم إحاطته بحقيقة ذلك الفرد وأنه مماثل لغيره من الأفراد الداخلة تحته، واما لعدم حضور[٨] ذلك الفرد بباله

---

(١) البقرة / ٢٨٢.
(٢) أشار المؤلف إلى هذا الموضوع في اغاثة اللهفان ١/٣٦٧، ٢/٩٩-١٠٠.
(٣) النـور / ٢.
(٤) ذكر القولين ابن كثير في تفسير الآية ٦/ ٧-١١.
(٥) المائدة / ٣٣.
(٦) أورد ذلك ابن جرير في تفسيره عن عدد من العلماء ثم اختاره ج ٦/٢١٨.
(٧) ذكره ابن جرير أيضا وقال: وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ح ٦/٢١٨.
(٨) في الأصل (خطره) والتصحيح من «ل».

(واما لاعتقاده اختصاصه بخصيصة تخرجه من اللفظ العام)[1]، واما لاعتقاده العموم فيما ليس بعام، أو الاطلاق فيما هو مقيد فيذهل عن المقيد كما يذهل عن المخصص .

فصل

السبب الثامن :

اعتقاد أن لا دلالة في ذلك اللفظ على الحكم المتنازع فيه فهاهنا أربعة أمور :

أحدها : أن لا يعرف مدلول اللفظ في عرف الشارع ، فيحمله على خلاف مدلوله .

الثاني : أن يكون له في عرف الشارع معنيان فيحمله على أحدهما ويحمله غيره على المعنى الآخر .

الثالث : أن يفهم من العام خاصا ، أو من الخاص عاما ، أو من المطلق مقيدا ، أو من المقيد مطلقا .

الرابع : ان ينفي دلالة اللفظ ، فتارة يكون مصيبا (في نفس الدلالة)[2] وتارة يكون مخطئا ، فمن نفى دلالة قوله : ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض. . .** ﴾[3] على أكل ذى الناب والمخلب ، أصاب[4] ، ومن نفى دلالة ﴿**وانكحوا الأيامى منكم**﴾[5] على جواز نكاح

(١) ما بين القوسين من «ل» .
(٢) ما بين القوسين من «ل» .
(٣) البقرة ١٨٧ .
(٤) انظر اغاثة اللهفان ٢/٩٥ .
(٥) النور / ٣٢ .

الزانية أصاب[1] ومن نفى دلالة قوله : ﴿**قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه**﴾[2] على الاذن في أكل ما عدا المذكور في الآية أصاب ومن نفى دلالة العام على ما عدا محل التخصيص غلط، ومن نفى دلالته على ما عدا محل السبب غلط، ومن نفى دلالة الأمر (على الوجوب)[3] والنهي على التحريم غلط .

ومن هذا ما يعرض من الاختلاف في الأفعال المنفية بعد وجود صورتها كقوله : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[4]، ولا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل[5]، ولا صلاة لفذ خلف الصف[6]، ونحو ذلك .

فطائفة لم تفهم المراد منه فجعلته مجملا يتوقف العمل به على البيان، وطائفة فهمت منه نفي الكمال المستحب، وهذا ضعيف جدا، فإن النفي المطلق بعيد منه، وطائفة فهمت نفي الإجزاء والصحة، وفهم هؤلاء أقرب إلى اللغة والعرف والشرع، وفهمت طائفة نفي المسمى الشرعي وهؤلاء أسعد الناس بفهم المراد .

---

(١) انظر اغاثة اللهفان ٢/٩٦ أي قبل التوبة .

(٢) الأنعام / ١٤٥ .

(٣) ما بين القوسين من «ل» .

(٤) أخرجه مسلم / الصلاة / باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ١/٢٩٥ ح ٣٤ .

(٥) أخرجه أبو داود / الصيام / باب النية في الصيام ٢/٨٢٣ ح ٢٤٥٤ .
وابن ماجة / الصوم / باب ما جاء في فرض الصوم من الليل . . . الخ ١/٥٤٢ ح ١٧٠٠ .
والترمذي / الصيام / باب ما جاء لا صيام لمن لم يعزم من الليل تحفة الأحوذى ٣/٤٢٦ ح ٧٢٦ .
والنسائي / الصيام / باب النية في الصيام ٤/١٦٦ .

(٦) ابن ماجة كتاب الصلاة باب صلاة الرجل خلف الصف وحده ١/٣٢٠ ح ١٠٠٣ ، ومسند أحمد ٤/٢٣ .

فصـــــل

هذا كله قبل الـوصـول إلى السبب التاسع : وهو اعتقاده أن تلك الدلالة قد عارضها ما هو مساو لها فيجب التوقف، أو ما (هو)[1] أقوى منها فيجب تقديمها، وهذه المعارضة نوعان : معارضة في الدليل، ومعارضة في مقدمة من مقدماته .

فالمعـارضـة في الـدليـل أن يعتقـد أنـه قد عارضه ما هو أرجح منه، فيجب عليه العمل بالراجح، وقد يكون مصيبا في ذلك و (قد)[2] لا يكون مصيبـا، فالمصيب من اعتقـد المعـارضـة بنـاسـخ تصح فيه دلالته ومقاومته وتأخـره، فإن انتفى (بعضهـا)[3] كان واهما في اعتقـاد المعـارضـة، وابطال النص بها .

وأما المعارضة في المقدمة فأن يقوم عنده معارض كجر الدليل، مثاله أن يعتقـد تحريم الميسر بالنص الدال على تحريمه، ويدل عنده دليل على دخول الشطرنج فيه، ثم يقوم عنده دليل معارض لهذا الدليل يدل على أن الشطرنج ليس من الميسر فهاهنا أربعة أمور :

أحدهـا : أن لا يعتقد دلالة اللفظ على المعنى .

الثاني : أن يعتقد دلالته ولكن يقوم عنده معارض الدليل .

الثالث : أن يقوم عنده معارض لمقدمة من مقدماته .

الـرابـع : أن تتعـارض عنـده (الـدلالتـان والتعـارض قد يقـع في الـدليلين، وقـد يقـع في الـدلالتـين)[4] والفـرق بينهما أن تعارض الدليلين

---

(١) (هو) من «ل».

(٢) (قد) من «ل».

(٣) في الأصل (نقضها) وفي «ل» (بعضها).

(٤) ما بين القوسين من «ل».

يكـون مع اعتقـاد دلالـة كل واحد منهما على مطلوبه، وتعارض الدلالتين يقـع في الـدليـل الـواحد فيكون له وجهان، ثم قد يعتقد رجحان المعارض فيصير إلى الراجح، وقد لا يتبين له الرجحان فيتوقف، وقد يترك الحديث لظنه انعقاد الاجماع على خلافه إذا لم يبلغه الخلاف، ويكون إنما (معه)[1] عدم العلم بالمخالف لا العلم بوجود المخالف.

وهذا العذر لم يكن أحد من الأئمة والسلف يصير إليه، وإنما لهج به المتأخرون، وقد انكره أشد الانكار الشافعي والإمام أحمد.

وقال الشافعي: ما لا يعلم فيه خلاف لا يقال له اجماع. هذا لفظه.

وأمـا الإمـام أحمـد فقال: من ادعى الاجماع فقد كذب، وما يدريه لعل الناس اختلفوا، وقد كتبت نصوصه ونصوص الشافعي في غير هذا الموضع[2]، ولا خلاف بين الأئمة أنه إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ (لم)[3] يكن عدم العلم بالقائل به مسوغا لمخالفته فإنه (دليل)[4] موجب للاتباع وعـدم العلم بالمخـالف لا يصلح أن يكـون معـارضا ولا يجوز ترك الـدليـل له، وإذا تأملت هذا المـوضـع وجـدت كثيرا من أعيان العلماء قد صاروا إلى أقـوال متمسكهم فيهـا عدم العلم بالمخـالف مع قيـام الأدلـة الظـاهـرة على خلاف تلك الأقوال، وعذرهم رضي الله عنهم انهم لم يكن أحـد منهم أن يبتـدىء قولا لم يعلم به قائـلا، مع علمه بأن الناس قد قالوا خلافـه فيـتركب من هذا العلم وعـدم ذلك العلم الامساك عن اتباع ذلك الدليل، وهاهنا انقسم (العلماء)[5] ثلاثة أقسام:

---

(١) في الأصل يفهم، والمثبت من «ل».

(٢) انظر أعـلام المـوقعـين ١ / ٣٠ فقد نقل النصوص عنهما كما ذكر، كما أنكر عليهم ذلك ابن حزم. انظر الأحكام في أصول الأحكام ج ٤ / ٥٢٩ وما بعدها.

(٣) (لم) من «ل».

(٤) (دليل) من «ل».

(٥) (العلماء) من «ل».

فقسم : أخذوا بما بلغهم من أقوال أهل العلم وقالوا لا يجوز لنا أن نخالفهم، ونقول قولا لم نسبق إليه، وهؤلاء معذورون قبل وصول الخلاف إليهم، فأما من وصل إليه الخلاف وعلم بذلك القول قائلا، فما أدرى ما عذرَه عند الله في مخالفته صريح الدليل .

وقسم : توقفوا وعلقوا القول فقالوا : إن كان في المسألة اجماع فهو أحق ما اتبع، والا فالقول فيها كيت وكيت وهو موجب الدليل، ولو علم هؤلاء قائلا به لصرحوا بموافقته، فإذا علم به قائل فالذي ينبغي ولا يجوز غيره أن يضاف ذلك القول إليهم، لأنهم إنما تركوه لظنهم انه لا قائل به، وانه لو كان به قائل لصاروا إليه، فإذا ظهر به قائل لم يجز أن يضاف إليهم غيره إلا على الوجه المذكور وهذه الطريقة أسلم .

وقسم ثالث : اتبعوا موجب الدليل وصاروا إليه، ولم يقدموا عليه قول من ليس قوله بحجة، ثم انقسم هؤلاء قسمين :

فطائفة : علمت انه يستحيل أن تجمع الأمة على خلاف هذا الدليل وعلمت انه لابد أن يكون في الأمة من قال (بموجبه)[1] وانه لم يبلغهم قوله فما كل ما قاله كل واحد من أهل العلم وصل إلى كل واحد واحد من المجتهدين، وهذا لا يدعيه عاقل، ولا يُدّعَى في أحد، وقد نص الشافعي على مثل ذلك، فذكر البيهقي عنه في المدخل أنه قال له بعض من ناظره فهل تجد لرسول الله ﷺ سنة ثابتة متصلة خالفها الكل ؟ قلت : لا، لمْ أجدها قط كما وجدت المرسل .

وطائفة قالت : يجوز أن لا يتقدم به قائل، ولكن لا يلزم انعقاد الاجماع على خلافه، إذ لعل تلك النازلة تكون قد نزلت فأفتى فيها بعض العلماء أو كثير منهم أو أكثرهم بذلك القول، ولم يستفت فيها الباقون ولم

(١) (بموجبه) من «ل» .

تبلغهم فحفظ فيها قول طائفة من أهل العلم، ولم يحفظ لغيرهم فيها قول، والذين حفظ قولهم فيها ليسوا كل الأمة فيحرم مخالفتهم، قالوا: نحن في مخالفتنا لمن ليس قوله حجة أعذر منكم في مخالفتكم لمن قوله حجة.

فإن كنتم معذورين في مخالفة الدليل لقول من بلغتكم أقوالهم مع أنهم ليسوا كل الأمة فنحن في مخالفتهم لقيام الدليل أعذر عند الله ورسوله منكم، وهذا كما تراه لا يمكن دفعه إلا بمكابرة أو اجماع متيقن معلوم لاشك فيه وبالله التوفيق.

ومما يوضح هذا أن كل من ترك موجب الدليل لظن الاجماع، فإنه قد تبين لغيره انه لا اجماع في تلك المسألة والخلاف فيها قائم، ونحن نذكر من ذلك طرفا يسيرا يستدل به العالم على ما وراءه.

فمن ذلك قول مالك: لا أعلم أحدا أجاز شهادة العبد، وصدق رضي الله عنه فلم يعلم أحدا أجازها، وعلمه غيره، فأجازها على بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وشريح القاضي[1] حكاه الإمام أحمد وغيره، وروى أحمد عن أنس قال: لا أعلم أحدا رد شهادة العبد، وقال: لا أعلم أحدا أوجب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، ووجوبها محفوظ عن أبي جعفر الباقر[2].

وقال الشافعي: اجمعوا على أن المعتق بعضه لا يرث، وقد صح توريثه عن على وابن مسعود[3]، وقال الشافعي وقد قيل له: فهل من مرسل ما قال به أحد، قال: نعم أخبرنا ابن عيينة، عن محمد بن المنكدر

---

(١) ذكر ابن قدامة في المغني ١٩٥/٩ عن أنس وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال أنس: ما علمت أن أحدا رد شهادة العبد، وبه قال عروة وشريح وإياس وابن سيرين والبتي وأبوثور وداود، وابن المنذر ـ ثم ذكر المانعين فقال: وقال عطاء ومجاهد والحسن ومالك والأوزاعي والثوري وأبوحنيفة والشافعي وأبوعبيد لا تقبل شهادته وذكر تعليلهم، ثم أورد الأدلة من السنة على قبول شهادته.

(٢) انظر المغنى ١/ ٥٤١ ـ ٥٤٣ فقد ذكر الخلاف في وجوبها، ولم يذكر الباقر.

(٣) انظر المغنى ٦/ ٢٦٩.

أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله أن لي مالا وعيالا ، وان لأبي مالا وعيالا ، يريد أن يأخذ مالي فيطعم عياله ، فقال : أنت ومالك لأبيك(١) .

قال الشافعي : فقال يعني محمد بن الحسن : اما نحن فلا نأخذ بهذا ولكن هل من أصحابك من يأخذ به ؟ .

ـ قلت : لا ، لأن من أخذ بهذا جعل للأب الموسر أن يأخذ من مال ابنه ـ ، قال : أجل ما يقول بهذا أحد ، قال : فلم يخالفه الناس ، قلت : لأنه لم يثبت .

فإن الله لما فرض للأب ميراثه من ابنه فجعله كوارث غيره ، وقد يكون انقص حظا من كثير من الورثة ، دل ذلك على (أن) ابنه مالك للمال دونه .

و (قد)(٢) قال بهذا الحديث جماعة من السلف ، منهم شيخ الشافعي سفيان بن عيينة ، وصاحبه الإمام أحمد وغيرهما ولم يعلم به الشافعي قائلا واعتذر عن مخالفته بأنه مرسل لم يثبت ، ولم يعتذر عن مخالفته بالاجماع ، وقد صح اتصاله .

وقال الثوري : فيما إذا طلق المدخول بها ، ثم راجعها ، ثم طلقها ، قبل دخول (ثان)(٣) بها بعد الرجعة ، فإن أكثر العلماء على أنها تستأنف العدة .

قال سفيان : اجمع الفقهاء على هذا ، وسفيان كان من أئمة

(١) ابن ماجة كتاب التجارات باب ما للرجل من مال والده ٢ / ٧٧٩ ح ٢٢٩١ وأحمد ٢ / ١٧٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ .

(٢) (قد) من «ل» .

(٣) (ثان) من «ل» .

الإسلام، وقد حكى الاجماع على هذا، والنزاع في ذلك موجود قبله وبعده، فإن مذهب عطاء أنها تبنى على ما مضى كما لو طلقها قبل الرجعة، وهو أحد قولي الشافعي، وأحد الروايتين عن أحمد، وحكى عن مالك قول ثالث: انه ان قصد الاضرار بها بنت، والا تستأنف، وحكى عن داود قول رابع: أنه لا عدة عليها بحال، جعلها مطلقة قبل الدخول فلا عدة عليها بالطلاق الثاني، والأول انقطعت عدته بالرجعة، والأكثرون يقولون: هي زوجة مدخول بها(١).

ومن ذلك أن الليث بن سعد حكى الاجماع على أن المسافر لا يقصر الصلاة في أقل من يومين، وهذا مع سعة علمه وفقهه وجلالة قدره، والنزاع في مسافة القصر عن الصحابة والتابعين أشهر من أن يذكر(٢).

ومن ذلك ما ذكره مالك في موطئه فقال: «فمن الحجة على من قال ذلك القول - أي أنه لا يقضي بشاهد ويمين لأنه ليس في القرآن - فيقال: أرأيت لو أن واحدا ادعى على رجل مالا، أليس يحلف المطلوب ما ذلك الحق عليه؟ فإن حلف بطل ذلك الحق عنه، وان نكل عن اليمين حلف صاحب الحق ان حقَّه لَحَقٌّ وثبت حقه على صاحبه، قال: فهذا لا خلاف فيه عند أحد من الناس ولا ببلد من البلاد(٣)، والخلاف في القضاء بالنكول وحده دون اشتراط رد اليمين أشهر من أن يذكر.

وإبراهيم النخعي لا يقول بالرد بحال، ومذهب أبي حنيفة

(١) انظر المغنى، فقد ذكر قول الشافعي والأقوال الأخرى التي أشار لها ابن القيم ما عدا قول داود ٧/٢٩٢.

(٢) انظر المغنى ٢/ ٢٥٦ - ٢٥٨، فقد ذكر الاختلاف في مسافة القصر وان الليث قال ان مسافة القصر يومين كما قال غيره من الأئمة وخالفهم آخرون، الا أنه لم يذكر عنه حكاية الاجماع ولعلها في موضع آخر.

(٣) الموطأ / الأقضية / باب القضاء باليمين مع الشاهد ص ٤٥١ ح ٧.

وأصحابه لا يرون لزوم تحليف المدعى بحال، بل يقضون بالنكول، وأبو ثور ذكر في المسألة قولا ثالثا انه إذا امتنع أن يحلف وسأل حبس المدين حبسه له .

وأحمد وإن كان يحلّف المدعى في بعض الصور كالقسامة، والقضاء بشاهد ويمين، فإن المشهور عنه أنه يقضي بالنكول دون الرد، وفي مذهب أحمد قول آخر انه يقضى[1] (بالرد وهو اختيار أبي الخطاب وأبي محمد المقدسي في العمدة، وذهب بعض أصحاب الشافعي إلى أنه من قضى بالنكول نقض حكمه)[2]، ومع هذا فأبو عبيدة يحكى الاجماع على خلاف هذا، فإنه قال في كتاب القضاء[3] لما ذكر أحاديث القضاء أن اليمين على المدعى عليه، قال : وفي ذلك سنة يستدل عليها بالتأويل، وذلك أنه لما قضى أنه لا براءة للمطلوب إلا باليمين إلى الطالب كان فيه دليل على أن ترك أدائها ايجاب للدعوى عليه وتصديق لما يدعى قال : وقد زعم بعض من يدعى النظر في الفقه أن اليمين لا يوجب عليه حقا، ولكنه زعم (أنه)[4] يحبس حتى يقر أو يحلف[5]، وهذا خلاف التأويل والاخبار واجماع العلماء، ومن ذلك ما قاله مالك في موطئه : «الأمر المجمع عليه عندنا والذي سمعت ممن أرضى به في القسامة والذي أجمعت عليه الأمة في (القديم)[6] والحديث أن يبدأ بيمين المدعين في القسامة، وأن القسامة لا تجب إلا بأحد أمرين : اما أن يقول المقتول دمي عند فلان، أو يأتي ولاة الدم بلوث، فهذا يوجب القسامة للمدعين للدم على من ادعوه عليه، قال

---

(١) انظر المغني ٢٣٥/٩، فصل : وإذا نكل من توجهت عليه اليمين .
(٢) ما بين القوسين من «ل» .
(٣) هذا من الكتب المفقودة حسب علمنا .
(٤) (انه) ليست في الأصل ولا في «ل» وأضيفت ليستقيم المعنى .
(٥) اشار إليه في المغنى ٢٣٧/٩ .
(٦) في الأصل (الفقه) وما أثبتناه من «ل» ومن الموطأ .

مالك : ولا تجب القسامة (عندنا)[1] إلا بأحد هذين الوجهين، قال مالك : وتلك السنة التي لا اختلاف فيها عندنا والذي لم يزل عليه الناس ان المبتدئين بالقسامة أهل الدم الذي يدعونه في العمد والخطأ[2].

وقال ابن عبد البر : وقد انكر العلماء على مالك قوله : ان القسامة لا تجب إلا أن يقول المقتول دمي عند فلان، أو يأتي بلوث يشهدون به، لأن المقتول بخيبر، لم يدعى على أحد، ولا قال دمي عند أحد، ولا قال النبي ﷺ للأنصار يأتون بلوث قالوا وقد جعل مالك سنة ما ليس له مدخل في السنة.

وكذلك انكروا عليه أيضا في هذا الباب قوله : الأمر المجمع عليه عندنا أن يبدأ المدعون بالإيمان في القسامة قالوا : فكيف اجتمعت الأئمة في الفقه والحديث وابن شهاب يروى عن سليمان بن يسار وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن رجل[3] من الأنصار أن النبي ﷺ بدأ اليهود في الإيمان[4]، قال : وهذا الحديث وان لم يكن من روايته عن ابن شهاب، فمن روايته عن ابن شهاب، عن سليمان بن يسار، وعراك بن مالك، أن عمر بن الخطاب قال للجهني الذي ادعى دية وليه على رجل من بني سعد بن ليث، وكان أجرى فرسه فوطىء على أصبع الجهني فنزا منها الدم فمات، فقال عمر للذين ادعى عليهم : اتحلفون بالله خمسين يمينا ما مات منها ؟ فأبوا وتحرجوا، وقال للمدعين أحلفوا فأبوا، فقضى بالدية على السعديين[5]، قالوا : فأي أمة أجمعت على هذا.

---

(١) ما بين القوسين من «الموطأ».

(٢) الموطأ / القسامة / باب تبدئه أهل الدم في القسامة ص ٥٤٨.

(٣) في أبي داود (رجال).

(٤) ذكر الزرقاني في شرح الموطأ ٤ / ٢١١ ـ ٢١٢ الخلاف في ذلك، والحديث في أبي داود / الديات / باب في ترك القود في القسامة ٤/٦٦٢ ح ٤٥٢٦.

(٥) موطأ مالك كتاب العقول باب دية الخطأ في القتل ص ٨٥١.

ومن ذلك قال الشافعي في مختصر المزني في مسألة اليمين الغموس ودل اجماعهم على أن من حلف في الاحرام عمدا أوخطأ، أوقتل صيدا عمدا أو خطأ في الكفارة سواء، وعلى أن الحالف بالله وقاتل المؤمن عمدا أوخطأ في الكفارة سواء، فقد ذكر الاجماع على التسوية بين العامد والمخطىء في قتل الصيد وحلق الشعر، ومعلوم ثبوت النزاع في ذلك[1] قديما وحديثا، فمذهب جماعة من السلف أن قاتل الصيد خطأ لا جزاء عليه ويروى ذلك عن ابن عباس وطاووس وسعيد بن جبير، ويروى ذلك عن القاسم وسالم وعطاء ومجاهد وهوقول ابن المنذر، وداود وأصحابه، وقول إسحاق في الشعر، وهورواية عن أحمد في الصيد، وخرج أصحابه في مذهبه في الحلق والتقليم قولا مثله، وكذلك (ذكره ابن أبي هبيرة)[2] قولا للشافعي في الصيد، وذكر أبوإسحاق وغيره أن له قولا مخرجا في الحلق والتقليم في الخطأ أنه لا كفارة فيه كالطيب واللباس .

فصار في المسألة ثلاثة أقوال : الكفارة فيهما، وعدم الكفارة فيهما، والكفارة في الصيد دون الحلق والتقليم .

ومن ذلك ما حكاه ابن المنذر قال : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على : «أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق إن شئت. فقالت : قد شئت إن شاء فلان، أنها قد ردت الأمر، ولا يلزمه الطلاق إن شاء فلان، كذلك قال أحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وأصحاب الشافعي» .

ولأصحاب الشافعي في هذه المسألة وجهان حكاهما الماوردى وغيره .

---

(١) حكى ابن هبيرة الاتفاق على أن قتل المحرم الصيد عمدا أوخطأ سواء في وجوب الجزاء. الافصاح ١/٢٨٧ .

أما في حلق الشعر فقد ذكر الخلاف بين الأئمة في العمد ولم يشر إلى النسيان. الافصاح ١/٢٨٦ .

(٢) في الأصل (أن أبي هريرة) والتصحيح من «ل» .

ومن ذلك قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين، أنها تطلق واحدة، وان قال : أنت طالق ثلاث إلا واحدة، انها تطلق ثنتين، فإن قال : أنت طالق ثلاثا إلا ثلاثا، طلقت ثلاثا، وممن حفظ عنه هذا الثوري، والشافعي، وأبوثور، وأصحاب الرأي.

والخلاف في المسألة مشهور، فمذهب أحمد المنصوص عنه إذا قال : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين، وقعت الثلاث لأن استثناء الأكثر عنده باطل وإذا قال : ثلاثا إلا واحدة صح الاستثناء في المشهور من مذهبه .

وقال أبوبكر عبد العزيز : لا يصح الاستثناء في الطلاق، وهو نظير أشهر الروايتين عن شريح فيما إذا قال : أنت طالق إن دخلت الدار أنها تطلق ولا يتعلق بالشرط المؤخر، وهي رواية ثانية عن أحمد، وأكثر اجوبته كقول الجمهور .

ومن ذلك ما حكاه ابن المنذر، قال : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق ثلاثا إن دخلت الدار فطلقها ثلاثا، ثم تزوجت بعدما انقضت عدتها، ثم نكحها الحالف الأول، ثم دخلت الدار انه لا يقع عليها الطلاق، لأن طلاق الملك قد انقضى، والنزاع في هذه المسألة معروف، فإن هذه المسألة لها صورتان :

احداهما : أن لا توجد الصفة، فإن الصفة تعود في المشهور في مذهب أحمد، حتى أن من أصحابه من يقول : تعود الصفة هنا رواية واحدة، وهذا أحد أقوال الشافعي بل هو الصحيح عند العراقيين من أصحابه، كما ذكره أبو إسحاق وغيره، وهو قول حماد بن[1] سليمان، وزفر، لذلك ذكره الطحاوى عن الأوزاعي، وعثمان البتى، وابن الماجشون إذا طلق ثم تزوج يعود اليمين، قال الطحاوى ولم يذكروا بعد الثلاث .

---

(١) في الأصل ابن أبي، وفي «ل» (ابن سليمان).

والقـول الثـاني : لا تعـود الصفة بحال، وهو قول أبي ثور، والمزني وقـد حكي ابن حامـد رواية فيمن قال لعبده : ان دخلت الدار فأنت حر، ثم باعه قبل الدخول، ثم اشتراه، لم يعتق عليه بحال، فذكر عنه في العتق أن الصفة لا تعود، وفي الطلاق أولى، كما صرح أصحابه بمثل ذلك .

القـول الثـالث : انـه إن أبـانهـا بالثـلاث لم ترجع الصفة، وبدونها ترجع وهو مذهب أبي حنيفة، وقول الشافعي .

ومن ذلـك ما حكـاه ابن أبي حامـد، أن ابن عبـد البر نقل الاجماع على أن الاعتكـاف يلزم بالشـروع، فقـال : وقـال مالـك يلزمه بالنية مع الدخول، وان قطعه لزمه قضاؤه .

قال ابن عبد البر : لا يختلف في ذلك الفقهاء، ويلزمه القضاء عند جمهـور العلماء[1]، والخـلاف في ذلـك أشهـر شيء، فمـذهب الشافعي، وأحمـد في مشهـور قوله : أنه لا يلزم، وقال الشافعي : كل عمل لك أن لا تدخل فيه، فإذا دخلت فيه فليس عليك أن تقضي إلا الحج والعمرة .

ومن ذلك ما حكاه صالح بن أحمد عن أبيه انه قال : لا خلاف انه لا يرث المسلم الكـافـر، ولا الكـافر المسلم، والخلاف في ذلك مشهور عن الصحابة والتابعين .

ومن ذلك ما ذكره أبو عمر في الاستذكار قال : وأما القراءة في الركوع والسجود فجميع العلماء على ان ذلك لا يجوز .

وليس ذلك باجماع، فقد سئل عطاء عن ذلك فقال : رأيت عبيد بن عمير يقرأ وهو راكع، وحكي عن سليمان بن ربيعة أنه كان يقرأ وهو ساجد .

وقـال مغـيرة عن إبـراهيم في الرجل يقرأ فيترك الآية، فيذكرها وهو

---

(١) في «ل» (جميع العلماء).

راكع، قال: يقرؤها وهو راكع، وقال مغيرة: كانوا يقرؤون في الركوع الآية والآيتين إذا بقي على الرجل من قراءته.

ومن ذلك ما حكاه إبراهيم بن مسلم الخوارزمي في كتاب الطهور، وقد ذكر من كان يتوضأ من مس الذكر، ثم قال: وهذا منسوخ لأن أهل العلم أجمعوا على خلاف هذا.

ومن ذلك ما ذكره أبو عمر بن عبد البر فقال: وأما الشهادة على رؤية الهلال، فأجمع الفقهاء على أنه لا يقبل في شهادة شوال في الفطر إلا شهادة رجلين عدلين، والخلاف في ذلك مشهور.

وقد حكي ابن المنذر عن أبي ثور وطائفة من أهل الحديث القول بقبول الواحد في الصوم والفطر.

ومن ذلك ما قاله أبو ثور: لا يختلفون أن أقل الطهر خمسة عشر يوما، والخلاف في ذلك مشهور، وقد قال إسحاق توقيت هؤلاء بخمسة عشر يوما باطل، وقال أحمد في احدي الروايتين عنه: أقله ثلاثة عشر يوما.

ومن ذلك ما حكاه غير واحد من العلماء: ان الحالف بالطلاق والعتاق إذا حنث في يمينه انه تطلق عليه زوجته، ويعتق عليه عبده أو جاريته على ذلك بضعة عشر من أهل العلم، وعذرهم أنهم قالوا بموجب علمهم، والا فالخلاف في ذلك ثابت عن السلف والخلف من وجوه:

الوجه الأول: ما رواه الأنصاري حدثنا أشعث ثنا بكر عن أبي رافع أن مولاته أرادت أن يفرق بينه وبين امرأته فقالت: هي يوما يهودية، ويوما نصرانية، وكل مملوك لها حر، وكل مالها في سبيل الله، وعليها المشي إلى بيت الله ان لم يفرق بينهما.

فسألت عائشة وابن عمر وابن عباس وحفصة وأم سلمة فكلهم قال لها أتريدين أن تكوني مثل هاروت وماروت، وأمروها ان تكفر يمينها وتخلى

بينهما، وقال يحيى بن سعيد القطان، عن سليمان التيمي : حدثنا بكر بن عبد الله، عن أبي رافع، فذكره عن زينب، ورواه الأوزاعي حدثني الحسن بن الحسن، حدثني بكر بن عبد الله المزني، حدثني رافع، فذكره، وذكر فيه العتق، فهذه ثلاث طرق، فقد بريء سليمان التيمي من عهدة التفرد بذكر العتق بمتابعة أشعث، وحسن بن حسن له، حتى ولو تفرد بها التيمي، فهو أجل من أن يرد ما تفرد به، وهو أجل من الذين لم يذكروا الزيادة، فصح ذكر العتق في هذا الأمر وزال الارتياب، فهؤلاء ستة من أصحاب رسول الله ﷺ لا يعلم لهم مخالف افتوا من قالت كل مملوك لها حر إن لم يفرق بين مملوكها وبين امرأته أن تكفر يمينها وتخلي بين الرجل وامرأته، وهم : ابن عباس في سعة علمه، وابن عمر في شدة ورعه وتحريه، وأبو هريرة مع كثرة حفظه، وعائشة وحفصة وأم سلمة، وهؤلاء من أفقه نساء الصحابة أو أفقهن على الاطلاق .

فإن كان التقليد، فَمنْ جعل هؤلاء بينه وبين الله أعذر عند الله ممن جعل بينه وبينه من لا يدانيهم، وإن كان الدليل والحجة فهاتوا دليلا واحدا لا مطعن فيه من كتاب الله أو سنة رسوله، أو قياس يستوى فيه حكم الأصل والفرع على وقوع الطلاق المحلوف به، وأكثركم لم يقل في ذلك إلا على ما ظنه من الاجماع، وهو معذور قبل الاطلاع على النزاع، فما عذره بعد الاطلاع، على أن المسألة مسألة خلاف بين الأئمة إذا استحل عقوبة من يفتي بها وجاهر بالكذب (والبهت)[1] انه خالف اجماع الأمة، افترى هؤلاء الذين هم من سادات الأمة وعلمائها يفتون بالكفارة في العتق، وبلزوم الطلاق وهل يمكن بشرا على وجه الأرض أن يفرق بين قول الحالف : ان فعلت كذا فعبدي حر، وبين قوله : ان فعلت كذا وكذا فامرأتي طالق، بفرق تلوح منه رائحة الفقه .

(١) في الأصل (والريب) وفي «ن» (والبهت) .

الوجه الثاني : من الوجوه المبينة ان المسألة مسألة نزاع لا مسألة اجماع، ما رواه عبد الرزاق في جامعه، ثنا معمر، عن طاووس عن أبيه أنه كان لا يرى الحالف بالطلاق شيئا، قلت : أكان يراه يمينا، قال : لا أدري .

الوجه الثالث : ما رواه سعيد بن داود في تفسيره، حدثنا عباد بن عباد المهلبي، عن عاصم الأحول، عن عكرمة في رجل قال لغلامه ان لم أجلدك مائة سوط فامرأتي طالق، قال : لا يجلد غلامه ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان .

الوجه الرابع : ان في الطلاق المعلق بالشرط قولين للعلماء :

أحدهما : يقع عند وقوع شرطه .

والثاني : لا يقع بحال ولا يتعلق الطلاق بالشرط، كما لا يتعلق النكاح به، وهذا اختيار أجل أصحاب الشافعي الذي أخذ عنه وكان يلازمه أبو عبد الرحمن، ولا ينزل اختياره (عن درجة)[1] من له وجه من المتأخرين، بل هو أجل من أصحاب الوجوه، وهو مذهب داود بن على الأصبهاني، وابن حزم، وأصحابهما، قال أبو محمد بن حزم : واليمين بالطلاق لا يلزم سواء بر أو حنث لا يقع به طلاق، ولا طلاق إلا كما أمره الله عز وجل، ولا يمين إلا كما أمر الله على لسان رسوله، والطلاق بالصفة عندنا كما هو اليمين لا يجوز، وكل ذلك لا يلزم ولا يكون طلاقا إلا كما أمر الله عز وجل به وعلمه، وهو القصد إلى الطلاق، وأما ما عدا ذلك فباطل، وممن قال بقولنا في أن اليمين بالطلاق ليس شيئا ولا يقضى به على من حلف به، على بن أبي طالب وشريح، وطاووس ولا يعرف لعلى مخالف من الصحابة .

---

(١) (عن درجة) من «ل» .

الـوجـه الخـامس : أن أبـا الحسين القدوري ، ذكر في شرحه انه إذا قال : طلاقــك على واجـب أو لازم ، أو فرض ، أو ثابـت ان فعلت كذا ، ففعلت ، قال : فعلى قول أبي حنيفة لا يقع الطلاق في الكل ، وعند أبي يوسف ، ان نوى الطـلاق يقـع في الكـل ، وعن محمد يقع في قوله : لازم ، ولا يقـع في قولـه : واجب قال صاحب الـذخـيرة(١) ، وكـان الشيخ ظهير الدين المرغيناني . . يفتى بعد الوقوع في الكل .

الوجه السادس(٢) : أن القفال أفتى في قوله : الطلاق يلزمني أنه لا يقع به الطلاق ، نواه أو لم ينوه ، قال : قال أبو القاسم عبد الرحمن بن يونس في شرح التنبيــه في قول المصنف : وإن قال : الطـلاق والعتـاق لازم لي ، ونواه لزمه ، لأنهما يقعان بالكناية مع النية وهذا اللفظ يحتمل فجعل كناية .

وقـال الـرويـاني : الطـلاق لازم لي صريـح ، وعـد ذلـك في صراح الطلاق ولعل وجهه عليه استعماله لإرادة الطلاق .

وقـال القفـال في فتـاويـه : ليس بصـريـح ولا كناية حتى لا يقع به الطلاق وإن نواه .

الوجه السابع : أن أشهب بن عبد العزيز ، وهو من أجل أصحاب مالـك ، أفتى من قال لامـرأتـه : ان فعلت كذا وكذا فأنت طالق ، ففعلته تقصد وقوع الطلاق به ، أنها لا تطلق مقابلة لها بنقيض قصدها ، كما لو قتل الـوارث موروثـه ، أو المـدبر سيده ، أو الموصى له الموصي ، ونظائر ذلك ، مما يقابل به الرجل بنقيض قصده ، ذكر ذلك عن ابن رشد في مقدماته ، وهذا محض الفقه لو كان الحالف يقع به الطلاق .

---

(١) صاحب الذخيرة من هـ .

(٢) في الأصل : الوجه الخامس ، وكذلك في «ل» ، ويظهر أنه خطأ من الناسخ .

الوجه الثامن[1]: أن أصحاب مالك من أشد الناس في هذا الباب فلا يعذرون الحالف بجهل (ولا نسيان)[2]، ولا يوقعون الطلاق على من حلف على مالا يعلم فبـان كما حلف عليـه، ومـع هذا فقـد حكـوا عدم الـوقـوع بالحلف بالطلاق، عن على بن أبي طالب، وشريح، وطاووس، ونحن نذكر ألفاظهم :

قال أبـو القـاسم عبـد العزيز بن إبراهيم بن أحمد بن بريدة في كتاب مطـامـح الأفهـام في شرح كتـاب الأحكـام البـاب الثالث في حكـم اليمين بالطـلاق : فقـد قدمنا في كتاب الأيمان اختلاف العلماء في اليمين بالطلاق والعتق (. . . .)[3] وغير ذلك، هل يلزم أم لا ؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشريح وطاووس لا يلزم من ذلك شيء ولا يقضي بالطلاق على من حلف به فحنث (ولا يعرف لعلى في ذلك مخالف من الصحابة، هذا لفظه مع اعتقاده وقوع الطلاق على من حلف به فحنث)[4] ولم يطعن في هذا النقل ولم يعترضه باعتراض .

الـوجـه التاسع[5]: ان فقهاء الامامية من أولهم إلى آخرهم ينقلون عن أهـل البيت انـه لا يقـع الطـلاق المحلوف به، وهذا متواتر عندهم عن جعفـر بن محمـد وغـيره من أهـل البيت، وهب ان مكـابـراً كذبهم كلهم وقـال : قد تواطؤا على الكـذب عن أهـل البيت، ففي القــوم فقهـاء وأصحـاب علم ونظـر في اجتهـاد، وإن كانـوا مخطئـين مبتـدعـين في أمـر

(١) في الأصل : السابع. وكذا في «ل».
(٢) (ولا نسيان) من «ل».
(٣) كلمة غير واضحة.
(٤) ما بين القوسين لا يوجد في «ل».
(٥) في الأصل : الثامن. وكذا في «ل».

الصحابة فلا يوجب ذلك الحكم عليهم كلهم بالكذب والجهل، وقد روى أصحاب الصحيح عن جماعة من الشيعة وحملوا حديثهم واحتج به المسلمون ولم يزل الفقهاء ينقلون خلافهم ويبحثون معهم، والقوم وان اخطأوا في بعض المواضع لم يلزم من ذلك أن يكون جميع ما قالوه خطأ حتى يرد عليهم هذا لو انفردوا بذلك عن الأمة، فكيف وقد (وافقوا)[1] في قولهم من قد حكينا قولهم، وغيره ممن لم نقف على قوله[2].

الوجه العاشر[3]: انه لم يزل أئمة الإسلام يفتون بما يظهر لهم من الدليل وان لم يتقدمهم إليه أحد، وإذا شئت أن تقف على ذلك فانظر إلى كثير من فتاوى الأئمة التي لا تحفظ عن أحد من أهل العلم قبلهم.

قال إسحاق بن منصور الكوسج: سألت إسحاق عن مسألة فذكر

---

(١) في الأصل (افتو) والتصحيح من «ل».

(٢) لا ينبغي حكاية قول الرافضة ولا إيراد كلامهم، لأنه لا فائدة منه ولا عبرة به، إذ لا يهمنا وفاقهم - إذا وافقوا - ولا خلافهم - إذا خالفوا. أما ما يضاف إلى أهل البيت فإن ثبت عن طريق أهل السنة اعتبر، وما جاء عن طريق الرافضة وحدهم فلا عبرة به، ومن روى عنهم في الصحيحين من الشيعة فليسوا من الرافضة، ولا من الإمامية الاثنى عشرية الذين يقولون بعصمة الأئمة، وأن كل شيء لم يرد عن طريقهم فهو باطل، وما أورده ابن القيم في هذه المسألة فهو دليل على إنصافه لأنه وإن كان الغالب عليهم الكذب كما ذكر ذلك عنهم الأئمة من أهل السنة إلا أنه قد يصدق بعضهم، ومع ذلك فقد ذكر موقفهم من الصحابة وانهم مخطئون مبتدعون في أمرهم، وهذا بالنسبة لهم هم وإن كان الحكم عليهم يحتاج إلى تفصيل ولكن بالنسبة لما يترتب على طعنهم في الصحابة بل وتكفيرهم لهم إلا القليل، يلزم منه الطعن في هذا الدين، لأنهم هم الذين نقلوا لنا القرآن والسنة، وهما مصدرا التشريع، وقال عنهما رسول الهدى ﷺ: «تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي». فقد ضمن لنا عدم الضلال في التمسك بهما. ومن هنا يظهر أنه لا حاجة لذكر خلافهم أو موافقتهم، أما أهل البيت فقد اثنى الله عليهم في كتابه وحث الرسول على حبهم وموالاتهم لقرابته وأهل السنة يحبونهم المحبة الشرعية ويثنون عليهم ويعطونهم حقهم ويعتبرون ذلك من الإيمان لأنه امتثال لأمر رسول الله ﷺ، ويرون انتقاصهم وانتقاص جميع الصحابة زندقة.

كما يقول أبو زرعة الرازي:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة». انظر الكفاية للخطيب ص ٩٣.

(٣) في الأصل (التاسع). وكذا في «ل».

قوله فيها ، فقلت : أن أخاك أحمد بن حنبل أجاب فيها على جوابك ، فقال : ما ظننت أن أحدا يوافقني عليها ، وقال ابن المنذر وهو من أعلم الناس بالاجماع والاختلاف : لم يسبق الشافعي إلى نجاسة الأبوال أحد يريد بول ما يؤكل لحمه ، وقال شيخنا : لم يسبق أحمد إلى الحكم بإسلام أولاد (أهل)[1] الذمة الصغار بموت آبائهم أحد ، ولم يسبقه إلى اقعاد المرأة أول ما ترى الدم يوما وليلة ثم تصلى وهي ترى الدم أحد ، وأما غيره فمن له أدنى اطلاع على أقوال السلف والخلف لا يخفى عليه ذلك ولكثرته تركنا ذكره .

الوجه الحادى عشر[2] : انا لو لم نعلم النزاع في هذه المسألة لم يكن لنا علم بالاجماع المعلوم الذي تكون مخالفته كفراً وفسقاً (عليها بل ولا ظن به)[3] فانا قد رأينا أكثر هؤلاء الذين يحكون الاجماع إنما يحكونه على حسب اطلاعهم ، ومعناه عدم العلم بالمخالف ، وقد رأيت (من نقض)[4] اجماعاتهم التي حكوها ، ما هو قليل من كثير فغاية هذه الاجماعات أن تفيدنا عدم (علم)[5] ناقلها بالخلاف ، وهذا لمجرده لا يكون عذرا للمجتهد في ترك موجب الدليل والله أعلم . . .

فصل

ومن ذلك نقل من نقل الاجماع على أن المتكلم بالطلاق الثلاث في مرة واحدة يقع به الثلاث ، وقال بموجب علمه وما بلغه ، والا فالخلاف في هذه المسألة ثابت من وجوه :

---

(١) (أهل) من «ل» .
(٢) في الأصل ، وفي «ل» العاشر .
(٣) هكذا في الأصل وفي «ل» .
(٤) في الأصل (بعض) وما أثبته من «ل» .
(٥) (علم) من «ل» .

الوجه الأول : انه على عهد الصديق إنما كان يفتى بأنها واحدة كما روى مسلم في صحيحه ان أبا الصهباء قال لعبد الله بن (عباس)[1] ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر من طلق ثلاثا جعلت واحدة ؟ قال : نعم ، وذكر الحديث[2] .

ومن يتتبع ألفاظه وطرقه (جزم ببطلان تلك التأويلات التي غايتها أن يتطرق إلى بعض ألفاظه وسياق طرقه)[3] وألفاظه (صريح)[4] في المراد ، فلو قال القائل : أن هذا مذهب أبي بكر الصديق وجميع الصحابة في عهده أصاب وصدق ، حاشى من لم يصرح منهم بأنها ثلاث ، وهم جمع من الصحابة صح ذلك عنهم بلا ريب ، فأقل أحوال المسألة أن تكون مسألة نزاع بين الصحابة .

الوجه الثاني : أنه صح عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه أفتى بأنها واحدة ذكر ذلك أبو داود[5] وغيره .

الوجه الثالث : أن هذا مذهب الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف حكاه عنهما ابن وضاح وابن مغيث في وثائقه وغيرهما .

الوجه الرابع : أنه احدى الروايتين عن على وابن مسعود وابن عباس .

---

(١) في الأصل (عاص) والتصحيح من «ل» ومن صحيح مسلم وسنن أبي داود .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الطلاق باب الطلاق الثلاث ح (١٤٧٢) م ٢ / ١٠٩٩ ، وسنن أبي داود كتاب الطلاق باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ح (٢١٩٩) ٢ / ٦٤٩ ، وسنن النسائى باب طلاق الثلاث المتفرقة قبل الدخول بالزوجة ٦ / ١١٨ .

(٣) ما بين القوسين من «ل» .

(٤) (صريح) لا يوجد في «ل» . وهي في الأصل ولعل الأولى (صريحة) .

(٥) انظر سنن أبي داود ٢ / ٦٤٨ .

الوجه الخامس : أنه مذهب طاووس وخلاس بن عمرو، ومحمد بن إسحاق وداود، وجمهور أصحابه .

الوجه السادس : أنه مذهب إسحاق بن راهوية، وهومذهب بعض فقهاء التابعين في غير المدخول بها صرح به في كتاب اختلاف العلماء له .

الوجه السابع : أنه أحد القولين في مذهب مالك حكاه التلمساني في شرح التفريع، قال ابن الجلاب : ومن طلق امرأته ثلاثا في كلمة واحدة حرمت عليه، قال الشارح : إذا كان ذلك في كلمات فلا خلاف في حرمتها لقوله تعالى : ﴿**الطلاق مرتان** . . . - إلى قوله - : **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره**﴾[1]، وإن كان في كلمة ففيه خلاف هل يرجع إلى الواحدة والمشهور من المذاهب أنها ثلاث، ثم قال الشارح في موضع آخر في قوله : «من طلق امرأته ثلاثا في كلمة» قال : هذا تنبيه على الخلاف وهو أن الثلاث في كلمة ترجع إلى الواحدة، وهوقول شاذ في المذهب، ووجهه ما روى أن الثلاث على عهد رسول الله ﷺ كانت واحدة .

الوجه الثامن : أنه أحد القولين في مذهب أبي حنيفة اختاره محمد بن مقاتل الرازي حكاه عنه الطحاوى .

الوجه التاسع : أنه أحد القولين في مذهب أحمد حكاه شيخنا واختاره وأفتى به، وأقل درجات اختياراته أن يكون وجها في المذهب، ومن الممتنع أن يكون اختيار ابن عقيل، وأبي الخطاب، والشيخ أبي محمد وجوها يفتى بها، واختيارات شيخ الإسلام لا تصل إلى هذه المرتبة، فالذي يجزم به أن دخول الكفارة في الحلف بالطلاق، وكون الثلاث بكلمة

---

(١) البقرة / ٢٢٩ - ٢٣٠ .

واحـدة أحـد الـوجهـين في مذهب أحمد هو مخرج على أصوله أصح تخريج والغرض نقض قول من ادعى الاجماع في ذلك ولتقرير هذه المسألة موضع آخر .

الـوجـه العاشر : أنه من المحال أن تجمع الأمة على لزوم الثلاث ، وفيهـا حديثـان صحيحـان صريحـان عن رسول الله ﷺ لا معارض لهما ولا ناسخ ، وحديث آخر ظاهر في عدم الوقوع .

الحـديث الأول : حديث أبي الصهبـاء عن ابن عبـاس ، وقد رواه مسلم في صحيحه[1] .

الثـــاني : قال الإمـام أحمـد في مسنـده : حدثنا سعد بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني داود بن الحصين عن عكرمة مولى ابن عبـاس ، عن ابن عبـاس قال : طلق ركـانـة بن عبـد يزيـد أخو المطلب امـرأتـه ثلاثـا في مجلس واحـد ، فحـزن عليها حزنا شديدا ، فسأله رسول الله ﷺ كيف طلقتها ؟ قال : طلقها ثلاثا ، قال : في مجلس واحد ؟ قال : نعم ، قال : فإنما تلك واحدة ، فارجعها إن شئت ، قال : فرجعها .

قال : وكـان ابن عبـاس يرى ان الطـلاق عنـد كل طهر[2] ، ورواه محمـد بن عبـد الـواحـد المقـدسي في مختـاراتـه التي هي أصح من صحيح الحاكم ، فهذا من رواية عكرمة عن ابن عباس .

والأول من رواية طاووس ، وكان طاووس وعكرمة يقولان : هي واحدة .

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .

(٢) مسند أحمد ١/٢٦٥ .

قال اسماعيل بن إبراهيم : ثنا أيوب عن عكرمة، إذا قال : أنت طالق ثلاثا بفم واحد فهي واحدة .

قال أبو داود : وروى حماد بن زيد عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس إذا قال : أنت طالق ثلاثا بفم واحد فهي واحدة(١) .

فهؤلاء رواة الحديث عن ابن عباس، قد أفتوا به، ومنهم محمد بن إسحاق، كل يفتى بأن من قال : أنت طالق ثلاثا فهي واحدة، وكان يقول : (من)(٢) جهل السنة فيرد إليها، وهذا عين الفقه فإن العامي الجاهل إذا جهل سنة الطلاق، وطلق رد طلاقه إلى السنة لقوله ﷺ : «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»(٣) .

وأما الحديث الظاهر في عدم لزوم الثلاث، فهو حديث محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا (فقام)(٤) غضبان، ثم قال : «أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال : يارسول الله ألا أقتله» . رواه النسائي(٥) ولم يقل أنه أجازه عليه، بل الظاهر برسول الله الذي يقرب من القطع أن رسول الله ﷺ لا يجيز حكما تلاعب موقعه بكتاب الله بل هو أشد ردا له وابطالا . والله المستعان .

---

(١) انظر سنن أبي داود ٢/٦٤٨ .

(٢) (من) من «ل» .

(٣) البخاري مع شرحه كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، ح ٢٦٩٧ ٥/٣٠١، ومسلم كتاب السنة باب نقض الأحكام الباطلة ح ١٧١٨ ٣/١٣٤٣، وسنن أبي داود كتاب السنة باب في لزوم السنة ح (٤٦٠٦) ٥/١٢ .

(٤) (فقام) من «ل» .

(٥) رواه النسائي في كتاب السنن كتاب الطلاق باب الثلاث المجموعة وما فيه من التغليظ ٦/١١٦ .

فصــــــل

ومن ذلـك حكـاية من حكى الاجماع على وقوع الطلاق في الحيض بحسب ما بلغه والمسألة مسألة نزاع لا مسألة اجماع، فصح عن ابن عمر أنه قال في الرجل يطلق امرأته وهي حائض لا يعتد بذلك .

وصح عن [1] طاووس أنه كان لا يرى طلاقا ما خالف وجه الطلاق ووجـه العـدة، وكان يقول : وجه الطلاق أن يطلقها طاهرا من غير جماع، أو إذا استبـان حملهـا، وصـح عن خلاس بن عمرو أنه قال في الرجل يطلق امرأته وهي حائض قال : لا يعتد بها، قال أبو محمد بن حزم : ويكفى من هذا كله المسند البين الثابت الذي خرجه أبو داود السجستاني، قال حدثنا أحمد بن صالح حدثنا عبد الرزاق حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمـع عبـد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل ابن عمر، قال أبو الزبير وأنا أسمـع كيف ترى في رجـل طلق امرأته حائضا ؟ فقال ابن عمر، طلق ابن عمـر امـرأتـه وهي حائض على عهـد رسـول الله ﷺ فسأل عمر عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، قال عبد الله : فردها علي ولم يرها شيئا، وقال : إذا طهرت فليطلق أو ليمسك، وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿**ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن**﴾ من قُبُلِ عِدّتِهِنَّ [2] .

وقال : هذا إسناد في غاية الصحة لا يحتمل التوجيهات .

---

(١) بداية السقط من الأصل ورقة ٧٢ حيث قال الناسخ : هكذا في الأصل وهو في «ل» من ورقة ٧٦/ب ص ١١ س ١٧ إلى ورقة ١٠٠ ولم يكمل النقص حيث وصل إلى الوجه ٣٨ والموجود في الأصل الوجه ٤١ فالناقص ثلاثة أوجه.

(٢) سنن أبي داود كتاب الطلاق باب في طلاق السنة ح (٢١٨٥) ٢ /٦٣٦، والنسائي في الطلاق باب وقت الطلاق للعدة ٦/ ١١٢.

والكـلام على هذا الحـديث وعلى الحـديث الآخر، (. . . . .)[1] وبيان عدم التعارض بينهما له موضع آخر .

والقصـد أن المسألـة من مسائل النزاع لا من مسائل الاجماع ، فأحد الوجهين في مذهب الإمام أحمد أنه لا يقع الطلاق في زمن الحيض ، اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية . وبالله التوفيق . . .

فلنـرجـع إلى ما كنـا فيـه وهو المقصود بذكر هذا الفصل وهو الوهم الـواقـع بظن الاجماع فيـما فيـه النزاع حتى يقدم على مقتضى الحديث أو مقتضى الـدليـل ثم يسلك من ظن الاجمـاع في تلك الأدلة مسلك التأويل فيكـون الحـامـل له على التأويـل ما ظنـه من الاجمـاع ، فإذا تبين الخلاف الثابت في المسألة لم يبق للتأويل بما يخالف الظاهر مساغ . وبالله التوفيق[2] .

---

(١) مكـان الفـراغ عبـارة وردت بلفـظ (أرأيت ان عجزوا واستخق) وقد حذفناها لأنه لا معنى لها هنا ولاستقامة الكلام بدونها .

(٢) سيستمر السقط في الأصل ـ وهو موجود في الألمانية ـ إلى نهاية ورقة ١٠٠ ، وهو من بداية الفصل الخامس والعشرين .

فهرس موضوعات الكتاب

الموضـــــــوع	صفحة

فهرس موضوعات المقدمة :

الموضـــــوع	صفحة

فهرس موضوعات الكتاب :

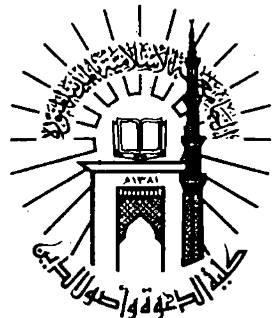
الموضـــــوع	صفحة

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني وأوله : الفصل الخامس والعشرون

١٤٠٧هـ

المملكة العربية السعودية



٢

الصواعق المرسلة

على الطائفة الجهمية والمعطلة

للإمام ابن قيم الجوزية

الجزء الثاني

تحقيق
الدكتور أحمد عطية الغامدي
الأستاذ المشارك بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٤١٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

(الفصل الخامس والعشرون)(١)

في ذكر الطواغيت الأربعة(٢) التى هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين، وانتهكوا بها حرمة القرآن، ومحوا بها رسوم الإيمان وهى :

قولهم : إن كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لاتفيد علما ولا يحصل منها يقين.

وقولهم : إن آيات االصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها.

وقولهم : إن أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة التى رواها العدول وتلقتها الأمة بالقبول لاتفيد العلم وغايتها أن تفيد الظن.

وقولهم : إذا تعارض العقل ونصوص الوحى أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحى.

فهذه الطواغيت الأربعة(٢) التى فعلت بالإسلام ما فعلت، وهى التى محت رسومه، وأزالت معالمه، وهدمت قواعده، وأسقطت حرمة النصوص من القلوب، ونهجت طريق الطعن فيها لكل زنديق وملحد، فلا يحتج عليه المحتج بحجة من كتاب الله أو سنّة رسوله، إلا لجأ إلى

---

(١) من هنا يستمر السقط من الأصل الذي أشرنا إلى بدايته في نهاية الجزء الأول، ولذلك تعتبر النسخة الألمانية أصلا لما يأتي من مباحث حتى ص٤٧٥ حيث أشرت إلى نهاية السقط وانتهاء النسخة الألمانية.

(٢) في «ل» الأربع. والصواب ما أثبت.

طاغوت من هذه الطواغيت واعتصم به، واتخذه جنة يصد به عن سبيل الله، والله تعالى بحوله وقوته ومنّه وفضله قد كسر هذه الطواغيت طاغوتا طاغـوتـا، على ألسنـة خلفاء رسله، وورثة أنبيائه، فلم يزل أنصار الله ورسوله يصيحون بأهلها من أقطار الأرض، ويرجمونهم بشهب الوحى، وأدلة المعقول.

ونحن نفرد الكلام عليها طاغوتا طاغوتا.

الطاغوت الأول

قولهم: نصوص الوحى أدلة لفظية وهى لا تفيد اليقين.

قال متكلمهم[١]: مسألة: الدليل لايفيد اليقين إلا عند أمور عشرة:

عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ، وإعرابها، وتصريفها، وعدم الاشتراك، والمجاز، والتخصيص بالأشخاص والأزمنة، وعدم الإضمار، والتقديم والتأخير «والنسخ»[٢]، وعدم المعارض العقلى الذى لو كان لرجح إذ ترجيح النقل على العقل يقتضى القدح فى العقل المستلزم القدح فى النقل لافتقاره إليه، فإذا كان المنتج ظنيا فما ظنك بالنتيجة[٣].

قال شيخ الإسلام[٤]: والجواب عن هذا من وجوه:

أحدهما: أنا لا نسلم أنه موقوف على هذه المقدمات العشر[٥]، بل نقول: ليس موقوفا على مابه يعرف مراد المتكلم، فإن مراد القائل بقوله:

---

(١) يقصد فخر الدين الرازى أحد أئمة الأشاعرة، تقدمت ترجمته فى الجزء الأول ص٢١٣.

(٢) ما بين القوسين من محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازى.

(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص٣١، ط الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٣هـ، وانظر أيضا: معالم أصول الدين ص٢٤.

والرازى وإن كان أكثر المتكلمين عناية بتقرير هذا القانون الفاسد إلا أنه لم يبتدعه، وإنما أخذه عن من سبقه، وخاصة الغزالى مؤلف كتاب «قانون التأويل»، والقاضى أبو بكر بن العربى، والجوينى، والباقلانى. انظر درء التعارض ١/٥-٦.

(٤) يعنى الإمام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ، وقد أشار ـ رحمه الله ـ فى درء التعارض إلى أنه قد صنف فى فساد هذا الكلام كتابا مستقلا، وذكر طرفا من بيان فساده فى الكلام على «المحصل» وكان ـ رحمه الله ـ قد ألف كتابا شرح فيه الجزء الأول من «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» للرازى، وهو مفقود. انظر درء التعارض ١/٢٢.

ولعل ما أورده المصنف هنا قد نقله من ذلك الكتاب.

(٥) في «ل» العشره والصواب ما أثبت.

الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين أنه لا يعلم بها مراد المتكلم. فأما كون مراده مطابقا للحق فذاك مبنى على ثبوت صدقه وعلمه، وليس مرادهم هذا، وإن أرادوا ذلك دون الأول فهو موقوف على ثبوت عصمة المتكلم ومعرفة صدقه فقط.

فمن عرف أن الرسول أراد هذا المعنى، وعرف أنه صادق، حصل له العلم اليقين.

والمقدمة الثانية إيمانيه، فإن كل من شهد أن محمداً رسول الله علم أنه خبر مطابق لمخبره، فلا يجوز عليه الإخبار بما لا يطابق مخبره.

وأما المقدمة الأولى فتعرفها علماء أمته وورثته وخلفاؤه.

قلت: ها هنا أمران:

أحدهما: اليقين بمراد المتكلم.

والثانى: اليقين بأن ما أراده هو الحق.

فقول القائل: كلام الله ورسوله لايفيد اليقين، يحتمل أن يريد به مجموع الأمرين أى لا يفيد علماً بمراده، ولو أفاد علما بالمراد لم يفد علما بكون ذلك المراد مطابقا للحق فى نفس الأمر.

ويحتمل: أن يريد به المعنى الأول فقط، وأنه لو حصل لنا اليقين بمراده لحصل لنا اليقين بكونه حقا فى نفس الأمر.

ويحتمل: أن يريد به المعنى الثانى فقط، وهو أنه لو حصل اليقين بمراده لم يحصل اليقين بكونه مطابقا للحق، فإن ذلك لا يعلم إلا بأدلة المعقول لا يعلم بمجرد الخبر.

فهذه ثلاثة احتمالات. فإن أراد المعنى الأول أو الثالث، كان ذلك قدحا فى الإيمان به وتجن فى الكذب عليه، وأمثال ذلك مناف للجزم بتصديقه.

وإن أراد المعنى الثانى وحده وهو: أنها لا يحصل منها اليقين بمراده، ولو حصل ذلك منها لحصل اليقين بكونه حقا، فهذا وإن لم يقدح فى تصديقه فهو قادح فى تحكيمه والتحاكم إليه، والاهتداء بكلامه موجب لعزله عن ذلك والإعراض عنه والتحاكم إلى من لا يفيدك كلامه علما ولا يقينا لا يحصل به المقصود، فإذا انضم إلى هذه المقدمة أن النقل إذا عارض العقل وجب تقديم العقل، كَمُلَ عزل الوحى، واستحكم الإعراض عنه فى باب معرفة الله عز وجل وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فنقول: معرفة مراد المتكلم تحصل بالنقل المتواتر، كما حصل العلم بأنه قال ذلك اللفظ بالنقل المتواتر، فإنا نعلم أن قوله: ﴿**ولله على الناس حج البيت**﴾(١) متواتر نقل لفظه ونقل معناه عن الرسول، ونعلم أن المراد بالله رب العالمين، وبالناس بنو آدم، وبالبيت الكعبة التى يحجها الناس بمكة. كما علمنا بالتواتر أن الرسول بلغ هذا الكلام عن الله. وكذلك نعلم بالتواتر أن قوله تعالى: ﴿**شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن**﴾(٢) المراد به هذا الشهر الذى بين شعبان وشوال، وأن القرآن هذا الكتاب الذى بين دفتى المصحف(٣). وكذلك عامة ألفاظ القرآن نعلم قطعا مراد الله

---

(١) آل عمران / ٩٧.

(٢) البقرة / ١٨٥.

(٣) يخالف الأشاعرة والمعتزلة السلف في ذلك، لأنهم وإن اتفقوا على تسمية ما بين دفتى المصحف قرآنا، إلا أن السلف يقولون انه كلام الله حقيقة ألفاظه ومعانيه، تكلم الله به وأنزله منجما على رسول الله ﷺ حسب الحوادث، وإذا تكلم الله تعالى به سمعه جبريل وبلغه إلى محمد ﷺ، فالله يتكلم حقيقة والقرآن من كلامه تعالى.

يقول الإمام عثمان بن سعيد الدارمى: «فالله المتكلم أولا وآخرا، لم يزل له الكلام، إذ لا متكلم غيره، ولا يزال له الكلام إذ لا يبقى متكلم غيره، فيقول: ﴿**لمن الملك اليوم**﴾ أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ وكيف يعجز عن الكلام من علم العباد الكلام وأنطق الأنام؟إقال الله تعالى فى كتابه: ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾ فهذا لا يحتمل تأويلا غير نفس الكلام... وقال لقوم موسى حين اتخذوا العجل: ﴿**أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا**﴾ طه/ ٨٩... وقال: ﴿**عجلا جسدا له خوار ألم يرو أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ الأعراف/١٤٨.
=

ورسـوله منها، كما نعلم قطعا أن الرسول بلغها عن الله، فغالب معانى القرآن معلوم أنها مراد الله خبرا كانت أو طلبا، بل العلم بمراد الله من كلامه أوضح وأظهر من العلم بمراد كل متكلم من كلامه، لكمال علم المتكلم وكمال بيانه وكمال هداه وإرشاده وكمال تيسيره للقرآن حفظا وفهما وعلما وتـلاوة، فكـما بلغ الرسول ألفاظ القرآن للأمة بلغهم معانيه، بل كانت عنايته تبليغ معانيه أعظم من مجرد تبليغ ألفاظه، ولهذا وصل العلم بمعانيه إلى من لم يصل إليه حفظ ألفاظه، والنقل لتلك المعانى أشد تواترا وأقوى اضطرارا، فإن حفظ المعنى أيسر من حفظ اللفظ، وكثير من الناس يعـرف صورة المعنى ويحفـظها ولا يحفظ اللفظ، والذين نقلوا الدين عنه

= قال أبو سعيد: ففى كل ما ذكرنا تحقيق كلام الله وتثبيته نصا بلا تأويل ففيما عاب الله به العجل فى عجزه عن القول والكلام بيان بيّن أن الله عز وجل غير عاجز عنه، وأنه متكلم وقائل، لأنه لم يكن يعيب العجل بشىء هو موجود فيه. «انتهى». الرد على الجهمية ص٧٢ـ٧٣، وانظر مجموع الفتاوى ١٢/٥٢٩.

أما الأشاعرة فيقولون: إن القرآن ليس هو كلام الله حقيقة، وانما هو عبارة عن كلام الله، ودلالة عليه. وهذا مبنى على رأيهم فى صفة الكلام المبنى على أن الكلام الحقيقى ما يقوم بنفس المتكلم، واستدلوا ببيت من الشعر قاله نصرانى ضال فى كلام الله كما هو المعروف من رأى النصارى القائل بأن عيسى هو كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت...

وهذا البيت هو قوله:

أن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ولذلك قالوا فى القرآن: إنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله حقيقة وهو مخلوق. انظر المواقف بشرح الجرجانى (قسم الألهيات) ص١٥٠، وغاية المرام للآمدى ص٩٧.

أما المعتزلة والجهمية فاتفقوا مع السلف أيضا على تسمية ما بين دفتى المصحف قرآنا، إلا أنهم قالوا: إنه مخلوق، وهذا مبنى على مذهبهم فى أن الله إذا أراد أن يتكلم خلق الكلام فى غيره، وهذا يلزم منه لوازم باطلة ليس هذا موضع بسطها، ويلتقى مذهب الأشاعرة مع مذهب المعتزلة فى القول بخلق القرآن، مهما حاول الأشاعرة وضع فروقات بين المذهبين لأن محصلتهما واحدة. انظر مذهب المعتزلة فى شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص٥٢٨.

وكلا المذهبين يخالفان مذهب السلف المستند إلى الأدلة الصريحة الدامغة من الكتاب والسنة لأن جميع الأدلة من الكتاب والسنة تدل على أن الله يتكلم حقيقة بكلام يسمع.

علموا مراده قطعا لما تلا عليهم تلك الألفاظ، ومعلوم أن المقتضى التام لفهم الكلام الذى بلغهم إياه قائم، وهم قادرون على فهمه، وهو قادر على إفهامهم، وإذا حصل المقتضى التام لزم وجود مقتضاه، وبالجملة فالأدلة السمعية اللفظية قد تكون مبنية على مقدمتين يقينيتين:

أحدهما: أن الناقلين إلينا فهموا مراد المتكلم.

والثانية: أنهم نقلوا إلينا ذلك المراد كما نقلوا اللفظ الدال عليه وكلا المقدمتين معلومة بالاضطرار، فإن الذين خاطبهم النبى ﷺ باسم الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، والوضوء، والغسل، وغيرها من ألفاظ القرآن فى سائر الأنواع من الأعمال والأعيان والأزمنة والأمكنة وغيرها، يعلم بالاضطرار أنهم فهموا مراده، من تلك الألفاظ التى خاطبهم بها أعظم من حفظهم لها، وهذا مما جرت به العادة فى كل من خاطب قوما بخطبه، أو دارسهم علما، أو بلغهم رسالة، أن حرصه وحرصهم على معرفة مراده، أعظم من حرصهم على مجرد حفظ ألفاظه.

ولهذا يضبط الناس من معانى المتكلم أكثر مما يضبطونه من لفظه، فإن المقتضى لضبط المعنى أقوى من المقتضى لحفظ اللفظ، لأنه هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، وإن كانا مقصودين فالمعنى أعظم المقصودين والقدرة عليه أقوى، فاجتمع عليه قوة الداعى وقوة القدرة وشدة الحاجة، فإذا كانوا قد نقلوا الألفاظ التى قالها الرسول ﷺ مبلغا لها عن الله، وألفاظه التى تكلم بها يقينا، فكذلك نقلهم لمعانيها، فهم سمعوها يقينا وفهموها يقينا ووصل إلينا لفظها يقينا ومعانيها يقينا.

وهذه الطريقة اذا تدبرها العاقل علم أنها قاطعة، وأن الطاعن فى حصول العلم بمعانى القرآن شر من الطاعن فى حصول العلم بألفاظه،

ولهذا كان الطعن فى نقل بعض ألفاظه من فعل الرافضة(١).

وأما الطعن فى حصول العلم بمعانيه فإنه من فعل الباطنية الملاحدة(٢) فإنهم سلموا أن الصحابة نقلوا الألفاظ التى قالها الرسول، وأن القرآن منقول عنه، لكن ادعوا أن لها معانى تخالف المعانى التى يعلمها المسلمون، وتلك هى باطن القرآن وتأويله.

---

(١) من عقيدة الرافضة أن القرآن الذى بين أيدينا محرف، قد زيد فيه، ونقص منه، وقد بين هذه العقيدة وأجلاها ميرزا حسين بن محمد تقى النورى الطبرسى، المتوفى سنة ١٣٢٠هـ فى كتابه الذى سماه «فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب» جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيعة ومجتهديهم فى مختلف العصور، التى تصرح برأيهم فى القرآن وأنه قد حرف. وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٢٨٩هـ ومما استشهد به هذا العالم الشيعى على وقوع النقص فى القرآن ما أورده ص١٨٠ مما يسميه الشيعة سورة الولاية، مذكور فيها ولاية عليّ رضى الله عنه ﴿**يأيها الذين آمنوا آمنوا بالنبى والولى اللذين بعثناهما يهديانكم إلى الصراط المستقيم**...﴾ وقد أثبتها غيره من علماء الشيعة فى كتبهم. ومما استشهد به هذا الشيعى على تحريف القرآن ما أورده صاحب كتاب الكافى الذى هو عند الشيعة بمنزلة صحيح البخارى عند أهل السنّة، حيث ورد ص٢٨٩ من طبعة سنة ١٢٧٨ مانسب من كلام مختلق على عليّ بن موسى الرضا المتوفى سنة ٢٠٦هـ أنه قال له بعض أصحابه:

«جعلت فداك، إنا نسمع الآيات فى القرآن ليس هى عندنا كما نسمعها ولانحسن أن نقرأها كما بلغنا عنكم، فهل نأثم؟ فقال: لا، اقرأوا كما تعلمتم فسيجيئكم من يعلمكم»، وهذا يعنى أنهم يرون جواز قراءة القرآن كما هو فى المصحف الذى بين أيدينا الآن حتى يأتى من يعلمهم ما ليس فى المصحف مما نقص منه أو حُرف. وهذا تصريح بنقصان القرآن وتحريفه عندهم.

انظر الخطوط العريضة لمحب الدين الخطيب ص١٠-١٥ ط. الثامنة سنة ١٣٩٣هـ، وانظر ص٢٤٣ من كتاب «التبيان فى تفسير القرآن» لأبى القاسم الموسوى الخونى.

(٢) سموا باطنية لاعتقادهم أن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا انظر الملل والنحل للشهرستانى ١/١٩٢.

ومن آرائهم التى هدموا بها أصول الدين وفروعه قولهم: كل ما ورد من الظواهر فى التكاليف والحشر، والنشر، والأمور الإلهية، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن، أما الظاهر فلا حقيقة له وغير مراد فى نفسه، وقد لجأوا إلى هذه المقولة الخبيثة حينما عجزوا عن صرف الناس عن القرآن والسنّة، فاستفادوا بها انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطال معانى الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، لأنهم لو صرحوا بالنفى المحض، والتكذيب المجرد، لم يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المقتولين.

راجع فضائح الباطنية للغزالى ص٥٥. =

وقـول القـائل: الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين دهليز[1] إلى مذهب هؤلاء ومرقاة إليه، لكن الفرق بينهما أنه يقول: لا أعلم مراد المتكلم بها.

وهم يقولون: مراده هذه التأويلات الباطنة.

وما جاء به الرسول نوعان: طلب، وخبر.

فالطلب: يقولون: المراد به تحصيل الأخلاق التى تستعد بها النفس لنيل العلوم العقلية، فإذا حصلت لها تلك المعارف لم يكن لاشتغالها بتلك الأسباب التى أمرت بها فائدة، فسقط عنها مايجب على غيرها من النفوس الجاهلة، ويباح لها ما يحرم على غيرها. وعند هؤلاء مقصود الشرائع تعديل النفوس بالأخلاق التى تعدها لإدراك العلوم.

وأمـا الأخبار: فعقلاؤهم ورؤوسهم يعلمون قطعا أن الرسل إنما أرادت إفهام الخلق ظواهرها، وما دلت عليه، لكن لا حقيقة لها فى نفس الأمر. والرسل كانت تعلم ذلك، لكن خيلوا إلى الناس ما ينتفعون به، ويكون به أدعى إلى الانقياد، ولم يمكن ذلك إلا باظهار ما لا حقيقة له، وذلك سائغ للمصلحة إذا كان فهم الجمهور عندهم للحقائق فى نفس الأمر يوجب انحلالهم وانهماكهم فى الشهوات[2].

= وفى بيان ضرر هذه الطائفة الخبيثة على الإسلام وأهله يقول عبد القاهر بن طاهر البغدادى: اعلموا ـ أسعدكم الله ـ أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال فى وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لاتزيد مدتها على أربعين يوما، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرسل والقطر. الفرق بين الفرق ص٢٨٢.
وراجع عن أصل قيام هذه الفرقة الجزء الأول من هذا الكتاب ص٢٠٠ هامش رقم(٣).

(١) الدهليز: مابين الباب والدار، فارسي معرّب. انظر اللسان مادة «دهلز».

(٢) أصحاب هذه الطريقة هم الفلاسفة، وتسمى هذه الطريقة طريقة الوهم والتخييل.
ويوضح الإمام ابن تيمية هذه الطريقة بقوله: أهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون: أن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر، وعن الجنة والنار، بل وعن الملائكة بأمور غير مطابقة للأمر، وأن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيما محسوسا، وعقابا محسوسا، وإن كان الأمر ليس كذلك فى =

وطائفة منهم تزعم أن الرسل إنما قصدت إفهام تلك التأويلات، لكن أهل الظاهر غلظ حجابهم وكثفت أفهامهم عن إدراكها فوقعوا بسبب قصور أفهامهم فى العناء والمشقة وتحمل أعباء التكاليف، وهؤلاء وضعوا لهم قانونا فى تأويل الأمر، والنهى، والخبر(١).

كما وضعت الجهمية والقدرية لهم قانونا فى تأويل آيات الصفات وأخبارها، وانقطعت(٢) الطائفتان على تقديم ماطبق من العقليات على نصوص الوحى، وأنها لا يستفاد منها علم أصلا، ولا يعرف أحد من فرق الإسلام قبل ابن الخطيب وضع هذا الطاغوت وقرره وشيد بنيانه، وأحكمه مثله، بل المعتزلة، والأشعرية، والشيعة، والخوارج، وغيرهم يقولون بفساد هذا القانون، وأن اليقين يستفاد من كلام الله ورسوله، وإن كان بعض هذه الطوائف يوافقون صاحب هذا القانون فى بعض المواضع، فلم يقل أحد منهم قط: إنه لا يحصل اليقين من كلام الله ورسوله البته.

= نفس الأمر، لأن مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به، ويتخيلون أن هذا الأمر هكذا، وإن كان كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور، إذا كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة. درء تعارض العقل والنقل ١/٨-٩.

(١) هذه طريقة أخرى من طرق المبتدعة فى نصوص الوحى وهى طريقة التحريف والتأويل وأصحاب هذه الطريقة يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال إلا ما هو الحق فى نفس الأمر، وأن الحق فى نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا، ثم يجتهدون فى تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات التى يحتاجون فيها إلى إخراج اللغات عن طريقتها المعروفة، وإلى الاستعانة بغرائب المجازات والاستعارات.

وهذه طريق خلق كثير من المتكلمين وغيرهم، وعليها بنى سائر المتكلمين المخالفين لبعض النصوص مذاهبهم من المعتزلة، والكلابية، والسالمية، والكرامية والشيعة وغيرها.

راجع درء تعارض العقل والنقل ١/١٢، ١٣، وراجع فى هذه الطريقة والتى قبلها الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب.

(٢) كذا فى «ل» ولعل الصواب: اتفقت.

فصـــــل

الطريق الثاني: في إبطال هذا الأصل أن يقال: من المعلوم أن دلالة الأدلـة اللفظية لاتختص بالقرآن والسنّة، بل جميع بنى آدم يدل بعضهم بعضـا بالأدلـة اللفظية، والإنسان حيوان ناطق، فالنطق ذاتى له، وهو مدنى بالطبع لايمكن أن يعيش وحده كما يعيش الوحش، بل لا يمكنه أن يعيش إلا مع بنى جنسه، ولابد أن يعرف بعضهم مراد بعض ليحصل التعاون، فعلّمهم الحكيم العليم تعريف بعضهم بعضا مراده بالألفاظ، كما قال تعالى: ﴿**الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان**﴾(١) وقال تعالى: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها . . .**﴾(٢) وقال: ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾(٣).

فكانت حكمة ذلك التعليم تعريف مراد المتكلم، فلو لم يحصل له المعرفة كان فى ذلك إبطال لحكمة الله وإفساد لمصالح بنى آدم، وسلب الإنسان خاصيته التى ميزه بها على سائر الحيوان، وهذه الطريق يستدل بها من وجوه:ـ

أحـدهمـا: أن هذا المقصـود ضرورى فى حياة بنى آدم فلابد من وجوده، فلو لم تفد الأدلة اللفظية العلم بمراد المتكلم لم يعش بنو آدم، واللازم منتف فالملزوم مثله.

الثـانى: أنّا نعلم قطعا أن جميع الأمم يعرف بعضهم مراد بعض بلفـظه، ويقطع به ويتيقنه، فقول القائل: الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين قدح فى العلوم الضرورية التى اشترك الناس فى العلم بها.

---

(١) سورة الرحمن /٢.
(٢) سورة البقرة /٣١.
(٣) سورة العلق /٥.

الثالث: أن معرفة الناس مراد المتكلم منهم بكلامه أعظم من معرفتهم عامة العلوم العقلية، فمعرفتهم مراد المتكلم لهم بكلامه أتم وأقوى من معرفتهم بتلك القوانين التي وضعها أربابها للقدح في إفادة الخطاب لليقين.

الرابع: أن الطفل أول ما يميز يعرف مراد من يربيه بلفظه قبل أن يعرف شيئا من العلوم الضرورية، فلا أقدم عنده ولا أسبق من تيقنه لمراد من يخاطبه بلفظه، فالعلم بذلك مقدم على سائر العلوم الضرورية، فمن جعل العقليات تفيد اليقين. والسمعيات لاتفيد معرفة مراد المتكلم فقد قلب الحقائق وناقض الفطرة وعكس الواقع.

الخامس: أن كل إنسان يدل غيره بالأدلة اللفظية على ما يعرفه، ويعرف مراد غيره بالأدلة اللفظية، وأما الاستدلال بالعقليات الكلية فلا يعرفه إلا بعض الناس، وما يعرفه كل أحد ويتيقنه فهو أظهر مما لا يعرفه إلا بعض الناس.

السادس: أن التعريف بالأدلة اللفظية أصل التعريف بالأدلة العقلية فمن لم يكن له سبيل إلى العلم بمدلول هذه، لم يكن له سبيل إلى العلم بمدلول تلك، بل العلم بمدلول الأدلة اللفظية أسبق، فانه يوجد في أول تمييز الإنسان، وحينئذ فالقدح في حصول العلم بمدلول الأدلة اللفظية قدح في حصول العلم بمدلول الأدلة العقلية، بل هي أصل العلم بها، فإذا بطل الأصل بطل فرعه. يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن الإنسان في فهمه وإفهامه للدليل العقلي محتاج إلى معرفة مراد المخبر به (الذاكر له)[1] لمن يخاطبه، فإذا لم يحصل له علم بمراده من الدليل فكيف يحصل له علم بالمدلول.

---

(١) في «ل» «الذكر له» ولعل ما أثبت هو الصواب.

الوجه الثامن: أن تعليم الأدلة اللفظية يحسنه كل أحد، فما من أحد إلا ويمكنه أن يعرف غيره لغته، ويعرفه ما يعرفه بالأدلة اللفظية، وأما تعليم الدلالة العقلية فلا يحسنه كل أحد.

الوجه التاسع: أن الله سبحانه هدى البهائم والطير أن يُعرف بعضها بعضا مرادها بأصواتها، كما يشاهد في أجناس الحيوان والطيور، فالديك يصوت فتعرف الدجاج مراده، والفرس يصهل فيعرف الخيل مراده، والكلب ينبح فتعرف الكلاب مراده، والهر تنوّ فتعرف أولادها مرادها، والدجاجة تعرف أفراخها مرادها بصوتها، وهذا من تمام عناية الخالق سبحانه وهدايته العامة.

كما قال موسى: ﴿**ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾(١) وقال تعالى: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى، الذى خلق فسوّى، والذى قدر فهدى**﴾(٢).

فكيف لا يعلم الآدميون مراد بعضهم من بعض وخطابهم بألفاظهم ولا يجزمون به؟.

الوجه العاشر: ان أبلد الناس وأبعدهم فهما يعلم مراد أكثر من يخاطبه بالكلام الركيك العادم للبلاغة والفصاحة، فكيف لا يعلم أذكى الناس وأصحهم أذهانا وأفهاما مراد المتكلم بأفصح الكلام وأبينه وأدله على المراد ويحصل لهم اليقين بالعلم بمراده، وهل ذلك إلا من أمحل المحال.

---

(١) سورة طه / ٥٠.

(٢) سورة الأعلى / ١-٣.

الوجه الحادى عشر: أن هذا يستلزم الطعن والقدح فى بيان المتكلم وفصاحته، أو فى فهم السامع وذهنه، أو فيهما معا، فإن عدم العلم بمراده إن كان لتقصير فى بيانه كان ذلك قدحا فيه، وإن كان لقصور فهم السامع كان كذلك، فإذا كان المتكلم تام البيان، والمخاطب تام الفهم فكيف يتخلف العلم عنه بمراده؟.

الوجه الثانى عشر: أنه إذا كان التفاهم والعلم بمراد الحيوان من غيره حاصلا للحيوانات فما الظن بأشرف أنواعها وهو الإنسان، فما الظن بأشرف هذا النوع وهم العقلاء المعتنون بالبيان والإيضاح، فما الظن بالأنبياء المخصوصين من العلم والبيان والأفهام بما ليس مثله لسواهم، فما الظن بأفضل الأنبياء وأعلمهم وأكملهم بيانا وأتمهم فصاحة وأقدرهم على التعبير عن المعنى باللفظ الذى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ولا يوهم غيره، وأحرصهم على تعليم الأمة وتفهيمهم وأصحابه أكمل الأمم عقلا وفهما وفصاحة وحرصا على فهم مراده، فكيف لا يكونون قد تيقنوا مراده بألفاظه، وكيف لا يكون التابعون لهم بإحسان قد تيقنوا مرادهم مما بلغوهم إياه عن نبيهم ونقلوه إليهم؟!.

الوجه الثالث عشر: أنّا نعلم بالضرورة أن شيوخنا الذين كانوا يخاطبوننا كانوا يعرفونا مرادهم بألفاظهم، وقد عرفنا مرادهم يقينا، وهكذا نحن فيمن نعلمه ونخاطبه، وهم كانوا أفضل منا وأكمل علما وتعليما، ومن قبلهم كانوا أفضل منهم وأكمل علما وتعليما، ومن قبلهم كانوا أفضل منهم وأكمل كذلك، وهلُمَّ جرّا، إلى أوائل هذه الأمة، فكيف يكون هؤلاء كلهم لم يعلموا مراد الله ورسوله من كلامه، ولاحصل لهم يقين بمعرفة مراده من ألفاظه، ومن تدبر هذا وتصوره تبين له أن قول القائل: الأدلة اللفظية التى جاء بها الرسول لا تفيدنا علما ولا يقينا من أعظم أنواع

السفسطة[1] وأكثر أسباب الزندقة[2]، وأن هؤلاء شر من «اللا أدريه»[3] وشر من الباطنية.

الوجه الرابع عشر: أن دلالة الأدلة اللفظية على مراد المتكلم أقوى من دلالة الأدلة العقلية على الحقائق الثابتة كما تقدم تقريره، فكيف بدلالة المقدمات المشتبهة التى غايتها أن يكون فيها حق وباطل، وليس مع أصحابها إلا إحسان الظن بمن قالها، فإذا طولبوا بالبرهان على صحتها قالوا: هكذا قال العقلاء، وهذا أمر قد صقلته أذهانهم وقبلته عقولهم، فبين دلالة الأدلة اللفظية على مراد المتكلم ودلالة هذه المقدمات على الحقائق تفاوت عظيم، فكيف تفيد هذه اليقين دون تلك؟ وهل هذا إلا قلب للفطر وتعكيس للأذهان؟!.

الوجه الخامس عشر: أن دلالة قول الرسول على مراده أكمل من دلالة شبهات هؤلاء العقلية على معارضته بما لا نسبة بينهما، فكيف تكون شبهاتهم تفيد اليقين وكلام الله ورسوله لا يفيد اليقين؟!.

---

(١) السفسطة: هى المغالطة والتلبيس، ومحاولة قلب الحقائق، يقول الفارابى فى كتابه: إحصاء العلوم ص٢٤: وهذا الاسم اسم المهنة التى بها يقدر الإنسان على المغالطة، والتمويه والتلبيس بالقول والإيهام... وهو مركب فى اليونانية من «سوفيا» وهى الحكمة، ومن «اسطس» وهى المموهة فمعناه: حكمة مموهة.

(٢) «الزندقة ظاهرة فكرية معادية للإسلام، ويفرق بعض الباحثين بينها وبين الغلو: بأن الزندقة إنما هى ظاهرة أو حركة أعلنت معارضتها للإسلام وهدفت إلى هدمه، واعتمدت أسسا فكرية مناقضة له.

أما الغلو: فهو ظاهرة عملت فى نطاق الإسلام، واستندت إليه بالرغم من اعتمادها على مبادىء أخرى مناقضة له، وهدفت إلى مقاومة الإسلام وهدمه من الداخل تحت شعار التظاهر باسمه، ومن هنا يتبين الفرق بين الظاهرتين. انظر الغلو والفرق الغالية للدكتور عبد الله سلوم السامرائى ص٧٩.

(٣) فى الأصل: «البلاوريه» ولعل الصواب ما أثبت، وسيأتى ذكر المصنف لطائفة اللاأدريه وهم الذين يقولون: لا نعلم هل الحقائق ثابتة أو منتفية، وهل يمكن العلم أو لا يمكن.

وقد عد الإمام ابن تيمية اللاأدريه من طوائف السوفسطائية. انظر كتاب الصفدية ١/٩٨.

الوجه السادس عشر: أنك إذا تأملت العقليات التى زعموا أنها تفيد اليقين، وقدموها على كلام الله ورسوله وجدتها مخالفة لصريح المعقول، وقد اعترفوا أنها مخالفة لظاهر المنقول، وهذا لا يعرف إلا بالامتحان، كحكم عقولهم بأن العرض لا يبقى زمانين(١) وأن الأجسام

---

(١) يشير ابن القيم إلى أصل من أصول المتكلمين. والقول بأن العرض لايبقى زمانين قول طائفة منهم فقد قالوا: إن الأعراض كلها ـ وهى صفات الأجسام ـ لاتبقى وقتين، لأن الباقى إنما يكون باقيا بنفسه، أو ببقاء فيه، فلا يجوز أن تكون باقية بأنفسها، لأن هذا يوجب بقاءها فى حال حدوثها، ولا يجوز أن تبقى ببقاء يحدث فيها، لأنها لاتحتمل الأعراض، وهؤلاء يثبتون الأعراض كلها من ألوان وطعوم وروائح وحركات وغيرها، ويقولون: إنها لاتبقى زمانين.

وذهبت جماعة ثانية من المتكلمين إلى القول بأنه لا أعراض إلا الحركات، وقالوا بعدم جواز بقائها. وهذا قول النظام من أئمة المعتزلة.

وذهب أبو الهذيل العلاف من أئمة المعتزلة إلى تقسيم الأعراض إلى ما يبقى ومالا يبقى. انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى ٢/٤٦ـ٤٧.

وقد جعل المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم القول بالجواهر والأعراض، والاستدلال على حدوث العالم بطريقها أصلاً من أصولهم التى يوجبون النظر بها، وفى إيضاح هذا الأصل وتفنيده يقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله : «وأما ما يدخله بعض الناس فى هذا المسمى ـ يعنى أصول الدين ـ من الباطل، فليس ذلك من أصول الدين، وإن أدخله فيه... مثل الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأعراض التى هى صفات الأجسام القائمة بها، إما الأكوان، وإما غيرها، وتقرير المقدمات التى يحتاج إليها هذا الدليل: من إثبات الأعراض ـ التى هى الصفات ـ أولا، أو إثبات بعضها كالأكوان ـ التى هى الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ـ وإثبات حدوثها ثانيا، بإبطال ظهورها بعد الكمون، وإبطال انتقالها من محل إلى محل، ثم إثبات امتناع خلو الجسم ثالثا، إما عن كل جنس من أجناس الأعراض، بإثبات أن الجسم قابل لها، وأن القابل للشىء لايخلو عنه وعن ضده، وإما عن الأكوان، وإثبات امتناع حوادث لا أول لها رابعا. وهو مبنى على مقدمتين:

احداهما: أن الجسم لا يخلو عن الأعراض التى هى الصفات.

والثانية: أن مالا يخلو عن الصفات التى هى الأعراض فهو محدث، لأن الصفات ـ التى هى الأعراض ـ لاتكون إلا محدثة، وقد يفرضون ذلك فى بعض الصفات التى هى الأعراض، كالأكوان. ومالا يخلو عن جنس الحوادث فهو حادث، لامتناع حوادث لا تتناهى.

فهذه الطريقة مما يعلم بالاضطرار أن محمدا ﷺ لم يدع الناس بها إلى الاقرار بالخالق ونبوة أنبيائه. ولهذا قد اعترف حذاق أهل الكلام ـ كالأشعرى وغيره ـ بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرمة عندهم، بل المحققون على أنها طريقة باطله... درء تعارض العقل والنقل ١/٣٨ـ٣٩.

كلهـا متـماثلة، فجسم النـار مساو لجسم (السائل)[١] فى الحقيقة، وإنما اختلفا بالأعراض، وجسم البول مساو لجسم المسك بالحقيقة وإنما اختلفا فى أعراضهما، وحكم عقولهم بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وأن ذلك المصــدر لا يسمى باسم ولا يوصف بصفـة، ولا له ماهية غير الـوجـود المطلق، ثم الذى صدر عنه إن وجب أن يكون كذلك كان مصدره أيضا كذلك، وإن لم يكن به العالم يكثر، وإن كان فيه نوع يكثر فقد صدر أكثر من واحد.[٢].

ومثـل حكمهم بأن العـاقل والمعقول والعقل شىء واحد، فالمبدأ الأول عاقل ومعقول وعقل.

ومثـل حكمهم، بأن فى الخـارج كليات لاتتقيد بقيد ولاتشخص بتشخيص ولاتتعين بتعيين، وليست داخلة العالم ولا خارجه، وأنها جزء من هذه المعينات.

ومثل حكمهم بأن ذات الرب تعالى مع كونها خارجة الذهن فليست خارجـة العالم ولا داخلة فيه ولا متصلة به ولا منفصلة عنه ولا حالة فيه ولا مباينة له[٣].

ومثل حكمهم بأن الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل فى الأزل، وحصول المقدور فيه محال، ثم انتقل الفعل من الإحالة الذاتية إلى الإمكان

---

(١) فى «ل» : «المماثل» ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) أصحاب هذه المقالة الباطلة هم الفلاسفة كالفارابى، وابن سينا. انظر درء تعارض العقل والنقل ٨/ ١٩٠ وما بعدها.

(٣) هذا مذهب الأشاعرة، يقصدون به نفى أن يكون الله تعالى فى السماء مستو على العرش كما أخبر عن نفسه سبحانه، وهذا ـ كما ترى ـ فيه نفى لوجود الله تعالى، لأنه لا يعقل موجود هذه صفاته، وإنما هذه صفات للمعدوم.

الذاتى فلا يحدد بسبب أصلا وحدث من غير تجدد أمر يقتضى حدوثه، بل حال الفاعل قبله ومعه وبعده واحدة(١).

ومثل حكمهم بأن كلامه معنى واحد لا يتقسم ولا يتجزأ، ولا له بعض ولاكل، وأن الأمر هو عين النهى، وهما عين الخبر والاستخبار، فالكل حقيقة واحدة(٢)، وأن الحواس والإدراكات يصح تعلقها بكل موجود، فتؤكل الأصوات وتشم وتذاق، وتسمع الريح والطعوم، إلى أضعاف أضعاف ذلك من خواص علومهم التى جعلوها قواطع عقلية تفيد اليقين، وكلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد اليقين، فقد تبين أن مانفى عنه هؤلاء اليقين من أعظم مايفيد اليقين، وما أثبتوا له اليقين أبعد شىء عن اليقين.

الوجه السابع عشر: أن هذا من أنواع السفسطة، بل هو شر أنواعها فإن أنواعها ثلاثة:

أحدها: التجاهل وهو لا(٣) أدرى، وأصحابه يسمون اللا أدرية.

الثانى: النفى والجحود.

الثالث: قلب الحقائق وهو جعل الموجود معدوما والمعدوم موجودا إما فى نفس الأمر، وإما بحسب الاعتقاد، والذى يدعى قلب الحقائق فى نفس الأمر أشد سفسطة ممن يدعى أنها تبع لاعتقاد الإنسان فيها، فإذا جعلت الأدلة العقلية التى هى من جنس ما تقدم وغيره تفيد اليقين بمدلولاتها

---

(١) وهذا أيضا من آراء الأشاعرة لأنهم يقولون: أن القدرة صفة قديمة أزلية لله تعالى، والمقدورات الحادثة فى حال حدوثها مقدورة بالقدرة القديمة. انظر الارشاد للجوينى ص١٩٨، وشرح جوهرة التوحيد ص٥٦.

(٢) وهذا أيضا من تخليطات الأشاعرة وتخبطاتهم. انظر: نهاية الأقدام للشهرستانى ص٣٠٧، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازى ص١٣٤، والعقيدة النظامية للجوينى ص١٨.

(٣) فى «ل» «وهؤلاء» والصواب ما أثبت.

الخارجية، والأدلة اللفظية التى أعلاها كلام الله ورسوله لا تفيد اليقين، كان ذلك من أعظم أنواع السفسطة وأكثر أسباب الزندقة.

فإن قلت: فهم لم يجعلوا كل دليل عقلى يفيد اليقين، بل ماكانت مقدماته يقينية وتأليفه صحيحا. يوضحه:

الوجه الثامن عشر: أن قول القائل: الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين، إما أن يريد به نفى العموم، أو عموم النفى، فإن أراد نفى العموم لم يفده شيئا، فإن عاقلا لايدعى أن كل دليل لفظى يفيد اليقين، حتى ينصب معه الخلاف ويحتج عليه.

وإن أراد به عموم النفى كان هذا مكابرة للعيان وبهتا ومجاهرة بالكذب والباطل.

الوجه التاسع عشر: إنّا نعلم بالاضطرار أن مصنفى العلوم على اختلاف أنواعها علم الناس مرادهم من ألفاظهم علما يقينيا، وإنما يقع الشك فى قليل من كلامهم، ويقل ذلك ويكثر بحسب القائل وقوة ادراكه وجودة تصوره وألفه لكلامهم وغرائبه منه، ومعلوم قطعا أن علم الرسول بما يقوله، وحرصه على إفهامه، وتعليمه وشدة بيانه له، وحرص أمته على فهمه أعظم من حرص هؤلاء المصنفين ومن يتعلم منهم، فإذا حصل لأولئك اليقين بمعرفة مراد أرباب التصانيف فحصول اليقين لأهل العلم بكتاب الله وسنّة رسوله أولى وأحرى.

وليس الكلام فى هذا المقام فى تثبيت نبوته بل الكلام مع من يقر بنبوته ويشك فى معرفة مراده بألفاظه. فيقال: لاريب عند كل مؤمن بالله ورسوله أنه كان أعلم الخلق بما يخبر به وما يأمر به، فهو أعلم الخلق بما أخبر به عن الله واليوم الآخر، وأعلمهم بدينه وشرعه الذى شرعه لعباده، وأنه كان أفصح الأمة وأقدرهم على البيان وكشف المعانى، فإنه عربى والعرب أفصح الأمم، وقرشى وقريش أفصح العرب. وهو فى نفسه كان أفصح

قريش على الإطلاق، وقد أقر له أعداؤه بذلك، ولهذا قال: أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر(١).

وقد تكلم الناس فى فصاحة الحاضرة والبادية، وفى شعر الحاضرة والبادية، ورجح هؤلاء من وجه وهؤلاء من وجه، ورسول الله ﷺ جمع الله له كمال فصاحة البادية والحاضرة، ومن تدبر كلامه الذى تكلم به، والقرآن الذى بلغه عن الله، وأخبر أن الله تكلم به، وجد التفاضل بين كلامه هو عليه السلام وكلام غيره من البشر، ثم من المعلوم بالاضطرار من حاله أنه كان أحرص الناس على هدى أمته وتعليمهم والبيان لهم، فاجتمع فى حقه كمال القدرة وكمال الداعى وكمال العلم، فهو أعلم الناس بما يدعو إليه وأقدرهم على أسباب الدعوة، وأعظمهم رغبة، وأتمهم نصيحة، فإذا كان من هو دونه بمراتب لاتحصى فى كل صفة من هذه الصفات قد بين مراده بلفظه، كان هو صلوات الله وسلامه عليه أحق وأولى من كل وجه أن يكون قد استولى على الأمد الأقصى من البيان، فمن قال: إن اليقين لايحصل بألفاظه ولايستفاد العلم من كلماته كان قدحه فى بيانه أعظم من قدحه فى مراد سائر العلماء المصنفين، ومن قدحه فى حصول العلم واليقين بمرادها،

---

(١) أورده الحافظ ابن كثير فى التفسير ١/ ٣٠ بلفظ: «أنا أفصح من نطق بالضاد» وقال: لا أصل له.

والعجلونى فى كشف الخفا رقم (٦٠٩) ١/ ٢٣٢ وقال: ومثله: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش» أورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده.

انظر غريب الحديث لأبى عبيد ١/ ١٤٠ الطبعة الأولى بدون تاريخ، والنهاية فى غريب الحديث ١/ ١٧١، والفائق للزمخشرى ١/ ١١١، والغماز على اللماز للسمهودى ص٥٩، والمقاصد الحسنة ص٩٥.

أما معنى الحديث فصحيح كما قال السيوطى فى اللآلىء.

أما معنى «بيد» فقال أبو عبيد: قال الكسائى: قوله: «بيد» معناه: غير، وقال الأموى: بيد معناها: على، وأنشدنا لرجل يخاطب امرأة فقال:

عمدا فعلت ذاك بيد أنى إخال إن هلكت لم تُرنى

وقال ابن السكيت: بيد بمعنى غير، يقال: رجل كثير المال بيد أنه بخيل، معناه: غير أنه بخيل. انظر تهذيب اللغة لابن فارس ٤/ ٢٠٦-٢٠٧.

وإلا كان قدحه فى مراد عامة الآدميين أقرب، وقدحه فى معرفة مراد البهائم بلغاتها أقرب، ومن كان قوله مستلزما لهذه اللوازم كان قوله من أفسد أقوال بنى آدم، وكان قوله قدحا فى العقليات والشرعيات والضروريات.

الوجه العشرون: أنه من المعلوم أن الصحابة سمعوا القرآن والسنّة من النبى ﷺ، وقرأوه وأقرأوه من بعدهم، وتكلم العلماء فى معانيه وتفسيره، ومعانى الحديث وتفسيره، وما يتعلق بالأحكام وما لا يتعلق بها، وهم مجمعون على غالب معانى القرآن والحديث ولم يتنازعوا إلا فى قليل من كثير لاسيما (القرن)[1] الأول فإن النزاع بينهم كان قليلا جدا بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، وكان (النزاع)[2] فى التابعين أكثر وكلما تأخر الزمان كثر النزاع، وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن فى الذين قبلهم فإن القرآن تضمن الأمر بأوامر ظاهرة وباطنة، والنهى عن مناهٍ ظاهرة وباطنة، ورسول الله ﷺ بين مقادير الصلوات ومواقيتها وصفاتها، والزكوات ونصبها ومقاديرها، وكذلك سائر العبادات وعامة هذه الأمور نقلتها الأمة نقلا عاما متواترا خلفا عن سلف، وحصل العلم الضرورى بأنه بلغهم ألفاظها، وأنه قاتل المشركين وأهل الكتاب، وأنه بعث بمكة وهاجر إلى المدينة، وأنه دعا الأمة إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله[3]، وأخبرهم أن هذا القرآن كلام الله الذى تكلم به لا كلامه ولا كلام مخلوق،

---

(١) فى «ل» «القرآن» وهو خطأ.

(٢) فى «ل» «الناس» وهو خطأ.

(٣) هذا هو أول الواجبات، وهو الركن الأول من أركان الإسلام، فكان رسول الله ﷺ يدعو أول ما يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ومن قالها دخل فى الإسلام وشملته دائرة التكاليف التى تستلزمها هذه الشهادة، بدليل قول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتى قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فأدعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله...» الحديث. متفق عليه البخارى كتاب الزكاة ح(١٤٩٦) ٣/٣٥٧، ومسلم كتاب الإيمان ح(٢٩) ١/٥٠.

وقد خالف المتكلمون كعادتهم فادعوا أن النظر هو أول واجب على المكلف، ويعنون بالنظر الاستدلال بالأقيسة العقلية التى وضعوها ودعوا إلى الإيمان بالله عن طريقها. انظر: =

وأنه ليس قول البشر، وأنه أعلمهم أن ربه فوق سماواته على عرشه، وأن المَلَكَ نزل من عنده إليه، ثم يعرج إلى ربه، وأن ربه يسمع ويرى ويتكلم وينادى ويحب ويبغض ويرضى ويغضب، وأن له يدين ووجها، وأنه يعلم السر وأخفى، فلا يخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض، وأنه يقيمهم من قبورهم أحياء بعد مامزقهم البلَى إلى دار النعيم أو إلى الجحيم، فالعلم الضرورى بأنه جاء بذلك وأراده كالعلم الضرورى بوجوده وبعثه ومخرجه وقتاله لمن خالفه، فالقدح فيما أخبر به من ذلك وأنه لا يفيد اليقين كالقدح فى مخبر الأخبار المتواترة وأنها لاتفيد اليقين.

الوجه الحادى والعشرون: أن كل صنف من أصناف العلماء تكفلوا بعلم من العلوم المنقولة عن الرسول متفقون على أكثر علمهم مسائله ودلائله، فالفقهاء متفقون على غالب الشريعة عامها وخاصها، وهم متفقون على أكثر خاصها الذى لا يعرفه العامة، وإذا كانوا قد عرفوا مراده بهذا فكيف لا يعرفون مراده بالذى هو أظهر وأشهر وأكثر نصوصا وأعظم بيانا؟ والمفسرون فسروا القرآن واتفقوا على المراد منه فى غالب القرآن، ونزاعهم فى القليل من ذلك، وأكثره عند التحقيق ليس نزاعا فى نفس الأمر، بل هو اختلاف فى التعبير واختلاف تمثيل وتنويع لا اختلاف تناقض

= الإرشاد للجوينى ص٢٥، وغاية المرام للآمدى ص٩، وادعى آخرون أن الشك هو أول واجب كما هو مذهب أبى الهذيل العلاف من المعتزلة، وذهبت طائفة إلى أن أول واجب هو القصد إلى النظر، وقيل أول واجب المعرفة نفسها.

وقالت الصوفية والشيعة وبعض المتكلمين إن المعرفة يبتديها الله اختراعا فى قلوب العقلاء البالغين من غير سبب يتقدم وغير نظر وبحث وهذا قول فضل الرقاشى وصالح قبه من أئمة المعتزلة. وقيل غير ذلك.

انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/٣٥٣-٣٥٤، وانظر القول الحق فى المسألة بأدلته، وهو أن الشهادتين هما أول واجب على المكلف. انظره فى نفس المصدر ٣/٨ وما بعدها.

ولاتضاد، وأهل الحديث متفقون على أحاديث الصحيحين، وإن تنازعوا فى أحاديث يسيرة منها جدا، وهم متفقون على لفظها ومعناها، كما اتفق المسلمون على لفظ القرآن ومعناه، وهذا مما ينفرد (به)[1] بعلمه الخاصة وهم القليل من الناس، وهم مع ذلك يعلمون بالاضطرار بطلان تأويل القرآن والحديث بما يتأوله به الفلاسفة، والقرامطة والجهمية، ويعلمون أنه خلاف مراد الرسول بالضرورة، فكيف ما اشتركت الأمة عامتها وخاصتها فى نقله قرنا بعد قرن، فكيف لا يعرفون مراد الرسول منه يقينا؟! فإن الأمة كلها تنقل عمن قبلها ومن قبلها عمن قبلها حتى ينتهى الأمر إلى الرسول، أن الله يرى ويسمع ويتكلم ويعلم وأنه فوق السموات السبع على العرش، وأنه يُرى يوم القيامة جهرة، وعلم الأمة بمراد الرسول من ذلك فوق علمهم بمراده من أحاديث الشفعة والربا والحيض والفرائض ونحوها. فكيف يقال حصل لهم اليقين بمراده من ذلك دون هذا، وهل هذا إلا من أقبح المكابرة.

الوجه الثانى والعشرون: أن يقال: من المعلوم بالضرورة أن المخاطبين أولا بالقرآن والسنّة لم يتوقف حصول اليقين لهم بمراده على تلك المقدمات العشر[2] التى ذكروها ولا على شىء منها، أما عصمة رواة اللغة فإنهم خوطبوا شفاهاً فلم يحتاجوا إلى واسطة فى نقل الكلام فضلا عن واسطة فى نقل اللغة. ولا إلى قاعدة ينفون بها نفى احتمال اللفظ لغير المعنى الذى قصده المتكلم، فإنهم علموا مراده بالضرورة، وإذا كانوا عالمين بمراده بالضرورة مع علمهم بصدقه امتنع عندهم أن يكون فى نفس الأمر معارض ينافى مراده، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى[3] من كبار التابعين:

---

(١) هكذا فى «ل» والكلام مستقيم بدونها.

(٢) فى «ل» «العشرة» والصواب ما أثبت.

(٣) هو مقرىء الكوفة الإمام العلم، عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفى، مولده فى حياة النبى ﷺ، قرأ القرآن وجوّده ومهر فيه، حدث عن عمر وعثمان وطائفة. قال أبو عمرو الدانى: أخذ القراءة عرضا عن عثمان وعليّ، وزيد، وأبَىّ، وابن مسعود، يقال: توفى سنة أربع =

حدثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا(1). وكان يمكث أحدهم فى السورة مدة حتى يتعلمها. وقد أقام ابن عمر على تعلم سورة البقرة ثمان سنين(2).

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ فى أعيننا(3). ولم يتوقف معرفة مراد الله ورسوله من كلامه عندهم على شيء من تلك الأمور العشرة، ولا تابعى التابعين ولا أئمة الفقه المتبوعين، ولا أئمة الحديث ولا أئمة التفسير، حتى نبغت قلف الأذهان عُجْم القلوب، فزعموا (أنه)(4) لايحصل اليقين بمراده إلا بعد هذه الأمور، ثم قالوا: لاسبيل إلى العلم بانتفائه، إذ غاية ما يقدر بعد البحث والطلب التام عدم العلم بها، ولا يلزم من عدم العلم عدم المعلوم فلا سبيل لنا إلى العلم بمراد الرسول البتة.

وطلبت نفوسهم ما يحصل (له) به العلم فعادوا إلى العقول فوجدوها قد تصادمت فيما تقضى به من جائز على الله وواجب ومستحيل أعظم تصادم، فخرجوا عن السمع الصحيح ولم يظفروا بدلالة العقل الصريح

= وسبعين. انظر: السير ٤/٢٦٧، وحلية الأولياء ٤/١٩١، وتاريخ بغداد ٩/٤٣٠، وتذكرة الحفاظ ١/٥٥، وتهذيب التهذيب ٥/١٨٣.

(1) جامع البيان للطبرى ١/٣٦. وانظر: سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٦/١٧٢.

وهو يشير بذلك إلى مثل قول ابن مسعود رضى الله عنه: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن». انظر جامع البيان ١/٣٥.

(2) انظر: موطأ الإمام مالك، كتاب القرآن، باب ما جاء فى القرآن رقم(١١) ١/٢٠٥.

(3) لم أجد من خرجه.

(4) فى «ل» «أنهم» ولعل الصواب ما أثبت.

ففاتهم العقل والسمع جميعا[1].

الوجه الثالث والعشرون: ان جميع ماذكروه من الوجوه العشرة يرجع إلى حرف واحد وهو: احتمال اللفظ لمعنى آخر غير ما يظهر من الكلام، فإنه لا ينازع عاقل أن غالب ألفاظ النصوص لها ظواهر هى موضوعة لها ومفهومة عند الإطلاق منها، لكن النزاع أن اعتقاد ذلك المعنى يقينى لا يحتمل غيره، أو ظنى يحتمل غيره، فالمدار كله على احتمال إرادته ﷺ معنى آخر غير الظاهر، وعدم ذلك الاحتمال، ومعلوم أن الطرق التى يعلم بها انتفاء إرادته معنى يناقض ذلك المعنى طرق كثيرة لا يحتاج شىء منها إلى ما ذكروه، بل قد يعلم السامع انتفاء معنى يناقض المعنى الذى ذكره المتكلم ضرورة، وتارة يغلب على ظنه عليه قرينة من الضرورة، وتارة يحصل له ذلك ظنا، وتارة لايفهم مراده، وتارة يشتبه عليه المراد بغيره، وهذا القطع، والظن، والشك له أسباب غير الأمور التى ذكروها.

فقد يكون سبب الاحتمال كون السامع لم يألف ذلك اللفظ فى لغة قومه، أو أن له فى لغتهم معنى غير معناه فى لغة المتكلم، أو أن اللفظ قد اقترنت به قرينة يقطع السامع معها بالمراد فخفيت عليه، أو ذهل عنها ولو نبه عليها لتنبه، كما اقترن بلفظ المفاداة[2] فى أنه الخلع، تقدم طلقتين وتأخر

---

(1) هذه هى النتيجة الحتمية لمن قدم المناهج العقلية السقيمة على منهج الوحى، ورضى بها بديلا له، فنهاية أمره أن يبقى بمنأى عن الحق الذى يوافق العقل الصريح والنقل الصحيح، فلا يظفر إلا بالإفلاس، لأنه لا يمكن لمن خرج عن السمع الصحيح أن يظفر بالعقل الصريح، لأن العقل الصريح والنقل الصحيح أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، إذ لا يمكن أن يكون ثمة تضادا بينهما، إلا فى حالة مرض العقل، أو عدم صحة النقل. ولهذا رأينا المتكلمين فرقا شتى مع أن منهجهم جميعا هو العقل، ولكن لأنهم أخذوه بمعزل عن النقل وجعلوه مهيمنا عليه فما خالفه من النقل أوّل على مقتضاه، كان الاختلاف من أبرز سماتهم، وكانت نهاية أمرهم الحيرة وعدم الاهتداء. كما سيأتى من إيضاح المصنف لنهاية أمر جماعة من أبرز أئمتهم. نسأل الله التثبيت والسداد.

(2) فى قوله تعالى: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾** البقرة / ٢٢٩.

طلقة ثالثة ووقع بين الطلقتين والطلقة الثالثة، ففهم جمهور الصحابة منه أنه غير محسوب من الثلاث، واحتج بذلك ابن عباس وغيره[1].

وقد تكون القرينة منفصلة فى كلام آخر، بحيث يجزم السامع بالمراد من مجموع الكلام، فيخفى أحدهما على السامع، أو لايتفطن له فلا يعرف المراد، فهذا قد يقع لأعلم الناس بخطابه ﷺ، وهو من لوازم الطبيعة الإنسانية، ولكنه قليل جدا بالإضافة إلى مايتيقنوه من مراده لا نسبة له إليه، فلا يجوز أن يدعى لأجله أن كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين بمراده، ولا سبيل لنا إلى اقتباس العلم واليقين منه.

الوجه الرابع والعشرون: أن قول القائل: الدليل اللفظى لا يفيد اليقين إلا عند أمور عشرة، نفى عام وقضية سالبة كلية، فإن أراد قائلها أن أحداً من الناس لا يعلم مراد متكلم ما يقينا إلا عند هذه الأمور العشرة فكذب ظاهر، وإن أراد به أنه لا يعلم أحد المراد بألفاظ القرآن والسنّة إلا عند هذه الأمور ففرية ظاهرة أيضاً، فان الصحابة كلهم من أولهم إلى آخرهم، والتابعون كلهم وأئمة الفقه كلهم، وأئمة التفسير كلهم، لم يتوقف علمهم بمراد الرسول على هذه الأمور، بل لم يخطر ببالهم ولم يذكرها أحد منهم فى كلامه.

وإن أراد أن من بعد الصحابة لا يعرف مراد الرسول إلا بهذه الأمور العشرة، فكذب أيضا، فإن التابعين ومن بعدهم جازمون متيقنون لمراده أعظم يقين، بل نحن ونسبتنا إليهم أقل نسبة، متيقنون لمراد الله ورسوله أكثر من كل أمة يقينا لاريب فيه، وجازمون به جزما لاشك فيه، ومَنْ قبلنا كان أعلم منا وأعظم جزما، ومن قبلهم كان كذلك، فكيف يستحل الرجل أن يحكم حكما عاما كليا أن أحداً لم يحصل له اليقين من كلام الله

---

(١) انظر: زاد المعاد ١٩٧/٥ ففيه: أن جمهور الصحابة على أن الخلع فسخ وليس بطلاق، وأنه لم يصح عن صحابى أنه قال: أن الخلع طلاق، وذكر قول ابن عباس: «الخلع تفريق وليس بطلاق». وانظر: المحلى لابن حزم ٢٣٧/١٠.

ورسوله؟! وإن أراد به أنها لاتفيد اليقين فى شىء وتفيده فى شىء آخر، قيل له: هذا لا يفيدك شيئا حتى تبين أن محل النزاع بينك وبين أهل السنّة وأنصار الله ورسوله من النوع الذى لا يفيد اليقين. فهم يزعمون أن استفادتهم اليقين منه أعظم من استفادتهم اليقين من كلام كل متكلم، وليس لك أن تحكم عليهم بأنهم لم يستفيدوا منه اليقين، فإن غاية ما عندك أنك أنت فاقد اليقين لم تظفر ببرده ولم تفز به، فكيف ساغ لك أن تحكم على غيرك بهذا؟! فإن أردت بذلك أنى أنا لا أستفيد اليقين من هذه الأدلة إلا بعد هذه الأمور العشرة فعلمت أن غيرى كذلك، قيل له: هذا من أبطل الباطل عند كل عاقل.

فإن من المعلوم بالضرورة أن الشىء الواحد يكون مجهولا عند رجل أو طائفة، ومعلوما عند آخر، وضروريا عند شخص، ونظريا عند آخر فالاشتراك فى المعلومات والضروريات غير واجب ولا واقع، والواقع خلافه، فالصحابة كانوا يعلمون من أحوال النبى ﷺ بالاضطرار ما لم يعلمه غيرهم، وكان أبو بكر يعلم من حال رسول الله ﷺ وكلامه يقينا ما لا يعلمه غيره ولا يفهمه، كما قال أبو سعيد الخدرى: «وكان أبو بكر أعلمنا به»(1) وكان التابعون يعلمون من أحوال الصحابة بالاضطرار ما لا يعلمه غيرهم، والفقهاء وأهل الحديث يعلمون بالاضطرار أن النبى ﷺ سجد سجدتى السهو فى الصلاة(2)، وقضى بالشفعة(3) وجعل الدية على

---

(1) انظر: صحيح البخارى، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبى ﷺ: «سدوا على الأبواب إلا باب أبى بكر» ح(٣٦٥٤) ٧/١٢. وهذا اللفظ رواية مالك، ذكر ذلك الحافظ فى الفتح.

(2) انظر: كتاب السهو فى صحيح البخارى ٣/٩٢-١٠٧، وموطأ الإمام مالك ١/١٠٠، وسنن ابن ماجة ١/٣٨٠، وصحيح مسلم ١/٣٩٨ وغيرها من كتب الحديث.

(3) انظر: صحيح البخارى مع الشرح، كتاب الشفعة ٤/٤٣٦، وموطأ مالك ٢/٧١٣، وصحيح مسلم ٣/١٢٢٩، وسنن ابن ماجة ٢/٨٣٣ وغيرها.

العـاقلة[1]، وأخـبر أن الله ينـزل إلى سماء الدنيا كل ليلة[2]، وأنه يرى بالأبصار جهرة يوم القيامة[3]، وأنه يدخل النار قوماً من أهل التوحيد، ثم

---

(١) انظر: صحيح البخارى مع الشرح، كتاب الديات، باب العاقلة ١٢/ ٢٤٦، وصحيح مسلم، كتاب القسامة «باب دية الجنين ووجوب الدية فى قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجانى» ٣/ ١٣٠٩، وسنن ابن ماجة «كتاب الديات، باب الدية على العاقلة فإن لم يكن عاقله ففى بيت المال» ٢/ ٨٧٩.

(٢) انظر: صحيح البخارى، كتاب التهجد، «باب فى الدعاء والصلاة من آخر الليل» ح(١١٤٥) ٣/ ٢٩. وكتـاب التـوحيد باب قول الله تعـالى: **﴿يـريـدون أن يبـدلوا كلام الله﴾** ح(٧٤٩٤) ١٣/ ٤٦٤، ومسلم فى كتـاب صلاة المسافرين «باب الترغيب والذكر فى آخر الليل والإجـابـة فيه» ح(٧٥٨) ١/ ٥٢١. ومالك فى الموطأ، كتاب القرآن، «باب ما جاء فى الدعاء» ح(٣٠) ١/ ٢١٤.

وحـديث النزول كثير الطرق، متواتر من جهة النقل، ذكر ذلك ابن عبد البر فى التمهيد ٧/ ١٢٨، ومع صحته ووضوح دلالته على صفة النزول، تجرأ المؤولون على تأويله، وهو من أدلة السلف على إثبات هذه الصفة لله تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه لنزوله بنزول المخلوقين.

وقد ألف الإمام ابن تيمية كتابا شرح فيه هذا الحديث، وفند شبه المبتدعة التى أثاروها حوله وهو كتاب «شرح حديث النزول» فليراجع.

(٣) انظر: صحيح البخارى، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربهـا ناظرة﴾**، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، «باب معرفة طريق الرؤية» ١/ ١٦٧، وابن ماجة، المقدمة، «باب فيما أنكرته الجهمية» ١/ ٦٣، وأبو داود، كتاب السنّة «باب فى الرؤية» ٥/ ٩٧.

ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة كما ثبتت بالسنّة فهى ثابتة بالقرآن، وهى أعظم نعيم أهل الجنة، ولذلك فسرت بها الزيادة فى قوله تعالى: **﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾** سورة ق/ ٣٥ وقوله تعالى: **﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾** يونس/ ٢٦، وقد ورد التفسير بذلك عن النبى ﷺ. انظر الاعتقاد للبيهقى ص٤٧، ٤٨، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان ح(٢٩٧) ١/ ١٦٣.

والأدلة على هذه المسألة من الكتاب والسنّة كثيرة، ومع ذلك أنكرها المبتدعة من الجهمية، والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. انظر: شرح الطحاوية ص١٤٢، ومقالات الإسلاميين للأشعرى ١/ ٢٣٨، وقد فند علماء السلف ومن وافقهم بدعتهم، وأوضحوا بطلان استدلالهم. لمزيد من الإيضاح راجع كتابنا «البيهقى وموقفه من الإلٰهيات» ص٣٠٥-٣١٦.

يخرجهم بالشفاعة(١)، وأنه أخبر بخروج الدجال ونزول المسيح من السماء(٢)، وطلوع الشمس من مغربها(٣)، وغير ذلك مما يجهله كثير من الناس. ومن أقر به فهو عنده ظني.

وأهل الحديث جازمون به متيقنون له كتيقنهم أنه بعث من مكة وهاجر إلى المدينة ومات بها.

وأهل المغازى والسير والحديث يعلمون بالاضطرار أن غزوة بدر كانت قبل أحد، وأن أحداً قبل الخندق، والخندق قبل الحديبية، والحديبية قبل خيبر، وخيبر قبل فتح مكة، وفتح مكة قبل حنين، وحنين قبل الطائف، والطائف قبل تبوك، وتبوك آخر الغزوات، ولم يكن فيها قتال،

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، «باب فى إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار» ١/١٧٢، والبخارى كتاب الرقاق «باب صفة الجنة والنار» ١١/٤١٦. وأبى داود، كتاب السنّة «باب فى الشفاعة» ٥/١٠٦-١٠٧. وانظر: شرح الطحاوية ص١٩٦.

وقد أنكر الخوارج والمعتزلة خروج أحد من النار إذ يرون أن كل من دخلها لابد أن يخلد فيها ولا ينفعه إيمانه إذا مات وهو مرتكب لكبيرة، ومرتكب الكبيرة عند المعتزلة حكمه الدنيوى فى منزلة بين منزلتين فلا هو مؤمن ولا كافر، أما فى الآخرة فحكمه حكم الكفار فلابد أن يخلد فى النار إنفاذا للوعيد. وعند الخوارج كافر فى الدنيا وفى الآخرة خالد مخلد فى النار، فاتفقت الطائفتان على الحكم الأخروى، ولذلك أنكروا الشفاعة. انظر شرح الطحاوية ص١٩٨، وشرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار المعتزلى ص١٣٧ وما بعدها.

أما أهل السنّة فيقولون: إنه مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته، وإذا مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه على معصيته بعدله، وإن شاء عفا عنه ابتداءً برحمته وفضله، وإذا أدخله النار فلابد أن يخرج منها بعد أن يمحصه الله من ذنوبه فلا يخلد فى النار وأهل السنّة يقرون بشفاعة نبينا ﷺ فى أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا، كما فى الحديث الصحيح حديث الشفاعة. انظر: شرح الطحاوية ص١٩٨.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، «باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال» ١/١٥٤، وابن ماجة، كتاب الفتن «باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم» ٢/١٣٥٣.

(٣) انظر: صحيح البخارى، كتاب الرقاق «باب طلوع الشمس من مغربها» ١١/٣٥٢، وكتاب الفتن «باب (٢٥)» ١٣/٨٢، وابن ماجة، كتاب الفتن «باب طلوع الشمس من مغربها» ٢/١٣٥٢. وهى من العلامات الكبرى لقيام الساعة.

وكان الغزو فيها للنصارى أهل الكتاب، وفى خيبر لليهود، وفى بدرٍ وأحدٍ للمشركين، وأنه أوقع باليهود أربع مرات، ببنى قنيقاع وكانت بعد بدر، وبالنظير، وكانت بعد أحد، وبقريظة وكانت بعد الخندق، وبأهل خيبر، وكانت بعد الحديبية.

وأكثر الناس بل كثير من العلماء والفقهاء لا يعلمون هذا التفصيل، وكذلك العلماء بالتفسير والحديث يعلمون بالاضطرار أن سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة مدنيات نزلن بعد الهجرة، وسورة الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف والكهف والنحل مكيات نزلن قبل الهجرة.

وأكثر الناس لا يعلمون ذلك ضرورة ولا نظراً، فليس المعلوم من أقوال الرسول وسيرته ومراده بكلامه أمراً مشتركا بين جميع الناس ولا بين المسلمين ولا بين العلماء، وإذا لم يكن هذا أمراً مضبوطا لا من العالم ولا فى المعلوم، أمكن فى كثير من مراد الرسول بالاضطرار ضرورية عند آخرين، وغير معلومة البتة عند آخرين.

وإن قال: أردت أن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين عند من لا يعرف مدلولها إلا بهذه المقدمات.

قيل له: فهذا لا فائدة فيه، فكأنك قلت: من لم يعرف مراد المتكلم إلا بمقدمة ظنية كان استدلاله بكلامه ظنيا، وذلك من باب تحصيل الحاصل، وكذلك من لم يعرف الدليل العقلى إلا بمقدمة ظنية كان استدلاله به ظنيا، وأيضا فإنه إذا كان هذا مرادك فكيف تحكم حكما عاما كليا أن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين؟!، فبطل حكم هذه القضية الكاذبة أن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين على كل تقدير ولله الحمد. يوضحه:

الوجه الخامس والعشرون: أن الذين لم يحصل لهم اليقين بالأدلة العقلية أضعاف الذين حصل لهم اليقين بالأدلة السمعية،

والشكوك القادحة فى العقليات أقوى وأكثر بكثير من الشكوك القادحة فى السمعيات.

فأهل العلم بالكتاب والسنة متيقنون لمراد الله ورسوله جازمون به معتقدون لموجبه اعتقادا لا يتطرق إليه شك ولا شبهة.

وأما المتكلمون الذين عدلوا عن الاستدلال بالأدلة السمعية إلى الأدلة العقلية فى المسائل الكبار كمسألة حدوث العالم، ومسألة ماهى الحوادث، ومسألة تماثل الأجسام، وبقاء الأعراض، ومسألة وجود الشىء هل هو زائد على ماهيته أو هو نفس ماهيته؟ ومسألة المعدوم هل هو شىء أم لا؟ ومسألة المصحح للتأثير هل هو الحدوث أو الإمكان؟ وهل يمكن أن يكون الممكن قديما أم لا؟ ومسألة الجوهر الفرد وهل الأجسام مركبة منه أم لا؟ ومسألة الكلام وحقيقته، وأضعاف ذلك من المسائل التى عوّلوا فيها على مجرد عقل أفضلهم، أشدهم حيرة وتناقضا واضطرابا فيها، لا يثبت له فيها قول، بل تارة يقول بالقول ويجزم به، وتارة يقول بضده ويجزم به، وتارة يحار ويقف، وتتعارض عنده الأدلة العقلية.

وأهل الكلام والفلسفة أشد اختلافا وتنازعا بينهم فيها من جميع أرباب العلوم على الإطلاق، ولهذا كلما كان الرجل منهم أفضل كان إقراره بالجهل والحيرة على نفسه أعظم، كما قال بعض العارفين: أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام[1].

وقال أفضل المتأخرين من هؤلاء لتلاميذه عند الموت: أشهدكم أنى أموت وما عرفت مسألة واحدة إلا مسألة افتقار الممكن إلى واجب ثم قال: والافتقار أمر عدمى، فها أنا ذا أموت وماعرفت شيئا[2].

---

(١) راجع الجزء الأول ص٧٠.

(٢) القائل: هو الخونجى، الحسن بن سعد بن الحسن، وقد تقدم فى الجزء الأول ص٧١.

وقال ابن الجويني[1] - عند موته -: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، وما أدرى على ماذا أموت، أشهدكم أنى أموت على عقيدة أمى[2].

وقال آخر فى خطبة كتابه فى الكلام[3]:

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

وقال الرازى فى كتابه أقسام اللذات[4] وقد ذكر أنواعها وأن أشرفها لذة العلم والمعرفة، وأشرف العلم العلم الإلهى لشرف معلومه وشدة الحاجة إليه، وأنه على ثلاثة أقسام:

١ - العلم بالذات، وعليه عقدة وهى: أن الوجود هل هو الماهية أو زائد عليها؟.

٢ - والعلم بالصفات، وعليه عقدة وهى: أن الصفات هل هى أمور وجودية زائدة على ذات الموصوف أم ليست بزائدة على الذات؟.

---

(١) ابن الجوينى هو المشهور بإمام الحرمين وهو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حَيُّويَهْ الجوينى، الفقيه الشافعى من أبرز أئمة المذهب الأشعرى، وله مصنفات كثيرة فى الجدل وعلم الكلام إلا أنه رجع فى آخر حياته إلى مذهب السلف، ورجع عن كل مقالة تخالف السنّة، كما يدل على ذلك قوله الذى سبق إيراده فى الجزء الأول ص٧٠ هامش رقم(٣) نقلا عن سير أعلام النبلاء، توفى سنة ٤٧٨هـ. انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/١٦٧-١٧٠، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ص٦١-٦٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٣٥٨-٣٦٢، وسير أعلام النبلاء ١٨/٤٦٨-٤٧٧.

أما والده أبو محمد عبد الله بن يوسف فكان سلفى العقيدة، وقد ألف رسالة أوضح فيها عقيدة السلف فى صفات الله تعالى، مطبوعة ضمن الرسائل المنيرية ١/١٧٤-١٨٧.

(٢) راجع الجزء الأول ص٧٠.

(٣) هذان البيتان للشهرستانى، محمد بن عبد الكريم، المتوفى سنة ٥٤٨هـ، فى خطبة كتابه «نهاية المرام فى علم الكلام» ص٣ - تحقيق الفرد جيوم. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص٧٠.

(٤) هذا الكتاب مفقود. وكثيراً ما ينقل عنه الإمامان ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله.

٣ ـ والعلم بالأفعال، وعليه عقدة وهى : هل الفعل مقارن للفاعل أو متراخ عنه؟.

ثم قال: ومن الذى وصل إلى هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب ثم أنشد:

نهاية أقدام العقول عقال — وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم من جبال قد علت شرفاتها — رجال فماتوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولاتروى غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ فى الإثبات: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾(١) ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾(٢). واقرأ فى النفى ﴿**ليس كمثله شىء....**﴾(٣) ﴿**ولا يحيطون به علما**﴾(٤) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى(٥).

فليتأمل اللبيب مافى كلام هذا الفاضل من العبر، فإنه لم يأت فى المتأخرين من حصل من العلوم العقلية ماحصله، ووقف على نهايات أقدام العقلاء وغايات مباحث الفضلاء، وضرب بعضها ببعض ومخضها أشد المخض، فما رآها تشفى علة داء الجهالة، ولاتروى غلة ظمأ الشوق، والطلب، وأنها لم تحل عنه عقدة واحدة من هذه العقد الثلاث التى عقدها أرباب المعقولات على قافية القلب، فلم يستيقظ لمعرفة ذات الله، ولا صفاته ولا أفعاله.

وصدق الله فإنه شاك فى ذات رب العالمين، ما له ماهية غير الوجود

---

(١) سورة طه / ٥.
(٢) سورة فاطر / ١٠.
(٣) سورة الشورى / ١١.
(٤) سورة البقرة / ٢٥٥.
(٥) راجع الجزء الأول ص٧٠ هامش رقم (٢).

المطلق يختص بها، أم ماهيته نفس وجوده الواجب؟ ومات ولم تنحل له عقدتها.

وشاك فى صفاته، هل هى أمور وجودية، أم بسبب إضافته عدمية؟، ومات ولم تنحل له عقدتها.

وشاك فى أفعاله، هل هى مقارنة له أزلا وأبدا لم تزل معه، أم الفعل متأخر عنه تأخراً لا نهاية لأمده فصار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا؟، ومات ولم تنحل له عقدتها.

فننظر فى كتبه الكلامية قول المتكلمين، وفى كتبه الفلسفية قول الفلاسفة، وفى كتبه التى خلط فيها بين الطريقتين يضرب أقوال هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء، ويجلس بينهما حائراً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكذلك أفضل أهل زمانه ابن أبى الحديد[1]، فإنه مع بحثه ونظره وتصديه للرد على الرازى[2] حتى يقول فى قصيدة له:

وحقك لو أدخلتنى النار قلت ... للذين بها قد كنت ممن أحبه
وأفنيت عمرى فى فنون دقيقة ... ومابغيتى إلا رضاه وقربه
أما قلتم من كان فينا مجاهدا ... سيكرم مثواه ويعذب شربه
أمارد شك ابن الخطيب وزيفه ... وتمويهه فى الدين إذ حل خطبه[3]

---

(١) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المدائنى، كاتب شاعر، شيعى غال، ولد بالمدائن سنة (٥٨٦هـ) ومات سنة (٦٥٥هـ). البداية والنهاية ١٣/ ١٩٩. وانظر وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٢.

(٢) تصدى ابن أبى الحديد للرد على فخر الدين الرازى حيث علق على كتابيه: «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين» و«المحصول فى علم الأصول» وسجل مؤاخذاته عليهما. انظر: نصرة الثائر على المثل السائر ص٤٤، إلا أن رده كان رد متكلم على متكلم، وصاحب منهج عقلى بحت على نظيره، فرد على باطل صاحبه بباطل مثله، وهذا دأب المتكلمين الذين لا يعترفون إلا بالعقل فى تقرير اعتقادهم، والاستدلال عليه، أما أدلة النقل فلا اعتبار لها إلا فى حال موافقتها لتصورات عقولهم. وأى زيغ أعظم من هذا؟! نسأل الله العافية.

(٣) انظر هذه الأبيات فى مقدمة «نصرة الثائر على المثل السائر» لصلاح الدين الصفدى ص٤٥ حيث أوردها بزيادة فيها ونقص منها على النحو التالى:

وحقك لو أدخلتنى النار قلت لـ ... لذين بها قد كنت ممن يحبه =

يعترف[1] بأن المعقولات لم تعطه إلا حيرة، وأنه لم يصل منها إلى يقين ولا علم حيث يقول:

فيك يا اغلوطة الفكر ضاع دهرى وانقضى عمرى
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
قاتل الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذى ذكروا خارج عن قوة البشر[2]

وقال بعض الطالبين من المتأخرين ـ وقد سافر فى طلب ربه على هذه الطريق فلم يزدد إلا حيرة وبعداً من مطلبه حتى قيّض الله له من أخذ بيده، وسلك به على الطريق التى سلك عليها الرسل وأتباعهم، فجعل يهتف بصوته لأصحابه: هلموا فهذه والله الطريق، وهذه أعلام مكة والمدينة، وهذه آثار القوم لم تنسخها الرياح ولم تزلها الأهوية ثم قال:

وكنت وصحبى فى ظلام من الدجى نسير على غير الطريق ولاندرى

= وأفنيت عمري في دقيق علومه وما بغيتي إلا رضاه وقربه
هبو لى مسيئا أوْتَغَ الحلمَ جهلُه وأوبقه دون البرية ذنبه
أما يقتضى شرع التكرم عفوه أيحسُن أن يُنسى هواه وحبه
أما رد زيغ بن الخطيب وشكه وتمويهه فى الدين إذ جل خطبه
أما كان ينوى الحق فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبه

وانظر فوات الوفيات ٢/ ٥٤ وفيها زيادة بيت سابع هو:

وغاية صدق الصب أن يعذب الأسى إذا كان من يهوى عليه يصبه

(١) كلمة «يعترف» خبر «إن» التى قبل الأبيات.

(٢) أورد هذه الأبيات لابن أبى الحديد شارح الطحاوية ص١٦٦ وفيها: «فلحى» فى أول البيت الثانى بدل «قاتل». وقد ردّ الإمام الصنعاني على هذه القصيدة، وفنّد ما اشتملت عليه من باطل في قصيدة أخرى مطلعها:

إطلاق أغلوطة عليه كما قد قلته لا يصح فى النظر
فليس فى الذكر ما ذكرت ولا روي لنا في الصحيح فى الأثر

انظر إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة بتحقيق د. عبد الله شاكر جـ١ ص١٦٢.

وكنـا حيارى فى القفـار ولم يكن دليل لنـا نرجـو الخلاص من القفر
ظماء إلى ورد يبـل غليلنـا وقـد قطع الأعنـاق منـا لظى الحـر
فما هو إلا أن تبـدا لنـاظـرى سنـابـارق يبـدو كخيط من الفجـر
فقلت لصحبى هل ترون الذى أرى فقالوا نرى ذاك السراب الذى يجرى
فخـلفتـهـم خلفى وأقبلت نحـوه فأوردنـى عين الحـياة لدى البحـر
فنـاديت أصحابى فما سمعوا الندى ولو سمعوه ماستجابوا إلى الحشر(١)

فهـذا اعـتراف هؤلاء الفضـلاء فى آخر سيرهم بما أفادتهم الأدلة العقلية من ضد اليقين، ومن الحيرة والشك، فمن الذى شكى من القرآن والسنّة والأدلة اللفظية هذه الشكاية؟! ومن الذى ذكر أنها حيرته ولم تهده؟! أو ليس بها هدى الله أنبياءه ورسله وخير خلقه؟ قال تعالى لأكمل خلقه وأوفـرهم عقلا ﴿**قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى**﴾(٢) فهذا أكمل الخلق عقلا صلوات الله وسلامه عليه، يخبر أن اهتداءه بالأدلة اللفظية التى أوحاها الله إليه، وهؤلاء «المتهوكون»(٣) المتحيرون يقولون: إنها لاتفيد يقينا ولا علما ولا هدى، وهذا موضع المثل المشهور: «رمتنى بدائها وانسلّت»(٤).

(١) لم أعثر على اسم قائل هذه الأبيات وما سبقها من كلام.
(٢) سورة سبأ / ٥٠.
(٣) راجع معنى هذه الكلمة فى الجزء الأول ص٢٢٥.
(٤) هذا المثـل يضرب لمن يعـير صاحبـه بعيب هو فيه. انـظر مجمـع الأمثـال للميدانى ٢٨٦/١، وكتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ص٧٣ ـ تحقيق الدكتور عبد المجيد قطاش.
فما أصدق هذا المثل على هؤلاء المتكلمين، لأن ما ذكروه من اتهام للنصوص الشرعية بأنها لا تفيد اليقين، إنما هو اتهام لها بما تبرأ منه ويصدق فى الواقع على أدلتهم العقلية التى يرون أنها تفيد القطع واليقين، مع ما اعترى مؤصّليها من شك وحيرة وإفلاس، لأنهم لم يتوصلوا بما سلكوه إلى النتيجة القطعية التى يزعمون، بل غاية ما وصلوا إليه الضلال وعدم الاهتداء، يدل على ذلك ما أورده المصنف عن كبـار حذاقهم، وأبرز أئمتهم من اعترافات صريحة واضحة تشهد بأن الأدلة القطعية التى تفيد الجزم واليقين هى أدلة الوحى، كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، إذ أننا وجدنا كل من سلك طريق الـوحى مجمعون على اعتقادهم، لأن مصدره معصوم، بخلاف المتكلمين فقد =

الوجه السادس والعشرون: أن ألفاظ القرآن والسنّة ثلاثة أقسام:

نصوص لا تحتمل إلا معنى واحدا.

وظواهر تحتمل غير معناها احتمالا بعيدا مرجوحا.

وألفاظ تحتاج إلى بيان فهى بدون البيان عرضة الاحتمال.

فأما القسم الأول: فهو يفيد اليقين بمدلوله قطعا، كقوله تعالى: ﴿**فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما**﴾(١) فلفظ الألف لا يحتمل غير مسماه، وكذلك لفظ الخمسين، وكذلك لفظ نوح، ولفظ قومه. وكقوله ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين**

= برز اختلافهم وتباينت آراؤهم، وفسد اعتقادهم لفساد المنهج الذى سلكوه، والدليل الذى عولوا عليه، فمن أحق بهذا الاتهام بعد وضوح هذه الحقيقة، واعتراف أصحاب الاتهام بها يكذبه بالنسبة للنصوص الشرعية ويؤكده فيما يخص أدلتهم العقلية؟! ولهذا حذر أئمة السلف من الاشتغال بعلم الكلام، حتى إن الإمام الشافعى حكم فى أهله بقوله: «حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة وأقبل على الكلام». انظر شرح الطحاوية ص١٦٧، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٤، وسير أعلام النبلاء ١٠/٢٩.

وقال أيضا: «لو علم الناس ما فى الكلام والأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد». سير أعلام النبلاء ١٠/١٨.

ومن أشد أقواله فى ذلك ما ذكره ابن كثير عنه فى البداية والنهاية ١٠/٢٥٤: «لقد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننت مسلما يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ـ ما خلا الشرك ـ خير له من أن يبتلى بالكلام».

وسئل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن الكلام والتوحيد فقال: «محال أن نظن بالنبى ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد».

فهذا هو موقف جميع أئمة السلف، فعلم التوحيد لا يؤخذ من عقول الرجال، ولا من فلسفة المتفلسفين، ولا من كلام المتكلمين، لأنه أمر توقيفى مصدره الوحى المعصوم الذى جاء من عند الله تعالى سواء كان كتابا أم سنّة، ولا يمكن للمناهج التى نبذت هذا المنهج إلا أن يتكشف عوارها، ويتضح زيفها ويتجلى بطلانها، لأن الحق جلى واضح، لا يخفى إلا على خفافيش الأبصار وعمى البصائر. فاللهم ثبتنا على الحق.

(١) سورة العنكبوت /١٤.

ليلة﴾[1] وقوله ﴿**فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين**﴾[2]، وقوله ﴿**فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة**﴾[3]، وقوله ﴿**يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا**﴾[4].

وعامة ألفاظ القرآن من هذا الضرب، هذا شأن مفرداته. وأما تركيبه فجاء على أصح وجوه التركيب وأبعدها عن اللبس وأشدها مطابقة للمعنى.

فمفرداته نصوص أو كالنصوص فى مسماها.

وتراكيبه صريحة فى المعنى الذى قصد بها، والمخاطبون به تلك اللغة سجيتهم وطبيعتهم غير متكلفة لهم، فهم يعلمون بالاضطرار مراده منها.

والقسم الثانى: ظواهر قد تحتمل غير معانيها الظاهرة منها ولكن قد اطردت فى موارد استعمالها على معنى واحد فجرت مجرى النصوص التى لا تحتمل غير مسماها، والقسمان يفيدان اليقين والقطع بمراد المتكلم.

القسم الثالث: إذا أُحسن رده إلى القسمين قبله عرف مراد المتكلم منه.

فالأول: يفيد اليقين بنفسه.

والثانى: يفيده باطراده فى موارد استعماله.

والثالث: يفيده احسان رده إلى القسمين قبله.

وهذا ظاهر جدا لمن له عناية بالقرآن وألفاظه ومعانيه، واقتباس المعارف واليقين منه. فاستفادته اليقين من أدلته أعظم من استفادة كل طالب علم اليقين من مواد علمه وبراهينه.

---

(١) سورة الأعراف /١٤٢.
(٢) سورة المجادلة /٤.
(٣) سورة البقرة /١٩٦.
(٤) سورة البقرة /٢٣٤.

الوجه السابع والعشرون: ان الذى حال بين هؤلاء وبين «استفادتهم»[1] اليقين من كلام الله ورسوله، أن كثيرا من ألفاظ القرآن والسنة قد صار لها معان اصطلح عليها النظار والمتكلمون وغيرهم، وأُلِف ذلك الاصطلاح وجرى عليه النشأ، وصار هو المقصود بالتخاطب، وإليه التحاكم، فصار كثير من الناس لا يعرف سواه، فلما أرادوا أن يطابقوا بين معانى ألفاظ القرآن، وبين تلك المعانى التى اصطلحوا عليها، أعجزهم ذلك. فمرة قالوا: ألفاظ القرآن مجاز، ومرة طلبوا لها وجوه التأويل، ومرة قالوا: لاتفيد اليقين، ومرة جعلوها وقفا تتلى فى الصلاة ويتبرك بقراءتها ولا يتحاكم إليها، مثال ذلك: لفظ الجسم فى القرآن هو البدن، كما قال تعالى: ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم**﴾[2] وهم اصطلحوا على تسمية كل قائم بنفسه جسما، مرئيا كان أو غير مرئى، وسموا الموصوف بالصفات جسما، وسموا من له وجه ويدان جسما.

ثم نفوا الجسم «عن»[3] الصانع وأوهموا أنهم ينفون معناه لغة، وقصدهم نفى معناه اصطلاحا، فسموه بخلاف اسمه فى اللغة، ونفوا به ما أثبته الرب لنفسه من صفات الكمال[4]، وكذلك سموا صفاته أعراضا

---

(١) فى «ل» «استفادته» ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٢) سورة المنافقون / ٤.

(٣) فى «ل»: على. ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) اختلف مثبتو الجسمية من المشبهة، ونفاتها من المعطلة فى المراد بلفظ الجسم، فالمشهور عن من عين مراده بالجسم من المشبهة، كابن الهيثم وغيره من نظار الكرامية أن المراد بالجسم: أنه موجود قائم بنفسه مشار إليه، لا بمعنى أنه مركب مؤلف يقبل التفريق والانقسام والتجزئة، أو مركب من الجواهر المفردة، أو من المادة والصورة.

أما نفاة الجسم ـ وهم المعتزلة والأشاعرة وسلفهم فى ذلك الجهم بن صفوان الترمذى ـ فقالوا: إن هؤلاء أخطأوا فى تسمية كل ما هو قائم بنفسه، أو ما هو موجود جسما من جهة اللغة، فإن أهل اللغة لا يطلقون لفظ الجسم إلا على المركب. انظر بيان تلبيس الجهمية ١ / ١٥، وأساس التقديس للرازى ص١٧. =

ثم نفـوا عنـه الأعـراض بالمعنى الـذى اصطلحوا عليه لا بالمعنى الذى وضعت له ألفاظ الأعراض فى اللغة(١)، وكذلك سموا أفعاله حوادث(٢)، ثم نفوها عنه بالمعنى الذى اصطلحوا عليه لا بمعناه فى اللغة: فإن النبى ﷺ قال: «لعن الله من أحـدث حدثـا أو آوى محدثا»(٣) وقال: «إياكم والحدث فى الإسلام(٤).

= ويرد الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على الفريقين فيقول: والتحقيق أن كلا الطائفتين مخطئة على اللغة، أولئك الذين يسمون كل ما هو قائم بنفسه جسما، وهؤلاء الذين سموا كل ما يشار إليه، وترفع الأيدى إليه جسما، وادعوا أن كل ما كان كذلك فهو مركب، وأن أهل اللغة يطلقون لفظ الجسم على كل ما كان مركبا، فالخطأ فى اللغة والابتداع فى الشرع مشترك بين الطائفتين. بيان تلبيس الجهمية ١/١٥-١٦، وانظر بسط ذلك فى اصطلاح المتكلمين ومعناه عند اللغويين فى نفس المصدر ص٥٠٤ وما بعدها، وقد ذكر أبو الحسن الأشعرى للمتكلمين فى معنى الجسم اثنتى عشرة مقالة. انظر مقالات الإسلاميين ٢/٤-٨.

أما السلف فلا يجوزون إطلاق ذلك نفيا ولا إثباتا، إذ لابد من التفصيل، وفى حال التفصيل يثبت ما صح من معنى يتفق مع الشرع، وينفى المعنى المخـالف، أمـا اللفظ فلابد من التقيد بالشرع فى ذلك، فلا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، من غير تشبيه ولا تعطيل، وإنما على ضوء المنهج المرسوم ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾.

(١) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعرى ٢/١٠ وما بعدها، وانظر إيضاح شيخ الإسلام لموقف السلف من الألفاظ المبتدعة كالأعراض وغيرها فى بيان تلبيس الجهمية ١/١٠٠.

(٢) انظر: الأربعين فى أصول الدين للرازى ص١١٨، ولمع الأدلة للجوينى ص٩٦، ولمزيد من التفصيل عن مسألة حلول الحوادث بذات الله تعالى عند من أثبتها ومن نفاها. راجع كتابى البيهقى وموقفه من الإلهيات ص١٨٠-١٨٣.

(٣)انظر: البخارى، كتاب فضائل المدينة «باب حرم المدينة» ح(١٨٧٠) ٤/٨١، وكتاب الجـزية والموادعة «باب ذمة المسلمين وجوارهم واحدة يسعى بها أدناهم» ح(٣١٧٢) ٦/٢٧٣، و«باب إثم من عاهد ثم غدر» ح(٣١٧٩) ٦/٢٧٩.

ومسلم، كتاب الحج «باب فضل المدينة...» ح(١٣٦٦) ٢/٩٩٤.

(٤) لم أجد من رواه بهذا اللفظ، وإنما رواه بنحوه الترمذي في أبواب الصلاة، «باب ما جاء في ترك الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم» ح(٢٤٤) ٢/١٢، وابن ماجة في كتاب الصلاة من سننه «باب افتتاح القراءة» ح(٨١٥) ١/٢٦٧. وأحمد في المسند ٤/٨٥.

وقال: «لايقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»(١).

فإذا قالوا: لا تحله الحوادث، أوهموا الناس هذه الحوادث، ومرادهم أنه لا يتكلم ولا يكلم، ولا يرى ولا يسمع، ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا، ولا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا ينادى عباده يوم القيامة، ولا يشاء مشيئة، إلى أمثال ذلك، وكذلك لفظ الاستواء حقيقة فى العلو، ثم أحدث له معنى الاستيلاء فى قول الشاعر ـ إن كان قاله ـ:

قد استوى بشر على العراق(٢) . . . .

فهذا شعر مولد حدث بعد كتاب الله ولم يكن معروفا قبل نزول القرآن ولا فى عصر من نزل عليه القرآن، فحملوا لفظ القرآن على الشعر

---

(١) البخارى، كتاب الوضوء «باب لا تقبل صلاة بغير طهور» ح(١٣٥) ١/ ٢٣٤. وكتاب الحيل «باب فى الصلاة» ح(٦٩٥٤) ١٢/ ٣٢٩.

ومسلم، كتاب الطهارة «باب وجوب الطهارة للصلاة» ح(٢٢٥) ١/ ٢٠٤. وأبو داود، كتاب الطهارة «باب فرض الوضوء» ح(٦٠) ١/ ٤٩. وأحمد ٢/ ٣١٨،٣٠٨. والترمذى فى الطهارة «باب ما جاء فى الوضوء من الريح» ح(٧٦) ١/ ١١٠.

(٢) قال المعلق فى الحاشية تمامه: من غير سيف ودم مهراق

هذا البيت ينسب إلى الأخطل غياث بن غوث، وهو من نصارى العرب، نسبه إليه الإمام ابن كثير فى البداية والنهاية ٩/ ٢٦١ وعلق عليه بقوله: وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس فى بيت هذا النصرانى حجة، ولا دليل على ذلك، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيرا، فإنه إنما يقال: «استولى» على الشىء إذا كان ذلك الشىء عاصيا عليه قبل استيلائه عليه، كاستيلاء بشر على العراق، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيانها عليه، وعرش الرب لم يكن ممتنعا عليه . . . حتى يقال: استولى عليه، أو معنى الاستواء الاستيلاء، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية، حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصرانى المقبوح، وليس فيه حجة. والله أعلم أهـ.

أقول: وهذا البيت مشكوك فى صحة نسبته إلى قائله، ولذلك قال ابن القيم: «إن كان قاله» ولا يوجد فى ديوانه. وتزول الغرابة والتعجب من هذا المسلك فى الاستدلال إذا علمنا استدلالهم ببيت آخر لهذا النصرانى على مسألة من أخطر مسائل العقيدة، ألا وهى صفة الكلام، وهو استدلال أوضح السلف قبحه وبطلانه، فإفلاس المتكلمين هنا امتداد لإفلاسهم هناك.

المولد الحادث بعد نزوله، ولم يكن من لغة من نزل القرآن عليه، وكذلك لفظ: «المحلل والمحلل له»[١]، فإنه فى لغة من تكلم به ولغة أصحابه هو: محلل النكاح الذى يريد أن يتزوج المرأة ليحلها لمطلقها.

وفى اصطلاح بعض الفقهاء: هو الذى يحلل موليته لغيره بلا مهر، أو الذى يشترط التحليل لفظا فى صلب العقد، وكذلك لفظ «الخمر» فى لغة من تكلم به وصرح بتحريمه[٢] «كل مسكر»؛ فاصطلح بعض الفقهاء على تخصيص بعض أنواع الأشربة المسكرة باسم الخمر، ثم حملوا النصوص على تلك المعانى التى اصطلحوا عليها. وكذلك لفظ «الجار» فى لغته ﷺ[٣] هو الجار المعروف.

فاذا اصطلحوا على تسمية الشريك جارا قياسا على تسمية الزوجة جارا فى قول الشاعر:

أجارتنا بينى فإنك طالقة[٤] ....

ثم حمل لفظ الشارع على المعنى الاصطلاحى لم يجز ذلك.

---

(١) فى قوله ﷺ: «لعن الله المحلل والمحلل له». سنن أبى داود، كتاب النكاح «باب فى التحليل» ح(٢٠٧٦) ٢/٥٦٢. والترمذى، النكاح، «باب ما جاء فى المحلل والمحلل له» ح(١١١٩) ٣/٤١٨. وابن ماجة، كتاب النكاح «باب المحلل والمحلل له» ح(١٩٣٤) ١/٦٢٢. وأحمد فى المسند ١/٤٥٠-٤٥١، ٢/٣٢٣.

(٢) قال تعالى: ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ المائدة/٩٠.

(٣) فى مثل قوله ﷺ: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» البخارى، كتاب الأدب «باب الوصية بالجار» ح(٦٠١٤، ٦٠١٥) ١٠/٤٤١. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب «باب الوصية بالجار والإحسان إليه» ح(٢٦٢٤-٢٦٢٥) ٤/٢٠٢٥.

(٤) هذا صدر بيت أورده علماء اللغة للاستشهاد به على المعنى الذى ذكره المصنف. انظر: الصحاح للجوهرى، ولسان العرب مادة «جور».

والبيت مطلع قصيدة للأعشى يقول فيها:

يا جارتى بينى فإنك طالقه ... كذاك أمور الناس غاد وطارقه

وبينى فإن البين خير من العصى ... وإلا تزال فوق رأسك بارقه =

ومن هذا لفظ «التركيب» فإنه فى لغة القرآن، تركيب الشىء فى غيره كقـوله ﴿فى أى صورة ماشاء ركبك﴾[1] ثم اصطلح عليه بعض الناس وجعـل كل ما تميز منـه شىء عن شىء مركبا وإن كان حقيقته واحدة، فالعـرب إنما تطلق لفظ التركيب والمركب فى نحو تركيب الدواء وتركيب الخشبة على الجدار وتركيب المادة فى صورة من الصور. ولا يسمى الهواء مركبا، ولا النار ولا الماء ولا التراب، وإنما المركب عندهم ماركب فيه شىء على شىء، فألف المتـأخـرون الاصـطلاح الحـادث، ثم نفـوا مسـماه الاصـطلاحى عن الرب سبحانه ورأوا الأدلة اللفظية من القرآن والسنّة لا تساعدهم على ذلك فقالوا: لا تفيد اليقين.

الوجه الثامن والعشرون: أن هؤلاء القائلين إن كلام الله ورسوله لا يستفاد منه علم ولا يقين، إما أن يريد به نفى اليقين فى باب الأسماء والصفات فقط، دون باب المعاد والأمر والنهى، أو فى باب الصفات وباب المعاد فقط، دون الأمر، أو فى الجميع.

فإن أراد الأول ـ وهو مراد الجهمية ـ قيل له: فما جوابك للفلاسفة المنكـرين لمعـاد الأبدان، حيث احتجبت عليهم بأنّا نعلم بالضرورة أن الرسل جاءوا به، فرده عليهم تكذيب لهم، فقالوا: الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين.

فإن قلت: الفـرق بيننـا وبينهم أن آيات الصفـات وأخبـارها قد عارضتها قواطع عقلية تنفيها بخلاف نصوص المعاد.

= انـظر ديوانه ص١١٣ شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر عام ١٩٧٤م.

والأعشى هو: ميمـون بن قيس بن جنـدل، من بنى قيس بن ثعلبة الوائلى، أبو بصير، المعـروف بأعشى قيس، من شعـراء الطبقة الأولى فى الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، وهو المسمى «صناجة العرب» أدرك الإسلام ولم يسلم. انظر: الأعلام للزركلى ٨/ ٣٠٠.

(١) سورة الإنفطار /٨.

قيل : أمـا أهـل القـرآن والسنّـة فيجيبـونك بأن تلك المعارضات هذيانات لا حقيقة لها وشبهات خيالية (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئـا ووجـد الله عنـده فوفـاه حسابه والله سريع الحسـاب)، وأمـا اشبـاهـك من الفلاسفة فيقولون : ونصوص المعاد قد عارضتها قواطع عقلية بنفيها.

فإن قلت : بل هذه شبهات باطلة ومقدمات كاذبة ، قيل : صدقت ، والشبهات التى تعارض نصوص الصفات أبطل، والمقدمات التى تخالفها أكذب بكثير، فإن الشبهات العقلية المعارضة لنصوص الأنبياء لها حد تقف عليه ، بل قد عارض أرباب العقول الفاسدة جميع ما جاءوا به من أوله إلى آخـره بعقـولهم ، ومعـارضـة المشركـين لما دعت إليه الرسل من التوحيد بشبهاتهم من جنس معارضة الدهرية[1] لما أخبروا به من المعاد بشبهاتهم ، فهلمّـوا نضع الشبهات جميعها فى الميزان ونحكها على المحك ليتبين أنها «زغل»[2] وزيـف كلها .

وإن زعمت أنها لا تفيد اليقين لا فى باب الخبر عن الله وصفاته ، ولا فى باب المعاد واليوم الآخر، ولافى باب الأمر والنهى ، فقد انسلخت من العقـل والايمان انسـلاخ الحية من قشرها ، وجاهرت بالقدح فى النبوات والشرائع ، وكنت فى العقل الصحيح أشد قدحا ، فإنه ليس فى العقل شىء أصح مما جاءت به الرسل عن الله ، وقد تقدم تقرير هذا ، والمؤمنون يعرفونه جملة ، والراسخون فى العلم يعرفونه تفصيلا .

---

(١) هم جماعة من معطلة العرب ، أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى ، وهم الذين أخبر الله تبارك وتعالى عنهم بقوله ﴿**وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون**﴾ الجاثية /٢٤ . انظر الملل والنحل للشهرستانى ٢ /٢٣٥ قال العلامة جمال الدين القاسمى : فى هذه الآية رد على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتخمين ، لم يشم رائحة اليقين ، وما هذا سبيله فباب القبول فى وجهه مسدود ﴿**إن الظن لا يغنى من الحق شيئا**﴾ يونس /٣٦. انظر: محاسن التأويل ١٤/٥٣٢٦ .

(٢) تقدم إيضاح معناها فى الجزء الأول ص٢٦٤ .

الوجه التاسع والعشرون: إن دعوى المدعى أن كلام الله ورسوله لا يستفاد منه يقين ولا علم، إما أن يدعيه حيث لا يعارض العقل السمع بل يوافقه، أو حيث يعارضه فى زعمه، أو حيث لا يعارضه ولا يوافقه، فإن ماجاء به الشرع عند هؤلاء ثلاثة أقسام:

أحدهـــا: ما يخالف ظاهره صريح العقل.

والثانى: ما يوافق العقل.

والثالث: ما لا يحيله العقل ولا يقتضيه.

فقول القائل: إن كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين، يقال له: لا يفيد فى شيء من هذه الأقسام الثلاثة عندك، أو فى الأول منها خاصة، أو فيه وفى الثالث؟ فإن كان مراده النفى فى جميع الأقسام كان ذلك عنادا ظاهرا وإلحادا فى كلام الله ورسوله. وإن كان مراده أنه لا يفيده فيما يخالف صريح العقل، وهو الذى يريد هؤلاء. قيل له: هذا الفرض وان اعتقدته واقعا فهو محال، فلا يعارض السمع الصحيح الصريح إلا معقول فاسد، تنتهى مقدماته إلى المكابرة أو التقليد أو التلبيس والإجمال، وقد تدبر أنصار الله ورسوله وسنته هذا فما وجدوا بحمد الله العقل الصريح يفارق النقل الصحيح أصلا، بل هو خادمه وصاحبه والشاهد له، وما وجدوا العقل المعارض له إلا من أفسد العقول وأسخفها، وأشدها منافاة لصريح العقل وصحيحه[1]، ولولا الإطالة لذكرنا ذلك على التفصيل. وقد تقدمت الإشارة إلى اليسير منه، ويجب على المسلم الذى لله ولكتابه وقار وعظمة فى

---

(١) لتقرير هذه الحقيقة التى زاغ عنها المتكلمون ألف شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية كتابه العظيم ـ الذى يعتبر بحق أعظم كتاب ألف فى هذا الباب ـ وهو المنعوت بـ«درأ تعارض العقل والنقل» حققه الدكتور محمد رشاد سالم ونال عليه جائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية لعام ١٤٠٥هـ، وقامت بنشره جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى أحد عشر مجلدا، وحرى بكل طالب علم أن يقرأ هذا الكتاب ويستعين بما حواه من أفكار إسلامية أصيلة، وردود مفحمة على أرباب المقالات الباطلة الذين جعلوا من العقل خصيما لشرع الله تعالى.

قلبه، أن يعتقد هذا وإن لم يظهر له تفصيله، فإذا ظهر له تفصيله كان نورا على نور، فإن الله سبحانه أقام الحجة على الخلق بكتابه ورسوله، فلايمكن أن يكون فيهما ما يظهر منه خلاف الحق، ولا ما يخالف العقل، ولا يمكن أن يحيل الرسول الناس فى الهدى والعلم وصفاته وأفعاله على ما يناقض كلامه من عقلياتهم، وهذا واضح ولله الحمد.

الوجه الثلاثون: أن قول القائل: الأدلة اللفظية موقوفة على هذه المقدمات، أتريد به أن كل دليل منها يقف على مجموع الأمور العشرة، أم تريد به أن جنسها يقف على جنس هذه العشرة؟.

فإن أردت الأول، فهو مكابرة ظاهرة يردها الواقع، فإن جمهور الناس يعلم مدلول الكلام من غير أن تخطر هذه العشرة أو شيء منها بباله.

وإن أردت الثانى، فالأدلة العقلية تتوقف على مابه مقدمة أو أكثر بهذا الاعتبار، فإنه ما من مسألة عقلية إلا وهى متوقفة على مقدمات غير المقدمات التى تتوقف عليها مسألة أخرى، فما يتوقف عليه دلالة الدليل لا ضابط له، وإنما هو أمر نسبى إضافى.

الوجه الحادى والثلاثون: أن حكمك بتوقف دلالة الدليل على معرفة الإعراب والتصريف خطأ ظاهر.

فإن من عرف أن لله الأسماء الحسنى، كالرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن، وأن الاسم يدل على المسمى فى لغة العرب، لم يتوقف فى العلم بدلالة هذه الأسماء على الرب سبحانه على معرفته بأن الاسم مشتق من السمو أو من السِّمَة، والاختلاف بين البصريين والكوفيين فى ذلك ومعرفة أرجح القولين، فإن جماهير أهل الأرض يعرفون أن «الله» اسم لذات الخالق فاطر السموات والأرض، ولا يعرفون تصريف الاسم واشتقاقه.

وأما الاعراب: فهؤلاء العامة يجزمون ويتيقنون مراد مكلمهم بكلامه ولا يتوقف ذلك على معرفتهم بوجوه الإعراب.

فإن قلت: إنما كلامنا فى كلام العرب الفصحاء الذين يتوقف فهم معانى كلامهم على الإعراب.

قيل: ما يتوقف عليه فهم كلامهم من الإعراب سجية وطبيعة لهم. وأما من بعدهم فقد نقل إلينا ذلك نقلا متواترا عنهم، كما نقل إلينا معانى مفردات ألفاظهم.

الوجه الثانى والثلاثون: قولك: إن ذلك يتوقف على نفى التخصيص والإضمار، فهذا لا يحتاج إليه فى فهم معانى الألفاظ المفردة، فإنها تدل على مسماها دلالة سائر الألفاظ على معانيها، كدلالة الأعلام، ولفظ العدد، وأسماء الأزمنة والأمكنة والأجناس على موضوعاتها، واحتمال كون اللفظ العام خاصا، كاحتمال كون اللفظ الذى له حقيقة مستعملا فى غير حقيقته، وهذا منفى بالأصل، ولا يحتاج فى فهم ماهو جار على أصله إلى أن يعلم انتفاء الدليل الذى يخرجه عن أصله، وإلا لم يفهم مدلول لفظ أبدا، لجواز أن يكون خرج عن أصل موضوعه بنقل أو مجاز أو غير ذلك، ولو ساغ ذلك لم يكن أحد يحتج بدليل شرعى لجواز أن يكون منسوخا وهو لا يعلم ناسخه، ولم يشهد أحد لأحد بملك لجواز أن يكون خرج عن ملكه ببيع أو تبرع، ولم يشهد أحد لأحد بزوجية امرأة ولا رق عبد لجواز أن يكون طلق وأعتق، وفتح باب التجويزات لا آخر له ولا ثقة معه البتة. وهذا الباب قد دخل منه على الإسلام مدخل عظيم وخطب جسيم، وأهل الباطل ـ على اختلاف أصنافهم ـ لا يزالون يتعلقون به، ولا تزال تعمد كل طائفة منهم إلى آية من كتاب الله فتقودها إلى مذهبها الذى تدعو إليه وتدّعى أن لها دلالة خاصة عليه، وكذلك تفعل فى كثير من الأخبار التى تجرها إلى معتقدها، وليست المحنة التى عرضت فى هذا الباب مقصورة على أهل الإسلام فقط، بل هى مشتركة بين جميع أهل الأديان والملل، ومن

أعـطى التأمل حقه وجد أكثر ماادعاه أهل التأويلات المستشنعة، وأهل البـاطل من جهة إخراج الألفاظ عن حقائقها، وفتح أبواب الاحتمالات والتجويزات عليها، وتغليب الخصوص على العموم، وادعائهم أن الأغلب فى ألفاظ العموم إنما هو الخصوص دون العموم، ذهابا منهم فى ذلك إلى أن البيان الشـافى إنما هو فى المعنى الخاص دون العام، وأنه المتيقن من اللفظ، فإن ظفر به وإلا قال: المراد خاص مجمل، فتعطل دلالة اللفظ العام الكلى بهذه الطريق، كما تعطل دلالة اللفظ على حقيقته باحتمال إرادة المجاز والاستعارة، ودلالة أوامر الله ورسوله على وجوب الامتثال باحتمال إرادة الاستحباب ومطلق الرجحان، ودلالة نواهيه على التحريم باحتمال دلالتها على الكراهة وترك الأولى، ودلالة النص الصريح الذى لا يحتمل غير معناه باحتمال كونه منسوخا، فقد أعد لكل دليل قانونا يدفع به دلالته، فإن كان خبر واحد قال: يحتمل أن يكون راويه كذب أو أخطأ، فإن أعجزه القـدح فى راويه لشهرته بالصدق والعدالة قال: لعله رواه بالمعنى الذى فهمه، وهو غير فقيه، فإذا عارضه القياس كان المصير إليه أولى.

كما قال هؤلاء: إذا عارض النص العقل كان المصير إليه أولى. فإن غلب وأمكنه ادعاء انعقاد الاجماع على خلافه عارضه بالإجماع، فإن غُلب عن ذلك عارضه باحتمال النسخ، فإن غلب عارض دلالته بالاحتمالات وأنـواع التـأويلات، فلله ما لقيت النصـوص من هذه الفـرق وأربـاب التأويلات والمتعصبين لمذاهبهم، وإلى منزلها الشكاية وبه المستعان وعليه التكلان.

الـوجـه الثـالث والثـلاثـون: أن القـدح فى دلالة العام باحتمال الخصوص، وفى الحقيقة باحتمال المجاز والنقل والاشتراك، وسائر ماذكر يبطل حجج الله على خلقه بآياته، ويبطل أوامره ونواهيه وفائدة أخباره، ونحن نبين ذلك بحمد الله بيانا شافيا، ونقدم قبل بيانه مقدمة بين يديه، وهى ذكر الوجوه التى تنقسم إليها معانى ألفاظ القرآن وهى عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه سبحانه نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأنه واحد لاشريك له وما يتبع ذلك(١).

القسم الثانى: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق وذرأ فى العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته، محتجا به على من ألْحد فى أسمائه وتوحيده، وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله، وكذلك البراهين العقلية التى أقامها على ذلك والأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية التى تقدمت الإشارة إلى الشىء اليسير منها(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف/١٨٠، وقال: ﴿هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى﴾ الحشر/٢٤، وقال: ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ الشورى/١١، وقال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ طه/٥، وقال: ﴿أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا﴾ الملك/١٦-١٧، وقال تعالى: ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد﴾ وغير ذلك مما أنزل الله فى كتابه لتعريف خلقه به سبحانه، بما له من أسماء حسنى وصفات على، ووحدانية مطلقة فى ذاته وأسمائه وصفاته. بالإضافة إلى ما ورد فى السنّة مما يدل على ما دل عليه القرآن من ذلك كله.

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ البقرة/١٦٤، وقوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ الروم/٢٢، وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ النحل/٦٩، وقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت﴾ الغاشية ١٧-٢٠، وقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ فاطر/٢٧، وقال تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل﴾ الروم/٥٨، وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز﴾ الحج ٧٣-٧٤، وقال تعالى: ﴿هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾ لقمان/١١.

القسم الثالث: ما اشتمل عليه من «بدء»[1] الخلق وإنشائه ومادته وابتداعه له وسبق بعضه على بعض، وعدد أيام التخليق خلق آدم وإسجاد الملائكة، وشأن إبليس وتمرده وعصيانه وما يتبع ذلك[2].

القسم الرابع: ذكر المعاد والنشأة الأخرى وكيفيته وصورته وإحالة الخلق فيه من حال إلى حال وإعادتهم خلقا جديدا[3].

القسم الخامس: ذكر أحوالهم فى معادهم وانقسامهم إلى شقى، وسعيد ومسرور بمنقلبه ومثبور به وما يتبع ذلك[4].

---

(١) غير موجودة في «ل» ولعل إثباتها أولى.

(٢) قال تعالى: ﴿**وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق**﴾ الأنعام/٧٣، وقال تعالى: ﴿**إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾ الأعراف/٥٤، وقال تعالى: ﴿**الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام**﴾ الفرقان/٥٩، وقال تعالى: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء**﴾ النور/٤٥، وقال تعالى: ﴿**وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا**﴾ الفرقان/٥٤، وقال تعالى: ﴿**خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار**﴾ الرحمن /١٤-١٥، وقال تعالى: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، قال ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين**﴾ الأعراف/ ١١-١٣.

(٣) قال تعالى: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ طه/٥٥، وقال تعالى: ﴿**وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ الروم/٢٧، وقال تعالى: ﴿**وأن عليه النشأة الأخرى**﴾ النجم/٤٧، وقال تعالى: ﴿**إنا أنشأناهن إنشاءا فجعلناهن أبكارا عربا أترابا**﴾ الواقعة/ ٣٥-٣٧، وقال تعالى: ﴿**خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر**﴾ القمر/٧، وقال تعالى: ﴿**ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**﴾ يس/٥١، وقال سبحانه: ﴿**وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد، أفترى على الله كذبا أم به جنه بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد**﴾ سبأ/ ٧-٨.

(٤) قال تعالى: ﴿**يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد**﴾ هود/١٠٥، وقال تعالى: ﴿**فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا، وينقلب إلى أهله مسرورا، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره، فسوف يدعوا ثبورا ويصلى سعيرا**﴾ الانشقاق/ ٧-١٢.

القسم السادس: ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم، وذكر أحوالهم مع أنبيائهم، وما نزل بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات، وما حل بهم من العقوبات، ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم فى التكذيب والعصيان(١).

القسم السابع: الأمثال التى ضربها لهم والمواعظ التى وعظهم بها، ينبههم بها على قدر الدنيا وقصر مدتها وآفاتها ليزهدوا فيها، ويتركوا الإخلاد إليها، ويرغبوا فيما أعد لهم فى الآخرة من نعيمها المقيم وخيرها الدائم(٢).

القسم الثامن: ما تضمنه من الأمر والنهى والتحليل والتحريم وبيان مافيه طاعته ومعصيته، وما يحبه من الأعمال والأقوال والأخلاق، وما يكرهه ويبغضه منها، وما يقرب إليه ويدنى من ثوابه، وما يبعد منه ويدنى

---

(١) كما فى قصة نوح وهود وصالح مع قومهم حين دعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، فكذبوهم وعاندوهم وحاربوا دعوتهم فأهلكم الله تبارك وتعالى. انظر قصتهم مع قومهم فى سورة هود من آية ٢٥ـ٦٨. فأما هلاك قوم نوح فكان بالطوفان، وقوم صالح أهلكوا بالطاغية، وهى الصيحة التى أسكتتهم. وأهلك قوم هود بالريح الصرصر العاتية.

قال تعالى: ﴿**فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية**﴾ الحاقة/ ٥ـ٧.

وكذا قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقصة لوط مع قومه، وغير ذلك مما ساقه سبحانه من قصص الأمم السالفة، ومواقفهم مع أنبيائهم لتكون عبرة لهذه الأمة.

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ الحديد/ ٢٠، وقوله سبحانه: ﴿**يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار**﴾ غافر/ ٣٩، وقوله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفعلا تعقلون، أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين**﴾ القصص/ ٦٠ـ٦١.

من عقابه، وقسّم هذا القسم إلى فرائض فرضها وحدود حدها وزواجر زجر عنها وأخلاق وشيم رغب فيها(1).

القسم التاسع: ما عرفهم إياه من شأن عدوهم ومداخله عليهم ومكائده لهم، وما يريده بهم، وما عرفهم إياه من طريق التحصن منه والاحتراز من بلوغ كيده منهم، وما يتداركون به ما أصيبوا به فى معركة الحرب بينهم وبينه وما يتبع ذلك(2).

---

(1) قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ البقرة/ 21، وقال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ النساء/103، وقال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾ النحل/ 90-91، وقال تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالئن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها. . .﴾ البقرة/187.

(2) كقوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم﴾ البقرة/268.

وقوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران/175.

وقوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ المائدة/91.

وقوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ الأنعام/68.

وقوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ النحل/ 98-100.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ الزخرف/36.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ الأعراف/201.

وقوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ فصلت/36.

القسم العاشر: ما يختص بالسفير بينه وبين عباده من أوامره ونواهيه وما اختصه به من الإباحة والتحريم، وذكر حقوقه على أمته وما يتعلق بذلك[1].

فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن، وإذا تأملت الألفاظ المتضمنة وجدتها ثلاثة أنواع:

أحدها: ألفاظ في غاية العموم، فدعوى التخصيص فيها يبطل مقصودها وفائدة الخطاب بها.

الثاني: ألفاظ في غاية الخصوص، فدعوى العموم فيها لا سبيل إليه.

الثالث: ألفاظ متوسطة بين العموم والخصوص.

فالنوع الأول: كقوله ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾[2] و﴿**على كل شيء قدير**﴾[3] و﴿**خالق كل شيء**﴾[4] وقوله ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾[5] و﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**﴾[6] و﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة**﴾[7] وأمثال ذلك.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ المائدة/٦٧.

وقوله تعالى: ﴿**وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين**﴾ الأحزاب/٥٠.

(٢) سورة البقرة/ ٢٨٢.

(٣) سورة التغابن/ ١، والطلاق/ ١٢، والتحريم/ ٨، والملك/ ١.

(٤) سورة الأنعام/ ١٠٢، والرعد/ ١٦، والزمر/ ٦٢، وغافر/ ٦٢.

(٥) سورة فاطر/ ١٥.

(٦) سورة البقرة/ ٢١.

(٧) سورة النساء/ ١.

والنوع الثانى: كقوله ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾[1] وقوله ﴿**فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها**﴾[2] وقوله ﴿**وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين**﴾[3].

النوع الثالث: كقوله ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**﴾[4] وقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾[5] ﴿**وياأهل الكتاب**﴾[6] و﴿**ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾[7] ونحو ذلك مما يخص طائفة من الناس دون طائفة، وهذا النوع وإن كان متوسطا بين الأول والثانى، فهو عام فيما قصد به ودل عليه، وغالب هذا النوع أو جميعه قد علقت الأحكام فيه بالصفات المقتضية لتلك الأحكام، فصار عمومه لما تحته من جهتين: من جهة اللفظ والمعنى، فتخصيصه ببعض نوعه إبطال لما قصد به وابطال دلالته، إذ الوقف فيها لاحتمال إرادة الخصوص به أشد إبطالا وعودا على مقصود المتكلم به بالإبطال، فادعى قوم من أهل التأويل فى كثير من عمومات هذا النوع التخصيص، وذلك فى باب الوعد والوعيد وفى باب القضاء والقدر.

أما باب الوعيد: فإنه لما احتج عليهم الوعيديه[8] بقوله ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم...**﴾[9].

---

(1) سورة المائدة/ ٦٧.

(2) سورة الأحزاب/ ٣٧.

(3) سورة الأحزاب/ ٥٠.

(4) سورة الحج/ ٣٩.

(5) سورة البقرة/ ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ومواضع أخرى فى السورة نفسها وسور كثيرة أخرى.

(6) سورة آل عمران/ ٧٠، ٧١، ٩٨، ٩٩. والنساء/ ١٧١. والمائدة/ ١٥ وغيرها.

(7) سورة الزمر/ ٥٣.

(8) الوعيدية هم المعتزلة القائلون بوجوب إنفاذ الوعد والوعيد وهو أحد أصولهم. انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص٦٢١.

(9) سورة النساء/ ٩٣.

وبقـولـه: ﴿إن الـذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا﴾[1] وأمثال ذلك، لجأوا إلى دعوى الخصوص وقالوا: هذا فى طائفة معينة، ولجأوا إلى هذا القانون وقالوا: الدليل اللفظى العام مبنى على مقدمات منها عدم التخصيص، وانتفاؤه غير معلوم.

وأما باب القدر: فإن أهل الإثبات لما احتجوا على القدرية[2] بقوله ﴿الله خالق كل شىء﴾ [3] وقوله ﴿وهو على كل شىء قدير﴾[4] ونحوه، ادعوا تخصيصه[5].

---

(١) سورة النساء/ ١٠.

(٢) القدرية نفاة القدر، والمقصود هنا المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعاله.

(٣) سورة الأنعام/ ١٠٢.

(٤) سورة المائدة/ ١٢٠.

(٥) ادعو تخصيصه وذلك بقولهم:إن العبد يخلق أفعاله، وذلك تخصيص عندهم لقوله تعالى: ﴿الله خالق كل شىء﴾ حيث ادعوا أن عموم هذه الآية وأمثالها غير مراد ودليلهم فى ذلك أن الله شىء ولا يدخـل فى هذه العمـوم باتفـاق. فقالوا: إن المراد بـ«الله خالق كل شىء» أى معظم الأشياء. انظر: شرح الأصول الخمسة ص٣٨٣.

ويرون أن ذلك من العدل، إذ ليس من العدل أن يخلق الله فعل الإنسان ويقدره عليه ثم يجعله مناط الثواب والعقاب، ولذلك لجأوا إلى هذه المقالة الباطلة هروبا من هذا المعنى الذى جعلوه أصلا من أصولهم الخمسة وقد شرحه القاضى عبد الجبار فى كتابه «شرح الأصول الخمسة» بما عرف عنه وعن أصحابه من سفسطة غرضهم منها تغليب عقولهم وتصوراتها على نصوص الوحى ودلالتها.

وكان أول من ابتدع هذه البدعة غيلان الدمشقى الذى أفرط فى الحديث عنها حتى قتله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ حين استفحل أمره بالدعوة إلى بدعته هذه جهارا، إلا أن دعوته لم تمت بمـوتـه بل احتضنها المعتزلة، حتى أصبحت من أبرز أصولهم التى عليها مدار كثير من سفسطاتهم. انظر تاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمى ص٧٣.

ويقابل هذه البدعة بدعة الجبرية وعلى رأسهم زعيمهم جهم بن صفوان، إذ يرون أن التدبير فى أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهى كلها اضطرارية لا قدرة لهم عليها كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق إنما هو من باب المجاز، وهى على حسب ما يضاف الشىء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله. انظر: شرح الطحاوية ص٤٣١.

إلا أن كلا المذهبين باطل يخالف الأدلة الصريحة الصحيحة من الكتاب والسنّة، إذ المذهب الحق ما ذهب إليه السلف الصالح من أن أفعال العباد جميعها مخلوقة ومقدرة لله سبحانه وتعالى بدليل قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شىء﴾ غافر/٦٢ فدخل فيه الأعيان والأفعال =

وأكثر طوائف أهل الباطل ادعاءً لتخصيص العمومات هم الرافضة(1)، فقلّ أن تجد فى القرآن والسنّة لفظا عاما فى الثناء على الصحابة إلا قالوا: هذا فى علي وأهل البيت(2)، وهكذا تجد كل أصحاب مذهب

= من الخير والشر، وقال تعالى: ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء﴾ الرعد/١٦ فنفى سبحانه أن يكون خالق غيره، ونفى أن يكون شىء سواه غير مخلوق، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله سبحانه خالق بعض الأشياء دون جميعها، وهذا خلاف الآية. ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان، فلو كان الله خالق الأعيان والناس خالقى الأفعال لكان خلق الناس أكثر من خلقه، ولكانوا أتم منه قوة، وأولى بصفة المدح من ربهم سبحانه، وقال سبحانه: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ الصافات/٩٦، فأخبر أن أعمالهم مخلوقة لله عز وجل، إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن الله عز وجل خالق لجميع أفعال عباده خيرها وشرها. انظر الاعتقاد للبيهقى ص٦٠، وراجع خلق أفعال العباد للبخارى ص١٧ وما بعدها.

إلا أن السلف لا يعنون بإثبات أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومقدرة منه سبحانه سلب قدرة العبد واختياره، لأن الله تبارك وتعالى حين قدر عليه ما يقع منه من أفعال كان وفق علم الله تعالى بما يختاره العبد لنفسه، لأن الله تعالى جعل له حرية الاختيار والقدرة على الفعل والترك فهو مؤثر بإرادته وقدرته التى خلقها الله تبارك وتعالى له، فهو قادر على أن يفعل أو لا يفعل بمحض اختياره وإرادته، فإنه وإن كان الحق أن أفعال العباد من مخلوقات الله تعالى، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، إلا أنه لا يلزم من هذا أن العبد لا يكون فاعلا حقيقة، ولا مريدا ولا مختارا، لأن كل دليل صحيح يقيمه القدرى فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له، مختار له حقيقة وأن نسبته وإضافته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته، فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى، فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله، ومشيئته لجميع ما فى الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم، ولذلك فرق الله تعالى بين المستطيع القادر وغير المستطيع فقال: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ آل عمران/٩٧، وقد أثبت سبحانه للعبد مشيئة وفعلا كما قال: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ سورة التكوير/ ٢٨-٢٩، وقال تعالى: ﴿جزاءا بما كانوا يعملون﴾ الأحقاف/١٤، لكن الله سبحانه خالقه، وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل، فإنه لا رب غيره ولا إله سواه، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه. انظر شرح الطحاوية ص٤٣٢، وشفاء العليل لابن القيم ص١١٣، ورسالة القضاء والقدر ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٢/٩٣، ٩٤.

(١) تقدم التعريف بهم فى الجزء الأول ص١٠٥.

(٢) دأب الرافضة على سب أصحاب رسول الله ﷺ، والانتقاص من مكانتهم =

= **فاستحقوا وصف الزندقة والنفاق، لأن القدح في صحابة رسول الله ﷺ قدح في الدين كله أصوله وفروعه، لأنهم واسطتنا فيه إلى رسول الله ﷺ، ومبلغوه إلينا كما أنزل، ولذلك كانت لهم منزلة عظيمة في الإسلام، حذر نبي الهدى ﷺ من انتقاصها فقال: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»** رواه مسلم في فضائل الصحابة، ويقول تعالى في شأنهم: **﴿للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون، والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾** سورة الحشر/ ٨ـ١٠.

ولذلك أنزلهم أئمة السلف المنزلة التي تليق بهم، فقصدوا فيهم سواء السبيل بعيدا عن الإفراط والتفريط، موافقين بذلك أمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، كما قال الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم، وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان» الطحاوية مع الشرح ص٤٦٦.

ويقول الإمام أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص١٢٩: «فمن أحبهم وتولاهم ودعا لهم، ورعى حقهم، وعرف فضلهم فاز مع الفائزين ومن أبغضهم ونسبهم إلى ما تنسبهم إليه الروافض والخوارج ـ لعنهم الله ـ فقد هلك مع الهالكين».

وفي ما قاله الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ من تخصيص الروافض لألفاظ الثناء العامة على الصحابة الواردة في القرآن بأهل البيت إشارة إلى موقفهم الجائر الظالم من صحابة نبي الهدى الذين قال الله ورسوله فيهم ما سبق إيراده مما يدل على مدحهم والثناء عليهم، والتحذير من انتقاصهم وسبهم. فالروافض هم حملة لواء سب صحابة رسول الله ﷺ، إذ لفقوا الافتراءات الظالمة على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، حتى آل بهم الأمر إلى تكفيرهم جميعا إلا بضعة عشر رجلا منهم. انظر العواصم من القواصم مع حاشيته ص١٨٢ـ١٨٣.

ولا غرو أن يذهب هؤلاء الأدعياء هذا المذهب، لأنهم إنما يريدون هدم الدين، فبدأوا بحملته ومبلغيه، إذ القدح فيهم قدح في الإسلام كله لأنهم واسطتنا فيه إلى رسول الله ﷺ، فكانت بداية أمرهم مع ظهور زعيمهم عبد الله بن سبأ الذي دبّر أول فتنة وقعت في الإسلام فكانت انطلاقة لما بعدها من الشرور، لأن تلامذته ساروا على خطاه ونهجوا نهجه فكانت فتنهم المتلاحقة امتدادا لفتنته.

فاللهم من أراد هذا الدين بسوء فاردد كيده في نحره واجعل تدميره في تدبيره، وارزقنا حب أصحاب نبيك وحب من أحبهم، وجازِ من أبغضهم بشر أعمالهم، وقبيح اعتقاداتهم، وسوء مقاصدهم.

من المذاهب إذا ورد عليهم عام يخالف مذهبهم ادعوا تخصيصه، وقالوا: أكثر عمومات القرآن مخصوصة. وليس ذلك بصحيح بل أكثرها محفوظة باقية على عمومها، فعليك بحفظ العموم، فإنه يخلصك من أقوال كثيرة باطلة قد وقع فيها مدعو الخصوص بغير برهان من الله، وأخطأوا من جهة اللفظ والمعنى.

أما من جهة اللفظ فلأنك تجد النصوص التى اشتملت على وعيد أهل الكبائر مثلا فى جميع آيات القرآن خارجة بألفاظها مخرج العموم المؤكد المقصود عمومه، كقوله ﴿**ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا**﴾[1] وقوله ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال**﴾[2] ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم﴾[3] و﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾[4] وقد سمى النبى ﷺ هذه الآية جامعة فاذة[5]، أى عامة فذة فى بابها، وقوله ﴿**إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى**﴾[6] وقوله ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى**﴾[7] وقوله ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر**﴾[8] وأضعاف أضعاف ذلك من عمومات القرآن المقصود عمومها التى إذا أبطل عمومها بطل مقصود عامة القرآن، ولهذا

---

(١) سورة الفرقان/ ١٩.
(٢) سورة الأنفال/ ١٦.
(٣) سورة النساء/ ٩٣.
(٤) سورة الزلزلة/ ٧، ٨.
(٥) الحديث فى صحيح البخارى، كتاب التفسير «باب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» ح(٤٩٦٢)، فتح البارى ٨/٧٢٦، وتفسير ابن كثير ٨/٤٨٢.
(٦) سورة طه/ ٧٤، ٧٥.
(٧) سورة النساء/ ١٠.
(٨) سورة الفرقان/ ٦٨.

قال شمس الأئمة السرخسي[1]: إنكار العموم بدعة حدثت فى الإسلام بعد القرون الثلاثة.

وأما خطؤهم من جهة المعنى، فلأن الله سبحانه إنما علق الثواب والعقاب على الأفعال المقتضية له اقتضاء السبب لمسببه وجعلها عللا لأحكامها، والاشتراك فى الموجب يقتضى الاشتراك فى موجبه، والعلة إذا تخلف عنها معلولها من غير انتفاء شرط أو وجود مانع فسدت، بل يستحيل تخلف المعلول عن علته التامة وإلا لم تكن تامة، ولكن غلط هاهنا طائفتان من أهل التأويل:

الوعيديه: حيث حجرت على الرب تعالى بمعقولها الفاسد أن يترك حقه ويعفو عن من يشاء من أهل التوحيد، وأوجبوا عليه أن يعذب العصاة ولابد، وقالوا: إن العفو عنهم وترك تعذيبهم إخلال بحكمته وطعن فى خبره.

وقابلتهم **الطائفة الأخرى** فقالوا: لا نجزم بثبوت الوعيد لأحد فيجوز أن يعذب الله الجميع، وأن يعفو عن الجميع، وأن ينفذ الوعيد فى شخص واحد يكون هو المراد من ذلك اللفظ، ولا نعلم هل هذه الألفاظ للعموم، أو للخصوص، وهذا غلو فى التعطيل، والأول غلو فى التقييد.

والصواب غير المذهبين، وأن هذه الأفعال سبب لما علق عليها من الوعيد، والسبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط، أو وجود مانع،

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سهل، أبو بكر السرخسي، شمس الأئمة، من كبار الأحناف، إمام مجتهد، من أهل سرخس فى خراسان، اختلف فى وفاته، فقيل فى حدود التسعين وأربعمائة، وقيل حوالى خمسمائة. انظر: الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص١٥٨، وتاج التراجم ص٥٢، والأعلام للزركلى ٦/٢٠٨.

والموانع متعددة منها ما هو متفق عليه بين الأمة، كالتوبة النصوح [1]، ومنها الحسنات الماحية [2]، والمصائب المكفرة[3]، وما يلحق العبد بعد موته من ثواب تسبب إلى تحصيله، أو دعاء أو استغفار أو صدقة عنه[4].

---

(١) قال تعالى: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾ المائدة/٣٩، وقال تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ الفرقان/٧٠، وقال تعالى: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ النحل/١١٩. والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا، كلها تدل على أن التوبة من أعظم المكفرات، والأحاديث الدالة على قبول توبة التائب كثيرة أيضا أوردها أصحاب السنن، ولذلك كان القول بأن التوبة مكفرة لما قبلها من الذنوب، ومانعة من المؤاخذة عليها أمرا مجمعا عليه بين المسلمين.

(٢) قال تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ هود/١١٤، وقال تعالى: ﴿يدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ الرعد/٢٢.

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن». أخرجه الترمذى فى البر، باب ما جاء فى معاشرة الناس، ح(١٩٨٧) ٤/٣٥٥، والدارمى فى الرقاق، باب فى حسن الخلق ٢/٣٢٣، وأحمد فى المسند ٥/١٥٣.

(٣) يقول ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها» البخارى، كتاب المرضى ح(٦٤٠) ١٠/١٠٣ وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يارسول الله، إنك توعك وعكا شديدا، قال: أجل، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى ـ شوكة فما فوقها ـ إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها» نفس المصدر ح(٥٦٤٨).

(٤) يقول ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ح(١٦٣١) ٣/١٢٥٥، وأبو داود فى الوصايا، باب ما جاء فى الصدقة عن الميت، ح(٢٨٨٠) ٣/٣٠٠، والترمذى فى الأحكام، باب فى الوقف ح(١٣٧٦) ٣/٦٥١.

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: يارسول الله، إن أمى افتلتت نفسها ولم توصى، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم». البخارى، كتاب الجنائز، باب موت الفجاءة البغته، ح(١٣٨٨) ٣/٢٥٤. ومسلم فى الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ح(١٠٠٤) ٢/٦٩٦. =

ومنهـا شفاعة يأذن الله فيها لمن أراد أن يشفع فيه(١)، ومنها رحمة تدركه من أرحم الراحمين يترك بها حقه قبله ويعفو عنه(٢)، وهذا لا يخرج العمـوم عن مقتضاه وعمومه، ولا يحجر على الرب تعالى حجر الوعيدية والقـدرية، وللرد على الـطائفتين موضع غير هذا، والمقصود أن الأقسام الثلاثة التى تضمنها القرآن وهى: الأعم، والعام، والأخص، كل منها يفيد العلم بمدلوله، ولا يتوقف فهم المراد منه على العلم بانتفاء المخصص والإضمار والحذف والمجاز، فإن ذلك يبطل أحكام تلك الأقسام العشرة

= أما قوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الحشر/١٠، فيدل على انتفاع الأموات باستغفار الأحياء لهم، ويدل على ذلك أيضا إجماع الأمة على الدعاء للميت فى صلاة الجنازة.

(١) قال تعالى: ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ البقرة/٢٥٥، وقال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ الأنبياء/٢٨، وقال: ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ يونس/٣.

والأحاديث المثبتة للشفاعة متواترة، وأعظمها شفاعة رسول الله ﷺ لأمته يوم القيامة، كما فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه. انظر البخارى، كتاب الرقاق، باب صفة الجنـة والنار ح(٦٥٦٥) ١١/٤١٧، وكتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغـيرهم ح(٧٥١٠) ١٣/٤٧٣. ومسلم، كتـاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، ح(٣٢٢) ١/١٨٠، وح(٣٢٦) ١/١٨٢.

وتشفع الملائكة أيضا، والنبيون، والمؤمنون بإذن الله تعالى لمن أراد سبحانه أن يشفعه فيهم. انظر ح رقم (٣٠٢) من كتاب الإيمان فى صحيح مسلم ١/١٦٧، وحديث أبى بكرة عند أحمد فى المسند ٥/٤٣، والأحاديث فى إثبات الشفاعة بجميع أنواعها كثيرة رواها الإمامان البخارى ومسلم وغيرهما.

وقد خالف فى إثبات الشفاعة المعتزلة والخوارج، لأنهم يقولون بوجوب إنفاذ الوعيد وبتخليد مرتكبى الكبائر فى النار، والقول بالشفاعة يخالف أصلهم هذا. انظر فتح البارى ١١/٤٢٦. وهذا الإنكار مكابرة صريحة لدلالة النصوص المتواترة التى بها تثبت الشفاعة.

وهناك من أثبت شفاعات لم يأذن الله بها، كإثبات المشركين الشفاعة لآلهتهم وهى شفاعة شركية ووسائط إفكية، أبطلها الله تبارك وتعالى. راجع درء تعارض العقل والنقل ٥/١٤٧-١٥٠، وشرح نونية ابن القيم ص٦٧٦.

(٢) قال تعـالى: ﴿يعـذب من يشـاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ العنكبوت/٢١، و﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ الإسراء/٥٤، و﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ الشورى/٣٠.

التى اشتمل عليها القرآن، وتحول بين الإنسان وبين فائدتها مع كونها أهم الأمور، والعناية الإلهية بها أشد وبيانها واقع موقع الضرورة، فلو صح قول القائل: إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين لم يحصل لنا اليقين من القرآن فى شىء من تلك الأقسام العشرة البتة، وهذا من أبطل الباطل وأبين الكذب.

الوجه الرابع والثلاثون: أنك تجد عند كثير من المعروفين بالتفسير من رد كثيرا من ألفاظ القرآن عن العموم إلى الخصوص، نظير ماتجده من ذلك عند أرباب التأويلات المستنكرة، ومتى تأملت الحال فيما سوغوه من ذلك وجدتها عائدة من الضرر على الدين بأعظم مما عاد من ضرر كثير من التأويلات، وذلك لأنهم بالقصد إلى ذلك فتحوا لأرباب التأويلات الباطلة السبيل إلى التهافت فيها، فعظمت بذلك الجناية من هؤلاء وهؤلاء على الدين وأهله، وتجد الأسباب الداعية للطائفتين قصد الاغراب على الناس فى وجوه التفسير والتأويل، وادعاؤهم أن عندهم منها نوادر لا توجد عند عامة الناس، لعلمهم أن الأمر الظاهر المعلوم يشترك الناس في معرفته فلا مزية فيه، والشىء النادر المستظرف يحل محل الإعجاب، وتتحرك الهمم لسماعه واستفادته لما جبل الناس عليه من إيثار المستظرفات والغرائب، وهذا من أكثر أسباب الأكاذيب فى المنقولات والتحريف لمعانيها، ونحلتها معانى غريبة غير مألوفة، وإلا فلو اقتصروا على ما يعرف من الآثار وعلى ما يفهمه العامة من معانيها لسلم علم القرآن والسنّة من التأويلات الباطلة والتحريفات، وهذا أمر موجود فى غيرهم (كما تجد المتعنتين بوجوه) القرآن يأتون من القراءات البديعة المستشنعة فى ألفاظها ومعانيها الخارجة عن قراءة العامة وما ألفوه ما يغربون به على العامة، وأنهم قد أوتوا من علم القرآن مالم يؤته سواهم، وكذلك أصحاب الإعراب يذكرون من الوجوه المستكرهة البعيدة، «المعقدة»[1] ما يغربون به على الناس، وكذلك كثير

(١) فى «ل» (المتعقدة) ولعل ما أثبت هو الصواب.

من المفسرين يأتون بالعجائب التى تنفر عنها النفوس، ويأباها القرآن أشد الإبـاء، كقول بعضهم: «طه» لفظة نبطية معناها يارجل ويا إنسان[١]، وقال بعضهم: هى من أسماء النبى ﷺ مع «يس» وعدوا فى أسمائه «طه ويس»[٢] وقال بعضهم فى «نون والقلم»: إنها الدواة[٣] كأنه لما رأى هذا الحرف قد اقترن بالقلم جعله الدواة. وقال بعضهم فى «صاد» إنها فعل أمر مثـل: رام، وقـاض[٤]، وكـما قال بعضهم فى ﴿**إن تتبعـون إلا رجـلا مسحـورا**﴾[٥] وهو الذى له «سَحْر»[٦] أى رئة، أفَتَرى أراد فرعون بقوله لموسى: ﴿**إنى لأظنـك ياموسى مسحورا**﴾[٧] هذا المعنى؟ وأراد الكفار

---

(١) هذا مروى عن جماعـة من أئمـة السلف كابن عبـاس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكـرمة، والضحاك، وغيرهم. انظر: تفسير الطبرى ١٦/ ١٣٥-١٣٦، وانظر: التفسير الكبير للرازى ٢٢/ ٣.

(٢) عن عكرمة وابن عباس أن معنى «يس» يا إنسان، وقال آخرون: يا رجل كالحال فى تفسير طه. انظر تفسير الطبرى ٢٢/ ١٤٨، وتفسير ابن كثير ٧/ ٥٤٨.

(٣) مروى عن الحسن وقتادة. انظر: تفسير الطبرى ٢٩/ ١٥.

(٤) مروى عن الحسن البصرى. انظر: نفس المصدر ٢٣/ ١١٧.

(٥) سورة الإسراء/ ٤٧.

(٦) قال الإمام الطبرى: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يذهب بقوله: (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) إلى معنى: ما تتبعون إلا رجلا له سَحْر، أى: له رئة، والعرب تسمى الرئة سَحْرا، والمسحر من قولهم للرجل إذا جبن: قد انتفخ سحره. وكذلك يقال لكل ما أكل أو شرب من آدمى وغيره: سحور ومسحر كما قال لبيد:

فإن تسـألـينـا فيم نحـن فإنـنـا ... عصـافـير من هذا الأنـام المسحَّـرا

فكأن معناه: إن تتبعون الا رجلا له رئة، يأكل الطعام ويشرب الشراب، لا ملكا لا حاجة به إلى الطعام والشراب، والذى قال ذلك غير بعيد عن الصواب. انتهى. جامع البيان ١٥/ ٩٦. وانظر لسان العرب مادة «سَحَر».

وقد رد الإمام ابن كثير تصويب الإمام الطبرى لهذا القول فقال بعد أن أورده: وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر، لأنهم إنما أرادوا هاهنا أنه مسحور له رِئِىّ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ٨١.

(٧) سورة الإسراء/ ١٠١.

بقولهم: ﴿إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[1] هذا المعنى؟. وكما قال آخرون في قوله: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة﴾[2] أن المعنى: يرزقه[3]، واستشهدوا بقولهم: أرض منصورة، أي ممطورة، ولو تأمل هذا القائل سياق «الآية»[4] وآخرها لعلم أن تفسير النصر بالرزق يزيل معنى الآية عن وجهه الذي قصد به. وقال آخرون في قوله: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾[5] أي بدرعك، وننجيك: نلقيك على نجوة الأرض[6]. وقال آخرون في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾[7] إن المراد به ضع يدك على نحرك[8] وتكايس غيره وقال: المعنى استقبل القبلة بنحرك[9]، فهضموا معنى هذه الآية التي جمعت بين العبادتين العظيمتين الصلاة والنسك، وقال آخرون في قوله: «أعجب الكفار نباته»[10] إنهم الزراع[11]، وهل أطلق الله سبحانه الكفار في موضع

---

(١) سورة الحجر/ ١٥.

(٢) سورة الحج/ ١٥.

(٣) هذا القول مروى عن مجاهد. انظر تفسير الطبرى ١٧/ ١٢٧.

(٤) في «ل» (الآخرة) وهو خطأ.

(٥) سورة يونس/ ٩٢.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٨، والتفسير الكبير للرازى ١٧/ ١٦٣-١٦٤، وتفسير الطبرى ١١/ ٦١٤.

(٧) سورة الكوثر/ ٢.

(٨) هذا القول مروى عن عليّ بن أبى طالب، وعن الشعبى. انظر تفسير الطبرى ٣٠/ ٣٢٦، وتفسير ابن كثير ٨/ ٥٢٣، والتفسير الكبير للرازى ٣٢/ ١٢٩. وقد حكم ابن كثير بعدم صحة نسبة هذا القول لعليّ رضى الله عنه.

(٩) قال بهذا يحيى بن زياد الفراء من علماء اللغة. انظر: معانى القرآن له ٣/ ٣٩٦.

(١٠) سورة الحديد/ ٢٠.

(١١) هذا القول مروى عن ابن مسعود رضى الله عنه، وبه قال الإمام ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٠، وانظر: التفسير الكبير للرازى ٢٩/ ٢٣٤.

ونقد ابن القيم لهذا التفسير فيه نظر، لأن تفسير الكفارهنا بالزراع له وجه قوى، وقد فسره به جمهور المفسرين ويأتي لفظ الكفار في اللغة بمعنى الزراع. لأن الزارع يكفر البذر في الأرض بمعنى يستره ويغطيه. انظر اللسان مادة «كفر».

واحد على غير الكافرين به؟ وكما قيل فى قوله: ﴿**كمشكاة فيها مصباح**﴾[1] أن المشكاة هذا الموضع الذى يشكو المتعبد فيه إلى الله[2]، وأضعاف أضعاف ذلك من التفاسير المستنكرة المستكرهة التى قصد بها الإغراب والإتيان بخلاف ما يتعارفه الناس كحقائق السلمى[3] وغيره مما لو تتبع وبين بطلانه لجاءعدة أسفار كبار، ولولا قصد الإغراب والإتيان بها لم يسبق إليه غيره لما أقدم على ذلك، كما قال بعض الرافضة فى قوله: ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ هما على وفاطمة ﴿**بينهما برزخ لا يبغيان**﴾ هو النبى ﷺ ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾[4] هما الحسن والحسين[5]. وجناية هؤلاء على القرآن جناية عظيمة.

وبسبب ما اعتمدوه قال القائل: كلام الله لا يستفاد منه يقين لاحتمال اللفظة منه عدة وجوه. وقد فسرت بذلك كله، ولو شرح كتاب

---

(١) سورة النور/ ٣٥.

(٢) لم أجد ذكرا لهذا القول وصاحبه فيما اطلعت عليه من كتب التفسير.

(٣) يعنى بحقائق السلمى تفسيره المسمى «حقائق التفسير».

والسلمى هو: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدى السلمى الأم، شيخ خراسان، وكبير الصوفية، أبو عبد الرحمن النيسابورى الصوفى، ولد سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وتوفى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة. انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٤٧-٢٥٥، والكامل فى التاريخ ٩/ ٣٢٦، واللباب ٢/ ١٢٩، وتاريخ بغداد ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩.

قال الخطيب: قال لى محمد بن يوسف القطان النيسابورى: كان أبو عبد الرحمن السلمى غير ثقة، وكان يضع للصوفية الأحاديث. تاريخ بغداد ٢/ ٢٤٨.

وقال الذهبى: وفي الجملة ففى تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة، وفى «حقائق تفسيره» أشياء لا تسوغ أصلاً، عدها بعض الأئمة من زندقة الباطنية، وعدها بعضهم عرفانا وحقيقة، نعوذ بالله من الضلال ومن الكلام بهوى، فإن الخير كل الخير فى متابعة السنّة والتمسك بهدى الصحابة والتابعين رضى الله عنهم. سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٥٢.

(٤) سورة الرحمن/ ١٩، ٢٠، ٢٢.

(٥) انظر: منهاج الكرامة لابن المطهر الحلّى فى أول كتاب منهاج السنّة النبوية لابن تيمية ١/ ١٦٢، وانظر: الرد عليه منهاج السنّة النبوية ٤/ ٦٦.

من كتب العلوم هذا الشرح لأفسده الشارح على صاحبه ومسخ مقاصده وأزالها عن مواضعها.

والمقصود أن حمل عمومات القرآن على الخصوص تعطيل لدلالتها، وإخراج لها عما قصد بها، وهضم لمعناها وإزالة لفائدتها، كقول بعضهم فى قوله تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾[1]، إن المراد علي بن أبي طالب[2]، وهذا كذب قطعا على الله أنه أراد علياً وحده بهذا اللفظ العام الشامل لكل من اتصف بهذه الصفة. وقول هذا القائل أو غيره في قوله تعالى: ﴿**والذي جاء جزاء المحسنين**﴾[3] إنه عليّ بن أبى طالب[4]. وفى قوله ﴿**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾[5] إنه عليّ بن أبى طالب[6]. وقال الآخر فى قوله: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار**﴾ عمر بن الخطاب. ﴿**رحماء بينهم**﴾ أبو بكر،

---

(١) سورة المائدة/ ٥٥.

(٢) يقول الرافضة: إن المراد بهذه الآية عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه وهى من أدلتهم على أحقيته بالخلافة بعد رسول الله ﷺ. انظر: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى الحسن بن محمد بن الحسين القمى. مطبوع بهامش تفسير الطبرى ٦/١٦٨ طبع مطبعة بولاق سنة ١٣٢٥هـ، ومنهاج الكرامة فى معرفة الإمامة، لابن المطهر الحلى، مطبوع فى أول كتاب منهاج السنّة النبوية الذى ألف للرد عليه ١/١٤٧، وانظر تفنيد هذا الادعاء فى منهاج السنّة النبوية للإمام ابن تيمية ٤/٢.

(٣) سورة الزمر/ ٣٣، ٣٤.

(٤) انظر: منهاج الكرامة فى مقدمة منهاج السنّة النبوية ١/١٦٠، وراجع فى الرد عليهم منهاج السنّة النبوية لابن تيمية ـ رحمه الله ـ ٤/٥١.

(٥) سورة الأعراف/ ١٥٧.

(٦) لم أجد له مصدرا، ولكنه من أقوال الرافضة دون شك، لأنهم هم الذين حرفوا مدح القرآن للصحابة إلى عليّ بن أبى طالب فقط.

تراهم ركعا سجدا﴾ عثمان ﴿يبتغون فضلا من الله ورضوانا﴾[1] علي[2]. أو قول الآخر فى قوله: ﴿الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن﴾[3] هم الخبز[4]. وفى قوله ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾[5] إنها أرض فلسطين والأردن[6]. وفى قوله: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[7] هو: أما بعد[8]. فهضموا هذا المعنى العظيم المتضمن لإعطائه الحق فى أتم بيان، وفى قوله: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ [9] المراد به المشط، ومن هذا يضع الرافضة المشط بين أيديهم فى الصلاة.

---

(١) سورة الفتح/ ٢٩.

(٢) هذا التفسير مروى عن ابن عباس. انظر الدر المنثور للسيوطى ٧/ ٥٤٤ مع شيء من الاختلاف عما هو عليه هنا.

(٣) سورة فاطر/ ٣٤.

(٤) انظر: تفسير الطبرى ٢٢/ ١٣٨. وقد اختار ـ رحمه الله ـ التفسير بالعموم لجميع أنواع الحزن كما سيأتى.

(٥) سورة الأنبياء/ ١٠٥.

(٦) انظر: التفسير الكبير للرازى ٢٢/ ٢٣٠.

(٧) سورة ص/ ٢٠.

(٨) هذا القول مروى عن الشعبى، انظر: تفسير الطبرى ٢٣/ ١٤٠، وقد اختار ـ رحمه الله ـ القول بالعموم حيث قال ـ بعد أن ذكر الأقوال المختلفة فى ذلك ـ: فالصواب أن يعم الخير كما عمه الله فيقال: أوتى داود فصل الخطاب فى القضاء والمحاورة والخطب. نفس المصدر ص١٤١، وهو ما أراده الإمام ابن القيم رحمه الله.

(٩) سورة الأعراف/ ٣١.

(فصـــــــل)

وقد يقع فى كلام السلف تفسير اللفظ العام بصورة خاصة، على وجه التمثيل لا على تفسير معنى اللفظة فى اللغة بذلك، فيغير به المعنى فيجعله معنى اللفظة فى اللغة، كما قال بعضهم فى قوله ﴿**ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم**﴾(١) إنه الماء البارد فى الصيف، فلم يرد به أن النعيم المسئول عنه هو هذا وحده (٢). وكما قيل فى قوله ﴿**ويمنعون الماعون**﴾(٣) إنه القدر والفأس، والقصعة(٤)، والماعون اسم جامع لجميع ما ينتفع به، فذكر

---

(١) سورة التكاثر/٨.

(٢) ورد عن رسول لله صلى الله عليه وسلم أن الماء البارد من النعيم الذي يُسأل عنه العبد يوم القيامة كما في مسند الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطبا، وشربوا ماء فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة» مسند أحمد ٣٥١/٣، وتفسير ابن كثير ٤٩٦/٨.

وكما في حديث أبي هريرة عند الترمذي أن النبي ﷺ قال: « ان أول ما يسأل عنه ـ يعني يوم القيامة ـ العبد من النعيم أن يقال له: ألم نصحّ لك جسمك، ونروك من الماء البارد؟ «قال الترمذي: هذا حديث غريب. انظر كتاب التفسير» باب ومن سورة التكاثر» ح (٣٣٥٨) ٤٤٨/٥، وتفسير ابن كثير ٤٦٧/٨، ولذلك فسر الإمام الطبري هذه الآية بقوله ـ بعد أن ذكر أقوال المفسرين ـ: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عم بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم ـ كما قال ـ عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض. جامع البيان ٢٨٩/٣٠. وبمثله فسرها الإمام ابن كثير رحمه الله. انظر تفسير ابن كثير ٤٩٤/٨.

(٣) سورة الماعون/٧.

(٤) هذا التفسير مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر جامع البيان للطبري ٣١٥/٣٠ـ٣١٨.

وقد فسر الإمام الطبري هذه الآية ـ بعد أن ذكر الأقوال في ذلك ـ بقوله: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب ـ إذ كان الماعون هو ما وصفنا قبل ـ أي أنه منافع ما عندهم ـ وكان الله قد أخبر عن هؤلاء القوم، وأنهم يمنعونه الناس خبراً عاما من غير أن يخص من ذلك شيئا أن يقال: إن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس مايتعاورونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ماأوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق، لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض. انتهى. جامع البيان ٣١٩/٣٠ـ٣٢٠. وهذا ما عاناه ابن القيم ـ رحمه الله ـ من معنى هذه الآية.

بعض السلف هذا للسائل تمثيلا وتنبيها بالأدنى على الأعلى، فإذا كان الويل لمن منع هذا فكيف بمن منع ما الحاجة إليه أعظم؟.

وإذا كان العبد يُسأل عن شكر الماء البارد فكيف بما هو أعظم نعيما منه؟ وفى قوله ﴿**الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن**﴾(١) هم الغداء والعشاء(٢).

وفى قوله ﴿**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة**﴾(٣) إنها المرأة الموافقة(٤)، فهذا كله تمثيل للمعنى المعلوم ببعض أنواعه.

فان أراد القائل: إن الأدلة اللفظية موقوفة على عدم التخصيص، أنها موقوفة على عدم قصرها على هذا وأشباهه، فنعم هى غير مقصورة عليه، ولا مختصة به، ولا يقال لفهم هذه الأنواع منها تخصيصا. ونظير هذا

---

(١) سورة فاطر/٣٤.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٢/١٣٨. وبعد أن استعرض الإمام الطبري أقوال المفسرين اختار تفسيره بما هو أعم فقال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به أنهم قالوا حين دخلوا الجنة: ﴿**الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**﴾ وخوف دخول النار من الحزن، والجزع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة الى المطعم من الحزن، ولم يخصص الله إذ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزن عنهم نوعا دون نوع، بل أخبر عنهم أنهم عموا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحمدهم على إذهابه عنهم جميع معاني الحزن. نفس المصدر ص١٣٩.

(٣) سورة البقرة/٢٠١.

(٤) للمفسرين حول تفسير هذه الآية أقوال عدة. انظرها في تفسير الطبري ٢/٣٠٠-٣٠١. إلا أنه لا منافاة بينها ولا اختلاف لأن هذه الدعوة جمعت كل خير في الدنيا - كما قال الإمام ابن كثير- وصرفت كل شر. فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.

وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من الأمور الآخرة الصالحة.

انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٣٥٥-٣٥٦، وبهذا العموم فسر الإمام الطبري هذه الآية. وهو ما أراد المنصف.

ما يذكره كثير من المفسرين فى آيات عامة أنها فى قوم مخصوصين من المؤمنين والكفار والمنافقين.

وهذا تقصير ظاهر منهم، وهضم لتلك العمومات المقصود عمومها، وكأن الغلط فى ذلك إنما عرض من جهة أن أقواما فى عصر الرسول صلوات وسلامه عليه قالوا أقوالا، وفعلوا أفعالا فى الخير والشر، فنزلت بسبب الفريقين آيات حمد الله فيها المحسنين وأثنى عليهم ووعدهم جزيل ثوابه، وذم المسيئين ووعدهم وبيل عقابه، فعمد كثير من المفسرين إلى تلك العمومات فنسبوها إلى أولئك الأشخاص وقالوا: إنهم المعنيون بها، وكذلك الحال فى أحكام وقعت فى القرآن كان بدوّ افتراضها أفعال ظهرت من أقوام، فأنزل الله بسببها أحكاما صارت شرائع عامة إلى يوم القيامة.

فلم يكن من الصواب إضافتها إليهم وأنهم هم المرادون بها إلا على وجه ذكر سبب النزول فقط، وأن تناولها لهم ولغيرهم تناول واحد(١)، فمن التقصير القبيح أن يقال فى قوله تعالى: ﴿**ياأيها الناس اعبدوا ربكم**﴾(٢) إن المراد بالناس أهل مكة(٣)، فيأتى إلى لفظ «من» أشمل ألفاظ العموم أريد به الناس كلهم، عربهم وعجمهم قرنا بعد قرن إلى أن يطوى الله الدنيا، فيقول: المراد به أهل مكة. نعم هم أسبق وأول من أريد به، إذ كانوا هم المواجهين بالخطاب أولا، وهذا كثير فى كلامهم، كقولهم: المراد بقوله: كذا وكذا أبو جهل، أو أبى بن خلف، أو الوليد بن المغيرة، أو عبد الله بن أبى، أو عبد الله بن سلام من سادة المؤمنين، كما يقولون فى

---

(١) لأن العبرة - كما يقول علماء أصول التفسير - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فما نزل بسبب حادثة معينة حدثت من شخص بعينه، يقال فيه سبب نزوله كذا لا أنه هو المراد وحده.

(٢) سورة البقرة/٢١.

(٣) هذا التفسير مروى عن علقمة والحسن البصري. انظر الكشاف للزمخشري١ /٢٢٦، وانظر التفسير الصحيح للآية في تفسير ابن كثير ١ /٨٦.

وهو يتفق مع ما ذكره ابن القيم هنا من القول بالعموم.

كل موضع ذكر فيه ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾(١) إنه عبد الله بن سلام(٢) وهذا باطل قطعا، فإن هذا مذكور فى سور مكية كسورة الرعد حيث لم يكن عبد الله بن سلام قد أسلم، ولا كان هناك.

وكذلك يقولون فى قوله: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾(٣) إن المراد به عبد الله بن أبيّ(٤)، وكان من أحسن الناس جسما.

والصواب: أن اللفظ عام فى من اتصف بهذه الصفات، وهى صحة الجسم وتمامه، وحسن الكلام، وخلوه من روح الإيمان ومحبة الهدى، وإيثاره، كخلو الخشب المقطوعة التى قد تساند بعضها إلى بعض من روح الحياة التى يعطيها النمو، أو الزيادة والثمرة، واتصافهم بالجبن والخور الذى يحسب صاحبه أن كل صيحة عليه. فمن التقصير الزائد أن يقال: إن المراد بهذا اللفظ هو عبد الله بن أبيّ، ومن هذا قولهم فى قوله تعالى: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾(٥) إنه أبو جهل بن هشام(٦)، وكذلك

---

(١) الرعد/٤٣.

(٢) هذا التفسير مروى عن مجاهد. انظر: تفسير الطبري ١٣/١٧٦، وتفسير مجاهد ص٣٣١. إلا أن في الطبري عن سعيد بن جبير أنه قيل له ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ قال: هذه السورة مكية، فكيف يكون عبد الله بن سلام؟ انظر نفس المصدرص ١٧٨. وفي الطبري عن مجاهد أيضا ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ قال: من عند الله علم الكتاب. نفس المصدر ص ١٧٧.

(٣) سورة المنافقون/٤.

(٤) قال بهذا التخصيص الرازي في تفسيره ٢٩/١٤.

وانظر التفسير الصحيح للآية المتفق مع ما قاله الإمام ابن القيم عند ابن كثير في تفسيره ٨/١٥٢.

(٥) سورة الدخان/٤٣، ٤٤.

(٦) هذا التفسير مروى عن عبد الرحمن بن زيد. انظر جامع البيان ٢٥/١٣١.

قولـه: ﴿فـلا صدّق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾[1] إنه أبو جهل[2]، وكذلك فى قوله: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾[3] إلى آخـرهـا. وكـذلـك قولـه: ﴿ولا تطع كل حلاف مهـين هماز مشاء بنميم﴾[4] إلى آخرها: إنه الوليد بن المغيرة[5]. وكذلك قوله ﴿ومن الناس من يشـترى لهو الحديث﴾[6] إنه النضر بن الحارث[7]. وفى قوله ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين﴾[8] إنها فى أناس معينين[9]، وأضعاف ذلك مما إذا طرق سمع كثير من الناس ظن أن هذا

---

(١) سورة القيامة/ ٣١، ٣٢.

(٢) هذا مأثور عن مجاهد وعبد الرحمن بن زيد. انظر جامع البيان ٢٩/٢٠٠.

(٣) سورة المطففين/ ٢٩.

(٤) سورة القلم/ ١٠، ١١.

(٥) انظر في تفسير الآية الأولى ﴿إن الذين أجرموا﴾ الآية التفسير الكبير للفخر الرازي ١٠٢/٣١ حيث ذكر أن أحد الوجوه لسبب نزولها أنها نزلت في أكابر المشركين كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم..

وانظر التفسير الصحيح للآية عند ابن كثير ٨/ ٣٧٥ حيث قال: «يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانـوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم». فالآية تعم كل مجرم هذه حاله، فلا وجه للتخصيص الذي قد يؤدي الى الجناية على هدف الآية والغرض الذي أنزلت من أجله.

أما اية القلم فذكر الرازي أيضا أن المراد بها الوليد بن المغيرة. انظر التفسير الكبير ٣٠/ ٨٤، والتفسير الصحيح لها عند ابن كثير ٨/ ٢١٧.

(٦) سورة لقمان /٦.

(٧) انـظر: الـدر المنثـور للسيوطي ٥/ ١٥٨، وانظر المعنى الصحيح للآية جامع البيان للطبري ٢١/ ٦٣.

(٨) سورة البقرة /٨.

(٩) انظر: جامع البيان ١/ ١١٦ حيث ذكر الإجماع على أنها نزلت في قوم من المنافقين، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقرر ذلك علماء الأصول، فكل آية وجد سبب لنزولها فإن معناها يشمل كل من كان له حال كحال من نزلت فيه إلى قيام الساعة، ولذلك نبه الإمام ابن كثير - بعد أن ذكر هو أيضا الإجماع على سبب النزول - على المعنى الشامل للآية حيث قال: «ولهـذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير». تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٣.

شيء أريد به هؤلاء ومضى حكمه وبقى لفظه وتلاوته، حتى قال بعض من قدم العقل على النقل وقد احتج عليه بشيء من القرآن: دعنى من كلام قيل فى أناس مضوا وانقرضوا[1]، ومن تأمل خطاب القرآن وألفاظه، وجلالة المتكلم به، وعظمة ملكه وما أراد به من الهداية العامة لجميع الأمم قرنا بعد قرن إلى آخر الدهر، وأنه جعله إنذارا لكل من بلغه من المكلفين، لم يخف عليه أن خطابه العام إنما جعل بازاء أفعال حسنة محمودة، وأخرى قبيحة مذمومة، وأنه ليس منها فعل إلا والشركة فيه موجودة أو ممكنة، وإذا كانت الأفعال مشتركة، كان الوعد والوعيد المعلق بها مشتركا، ألا ترى أن الأفعال التى حكيت عن أبى جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأضرابهم، وعن عبد الله بن أبى وأضرابه، كان لهم فيها شركاء كثيرون، حكمهم فيها حكمهم؟ ولهذا عدل الله سبحانه عن ذكرهم

---

(١) لقد جرت مناظرات بين بعض أئمة أهل السنة وبين بعض المبتدعة في مسائل عقدية كانت تنتهي دائما بظهور حجة السني الملتزم، وتهافت حجة المبتدع، كما جرى في المناظرة بين الإمام أحمد بن حنبل وبين بعض المعتزلة بين يدي المعتصم، فقد كانوا ينقطعون في كل مرة وتظهر الحجة عليهم بصريح الكتاب وصحيح السنة، وكانوا لذلك ينكرون على الإمام أحمد بن حنبل تمسكه بهما وعدم رضاه بما خالفهما، حيث كان ـ رضي الله عنه ـ يقول في كل مرة ينقطع فيها المعارض ويعجز عن الإتيان بما يؤيد مذهبه في القول بخلق القرآن: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به، فكان يصيح به ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا؟ فرد رحمه الله بقوله: وهل يقول الإسلام الا بهما؟. انظر البداية والنهاية ١٠/٣٣٣، وحلية الأولياء ٩/١٩٩.

وجرت مناظرة مماثلة بين الإمام عبد العزيز المكي، وبين بشر بن غياث المريسي، جرت بين يدي المأمون الذي أخذه المعتزلة عصا يضربون بها أهل السنّة، بعد أن لعبوا بعقله وأقنعوه ببدعتهم حتى أصبح على مذهبهم. فقد قال بشر بعد أن انقطع عن مناظرة الإمام المكي وظهرت عليه حجة الله البالغة من الكتاب والسنّة: . . . يا أمير المؤمنين عندي أشياء كثيرة إلا أنه يقول بنص التنزيل، وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مناظرتي بنص التنزيل وليناظرني بغيره. . . فقال المأمون: نقول لرجل يناظر بالكتاب والسنّة دعهما واخرج الى النظر والقياس؟ هذا ما يجوز. انظر: الحيدة ص٦٠.

وهكذا نرى أن الحجج العقلية المخالفة لنص الوحي لا تقوى على مقاومة الكتاب والسنّة فسرعان ما تتهافت ويتضح عوارها ويتبين بطلانها.

بأسمائهم وأعيانهم إلى ذكر أوصافهم وأفعالهم وأقوالهم لئلا يتوهم متوهم اختصاص الوعيد بهم وقصره عليهم، وأنه لا يجاوزهم «فعلق سبحانه الوعيد»[1] على الموصوفين بتلك الصفات دون أسماء من قامت به، إرادة لتعميم الحكم، وتناوله لهم ولأمثالهم ممن هو على مثل حالهم. وهكذا الحكم فيمن اثنى عليه ومدحه بما صدر منه من قول أو فعل، عدل سبحانه عن ذكره باسمه وعينه إلى ذكره بوصفه وفعله، ليتناول المدح لمن شركه فى ذلك من سائر الناس، فإذا حمل السامع قوله ﴿**والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون**﴾[2] وقوله: ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون**﴾[3] ونظائرهما على أبى بكر الصديق أو عليّ بن أبى طالب، فقد ظلم اللفظ والمعنى وقصر به غاية التقصير، وإن كان الصديق أول وأولى من دخل فى هذا اللفظ العام وأريد به. ونظير ذلك ما ذكره بعضهم فى قوله: ﴿**إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا**﴾ إلى قوله: ﴿**يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا**﴾[4] أن المراد بذلك عليّ بن أبى طالب[5]،

---

(١) هذه العبارة مكررة في «ل».

(٢) سورة الزمر/٣٣.

(٣) سورة الحديد/١٩.

(٤) سورة الإنسان/٥ـ٨.

(٥) قال بهذا الواحدي في كتابه: «البسيط» ذكر ذلك الرازي، وأورد الزمخشري القصة التي يقال: إنها كانت سببا لنزول هذه الآيات، وأوردها الرازي نقلا عنه. انظر التفسير الكبير ٢٤٤/٣٠، والكشاف للزمخشري ١٩٦/٤.

وأوردها الإمام ابن كثير نقلا عن ابن الأثير، ووصف إسناد القصة بأنه مظلم، ثم ساقها وقال بعد الفراغ منها: وهذا الحديث منكر، ومن الأئمة من يجعله موضوعا، ويسند ذلك الى ركاكة ألفاظه، وأن هذه السورة مكية، والحسن والحسين ـ وهما مدار القصة ـ إنما ولدا بالمدينة. انظر البداية والنهاية ٥/٣٢٩ـ٣٣٠. وقد ذكر ابن المطهر الحلي هذه القصة وأنها سبب نزول هذه الآيات، وهي من أدلة الشيعة على أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة. انظر منهاج الكرامة في مقدمة منهاج السنّة النبوية ١/١٥٨ـ١٦٠.

وانظر الرد عليه في منهاج السنّة للإمام ابن تيمية ٢/٤٨ـ٥١.

فجمع إلى حمل هذا اللفظ العام المجاهرة بالكذب والبهت فى دعواه نزولها فى عليّ، فإن السورة مكية، وعليّ كان بمكة فقيراً قد رباه النبي ﷺ فى حجره، فإن أبا طالب لما مات اقتسم بنو عبد المطلب أولاده، لأنه لم يكن له مال، فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً ورباه عنده، وضمه إلى عياله، فكان فيهم(١)، ومن تأمل هذه السورة علم يقيناً أنه لا يجوز أن يكون المراد بألفاظها العامة إنساناً واحداً، فإنها سورة عجيبة البيان، افتتحت بذكر خلق الإنسان ومبدأه وجميع أحواله من بدايته إلى نهايته، وذكر(٢) أقسام الخلق في أعمالهم واعتقاداتهم ومنازلهم من السعادة والشقاوة، فتخصيص العام فيها بشخص واحد ظلم، وهضم ظاهر للفظها ومعناها، وشبيه بهذا ما ذكره بعضهم فى قوله تعالى: ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها**﴾(٣) أنها نزلت فى أبي بكر الصديق وابنه عبد الرحمن(٤) ونظيره ما تقدم من تفسير قوله ﴿**محمد رسول الله**﴾ إلى آخر الآية، وقسمة جُمَلِها بين العشرة من الصحابة، ومن تأمل ذلك علم أن هذا تفسير مختل، مخل بمقصود الآية معدول به عن سنن الصواب.

وهذا باب يطول تتبعه جدا، ولو أن الذين ارتكبوا ما ذكرنا من التفاسير المستكرهة المستغربة، وحملوا العموم على الخصوص، وأزالوا لفظ الآية عن موضوعه، علموا مافى ذلك من تصغير شأن القرآن، وهضم معانيه من النفوس، وتعريضه لجهل كثير من الناس بما عظم الله قدره وأعلى خطره، لأقلوا مما استكثروا منه، ولزهدوا فيما أظهروا الرغبة فيه، وكان ذلك من فعلهم أحسن وأجمل، وأولى بأن يوفى معه القرآن بعض حقه من الإجلال والتعظيم والتفخيم، ولو لم يكن فى حمل تفسير القرآن على

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١/٢٥٠.
(٢) في «ل» «وذكره» ولعل الصواب حذف الهاء كما أثبت.
(٣) سورة الأحقاف/١٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١٧، ١٩. والتفسير الكبير للرازي ٢٧/١٩، ٢٣.

الخصوص دون العموم إلا ما يتصوره التالى له فى نفسه من أن تلك الآيات إنما قصد بها أقوام من الماضين دون الغابرين(١)، فيكون نفعه وعايدته على البعض دون البعض، لكان فى ذلك ما يوجب النفرة عن ذلك، والرغبة عنه، وبحكمة بالغة عدل الرب تعالى عن تسمية من ذكر هؤلاء أنه مراد باللفظ إلى ذكر الأوصاف والأفعال التى يأخذ كل واحد منها حظه، ولو سمى سبحانه أصحابها بأسمائهم لقال القائل: لست منهم.يوضح ذلك:

الـوجه الخامس والثلاثون: أن ألفاظ القرآن التى وقعت فى باب الحمد والذم وقعت بما فيها من الفخامة والجلالة عامة، وكان عمومها من تفخيمها وجلالة قدرها وعظمة شأنها، وذلك أن من شأن من يقصد تفخيم كلامه من عظماء الناس أن يستعمل فيه أمرين:

أحـدهما: العدول بكلامه عن الخصوص إلى العموم، إلى حيث تدعو الحاجة إلى ذكر الخصوص لأمر لابد منه، ليكون خطابه كليا شاملا يدخل تحته الخلق الكثير، وكلما كان الداخلون تحت خطابه أعم وأكثر، كان ذلك أفخم لكلامه، وأعظم لشأنه، فأين العظمة والجلالة فى قوله: ﴿**ياأيها الناس اعبدوا ربكم**﴾(٢) إلى العظمة فى قوله: ياأهل مكة اعبدوا ربكم. فمن فخامة الكلام وجلالة المتكلم به أن يدخل فى اللفظة الواحدة جميع ما يصلح «لها»(٣) فيدل باللفظ القصير على المعانى الكثيرة العظيمة، فيجمع إلى العموم الإيجاز، والاختصار، والبيان، وحسن الدلالة، «فيأتى»(٤) بالمعنى طبق اللفظ، لا يقصر عنه، ولا يوهم غيره. ومن علم

---

(١) في الهامش: الغابر هو المستقبل. وقال في اللسان: غبر الشيء يغبر غبورا: مكث وذهب. وغبر الشيء يغبر أي بقي، والغابر: الباقي. والغابر: الماضي، وهو من الأضداد. انظر: لسان العرب مادة «غبر».

(٢) سورة البقرة/ ٢١.

(٣) في «ل» (له) ولعل ما أثبت هو الصواب لأن الضمير يعود على «اللفظة».

(٤) في «ل»: (فتأتي) ولعل الصواب ما أثبت.

هذا وتدبر القرآن، وصرف إليه فكره، علم أنه لم يقرع الأسماع قط كلام أوجز، ولا أفصح، ولا أشد مطابقة بين معانيه وألفاظه منه، وليس يوجد فى الكتب المنزلة من عند الله كتاب جمعت ألفاظه من الإيجاز والاختصار والإحاطة بالمعانى الجليلة والجزالة والعذوبة وحسن الموقع من الأسماع والقلوب ما تضمنته ألفاظ القرآن، وقد شهد له بذلك أعداؤه[1]، وسمع بعض الأعراب قارئا يقرأ ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾[2] فسجد، فقيل له: ليست بآية سجود، فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام، فإذا تأملت طريقته وجدتها طريقة مخاطبة ملك الناس كلهم لعبيده ومماليكه.

وهذا أحد الدلائل الدالة على أنه كلامه الذى تكلم به حقيقة لا كلام غيره من المخلوقين، وإذا كان النبى ﷺ قد أوتى جوامع الكلم، وبين كلامه وكلام الله مالا يحصره نسبة، فكيف يجوز فى الأوهام والعقول أن تحمل جوامع كلمات الرب تعالى على ما يناقض عمومها، ويحطها من مرتبة عظمة العموم « . . . . »[3] وجلالة شأنه إلى حضيض الخصوص. بل الواجب أن يقال: إن خطاب الله عز وجل فى كل ما أمر به ونهى عنه وحمد أو ذم عليه، ووعد عليه بثوابه وعقابه، خرج ذلك كله مخرجا عاما كليا بحسب ما تقتضيه جلالة الربوبية، ومرتبة الملك والسلطان العام لجميع الخلق، ولو ترك المتأولون ألفاظه تجرى على دلائلها الكلية، وأحكامها العامة، وظواهرها المفهومة منها، وحقائقها الموضوعة لها، لأفادتهم اليقين،

---

(١) فقد وصفه الوليد بن المغيرة ـ حين سمعه من النبي ﷺ فلامه أبو جهل على ذلك وطلب منه أن يقول فيه قولا يبلغ قومه أنه منكر له وكاره ـ فقال: وماذا أقول؟، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته. انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٤٤٦.

(٢) سورة الحجر/٩٤.

(٣) كلمة غير واضحة.

وجزموا بمراد المتكلم بها، ولانحسرت بذلك مواد أكثر التأويلات الباطلة والتحريفات التى تأباها العقول السليمة، ولما تهيأ لكل مبطل أن يعمد إلى آيات من القرآن فينزلها على مذهبه الباطل ويتأولها عليه، ويجعلها شاهدة له، وهى فى التحقيق شاهدة عليه، ولسلم القرآن والحديث من الآفات التى جناها عليهما المتأولون، وألصقها بهما المحرفون، والله المستعان.

فهذا ما يتعلق بقوله: إن الأدلة النقلية موقوفة على العلم بعدم التخصيص بالأزمنة، والأمكنة والأشخاص.

الوجه السادس والثلاثون: قوله: وعدم الإضمار، يقال: الإضمار على ثلاثة أنواع:

نوع يعلم انتفاؤه قطعا وأن إرادته باطلة، وهو حال أكثر الكلام، فإنه لو سلط عليه الإضمار فسد التخاطب، وبطلت العقود، والأقارير والطلاق، والعتاق، والوصايا، والوقوف والشهادات، ولم يفهم أحد مراد أحد، إذ يمكنه أن يضمر كلمة بغير المعنى، ولايدل المخاطب عليها. وباب الإضمار لا ضابط له، فكل من أراد إبطال كلام متكلم ادعى فيه إضمارا يخرجه عن ظاهره، فيدعى ملحد الإضمار فى قوله: ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾(١) أى وكلم ملك الله موسى، ويدعى فى قوله: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾(٢) إضمار ملك الرحمن، كما ادعى بعضهم الإضمار فى قوله: «ينزل ربنا»(٣) أى ملك ربنا.

---

(١) سورة النساء/١٦٤.

(٢) سورة طه / ٥.

(٣) يشير الى حديث النزول وهو قوله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول: «من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» رواه مالك في الموطأ، كتاب القرآن «باب ما جاء في الدعاء» ح (٣٠)١/ ٢١٤، وعنه رواه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد «باب الدعاء والصلاة من آخر الليل» ح (١١٤٥)٣/ ٢٩. وكتاب التوحيد، «باب قوله تعالى: ﴿**يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾ ح(٧٤٩٤)١٣/ ٤٦٤. ومسلم، كتاب صلاة المسافرين «باب الترغيب والذكر في آخر الليل والإجابة فيه» =

وفى قوله: ﴿وجاء ربك﴾[1] أى ملك ربك، ولو علم هذا القائل أنه قد نهج الطريق، وفتح الباب لكل ملحد على وجه الأرض، وزنديق وصاحب بدعة يدعى فيما يحتج به لمذهبه عليه إضمار كلمة أو كلمتين، نظير ما ادعاه غيره، لاختار أن يخرس لسانه، ولا يفتح هذا الباب على نصوص الوحى فإنه مدخل لكل ملحد ومبتدع ومبطل لحجج الله من كتابه، ومن رأى ما أضمره المتأولون من الرافضة والجهمية والقدرية والمعتزلة مما حرفوا به الكلم عن مواضعه، وأزالوه به عن ماقصد له من البيان والدلالة، علم أن لهم أوفر نصيب من مشابهة أهل الكتاب، الذين ذمهم الله بالتحريف واللى والكتمان[2] أفترى يعجز الجهمى عن الإضمار فى قوله: (إنكم ترون

= ح (٧٥٨)١/٥٢١. وهو حديث كثير الطرق متواتر من جهة النقل كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ١٢٨/٧. وهو من أدلة السلف على إثبات صفة النزول على ما يليق بجلاله وعظمته، وأن نزوله لا يشبه نزول المخلوق، فهو سبحانه مستو على عرشه بائن من خلقه كما أخبر، وينزل كل ليله الى سماء الدنيا، وينزل عشية عرفة، وينزل يوم القيامة لفصل القضاء، ولا منافاة بين استوائه سبحانه، وعلوه على عرشه، وبين نزوله نزولا يليق بجلالته وعظمته، لا نعلم كيفيته، ولا ندرك كنهه.

وكما يدل هذا الحديث على إثبات صفة النزول فإنه يدل على إثبات صفة العلو، ولذلك استدل به السلف عليه. انظر: إثبات صفة العلو لابن قدامه بتحقيقي ح (٩٧).

وما ذكره الإمام ابن القيم هنا يشير الى موقف المبتدعة من أرباب الكلام الذين نهجوا منهج التأويل لكل نص دل على إثبات صفة، وهو موقف الأشاعرة على اختلاف بينهم في بعض ذلك، وموقف الجهمية والمعتزلة جميعا.

(١) سورة الفجر/٢٢.

(٢) كما قال تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ النساء/٤٦، وقال: ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ آل عمران/٧٨.

وقال سبحانه: ﴿ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ آل عمران/٧١.

فيريد الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن تأويلات المؤولين لنصوص القرآن والسنّة موقف مشابه لموقف أهل الكتاب من الحق الذي يعلمون، فحادوا عنه بالتحريف واللى والكتمان، لأن =

ربكم عيانـا)؟[1] فيضمر ملك ربكم ونعيمه وثوابه ونحو ذلك، ويعجز الملحد عن الإضمار فى قوله: ﴿**وأن الله يبعث من فى القبور**﴾[2] أى أرواح من فى القبور[3]، وإذا انفتح سد يأجوج ومأجوج أقبلوا من كل حدب ينسلون؟.

النوع الثانى: مايشهد السياق والكلام به، فكأنه مذكور فى اللفظ وإن حذف اختصـارا، كقـولـه تعـالى: ﴿**أن اضرب بعصـاك البحـر فانفلق**﴾[4] فكل أحد يعلم أن المعنى: فضربه فانفلق. فذكره نوع من بيان الواضحات. فكان حذفه أحسن فإن الوهم لايذهب إلى خلافه.

= القول بعدم إرادة المعنى الذي يدل عليه اللفظ تحريف للكلم عن مواضعه ولي لألفاظه بتحميلها مالا تحتمل، مما لا دليل عليه.

(١) تقدم تخريج هذا الحديث في الجزء الأول ص٨٤، ويشير المصنف رحمه الله بهذا الى مذهب الأشاعرة المتناقض المضطرب حيث اختلفوا في الصفات فتباينت مواقفهم منها، إلا أنهم أجمعوا على إثبات الرؤية ولم يجوزوا تأويل نصوصها، مع أنهم يجوزون تأويل نصوص الصفات، بل قال بعضهم بوجوب ذلك، فيوضح الإمام ابن القيم أن ماسلكوه من تأويل هناك فتح الباب على مصراعيه هنا، وليس لهم أي وجه للمنع لأن من أراد تأويل الرؤية ممن نفاها كالجهمية والمعتزلة يسكتهم إذا هم اعترضوا بأن ما جاز هناك جاز هنا ولا فرق، فلا يستطيع الأشعري أن يرد على من خالفه لاشتراكه معه في أصل إجازة التأويل وفتح بابه لمن أراد التحريف.

(٢) سورة الحج/٧.

(٣) يشير الى مذهب الفلاسفة القائلين بالبعث الروحاني فقط كابن سينا وابن رشد وأمثالهم، إذ يرون أن ماجاء به الشرع، إنما هو من باب الوهم والتخييل ومخاطبة الجمهور بما يفهمونه، مقربا مالا يفهمـونه الى أفهامهم بالتشبيه والتمثيل، ولذلك لا يرون الاستبدال بظاهر الشرع في هذا الباب. انظر: مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ـ بتحقيق الدكتور محمود قاسم ص٢٤٣، ورسالة أضحويه في أمر المعاد لابن سينا ص٨٩.

ويريد الإمام ابن القيم أن من فتح باب التأويل لا يستطيع الرد على هؤلاء، لأن بإمكانهم أن يحتجوا عليهم بأنهم إنما صرفوا دلالة النصوص على البعث بنفس الطريقة التي صرف بها المؤولة نصوص الصفات عن دلالتها على إثبات الصفات، لأنه ما جاز في نص من نصوص الوحي جاز في ما هو مثله من النصوص الأخرى ولا فرق، وهذا باب من الشر فتحه المؤولة لكل ملحد يريد العبث بنصوص الوحي.

(٤) سورة الشعراء/٦٣.

وكـذلك قوله تعالى: ﴿**وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعـرفـونها إذا انقلبـوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون فلما رجعوا إلى أبيهم**﴾[(١)] فكل أحد يفهم من هذا السياق أنهم جعلوها فى رحالهم، وأنهم وصلوا بها إلى أبيهم.

ومثل هذا فى القرآن كثير جدا، وفهم الكلام لايتوقف على أن يضمر فيه ذلك مع أنه مراد ولابد، فكيف يتوقف فهم الكلام الذى لا دليل فيه على الإضمار بوجه وهو كلام مفيد قائم بنفسه، معط لمعناه، على دليل منفصل يدل على أن المتكلم لم يضمر فيه خلاف ما أظهره؟!.

وهل يتوقف أحد من العقلاء فى فهم خطاب غيره له على هذا الدليل أو يخطر بباله؟.

والنوع الثالث: كلام يحتمل الإضمار ويحتمل عدمه، فهذا إذا قام الدليل على أن المتكلم به عالم ناصح مرشد، قصده البيان والهدى والدلالة والإيضاح بكل طريق، وحسم مواد اللبس ومواقع الخطأ، وأن هذا هو المعروف المألوف من خطابه وأنه اللائق بحكمته، لم يشك السامع فى أن مراده مادل عليه ظاهر كلامه، دون مايحتمله باطنه من إضمار ما لم يجعل للسامع عليه دليلاً، ولا له إلى معرفته سبيلا، إلا أن يجوز عليه أنه أراد منه ذلك وكلفه مالا يطيق وعرضه للعناء والمشقة، والْغَز له، ولم يقصد البيان، ولا نكير على من ظن ذلك فى المتكلم أن يظن بكلامه ماهو مناسب لظنه به. يوضحه:

الوجه السابع والثلاثون: أن الاضمار هو الإخفاء، وهو أن يخفى المتكلم فى نفسه معنى ويريد من المخاطب أن يفهمه، فهذا إما أن يجعل له عليه دليلا من الخطاب أولا، فإن جعل له عليه دليلا من السياق لم يكن ذلك إضمارا محضا، بل يكون قد أظهره له بما دله عليه من السياق، ودلالة

---

(١) سورة يوسف/٦٢، ٦٣.

اللفظ قد تحصل من صريحه تارة ومن سياقه، ومن قرائنه المتصلة به، فهذا لا محذور فيه إذ كان المخاطب قد دل السامع على مقصوده ومراده، وان لم يجعل له عليه دليلا فإنه لم يقصد بيانه له، بل عدل عن بيانه إلى بيان المذكور، فلا يقال: إن كلامه دل عليه بالإضمار فإن هذا كذب صريح عليه، فتأمله فإنه واضح.

الوجه الثامن والثلاثون: قوله: وعدم التقديم والتأخير. فهذا أيضا من نمط ماقبله، فإن نظم الكلام الطبيعى المعتاد الذى علمه الله للإنسان نعمة منه عليه، أن يكون جاريا على المألوف المعتاد منه، فالمقدم مقدم، والمؤخر مؤخر، فلا يفهم أحد قط من المضاف والمضاف إليه فى لغة العرب إلا تقديم هذا وتأخير هذا، وحيث قدموا المؤخر من المفعول ونحوه وأخروا المقدم من الفاعل ونحوه، فلابد أن يجعلوا فى الكلام دليلا على ذلك لئلا يلتبس الخطاب، فإذا قالوا: ضرب زيداً عمرو لم يكن فى هذا التقديم إلباس، فإذا قالوا: ضرب موسى عيسى لم يكن عندهم المقدم إلا الفاعل، فإذا أرادوا بيان أنه المفعول أتوا بما يدل السامع على ذلك من تابع منصوب يدل على أنه مفعول، فلا يأتون بالتقديم والتأخير إلا حيث لا يلتبس على السامع ولا يقدح فى بيان مراد المتكلم، كقوله تعالى: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات**﴾[1] وقوله: ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها**﴾[2]، وقوله: ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾[3] وقوله: ﴿**إن في ذلك لآية**﴾[4]، وقوله: ﴿**وما كان جواب قومه إلا أن قالوا**﴾[5] ونحوه، فهذا من التقديم الذى لايقدح فى المعنى ولا فى الفهم، وله أسباب تحسنه وتقتضيه مذكورة فى علم

---

(١) سورة البقرة/ ١٢٤.
(٢) سورة الحج/ ٢٧.
(٣) سورة الروم/ ٤٧.
(٤) سورة آل عمران/ ٤٩.
(٥) سورة الأعراف/ ٨٢.

المعانى والبيان، وأما ما يدعى من التقديم والتأخير فى غير ذلك، كما يدعى من التقديم فى قوله: ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾[١] وأن هذا قد تقدم فيه جواب لولا عليها، فهذا أولاً لا يجيزه النحاة، ولا دليل على دعواه، ولا يقدح فى العلم بالمراد. وكذلك ما يدعون من التقديم والتأخير فى قوله: ﴿**قال اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون**﴾[٢] قالوا تقديره: فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم، فكأنهم لما فهموا من قوله ﴿**تول عنهم**﴾ مجيئة إليه ذاهبا عنهم، احتاجوا إلى أن يتكلفوا ذلك، وهذا لا حاجة إليه وإنما أمره بما جرت به عادة المرسل كتابه إلى غيره ليعلم مايصنع به، أو يعطيه الكتاب ثم ينعزل عنه حتى ينظر ماذا يقابله به، وليس مراده بقوله ﴿**تول عنهم**﴾ أى أقبل إلى، ولو أراد ذلك لقال: فألقه إليهم وأقبل.

وقد علم من كونه رسولا له أنه لابد أن يرجع إليه، فليس فى ذلك كبير فائدة، بخلاف أمره بتأمله أحوال القوم عند قراءة كتابه، وقد انعزل عنهم ناحية. والتقديم والتأخير نوعان:

نوع يُخلّ تقديم المؤخر وتأخير المقدم فيه بفهم أصل المعنى، فهذا لايقع فى كلام من يقصد البيان والتفهيم، وإنما يقع فى الألغاز والأحاجى، وما يقصد المتكلم تعمية المعنى فيه، وقد يقع بسبب شدة الاختصار وضيق القافية عن الترتيب المفهم، كقول الفرزدق[٣]:

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه[٤]

---

(١) سورة يوسف/ ٢٤.

(٢) سورة النمل/ ٢٨.

(٣) همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان البصرى الشاعر المعروف بالفرزدق. توفى سنة عشر ومائة، قبل جرير بأربعين يوما. انظر البداية والنهاية ٩/٢٦٥-٢٦٦.

(٤) انظر العقد الفريد ٥/٣٩٢.

فهذا شبيه باللغز، ومعناه: ما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه.

وهذا النوع لا يقع فى كلام الله ولا رسوله.

النوع الثانى: التقديم والتأخير الذى لا يخل بأصل المعنى، وإن أخل بالغرض المقصود، فيكون مراعاته من باب إخراج الكلام على مقتضى الحال، وهذا هو الذى يتكلم عليه علماء المعانى والبيان.

قال سيبويه:[1] - وهو يذكر الفاعل والمفعول - كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعْنى، وإن كانا جميعا يهمانهم، ويعنيانهم[2]. انتهى كلامه.

وهذا يقع فى باب الاستفهام والنفى والمبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول، فمن ذلك أنك إذا قلت: أفعلت كذا؟ وبدأت بالفعل، كان الشك فى الفعل نفسه، وكان الغرض بالاستفهام علمك بوجوده. وإذا قلت: أنت فعلت كذا؟ فبدأت بالاسم، كان الشك فى الفاعل من هو؟، وكان التردد فيه. ففرق بين قولك: أكتبت الكتاب؟، وبين قولك: أأنت كتبته؟، وهذا كما أنه قائم فى الاستفهام، فكذلك هو فى التقرير. فإذا قلت: أنت فعلت هذا؟، كان المقصود تقريره بأنه هو الفاعل، كما قال قوم إبراهيم له: ﴿**أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم**﴾[3] ولم يكن مرادهم السؤال عن الفعل هل وجد أم لا، ولو أرادوا ذلك لقالوا: أكسرت

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثى بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، لزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتابه المسمى «كتاب سيبويه» فى النحو. ولد سنة (١٤٨هـ)، واختلف فى تاريخ وفاته، فقيل سنة ١٨٠هـ وقيل غيرها. انظر الأعلام للزركلى ٥/٢٥٢، وطبقات النحويين واللغويين لأبى بكر الزبيدى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف بمصر بدون تاريخ.

(٢) كتاب سيبويه ١/٣٤، تحقيق عبدالسلام هارون، ط دار القلم سنة ١٣٨٥هـ.

(٣) سورة الأنبياء/ ٦٢.

أصنامنا؟ وإنما مرادهم السؤال عن الفاعل، ولهذا كان الجواب قوله: ﴿**بل فعله كبيرهم هذا**﴾(١) فالقائل: أفعلت، سائل عن الفعل من غير تردد بين الفاعل وغيره، وإذا قال: أنت فعلت، كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره، ولم يكن منه تردد فى نفس الفعل. ومن هذا استفهام الإنكار كقوله تعالى: ﴿**أفأصفاكم ربكم بالبنين**﴾(٢)، وقوله: ﴿**أصطفى البنات على البنين**﴾(٣)، وقوله: ﴿**أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**﴾(٤) فهذا إذا قدم الاسم فيه استحال الكلام من انكار الفعل إلى الانكار فى الفاعل، مثل: ﴿أأنت قلت للناس﴾(٥) ﴿**آالله أذن لكم**﴾(٦) وقول أهل النار: ﴿**أنحن صددناكم عن الهدى**﴾(٧) فهذا سؤال عن فعل وقع، فتوجه الإنكار إلى نسبته إلى الفاعل الذى نسب إليه، وهذا كما إذا بلغك قول عن من لم تكن تظنه به قلت: أفلان قال ذلك؟ وأما قوله تعالى: ﴿**ءالذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين**﴾(٨) فإن الإنكار وإن توجه إلى نفس التحريم والمراد إنكاره من أصله، فإنه خطاب لمن قد أثبت تحريما فى أشياء حلا فى نظائرها، فسئل عن المحرم أهو هذا فيشمل التحريم نظيره مما حلله، أو الآخر فيشمل نظيره أيضا، فكأنهم قيل لهم: أخبرونا عن هذا التحريم الذى زعمتم فيم هو، أفى هذا، أم فى ذاك، أم فى الثالث؟ ليتبين بطلان قولهم، وتظهر فريتهم على الله، وهذا كما تقول لمن يدعى أمرا وأنت تنكره: متى كان هذا، فى ليل أم نهار؟، وكذلك

---

(١) سورة الأنبياء/ ٦٣.
(٢) سورة الاسراء/ ٤٠.
(٣) سورة الصافات/ ١٥٣.
(٤) سورة الزخرف/ ٤٥.
(٥) سورة المائدة/ ١١٦.
(٦) سورة يونس/ ٥٩.
(٧) سورة سبأ/ ٣٢.
(٨) سورة الأنعام/ ١٤٣، ١٤٤.

تقول: من أمرك بهذا، ومن أذن لك فيه؟، وأنت لا تريد أن امرءاً أمره به، وأذن له فيه، ولكن أخرجت الكلام مخرج من كأنه قد يترك مع مخاطبه إلى أن ذلك قد كان، ثم طالبه عينه ووقته ومكانه والأمر به، لكى يضيف عليه الجواب، ويظهر كذبه، حيث لا يمكنه أن يحيل على شىء مما سئل عنه فيفتضح، وكذلك إذا قلت: أتفعل كذا؟ كنت مستفهما له عن نفس الفعل، وإذا قلت: أأنت تفعل كذا؟ كنت مستفهما له عن كونه هو الفاعل. فقوله تعالى: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾(١)، مخرجه غير مخرج قوله: ﴿**أتقولون على الله مالا تعلمون**﴾(٢)، وقوله: ﴿**أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه**﴾(٣) وقوله: ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾(٤)، فأنت تجد تحت قولك: أأنت الذى تقهرنى؟ أن القاهر لى غيرك لا أنت، وكذلك قوله: ﴿**أفأنت تكره الناس**﴾ ﴿**أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى**﴾(٥).

وكذلك الشأن فى تقديم المفعول وتأخيره، كقوله تعالى: ﴿**قل أغير الله أتخذ وليا**﴾(٦) ﴿**أفغير الله أبتغى حكما**﴾(٧) وقوله: ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون**﴾(٨) فلو أخر لكان الاستفهام عن مجرد الفعل، فلما قدم كان الاستفهام عن الفعل، وكون المفعول المقدم مختصا به. وكذلك قولهم ﴿**أبشرا منا واحدا نتبعه**﴾(٩) لما كان الإنكار متوجها إلى كون المتبوع بشراً،

---

(١) سورة يونس/ ٩٩.
(٢) سورة الأعراف/ ٢٨، ويونس/ ٦٨.
(٣) سورة القيامة/ ٣.
(٤) سورة هود/ ٢٨.
(٥) سورة الزخرف/ ٤٠.
(٦) سورة الأنعام/ ١٤.
(٧) سورة الأنعام/ ١١٤.
(٨) سورة الأنعام/ ٤٠، ٤١.
(٩) سورة القمر/ ٢٤.

وأنه منهم، وأنه واحد ورموه[1]، ولم يقع إنكارهم على مجرد الاتباع، فى قوة كلامهم: أنه لو كان ملكا، أو من غيرنا، لا تلحقنا غضاضة برياسته علينا أو عصبة كثيرة لاتمنع من متابعتهم لاتبعناهم، وكذلك التقديم يولد التأخير فى النفى، فإذا قلت: ما فعلت، كنت قد نفيت عنك الفعل، ولم تتعرض لكونه فعل أو لم يفعل، وإذا قلت: ما أنا فعلت، كنت قد نفيته عن نفسك مدعيا بأن غيرك فعله. ومن ههنا كان ذلك تعريضا بالقذف يوجب الحد فى أصح القولين، وبه عمل الصحابة فى قول القائل: أنا زنيت؟ كما رفع إلى عمر بن الخطاب رجل لاحى[2] آخر فقال: ما أنا بزان، ولا أمى بزانية، فضربه الحد[3]، وهذا مذهب مالك وأحمد فى إحدى الروايتين عنه [4]. وكذلك إذا قلت: ما ضربت زيدا، كنت قد نفيت الضرب لزيد عنك، ولم تتعرض لضرب وقع منك على غيره نفيا وإثباتا، وإذا قلت: ما زيدا ضربت، كنت مفهما أن الضرب قد وقع منك على إنسان غير زيد، وكذلك الأمر فى المبتدأ والخبر، فهذا التقديم والتأخير يرجع إلى إيراد الكلام على مقتضى الحال التى يقصدها المتكلم. ومن عرف أسلوب كلام العرب وطريقتهم فى كلامهم، فهم أحكام التقديم والتأخير، وهذا غير مخرج لاستفادة السامع اليقين من كلام المتكلم، ولا توقف لفهمه على دليل يدل على أنه أراد تأخير ماقدمه، وتقديم ما أخره ليفهم خلاف المعنى الظاهر من كلامه.

---

(١) أي رموه بما هو برىء منه من عظائم التهم.

(٢) لاحى: نازع وشاتم. انظر اللسان مادة «لحا».

(٣) موطأ مالك، كتاب الحدود «باب الحد فى القذف والنفى والتعريض» ٢/ ٨٢٩، ومصنف عبد الرزاق ح(١٣٧٢٥) ٧/ ٤٢٥، والسنن الكبرى للبيهقى ٨/ ٢٥٢.

(٤) انظر: مذهب مالك فى الموطأ ٢/ ٨٣٠، والقوانين الفقهية لابن جزى ص٣٠٦، وانظر عن مذهب أحمد «المغنى لابن قدامة» ٨/ ٢٢٢.

الوجه التاسع والثلاثون:[1] قوله: وموقوف على نفى المعارض العقلى، لئلا يفضى إلى القدح فى الفعل الذى يفتقر إليه النقل.

جوابه: أنّا لا نسلم أن القدح فيما عارض النقل من المعقول قدح فيما يحتاج إليه النقل، فإن صحة النقل. . .[2].

لاشىء عنده بإثبات موجود لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا فوقه، ولا تحته[3]. وتأمل دلائلهم على ذلك يتبين لك أن العقل الصريح مع رسل الله كما معهم الوحى الصحيح، وتأمل أقوالهم على تناقضها واختلافها فى كلامه[4]، كيف تجدها مخالفة لصريح العقل مخالفة بينة، ودلائلهم على تلك الأقوال المختلفة أبطل منها، وكيف يجد العقل الصريح «شهد»[5] بما جاءت به الرسل، أن الله سبحانه تكلم

---

(١) فى «ل» الثامن والثلاثون. وهو خطأ فى الترقيم.

(٢) هنا سقط فى الكلام نبه عليه الناسخ فى الهامش بقوله: سقط من هاهنا شىء.

(٣) هذا القول اشتهر عن المعتزلة والأشاعرة، حيث نفوا علو الله تبارك وتعالى بهذه الطريقة التى تؤدى فى واقعها إلى نفى وجوده سبحانه.

انظر: لمع الأدلة للجوينى ص٩٤، ومقالات الإسلاميين للأشعرى ١/٢٣٧، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢/٢٩٧.

وفى وصف هذا المذهب وبيان أصله قال أستاذنا الدكتور/ محمد خليل هراس ـ رحمه الله ـ: كان قدماء الجهمية قبل أن يتفلسفوا يقولون: إن الله فى كل مكان. . . ولما ترجمت الفلسفة إلى العربية ووجدوا بعض الفلاسفة من العقليين يثبتون نوعا من الموجودات يسمونه المجردات، وينفون عنها المكان، والجهة، والصورة، إلى غير ذلك، جعلوا الله عز وجل واحدا من هذه الموجودات التى هى فى الحقيقة معدومات، فقالوا: ليس له مكان. انتهى. انظر هامش كتاب التوحيد لابن خزيمة ص١١٢-١١٣.

(٤) ذكر شارح الطحاوية أقوال الناس فى كلام الله تعالى وهى تسعة. انظر: شرح الطحاوية ص١١٧-١١٨. تاسعها هو القول الصحيح الذى عليه أئمة الحديث والسنّة، وهو ما يتفق مع صحيح النقل وصريح العقل، وهو ما حرره المصنف فيما سيأتى على أنه المذهب الحق الذى لا يجوز القول بخلافه. وانظر عن اختلاف المخالفين فى مسألة الكلام: مجموع الفتاوى ١٢/١٦٢-١٧٢.

(٥) فى «ل» (أنا شهد) وقد حذفت «أنا» ليستقيم الكلام.

بكلام سمعه منه جبريل، وبلغه إلى من أمر بتبليغه(١)، وكلم نبيه موسى(٢)، وكلم ملائكته بكلام حقيقى سمعوه منه(٣)، وأنه يتكلم بمشيئته وإرادته(٤)، وكل قول خالف هذا فهو خلاف العقل الصريح، وإن زخرفت له الألفاظ، ونسجت له الشبه.

وتأمل ما جاءت به النصوص أن كلماته لا نهاية لها(٥)، وهل يقتضى العقل الصريح غير ذلك؟، وتأمل ما جاءت به النصوص من شمول قدرته، ومشيئته لجميع الكائنات أعيانها وصفاتها وأفعالها(٦)، وما خالف ذلك فهو مخالف لصريح العقل.

---

(١) نص على ذلك الإمام أحمد وغيره من الأئمة، قال تعالى: ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ البقرة/ ٩٧، وقال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾ الشعراء/ ١٩٣. وقال تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ النحل/ ١٠١، ١٠٢. فأخبر سبحانه أنه نزله روح القدس ـ وهو الروح الأمين، وهو جبريل من الله بالحق.

انظر: مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٩٨.

(٢) قال تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ النساء/ ١٦٤، وقال: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ الأعراف/ ١٤٣.

(٣) قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ البقرة/ ٣٠.

وقال: ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾ البقرة/ ٣٤.

(٤) قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ يس/ ٨٢.

(٥) قال تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا﴾ الكهف/ ١٠٩.

وقال: ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ لقمان/ ٢٧.

(٦) قال تعالى فى آيات عدة: ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ البقرة/ ٢٠، ١٠٩، ١٤٨، وآل عمران/ ١٦٥. وقال تعالى: ﴿ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير﴾ آل عمران/ ٢٩. وقال: ﴿إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير﴾ هود/ ٤. وقال: ﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير﴾. وقال: ﴿يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شىء قدير﴾ النور/ ٤٥. والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا.

كما أن النصوص جاءت بأن أفعال العباد وأعمالهم واقعة باختيارهم وإرادتهم، وليست أفعالا لله، وإن كانت مفعولة له[1]، تجد ما خالف ذلك مخالفا لصريح العقل، وتأمل ما جاءت به النصوص أنه سبحانه لم يزل ملكا ربا غفورا رحيما محسنا، قادرا، لا يعجزه الفعل، ولا يمتنع عليه[2]، وكيف لاتجد ما خالف ذلك مخالفا لصريح العقل، كقول الفلاسفة: إنه لايفعل باختياره ومشيئته[3]. وقول المتكلمين: إنه كان فى الأزل إلى «حيث»[4] خلق هذا العالم معطلا عن الفعل، غير متمكن منه، والفعل

---

(١) هذا هو المذهب الحق فى أفعال العباد الذى عليه سلف هذه الأمة، وهو وحده الذى يتفق مع النصوص الشرعية.

والمصنف يشير هنا إلى مخالفة القدرية القائلين بأن العبد يخلق فعله استقلالا، والجبرية القائلين إن الله هو الخالق لأفعال العباد، ولا قدرة لهم عليها لأنهم مضطرون مجبرون.

(٢) قال تعالى: ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير﴾ الملك/١، ﴿الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد﴾ البروج/٩. ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ آل عمران/١٣٣، ﴿فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ الأنعام/٥٤، ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ النجم/٣٢. ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ الفرقان/٧٠، الأحزاب/٥. ﴿وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض﴾ فاطر/٤٤. ﴿واعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ التوبة/٢. ﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾ الأنعام/١٣٤. والآيات فى هذه المعانى كثيرة.

(٣) يرى الفلاسفة أن الله تعالى لا يفعل باختياره ومشيئته لأنهم يصفون الله تعالى بأنه علة تامة قديمة مستلزمة لمعلولها، ومعلولها هو هذا العالم الذى صدر عنه، ولا يشترط أن يسبقه عدم وزمان، فوجود هذا العالم مقارن لوجود الله تعالى. انظر: الرسالة العرشية لابن سينا ص١٣، مخطوط بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة. مع أنهم يدعون إثبات العلة الفاعلية الغائبة، ويعللون ما فى هذا العالم من الحوادث بأسباب وحكم. وهذا تناقض فاضح، ولذلك حاول ابن سينا تبريره بما لا طائل تحته. انظر: الإشارات والتنبيهات ٥٦١/٣، وانظر: رد الإمام ابن تيمية عليهم فى درء تعارض العقل والنقل ٣٣٠/١، ونقض التأسيس ١٨٣/١.

(٤) كذا فى «ل» ولعلها «حين».

مستحيل، ثم انقلب من الإحالة الذاتية إلى الإمكان الذاتى، بلا تجدد سبب اقتضى ذلك[١].

فانـظر أى هذه المـذاهب مخالفـا لصريح العقـل، كما هو مخالف لصحيح النقل، وتأمل قولهم فى الإرادة والقدرة والعلم، كيف أثبتوا إرادة لا تعقل، وقدرة لا تفعل، وعلما لا يعقل[٢]. فقابلهم طائفة من الفلاسفة. . .[٣].

ليحيى بن عدى النصرانى[٤] قولها فى الكلمة إنها لله بقول المتكلمين فى السمع والبصر والعلم والقدرة والحياة إنها نفس الذات.

---

(١) هذا هو المذهب المشهور عن جمهور المتكلمين. انظر: الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ص١٥٦، والاعتقـاد للبيهقى ص٣٢، وشرح الطحاوية ص٧٠. وهذا القول مخالف لصحيح النقـل وصريح العقـل لأن الله تعـالى يقـول: ﴿ذو العـرش المجيد، فعال لما يريد﴾ البروج/ ١٥، ١٦، ويقـول سبحـانـه: ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ آل عمران/ ٤٠، وقال تعالى: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ البقرة/ ٢٥٣.

وأصحاب هذه المقالة يعترفون بأن الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل إلا أنه لم يفعل، ولهذا يلزمهم أحد أمرين لابد لهم منهما: «إما أن يقولوا بأن الفعل لم يزل ممكنا، وإما أن يقولوا لم يزل واقعا، وإلا تناقضوا تناقضا بينا، حيث زعموا أن الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، لو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عندهم محال وهو مقدور له. وهذا قول ينقض بعضه بعضا. فالذى دل عليه الشرع والعقل أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن. أما كون الرب تعالى لم يزل معطلا عن الفعل ثم فعل، فليس فى الشرع ولا فى العقل ما يثبته، بل كلاهما يدل على نقيضه. انظر: شرح الطحاوية ص٧٤.

(٢) لأنهم قالوا بقدم هذه الصفات وملازمتها لذات البارى سبحانه أزلا وأبدا، فقالوا بكلام واحـد وقـدرة واحـدة، وإرادة واحدة، والحوادث من متعلقاتها، فلا تحدث صفة بحدوث أثرها ومتعلقها. انظر: الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٥٧-١٦٦.

(٣) هنا سقط نبه عليه الناسخ بقوله: «سقط من هنا شىء».

ولعل المقابلة المقصودة قول الفلاسفة بصدور العالم وهو المعلول عن الله تعالى وهو علته التامة عندهم، فوجود الأثر مساو لوجود المؤثر فهو قديم بقدمه. وقد سبقت الإشارة إليه.

(٤) لعله أبو زكريا يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا المنطقى، أبرز علماء المنطق والفلسفة فى عصره، وإليه انتهت رياسة أصحابه فى زمانه، ولد سنة ٢٨٠هـ، وتوفى سنة ٣٦٤هـ. قال عنه ابن النديم: ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية. الفهرست ص٣٦٩، والأعلام للزركلى ١٩٤/٩.

فانظر مخالفة هذه الطوائف لصريح العقل، وتأمل قولهم: إن السمع هو عين البصر، والبصر هو عين العلم، والكل صفة واحدة(١). فهل فى مخالفة العقل الصريح أشد من ذلك؟ وتأمل قولهم: إن الرب تعالى علة ثابتة فى الأزل لجميع «المعلولات»(٢) ووجودها فى آن واحد مستحيل، فجعلوه علة ثابتة لما هو ممتنع الوجود فى غير وقته. وهذا قول الفلاسفة(٣).

فقابلهم المتكلمون فى ذلك ولم يجعلوا الفعل ممكنا له فى الأزل بحال، ولم يفرقوا بين نوع الفعل وعينه(٤). وخالف الفريقان صريح العقل.

فتأمل قول الفريقين فى الموجب بالذات، والفاعل بالاختيار، كيف

---

(١) أجمع المعتزلة على نفى أن تكون الصفات معان زائدة عن معنى الذات، فقالوا: عالم بذاته، قادر بذاته حى بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، وكذا قالوا فى بقية الصفات الذاتية. انظر: الملل والنحل للشهرستانى ١/٤٤. وهم بهذا لا يثبتون للصفة معنى آخر غير الذات فتكون جميع الصفات بمعنى واحد لأنها ترجع جميعها إلى معنى الذات، ولذلك أشبه قولهم هذا قول النصارى فى كلمة الله تعالى التى قالوا إنها هى الله. وهذا كما ترى فى غاية المناقضة والمخالفة لصريح العقل، فضلا عن معارضته لصحيح النقل.

(٢) فى «ل» (المعلومات) ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) انظر الرد عليهم فى درء تعارض العقل والنقل ١/٣٦٩.

(٤) يشير بهذا إلى ما ذهب إليه المتكلمون من القول بمنع تسلسل الحوادث فى جانب الماضى، بحجة أن القول بجوازه يؤدى إلى القول بقدم العالم.

إلا أن هذا القول يؤدى إلى تعطيل الله تعالى عن الاتصاف بالكمال وأنه سبحانه فعال لما يريد أزلا وأبدا.

فالحق الذى يجب أن يقال فى هذه المسألة موافقة للعقل والشرع هو القول بتجويز التسلسل فى مفعولات الله تعالى من هذا الطرف، كما تتسلسل فى طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حيا قادرا مريدا متكلما ـ وذلك من لوازم ذاته ـ فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدما لا أول له، فكل مخلوق له أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن. وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضى ببطلانه. انظر: شرح الطحاوية ص٧٣، ودرء تعارض العقل والنقل ١/٣٦٨-٣٧١. ومجموعة الرسائل والمسائل ٥/٣٧١.

تجدهم قد خرجوا فيه عن صريح العقل، وقالوا، ما يشهد العقل ببطلانه.

وتأمل قولهم فى أن الواحد لايصدر عنه إلا واحد، كيف خرجوا عن صريح العقل فى المصدر والصادر عنه.

وتأمل قولهم فى إنكار قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه، التى ترجموها بمسألة حلول الحوادث، كيف خرجوا فيها عن المعقول الصريح وكابروه أبين مكابرة[1]، والتزموا لأجله تعطيل الحى الفعال عن كل فعل، والتزموا لأجله حصول مفعول بلا فعل، ومخلوق بلا خلق.

فإن الفعل عندهم عين المفعول، والخلق نفس المخلوق، وهذا مكابرة لصريح العقل، وتأمل خروجهم عن العقل الصريح فى انكار الحكم والغايات التى يفعل الرب لأجلها ما يفعل[2]. وقالوا إن الله تعالى يُرى عيانا، لا فوق الذاتى[3]، ولا تحته، ولا خلفه ولا أمامه، ولا عن

---

(١) مسألة حلول الحوادث بذات الله تعالى من الشبه العقلية التى جعلها المتكلمون ذريعة لنفى صفات الفعل الاختيارية عن الله تعالى، والقول بمنع حلول الحوادث بذات الله تعالى محل اتفاق بين الفلاسفة والمتكلمين من معتزلة وأشاعرة، إلا أن القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى هو مذهب أكثر أهل الحديث، بل قول أئمتهم، وهو الذى نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها وكثير من الفقهاء والصوفية أو أكثرهم، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. أنظر بيان تلبيس الجهمية ١ /٢٠٣. وإنما أجازه هؤلاء بمعناه الصحيح المتمثل فى المعنى الذى ينفيه المتكلمون وهو نفى الصفات الاختيارية المتعلقة بمشيئته وقدرته، كفعله سبحانه ما يريد، وتكلمه متى شاء كيف شاء، ويغضب ويرضى ويوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان، كما يليق بجلاله وعظمته، لأن نفى ذلك يؤدى إلى إضافة العجز إلى الله تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا.

أما حلول الحوادث المخلوقة بذات الله تعالى، أو حدوث وصف متجدد له سبحانه لم يكن، فإن هذا المعنى يوافق من جوز المعنى السابق على منعه، إلا أن المتكلمين لم يريدوا هذا المعنى، وإنما أرادوا نفى المعنى السابق الذى أثبته السلف.

(٢) القول بأنه تعالى يفعل لا لحكمة ولا غاية هو مذهب جمهور الأشاعرة انظر نهاية الأقدام للشهرستانى ص٣٩٧. ومحصل أفكار المتقدمين للرازى ص١٤٩، وقد ألف الإمام ابن القيم كتابه «شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» أوضح فيه بالأدلة الدامغة من العقل والنقل فساد هذه المقالة فليراجع.

(٣) كذا فى «ل» ولعلها «الرائي».

يمينـه، ولا عن يسـاره[1]، ثم زادوا جواز تعلق الرؤية بكل موجود من الأصـوات والروائح والمعانى، وتعلق الإدراكات الخمس بذلك فجوزوا سماع الرائحة، وشم الأصوات، وسماع الطعوم[2]، فخرجوا من صريح

---

(١) هذه من تناقضات الأشاعرة الفاضحة، حيث أثبتوا رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، لأن الأدلة على ذلك من الكتاب والسنّة فى غاية الصراحة والوضوح، إلا أنهم يرون انه يُرى لا فى جهة، لأنهم ينفون الجهة عن الله تعالى بحجة أن الجهة من خصائص الأجسام، ولذلك نفوا أن يكون الله فى السماء مستو على عرشه بائناً من جميع مخلوقاته. لأن القول بإثبات العلو يستلزم القول بإثبات الجهة فى نظرهم، وهى من المسائل التى يرى القوم وجوب تنزيه البارى سبحانه وتعالى عنها، وهذا الاتجـاه فى غاية المخالفة لصريح العقل وصحيح النقل، وقد كان المعتزلة أكثر منطقية مع رأيهم ومنهجهم إذ لم يتناقضوا فى هذه المسألة لأنهم نفوا الجهة، ورتبوا عليه نفى الرؤية.

وقد اشتهر عن الفريقين المعتزلة والأشاعرة قولهم: إنه لا يجوز أن يقال: إن الله فى السماء، لأن فى ذلـك تحديدا للجهة والمكان، والجهة والمكان من خصائص الأجسام، ولذلك وصفوه بما يوصف به المعدوم فقالوا: لا فوق ولا تحت ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام ولا خلف، ولا داخل العالم، ولا خارجه ولا مباين له، ولا محايث له، فينفون عنه المتقابلين اللذين لا يخلو من أحدهما موجود. انظر: لمع الأدلة للجوينى ص٩٤، ومقالات الإسلاميين للأشعرى ١/٢٣٧، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢/٢٩٧.

وبطلان هذا القول بدهى بصحيح النقل وصريح العقل، وقد ألفت الكتب الكثيرة فى إثبات أن الله بذاته فى السماء مستو على العرش كما أخبر، مثل كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية للمصنف - ابن القيم - وكتاب العلو للعلى الغفار للذهبى، وكتاب إثبات صفة العلو للإمام ابن قدامة المقدسى.

فالله تعالى فى جهة العلو كما أخبر إلا أن لفظ الجهة من الألفاظ التى لم ترد فى الشرع، فيجب الالتزام بالألفاظ الشرعية فيما يتعلق بصفات الله تعالى، ولذلك فصل مثبتو العلو القول فى الجهة فأثبتوا ما صح من معناها ونفوا ما لم يصح فقالوا: إن أريد بنفى الجهة نفى أن يكون الله تعالى موجودا فى داخل هذا العالم فهذا نفى صحيح، لأن الله تبارك وتعالى منزه عن أن يكون فى شىء من مخلوقاته، وإن أريد نفى الجهة العدمية التى هى عبارة عن أن الله عال بذاته فوق هذا العالم كله منفصل عنه فإن هذه جهة عدمية لا وجودية، ولما كان الله تعالى فوق خلقه، فلا يصح أن يقال: إنه سبحانه ليس فى جهة، بقصد نفى فوقيته وعلوه على خلقه، فالجهة بهذا المعنى ثابتة له سبحانه لأن القول بنفيها يؤدى مع القول بنفى الجهات الأخرى إلى نفى وجوده سبحانه. انظر نقض تأسيس الجهمية للإمام ابن تيمية ١/٥٢٠، ومناهج الأدلة لابن رشد ص١٧٨. وكل كلام قيل فى نفى هذا المعنى فهو سفسطة لا تمت إلى دلالة العقل والشرع والفطرة بصلة.

(٢) انظر: الإرشاد للجوينى ص١٦٣، ولمع الأدلة ص١٠٢.

المعقول، كما خرجوا عن صحيح المنقول: أن المسلمين يرون ربهم من فوق.

وتأمل خروجهم عن صريح العقل فى مسألة الطفرة[1]، والأحوال[2]، والكسب[3]، ومسألة النبوات، وأن النبوة لا ترجع إلى صفة وجودية، وإنما هى تعلق الخطاب القديم بالشىء، والتعلق أمر عدمى.

---

(١) هى ما عرف بطفرة النظام، نسبة إلى إبراهيم بن يسار بن هانىء النظام من أئمة الاعتزال، وهو من عرف عنه القول بالطفرة وهى قوله: إنه يجوز أن يكون الجسم الواحد فى مكان ثم يصير إلى المكان الثالث ولم يمر بالثانى على جهة الطفرة. مقالات الإسلاميين ٢/١٩.

وإنما التزم هو وأتباعه هذا القول لأنه يقول: إن الأجسام مركبة من جواهر لا نهاية لها، فالتزم لذلك أن الطافر لا يحاذى ما تحته من الأجزاء، لئلا يقع ما لا يتناهى تحت ما يتناهى. انظر درء تعارض العقل والنقل ٣/٤١٤.

(٢) اشتهر القول بالأحوال عن أبى هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى، زعيم فرقة البهشمية من فرق المعتزلة وهى مقالة فى الصفات انفرد بها عن أصحابه من المعتزلة وتعنى عنده حالة وراء الذات، فأثبت أحوالا هى صفات لا موجودة ولا معدومة، ولا معلومة ولا مجهولة. انظر: الملل والنحل للشهرستانى ١/٨٢، ودرء تعارض العقل والنقل ٤/٢٤، والفرق بين الفرق للبغدادى ص١٩٥.

(٣) أما الكسب، فقد عرف بين علماء الكلام بكسب الأشعرى نسبة إلى أول من قال به وهو أبو الحسن الأشعرى الذى ينتسب إليه الأشاعرة.

وأوضح عضد الدين الايجى من أئمة الأشاعرة وكبار متكلميهم الكسب المراد بقوله فى المواقف: الموقف الأول: فى أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد فى العبد قدرة واختيارا، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارنا لهما، فيكون فعل العبد مخلوقا لله إبداعا وإحداثا ومكسوبا للعبد، ثم عرف الكسب المذكور بقوله: والمراد بكسبه إياه مقارنته لقدرته وإرادته، من غير أن يكون منه تأثير. انظر: المواقف بشرح الجرجانى (مطلب الإلهيات) ص٢٣٧.

إلا أنه ـ كما ترى ـ لا يوجد ثمة أى فرق بين هذا المذهب، وبين مذهب الجبرية باعتراف الأشاعرة أنفسهم، ولذلك التزم بعضهم القول بالجبر كما فعل الإيجى نفسه. انظر: المواقف ص٣٠٢.

والكسب من الأمور التى لا يقرها عقل، فضلا عن أن يدل عليها سمع. ولذلك قيل فى وصفه ووصف الطفرة والأحوال: محالات الكلام ثلاثة: كسب الأشعرى، وأحوال أبى هشام، وطفرة النظام. شفاء العليل لابن القيم ص١١٠، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣/٤٤٤.

وتأمل خروجهم عن صريح العقل بتجويزهم رؤية الشيء فى غير جهة من الذاتى.

وقولهم: بأن المتولدات لا فاعل لها(١)، وقولهم: بأن الله مريد بإرادة يخلقها لا فى محل(٢)، فخالفوا صريح العقل من وجهين: من إثبات كونه مريدا من غير قيام صفة الإرادة به، ومن جعلهم صفة الإرادة قائمة بغير محل.

ومن ذلك: خروجهم عن صريح العقل فى قولهم: إن الرب تعالى عالم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قادر بلا قدرة، حى بلا حياة(٣). فأنكر ذلك عليهم طوائف العقلاء، ففر بعضهم إلى أن قال: علمه وسمعه وبصره وقدرته وحياته هى ذاته(٤).

وقال أعقلهم عند نفسه وعند أتباعه: إنه سبحانه علم كله، وقدرة كله، وحياة كله، وسمع كله، وبصر كله. إلى أضعاف أضعاف ماذكرنا من أقوالهم التى خرجوا فيها من صريح العقل. فهل تجد فى نصوص الوحى التى عارضوا فيها بين العقل والنقل مثل ذلك أو قريبا منه؟!

---

(١) صاحب هذا القول: هو ثمامة بن أشرس النميرى، زعيم فرقة الثمامية التى تنسب إليه. وهى من فرق المعتزلة. انظر: الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٧٠، وأصول الدين للبغدادى ص٧٠، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨/ ١٠٣.

ويقول هذا القول مع أنه يرى أن المتولدات حوادث وأفعال، ولا يخفى ما فى هذا القول من معارضة لصريح العقل، إذ كيف يوجد حادث بلا محدث، وفعل بلا فاعل؟!

(٢) هذا قول الجبائية، أصحاب أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، والبهشمية أصحاب أبى هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى، وكلاهما من معتزلة البصرة. انظر: الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٨٠، ودرء تعارض العقل والنقل ٨/ ١٠٨.

(٣) هذا هو مذهب المعتزلة فى الصفات ـ كما تقدم، وهو مما أجمعوا عليه، وإنما أشار الإمام ابن القيم إلى اختلافهم في كيفية استحقاقه سبحانه لهذه الصفات، حيث حصل بينهم اختلاف فى كيفية استحقاقه سبحانه لها.

(٤) وهذا مذهب الهذيلية أصحاب أبى الهذيل محمد بن الهذيل العلاف. وهو مما انفرد به عن أصحابه المعتزلة فى بيان كيفية استحقاقه سبحانه لهذه الصفات. انظر: الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٤٩، والفرق بين الفرق ص١٢٧.

فتأملها، وتأمل أقوالهم تعلم أى النوعين معه العقل، ومن الذى خرج عن صريحه. وبالله التوفيق[1].

الوجه الأربعون: أن الأدلة القاطعة قد قامت على صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى كل ما يخبر به، ودلالتها على صدقه أبين وأظهر من دلالة تلك الشبه العقلية على نقيض ما أخبر به عند كافة العقلاء، ولايستريب فى ذلك إلا ماد. . .[2] فى عقله مصاب فى قلبه وفطرته، فأين الشبه النافية لعلو الله على خلقه، وتكلمه بمشيئته، وتكليمه «خلقه»[3]، ولصفات كماله، ولرؤيته بالأبصار فى الدار الآخرة، ولقيام أفعاله به، إلى براهين نبوته وصدقه التى زادت على الألف، وتنوعت كل التنوع، فكيف يقدح فى البراهين العقلية الضرورية بالشبه الخيالية المتناقضة إلا من هو أفسد الناس عقلا ونظرا؟! وهل ذلك إلا من جنس الشبه التى أوردوها فى التشكيك فى الحسيات والبديهيات؟ فإنها وإن عجز كثير من الناس عن حلها، فهم يعلمون أنها قدح فيما علموه بالحس والاضطرار، فمن قدر على حلها وإلا لم يتوقف جزمه بما علمه بحسه واضطراره على حلها.

وكذلك الحال فى الشبه التى عارضت ما أخبر به الرسول ﷺ سواء. فإن المصدق به وبما جاء به يعلم أنها لا تقدح فى صدقه، ولافى الإيمان به، وإن عجز عن حلها فإن تصديقه بما جاء به الرسول ضرورى. وهذه الشبه عنده لا تزيل ما علمه بالضرورة، فكيف إذا تبين بطلانها على التفصيل؟ يوضحه:

---

(١) إلى هنا ينتهى السقط من الأصل الذى أشرنا إلى بدايته فى نهاية الجزء الأول ص٣٧١. وجميع ما سقط من الأصل سقط من المختصر أيضا حيث بدأ بذكر الوجه الأربعين تاركا ما قبله من الأوجه. وإلى هنا تنتهى النسخة الألمانية حيث كتب الناسخ بعده عبارة «وبالله التوفيق»: «بلغ بحمد الله مقابلته حسب الطاقة». ونعود إلى الأصل ابتداءً من الوجه الأربعين الآتى.

(٢) كلمة غير واضحة.

(٣) فى المختصر «لخلقه».

الـوجه الحادى والأربعون: وهو أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بيّن مراده، وقـد تبيّن لنا أكثر مما تبين لنا كثير من دقائق المعقولات الصحيحـة «فمعـرفتـا»(١) بمـراد الرسول من كلامه فوق معرفتنا بتلك الـدقـائق إذا كانت صحيحـة المقـدمات فى نفسها، صادقة النتيجة غير كاذبة، فكيف إذا كان الأمر فيها بخلاف ذلك؟.

فتلك التى تسمى معقولات قد تكون خطأ ولكن لم يتفطن لخطئها.

وأما كلام المعصوم فقد قام البرهان القاطع على صدقه، وأنه حق، ولكن قد يحصل الغلط فى فهمه، فيفهم منه مايخالف صريح العقل فيقع التعـارض بين مافهم من النقـل وبين مااقتضاه صريح العقل(٢)، فهذا لايدفع، ولكن إذا تأمله من وهبه الله حسن القصد وصحة التصور تبيّن له أن المعارضة واقعة بين ما فهمه النفاة من النصوص وبين العقل الصريح، وأنها غير واقعـة بين مادل عليه النقل وبين العقل. ومن أراد معرفة هذا فليوازن بين مدلول النصوص وبين العقل الصريح ليتبين له مطابقة أحدهما للآخر، ثم يوازن بين أقوال النفاة وبين العقل الصريح، فإنه «يعلم»(٣) حينئذ أن النفاة أخطأوا خطأين:

خطأ على السمع فإنهم فهموا منه خلاف مراد المتكلم.

وخطأ على العقل بخروجهم عن حكمه.

---

(١) فى المختصر «ومعرفتنا».

(٢) لأن القصور من طبيعة الإنسان، والكمال لله وحده، والعصمة لمن عصمه الله من الأنبياء والرسل. ولذلك قد يخطىء الإنسان فى فهم كلام المعصوم، فيذهب به مذهبا بعيدا عن مراد قائله، ومن هنا تحدث المعارضة بين منطوق الوحى وفهم بعض الناس له، إلا أن أصحاب الابتداع تعاموا عن هذه الحقيقة الواضحة، ولذلك إذا اختلف منطوق الوحى مع فهم عقولهم أولوا الوحى على مقتضى ما فهموه، لأنهم جعلوا العقل أساسا يرجعون إليه الوحى لا العكس، وهو منهج باطل جائـر، ويحمـل فى طياته دليل بطلانه، لأن أصحاب هذا المنهج كثيرا ما يختلفون فى فهم مسألة واحدة، فيعمد كل منهم إلى تأويل النص بما يخالف فهم صاحبه ويتفق مع فهمه، وهذا من أوضح الشواهد على بطلان هذا المذهب. فالمعارضة إذاً قد تحدث بين ما فهمه النفاة من النصوص وبين العقل، أما النص الصحيح فلا معارضة بينه وبين العقل الصريح إطلاقا.

(٣) فى المختصر: «يتبين له».

الوجه الثانى والأربعون: أن المعارضين بين العقل والنقل، «الذى»[1] أخبر به الرسول «ﷺ» قد اعترفوا بأن العلم بانتفاء المعارض مطلقا لا سبيل إليه، إذ ما من معارض نفسه إلا ويحتمل أن يكون له معارض آخر. وهذا مما اعتمد عليه صاحب نهاية العقول[2] وجعل السمعيات لا يحتج بها على العلم بحال، وحاصل هذا أنّا لا نعلم ثبوت ما أخبر به الرسول حتى نعلم انتفاء ما يعارضه، ولا سبيل إلى العلم بانتفاء المعارض مطلقا لما تقدم، وأيضا فلا يلزم من انتفاء العلم بالمعارض العلم بانتفاء المعارض، ولاريب أن هذا القول من أفسد أقوال العالم، وهو من أعظم أصول الإلحاد والزندقة، وليس فى عزل الوحى عن مرتبته أبلغ من هذا.

الوجه الثالث والأربعون: أن الله سبحانه قد أخبر فى كتابه أن ماعلى الرسول إلا البلاغ المبين، قال تعالى: ﴿**وماعلى الرسول إلا البلاغ المبين**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾[4] وقال: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾[5] وقد شهد الله له وكفى (به)[6] شهيدا بالبلاغ الذى أمر به فقال: ﴿**فتول عنهم فما أنت بملوم**﴾[7]، وشهد له أعقل الخلق وأفضلهم وأعلمهم بأنه قد بلغ، فأشهد الله عليهم بذلك فى أعظم مجمع وأفضله فقال فى خطبته (بعرفات)[8] فى حجة الوداع: «إنكم مسؤولون عنى فماذا

---

(١) ما بين القوسين من المختصر: وفي الأصل «وبين ما» وما أثبته نقلاً عن المختصر أوضح وأولى.

(٢) هو فخر الدين الرازى.

(٣) سورة النور/ ٥٤.

(٤) سورة المائدة/ ٦٧.

(٥) سورة النحل/ ٤٤.

(٦) فى المختصر «بالله».

(٧) سورة الذاريات/ ٥٤.

(٨) فى المختصر: «فى عرفات».

أنتم قائلون»؟، قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت» فرفع أصبعه إلى السماء مستشهدا بربه الذى فوق سمواته وقال: «اللهم اشهد»(١) فلو لم يكن قد عرف المسلمون وتيقنوا ما أرسل به، وحصل لهم منه العلم اليقين، لم يكن قد حصل منه البلاغ المبين، ولما رفع الله عنه اللوم، ولما شهد له أعقل الأمة بأنه قد بلّغ وبيّن، وغاية ماعند النفاة أنه بلّغهم ألفاظا لاتفيدهم علما ولا يقينا، وأحالهم فى طلب العلم واليقين على عقولهم وفطرهم «وأبحاثهم»(٢) لا على ما أوحى إليه وهذا معلوم البطلان بالضرورة.

الوجه الرابع والأربعون: أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم (لرجح بها كلها)(٣). وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحى لم يكن يدرى ما الإيمان، كما لم يكن يدرى ما الكتاب، فقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى**﴾(٥) وتفسير هذه الآية بالآية التى فى آخر الشورى(٦)، فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحى كما قال تعالى: ﴿**قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت**

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبى ﷺ، ح(١٢١٨) ٨٨٦/٢. وأبو داود، كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ ح(١٩٠٥)٢/ ٤٥٥. وابن ماجه فى المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ ح(٣٠٧٤) ٢/ ١٠٢٢. والدارمى، كتاب المناسك، باب فى سنّة الحاج ٢/ ٤٤.

(٢) فى المختصر: «وآرائهم».

(٣) فى المختصر: «لرجحها».

(٤) سورة الشورى/ ٥٢.

(٥) سورة الضحى/ ٦ـ٨.

(٦) يعنى الآية السابقة. انظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٤٤٨.

فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب﴾[1] «فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام، وفراش الألباب، الاهتداء إلى حقائق الايمان بمجرد عقولهم دون «نصوص الوحى حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل»[2] ونصوص الأنبياء ﴿**لقد جئتم شيئا إدّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا**﴾[3].

الوجه الخامس والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى إنما أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله فقال: ﴿**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾[4]، وقال: ﴿**وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**﴾[5] فكل من بلغه هذا القرآن فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله به، وقال تعالى: ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾[6]، وقال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾[7]، وقال تعالى: ﴿**كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير. وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير**﴾[8]، وقال تعالى: ﴿**وسيق الذين كفروا إلى جنهم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين**﴾[9]، وقال: ﴿**يامعشر الجن**

---

(1) سورة سبأ/ ٥٠.
(2) ما بين القوسين من المختصر ١/١١٦.
(3) سورة مريم/ ٨٩-٩٠.
(4) سورة الفرقان/ ١.
(5) سورة الأنعام/ ١٩.
(6) سورة النساء/ ١٦٥.
(7) سورة الاسراء/ ١٥.
(8) سورة الملك/ ٨-١١.
(9) سورة الزمر/ ٧١.

والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا﴾[1].

فلو كان كلام الله ورسوله لايفيد اليقين والعلم، والعقل معارض للنقل فأى حجة تكون قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسل، وهل هذا القول إلا مناقض لاقامة حجة الله على خلقه بكتابه من كل وجه؟، وهذا ظاهر لكل من فهمه ولله الحمد.

الوجه السادس والأربعون: أن الله سبحانه وصف نفسه بأنه بيّن لعباده غاية البيان، وأمر رسوله بالبيان، وأخبر أنه أنزل عليه كتابه ليبين للناس، ولهذا قال الزهرى[2]: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[3] فهذا البيان الذى تكفل به سبحانه وأمر به رسوله، إما أن يكون المراد به بيان اللفظ وحده، أو المعنى وحده، أو اللفظ والمعنى جميعا، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى، فإن هذا لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده بدون دليله وهو اللفظ الدال عليه ممتنع، فعلم قطعا أن المراد بيان اللفظ والمعنى، والله تعالى أنزل كتابه ألفاظه ومعانيه، وأرسل رسوله ليبيِّن اللفظ والمعنى، فكما أنّا نقطع ونتيقن أنه بيّن اللفظ، فكذلك نقطع ونتيقن أنه بيّن المعنى، بل كانت عنايته ببيان المعنى أشد من عنايته ببيان اللفظ، وهذا هو الذى ينبغى، فإن المعنى هو المقصود، وأما اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهم من عنايته بالمقصود، وكيف يتيقن بيانه للوسيلة، ولا يتيقن بيانه للمقصود، وهل هذا إلا من أبين المحال؟ فإن

---

(١) سورة الأنعام/ ١٣٠.

(٢) هو محمد من مسلم بن شهاب. تقدمت ترجمته فى الجزء الأول ص٨٢.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٥/٣٤٦.

جاز عليه أن لا يبين المراد من ألفاظ القرآن وجاز عليه أن لا يبيّن بعض ألفاظه. فلو كان المراد منها خلاف حقائقها وظواهرها (ومدلولاتها)[١] وقد كتمه عن الأمة ولم يبينه لها كان (ذلك)[٢] قدحا فى رسالته وعصمته، وفتحا للزنادقة والملاحدة من الرافضة وإخوانهم باب كتمان بعض ما أنزل عليه، وهذا مناف للإيمان به، وبرسالته. يوضحه:

الوجه السابع والأربعون: أن القائل بأن (الدلالة)[٣] اللفظية لاتفيد اليقين إما أن يقول: إنها تفيد ظنا، أو لاتفيد علما ولا ظنا، فإن قال لاتفيد علما ولا ظنا فهو مع مكابرته للعقل والسمع والفطرة الإنسانية من أعظم الناس كفراً وإلحادا، وإن قال: بل تفيد ظنا غالبا وإن لم تفد يقينا، قيل له: فالله سبحانه قد ذم الظن المجرد وأهله فقال تعالى: **﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئا﴾**[٤] فأخبر أن الظن لايوافق الحق ولايطابقه، وقال تعالى: **﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾**[٥] وقال أهل النار **﴿إن نظن إلا ظنا ومانحن بمستيقنين﴾**[٦] (فلو كان ما أخبر الله به عن أسمائه وصفاته واليوم الآخر وأحوال الأمم وعقوباتهم لاتفيد إلا ظنا لكان المؤمنون إن يظنون إلا ظنا وماهم بمستيقنين)[٧] ولكان قوله تعالى عنهم: **﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾**[٨] خبر غير مطابق، فإن علمهم بالآخرة إنما استفادوه من الأدلة اللفظية، لاسيما وجمهور المتكلمين يصرحون بأن المعاد إنما علم بالنقل[٩]، فإذا كان

---

(١) فى المختصر: «دون مدلولاتها».

(٢) فى الأصل: «كذلك» والتصحيح من المختصر.

(٣) فى المختصر: «الأدلة».

(٤) سورة النجم/ ٢٨.

(٥) سورة النجم/ ٢٣.

(٦) الجاثية/ ٣٢.

(٧) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل وأثبته نقلا عن المختصر ١/ ١١٨.

(٨) سورة البقرة/ ٤.

(٩) انظر: الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ص١٩٨، وشرح جوهرة التوحيد ص١٥١، وأصول الدين للرازى ص١١٧.

النقـل لايفيد يقينا لم يكن فى الأمة من يوقن بالآخرة، إذ الأدلة العقلية لامدخل لها فيها، وكفى بهذا بطلانا وفسادا، فإنه سبحانه لم يكتف من عبـاده بالظن، بل أمرهم بالعلم كقوله: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾(١) وقوله: ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾(٢) وقوله: ﴿**واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه**﴾(٣) ونظائر ذلك، وإنما يجوز اتباع الظن فى بعض المواضع للحاجة كحادثة يخفى على المجتهد حكمها، أو فى الأمور الجزئية كتقويم السلع ونحوه، وأما مابينه الله فى كتابه وعلى لسان رسوله فمن لم يتيقنه بل ظنه ظنا فهو من أهل الوعيد ليس من أهل الإيمان، فلو كانت الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين لكان مابيّنه الله ورسوله بالكتاب والسنّة لم يتيقنه أحد من الأمة.

الوجـه الثامن والأربعــون: أن الله سبحانه أخبر أن قلوب المؤمنين مطمئنة بذكره، وهو كتابه الذى هدى به عباده فقال تعالى: ﴿**ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أنـاب، الـذين آمنـوا وتـطمئن قلوبهم بذكـر الله ألا بذكـر الله تطمئن القلوب**﴾(٤) أجابهم سبحانه عن سؤالهم ترك إنزال آيات الاقتراح بجوابين:

أحدهما: أنها لاتوجب إيمانا بل الله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء لا الآيات التى اقترحتموها.

الثانى: أنه نبههم على أعظم الآيات وأشدها اقتضاء للإيمان، وأنها فى اقتضائها للإيمان أبلغ من الآيات التى تقترحونها وهى كتابه الذى هو

---

(١) سورة محمد/ ١٩.

(٢) سورة المائدة/ ٩٨.

(٣) سورة البقرة/ ٢٢٣.

(٤) سورة الرعد/ ٢٧، ٢٨.

ذكره، وما تضمنه من الحق الذى تطمئن إليه القلوب وتسكن إليه النفوس، ولو كان باطلا لم يزد القلوب إلا شكا وريبا، فإن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة، فلو كانت كلماته وألفاظه لاتفيد اليقين بمدلولها لم تطمئن به القلوب، فإن الطمأنينة هى سكون القلب إلى الشىء ووثوقه به، وهذا لا يكون إلا مع اليقين، بل هو اليقين بعينه، ولهذا تجد قلوب أصحاب الأدلة السمعية مطمئنة بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته واليوم الآخر، لا يضطربون فى ذلك ولا يتنازعون فيه، ولا يعرض لهم الشك عند الموت ولا يشهدون على أنفسهم ويشهدون عليهم غيرهم بالحيرة والوقوع فى الشك، فيكفى فى صحة (مدلول)[1] الأدلة اللفظية، (وبطلان)[2] مدلول الشبه العقلية التى تخالفها هذا القدر وحده.

فمتى رأيت أصحاب الأدلة السمعية يقول أحدهم عند الموت: نهاية أقدام العقول عقال. ويقول: لعمرى لقد طفت المعاهد كلها. أو يقول: فيك ياأغلوطة الفكر، أو يقول: والله ما أدرى على أى عقيدة أموت[3]؟ إلى أضعاف ذلك من أحوال أصحاب الشبه العقلية، وبالله التوفيق.

---

(١) فى الأصل: «مدلولها» ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) فى الأصل: «وبطلانها» ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٣) فالحيرة والشك وعدم الاهتداء هو مآل من وضع الشبه العقلية فى مقابل الأدلة النقلية القطعية، يريد صرفها عن دلالتها إلى معان اقتضتها تلك الشبه العقلية التى انتحلوها وأوجدوها، ولا وجود لها فى الحقيقة والواقع.

أما من نهج منهج الوحى، وتلقى الأدلة النقلية بالتسليم، وأثبت مدلولاتها التى تقتضيها ألفاظها، دون لجوء إلى شبهة أو تأويل فإنهم أسعد الناس بالطمأنينة والاهتداء لأنهم استندوا إلى ما يوصلهم إلى اليقين، ويسلك بهم سبيل الهداية والرشاد وهو المنهج الذى سلكه أئمة هذه الأمة من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، ولذلك لم يقع بينهم أى خلاف فى أى مسألة من مسائل العقيدة لأنهم استندوا إلى مصدر واحد وهو الوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو العروة الوثقى التى لا انفصام لها، وقد أدرك السلف رضوان الله عليهم خطر علم الكلام الذى جنى على العقيدة الإسلامية شر جناية، فابلغوا فى ذم المشتغلين به، وشددوا فى التحذير منه كما أسلفت. =

الوجه التاسع والأربعون: قوله: إن العلم بمدلول الأدلة اللفظية موقوف على نقل اللغة، كلام ظاهر البطلان، فإن دلالة القرآن والسنّة على معانيهما من جنس دلالة لغة كل قوم على ما يعرفونه ويعتادونه من تلك اللغة، وهذا لايختص بالعرب، بل هو أمر ضرورى لجميع بنى آدم يتوقف العلم بمدلول ألفاظهم على كونهم من أهل تلك اللغة التى وقع بينهم بها التخاطب، ولهذا لم يرسل الله رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم، فتقوم عليهم الحجة بما فهموه من خطابه لهم، فدلالة اللفظ هى العلم بقصد المتكلم به، ويراد بالدلالة أمران: «نقل»[1] الدال. وكون اللفظ بحيث يفهم معنى. ولهذا يقال: دله بكلامه دلالة. ودل الكلام على هذا دلالة، فالمتكلم دال بكلامه. وكلامه دال بنظامه، وذلك يعرف من عادة المتكلم فى ألفاظه، فإذا كانت عادته أنه يعنى بهذا اللفظ هذا المعنى علمنا متى خاطبنا به أنه أراده من وجهين:

أحدهما: أن دلالة اللفظ مبناها على عادة المتكلم التى يقصدها بألفاظه، ولهذا استدل على مراده بلغته التى عادته أن يتكلم بها، فإذا عرف السامع ذلك المعنى وعرف أن عادة المتكلم إذا تكلم بذلك اللفظ أن

= فعلم التوحيد أساس الدين الذى عليه تنبنى فروعه. والمصدر الأوحد له هو الوحى، لأنه من الله تعالى وهو أعلم بنفسه من خلقه ورسوله ﷺ أعلم خلقه به. ولهذا يتساءل الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فيقول: وكيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضولون المسبوقون الحيارى المتهوكون، أعلم بالله وصفاته وأسمائه، وأحكم فى باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى، ومصابيح الوحى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص فى العلم والحكمة ـ سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته ـ من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟، أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة، وأتباع الهند واليونان، ورثة المجوس والمشركين، وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟؟! الفتوى الحموية ص٨.

(١) فى المختصر: «فعل».

يقصده، علم أنه مراده قطعا، وإلا لم يعلم مراد «المتكلم»[1] أبداً وهو محال.

الثاني: أن المتكلم إذا كان قصده إفهام المخاطبين كلامه وعلم السامع من طريقته وصفته أن ذلك قصده، لا أن قصده التلبيس والألغاز، أفادة مجموع العلمين اليقين بمراده ولم يشك فيه، ولو تخلف عنه العلم لكان ذلك قادحا فى أحد العلمين، إما قادحا فى علمه بموضوع ذلك اللفظ، وإما فى علمه بعبارة المتكلم به وصفاته وقصده، فمتى عرف موضوعه وعرف عادة المتكلم أفاد ذلك القطع. يوضحه:

الوجه الخمسون: أن السامع متى سمع المتكلم يقول: لبست ثوبا، وركبت فرسا، وأكلت لحما، وهو عالم بمدلول هذه الألفاظ من عرف المتكلم، وعالم أن المتكلم لا يقصد بقوله: لبست ثوبا، معنى ذبحت شاة، ولا من قوله: ركبت فرسا. معنى لبست ثوبا، علم مراده قطعا (فإنه يعلم)[2] أن من قصد خلاف ذلك عُدّ مُلبِّسا مدلسا، لا مبينا مفهما. وهذا مستحيل على الله ورسوله أعظم استحالة، وإن جاز على أهل التخاطب فيما بينهم، فإذاً إفادة كلام الله ورسوله «لليقين»[3] فوق استفادة ذلك من كلام كل متكلم، وهو أدل على كلام الله ورسوله من دلالة كلام غيره على مراده، وكلما كان السامع أعرف بالمتكلم وصفاته وقصده وبيانه وعادته، كانت استفادته للعلم بمراده أكمل وأتم.

الوجه الحادى والخمسون: أن معرفة مراد المتكلم تعرف باطراد استعماله ذلك اللفظ فى ذلك المعنى فى مجارى كلامه ومخاطباته، فإذا ألف منه إطلاق ذلك اللفظ، أو اطراده فى استعماله فى معنى ألف منه أنه متى أطلقه أراد ذلك المعنى، وألف منه تجريده فى موارد استعماله من اقتران

---

(١) فى المختصر: «متكلم» وهي أولى.

(٢) من المختصر.

(٣) في المختصر: «اليقين».

ما يدل على خلاف موضوعه أفاد ذلك علما يقينا لاريب فيه بمراده.

الوجه الثانى والخمسون: أن من تأمل عامة ألفاظ القرآن وجدها نصوصا صريحة دالة على معناها دلالة لا تحتمل غيرها بوجه من الوجوه، وهذا كأسماء الأنبياء، وأسماء الأجناس، وكأسماء الأعلام، وكأسمائه سبحانه التى أطلقها على نفسه، فإنها لاتصلح أن يكون المراد بها غيره البتة ظاهرة أم مضمرة، وكأسماء يوم القيامة، والجنة والنار، وأسماء الأعداد، وذكر الثقلين، وخطابهم، وعامة ألفاظ القرآن، فهل يفهم أحد قط من قوله: ﴿**قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس**﴾[1] غير الله سبحانه؟ ومن الوسواس الخنّاس، غير الشيطان، ومن صدور الناس، غير بنى آدم؟ وهل يفهم من قوله: ﴿**قل هو الله أحد**﴾[2] غير ذات رب العالمين، وأنه واحد لاشريك له، وأنه لم يلد من غيره، ولم يلد منه غيره، وليس له من يماثله ويكافيه؟ وهل يفهم من ﴿**تبت يدا أبى لهب** . . . ﴾[3] - إلى آخرها - غير مادلت عليه؟ وهكذا جميع سور القرآن وآياته مفيدة لليقين بالمراد منها، وإن أشكل على كثير من الناس كثير من ألفاظه، فإن هذا لايخرجه عن إفادته اليقين، ولا يسلب الأدلة اللفظية عن إفادتها اليقين، بل كل علم من علوم بنى آدم اليقينية القطعية تشتمل على مسائل بل يتيقنها أصحاب ذلك العلم، وهى مشتملة عندهم، ومجهولة عند كثير منهم، ولايخرج ذلك العلم عن كونه يقينيا قطعيا، فعزل الأدلة اللفظية جملة عن اليقين لألفاظ يسيرة مشتبهة على بعض الناس، كعزل العلوم اليقينية القطعية عن موضوعها لمسائل يسيرة فيها غير يقينية ولا قطعية.

الوجه الثالث والخمسون: أن قوله إن فهم (الأدلة)[4] اللفظية موقوف على نقل النحو والتصريف.

---

(١) سورة الناس/ ١-٣.

(٢) سورة الإخلاص/ ١.

(٣) سورة المسد/ ١.

(٤) فى المختصر: «الدلالة».

جوابـه: أن القرآن قد نقل إعرابه كما نقلت ألفاظه ومعانيه لا فرق في ذلك كله، فألفاظه متواترة، وإعرابه متواتر، ونقل معانيه أظهر من نقل ألفاظه، وإعرابه كما تقدم بيانه، فإن القرآن لغته ونحوه وتصريفه ومعانيه كلها منقولة بالتواتر لا يحتاج في ذلك إلى نقل غيره، بل نقل ذلك كله بالتواتر أصح من نقل كل لغة نقلها ناقل على وجه الأرض، وقواعد الإعراب والتصريف الصحيحة مستفادة منه، مأخوذة من إعرابه وتصريفه، وهو الشاهد على صحة غيرها مما يحتج له بها، فهو الحجة لها والشاهد، وشواهد الإعراب والمعاني منه أقوى وأصح من الشواهد من غيره، حتى إن فيه من قواعد الإعراب، وقواعد علم المعاني والبيان ما لم تشتمل عليه ضوابط النحاة وأهل علم المعاني - وإلى الآن - كما أن فيه من قواعد البراهين العقلية، والأدلة القطعية، ووجوهها مالم تشتمل عليه الأصوليين والجدليين، وإلى الآن، وفيه من علم الأحكام، وفقه القلوب، وأعمال الجوارح، وطرق الحكم بين العباد ما لم تتضمنه قواعد الفقهاء، وإلى الآن، وهذا أمر يتسارع الجهال والمقلدون إلى إنكاره، والذين أوتوا العلم يعرفونه حقا، فبطل قول هؤلاء: إن الأدلة اللفظية تتوقف دلالتها على عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ، ورواة إعرابها وتصريفها وظهر تدليسهم وتلبيسهم في هذا القول، وبالله التوفيق. يوضحه:

الوجه الرابع والخمسون: أن يقال: هب أنه يحتاج إلى نقل ذلك، لكن عامة ألفاظ القرآن منقول معناها وإعرابها بالتواتر لا يحتاج الناس فيه إلى النقل عن عدول أهل العربية كالخليل[1]، وسيبويه[2]،

---

(١) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى، كان إماما فى علم النحو، وهو أول من استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود. توفى سنة ١٧٠هـ. انظر وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤.

(٢) تقدمت ترجمته ص٤٦٢.

والأصمعى[1]، وأبى عبيدة[2]، والكسائى[3]، والفراء[4] حتى الألفاظ الغريبة فى القرآن مثل (أُبسلو)[5] (وقسمة ضيزى)[6] و(عسعس)[7] ونحوها، معانيها منقولة فى اللغة بالتواتر لا يختص بنقلها الواحد والاثنان، فلم تتوقف دلالتها على عصمة رواة معانيها، فكيف فى الألفاظ الشهيرة، كالشمس، والقمر، والليل، والنهار، والبر، والبحر، والجبال، والشجر، والدواب، فهذه الدعوى باطلة فى الألفاظ الغريبة، والألفاظ الشهيرة.

الوجه الخامس والخمسون: أن أصحاب هذا القانون الذى عزلوا به نصوص الوحى عن إفادتها للعلم واليقين، قالوا: إن أظهر الألفاظ لفظ (الله) وقد اختلف الناس فيه أعظم اختلاف، هل هو مشتق أم لا؟ وهل هو مشتق من التأله أو من الوله، أو من لاه، إذا احتجب؟وكذلك اسم

---

(١) أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن عليّ، المعروف بالأصمعى، اللغوى الإخبارى أحد الأعلام. قيل توفى سنة (٢١٥) وقيل غيرها. انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ١٧٥، ووفيات الأعيان ٣/ ١٧٠، وتاريخ خليفة بن خياط ص٤٧٥.

(٢)الإمام العلامة، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى، مولاهم، البصرى، النحوى. قال المبرّد: كان هو والأصمعى متقاربين فى النحو، وكان أبو عبيدة أكمل القوم. توفى سنة (٢٠٩) وقيل (٢١٠). انظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٤٥، وتاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢.

(٣) الإمام، شيخ القراءة والعربية، أبو الحسن عليّ بن حمزة بن عبد الله، الملقب بالكسائى، قال عنه الشافعى: من أراد أن يتبحر فى النحو فهو عيال على الكسائى، توفى بالري سنة (١٨٩) عن سبعين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣١، وتاريخ بغداد ١١/ ٤٠٣.

(٤) أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدى مولاهم، الكوفى النحوى صاحب الكسائى، المعروف بالفراء. توفى سنة (٢٠٧). انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١١٨، ومعجم الأدباء ٢٠/ ٩، وتاريخ بغداد ١٤/ ١٤٦.

(٥) سورة الأنعام/ ٧٠. ومعنى «أبسلوا»: أُسلموا لعذاب الله. انظر: تفسير الطبرى ٧/ ٢٣٤.

(٦) سورة النجم/ ٢٢. ومعنى «ضيزى»: جائرة. انظر: تفسير الطبرى ٢٧/ ٦٠، وتفسير ابن كثير ٧/ ٤٣٣.

(٧) سورة التكوير/ ١٧. ومعنى «عسعس»: اختلف فيه فقيل معناه: أدبر، وقيل: أقبل. انظر: تفسير الطبرى ٣٠/ ٧٨. وستأتى الإشارة إلى هذين المعنيين فى الوجه السابع والخمسين.

الصلاة وفيه من الاختلاف مافيه، وهل هو مشتق من الدعاء، أو من الاتباع، أو من تحريك الصّلوين[1]، فإذا كان هذا فى أظهر الأسماء، فما الظن بغيره.

فتأمل هذا الوهم والإيهام، واللبس والتلبيس، فإن جميع أهل الأرض علماؤهم وجهالهم، ومن يعرف الاشتقاق ومن لايعرفه، وعربهم وعجمهم يعلمون أن (الله) اسم لرب العالمين خالق السموات والأرض الذى يحيى ويميت وهو رب كل شىء ومليكه، فهم لايختلفون فى أن هذا الاسم يراد به هذا المسمى، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشهر من كل اسم وضع لكل مسمى، وإن كان الناس «متنازعين»[2] فى اشتقاقه، فليس ذلك بنزاع منهم فى معناه. وكذلك الصلاة لم يتنازعوا فى معناها الذى أراده الله ورسوله، وإن اختلفوا فى اشتقاقها، وكذلك قوله: ﴿**ياأيها النبى**﴾[3] لم يتنازعوا فى المراد به وأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وإن اختلفوا فى اشتقاقه، هل هو من النبأ، أو من النبوة[4]، فليس ذلك نزاعا منهم فى مسماه، وكذلك مواضع كثيرة تتنازع النحاة فى وجه دلالتها مع اتفاقهم على المعنى كقوله: ﴿**وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾[5] فالبصريون يجعلونها[6] مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بين المخففة والنافية. والكوفيون يجعلونها نافية واللام بمعنى إلا[7]، وليس هذا نزاعا فى المعنى وإن كان نزاعا فى وجه الدلالة عليه.

---

(١) الصّلوين: هما عرقان من جانبى الذنب، وعظمان ينحنيان فى الركوع والسجود. انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووى ١/ ١٧٩. وانظر اختلاف اللغويين فى اشتقاق لفظ الصلاة: النووى نفس المصدر مادة «صَلَو»، ولسان العرب مادة «صَلاَ».

(٢) فى الأصل: متنازعون. وانظر التنازع فى الاشتقاق: لسان العرب مادة «أله».

(٣) فى مواضع كثيرة منها: الأنفال/ ٦٤، ٦٥، ٧٠، والتوبة/ ١١٣، والأحزاب/ ٢٨.

(٤) انظر: لسان العرب مادة «نبأ» ١/ ١٦٢، و«نبا» ١٥/ ٣٠٢.

(٥) سورة يوسف / ٣.

(٦) أى «ان».

(٧) انظر: الأنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى - بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط الرابعة بمطبعة السعادة سنة ١٣٨٠هـ.

وكذلك قوله ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾[١] يقدره البصريون: كراهة أن تضلوا، والكوفيون: لئلا تضلوا[٢]، وكذلك اختلافهم فى التنازع، وأمثال ذلك: إنما هو نزاع فى وجه دلالة اللفظ على ذلك المعنى مع اتفاقهم على أن المعنى واحد، وهذا القدر لايخرج اللفظ عن إفادته للسامع اليقين بمسماه.

الوجه السادس والخمسون: أن «يقول»[٣] هذه الوجوه العشرة[٤] مدارها على حرف واحد، وهو أن الدليل اللفظى يحتمل أزيد من معنى واحد، فلا نقطع بإرادة المعنى الواحد، فهذه الوجوه العشرة مضمونها كلها احتمال اللفظ لمعنيين فصاعدا حتى لايعرف عين مراد المتكلم. فنقول: من المعلوم أن أهل اللغة لم (يسوغوا)[٥] للمتكلم أن يتكلم بما يريد به خلاف ظاهره إلا مع قرينة تبين المراد، والمجاز إنما يدل مع القرينة بخلاف الحقيقة فإنها تدل مع التجرد، وكذلك الحذف والإضمار، ولايجوز إلا إذا كان فى الكلام مايدل عليه، وكذلك التخصيص ليس لأحد أن يدعيه إلا مع قرينة تدل عليه، فلا يسوغ العقلاء لأحد أن يقول: جاءنى زيد، وهو يريد ابن زيد إلا مع قرينة كما فى قوله ﴿**واسأل القرية**﴾[٦] ﴿**واسأل العير**﴾ عند من يقول إنه من هذا الباب[٧] فإنه يقول: القرية والعير لايُسْألان، فعلم أنه

---

(١) سورة المائدة/ ١٧٦.

(٢) انظر البيان فى غريب إعراب القرآن لابن الأنبارى ـ تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه ٢٨١/١، الناشر: دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٣٨٩هـ، وإعراب القرآن للنحاس ـ تحقيق الدكتور زهير غازى ٤٧٧/١، طبع مطبعة العانى سنة ١٣٩٧هـ، ومعانى القرآن للفراء ٢٩٧/١.

(٣) فى المختصر: «نقول».

(٤) يريد بالوجوه العشرة المذكورة ص ه من هذا المجلد.

(٥) فى المختصر: «يشرعوا».

(٦) سورة يوسف/ ٨٢.

(٧) لقد جنى القول بالمجاز جناية كبرى على عقيدة هذه الأمة، فقد اتخذه أرباب الكلام وسيلة لنفى اتصاف الله عز وجل بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، حيث سلكوا =

أراد أهلها، ومن جعل القرية اسما للسكان والمسكن، والعير اسما للركبان والمركوب لم يحتج إلى هذا التقدير، وإذا كانت هذه الأنواع لاتجوز مع تجرد الكلام عن القرائن المبنية للمراد فحيث تجردت علمنا قطعا أنه لم يرد بها ذلك، وليس لقائل أن يقول: قد تكون القرائن موجودة ولانعلم بها لأن من القرائن مايجب أن يكون لفظيا كمخصصات الأعداد وغيرها، ومنها ما يكون معنويا كالقرائن الحالية والعقلية، والنوعان لابد أن يكونا ظاهرين

= في نصوصها مسلك التأويل بحجة أن ظاهرها غير مراد، وأنه يجب صرفها عن ذلك الظاهر الذى يقتضى إثباته ـ على حد زعمهم ـ تشبيه الخالق بالمخلوق، وهى الشبهة التى لأجلها سلكوا هذا المسلك الباطل، ولذلك أنكر كثير من علماء الأمة الغيورين على عقيدتها القول بالمجاز فى كتاب الله تعالى، وغاية ما عند من قال بأنها من المجاز الذى لا يراد ظاهره، تلك الشبهة العقلية التى انتحلوها من القول بالمشابهة فى حالة الإثبات، وهى شبهة لا قرار لها مع قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شىء وهو السميع البصير**﴾ فهو منهج الهى سار السلف على منواله فى الإثبات فأثبتوا لله الصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، لأن الصفة تتبع الموصوف، فلا قرار لشبهتهم التى انتحلوها ودندنوا حولها، فهى أوهى من خيط العنكبوت.

وقد ألف العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى ـ رحمه الله ـ وهو من المانعين للمجاز فى اللغة أصلا ـ ألف كتابا بعنوان: «منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز» حذر فيه من نفى الصفات التى أثبتها الله لنفسه فى كتابه العزيز بادعاء أنها مجاز، وأن المجاز يجوز نفيه لأن ذلك من أعظم وسائل التعطيل. انظر: مقدمة الكتاب المذكور ص٤.

وقد أوضح ـ رحمه الله ـ أن القائلين بالمجاز فى اللغة العربية اختلفوا فى جواز إطلاقه فى القرآن، فقال قوم: لا يجوز أن يقال فى القرآن مجاز، منهم ابن خويز منداد من المالكية، وابن القاضى من الشافعية، والظاهرية، وبالغ فى إيضاح منع المجاز فى القرآن الشيخ أبو العباس بن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ بل أوضحا منعه فى اللغة أصلا.

ثم قال: والذى ندين لله به ويلزم قبوله كل منصف محقق أنه لا يجوز إطلاق المجاز فى القرآن مطلقا. انظر: مقدمة منع جواز المجاز ص٧، وقد قال المانعون للمجاز: إن قوله تعالى: ﴿**واسأل القرية**﴾ حيث أطلق القرية وأراد أهلها، من أساليب اللغة العربية، والمضاف المحذوف كأنه مذكور لأنه مدلول عليه بالاقتضاء، وتغيير الإعراب عند الحذف من أساليب اللغة أيضا. انظر: منع جواز المجاز ص٣٥.

وعلى فرض وجود المجاز فى القرآن فإن ما ذهب إليه المتكلمون ـ من القول بالمجاز فى باب الصفات أمر باطل ـ لأن صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر لا يكون إلا بقرينة، ولا قرينة لديهم إلا تلك الشبهة الواهية التى أشرت إلى تفاهتها وعدم ورودها وقيامها فى آيات الصفات، فبطل القول بالمجاز فى هذا الجانب لعدم توفر الشرط الذى وضعه البلاغيون لصرف اللفظ عن ظاهره.

للمخاطب، ليفهم من تلك القرائن مراد المتكلم، فإذا تجرد الكلام عن القرائن فهم معناه المراد عند التجرد، وإذا اقترن بتلك القرائن فهم معناه المراد عند الاقتران، فلم يقع لبس فى الكلام المجرد، ولافى الكلام المقيد، إذ كل من النوعين مفهم لمعناه المختص به، وقد اتفقت اللغة والشرع على أن اللفظ المجرد إنما يراد به ما ظهر منه، وأن ما يقدر من احتمال مجاز، أو اشتراك، أو حذف أو إضمار ونحوه، إنما يقع مع القرينة، أما مع عدمها فلا، والمراد معلوم على التقديرين. يوضحه:

الوجه السابع والخمسون: أن غاية ما يقال إن فى القرآن ألفاظا استعملت فى معان لم تكن تعرفها العرب، وهى الأسماء الشرعية، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والاعتكاف ونحوها، والأسماء الدينية كالإسلام، والإيمان، والكفر، والنفاق ونحوها، وأسماء مجملة لم يرد ظاهرها كالسارق والسارقة، والزانى والزانية ونحوه، وأسماء مشتركة، كالقرء، وعسعس ونحوهما، فهذه الأسماء لا تفيد اليقين بالمراد منها. فيقال: هذه الأسماء جارية فى القرآن على ثلاثة أنواع:

نوع بيانه معه، فهو مع بيانه يفيد اليقين بالمراد منه.

ونوع بيانه فى آية أخرى، فيستفاد اليقين بالمراد من مجموع الآيتين.

ونوع بيانه موكول إلى الرسول ﷺ فيستفاد اليقين من المراد منه ببيان الرسول، ولم نقل نحن ولا أحد من العقلاء، إن كل لفظ فهو مفيد لليقين بالمراد منه لمجرده من غير احتياج إلى لفظ آخر متصل به أو منفصل عنه، بل نقول: إن مراد المتكلم يعلم من لفظه المجرد تارة، والمقرون تارة، ومنه ومن لفظ آخر يفيدان اليقين بمراده تارة، ومنه ومن بيان آخر بالفعل أو القول يحيل المتكلم عليه تارة، وليس فى القرآن خطاب أريد منه العلم بمدلوله إلا وهو داخل فى هذه الأقسام.

فالبيان المقترن: كقوله ﴿**حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط**

الأسود من الفجر﴾[1]، وكقوله: ﴿لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله﴾[2]، وقوله: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما﴾[3] ونظائر ذلك.

والبيان المنفصل: كقوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾[4] وقوله: ﴿وفصاله فى عامين﴾[5] مع قوله: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾[6] فأفاد مجموع اللفظين البيان بأن مدة (أقل)[7] الحمل ستة أشهر، وكذلك قوله: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾[8] مع قوله: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة...﴾[9] الآية، أفاد مجموع النصين العلم بالمراد من الكلالة، وأنه من لا ولد له وان سفل، ولا والد له وإن علا، وكذلك قوله: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾[10] مع قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾[11] أفاد مجموع الخطابين فى الرجعيات دون البوائن. ومنه قوله: ﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾[12] مع قوله: ﴿كلا والقمر، والليل إذْ أدبر، والصبح إذا أسفر﴾[13] فإن مجموع الخطابين يفيدان العلم بأن الرب سبحانه أقسم

---

(١) سورة البقرة/ ١٨٧.
(٢) سورة النساء/ ٩٥.
(٣) سورة العنكبوت/ ١٤.
(٤) سورة البقرة/ ٢٣٣.
(٥) سورة لقمان/ ١٤.
(٦) سورة الأحقاف/ ١٥.
(٧) من المختصر.
(٨) سورة النساء/ ١٢.
(٩) سورة النساء/ ١٧٦.
(١٠) سورة الطلاق/ ٦.
(١١) سورة الطلاق/ ٢.
(١٢) سورة التكوير/ ١٧-١٨.
(١٣) سورة المدثر/ ٣٢-٣٤.

بإدبار هذا، وإقبال هذا، أو بإقبال كلٍ منهما على من فسر أدبر بأنه دبر النهار، أى جاء فى دبره، وعسعس بأقبل.

فعلى هذا القول يكون الإقسام بإقبال الليل، وإقبال النهار، وعلى القول الأول يكون قد وقع الإقسام بإدْبار الليل وإقبال النهار، وقد يقال: وقع الإقسام فى الآيتين بالنوعين.

وأما البيان الذى يحيل المتكلم عليه: فكما أحال الله سبحانه وتعالى على رسوله فى بيان ما أمر به عباده من الصلاة، والزكاة، والحج، وفرائض الإسلام، التى إنما علم مقاديرها، وصفاتها، وهيئاتها من بيان الرسول ﷺ(١).

فلا يخرج خطاب القرآن عن هذه الوجوه، ولم يخاطب الله عباده بلفظ إلا وقد بين لهم مراده به، بأحد هذه الوجوه الأربعة، فصار الخطاب مع بيانه مفيدا لليقين بالمراد منه، وإن لم يكن بيانه متصلا به، وذلك لايعزل كلام الله ورسوله عن إفادته العلم واليقين(٢).

الوجه الثامن والخمسون: أن حصول اليقين بمدلول الأدلة السمعية والعلم بمراد المتكلم بها أيسر وأظهر من حصوله بمدلول الأدلة

---

(١) وردت هذه الفرائض مجملة فى القرآن، وجاءت السنّة بتفصيل إجمالها فورد فرض الصلاة مجملا فى قوله تعالى: **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾** النساء/ ١٠٣، ثم جاءت السنّة بتفصيل ذلك فبينت عدد الصلوات المفروضة وعدد ركعاتها، والأوقات المحددة لأدائها، وكيفية ذلك الأداء. وورد فرض الزكاة مجملا فى القرآن الكريم فقال تعالى: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾** التوبة/ ١٠٣، وقال: **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** فجاء ذكر الزكاة مجملا، وبينه الرسول ﷺ، وبيانه من الوحى، لأن الله تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة.

وكذا الحال فى الحج **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾** وقد بينه الرسول ﷺ فى حجة الوداع وقال: «خذوا عنى مناسككم» وكذا بقية فرائض الإسلام. انظر تفصيل ذلك كله فى الأبواب المعقودة لكل فريضة منها فى كتب السنّة.

(٢) لم يذكر صاحب المختصر من أوجه الرد بعد هذا الوجه سوى ثلاثة أوجه هى التاسع والستون، وهو عنده «الخامس والخمسون» والوجه «الحادى والسبعون» وهو عنده «السادس والخمسون»، و«الثالث والسبعون» وهو عنده السابع والخمسون.

العقلية، فإن الأدلة السمعية تدل بقصد الدال وإرادته، وعلم المخاطب بذلك أيسر عليه من علمه باقتضاء الدليل العقلى بمدلوله، ولهذا كان أول ما يفعله الطفل معرفة مراد أبويه بخطابهما له قبل علمه بالأدلة العقلية، وأيضا فمن قصد تعليم غيره مقتضى الدليل العقلى «لم»[1] يمكنه ذلك حتى يعرفه مدلول الألفاظ التى صاغ بها الدليل العقلى لمن يمكنه ذلك، فعلمه بمدلول الدليل السمعى الدال على مقتضى الدليل العقلى أسبق إليه وأيسر عليه، وهذا هو الشيء الطبيعى الموجود فى الناس، كما يخاطب العالم المتعلم بالألفاظ الدالة على الدليل العقلى فلابد أن يعرف مدلول تلك الألفاظ أولا، ثم يرتب مدلولها فى ذهنه (ترتيبا)[2] ينتج له العلم بالنتيجة، وليس أحد من البشر يستغنى عن التعليم السمعى، كيف وآدم أبوهم أول من علمه الله أصول الأدلة السمعية، وهى الأسماء كلها، وكلمه قبلاً، ونبأه وعلمه بخطاب الوحى ما لم يعلمه بمجرد العقل، وهكذا جميع الأنبياء من ذريته علمهم بالأدلة السمعية وهى الوحى، ما لم يعلموه بمجرد عقولهم، وحصل لهم من اليقين والعلم بالأدلة السمعية التى هى خطاب الله لهم ما لم يحصل لهم بمجرد العقل، وأحيلوا هم وأممهم على أدلة سمعية، ولم يحالوا على العقل، وهداهم الله بالأدلة السمعية لا بمجرد العقل، وأقام حجته على أممهم بالأدلة السمعية لا بالعقل[3] يوضحه:

الوجه التاسع والخمسون: وهو ما اتفق عليه أهل الملل أن النبوة خطاب سمعى بوحى يوحيه الملك إلى النبى عن الرب تعالى ليست مجرد معرفة الحقائق بقوة قدسية فى البشر تميز بها عن غيره، وقوة تخيل وتخييل يتمكن بها «آخر»[4] التصور وحسن البصيرة وقوة النظر يتمكن بها من

(١) فى الأصل: «كمن». ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٢) فى الأصل: «تركيبا» ولعل ما أثبت هو الصواب لدلالة السياق عليه.

(٣) إذ لو كان العقل وحده هو الذى يفيد اليقين، لما كان ثمة حاجة إلى إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولوكل الله تعالى الناس إلى عقولهم.

(٤) هكذا في الأصل، ولعل الصواب «من».

فى عناصر العالم كما يقوله المتفلسفة[1]، ويقولون إن ما يحصل للنبى من المعارف إنما هو بواسطة القياس العقلى كغيره من البشر، لكن هو أسرع وأكمل إدراكا للحد الأوسط من غيره، ويزعمون أن علم الرب كذلك، والقائلون بأن اليقين والعلم إنما يحصل من الأدلة العقلية لا من الأدلة السمعية هم هؤلاء، وعنهم تلقى هذا الأصل، ومنهم أخذ، فهو أحد أصول الفلسفة والإلحاد والزندقة الذى يتضمن عزل النبوات وما جاءت به الرسل عن الله من الأدلة السمعية وتولية القواعد المنطقية والآراء الفلسفية[2] فأخذه منهم متأخرو الجهمية فصالوا به على أهل الكتاب والسنّة، ولقد كان قدماؤهم لا يصرحون بذلك، ولا يتجاسرون عليه، فكشف المتأخرون القناع وألقوا جلباب الدين، وصرحوا بعزل الوحى عن درجته، والمسلمون[3] بل وأهل الملل قاطبة يعلمون بالضرورة أن أكمل التعليم تعليم الله لصفيه آدم الأسماء كلها[4]، وأكمل التكليم تكليمه سبحانه لكليمه موسى[5]، وأعلى أنواع العلوم وأعظمها إفادة لليقين العلوم التى ألقاها الله سبحانه إلى أنبيائه بواسطة السمع، وأن نسبة العلوم العقلية المشتركة بين الناس إليها أقل وأصغر من نسبة علوم العجائز والأطفال إلى تلك العلوم، فبين العلوم الحاصلة من الأدلة السمعية للرسل واتباعهم، وبين العلوم الصحيحة الحاصلة بأفكار العقلاء من التفاوت أضعاف مابين الخردلة إلى الجبل العظيم، فكيف التشبيه بين العلوم السمعية اليقينية للرسل وأتباعهم، وبين الشبه الخيالية التى هى من جنس شبه السوفسطائية فى التحقيق، فدعوى هؤلاء «المخدوعين»[6] المخادعين أن ما جاءت به الأنبياء لايفيد اليقين، وأن تلك الهذيانات التى بنوا عليها

---

(١) انظر: الإشارات والتنبيهات لابن سينا بشرح الطوسى ٤/٨٩٧-٨٩٨.

(٢) انظر: زيادة تفصيل لهذه القضية عند ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ١٢/٣٤٣-٣٥٤.

(٣) فى الأصل: «والمسلمين» وهو خطأ.

(٤) قال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها...﴾ الآية البقرة/٣١.

(٥) قال تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ النساء/ ١٦٤، وقال: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه...﴾ الآية الأعراف/١٤٣.

(٦) لعلها «المخذولين».

واستدلوا بها هى المفيدة لليقين من جنس دعوى فرعون وقوله: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾(١) وقال عن موسى وماجاء به: ﴿إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾(٢) فدعوى هؤلاء من جنس دعواه سواء(٣). وبالله التوفيق.

الوجــه الستــــون: أن دلالة الأدلة السمعية على مدلولها من جنس دلالـة الآيات المعينة على مدلولها، وهذان النوعان هما أكمل الأدلة وهما المستلزمات للعلم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته، والمعاد، وإثبات صدق الرسل، بخلاف الأدلة العقلية الكلية التى طريقها صناعة المنطق، فإنها إذا صحت مقدماتها وكانت يقينية، وكانت منتجة فإنها تنتج مطلوباً كلياً لايحصل به إثبات رب معين، ولا رسول معين، ولا إثبات شىء من أصول الإيمان التى لا سعادة للعبد بدونها، فإن غاية ما عند هؤلاء: أن الممكن يفتقر إلى واجب(٤)، فبعد تقرير إمكان العالم، والتخلص من الشبه الواردة على الإمكـان، إنـما استفـادوا إثبـات وجـود واجب. ومعلوم أن فرعون

---

(١) سورة غافر/ ٢٩.

(٢) سورة غافر/ ٢٦.

(٣) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص١٠٨ هامش رقم(١).

(٤) سبق أن ذكـر المصنف بعض الأقـوال عن أبرز أئمة المتكلمين يعترفون فيها بشكهم وحيرتهم، وعدم حصولهم على ما كانوا يصبون إليه من وراء رحلتهم الطويلة مع علم الكلام، حيث لم يصلوا فى نهاية أمرهم إلا إلى الحيرة والندم حين أدركوا خطأ ما كانوا عليه من مناهج عقلية سقيمة، باعدت بينهم وبين المعرفة الحقة، والعلم اليقينى. ولذلك قال أحدهم ـ وهو الخونجى، الحسن بن سعد بن الحسن أحد أبرز تلامذة فخر الدين الرازى: أشهدكم ـ يعنى تلاميذه ـ أنى أموت وما عرفت مسألة واحدة، إلا مسألة افتقار الممكن إلى واجب، ثم قال والافتقار أمر عدمى، فها أنا ذا أموت وما عرفت شيئا. راجع ص٣٤-٣٥ من هذا الجزء.

وهامان(١) ونمرود بن كنعان(٢)، والمجوس(٣)، والصابئة(٤)، لا يشكّون فى إثبات وجود واجب، بل عُباد الأصنام أهدى من هؤلاء حيث اعترفوا برب قيوم خالق قادر يفعل بمشيئته وقدرته(٥) وأصحاب هذه الأدلة العقلية التى تفيد اليقين لم يصلوا فيها استفادوه بها إلى هذا ولا قريب منه، بل أثبتوا وجودا واجبا، وهل هو هذا الفلك، أو فلك وراءه؟، ووجود مطلق، أو

---

(١) وزير فرعون، قال تعالى: ﴿وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب﴾ الآية غافر/٣٦.

(٢) ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وهو صاحب المناظرة المشهورة مع خليل الله إبراهيم عليه السلام والتى حكاها الله تعالى فى كتابه فقال: ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت. قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ البقرة/ ٢٥٨. انظر البداية والنهاية ١/١٤٧-١٤٨.

(٣) جمع مجوسي، والمجوسي منسوب إلى المجوسية، وهى نحلة، وفى الحديث «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه أو ينصرانه» أى يعلمانه أحد هذه الأديان.

ومذهب المجوس يتمثل فى القول بأصلين، وهما النور، والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، وأن الشر من فعل الظلمة، انظر: لسان العرب مادة «مجس»، والملل والنحل للشهرستانى ١/٢٣٢.

قال الشهرستانى: المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلى، والظلمة محدثة، ثم لهم اختلاف فى سبب حدوثها، أمن النور حدثت؟ والنور لا يحدث شرا جزئيا فكيف يحدث أصل الشر؟، أم من شىء آخر؟ ولا شىء يشرك النور فى الإحداث والقدم، وبهذا يظهر خبط المجوس. نفس المصدر ص٢٣٣.

(٤) قال الشهرستانى: الصبوة فى مقابلة الحنيفية. وفى اللغة: صبأ الرجل، إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن منهج الأنبياء قيل لهم الصابئة. الملل والنحل ٢/٥.

وقد أوضح مذهبهم بقوله: فالصابئة كانت تقول: إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسمانى بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب يماثلنا فى المادة والصورة. نفس المصدر ١/٢٣٠. وانظر زيادة إيضاح لمذهب هؤلاء نفس المصدر ٢/٦، ٧.

(٥) قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ الزخرف/ ٨٧.

علة أولى، أو الوجود الكلى العام السارى فى الموجودات، كما قال بكل من ذلك طائفة.

وأما كونه الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم القاهر فوق عباده، الذى استوى على عرشه يعلم ماتخفيه الضمائر، ويرى ويسمع ويتكلم ويكلم، ويرضى، ويغضب، ويخلق ما يشاء، فهذا لاتدل عليه مقدماتهم المنطقية، وأدلتهم الكلية، فلا تفيد شيئا من مطالب الإيمان المشتركة بين أهل الملل البتة.

وأما أدلة الرب سبحانه بآياته السمعية والخلقية، فهى التى دلت عباده على توحيده، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وصدق رسله، وصحة معاد الأبدان، وقيام الناس من قبورهم إلى دار شقاوة وسعادة، فلولا هذه الآيات السمعية لم يعرفوا شيئا من ذلك، و قد أخبر سبحانه عن هذه الآيات السمعية والخلقية بقوله: ﴿**سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**﴾[1] فبين سبحانه أنه يرى عباده من الآيات المشهودة العيانية فى الآفاق وفى أنفسهم ما يتبين لهم به أن آياته السمعية القرآنية حق وصدق، فآيات الرب تعالى العيانية الآفاقية، والنفسية مستلزمة لإثبات الأدلة السمعية، ثم دلالة آياته السمعية التى لاتفيد اليقين عند هؤلاء أكمل دلالة على المطالب الإيمانية من الأدلة الكلية المؤلفة من القياسيات المنطقية، بل دلالتها على تلك المطالب كدلالة الشمس على النهار، ودلالة ضوء الصبح على الصباح، ودلالة الدخان على النار، والمصنوع على الصانع، ودلالة النجوم على الطرق ونحو ذلك.

وهذا يبين أن أضعف أنواع الأدلة هى الأدلة القياسية العقلية التى هى عند كثير من الفلاسفة والمتكلمين أكمل الأدلة، ثم الدليل القياسى

---

(١) سورة فصلت/ ٥٣.

التمثيلى[1] أقوى وأظهر دلالة من الدليل القياسى الشمولى[2] خلاف ما يدعيه المنطقيون ومن اتبعهم، فأدلة هؤلاء هى آخر المراتب وأضعفها، وأدلة القرآن فى أعلى مراتب الأدلة وأشدها ارتباطا بمدلولها واستلزاما له خلافا لمن عكس ذلك، كابن سينا، وابن الخطب[3]، والآمدى[4]، وأشباههم، فدلالة المثال أكمل من دلالة الحال، ودلالة الحال المعينة أكمل من الدلالة الكلية المنطقية، ودلالة كلام الله أكمل من دلالة كل كلام، وإفادته اليقين فوق إفادة كل دليل اليقين بمدلوله، ودلالة الآيات العيانية على مدلولها فوق إفادة كل دليل عقلى لمدلوله، فقول من قال: إنها لاتفيد اليقين بمدلولها لأنها أدلة لفظية، والأدلة العقلية لاتفيد لكونها أمثالاً جزئية لا أقيسة كلية، فيسمون آياته السمعية أدلة «لفظية»[5] وآياته العيانية تمثيلات جزئية ويقولون: هذا تمثيل لا دليل. وفى الأولى: هذا دليل لفظى لا عقلى، فقول هؤلاء قلب للحقائق وعكس لما فطر الله عليه عباده، وقدح فى المعلوم قطعا ويقينا بالشبه الخيالية والأقيسة المنطقية، وقد أفسدوا من الفطر وغيروها عما فطرت عليه خلائق لايحصيهم إلا الله، وهؤلاء للملل

---

(١) قياس التمثيل هو: انتقال الذهن من حكم معين إلى حكم معين، لاشتراكهما فى ذلك المعنى المشترك الكلى، لأن ذلك الحكم يلزم المشترك الكلى. مجموع الفتاوى ١٢/٩.

(٢) قياس الشمول هو: انتقال الذهن من المعين إلى المعنى العام المشترك الكلى المتناول له ولغيره، والحكم عليه بما يلزم المشترك الكلى بأن ينتقل من ذلك الكلى اللازم إلى الملزوم الأول، وهو المعين، فهو انتقال من خاص إلى عام، ثم انتقال من ذلك العام إلى الخاص، من جزئى إلى كلى، ثم من ذلك الكلى إلى الجزئى الأول فيحكم عليه بذلك الكلى. نفس المصدر ص١١٩.

(٣) هو فخر الدين الرازى، تقدم التعريف به فى الجزء الأول ص٢١٣، وراجع ص٣٦ من هذا الجزء.

(٤) أبو الحسن عليّ بن أبى عليّ بن محمد بن سالم، المعروف بـ«سيف الدين الآمدى» أصولى متكلم، أحد أعيان الأشاعرة، ولد بعد الخمسين وخمسمائة بمدينة آمد، وتوفى بدمشق سنة ٦٣١هـ. انظر: طبقات الشافعية ٣٠٦/٨، ومعجم المؤلفين ١٥٥/٧، وشذرات الذهب ١٤٤/٥، ومن أبرز مصنفاته فى علم الكلام كتاب «غاية المرام»، وكتاب «أبكار الأفكار». سار فيهما على المنهج العقلى الذى أشار إليه المصنف.

(٥) فى الأصل «القطعية».

بمنزلة السوس فى الخشب والثياب وغيرهما، ولهذا سماهم أنصار الله ورسوله سوس الملل.

وإذا شئت أن تعرف حقيقة الأمر فانظر إلى أهل الأدلة السمعية، وأهل الأدلة المنطقية، ووازن بين معارف هؤلاء وعلومهم وإيمانهم وهدايتهم ونفع الخلق بهم وسيرتهم، وبين علوم أولئك ومعارفهم وسيرتهم وضرر الخلق بهم وإخراجهم لمن انشبوا مخالبهم فيه من العقل والدين خروج الشعرة من العجين.

الوجه الحادى والستون: أنه من أعظم المحال أن يكون المصنفون فى جميع العلوم قد بينوا مرادهم، وعلم الناس مرادهم منها يقينا سواء كان ذلك المعلوم مطابقا للحق أو غير مطابق له، ويكون الله ورسوله لم يبين مراده بكلامه ولا تيقنت الأمة إلى الآن ما أراد بكلامه(١) فهذا لايقوله إلا من هو أجهل الناس بالله ورسوله وكلامه، ونحن لاننكر أن فى أرباب المعقولات من هو فى غاية البعد عن معرفة الله ورسوله وما جاء به، وأنه لم يحصل له اليقين من كلام الله ورسوله وذلك لبعده منه وعدم الغنية به، وسوء ظنه به واعتقاده أن كلامه خطاب لا برهان، وأنه تخييل خيل به إلى

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أهل العناية بعلم الرسول، العالمين بالقرآن، وتفسير الرسول ﷺ، والصحابة والتابعين لهم بإحسان، والعالمين بأخبار الرسول والصحابة والتابعين لهم بإحسان، عندهم من العلوم الضرورية بمقاصد الرسول ومراده ما لا يمكنهم دفعه عن قلوبهم، ولهذا كانوا كلهم متفقين على ذلك من غير تواطؤ ولا تشاعر، كما اتفق أهل الإسلام على نقل حروف القرآن، ونقل الصلوات الخمس والقبلة، وصيام شهر رمضان. وإذا كانوا قد نقلوا مقاصده ومراده عنه بالتواتر، كان ذلك كنقلهم حروفه وألفاظه بالتواتر، ومعلوم أن النقل المتواتر يفيد العلم اليقينى، سواء كان التواتر لفظيا أو معنويا، كتواتر شجاعة خالد، وشعر حسان، وتحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ . . . وطب جالينوس، ونحو سيبويه. يبين هذا أن أهل العلم والإيمان يعلمون من مراد الله ورسوله بكلامه أعظم مما يعلمه الأطباء من كلام جالينوس، والنحاة من كلام سيبويه، فإذا كان من ادعى فى كلام سيبويه وجالينوس ونحوهما ما يخالف ما عليه أهل العلم بالطب والنحو والحساب من كلامهم، كان قوله معلوم البطلان، فمن ادعى فى كلام الله ورسوله خلاف ما عليه كان قوله أظهر بطلانا، وفسادا، لأن هذا معصوم محفوظ. درء تعارض العقل والنقل ١/١٩٥-١٩٦.

النفوس وشبه لها الأمور العقلية وأخرجها فى الصور المحسوسة، وأن القرآن إنما هو خطاب للعرب الجهال الذين هم من أجهل الأمم بالعلوم والحقائق، وأنهم لم يمكن دعوتهم إلا بالطريق الخطابية التخييلية، لا بالطريق البرهانية العقلية الحكمية، وأن طريق الحكمة والبرهان هى طرق الفلاسفة والمنطقيين والصابئة وأتباعهم، فلا ريب أن القرآن فى حق مثل هذا لا يفيده اليقين بل هو عمى عليه وضلال فى حقه كما قال تعالى: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾[1] قال مجاهد: بعيد من قلوبهم فهم ما يتلى عليهم[2]، وقال الفراء: تقول للرجل الذى لايفهم كلامك: أنت تنادى من مكان بعيد[3]. وقال صاحب «. . . . .»[4] أى إنهم لايسمعون ولايفهمون كما أن من دعى من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم، وهذا حال هؤلاء الذين لا يستفيدون من كلام الله ورسوله يقينا ولا علما، وهذه أيضا حال الجهال ومن نشأ بالبوادى ومن لا فهم له من أهل البله والبلادة وأمثال هؤلاء، فإن هؤلاء لا يستفيدون من كلام الله ورسوله علما ولا يقينا، فقول القائل: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين لم يذكر المفعول بل حذفه فإن (أراد أنها)[5] لا تفيد اليقين لهاتين الطائفتين فصدق. وإن أراد أنها لا تفيده للراسخين فى العلم وأهل الذكاء الذين هم أحسن الناس قصودا، وأصحهم أذهانا فقد كذب عليهم وبهتهم، فإنهم قد استفادوا منها من اليقين ما لم يستفده أهل منطق اليونان وأتباع الفلاسفة وأفراخ الصابئة وورثة الملاحدة وأوقاح الجهمية من قواعدهم الباطلة، فدعواهم (أنهم)[6]

---

(١) سورة فصلت/ ٤٤.

(٢) انظر: جامع البيان للطبرى ١٢٨/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٧٢/٧.

(٣) معانى القرآن لأبى زكريا يحيى بن زياد الفراء ٢٠/٣.

(٤) كلمة غير واضحة.

(٥) فى الأصل: «افادتها» والصواب ما أثبت.

(٦) فى الأصل: «أنكم» والصواب ما أثبت.

لم يستفيدوا منها يقينا مكابرة لهم فى الأمور الوجدانية الحاصلة لهم. وإن قالوا: نحن لم نستفد منها يقينا. قيل لهم: لا يلزم من ذلك أن لا تفيد اليقين لأهل العلم والإيمان، وقد قال من لم يستفد العلم واليقين من القرآن[1] للنبى ﷺ ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿**وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**﴾[2] ولم يمنع هذا ارتفاع هذه الموانع واستفادة الهدى واليقين فى حق المؤمنين المصدقين، بل كان فى حقهم هدى وشفاء، وإن قال: هى لا تفيد اليقين فى نفسها وليست موضعا لذلك، فهذا غاية البهت والإلحاد. يوضحه:

الوجه الثانى والستون: أن يقال لهم ما تريدون بهذا النفى؟ أتريدون بالأدلة اللفظية جنس كلام بنى آدم الدال على مرادهم فى الخطاب والتصنيف وغيره، أو كلام الله ورسوله؟ وهل مرادكم بهذا السلب أن شيئا منها لا يفيد اليقين، أو أن مجموعها لا تفيده وإن أفاده بعضها؟ وهل المراد أنه لا يستفيد أحد منها اليقين البتة، أو أن الناس كلهم لا يستفيدون منها اليقين بل يستفيده بعضهم دون البعض؟ وهل المراد بها لا تفيد اليقين بمراد المتكلم بها أو لا تفيد اليقين بثبوت ما أخبر بثبوته ونفى ما أخبر بنفيه وإن تيقنا مراده؟ فهما مقامان، والفرق بينهما معلوم، فهذه ثمانية تقادير، فبينوا مرادكم منها فإن أحدا من العقلاء لا يمكنه أن ينفى حصول اليقين منها على هذه التقادير كلها، وإذا كان المراد نفى اليقين على بعض التقادير المذكورة فبينوه بالدعوى ليتوارد النفى والإثبات على محل واحد، والظاهر - والله أعلم - أنكم تريدون أن كلام الله ورسوله لا يستفاد منه علم ولا يقين فى باب معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وإثبات ملائكته وصفاتهم وأنواعهم، وإذا لم يفد اليقين فى ذلك وهو أعظم أقسام القرآن

---

(١) يعنى المشركين. انظر جامع البيان ٢٤/ ٩١.

(٢) سورة فصلت/ ٥.

وأظهرها وأكثرها ورودا فيه، فكيف تفيد فى باب المعاد والأحكام كما تقدم تقريره[1].

الوجه الثالث والستون: أن هذا القانون مضمونه جحد الرسالة فى الحقيقة، وإن أقرّ بها صاحبه بلسانه، بل مضمونه أن ترك الناس بلا رسول يرسل إليهم خير من أن يرسل إليهم رسول، وأن الرسل لم يهتد بهم أحد فى أصول الدين، بل ضل بهم الناس، وذلك أن القرآن على ما اعتقده أرباب هذا القانون لايستفاد منه علم ولا حجة، بل إذا علمنا بعقولنا سببا اعتقدناه، ثم نظرنا فى القرآن، فإن كان موافقا لذلك أقررناه على ظاهره لكونه معلوما بذلك الدليل العقلى الذى استفدناه به لا بكون الرسول أخبر به، وإن كان ظاهره مخالفا لما عرفنا واستنبطناه بعقولنا اتبعنا العقل وسلكنا فى السمع طريقة التأويل، أو الإعراض والتفويض، فأى فائدة حصلت إذاً بإخبار الرسول، بل مضمون ذلك أنّا حصلنا على العناء الطويل باستخراج وجوه التأويلات المستلزمة، أو التعريض لاعتقاد الباطل والضلال بحمل الكلام على ظاهره، فكانت الأدلة اللفظية مقتضية لضلال هؤلاء ولعناء أولئك، فأين الهدى والشفاء الذى حصل بها لهؤلاء وهؤلاء؟ ومن العجب اعتراف أرباب هذا القانون بهذا، وجوابهم عنه بجواب أهل الإلحاد، وهو أن المخاطبين لم يكونوا يفهمون الحقائق فضربت لهم الأمثال من غير أن يكون المخبر «به»[2] ثابتا فى نفس الأمر، فراجع كتب القوم تجد ذلك فيها.

الوجه الرابع والستون: أن أصحاب هذا القانون فى قول مختلف يؤفك عنه من أفك، فتارة يقولون: نحن نعلم انتفاء الظاهر قطعا وأنه غير مراد وإن كنا لا نعلم عين المراد، وتارة يقولون: بل الرسول خاطب الخلق

(١) راجع الوجه الثامن والعشرين.
(٢) «به» لا توجد فى الأصل.

خطابا جمهوريا يوافق ما عندهم وما ألفوه، ولو خاطبهم بإثبات موجود لاداخل العالم ولا خارجه، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يرى عيانا، ولا يشار إليه، لقالوا: هذه صفات معدوم لا موجود، فوقعوا فى التعطيل فكان الأصلح أن يأتى بألفاظ دالة على مايناسب ما تخيلوه وألفوه فيخلصهم من التعطيل فكيف يجمع هذا القول وقولهم: إن الظاهر غير مراد؟، فإن كان قد أراد منهم الظاهر بطل قولهم: إن الظاهر غير مراد، وإن أراد منهم التأويل يبطل قولكم: إنه قصد خطابهم بما يخيل إليهم ويتمكنون معه من إثبات الصانع ويتخلصون به من التعطيل، فأى تناقض أشد من هذا؟ فإن أراد الظاهر فقد أراد عندكم إفهام الباطل الذى دل عليه لفظه، وإن لم يرد الظاهر بل أراد منهم التأويل لم يحصل الغرض الذى ذكرتموه، ولم تخلصوا من التعطيل، وهذا لا حيلة لكم فى دفعه، فهما طريقتان باطلتان مضادتان لقصد الرسالة.

هؤلاء يقولون: أراد منهم أن يتخيلوا ما ينفعهم وإن لم يكن حقا فى نفس الأمر.

وأصحاب التأويل يقولون: أراد منهم ضد ذلك المعنى الذى دل عليه كلامه ونصه، وتارة يقولون: أراد منهم تأويل النصوص. وتارة يقولون: أراد منها تفويضها. وقد نزه الله رسوله عن أن يريد المعانى الباطلة أو يقصر فى بيان ما أراده، فإن الأول كذب وتدليس وتلبيس، والثانى تقصير فى البيان. وإذا كان الرسول منزهاً عن هذا وهذا فالرب تعالى أولى بتنزيهه عن الأمرين، وقد قام الدليل القطعى على تنزيه الله ورسوله عن ذلك، فلا يقدح فيه بالشبه الخيالية الفاسدة.

الوجه الخامس والستون: أن الله سبحانه قسم الأدلة السمعية إلى قسمين: محكم، ومتشابه، وجعل المحكم أصلا للمتشابه وأمّاً له يُردّ إليه[1]. فما خالف ظاهر المحكم فهو متشابه يرد إلى المحكم، وقد اتفق

---

(١) قال تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب =

المسلمـون على هذا، فإن المحكم هو الأصـل والمتشـابـه مردود إليه، وأصحـاب هذا القـانون جعلوا أصل المحكم ما يدعونه من العقليات، وجعلوا القرآن كله مردوداً إليه، «فما»(1) خالفه فهو متشابه، «وما»(2) وافقه فهو المحكم، ولم يبق عند أهل القانون في القرآن محكم يرد إليه المتشابه ولاهو أم الكتاب وأصله.

الـوجـه السادس والستون: أنه على قول أرباب القانون لاسبيل لأحد أن يعرف أن شيئا من القرآن محكم، فإن ذلك إنما يعرف إذا حصل اليقين باقتضاء المعارض العقلى، وهذا النفى غير معلوم إذ غاية مايمكن انتفاء العلم بالمعارض لا العلم بانتفائه، فإن قلتم: نحن نقول إن صرف اللفظ عن ظاهـره وإخراجه عن كونه محكما لا يجوز إلا عند قيام الدليل العقـلى القـطعى على أن ظاهـره محال ممتنـع، قيل: وأنتم تقولون ـ مع ذلك ـ: إن حمله على ظاهره لا يجب إلا إذا قام الدليل العقلى على أن ظاهره حق، فما لم يعضده دليل عقلى لم يجزم بثبوته فالمعتمد إذاً عندكم فى النفى والإثبات على الدليل العقلى، والقرآن عديم التأثير لا يجزم بنفى مانفاه ولا

= وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والـراسخـون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر إلا أولوا الألباب﴾ آل عمران/ ٧.

وانظر تفسير هذه الآية فى جامع البيان للطبرى ٤/ ١٧٠-١٨٦، حيث ذكر أقوال أئمة التفسير فى المراد بالمحكم والمتشابه، وليس فيهم من قال بأن آيات الصفات من المتشابه وإنما حدث هذا القول من بعض المتأخرين، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. انظر: تفسير سورة الإخلاص ص١٤١، والاتقان للسيوطى ٢٢/ ٦.

والصحيح الذى عليه المحققون من العلماء أنه لا يوجد فى القرآن ما لا يعرف معناه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: لا يجوز أن يكون تعالى أنزل كلاما لا معنى له، ولا يجوز أن الرسول وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ. . . فإن معنا الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنّة، وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره». تفسير سورة الاخلاص ص١١٩.

(١) في الأصل: «فمن» وما أثبت أولى.

(٢) في الأصل: «ومن» وما أثبت أولى.

بإثبات ما أثبته، وهذا قول من لم يؤمن بما أنزل الله من الكتاب، ولا بما أرسل به الرسول.

الوجه السابع والستون: أن أصحاب القانون لا يمكنهم إنكار أن الأدلة اللفظية تفيد ظنا غالبا وإن لم تفدهم يقينا، وماعندهم مما يسمونه أدلة عقلية على نفى مادل عليه القرآن والسنّة من الصفات إنما هى أقوال باطلة لاتفيد عند التحقيق لا علما ولا ظنا بل جهلا مركبا يظن صاحبها أن معه علما، وإنما معه الجهل المركب، فهى فى العلوم كأعمال من خالف الرسل فى الأعمال ﴿**كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب**﴾[1] فهذا مثل أعمال هؤلاء، وعلوم أولئك، ولاريب أن الظن المستفاد من الأدلة السمعية خير من هذا الجهل المركب، إلا أن يقول أرباب القانون: إن الأدلة اللفظية لايستفاد منها علم ولاظن البتة، ولايستفد هذا من قولهم وهم يقولون: إن ظاهرها باطل وتشبيه وتجسيم، وإذا انتهى الأمر إلى هنا انتقلنا إلى إثبات أن محمداً رسول الله فإن زاعم ذلك غير مقر به «. . . . .»[2] فى نفس الأمر - كما تقدم - والله أعلم.

الوجه الثامن والستون: أن هذا يتضمن القدح فى أعظم آيات الرب الدالة على ربوبيته وحكمته ورحمته وجحد ماهو من أعظم نعمه على عباده، أما الأول فلأن الله سبحانه جعل من آيات ربوبيته الهداية العامة لخلقه كما قال: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى، الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى**﴾[3] وقال فرعون لموسى: ﴿**فمن ربكما ياموسى، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**﴾[4] فهدى كل نفس لجلب ما يصلحها

---

(١) سورة النور/ ٣٩.
(٢) كلمة «ساكنة» والكلام مستقيم بدونها.
(٣) سورة الأعلى/ ١-٣.
(٤) سورة طه/ ٤٩-٥٠.

وينفعها ودفع ما يضرها ويفسدها، وخص «نوع»[1] الإنسان بأنواع أخر من الهداية التى يعرفها ويتمكن من النطق بها لهداية غيره، ومن أعلى أنواع هذا الهدى هدى البيان والدلالة وتعريف الإنسان، ومعرفته مراده ومراد غيره، وذلك إنما هو بصفة النطق التى هى أظهر مافى الإنسان، ولذلك شبه الله سبحانه بها ما أخبر به من الغيب فقال: ﴿**فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾[2]، وأما أن ذلك من أعظم نعم الله على عباده فلأن الإنسان إنما يميز عن سائر الحيوان بكمال هذه القوة وتمامها فيه، واقتداره منها على ما لم تقتدر عليه الحيوانات العجم، ولذلك عد ذلك من نعمه على عباده فى جملة ما أنعم به عليهم فقال: ﴿**الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان**﴾[3] وقال: ﴿**اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم**﴾[4] وقال: ﴿**ألم نجعل له عينين، ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين**﴾[5] فإنكار حصول العلم واليقين من كلام المتكلم قدح فى أعظم آيات الله وجحد لما هو من أعظم نعمه، وكنا نظن أن قائل ذلك أراد أن بعض الأدلة اللفظية لاتفيد العلم واليقين حتى رأيناه قد صرح بأن شيئا منها لايفيد اليقين البتة، ولا قدح في آياته ولا جحد لنعمه أبلغ من ذلك.

الوجه التاسع والستون: أن هذا القول الذي قاله أصحاب القانون لم يعرف عن طائفة من طوائف بني آدم، لا طوائف المسلمين، ولا اليهود، ولا النصارى، ولا أحد من أهل الملل، ولا طوائف الأطباء، ولا النحاة، ولا أهل اللغة، ولا أهل المعاني والبيان، ولا غيرهم قبل هؤلاء، وذلك لظهور العلم بفساده، فإنه يقدح فيما هو أظهر العلوم الضرورية لجميع

---

(١) فى الأصل: «النوع».
(٢) سورة الذاريات/ ٢٣.
(٣) سورة الرحمن/ ١-٤.
(٤) سورة العلق/ ٣-٥.
(٥) سورة البلد/ ٨-١٠.

الخلق، فإن بني آدم «يتخاطبون ويكلم»[1] بعضهم بعضا مخاطبة ومكاتبة، وقد أنطق الله سبحانه بعض الجمادات وبعض أنواع الحيوانات، «بمثل نطق»[2] بني آدم فلم يسترب سامع ذلك النطق في حصول العلم واليقين به، بل كان ذلك عنده من أعظم العلوم الضرورية، فقالت النملة لأمة النمل: ﴿**يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون**﴾[3] فلم يشك النمل ولاسليمان في مرادها وفهموه يقينا، ولما علم سليمان مرادها يقينا تبسم ضاحكا منه[4]، وخاطب الهدهد، وخاطبه الهدهد، فحصل للهدهد العلم اليقين بمراد سليمان من كلامه، وحصل لسليمان ذلك من كلام الهدهد وذهب الهدهد بكتاب سليمان لما حصل له اليقين من كلامه، وأرسل سليمان الهدهد والكتاب وفعل ماحكى الله لما حصل له اليقين بمراد الهدهد من كلامه[5].

وأنطق سبحانه الجبال بالتسبيح مع داود[6] وعلم سليمان منطق الطير[7] وأسمع الصحابة تسبيح الطعام مع رسول الله ﷺ [8]، وأسمع

---

(١) في المختصر: «يتكلمون ويخاطب».

(٢) في المختصر: «بمثل ما أنطق».

(٣) سورة النمل/ ١٨.

(٤) قال تعالى: ﴿**فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين**﴾ النمل/ ١٩.

(٥) وقد حكى الله تعالى هذه القصة فقال: ﴿**وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم**﴾ إلى أن قال: ﴿**قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون...**﴾ الآيات. النمل/ ٢٠-٤٤.

(٦) قال تعالى: ﴿**وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير...**﴾ الآية الأنبياء/ ٧٩.

(٧) قال تعالى: ﴿**وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير...**﴾ الآية النمل/ ١٦.

(٨) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح (٣٥٧٩). ٦/ ٥٨٧. وجامع الترمذي كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ، ح(٣٦٣٣) ٥/ ٥٩٧. ودلائل النبوة للبيهقي بتحقيق الدكتور عبد المعطى قلعجى ٦/ ٦٢، ودلائل النبوة للفريابى بتحقيق عامر حسن صبرى ح(٣١) ص٦٨.

رسوله «تسليم»[1] الحجر عليه[2]، أفيقول مؤمن أو عاقل إن اليقين لم يكن يحصل للسامع بشيء من مدلول هذا الكلام، فعلم أن هذا القول في غاية السفسطة وجحد الحقائق وقلبها وإفساد العقول والفطر.

الوجه السبعون: أن حاصل كلام أرباب القانون يدور على ثلاث مقدمات:

الأولى: أن العلم بمراد المتكلم موقوف على حصول العلم بما يدل على مراده.

الثانية: أنه لاسبيل إلى العلم بمراده إلا بانتفاء هذه الأمور العشرة.

الثالثة: أنه لاسبيل إلى العلم بانتفائها.

فهذه ثلاث مقدمات، الأولى منها صادقة، والأخريان[3] كاذبتان.

أما المقدمة الأولى فصحتها والعلم بمراد المتكلم «كثيرا»[4] مايكون علما اضطراريا، كالعلم بمخبر الأخبار المتواترة، فان الإنسان إذا سمع مخبرا يخبر بأمر حصل عنده ظن، ثم يقوى بالمخبر الآخر حتى يصير علما ضروريا، فكذلك إذا سمع كلام المتكلم فقد يعلم مراده ابتداء بالضرورة، وقد يظنه، ثم يتكرر كلام المتكلم أو يتكرر سماعه له ولما يدل على مراده، فيصير علمه بمراده ضروريا، وقد يكون الكلام بالمراد استدلالا نظريا، وحينئذ فقد يتوقف على مقدمة واحدة، وقد يتوقف على

---

(١) في الأصل: «تسبيح» والصحيح من المختصر.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ح(٢٢٧٧) ٤/ ١٧٨٢. وجامع الترمذي، كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله عز وجل به، ح(٣٦٢٤) ٥/ ٥٩٢، وسنن الدارمي، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ ١/ ١٢، ومسند أحمد ٥/ ٨٩، ٩٥، ١٠٥.

(٣) في الأصل: «والأخر» والصحيح ما أثبت.

(٤) في الأصل: «كثير كثير».

مقدمتين أو أكثر بحسب حاجة السامع وما عنده من القوة القريبة والبعيدة، وسرعة إدراكه وبطئه، وقلة تحصيله وكثرته، وحضور ذهنه وغيبته، وكمال بيان المتكلم وضعفه، فدعوى المدعي أن كل استدلال بدليل لفظي فإنه يتوقف على عشر مقدمات، فهذا باطل قطعا، وأبطل منه دعواه أن كل مقدمة فهي ظنية، فإن عامة المقدمات التي يتوقف عليها فهم مراد المتكلم قطعية في الغالب، وأبطل من ذلك دعواه «أنه»[1] لا يعلم المراد إلا بعد العلم «بانتقال»[2] الدليل الدال على نقيضة، فإن هذا باطل قطعا، إذ من المعلوم أن العلم بثبوت أحد الضدين ينفي العلم بثبوت الضد الآخر، فنفي العلم بالمراد ينفي كل احتمال يناقضه، وهكذا الكلام في نفي المعارض العقلي والسمعي، فإنه إذا علم المراد علم قطعا أنه لا ينفيه دليل الآخر، لا عقلي ولا سمعي، لأن ذلك نقيض له، وإذا علم ثبوت الشيء علم انتفاء نقيضه، وحينئذ فينقلب هذا القانون عليهم بأن يقول: العلم بمدلول كلام الله ورسوله علم يقيني قطعي لا يحتمل النقيض، فنحن نستدل على بطلان كل ما يخالفه ويناقضه بثبوت العلم به، فإن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفي الضد الآخر، وحينئذ فيقطع ببطلان كل شبهة عقلية تناقض مدلول كلام الله ورسوله، وإن لم ينظر فيها على التفصيل، وهذا الأصل العظيم أصح من قانونهم وأقرب الى العقل والإيمان وتصديق الرسل وإقرار كلام الله ورسوله على حقيقتة وما يظهر منه. يوضحه:

الوجه الحادي والسبعون: وهو أن أرباب هذا القانون «الذي منعهم»[3] استفادة اليقين من كلام الله ورسوله مضطربون في العقل الذي يعارض النقل أشد اضطراب، فالفلاسفة مع شدة اعتنائهم بالمعقولات أشد الناس اضطرابا في هذا الباب من طوائف أهل الملل، ومن أراد معرفة

---

(١) فى الأصل: «لأنه» وهو خطأ.

(٢) هكذا فى الأصل، ولعل الصواب: «بانتفاء».

(٣) فى المختصر: «الذين منعوا».

ذلك فليقف على مقالاتهم في كتب أهل المقالات، كالمقالات «الكبير»[1] للأشعري[2]، والآراء والديانات للنوبختي[3]، وغير ذلك. وأما المتكلمون فاضطرابهم في هذا الباب من أشد اضطراب في العالم، فتأمل اختلاف فرق الشيعة والخوارج، والمعتزلة، وطوائف أهل الكلام، ومقالاتهم المذكورة في كتب المقالات، وقد ذكرها أبو الحسن الأشعري في كتاب «مقالات المصلين»[4] وغيره ممن صنف في المقالات[5] وكل منهم يدعي أن صريح العقل معه، وأن مخالفه قد خرج عن صريح العقل، فنحن نصدق جميعهم ونبطل عقل كل فرقة بعقل الفرقة الأخرى، ثم نقول للجميع:

بعقل من منكم يوزن كلام الله ورسوله؟، وأي عقولكم نجعل معيارا له فما وافقه قبل وأقر على ظاهره، وما خالفه رد، أو أول أو فوض؟ وأي عقولكم هو إحدى المقدمات العشرة التي تتوقف إفادة كلام الله ورسوله لليقين على العلم بعدم معارضته له؟ أعقل أرسطو[6] وشيعته، أم

---

(١) فى المختصر: «الكبرى».

(٢) يعنى كتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للإمام أبى الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعرى، المتوفى سنة ٣٣٠هـ، وهو مطبوع فى جزءين بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ويعتبر من أوثق المصادر فى هذا الباب.

(٣) أبو محمد، الحسن بن موسى بن الحسن بن محمد النوبختى، فلكى عارف بالفلسفة، كانت تدعيه المعتزلة والشيعة، وهو من أهل بغداد، نسبته إلى جده «نوبخت» له مؤلفات كثيرة منها «الآراء والديانات» وهو كبير ولم يتمه، و«فرق الشيعة» وغيرها. توفى سنة ٣١٠هـ. انظر: الأعلام ٢/ ٢٣٩، ومعجم المؤلفين ٣/ ٢٩٨.

(٤) هكذا فى الأصل، وإنما هو مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين كما تقدم.

(٥) مثل الشهرستانى فى الملل والنحل، وابن حزم فى «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» والبغدادى فى «الفرق بين الفرق»، وأبى المظفر الاسفرائينى فى التبصير فى الدين، والرازى فى اعتقاد فرق المسلمين والمشركين، وغيرهم.

(٦) هو أرسطو طاليس بن نيقوماخوس، من أهل اسطاخرا، وهو المقدم المشهور والمعلم الأول، والحكيم المطلق عند متأخرى حكماء اليونان، وهو أول من وضع تعاليم المنطق، ولذلك سمى المعلم الأول، ومن أشهر آرائه القول بقدم العالم مخالفا بذلك قدماء الفلاسفة الذين قالوا بحدوثه، ولم يثبت فى كتبه للعالم فاعلا موجبا لذاته، وإنما أثبت له علة يتحرك للتشبه بها، عاش ما بين عام (٣٨٤-٣٢٢) قبل الميلاد. انظر: الملل والنحل للشهرستانى ٢/ ١١٩، ودرء تعارض =

عقل أفلاطون[1] وشيعته، أم فيثاغورس[2] أم بند قليس[3]، أم سقراط[4]، أو ثامسطيوس[5]، أم الاسكند بن فيلبس[6] أم عقل الفارابي[7]، أم عقل جهم

= العقل والنقل لابن تيمية ١/١٥١، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص١١٢.

(١) هو الفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون بن أرسطن بن أرسطو قليس من أثينية، عاش بين عامي (٤٢٨ و٣٤٨) ق. م. انظر عن حياته وآرائه: الملل والنحل للشهرستاني ٢/٨٨، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص٦٢.

(٢) فيثاغورس: فيلسوف ورياضي شهير، عرف حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، قال: إن العالم أشبه بعالم الأعداد منه بعالم الماء أو النار أو التراب، وقال: أن الموجودات أعداد، وإن العالم عدد ونغم، وقال بالتناسخ. انظر: الملل والنحل ٢/٧٤، وتاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٠.

(٣) هكذا في الأصل، وهو انباد قليس القائل بالعناصر الأربعة وبالمحبة والكراهية بين هذه العناصر، وفي الكون كله، عاش بين عامي (٤٩٥ و٤٣٥) ق. م. انظر: الملل والنحل ٢/٦٨، وتاريخ الفلسفة اليونانية ص٣٥.

(٤) سقراط بن سُفْرنيسقوس، من مشاهير فلاسفة اليونان، ولدفي أثينا حوالي سنة (٤٧٠) ق. م من أب يحترف صناعة التماثيل، اقتبس فلسفته من فيثاغورس، وأرسالاوس، واقتصر منها على الإلهيات والأخلاقيات. مات مسموما حوالي سنة (٣٩٩) ق. م.

انظر: عن آرائه الفلسفية: الملل والنحل للشهرستاني ٢/٨٣ـ٨٨، وتاريخ الفلسفة اليونانية ص٥٠ـ٥٧.

(٥) ثامسطيوس: من شراح أرسطو مع أنه كان افلاطونيا محدثا، ولد سنة ٣١٧م، وعاش في القسطنطينية، وأيد الأمبراطور جوليان في العمل على بعث الوثنية، توفي سنة ٣٨٨م. انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص٣٠٣، والملل والنحل للشهرستاني ٢/١٥٣، والفهرست لابن النديم ص٣٥٥.

(٦) الاسكندر: هو ذو القرنين الملك، وليس هو ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم، يقول الإمام ابن تيمية: ومن الضلال أن يظن ذو القرنين المذكور في القرآن العزيز هو الأسكندر بن فيلبس الذي يقال إن أرسطو كان وزيره، وهذا جهل، فإن ذا القرنين قديم، متقدم على هذا بكثير، وكان مسلما موحدا حنيفا، وقد قيل: إن اسمه الأسكندر بن دارا. وأما اليوناني فهو ابن فيلبُّس الذي يؤرخ الروم به، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة أو ما يقارب ذلك.

درء تعارض العقل والنقل ٥/٦٨، ٦٩، وانظر الملل والنحل للشهرستاني ٢/١٣٧.

(٧) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابي، أصله من الفارياب من أرض خراسان، ويعرف بالمعلم الثاني لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) عند الفلاسفة، من أشهر آرائه القول بالمعاد الروحاني لا الجسماني، ويخصصه بالأرواح العالمة لا الجاهلة، وله في ذلك مذاهب يخالف بها المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين. ولدسنة (٢٦٠) وتوفي سنة (٣٣٩هـ).

ابن صفوان(١)، أم عقل النظام(٢)، أم عقل العلاف(٣)، أم عقل الجبائي(٤)، أم عقــل بشر المــريسـى(٥)، أم عقــل الإسكــافى(٦)، أم عقــل حســين

= انظر: البداية والنهاية ١١/ ٢٢٤، والأعلام ٧/ ٢٤٢، ٢٤٣، والفهرست ص٣٦٨.

(١) تقدمت ترجمته فى الجزء الأول ص١٠٦ هامش رقم(١).

(٢) النظام: هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانىء، المعروف بالنظام، وهو ابن أخت أبى الهـذيل العـلاف، ومنـه أخـذ الاعتزال، وإليه تنسب فرقة النظامية. توفى سنة ٢٢١ وقيل ٢٣١هـ. انظر: اعتقاد فرق المسلمين والمشركين للرازى ص٣٣، وتاريخ بغداد ٦/ ٩٧، وانظر عن مذهبه: المرشد الأمين إلى اعتقاد فرق المسلمين والمشركين تأليف طه عبد الرؤوف سعد، ومصطفى الهوارى، بهامش كتاب الرازى المتقدم، والفرق بين الفرق للبغدادى ص١٣١.

(٣) أبو الهذيل، محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى المشهور بالعلاف، من أئمة المعتزلة، وهو شيخ فرقة «الهذيلية» من فرق المعتزلة، ولد سنة ١٣٥هـ، وكف بصره فى آخر حياته، واختلف فى تاريخ وفاته فقيل سنة (٢٢٦ أو٢٢٧، أو٢٣٥هـ). انظر: الفرق بين الفرق ص١٢١، واعتقاد فرق المسلمين والمشركين ص٣٢، وتاريخ بغداد ٣/ ٣٦٦، ونكت الهميان ص٢٧٧.

(٤) أبو على محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن عمران بن أبان، الجبائى، نسبة إلى جُبّى - بضم الجيم وتشديد الباء - وهى بلد من أعمال خوزستان، شيخ المعتزلة وأبو شيخها عبد السلام (أبو هاشم) صاحب القول بالأحوال فى الصفات، وعنه أخذ الإمام أبو الحسن الأشعرى، ثم رجع عن مذهبه بعد مناظرات جرت بينهما. توفى الجبائى سنة (٣٠٣). انظر: الفرق بين الفرق ص١٨٣، واعتقاد فرق المسلمين والمشركين ص٣٩، وشذرات الذهب ٢/ ٢٤١، والعبر للذهبى ١/ ٤٤٥، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٣، والبداية والنهاية ١١/ ١٢٥، وطبقات المفسرين للداوودى ٢/ ١٩١، ١٩٢.

(٥) أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة عبد الرحمن المريسى، العدوى بالولاء، كان جده مولى لزيد بن الخطاب رضى الله عنه، وقيل إن أباه كان يهوديا، قال ابن حجر: «تفقه على أبى يوسف فبرع، وأتقن علم الكلام، ثم جرد القول بخلق القرآن وناظر عليه، ولم يدرك الجهم بن صفوان، وإنما أخذ مقالاته واحتج لها، ودعا إليها».

وهو شيخ طائفة المريسية من المرجئة وكانت تقول: إن الإيمان هو التصديق، وإن التصديق يكون بالقلب واللسان جميعا. توفى بشر سنة ٢١٨، وقيل ٢١٩، واختلف فى نسبته، فقيل إنه ينتسب إلى قرية مريس بصعيد مصر، وقيل غير ذلك. انظر: لسان الميزان ٢/ ٢٩-٣١، تاريخ بغداد ٧/ ٥٦-٥٧، والأعلام ٢/ ٢٧-٢٨، والفرق بين الفرق ص٢٠٤-٢٠٧، ومقدمة كتاب الرد على بشر المريسى للإمام عثمان بن سعيد الدارمى.

(٦) أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى من متكلمى المعتزلة، وأحد أئمتهم، إليه تنسب «الإسكـافية» من طوائف المعتـزلـة، وهـو بغـدادى أصله من سمـرقنـد. قال المقريزى: من =

النجار[1]، أم أبي يعقوب الشحام[2]، أم أبي الحسين الخياط[3]، أم أبي القاسم البلخي[4]، أم ثمامة بن أشرس[5]، أم جعفر بن مبشر[6]، أم جعفر

= قول الإسكافي: إن الله تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء، وإنما يقدر على ظلم الأطفال والمجانين !. توفي سنة (٢٤٠). انظر: الخطط للمقريزي ٢/٣٤٦، والأعلام ٧/٩٢، والتبصير في الدين ص٧٩، والفرق بين الفرق ص١٦٨، واللباب ١/٥٧.

(١) هوالحسين بن محمد بن عبد الله النجار، يذكر ابن النديم في الفهرست ص٢٥٤ أنه مات بسبب العلة التي أصابته عندما أفحمه النظام في جدال جرى بينهما، وإليه تنسب النجارية من طوائف المعتزلة، ويذكر الشهرستاني عن الكعبي قوله ـ أي النجار ـ: إن الباري تعالى بكل مكان ذاتا ووجودا، لا على معنى العلم والقدرة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/٨٨ـ٩٠، والفرق بين الفرق ص٢٠٧ـ٢٠٩، والفهرست ص٢٥٤، ومقالات الإسلاميين ١/٣٤٠.

(٢) هو أبو يعقوب: يوسف بن عبد الله بن إسحاق الشحام، من أصحاب أبي الهذيل وإليه انتهت رياسة المعتزلة في البصرة في وقته، وإليه تنسب طائفة الشحامية من المعتزلة. انظر: الفرق بين الفرق ص١٧٨، والتبصير في الدين ص٨٤.

(٣) أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط، من رجال الطبقة الثامنة، وإليه تنسب الطائفة المسماة «الخياطية». توفي سنة ٣٠٠هـ. انظر: الفرق بين الفرق ص١٧٩، والتبصير في الدين ص٨٤، والملل والنحل ١/٧٦.

(٤) هو: أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي صاحب «المقالات» ورأس فرقة الكعبية من فرق المعتزلة، من مقالاته: أن الله تعالى ليست له إرادة، وأن جميع أفعاله واقعة بلا مشيئة ولا إرادة منه لها، وأن الله تعالى لا يرى نفسه ولا غيره إلا على معنى علمه بنفسه وبغيره. توفي سنة ٣١٧، وقيل ٣١٩هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/٤٥، والخطط للمقريزي ٢/٣٤٨، والأعلام ٤/١٨٩، والفرق بين الفرق ص١٨١، والتبصير في الدين ص٨٤، وتاريخ بغداد ٩/٣٨٤.

(٥) هو: أبو معن، ويقال: أبو بشر، ثمامة بن أشرس النميري، زعيم طائفة الثمامية من طوائف المعتزلة، وكان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق، ويقال: إنه كان سببا في ميل المأمون إلى الاعتزال، ومن مقالاته: أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها، وأن من لم يضطره الله تعالى إلى معرفته لم يكن مأمورا بالمعرفة ولا منهيا عن الكفر، وكان مخلوقا للسخرة والاعتبار فحسب كسائر الحيوانات التي ليست بمكلفة. توفي سنة (٢٠٥هـ). انظر: الملل والنحل ١/٧٠، والفرق بين الفرق ص١٧٢، والعبر للذهبي ١/٣٥٩.

(٦) أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفي، من رؤوس المعتزلة، ذكره ابن المرتضى في رجال الطبقة السابعة، وإليه وإلى جعفر بن حرب تنسب طائفة الجعفرية من طوائف المعتزلة. انظر: الفرق بين الفرق ص١٦٧ـ١٦٩، والتبصير في الدين للأسفرائيني ص٧٨، وميزان الاعتدال رقم (١٥١٧) ١/٤١٤.

ابن « حرمية »[1]، أم أبي الحسين الصالحي[2]، أم أبي الحسين البصري[3]، أم أبي معاذ التومني[4]، أم معمر بن عباد[5]، أم هشام الفوطي[6]، أم عباد بن سليمان[7]، أم «ترضون»[8]، بعقول

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب «ابن حرب» إذ لم أجد أحداً بهذا الاسم وجعفر بن حرب هو أبو الفضل جعفر بن حرب الهمداني المعتزلي من تلامذة أبي الهذيل العلاف توفى سنة (٢٣٦) وهو ابن تسع وخمسين سنة. انظر تاريخ بغداد ٧/١٦٢،١٦٣. وسير أعلام النبلاء ١٠/٥٤٩.

(٢) صالح بن عمر الصالحى، زعيم فرقة الصالحية من مرجئة القدرية يقول عن الإيمان: إنه المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به، فلا إيمان بالله إلا المعرفة به، ولا كفر بالله إلا الجهل به، وأن قول القائل: «إن الله ثالث ثلاثة» ليس بكفر، ولكنه لا يظهر إلا من كافر. انظر: مقالات الإسلاميين ١/٢١٤، والملل والنحل ١/١٤٥.

(٣) هو: أبو الحسين محمد بن عليّ بن الطيب البصرى، من متأخرى المعتزلة ومن أئمتهم، توفى سنة ٤٣٦. انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٧١، وشذرات الذهب ٣/٢٥٥، وتاريخ بغداد ٣/١٠٠، والعبر للذهبى ٢/٢٧٣، والبداية والنهاية ١٢/٥٣، والكامل فى التاريخ ٨/٤١، وانظر تفصيل مذهبه فى نهاية الأقدام للشهرستانى ص١٥١، ١٧٥، ١٧٧، ٢٢١، ٢٥٧.

(٤) أبو معاذ التومنى هو رأس الطائفة المعروفة بالتومنية، وهم فرقة من المرجئة، تزعم أن الإيمان ما عصم من الكفر، وهو اسم لخصال إذا تركها التارك أو ترك خصلة منها كان كافرا. انظر: الملل والنحل ١/١٤٤،والفرق بين الفرق ص٢٠٣، والتبصير فى الدين ص٩٨، ومقالات الإسلاميين ١/٢٢١، ومعجم البلدان ٢/٦٠.

(٥) أبو عمرو: معمر بن عباد السلمى، من أصحاب أبى الهذيل، إليه تنسب فرقة «المعمرية» من فرق المعتزلة، من أبرز مقالاته: أن الله تعالى لم يخلق شيئا من الأعراض من طعم أو رائحة أو حياة أو موت أو سمع، أو بصر، وأنه لم يخلق شيئا من صفات الأجسام مخالفا بذلك قوله تعالى: ﴿قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار﴾ الرعد/١٦. وهو من أعظم القدرية فرية فى تدقيق القول بنفى الصفات، ونفى القدر خيره وشره من الله تعالى. انظر: الملل والنحل ١/٦٥-٦٨، والتبصير فى الدين ص٧٣-٧٤، والفرق بين الفرق ص١٥١-١٥٥.

(٦) فى الأصل: «القرطى» وإنما هو هشام بن عمرو الفوطى، إليه تنسب الهشامية من طوائف المعتزلة. ومن ضلالاته بعد قوله بنفى القدر تحريمه على الناس أن يقولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» مانعاً تسميته سبحانه بالوكيل. انظر: الفرق بين الفرق ص١٥٩-١٦٦، والتبصير فى الدين ص٧٥-٧٧، والملل والنحل ١/٧٢-٧٥، واعتقاد فرق المسلمين والمشركين ص٣٨.

(٧) هو: عباد بن سليمان الضمرى، أحد رجال الطبقة السابعة من المعتزلة، وهو من أصحاب هشام بن عمرو الفوطى المتقدم، انظر عن مقالاته: التبصير فى الدين ص٧٦، ومقالات الإسلاميين للأشعرى ١/٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥٣، ٢٥٧.

(٨) فى المختصر «ترضون».

المتأخرين الذين هذبوا العقليات ومحصوا زبدتها، واختاروا لنفوسهم، ولم «ترضوا»[1]، بعقول سائر من تقدم فهذا أفضلهم عندكم محمد بن عمر الرازي، فبأي معقولاته تزنون نصوص الوحي، وأنتم ترون اضطرابه فيها في كتبه أشد الاضطراب فلا يثبت على قول، فعينوا عقلا واحدا من معقولاته ثبت عليه، ثم اجعلوه ميزانا، أم ترضون بعقل نصير الشرك والكفر والإلحاد الطوسي[2]، فإن له عقلا آخر خالف فيه سلفه من الملحدين ولم يوافق فيه اتباع الرسل، أم ترضون عقول القرامطة، والباطنية، والإسماعيلية، أم عقول الاتحادية القائلين بوحدة الوجود[3]،

---

(١) فى المختصر «توصون».

(٢) أبو جعفر، أو أبو عبد الله، محمد بن محمد بن الحسن، المعروف بنصير الدين الطوسى، ويعرف بالمحقق أو الخواجه، ولد بطوس سنة ٥٩٧هـ، وتوفى ببغداد سنة ٦٧٢هـ. وقد اشتهر بتبحره فى العلوم العقلية الفلسفية، وبعلمه بالعلوم الفلكية والرياضية، وكان مهتما بمؤلفات ابن سينا، وشرح قسما منها، إلى جانب ما ألفه من مؤلفات عديدة. وقد كان على صلة وثيقة بالاسماعيلية وبهولاكوا القائد التترى المعروف، يقول ابن كثير: «... وزر لأصحاب قلاع الألموت من الاسماعيلية، ثم وزر لهولاكوا، وكان معه فى واقعة بغداد...» وكفى بهذه الصلة شاهدا على عداوته للإسلام والمسلمين. انظر: البداية والنهاية ١٣/٢٦٧، والأعلام ٧/٢٥٧ـ٢٥٨، وشذرات الذهب ٥/٣٣٩ـ٣٤٠، ومعجم المؤلفين ١١/٢٠٧ـ٢٠٨، ودرء تعارض العقل والنقل ١٠/٥٩.

(٣) هم الذين يقولون: إن ربهم حال فى كل شىء، وأن هذا الوجود علوية وسفلية طيبة وخبيثة هو أسماء ربهم وصفاته، وأنه مجالى ومظاهر له ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا ـ ولهذا يقول زعيمهم ولسانهم ابن عربى الحاتمى:

عقد الخلائق فى الإله عقائدا ... وأنا اعتقدت كل ما اعتقدوه

ويقول:

العبد رب والرب عبد ... فليت شعرى من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب، أنى يكلف

ومن أبرز أئمتهم أيضا ابن سبعين، والسهروردى، وابن الفارض، والتلمسانى وأضرابهم، ويرى هؤلاء أن النصارى إنما كفروا لأنهم خصصوا الحلول فى عيسى عليه السلام، لأن الصحيح فى نظرهم هو القول بالحلول العام، وهذه مقالة فى غاية القبح والبطلان، وكفر القائلين بها أشد من كفر النصارى كما قال عبد العزيز المكى: إذا كان المسلمون كفّروا من يقول: إنه حل فى المسيح وحده، فمن قال بالحلول فى جميع الموجودات أعظم كفرا من النصارى بكثير. انظر: درء تعارض العقل والنقل ٦/١٥٥ـ١٥٦. ولزيادة إيضاح هذا المذهب وبيان بطلانه راجع نفس المصدر من ص١٤٨ـ١٧٢. وتعليقى على الأثر رقم(٨٠) من كتاب «إثبات صفة العلو لابن قدامة».

فكـل هؤلاء وأضعـافهم وأضعاف أضعافهم يدعي أن المعقول الصريح معه، وأن مخالفيه خرجوا عن صريح المعقول، وهذه عقولهم تنادي عليهم في كتبهم وكتب الناقلين عنهم، ولولا الإطالة لعرضناها على السامع عقلا عقلا، وقد عرضها المعتنون بذكر المقالات، فاجمعوها إن استطعتم، أو خذوا منهـا عقلا واجعلوه ميزانا لنصوص الوحي وما جاءت به الرسل، وعيارا على ذلك، ثم اعذروا بعد من قدم كتاب الله وسنّة رسوله الذي يسمونه الأدلة اللفظية على هذه العقول المضطربة المتناقضة بشهادة أهلها وشهادة أنصار الله ورسوله عليها، وقال: إن كتاب الله ورسوله يفيد العلم واليقـين، وهـذه العقـول المضطربة المتناقضة إنما تفيد الشكوك والحيرة، والريب، والجهل المركب، فإذا تعارض النقل وهذه العقول أخذ بالنقل الصريح، ورمى بهذه العقول تحت الأقدام، وحطت حيث حطها الله وحط أصحابها، والله المستعان.

الـوجـه الثـاني والسبعون: ان الله سبحانه دعى الى تدبر كتابه، وتعقله، وتفهمه، وذم الذين لا يفهمونه ولا يعقلونه، وسجل عليهم الكفر والنفاق فقال عن المنافقين: ﴿**ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قال الذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعـوا أهـواءهم**﴾[1]، وقـال: ﴿**ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه**﴾[2]، وقال: ﴿**ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون**﴾[3] وقال: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتـاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون**﴾[4] فالقائل: إن كتاب الله وسنّة رسوله لا يستفاد منهايقين من جنس هؤلاء لا فرق بينهم وبينه، وأما من

(١) سورة محمد/ ١٦.
(٢) سورة الأنعام/ ٢٥.
(٣) سورة يونس/ ٤٢.
(٤) سورة البقرة/ ٧٨.

يستفيد منها العلم واليقين فهم الذين قال الله فيهم: ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الـذي أنزل اليك من ربك هو الحق**﴾[1] وهؤلاء يرونه غير مفيد لليقين، وقد كشف سبحانه حال الفريقين بقوله: ﴿**أفمن يعلم أن ماأنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾[2]، وقال: ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون**﴾[3].

الوجه الثالث والسبعون: أن أدلة القرآن والسنّة التي يسميها هؤلاء الأدلة اللفظية نوعان:

أحدهما: يدل بمجرد الخبر.

والثاني: يدل بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقلي.

والقرآن مملوء من ذكر الأدلة العقلية التي هي آيات الله الدالة عليه وعلى ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، ورحمته، فآياته العيانية المشهودة في خلقه تدل على صدق النوع الأول وهو مجرد الخبر، فلم يتجرد إخباره سبحانه عن آيات تدل «على»[4] صدقها بل قد بين لعباده في كتابه من البراهين الدالة على صدقه وصدق رسوله ما فيه شفاء وهدى وكفاية، فقول القائل: إن تلك الأدلة لا تفيد اليقين، إن أراد به النوع المتضمن لذكر الأدلة العقلية العيانية فهذا من أعظم البهت والوقاحة والمكابرة، فإن آيات الله التي جعلها أدلة وحججا على وجوده ووحدانيته وصفات كماله إن لم تفد يقينا لم «تعد»[5] دليل بمدلول أبداً.

---

(١) سورة سبأ/ ٦.
(٢) سورة الرعد/ ١٩.
(٣) سورة هود/ ٢٤.
(٤) في الأصل: «عن».
(٥) في المختصر: «يفد».

وإن أراد به النوع الأول الدال بمجرد الخبر فقد أقام الله سبحانه الأدلة القطعية والبراهين اليقينية على ثبوته فلم يحل عباده فيه على خبر مجرد لا يستفيدون ثبوته إلا من الخبر نفسه دون الدليل الدال على صدق الخبر، وهذا غير الدليل العام على صدقه فيما أخبر به، بل هو الأدلة المتعددة الدالة على التوحيد وإثبات الصفات، والنبوات، والمعاد، وأصول الإيمان، فلا تجد كتابا قد تضمن من البراهين والأدلة العقلية على هذه المطالب ما تضمنه القرآن، فأدلته لفظية عقلية، فإن لم تفد اليقين، «فبأي حديث بعد الله وآياته يوقنون»؟!

« **فصـــــل** »

فهذا الطاغوت الأول، وهو قولهم: إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

فإن قيل: فقد دل القرآن على أن فيه محكما ومتشابها، ومعلوم أن المتشـابه هو الذى يشبه المراد به بغيره، وهو آيات الصفات، فلو أفادت اليقين لم تكن متشابهة.

قيل: هذا السؤال مبنى على ثلاث مقدمات:

إحداها: أن القرآن متضمن للمتشابه.

الثانية: أن المتشابه هو آيات الصفات.

الثالثة: أن المتشابه لايمكن حصول العلم واليقين بمعناه.

وسنفـرد الكـلام على هذا بفصـل مستقل[1] بعد كسر الطواغيت الأربعة التى نصبوها لهدم معاقل الدين ونبين المحكم بمعناه، ونبين أن آيات الصفات محكمة، فإنها من أبين الكتاب إحكاما، وأن ماتضمنته من الأحكام أعظم مما تضمنه ما عداها بعون الله وتوفيقه.

---

(١) هذا الفصل الذى أشار إليه المصنف هنا لم يشتمل عليه ما بين أيدينا من الكتاب، كما سبق التنبيه عليه فى الدراسة. ولعل الله تعالى ييسر لنا الحصول عليه.

فصـــل في الطاغوت الثاني

وهـو قولهم: إن تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل، لأنه لايمكن الجمـع بينهـما ولا إبـطالهـما، ولا تقديم النقل لأن العقل أصل النقل، فلو قدمنا عليه النقل لبطل العقل وهو أصل النقل، فلزم بطلان النقل، فيلزم من تقديم النقل بطلان العقل والنقل، فتعين القسم الرابع وهو تقديم العقل(١).

فهذا الطاغوت أخو ذلك القانون فهو مبنى على ثلاث مقدمات:

الأولى: ثبوت التعارض بين العقل والنقل.

الثانية: انحصار التقسيم في الأقسام الأربعة التى ذكرت فيه.

الثالثة: بطلان الأقسام الثلاثة ليتعين ثبوت الرابع.

وقد أشفى شيخ الإسلام في هذا الباب بما لامزيد عليه، وبين بطلان هذه الشبهة، وكسر هذا الطاغوت في كتابه الكبير(٢)، ونحن نشير إلى كلمات يسيرة هى قطرة من بحره تتضمن(٣) كسره ودحضه، وذلك يظهر من وجوه:

الـــوجـــه الأول: أن هذا التقسيم باطـــل من أصله، والتقسيم الصحيح أن يقال: إذا تعارض دليلان سمعيان أو عقليان(٤)، أو سمعى وعقـلى، فإمـا أن يكـونا قطعيين، وإما أن يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعيا، والآخر ظنيا. فأما القطعيان «فلا يمكن»(٥) تعارضهما في الأقسام الثلاثة، لأن الدليل القطعى هو الذى يستلزم مدلوله قطعا، فلو

---

(١) انظر: أساس التقديس للرازى ص١٧٢.

(٢) يعنى درء تعارض العقل والنقل. انظر الجزء الأول من ص٨٦ إلى نهايته.

(٣) فى الأصل: «يتضمن» وما أثبت من المختصر وهو أصح.

(٤) فى الأصل: سمعيين أو عقليين وهو خطأ. وما أثبت موافق لما فى المختصر.

(٥) فى الأصل: «ولا يمكن» وما أثبت موافق للمختصر.

تعارضا لزم الجمع بين النقيضين، وهذا لايشك فيه أحد من العقلاء.

وإن كان أحدهما قطعيا والآخر ظنيا تعين تقديم القطعى، سواء كان عقليا أو سمعيا، وإن كانا جميعا ظنيين صرنا إلى الترجيح، ووجب تقديم الراجح منهما سمعيا كان أو عقليا.

فهذا تقسيم «واضح»(١) متفق على مضمونه بين العقلاء. فأما إثبات التعارض بين الدليل العقلى والسمعى والجزم بتقديم العقلى مطلقا فخطأ واضح معلوم الفساد عند العقلاء.

الوجه الثانى: أن قوله إذا تعارض العقل والنقل فإما أن «يريد»(٢) به القطعيين، فلا نسلم إمكان التعارض، وإما أن يريد به الظنيين، فالتقديم للراجح مطلقا، وإما أن يريد ما يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا، فالقطعى هو المقدم مطلقا، فإذا قدر أن العقلى هو القطعى كان تقديمه لأنه قطعى لا لأنه عقلى، فعلم أن تقديم العقلى مطلقا خطأ، وأن جعل جهة الترجيح كونه عقليا خطأ، وأن جعل سبب التأخير والإطراح كونه نقليا خطأ.

الوجه الثالث: أنّا لا نسلم انحصار القسمة فيما ذكره من الأقسام الأربعة إذ من الممكن أن يقال: يقدم العقلى تارة، والسمعى تارة، فأيهما كان قطعيا قدم، فدعواه أنه لابد من تقديم العقل مطلقا أو السمع مطلقا أو اعتبار الدليلين معا أو الغاءهما معا دعوى كاذبة، بل هاهنا قسم غير هذه الأقسام وهو الحق وهو ماذكرناه.

الوجه الرابع: قوله: إن قدمنا النقل لزم الطعن فى أصله ممنوع، فإن قوله العقل «أصل»(٣) النقل إما أن يريد به أنه أصل في ثبوته في نفس

---

(١) فى المختصر: «راجح».

(٢) من المختصر. وفى الأصل: «أريد».

(٣) فى الأصل: «أما» والتصحيح من المختصر.

الأمر، أو أصل فى علمنا بصحته، فالأول لا يقوله عاقل، فإن ماهو ثابت فى نفس الأمر ليس موقوفا على علمنا به، فعدم علمنا بالحقائق لاينفى ثبوتها فى نفس الأمر.

فما أخبر به الصادق المصدوق هو ثابت فى نفسه، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، وسواء صدقه الناس أو لم يصدقوه، كما أنه رسول الله حقا، وإن كذبه من كذبه، كما أن وجوب الرب تعالى وثبوت أسمائه وصفاته حق، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، فلا يتوقف ذلك على وجوده فضلا عن علومنا وعقولنا، فالشرع المنزل من عند الله مستغن فى نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا، فإذا علم العقل ذلك حصل له كمال لم يكن قبل ذلك، وإذا فقده كان ناقصا جاهلا.

وأما إن أراد أن العقل أصل فى معرفتنا بالسمع ودليل على صحته ـ وهذا هو مراده ـ فيقال له: أتعنى بالعقل هنا القوة والغريزة التى فينا، أم العلوم المستفادة بتلك الغريزة؟، فالأول لم ترده وتمتنع إرادته لأن تلك الغريزة ليست علما يمكن معارضته للنقل، وإن كانت شرطا فى كل علم عقلى أو سمعى وما كان شرطا فى الشىء امتنع أن يكون منافيا له، وإن أردت العلم والمعرفة الحاصلة بالعقل قيل لك: ليس كل مايعرف بالعقل يكون أصلا للسمع ودليلا على صحته، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر.

والعلم بصحة السمع غايته أن يتوقف على مابه يعلم صدق الرسول من العقليات، وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول، بل ذلك يعلم بالآيات والبراهين الدالة على صدقه، فعلم أن جميع المعقولات ليست أصلا للنقل، لا بمعنى توقف العلم بالسمع عليها، ولا بمعنى توقف ثبوته فى نفس الأمر عليها، لاسيما وأكثر متكلمى أهل الإثبات كالأشعرى فى أحد قوليه وأكثر أصحابه يقولون: إن العلم بصدق الرسول عند ظهور

المعجـزات الحـادثة «التى تجرى مجرى تصديق الرسول»[1] ضرورى، فما يتوقف عليه العلم بصدق الرسول من العلم العقلى سهل يسير، مع أن العلم بصدقه له طرق كثيرة متنوعة، وحينئذ فإذا كان المعارض للسمع من المعقولات مالايتوقف العلم بصحة السمع عليه، لم يكن القدح فيه قدحا فى أصـل السمـع، وهـذا بحمد الله بين واضح وليس القدح فى بعض العقليات قدحا في جميعها، كما أنه ليس القدح في بعض السمعيات قدحاً في جميعها، فلا يلزم من صحة المعقولات التي تبنى عليها معرفتنا بالسمع صحة غيرها من المعقولات، ولا من فساد هذه فساد تلك، فلا يلزم من تقديم السمع على ما يقال إنه معقول فى الجملة القدح فى أصله.

الـوجـه الخـامـس : أن يقال: العقل إما أن يكون عالما بصدق الرسول وثبوت ما أخبر به فى نفس الأمر، واما أن لا يكون عالماً بذلك، وإن لم يكن عالما امتنع التعارض «عنده»[2] لأن المعقول إن كان معلوما له لم يتعارض معلوم ومجهول، وإن لم يكن معلوما لم يتعارض مجهولان، وإن كان عالما بصدق الرسول امتنع أن لا يعلم ثبوت ما أخبر به فى نفس الأمر إذا علم أنه أخبر به وهو عالم بصدقه لزم ضرورة «أن يكون»[3] عالما بثبوت مخبره، وإن كان كذلـك استحال أن يقع عنده دليل يعارض ما أخبر به ويكـون ذلـك المعـارض واجب التقـديم، إذ مضمـون ذلك أن يقال: لا تعتقد ثبوت ما علمت أنه أخبر به، لأن هذا الاعتقاد ينافى ما علمت به «من»[4] أن المخـبر صادق، وحقيقـة ذلـك لاتصدقه فى هذا الخبر، لأن تصـديقه يستلزم عدم تصديقه، فيقول: وعدم تصديقى له فيه هو عين اللازم المحذور، فإذا قيل لى: لاتصدقه لئلا يلزم عدم تصديقه، كان كما

(١) فى الأصل: «تجرى تصديقه بالقول» وما أثبت من درء التعارض.
(٢) فى الأصل: «عنه» والتصحيح من المختصر.
(٣) فى الأصل: «إن لم يكون» والتصحيح من المختصر.
(٤) من المختصر.

لو قيل: كذبه لئلا يلزم تكذيبه، فهكذا حال من أمر الناس أن لايصدقوا الرسول فيما «علموا أنه»[1] أخبر به بعد علمهم أنه رسول لئلا يفضى تصديقهم إلى عدم تصديقه، يوضحه:

الوجه السادس: وهو أن المنهى عنه من قبول هذا الخبر وتصديقه فيه هو عين المحذور، فيكون واقعا فى المنهى عنه سواء أطاع أو عصى، ويكون تاركا للمأمور به سواء أطاع أو عصى، ويكون وقوعه فى المخوف المحذور على تقدير الطاعة أعجل وأسبق منه على تقدير المعصية، والمنهى عنه «على»[2] هذا التقدير هو التصديق، والمأمور به هو التكذيب، وحينئذ فلايجوز النهى عنه سواء كان محذورا أو لم يكن، فإنه إن لم يكن محذوراً لم يجز أن ينهى عنه، وإن كان محذورا فلابد منه على التقديرين فلا فائدة فى النهى عنه.

الوجه السابع: أنه إذا قيل له: لاتصدقه فى هذا، كان آمرا له بما يناقض ما علم به صدقه «وكان»[3] آمرا له بما يوجب ألا يثق بشىء من «خبره»[4] فإنه متى جوز كذبه أو غلطه فى خبر، جوز ذلك فى غيره، ولهذا «آل»[5] الأمر بمن سلك هذه الطريق إلى أنهم لا يستفيدون من جهة الرسول شيئا من الأمور الخبرية المتعلقة بصفات الله سبحانه وأفعاله، بل وباليوم الآخر عند بعضهم، لاعتقادهم أن هذه الأخبار على ثلاثة أنواع:

نوع: يجب رده وتكذيبه، ونوع يجب تأويله وإخراجه عن حقيقته، ونوع يقر.

---

(١) فى المختصر: «علمه لأنه».
(٢) فى الأصل: «هل» والتصحيح من المختصر.
(٣) فى المختصر: «فكان».
(٤) فى المختصر: «غيره».
(٥) فى المختصر: «أفضى».

وليس لهم فى ذلك أصل يرجعون إليه، بل هذا يقول: ما أثبته عقلك فأثبته، وما نفاه عقلك فانفه، وهذا يقول: ما أثبته كشفك فأثبته، ومالافلا، ووجود الرسول عندهم كعدمه فى المطالب الإلهية، ومعرفة الربوبية، بل على قولهم وأصولهم وجوده أضر من عدمه، لأنهم لم يستفيدوا من جهته علما بهذا الشأن، واحتاجوا إلى دفع ماجاء به، إما بتكذيب، وإما بتأويل، وإما بإعراض وتفويض.

فإن قيل: لايمكن أن يعلم أنه أخبر بما ينافى العقل، فإنه منزه عن ذلك وهو ممتنع عليه.

قيل: هذا إقرار باستحالة معارضة العقل للسمع واستحالة المسئلة وعلم أن جميع أخباره لايناقض العقل فيها شىء:

فغدا العقل[1] سالما من مناف واسترحنا من الصداع جميعا

فإن قيل: بل المعارضة ثابتة بين العقل وبين ما يفهمه ظاهر اللفظ، وليست ثابتة بين العقل وبين نفس ما أخبر به الرسول، فالمعارضة ثابتة بين العقل وبين ما (يظهر)[2] أنه دليل وليس بدليل و(أن)[3] يكون دليلا ظنيا لتطرق الظن إلى بعض مقدماته إسنادا أو متنا[4].

قيل: وهذا يرفع صورة المسئلة ويحيلها بالكلية وتصير صورتها هكذا: «إذا تعارض الدليل (العقلى)[5] وماليس بدليل صحيح وجب تقديم العقلي، وهذا كلام لافائدة فيه ولاحاصل له، وكل عاقل يعلم أن الدليل لايترك لما ليس بدليل، ثم يقال: إذا فسرتم الدليل السمعى بما ليس بدليل فى نفس الأمر، بل اعتقاد دلالته جهل، أو بما يظن أنه دليل

---

(١) فى المختصر: «قعد النقل».
(٢) فى المختصر: «يظن».
(٣) فى المختصر: «أو».
(٤) فى المختصر: «أو امتناعا».
(٥) فى المختصر: «القولى».

وليس بدليل، فإن كان السمعى فى نفس الأمر كذلك لكونه خبرا مكذوبا أو صحيحا، وليس فيها مايدل على معارضة القول بوجه، وأثبتم[1] التعارض والتقديم بين هذين النوعين فساعدناكم عليه، وكنا «أسعد»[2] بذلك منكم، فإنا أشد نفيا للأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ، وأشد إبطالا لما تحمله من المعانى الباطلة، وأولى بذلك منكم، وإن كان الدليل السمعى صحيحا فى نفسه ظاهر الدلالة بنفسه على المراد لم يكن ما عارضه من العقليات إلا خيالات فاسدة، ومقدمات كاذبة، إذا تأملها العاقل حق التأمل ومشى إلى آخرها وجدها مخالفة لصريح المعقول، وهذا ثابت فى كل دليل عقلى خالف دليلاً سمعياً صحيح الدلالة، وحينئذ فإذا عارض هذا المسمى دليلا عقليا السمع وجب إطراحه لفساده وبطلانه.

ولبيان العلم ببطلانه طريقان: كلى وجزئى، أما الكلى منقطع بأن كل دليل عقلى خالف السمعي الصريح الصحيح فهو باطل فى نفسه، مخالف للعقل قبل أن ينظر فى مقدماته.

وأما الجزئى: فإنك إذا تأملت جميع ما يدعوك به معارض السمع، وجدته ينتهى إلى مقدمات باطلة بصريح العقل، لكن تلقاها (معور عن معور)[3] وظنوها عقليات وهى فى التحقيق جهل مركب، وحينئذ فالواجب تقديم الدليل السمعى للعلم بصحته، وما عارضه فإما معلوم البطلان وإما غير معلوم الصحة وذلك أحسن أحواله.

الوجه الثامن: أنه إذا اعتقد فى الدليل السمعى أنه ليس بدليل فى نفس الأمر، بل اعتقاد دلالته على مخالف مازعمتموه من العقل جهل، أمكن أتباع الرسل المصدقين بما جاءوا به أن يعتقدوا فى أدلتكم العقلية أنها

---

(١) فى المختصر: «العقل بوجه وأبيتم».

(٢) لا توجد فى الأصل وأضفتها من المختصر.

(٣) هكذا فى الأصل.

ليست بأدلة فى نفس الأمر، وأن اعتقاد دلالتها جهل، ويرمون أدلتكم بما رميتم به الأدلة السمعية، ثم الترجيح من جانبهم من وجوه متعددة، وكانوا فى هذا الرمى أحسن حالا منكم (وأعذر)[1]، فإن معهم من البراهين الدالة على صحة ما أخبر به السمع إجمالا وتفصيلا من المعقول، أصح (ما)[2] معكم، ولايذكرون معقولا يعارض ما ورد به الوحى إلا ومعهم معقول أصح منه يصدقه ويؤيده.

الوجه التاسع : أن يقال: لو قدر تعارض الشرع والعقل لوجب تقديم الشرع لأن العقل قد صدق الشرع، ومن ضرورة تصديقه له قبول خبره، والشرع لم يصدق العقل فى كل ما أخبر به، ولا العلم بصدق الشرع موقوف على كل ما يخبر به العقل، ومعلوم أن هذا المسلك إذا سلك أصح من مسلكهم، كما قال بعض أهل الإيمان:

«يكفيك من العقل أن يعرفك صدق الرسول ومعانى كلامه ثم يخلى بينك وبينه». وقال آخر:

«العقل سلطان ولى الرسول ثم عزل نفسه» ولأن العقل دل على أن الرسول يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، ولأن العقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة، ولايدل على صدق قضايا نفسه دلالة عامة، ولأن العقل يغلط كما يغلط الحس، وأكثر من غلطه بكثير، فإذا كان حكم الحس من أقوى الأحكام، ويعرض فيه من الغلط مايعرض، فما الظن بالعقل؟!.

الوجه العاشر : أن العقل مع الوحى كالعامى المقلد مع العالم، بل ودون ذلك بمراتب كثيرة لاتحصى، فإن المقلد يمكنه أن يصير عالما، ولايمكن العالم أن يصير نبيا رسولا، فإذا عرف المقلد (عالماً فدل عليه مقلداً

---

(١) هكذا فى الأصل، ولعلها «وأقدر».

(٢) هكذا فى الأصل، ولعل الصواب «مما».

آخر ثم اختلف المفتى والدال فإن»(١) المستفتى يجب عليه قبول قول المعنى دون المقلد الذى دل وعرفه بالمفتى. فلو قال له الدال: الصواب معى دون المفتى لأنى أنا الأصل فى علمك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله على قولى قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت، فلزم القدح في فرعه، فيقول له المستفتى: أنت لما شهدت بأنه مفت ودللت على ذلك، شهدت بوجوب تقليده دون تقليدك، كما شهد به دليلك، وموافقتى لك فى هذا العلم المعين لايستلزم موافقتك فى كل مسئلة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتى الذى هو أعلم منك، لايستلزم خطأك فى علمك بأنه مفت، وأنت إذا علمت أنه مفت باجتهاد واستدلال ثم خالفته باجتهاد واستدلال كنت مخطئا فى الاجتهاد والاستدلال الذى خالفت به من يجب عليك تقليده واتباع قوله، وإن أصبت فى الاجتهاد والاستدلال الذى به علمت أنه مفت مجتهد يجب عليك تقليده، هذا مع علمه بأن المفتى يجوز عليه الخطأ، والعقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره عن الله لايجوز عليه الخطأ.

الوجه الحادى عشر: أن الدليل الدال على صحة الشيء أو ثبوته أو عدالته أو قبول قوله لايجب أن يكون أصلا له، بحيث إذا قدم قول المشهود له والمدلول عليه على قوله يلزم إبطاله، وهذا لايقوله من يدرى ما يقول، غاية ما يقال: إن العلم بالدليل أصل للعلم بالمدلول، فإذا حصل العلم بالمدلول لم يلزم من ذلك تقديم الدليل عليه فى كل شيء، فإذا شهد الناس لرجل بأنه خبير بالطب أو التقويم أو القيافة دونهم ثم تنازع الشهود والمشهود له فى ذلك وجب تقديم قول المشهود له، فلو (قالوا)(٢): نحن شهدنا لكم وزكيناكم، وبشهادتنا ثبتت أهليتكم، فتقديم قولكم علينا والرجوع إليكم دوننا يقدح فى الأصل الذى ثبت به

---

(١) ما بين القوسين من شرح الطحاوية ص١٥٧ . وهو الأوضح والأصح. وعبارة الأصل: «فإذا عرف المقلد رجلاً بأنه أهل المقلد الذى دل غيره بأن. . .».

(٢) فى الأصل: «قال»، وما أثبت من المختصر.

قولكم، قالـوا لهم: أنتم شهدتم بما علمتم أنّا أهل لذلك دونكم، وأن أقوالنا فيه مقبولة دون أقوالكم، فلو قدمنا قولكم على أقوالنا فيما اختلفنا فيه لكان ذلك قدحا فى شهادتكم وعلمكم بأنّا أعلم منكم.

وحينئذ فهذا **الوجه الثانى عشر**: يستقل بكسر هذا الطاغوت وهو: أن تقديم العقل على الشرع يتضمن القدح فى العقل والشرع، لأن العقل قد شهد للوحى بأنه أعلم منه وأنه لا نسبة له إليه، وأن نسبة علومه ومعارفه إلى الـوحى أقـل من خردلة بالإضافة إلى جبل، أو تلك تعلق بالأصبع بالنسبة إلى البحر، فلو قدم حكم العقل عليه لكان ذلك قدحا فى شهادته، وإذا بطلت شهادته بطل قبول قوله، فتقديم العقل على الوحى يتضمن القدح فيه وفى الشرع، وهذا ظاهر لا خفاء به، يوضحه:

الـوجـه الثـالـث عشر: وهـو أن الشرع مأخـوذ عن الله بواسـطة الرسولين الملكى والبشرى بينه وبين عباده، مؤيداً بشهادة الآيات وظهور البراهين على مايوجبه العقل ويقتضيه تارة، ويستحسنه تارة، ويجوزه تارة، ويكع[1] عن دركه تارة، ولاسبيل له إلا الاحاطة به، ولابد له من التسليم والانقياد لحكمـه والإذعـان والقبول، وهناك يسقط «لم» ويبطل «كيف» وتـزول «هلا» وتذهب «لو وليت» فى الريح، لأن هذه المواد عن الوحى «محسوسة»[2] واعتراض المعترض عليه مردود، واقتراح المقترح ما يظن أنه أولى منه سفه، وجملة الشريعة مشتملة على أعلى أنواع الحكمة علما وعملا، التى لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت إليها لم يكن لها إليها نسبة، وهى متضمنـة لأعـلى المـطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، فهى «متكفلة»[3] بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته

---

(١) فى هامش المختصر: يجبن ويضعف. ولم أجد فى كتب اللغة التى أطلعت عليها ما يؤيد هذا المعنى، وإنما فيها أن معنى وكع: اشتد وغلظ. انظر: اللسان والصحاح مادة «وكع».

(٢) هكذا فى الأصل، ولعل الصواب: «محبوسة».

(٣) من المختصر. وفى الأصل: «متكلفة».

وأفعـاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه وكرامته والداعى «لديه»[1] وتعريف حال السالكين بعد الوصول إليه.

ويقـابـل هذه الثـلاثة تعريفهم حال الداعى إلى الباطل والطرق المـوصلة إليه، وحال السالكين تلك الطرق وإلى أين تنتهى بهم، ولهذا تقبلهـا العقـول الكـاملة أحسن تقبّـل، وقـابلتهـا بالتسليم والإذعان، واستدارت حولها بحماية حوزتها والذب عن سلطانها «فبين»[2] ناصر باللغة «السايغة»[3] وحام بالعقل الصريح، وذابّ عنه بالبراهين، ومجاهد بالسيف والرمح والسنان، ومتفقة فى الحلال والحرام ومعتن بتفسير القرآن، وحافظ لمتون السنّة وأسانيدها، ومفتش «عن أحوال»[4] رواتها وناقد لصحيحها من سقيمها ومعلولها من سليمها، «فهى»[5] الشريعة ابتداؤها من الله وانتهاؤها إليه، فمنه بدأت وإليه تعود، ليس فيها حديث المنجم فى تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك وهيئاتها، ومقادير الأجرام، ولاحديث التربيع والتثليث «والتسـديس»[6] والمقـارنـة، ولاحديث صاحب الطبيعة الناظر فى آثارها واشتبـاك الاستقصـات[7] وامتـزاجها وقواها، ومايتعلق بالحرارة والبرودة والـرطـوبـة واليبوسة، وما الفاعل منها وما المنفعل وكم درجاتها وإلى أين تسرى قواها، ولافيها حديث المهندس الباحث عن مقادير الأشياء ونقطها وخطوطها وسطوحها وأجسامها، وأضلاعها وزواياها ومعاطفها، وما الكرة

---

(١) هكذا فى الأصل، ولعل الصواب: «إليه».

(٢) فى المختصر: «فمن».

(٣) فى المختصر: «الشايعة».

(٤) من المختصر، وفى الأصل: «على أحوالها».

(٥) فى المختصر: «فهذه».

(٦) من المختصر، وفى الأصل: «والتدليس».

(٧) الاستقس، أو الاسطقس، لفظ يونـانى بمعنى الأصـل، والمقصود به اصطلاحا: العنصر، وهى العناصر الأربعة عندهم: الماء، والأرض، والهواء، والنار. انظر: المعجم الفلسفى للدكتور جميل صليبا، طبع بيروت سنة ١٩٧٨، مادة «الاسطقس»، والمعجم الفلسفى ليوسف كرم وآخرين، ط كوستاتسوماس، القاهرة سنة ١٩٦٦م مادة «اسطقس».

ومـا الـدائـرة ومـا الخط المستقيم والمنحنى، ولافيهـا هذيان المنـطقيين «وبحـوثهـم»[1] فى النـوع والجنس والفصـل والخـاصة والعرض العام[2] والمقولات العشر[3] والمختلطات والموجهات الصادر عن رجل مشرك من يونان كان يعبد الأوثان ولايعرف الرحمن، ولا يصدق بمعاد الأبدان، ولا أن الله يرسـل رسـولا بكـلامـه إلى نوع الانسـان، فجعـل هؤلاء «المعارضون»[4] بين العقل والنقل عقل هذا الرجل «معيارا»[5] على كتب الله المنزلة وما أرسل به رسله، فما زكاه منطقه وقانونه الذى وضعه بعقله قبلوه، وما لم يزكه تركوه، ولو كانت هذه الأدلة التى أفسدت عقول هؤلاء وأتبـاعهم صحيحـة لكان صاحب الشريعة يقوم شريعته بها، ويكملها باستعـمالها، وكان الله سبحانه «ينبه»[6] عليها ويحض على التمسك بها، ويتقدم إلى عباده بالتمسك بها وبعلمها وتعليمها ويفرض عليهم القيام بها.

فيا للعقول التى لم يخسف بها، أين الدين من الفلسفة، وأين كلام رب العـالمـين إلى آراء اليونان والمجوس وعباد الأصنام والصابئين، وأين المعقولات المؤيدة بنور النبوة إلى المعقولات المتلقاه عن أرسطو وأفلاطون والفارابى وابن سينا، وأتباع هؤلاء ممن لا يؤمن بالله ولا صفاته ولا أفعاله

(١) فى المختصر: «ونحوهم».

(٢) هذه مبـادىء علم التصور، وتسمى الكليات الخمس. انظر عن هذه المصطلحات المنطقية كتاب «آداب البحث والمناظرة» للشيخ محمد الأمين الشنقيطى. القسم الأول ص٢٩ـ٣٠.

(٣) المقولات العشر عند الفلاسفة هى: الجوهر، والكم، والكيف، والإضافة، والأين، والمتى، والـوضـع، والملك، والفعل، والانفعال. انظر: المقولات العشر، تأليف محمد الحسنى البليدى ـ تحقيق الـدكتـور: ممدوح حقى ص٢٣، ط دار النجاح فى بيروت سنة ١٩٧٤م وهذه المقولات العشر هى الأسس التى ينطلق منها الفكر الفلسفى نحو التعميم وعليها يبنى. وواضع هذه المقولات أرسطو، وتلقفها الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، وتعلقوا بها تعلقاً شديدا خاصة بعد القرن الخامس، وجعلوها أصلا من أصول المنطق الصورى، وتفننوا فى شرحها. انظر: مقدمة المحقق للكتاب المذكور ص٩.

(٤) فى الأصل: «المعارضين» والتصحيح من المختصر.

(٥) فى الأصل: «عيارا» والتصحيح من المختصر.

(٦) من المختصر، وفى الأصل: «يثيبه».

ولا ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأين العلم المأخوذ عن الوحى النازل من عند رب العالمين إلى الشبه المأخوذة عن آراء المتهوكين والمتحيرين، فإن أدلوا بالعقل فلا عقل أكمل من عقول ورثة الأنبياء، وإن أدلوا برؤسائهم وأئمتهم كفرعون ونمرود وبطليموس وأرسطاطاليس ومقلدتهم وأتباعهم، فلم يزل أعداء الرسل يعارضونهم بهؤلاء وأمثالهم، ويقدمون عقولهم على ماجاؤوا به، وياالله العجب كيف يعارض قول الرسول بقول الفيلسوف وعلى الفيلسوف أن يتبع الرسول[1] وليس على الرسول[2] أن يتبع الفيلسوف، فالرسول مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه، والوحى حاكم والعقل محكوم عليه، ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحى فائدة ولا غناء، على أن منازل الحق متفاوتة فى العقل أعظم تفاوت، وأبصارهم مختلفة، وليس العقل بأسره فى واحد من الناس أو طائفة معينة حتى يكون تقديم عقولهم على ماجاءت به الرسل، بل لكل طائفة معقول مخالف معقول الأخرى، فمن أظلم وأشد عداوة للرسل ممن جوز لكل طائفة من طوائف العقلاء أن تقدم عقولها على ماجاءت به الرسل. فإن قالوا: إنما نقدم العقل الصريح الذي لم يختلف فيه اثنان على نصوص الأنبياء، فقد رموا الأنبياء بما هم أبعد الخلق عنه، وهو أنهم جاؤوا بما يخالف العقل الصريح الذى لايختلف فيه اثنان، هذا وقد شهد الله وكفى به شهيدا، وشهد بشهادته الملائكة وأولوا العلم أن طريقة الرسل هى الطريقة البرهانية المتضمنة للحكمة كما قال تعالى: ﴿**ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم**﴾[3] وقال: ﴿**وأنزل الله عليه الكتاب والحكمة**﴾[4] فالطريقة البرهانية هى الواردة بالوحى «الناطقة»[5] للرشد الداعية إلى الخير، الواعدة بحسن المآب، المبينة لحقائق الأنبياء المعرفة لصفات رب الأرض والسماء.

(١)، (٢) فى الأصل: «الرسل».
(٣) سورة النساء/ ١٧٤.
(٤) سورة النساء/ ١١٣.
(٥) فى المختصر: «الناظمة».

وأن «الطريقة»[1] التقليدية التخمينية الخرصية هى المأخوذة من المقدمتين والنتيجة والدعوى التى ليس مع أصحابها إلا الرجوع إلى رجل من يونان، «فإنه»[2] كان يعبد الأوثان ويجحد بالرحمن، فوضع بعقله قانونا يصحح به بزعمه علوم الخلائق وعقولهم، فلم يستفد به عاقل تصحيح مسئلة واحدة فى شيء من علوم بنى آدم، بل ماوزن به علم إلا أفسده، وما برع فيه أحد إلا انسلخ من حقائق الإيمان كانسلاخ القميص عن الإنسان، فما استفيد بهذا العقل العائد إلا تعطيل الصانع عن صفات كماله ونعوت جلاله، وعن أفعاله، والكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومن العجب أن هؤلاء الأوقاح جعلوا نصوص الأنبياء من باب الظنون وهى من الوحى، وجعلوا كلمات المنطقيين وقواعد الفلاسفة والجهمية من باب اليقين، ثم عارضوا بينهما وقدموا هذه على نصوص الأنبياء، فالشريعة ظهرت من الله على لسان أكمل الخلق عقلا وأعظمهم معرفة وأتمهم يقينا، وعقلياتكم ظهرت من جهة رجال فكروا وقدروا وظنوا وخرصوا، وتعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أحدوا، وحاموا وما وردوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا فغلغلوا، سافروا فى درك المطالب العالية على غير الطريق، فما ربحوا إلا أذى السفر، وبعثوا فى البلاد بغير دليل فلم يقفوا للمطلوب على عين ولا أثر:

رضوا بالدعاوى وابتلوا بخيالهم ... وخاضوا بحار الفكر والقوم مابتلوا
فهم فى السرى لم يبرحوا من مكانهم ... وما طعنوا فى السير عنه وقد كلوا
لهم كل وقت حيرة بعد حيرة ... وجهل على جهل فلا بورك الجهل

---

(١) من المختصر.
(٢) فى الأصل: «فإن».

الوجه الرابع عشر: أن الأمة اختلفت ضروبا من الاختلاف فى الأصول والفروع، وتنازعوا فنونا من التنازع فى الشكل من الأحكام، والحلال والحرام، والتفسير والتأويل والأخبار، وتفرقت فى آرائها ومذاهبها ومقالاتها، فصارت أصنافا وفرقا، كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة، فما فزعت طائفة من طوائف الأمة فى اختلافها إلى منطق ولا فيلسوف ولا إلى عقل يخالف صريح النقل، ولا قالت طائفة من هذه الطوائف: عقولنا مقدمة على ماجاء به الرسول، وإن اشقوا مذاهبهم بالتأويل «لما»[1] جاء به، فلم تقدم طائفة منهم على ما أقدمت عليه هذه الفرقة، وقالوا: العقل أولى بالاتباع مما جاء به الرسول، ولا قالت فرقة من هذه الفرق لأصحاب هذه المعقولات: أعينونا بما عندكم واشهدوا لنا وعلينا بما قبلكم، ولا حققت مقالتها بشهادتهم، ولا استعانت بطريقتهم، ولا وجدت عندها علما ومعرفة لم تجده فى كتاب ربها وسنّة نبيها، وكما لم تجد أحداً من فرق هذه الأمة يفزع إلى أرباب هذه العقول فى شىء من دينها، فلذلك كانت أمة موسى وعيسى لم تعول على هؤلاء فى شىء من أمر دينها، بل مازال أهل الملل يحذرون من هؤلاء أشد التحذير، وينفرون منهم أشد التنفير، علما بأنهم سوس الملل، وأعداء الرسل، وأنت إذا تأملت أصول الفرق الإسلامية كلها وجدتها متفقة على تقديم الوحى على العقل، ولم يؤسسوا مقالاتهم على ما أسسها عليه هؤلاء من تقديم آرائهم وعقولهم على نصوص الوحى، فإن هذا أساس طريقة أعداء الرسل، فهم متفقون على هذا الأصل، ومنهم أُخِذَ وعنهم تُلقّى، كما حكى الله سبحانه عنهم فى كتابه أنهم عارضوا شرعه ودينه بآرائهم وعقولهم[2] ولكن الفرق بينهم وبين

---

(١) فى الأصل: «بما»، ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٢) كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ المؤمنون/٣٧، ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب﴾ ص/٥، ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ الأعراف/٧، ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك﴾ الأعراف/١٢٧، ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ نوح/٢٣.

هؤلاء: أولئك جاهروا بتكذيب الرسل ومعاداتهم، وهؤلاء أقروا برسالاتهم وانتسبوا فى الظاهر إليهم، ثم نقضوا ما أقروا به، وقالوا: يجب تقديم عقولنا وآرائنا على ما جاؤوا به، فهم أعظم ضررا على الإسلام وأهله من أولئك لأنهم انتسبوا إليه وأخذوا فى هدم قواعده وقلع أساسه وهم يتوهمون ويوهمون أنهم ينصرونه.

الوجه الخامس عشر: أن التفاوت الذى بين الرسل وبين أرباب هذه المعقولات أعظم بكثير من التفاوت الذي بين هؤلاء وبين أجهل الناس على الإطلاق، فإن هذا الجاهل يمكنه مع الطلب والتعليم أن يصير عالما بما عند هؤلاء، ولا يمكن أشد هؤلاء حرصا وذكاء وقوة وفراغا أن يصير نبيا، فإن النبوة خاصة من الله يختص بها من يشاء من عباده، لا تُنال بكسب ولا باجتهاد، فإذا علم الإنسان بعقله ان هذا الرسول، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينافي خبره، كان الواجب عليه أن يسلم لما أخبر به الصادق الذي هو أعلم منه، وينقاد له ويتهم عقله، ويعلم أن عقله بالنسبة اليه أقل من عقل أجهل الخلق بالنسبة اليه هو، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ودينه أعظم بكثير كثير من التفاوت الذي بين «من»[1] لا خبرة له بصناعة الطب، ومن هو أعلم أهل زمانه «به»[2] فيالله العجب إذ كان عقله يوجب عليه أن ينقاد لطبيب يهودي فيما يخبر به من قوى الأدوية والأغذية والأشربة والأضمدة «والمسهلات»[3] وصفاتها وكمياتها ودرجاتها، مع ماعليه فى ذلك من الكلفة والألم ومقاساة المكروهات، لظنه أن هذا اليهودى أعلم بهذا الشأن منه، وأنه إذا صدقه كان فى تصديقه حصول الشفاء والعافية، مع علمه بأنه يخطىء كثيراً، وأن كثيراً من الناس لايشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون

---

(١) لا توجد فى الأصل، وأضفتها ليستقيم الكلام.

(٢) فى الأصل: «بها» وهو خطأ.

(٣) فى الأصل: «المستهلات» ولعل الصواب ما أثبت.

استعماله لما يصفه سببا من أسباب هلاكه، وأن «من»[1] أسباب الموت أغلاط الأطباء، فكم لهم من قتيل أسكنوه المقابر بغلطهم وخطأهم، وإن كان خطأ الطبيب إصابة المقادير، وكيف لايسلك هذا المسلك مع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهم الصادقون المصدقون، ولايجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به، والذين عارضوا أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال المركب والبسيط مالا يحصيه إلا من هو بكل شيء محيط.

الوجه السادس عشر: أن يقال: تقديم المعقول على الأدلة الشرعية ممتنع متناقض، وأما تقديم الأدلة الشرعية فهو ممكن مؤتلف، فوجب الثانى وامتنع الأول، بيانه: أن يكون الشىء معلوماً بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس هو صفة لازمة لشىء من الأشياء، بل هو من الأمور النسبية الإضافية، فإن زيدا قد يعلم بعقله ما لا يعلمه «ممكن» بعقله، وقد يعلم الإنسان فى حال تعقله ما يجهله فى وقت آخر، والمسائل التى يقال: قد تعارض فيها العقل والشرع جميعها قد اضطرب فيها أرباب العقل، ولم يتفقوا فيها على أمر واحد، بل كل منهم يقول: إن العقل أثبت أو أوجب أو سوغ ما يقول الآخر إن العقل نفاه أو أحاله أو منع منه، بل قد آل الأمر بينهم إلى التنازع فيما يقولون إنه من العلوم الضرورية، فيقول هذا: نحن نعلم بالضرورة العقلية ما يقول الآخر إنه غير معلوم بالضرورة العقلية، وأبلغ من هذا أن يدعى بعضهم أن هذا محال «بضرورة»[2] العقل، فيدعى الآخر أنه ممكن بضرورة العقل، فأكثر العقلاء يقولون: نحن نعلم بضرورة العقل امتناع رؤية مرئى من غير معاينة ومقابلة.

ويقول آخرون من المنتسبين إلى المعقولات: بل ذلك ممكن لا يحيله العقل، ويقول أكثر العقلاء: نحن نعلم أن حدوث الحادث بلاسبب حادث

---

(١) لا توجد فى الأصل، وأضفتها لضرورة وجودها.

(٢) فى الأصل: «بالضرورة» وهو خطأ.

ممتنع، ويقول آخرون بل ذلك ممكن، ويقول أكثر العقلاء إن كون العالم عالما بلا علم وحيا بلا حياة ومريدا بلا إرادة وسميعا بصيرا بلا سمع ولا بصر محال بضرورة العقل، وآخرون يقولون بل هو ممكن غير مستحيل بل هو الواجب فى حق الله عز وجل، ويقول جمهور العقلاء: أن يكون المعنى الواحد أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً ممتنع فى ضرورة العقل.

وآخرون يقولون: هو ممكن واقع، وجمهور العقلاء يقولون: إن إثبات موجودين قائمين بأنفسهما ليس أحدهما مباينا للآخر ولا مخالفاً له ولا داخلا فيه ولا خارجا عنه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه مكابرة لصريح العقل.

وآخرون يقولون: بل هو ممكن واجب في العقل، وجمهور العقلاء يقولون: إن إثبات كون المريد مريدا بإرادة لا فى محل ممتنع فى ضرورة العقل، وآخرون ينازعوهم فى ذلك. وجمهور العقلاء يقولون: إن الحروف والأصوات من المتكلم الواحد مقترنة بعضها ببعض فى آن واحد محال بضرورة العقل.

وآخرون يقولون: بل هو ممكن بل واجب في حق القديم إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا.

فلو قيل بتقديم العقل على نصوص الوحى - وهذا شأن العقل - لزم المحال واجتماع النقيضين وأحيل الناس على شىء لا سبيل لهم إلى ثبوته ومعرفته. وأما الوحى فهو قول الصادق وهو صفة لازمة لا تختلف باختلاف أحوال الناس، والعلم بذلك ممكن ورد الناس إليه ممكن، ولهذا جاء الوحى من الله سبحانه يرد الناس عند التنازع إلى كتابه وسنة رسوله كما قال تعالى: **﴿يـاأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**(١)

---

(١) سورة النساء/ ٥٩.

فأمر المؤمنين عند التنازع بالرد إلى كتابه وسنّة رسوله وهذا نص فى تقديم السمع.

قال هؤلاء: بل الواجب الرد إلى العقل ورد السمع إن عارضه، ولـورد النـاس الأمر عند النزاع إلى عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافا واضطرابا وشكا وارتيابا، فلا يمكن الحكم بين الناس فى موارد النزاع والاختلاف على الإطلاق إلا بكتاب منزل من السماء يرجع الجميع إلى حكمه، وإلا فكل واحد من أرباب المعقولات يقول عقلى أولى بالثقة به من عقل منازعى، وهذا يدلى بمعقول وهذا يدلى بمعقول.

الوجه السابع عشر: أن الله سبحانه قد تمم الدين بنبيه ﷺ وأكمله به، ولم يحوجه ولا أمته بعده الى عقل ولا نقل سواه، ولا رأي ولا منام ولا «كشف»[1] قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[2] وأنكر على من لم يكتف بالوحى من غيره فقال: ﴿**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾[3] ذكر هنا جوابا لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آيه، فلو كان ما تضمنه من الأخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلا على صدقه فضلا عن أن يكون كافيا، وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا بيان أن تقديم العقل على النقـل يبطل كون القرآن آية وبرهانا على صحة النبوة، والمقصود أن الله سبحانه تمم الدين وأكمله بنبيه وما بعثه به، فلم يحوج أمته الى سواه، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه لم يكن كافيا للأمة، ولا كان تاما في نفسه، في مراسيل أبي داود: أن رسول الله ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة فيها شيء من التوراة فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابا غير

(١) من المختصر: وفى الأصل: «كسوف».
(٢) سورة المائدة/ ٣.
(٣) سورة العنكبوت/ ٥١.

كتابهم أنزل على نبي غير نبيهم»[1] فأنزل الله عز وجل: ﴿**أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾.

وقال سبحانه: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾[2] فأقسم سبحانه بنفسه أنّا لا نؤمن حتى نُحكم رسوله في جميع ما شجر بيننا وتتسع صدورنا «لحكمه»[3] فلا يبقى فيها حرج، ونسلم لحكمه تسليما، فلا نعارضه بعقل ولا رأي ولا هوى ولا غيره، فقد أقسم الرب سبحانه بنفسه على نفي الإيمان «عن» هؤلاء الذين يقدمون العقل على ما جاء به الرسول، وقد شهدوا هم على أنفسهم بأنهم غير مؤمنين بمعناه وإن آمنوا بلفظه، وقال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله**﴾[4] وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود الى الله وحده، وهو الحاكم فيه على لسان رسوله، فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو حاكم بوحيه وكتابه، وقال تعالى: ﴿**اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾[5] فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ونهى عن اتباع ما خالفه، وأخبر سبحانه أن كتابه بيِّنة وشفاء وهدى ورحمه ونورا «ومفصلا»[6] وبرهانا وحجة وبيانا.[7].

---

(1) مراسيل أبى داود باب ما جاء في العلم ص ٣٢٠ رقم ٤٥٤ تحقيق شعيب الأرناؤوط، وانظر: سنن الدارمى ١/١٢٤، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٤، وتفسير الطبرى ٢٠/٧.

(٢) سورة النساء/ ٩٥.

(٣) فى الأصل: «بحكمه» وما أثبت من المختصر.

(٤) سورة الشورى/ ١٠.

(٥) سورة الأعراف/ ٣.

(٦) من المختصر، وفى الأصل: «وفضلا».

(٧) قال تعالى: ﴿**فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة**﴾ الأنعام/ ١٥٧. وقال: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ النحل/ ٨٩، وقال: ﴿**قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**﴾ يونس/ ٥٧، وقال

فلو كان في العقل ما يعارضه ويجب تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك، بل كانت هذه الصفات للعقل دونه، وكان عنها بمعزل، فكيف يشفى ويهدي ويبين ويفصل ما يعارضه صريح العقل؟!

الوجه الثامن عشر: أن ما علم بصريح العقل الذي لا يختلف فيه العقلاء لا يتصور أن يعارضه الشرع البته، ولا يأتي بخلافه، ومن تأمل ذلك فيما تنازع العقلاء فيه من المسائل الكبار وجد ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للنقل، فتأمل ذلك في مسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد، تجد ما يدل عليه صريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يخالفه إما أن يكون حديثا موضوعا أو لا تكون دلالته مخالفة لما دل عليه العقل، ونحن نعلم قطعا أن الرسل لا يخبرون «بمحال»[1] العقول وإن أخبروا «بمحارات»[2] فلا يخبرون بما يحيله العقل، وإن أخبروا بما يحار فيه العقل ولا يستقل بمعرفته، ومن تأمل أدلة نفاة الصفات والأفعال، والقدر والحكمة والمعاد وأعطاها حقها من النظر العقلي علم بالعقل فسادها وثبوت نقيضها ولله الحمد.

الوجه التاسع عشر: أن المسائل التي يقال إنه قد تعارض فيها العقل والسمع من المسائل المعلومة بصريح العقل كمسائل الحساب والهندسة والطبيعيات اليقينية، فلم يجيء في القرآن ولا في السنّة حرف واحد يخالف العقل في هذا الباب، وما جاء من ذلك فهو مكذوب مفترى، كحديث:

سبحانه: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ النساء/ ١٧٤.

وقال: ﴿وهو الذى أنزل إليك الكتاب مفصلا﴾ الأنعام/ ١١٤.

وقال: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ آل عمران/ ١٣٨.

(١) فى المختصر: «بمحالات».

(٢) فى المختصر: «بمجازات».

«إن الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق خيلا فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق»(١) ، وحديث نزوله عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة «(٢) وكقول اليهود : «إنه سبحانه «بكى »(٣) على الطوفان حتى «رمدت عيناه»(٤) وعادته الملائكة(٥) وإنه ندم على ذلك حتى عض أصابعه ، وإنه تبدى لإسرائيل وصارعه(٦) وكقول النصارى : «إنه اتخذ مريم زوجة وأولدها عيسى فهي صاحبته وعيسى ابنه»(٧) تعالى الله عما يقول أعداؤه فيه علوا كبيرا ، وكقولهم : «إنه نزل عن كرسي عظمته ودخل في فرج مريم والتحم بناسوت المسيح»(٨) وقول مشركي العرب : «إنه صاهر الجن فولدت له الملائكة»(٩) وأمثال ذلك من الأقوال المخالفة لصريح العقل ، فكيف

---

(١) قال شيخ الإسلام : كذبه بعض الناس على أصحاب حماد بن سلمه ، وقالوا : إنه كذبه بعض أهل البدع ، واتهموا بوضعه محمد بن شجاع الثلجى ، وقالوا : إنه وضعه ورمى به بعض أهل الحديث، ليقال عنهم : إنهم يروون مثل هذا . درء التعارض ١٤٨/١ . أورده السيوطى فى اللآلىء المصنوعة ١٠٥/١ عن الحاكم ، وقال : هذا حديث لا يشك فى وضعه ، وما وضع مثل هذا مسلم ، وإنه لمن أرك الموضوعات وأبردها .

(٢) قال شيخ الإسلام : هذا من أعظم الكذب على الله ورسوله ﷺ ، وقائله من أعظم القائلين على الله غير الحق ، ولم يرو هذا الحديث أحد من علماء المسلمين أصلاً ، بل أجمع علماء المسلمين وأهل المعرفة بالحديث على أنه مكذوب على رسول الله ﷺ ، وقال أهل العلم ـ كابن قتيبة وغيره ـ : هذا وأمثاله إنما وضعه الزنادقة الكفار ليشينوا به على أهل الحديث، ويقولون : إنهم يروون مثل هذا . مجموع الفتاوى ٣٨٥/٣ ، وقد أورده بعض أصحاب كتب الموضوعات ، انظر تذكرة الموضوعات لمحمد بن طاهر الهندى ، ط المنيرية عام ١٣٤٣هـ ص١٢-١٣ ، وموضوعات على القارى ، ط استانبول ص٤٤ ، وكشف الخفا للعجلونى رقم (١٤٠٩) ٥٢٦/١ . وكلهم أجمعوا على أنه موضوع لا أصل له .

(٣) لا توجد فى الأصل ، وأضفتها من الملل والنحل ، وهداية الحيارى .

(٤) فى الأصل : «رمد» والاضافة من هداية الحيارى .

(٥) انظر : الملل والنحل للشهرستانى ١٠٦/١ ، وهداية الحيارى/ ١٠٨ .

(٦) انظر : سفر التكوين ، الاصحاح الثانى والثلاثين .

(٧) انظر : هداية الحيارى للمصنف ص١٣٩ .

(٨) هذا ما تضمنته أمانتهم . انظر نفس المصدر ص١٤٣-١٤٥ .

(٩) قال تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ الصافات/ ١٥٨ . وانظر : تفسير الطبرى ١٠٨/٢٣ .

يجعل ما أثبته الله لنفسه في كتابه من صفاته وأفعاله وما صح عن رسوله أنه أثبته له من علوه فوق سمواته على عرشه واستوائه عليه، وتكلمه وتكليمه، وثبوت علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه الأعلى ورحمته وغضبه ورضاه وفرحه وضحكه «ويديه»[١] اللتين[٢] يمسك بأحدهما السموات السبع وبالأخرى الأرضين السبع ثم يهزهن، ونزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ونحو ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله، كيف يجعل هذا بمنزلة ذلك في مخالفة كل منهما لصريح العقل؟، ويجعل إثبات هذا كإثبات ذلك، ووصفه بهذا كوصفه بذاك؟، كما صرح به «النفاة»[٣] وقالوا: إن هذا تشبيه وتجسيم، فلا فرق بينه وبين ذاك التشبيه والتجسيم، فليبك على عقله وما أصيب به من سوّى بين الأمرين، أحسن الله عزاه في عقله، ولا بورك له في علم هذه غايته التي لا يرضاها أعظم الناس انغماسا في جهله.

الوجه العشرون: أنه لا يعلم آية من كتاب الله، ولا نص صحيح عن رسول الله ﷺ في باب أصول الدين اجتمعت الأمة على خلافه، وغاية ما يقدر اختلاف الأمة في القول بموجبه، «ومن»[٤] له خبرة بمذاهب الناس وأقوال السلف يعلم قطعا أن الأمة أجمعت على القول به قبل ظهور المخالف، كما أجمعت بأن الله مستو على عرشه فوق سمواته، وأن المؤمنين يرونه عيانا بالأبصار من فوقهم في الجنة، وأنه سبحانه كلم نبيه موسى منه إليه بلا واسطة تكليما سمع به كلامه ولم يشك أنه هو الذي كان يكلمه، وأنه كتب مقادير الخلائق وقدّرها قبل أن يخلقهم، وأنه علم ما هم عاملوه

---

(١) لا توجد فى الأصل وأضفتها ليستقيم الكلام.

(٢) فى الأصل: «التى».

(٣) فى الأصل: «الثقات» وهو خطأ.

(٤) فى الأصل: «ولا فيمن» ولعل الصواب ما أثبت.

قبل أن يعملوه، وأنه يحب ويبغض ويرضى ويغضب ويضحك ويفرح، وأن له وجهـا ويدين، فهـذا إجمـاع معلوم متيقن عن جميع أهـل السنّة والحديث(١)، فالعقل الذي يعارض هذا لم تجمع عليه الأمة، ولم يعرف عن رجل واحد من السلف والأئمة أنه قاله، وغايته أن يكون عقل فرقة من الفـرق اشتقت لأنفسهـا مذهبـا وادعت له معقـولا، فلما صالت عليها

(١) لقد تلقى رسول الله ﷺ عن الله ورسوله النصوص الواردة فى باب إثبات صفات الكمال لله تبارك وتعالى، وسلموا بها دلت عليه، ولم يحصل بينهم أى اختلاف فى معانيها المرادة منها، ولم يسأله أحد منهم عن معنى شىء منها، لأن ذلك جاءهم بلسان عربى مبين سواء كان قرءانا أو سنّة، وكانوا أفصح العرب، ولذلك كان فهمهم عن الله ورسوله أكمل من فهم سواهم، ومعرفتهم بمراد الله ورسوله أرسخ وأعظم معرفة، ولذلك لم يحصل بينهم أي اختلاف في ذلك الفهم فانعقد اجماعهم على أن الظاهر منها هو المراد على ما يليق بجلال الله وعظمته، ولم يحصل بينهم أى اختلاف فى ذلك، كما حصل فى بعض مسائل الفروع، ولو حصل لنقل إلينا وعلمناه.

يقول المقريزى فى خططه: إعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا ﷺ رسولا إلى الناس جميعا وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه ﷺ الروح الأمين، وبما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله ﷺ أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شىء من ذلك كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهى، وكما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة، والجنة والنار، إذ لو سأله إنسان منهم عن شىء من الصفات الالهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ فى أحكام الحلال والحرام، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة، والملاحم والفتن، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحـديث، معـاجمها ومسانيدها وجوامعها، ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى، ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم، على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شىء مما وصف الرب سبحانه نفسه الكريمة فى القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام فى الصفات، نعم ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والأنعام، والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقا واحدا. وهكذا أثبتوا رضى الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفى مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شىء من هذا، ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية، ولا مسائل الفلسفة.

الخطط المقريزية ٢/٣٥٦.

نصوص الوحي التجأت الى العقل وادعت أنه يخالفها، وصدقت وكذبت، أما **صدقها** فإن نصوص الوحي تخالف معقولها هي، وذلك من أدل دليل على فساده في نفسه إذا شهدت له نصوص الوحي بالبطلان. **وأما كذبها** فزعمها أن نصوص الوحي تخالف العقل المتفق عليه بين العقلاء.

فهذا لم يقع ولا يقع مادامت السماء سماء والأرض أرضا، بل تزول السماء والأرض، وهذا لا يكون.

فأي ذنب للنصوص اذا خالفت عقول بعض الناس؟ فقد وافقت عقول أصح الناس عقلا، **﴿فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**[1].

الوجه الحادي والعشرون: أن الأدلة السمعية هي الكتاب والسنّة والإجماع، وهو إنما يصار اليه عند تعذر الوصول اليها فهو في المرتبة الأخيرة، ولهذا أخره عمر في كتابه إلى أبي موسى حيث كتب إليه: «اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبما في سنّة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في السنّة فبما قضى به الصالحون قبلك.»[2] وهذا السلوك هو كان سلوك الصحابة والتابعين ومن درج على آثارهم من الأئمة، أول ما يطلبون النازلة من القرآن، فإن أصابوا حكمها فيه لم يعدوه إلى غيره، وإن لم يصيبوها فيه طلبوها من سنّة رسول الله ﷺ، فإن أصابوها لم يعدوها إلى غيرها، وإن لم يصيبوها طلبوها من اتفاق العلماء، وقد صان الله الأمة أن تجمع على خطأ أو على ما يعلم بطلانه بصريح العقل، فإذا كان «الإجماع»[3] معصوما أن ينعقد على ما يخالف العقل الصريح بل إذا وجدنا

---

(١) سورة الأنعام/ ٨٩-٩٠.

(٢) انظر: كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى فى سنن الدارقطنى ٤/٢٠٦-٢٠٧، والسنن الكبرى للبيهقى ١٠/١٥٠ وليس فيها هذا اللفظ الذى أورده المصنف هنا، ولعله يريد كتاب عمر إلى شريح. أورده المصنف فى أعلام الموقعين عن الحميدى. انظر: ١/٩٠.

(٣) فى الأصل: «الجماع» وهو خطأ.

معقولا يخالفه الإجماع علمنا قطعا أنه معقول فاسد، فلأن يصان كتاب الله وسنّة رسوله عن مخالفة العقل الصريح أولى وأحرى.

الوجه الثاني والعشرون: أنه إذا قدر تعارض العقل والكتاب فرد العقل الذي لم يتضمن لنا عصمة إلى الكتاب المعلوم العصمة هو الواجب.

الـوجه الثالث والعشرون: أن هؤلاء الخائضين فى صفات الرب وأفعـالـه، ومـا يجوز عليه ومـا لا يجوز، بآرائهم وعقولهم تراهم مختلفين متنـازعـين حيارى متهوكين، وحاصل ما مع أكثرهم حسن الظن بإمامة الذى سلك طريقته وتقليده فى أصوله وهو يرى بعقله خلافها ويستشكلها ويقر بأنها مشكلة جدا، ثم ينكس على رأسه ويقول: هو أعلم بالعقول منى.

فتجد أتباع أرسطو الملحد المشرك عابد الأوثان يتبعونه فيما وضعه لهم من قواعد المنطق الطبيعى والإلهى، وكثير منهم يرى بعقله نقيض ما قاله، ولكن يحسن ظنه به، يتوقف فى مخالفته وينسب التقصير إلى فهمه والنقص إلى عقله لعظمة أرسطو فى نفسه، ولعلمه بأنه أعقل منه، وهكذا شأن جميع أرباب المقالات والمذاهب، يرى أحدهم فى كلام متبوعة ومن يقلده ماهو باطل وهو يتوقف فى رد ذلك لاعتقاده أن إمامه وشيخه أكمل منه علما وأوفر عقلا، هذا مع علمه وعلم العقلاء أن متبوعه وشيخه ليس بمعصوم من الخطأ، فهلا سلكوا هذا المسلك مع نبيهم ورسولهم المضمون له العصمة، المعلوم صدقة فى كل ما يخبر به، وهلا قالوا: عقله أوفر من عقولنا وعلمه أصح من علومنا، فنحن نستشكل معقولاً يخالفه ونرده ولا نقبله كما فعلوه مع شيوخهم ومتبوعهم، ولكن: ﴿**ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**﴾[1].

---

(١) سورة المائدة/ ٤١.

الوجـه الرابع والعشرون : أن كل من أعرض عن السمع لظنه أن العقل يخالفه إذ تكون أدلته لاتفيد اليقين، أو لأنه خاطب الخلق خطابا جمهوريا تخييليا لا خطابا برهانيا، تجد بينهم من النزاع والتفرق والشهادة من بعضهم على بعض بالضلالة بحسب إعراضهم عن السمع، وكل من كان عنـه أبعـد كان قولـه أفسد، واختلاف طائفته أشد، فالمعتزلة أكثر اختلافا من متكلمة أهل الإثبات، وبين البصريين والبغداديين منهم من النــزاع ما يطول ذكــره، والبصريون أقــرب إلى الإثبـات والسنّـة من البغداديين، فالبصريون يثبتون كونه سبحانه سميعاً بصيراً حيا عالما قديرا، ويثبتون له الإرادة ولا يوجبون عليه الأصلح فى الدنيا، ويثبتون خبر الواحد والقياس ولايوثمـون المجتهـدين ثم بين المشايخية والحسينية[1] من النزاع ماهو معروف، وأما الشيعة فأعظم تمزقا واختلافا من المعتزلة حتى قيل: إنهم يبلغون ثنتين وسبعين فرقة، وذلك لأنهم أبعد طوائف الملة عن السنّة، وأما الفلاسفة فلا يجمعهم أى جامع فتلاعب « . . . . . . »[2] ولاتقف مع حدودهـا وقـل بعقلك ماشئت وقـد صرت فيلسوفا حكيما، وهم أعظم اختـلافـا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى، والفلسفة التى ذهب إليها الفارابى وابن سينا هى فلسفة المشائين[3] أتباع أرسطو صاحب المنـطق، وبينه وبين سلفه من النزاع ما يطول ذكره، ثم بين أتباعه من الخـلاف ما يطول وصفـه، وأمـا سائـر طوائف الفلاسفة فلو حكى لك اختلافهم فى علم الهيئة وحده لرأيت العجب العجاب، هذا والهيئة علم

---

(١) لم أجد فرقة من الفرق تدعى المشايخية، ولعل المصنف يقصد مشايخ المعتزلة البغداديين الذين خالفهم أبو الحسين البصرى. أما الحسينية فهم أتباع أبى الحسين البصرى وإليه تنسب هذه الفرقة من فرق المعتزلة البصريين. انظر: اعتقاد فرق المسلمين والمشركين للرازى ص٤٢.

(٢) كلمة لم أتمكن من قراءتها ولعلها «بالنصوص».

(٣) سمى أرسطو وأتباعه بالمشائين أخذاً من عادة أرسطو، فقد كان يمشى بين تلاميذه وهو يعلمهم. انظر: كتاب « فى الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية» تأليف الدكتور عوض الله حجازى، والدكتور محمد السيد نعيم ص٦٦.

رياضى حسابى هو من أصح علومهم فكيف باختلافهم فى الطبيعيات، فكيف بالألهيات واعتبر هذا بما ذكره أرباب المقالات عنهم فى العلوم الرياضية والطبيعية، كما نقله الأشعرى فى كتاب مقالات غير الإسلاميين[1]، وابن الباقلانى فى كتاب الوثائق، وفى هذين الكتابين من الاختلاف بينهم أضعاف ماذكره الشهرستانى وابن الخطيب، والكتاب الذى اتفق عليه جمهورهم وهو المجسطى لبطليموس[2] فيه قضايا كثيرة لا يقوم عليها دليل صحيح، وقضايا ينازعه فيها غيره وقضايا مبنية على أرصاد منقولة عن غيره تقبل الغلط والكذب، وفيه قضايا برهانية صادقة، وهو من أجود علومهم وأصحها، وأما الطبيعيات ففيها من الاضطراب والاختلاف ما لا يكاد يحصى، وهو أكثر من أن يذكر، هذا وهو أقرب إلى الجنس من العلم الالهى، وأما الالهيات فإذا شئت مثالا يقرب إليك حالهم فمثلهم كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض فى ليلة ظلماء، فهجم عليهم العدو فقاموا فى الظلمة هاربين على وجوههم فى كل ناحية ولا إله إلا الله «كم»[3] لهم فيه من خبط وخرص وتخمين، وليسوا متفقين فيه على شىء أصلا، وأساطينهم قد صرحوا بأنهم لايصلون فيه إلى اليقين، وإنما يتكلمون فيه بالأولى والأخلق، ولهذا ظهر فى السالكين خلفهم من الحيرة والتوقف والاعتراف بأنهم لم يصلوا إلى شىء مافيه عبرة لأهل الوحى اتباع الرسل المقدمين لما نزل به الوحى على عقول هؤلاء وأشباههم، وقد تقدم إقرار الشهرستانى وابن الخطيب وابن أبى الحديد والخونجى والجوينى

---

(١) لعله كتاب «جمل مقالات الملحدين» ذكره الذهبى فى السير ١/ ٨٧.

(٢) بطليموس القلوذى العالم المشهور صاحب كتاب المجسطى فى الفلك، إمام فى الرياضة، كان فى أيام أندرياسيوس، وفى أيام أنطميوس من ملوك الروم، وبعد أيرقس بمائتين وثمانين سنة. فأما كتاب «المجسطى» فهو ثلاث عشرة مقالة، وأول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك. انظر: تاريخ الحكماء ص٩٥ـ٩٨، وطبقات الأطباء ص٣٥ـ٣٨، والفهرست لابن النديم ص٣٧٤ـ٣٧٥، وخطط المقريزى ١/ ١٥٤.

(٣) فى الأصل: «كمن».

وغيرهم على أنفسهم بذلك[1]، وقد قال ابن رشد وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم فى كتابه «تهافت التهافت». ومن الذى قال فى الإلٰهيات شيئا يعتد به؟ وهذا أفضل المتأخرين فى زمانه أبو الحسن الآمدى واقف فى «المسائل»[2] الكبار يذكر حجج الطوائف ويبقى واقفا حائرا[3] ﴿**لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**﴾[4].

وهذا صاحب الكتب المظنون بها على غير أهلها مع فرط ذكائه ومعرفته بالفلسفة والكلام ينتهى وقت الموت فى هذه المسائل إلى «الوقف»[5] والحيرة ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على طريقة أهل الحديث وأقبل على صحيح البخارى فمات وهو على صدره[6].

وحدثنى شيخ الاسلام قال: حكى لى «أن»[7] بعض الأذكياء وكان قد قرأ على أفضل أهل زمانه فى الكلام والفلسفة وهو ابن واصل الحموى[8]

---

(١) راجع ص ٤٠٩ ـ ٤١٣.

(٢) فى الأصل: «مسائل».

(٣) انتهى الآمدى فى كثير من المسائل إلى التوقف وعدم القطع برأى، مثل مسألة وحدة الكلام الإلهى عند الأشاعرة، مع انقسامه إلى أمر ونهى وخبر واستخبار، حيث ذكر اعتراض الخصوم على ذلك والردود عليهم ثم قال: «... والحق أن ما ذكروه من الإشكال على القول بوحدة الكلام فمشكل، وعسى أن يكون عند غيرى حله». أبكار الأفكار (١/٩٨) وموقفه من مسألة النفس حيث ذكر آراء الفلاسفة ثم قال: «... لا سبيل إلى القطع فى شىء مما قيل من المذاهب فى حقيقة النفس الإنسانية المدركة العاقلة، وإن كان الحق غير خارج عنها، فعليك بالاجتهاد فى تعيينه وإظهاره. هذا ما عندى ولعل عند غيرى غيره» الأبكار (٢/٢١١أ) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٠٣ علم الكلام.

(٤) سورة النساء/ ١٤٣.

(٥) فى الأصل: «الوقت» وهو خطأ، وما أثبت موافق لما فى درء التعارض.

(٦) يقصد بذلك أبا حامد الغزالى. انظر: درء التعارض ١/١٦٢.

(٧) لا توجد فى الأصل وأثبتها من درء التعارض.

(٨) محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل، أبو عبد الله المازنى التميمى الحموى، مؤرخ عالم بالمنطق، أقام بمصر ولقب بقاضى القضاة، من أهم كتبه: «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب»، «التاريخ الصالحى»، «شرح ما استغلق من كتاب الجمل فى المنطق». ولد سنة (٦٠٤) بحماه =

أنه قال له الشيخ: أضطجع على فراشى وأضع الملحفة على وجهى وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندى شىء[1].

ولهذا ذهب طائفة من أهل الكلام إلى القول بتكافؤ الأدلة، ومعناه أنها قد تكافأت وتعارضت فلا يعرف الحق من الباطل وصدقوا وكذبوا، أما صدقهم فإن أدلتهم وطرقهم قد تكافأت وتصادمت حتى قال شاعرهم:

ونظيرى فى العلم مثلي أعمى   فترانا فى حندس نتصادم

ولقد صدق هذا الأعمى البصر والبصيرة، ووصف حال القوم فأحسن والله الفقه وعبر عن حالهم بأشد عبارة، مطابقة بزمرة عميان قاموا فى ليلة مظلمة يتهاوشون ويتصادمون.

وأما كذبهم فإن أدلة الحق وشبه الباطل لا تتكافأ حتى يتكافأ الضوء والظلام والبياض والسواد والمسك وأنتن الجيف، فسبحان من أعمى عن الحق بصائر من شاء من خلقه كما عمى عن الشمس أبصار من شاء منهم فالذنب لتلك البصائر لا للحق، كما أن الحجاب فى تلك العيون لا فى الشمس، ولقد أحسن القائل فى وصف هؤلاء وبصائرهم أنها بمنزلة أبصار الخفاش تعجز عن ضوء النهار ولا تفتح أعينها فيه ويلائمها ظلام الليل، فتذهب فيه وتجىء، ولهذا تجد أكثر هؤلاء ما لم يتبين له الهدى فى شىء من تلك الطرق نكص على عقبيه، وخلع العِذار ونزع قيد الشريعة من قلبه، وأقبل على شهوات الغى فى بطنه وفرجه أو رياسته وماله، فأقبل على اللذّات وسماع المطربات ومعاشرة الصور المستحسنات، وذلك لخلو قلبه عن حقائق العلم والإيمان الذى بعث الله به رسوله، فلم يصل إليه ولا وصل من طرق أصحابه إلا إلى الشك والحيرة، فهؤلاء هم الذين عناهم الله سبحانه بقوله: ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس**﴾[2] فعلومهم

= وتوفى بها سنة (٦٩٧هـ). انظر: نكت الهميان ص٢٥٠، والوافى بالوفيات ٣/٨٥، والأعلام ٤/٧، ومعجم المؤلفين ١٠/١٧.

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٥.

(٢) سورة النجم/ ٢٣.

ظنون ﴿**وإن الظن لايغنى من الحق شيئا**﴾[1] وإرادتهم هوى نفوسهم، وعلومهم تدعو إلى إرادتهم، وارادتهم تدعو إلى علومهم، فإن اتباع الهوى «بعيد»[2] عن الحق، ويصد عن سبيل الله، فتولوا عن القرآن وآثروا عاجل الـدنيا. وهؤلاء الذين أمر الله رسوله بالإعراض عنهم بعد إقامة الحجة عليهم فقال تعالى: ﴿**فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم**﴾[3].

الوجه الخامس والعشرون: أن الله سبحانه لما أهبط الأبوين من الجنة عهد إليهما عهدا تناولهما وتناول ذريتهما الى يوم القيامة، وضمن لمن تمسك بعهده أنه لا يضل ولا يشقي، ولمن أعرض عنه الضلال والشقاء، فقال تعالى: ﴿**قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدىً فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومَنْ أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لَمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك ءاياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾[4].

قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية[5]وقوله: ﴿**ومن أعرض عن ذكري**﴾ يتناول الذكر الذي أنزله وهو الهدى الذي جاءت به الرسل ويدل عليه سياق الكلام وهو قوله: ﴿**كذلك أتتكءاياتنا فنسيتها**﴾ فهذا هو الإعـراض عن ذكـره، فإذا كان هذا حال المعرض عنه فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده وأحسن الظن به، فكما أنه لا يكون مؤمنا إلا من قبله وانقاد له فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به.

---

(١) سورة النجم/ ٢٨.

(٢) هكذا فى الأصل. ولعل الصواب: «يبعد».

(٣) سورة النجم/ ٢٩-٣٠.

(٤) سورة طه/ ١٢٣-١٢٦.

(٥) انظر: جامع البيان للطبرى ١٦/ ٢٢٥، وتفسير ابن كثير ٥/ ٣١٦.

الوجه السادس والعشرون: أن طالب الهدى فى غير القرآن والسنّة قد شهد الله ورسوله له بالضلال، فكيف يكون عقله الذى قد أضله الله مقدما على كتاب الله وسنّة رسوله؟، قال تعالى فى أرباب العقول التى عارضوا بها وحيه: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾(١) وقال: ﴿**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ (٢)، وقال فيمن قدم عقله على ماجاء به: ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾(٣)، والقرآن مملوء بوصف من قدم عقله على ماجاء به «بالضلال»(٤).

وروى الترمذي وغيره من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ماقبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ(٥) به الأهواء ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق على كثره الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿**إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد**﴾(٦) من قال به صدق ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم(٧).

---

(١) سورة الجاثية/ ٢٣.

(٢) سورة الأنعام/ ١٥٣.

(٣) سورة النجم/ ٢٣.

(٤) فى الأصل: «من الضلال».

(٥) لا تزيغ: لا تميل ولا تضل عن الحق.

(٦) سورة الجن/ ١-٢.

(٧) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب فضائل القرآن «باب ما جاء فى فضل القرآن» ح(٢٩٠٦) ١٧٢/٥، وسنن الدارمى، كتاب فضائل القرآن، «باب فضل من قرأ القرآن» ٤٢٩/٢.

الوجه السابع والعشرون: أن ما عارض به هؤلاء نصوص الأنبياء من المعقولات قد شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك فيها، وأنهم لم يجزموا فيها بشيء، ولم يظفروا منها بعلم ولا يقين، كما تقدم ذكر اليسير منه عن أفاضلهم، وشهد به عليهم تناقضهم واضطرابهم واختلافهم، فإن ما كان من عند غير الله لابد أن يقع فيه الاختلاف الكثير، وشهد عليهم بذلك أتباع الرسل، وشهد به عليهم من هو على كل شيء شهيد، ويشهد به عليهم يوم القيامة من أنزل عليه: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾(١) وشهد به عليهم نصوص الكتاب والسنّة، وشهد به عليهم أدلة العقول الصريحة الموافقة للنصوص، فهل عندهم مثل هؤلاء الشهود على صحة العقل الذي عارضوا به نصوص الأنبياء؟ نعم شهودهم أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وابن سينا والفارابي وجهم بن صفوان وأبو الهذيل العلاف والنظام، وأوقاح الجهمية والمعتزلة، وأفراخ الصابئين والمجوس، ومن تعارضت عنده هذه البينات، ولا تنكر له أن يتعارض عنده العقل والنقل وأن يقدم العقل على النقل.

الوجه الثامن والعشرون: أن أصحاب القرآن والايمان قد شهد الله لهم ـ وكفى به شهيدا ـ بالعلم واليقين والهدى وأنهم على بصيرة وبينة من ربهم، وأنهم هم أولو العقول والألباب والبصائر، وأن لهم نوراً على نور، وأنهم المهتدون المفلحون، قال تعالى في حق الذين يؤمنون بالغيب ولا يعارضونه بعقولهم وآرائهم: ﴿**ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾(٢) وقال: ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد**﴾(٣).

---

(١) سورة النساء/ ٤١. (٢) سورة البقرة/ ١-٥. (٣) سورة سبأ/ ٦.

وهذا دليل ظاهر على أن الذي يراه معارضا للعقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير، وقال: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾(١) وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم، وقال: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾(٢) فأخبر سبحانه عن مثل نور الإيمان به وبأسمائه وصفاته وأفعاله وصدق رسله في قلوب عباده، وموافقة ذلك لنور عقولهم وفطرهم التي أبصروا بها نور الإيمان، بهذا المثل المتضمن لأعلى أنواع النور المشهود وأنه نور على نور، نور «الوحي»(٣) ونور العقل، نور الشرعة ونور الفطرة، نور الأدلة السمعية ونور الأدلة العقلية، وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾(٤) وقال تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾(٥) وقال تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾(٦) وقال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم

---

(١) سورة الرعد/ ١٩.
(٢) سورة النور/ ٣٥.
(٣) في الأصل: «وحى».
(٤) سورة الشورى/ ٥٢.
(٥) سورة الأنعام/ ١٢٢.
(٦) سورة الأعراف/ ١٥٧.

الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(١)

ثم أخبر سبحانه عن حال المعرضين عن هذا النور المعارضين للوحي بالعقل بمثلين، يتضمن أحدهما وصفهم بالجهل المركب والآخر بالجهل البسيط، لأنهم بين ناظر وباحث ومقدر ومفكر، وبين مقلد يحسن الظن بهم فقال في الطائفتين: **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾**(٢)

الوجه التاسع والعشرون: أن يقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، وإبطالهما معا إبطال للنقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول، فلو أبطلنا النقل لكنا قد إبطلنا دلالة العقل، وإذا بطلت دلالته لم يصلح أن يكون «معارضا»(٣) للنقل لأن ماليس بدليل لا يصلح لمعارضة الدليل، فكان تقديم العقل موجبا لعدم تقديمه فلا يجوز تقديمه، وهذا بيّن جدا فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته، وأن خبره مطابق لمخبره، فإما أن تكون هذه الدلالة صحيحة أو باطلة، فإن كانت صحيحة امتنع أن يكون في العقل ما يبطلها، وإن كانت باطلة لزم أن لا يكون العقل دليلا صحيحا، وإذا لم يكن دليلا صحيحا لم يتبع بحال، فضلاً عن أن يقدم على الدليل السمعي الصحيح، فصار تقديم العقل على النقل قدحا في العقل بانتفاء لوازمه

(١) سورة البقرة/ ٢٥٧.

(٢) سورة النور/ ٣٩-٤٠.

(٣) في الأصل: «تعارضا».

ومدلوله، وإذا كان تقديمه على النقل يستلزم القدح فيه، والقدح فيه يمنع دلالته وذلك يمنع معارضته، استحال تقديمه عند المعارضة، لأن تقديمه عند المعارضة يبطل المعارضة، وذلك يحيل المسألة من أصلها. يوضحـــه:

الوجه الثلاثـــون: وهو أن يقال: معارضة العقل لما دل العقل على أنه حق دليل على تناقض دلالته، وذلك يوجب فسادها، وأما السمع فلم يعلم فســاد دلالته ولا تعارضها وتناقضها في نفسها وإن قدر أنه لم يعلم صحتها، وإذا تعارض دليلان أحدهما علمنا فساده والآخر لم نعلم فساده كان تقديم ما لم يعلم فساده أقرب الى الصواب من تقديم ما يعلم فساده، وهذا كالشاهد إذا علم كذبه وفسقه لم يجز تقديم شهادته على شاهد مجهول لم يعلم كذبه، فكيف إذا كان الشاهد الكاذب هو الذي شهد بأنه قد كذب في بعض شهاداته؟ والعقل إذا صدّق السمع في كل ما يخبر به ثم قال: إنه أتي بخلاف الحق قد شهد للسمع بأنه يجب قبول قوله، وشهد له بأنه لا يجوز قبول قوله، وشهد له بأن ما أخبر به حق، وشهد بأن ما أخبر به ليس بحق، وهذا قدح في شهادته مطلقا وفي تزكيته، ولا تقبل شهادته الأولى ولا الثانية. يوضحـــه:

الـوجـه الحـادي والثلاثون: أن الأيات والبراهين اليقينية والأدلة القـطعية قد دلت على صدق الـرسل، وأنهم لا يخبرون عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه إلا بالحق المحض، فهم صادقون فيما يبلغونه عن الله في الطلب والخبر، وهذا أول درجات الإيمان، «فمتى»[1] علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزما لا يحتمل النقيضين أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي لا عقلي ولا سمعي، وأن كل ما يظن أنه يعارضه من ذلك فهي حجج داحضة وشبه فاسدة من جنس شبه السفسطة والقرمطة، وإذا كان

(١) فى الأصل: «فمن» ولعل الصواب ما أثبت.

العقل العام الذي يصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه ممتنع أن يعارض خبره دليل صحيح كان هذا العقل شاهدا بأن كل ما عارض ما أخبر به الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل الصحيح والسمع قد شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع.

الوجه الثاني والثلاثون: أن الشبهات القادحة في نبوات الأنبياء، ووجود الرب، ومعاد الأبدان، التي يسميها أربابها حججا عقلية هي «كلها»[1] معارضة للنقل، وهي أقوى من الشبه التي يدعي النفاة للصفات أنها معقولات خالفت النقل أو من جنسها أو قريبة منها كما قيل:

دع الخمر يشربها الغواة فإنني رأيت أخاها مغنيا عن مكانها
فإن لم يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها[2]

فقد أُورد على القدح في النبوات ثمانون شبهة أو أكثر، وهي كلها عقلية، وأورد على إثبات «وجود»[3] الصانع سبحانه نحو أربعين شبهة كلها عقلية، وأورد على المعاد «نحو»[4] ذلك، والله يعلم أن هذه الشبهة من جنس شبه نفاة الصفات وعلو الله على خلقه وتكلمه وتكليمه ورؤيته بالأبصار عيانا في الآخرة، لكن نفقت هذه الشبهة تجاه نسبة أربابها الى الرسول والإسلام «وأنهم يذبّون عن دينه»[5] وينزهون الرب عما لا يليق

---

(١) فى المختصر: «فى كل».
(٢) هذه الأبيات لأبى الأسود الدؤلى وردت فى ديوانه بشىء من الاختلاف فى بعض الألفاظ، وهى ثلاثة أبيات وردت كالآتى:

وإنّ امرءا قد قال فى الحق خطة لملتمس تصديقها ببيانها
دع الخمر يشربها الغواة فإننى وجدت أخاها مجزيا لمكانها
فالا يكنها أو تكنه فإنه أخ أرضعته أمه بلبانها

انظر: ديوانه ص٣٧ بتحقيق محمد حسن آل ياسين، ط الأولى بمطبعة المعارف فى بغداد سنة ١٣٧٣هـ.
(٣) من المختصر.
(٤) فى المختصر: «مثل».
(٥) فى المختصر: «وأن القوم يذبون عن دين الله».

به، وإلا فعند التحقيق «القاع عرفج»[1] كله ولا فرق بين الشبه المعارضة لأصل نبوة الرسول والشبه المعارضة لما أخبر به الرسول.

ومن تأمل هذا وهذا تبين له حقيقة الحال، وربما وجد الشبه القادحة في أصل النبوة أكثر من الشبه «القادحة فيما»[2] أخبرت به الرسل، «فنقول لمن»[3] قدم المعقـول «المعارض لما أخبر به الرسول»[4] هل تقدم المعقول المعارض لأصل الرسالة والنبوة، وأنت قد أوردته وأجبت عنه بما تعلم أن صدرك لم يثلج له؟!

فإن تلك الأجوبة مبنية على قواعد قد اضطرب فيها قولك، فمرة تثبتهـا ومـرة تنفيهـا، ومـرة تقف فيها، أم تطرح تلك المعقولات وتشهد بفسـادها؟ فحينئذ فهلا سلكت في المعقولات المعارضة لخبر الرسول ما سلكت في تلك، فكانت السبيل واحدة، والطريق في ردها واضحة، وأنت من أنصار الله ورسوله، محام عن أصل الرسالة وعما جاء به الرسول، جازم له بعقل لا يعارض «خبره»[5] بعقلك، وهذا في غاية الظهور بحمد الله، ولـولا خشية الإطالة لذكرنا ما ذكره من الشبه العقلية القادحة في إثبات الصانع ورسالة رسله، وفي اليوم الآخر وفي الشبه القادحة في علوه على خلقه وصفاته وكلامه ورؤيته، وعرضنا عليك الجميع ثم إليك الوزن. يوضحـــه:

---

(١) القاع: أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة، لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط، تنفرج عنها الجبال والآكام، ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر، وما حواليها أرفع منها، وهو مصب المياه، وقيل: هو منقع الماء فى حر الطين، وقيل: هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات، والجمع أقواع، وأقوع، وقيعان. انظر: اللسان مادة «قوع».

أما العرفج: فهو نبت طيب الريح أغبر إلى الخضرة، وله زهرة صفراء، وليس له حب ولا شوك، أصلها واسع يأخذ قطعة من الأرض تنبت لها قضبان كثيرة بقدر الأصل، وليس لها ورق له بال، إنما هى عيدان دقاق. انظر: اللسان مادة «عرج» وهو مثل يضرب للتشابه.

(٢) فى المختصر: «المعارضة لما».

(٣) من المختصر، وفى الأصل: «فيقول من».

(٤) فى المختصر: «على ما أخبر به الرسول».

(٥) فى الأصل: «بخبره» ولعل الصواب ما أثبت.

الوجه الثالث والثلاثون: وهوأن أرباب تلك الشبه إنما استطالوا على النفاة والجهمية بما ساعدوهم عليه من تلك الشبه وقالوا: كيف يكون رسولا صادقاً من يخبر بما يخالف صريح العقل وأنتم قد سلمتم لنا ذلك، وساعدتمونا «على»(١) أن الصانع لا يختص بمكان ولا يتكلم ولا يرى ولا يشار اليه، ولا ينتقل من مكان إلى مكان، ولا تحله الحوادث، ولا له وجه ولا يد ولا أصبع ولا سمع ولا بصر ولا علم ولا حياة ولا قدرة زائدة على مجرد ذاته، ومن أصولنا وأصولكم أنه لم يقم بذاته فعل ولا وصف ولا حركة ولا استواء ولا نزول ولا غضب في الحقيقة ولا رضا، فضلا عن الفرح والضحك.

ونحن وأنتم متفقون في نفس الأمر على أنه لم يتكلم بهذا القرآن ولا بالتوراة ولا بالإنجيل، وإنما ذلك كلام شيء عنه بإذنه عندكم، وبواسطة العقل الفعال عندنا، ونحن وأنتم متفقون على أنه لم يتكلم به ولم يسمع منه، ونحن وأنتم متفقون على أنه لم يره ولا يراه ولم يسمع كلامه ولا يسمعه أحد، وان هذا محال، فهو عندنا وعندكم بمنزلة كونه يأكل ويشرب وينام، فعند التحقيق نحن وأنتم متفقون على الأصول والقواعد التي نفت هذه الأمور، وهي بعينها تنفي صحة نبوة من أخبر بها، فكيف يمكن أن يصدق من جاء بها، وقد اعترفتم معنا بأن العقل يدفع خبره ويرده؟

فما للحرب بيننا وبينكم وجه، فكما تساعدنا نحن وأنتم على إبطال هذه الأخبار التي عارضت صريح العقل، فساعدونا على إبطال الأصل بنفس ما اتفقنا جميعا على إبطال الأدلة النقلية «به»(٢)

فانظر هذا الإخاء ما ألصقه، والنسب ما أقربه، وإذا أردت أن تعرف حقيقة الحال فانظر حالهم مع هؤلاء الزنادقة في ردهم عليهم

(١) في المختصر: «عليه هو».
(٢) من المختصر.

وبحوثهم معهم وخضوعهم لهم فيها ومقاومة أعداء الرسل لهم، واستطالتهم عليهم ومقاتلتهم لهم بأسلحتهم التي استعاروها منهم. فإن قلت: كيف أصيب القوم مع عقولهم وبحثهم ونظرهم واجتهادهم؟ قلت: أصاب عقولهم ما أصاب عقول كفار قريش وغيرهم من الأمم الذين جاءتهم الرسل مع تلك الأحلام[1] وعقولهم التي «كادهم»[2] بها عبرة لكل ذي عقل صحيح إلى يوم القيامة، وهذا جزاء من لم يرض بوحي الله وما وهب لأنبيائه من العقول التي نسبتها إلى عقول العالمين كنسبتهم اليهم. يوضحــــه:

الوجه الرابع والثلاثون: وهو أن الله سبحانه اقتضت حكمته وعدله أن يفسد على العبد عقله الذي خالف به رسله، ولم يجعله منقادا لهم مسلما لما جاءوا به مذعنا له، بحيث يكون مع الرسول كالمملوك المنقاد من جميع الوجوه للملك المتصرف فيه، ليس له معه تصرف بوجه من الوجوه، فأول ما أفسد سبحانه عقل شيخهم القديم إبليس حيث لم ينقد به لأمره وعارض النص بالعقل، وذكر وجه المعارضه فأفسد عليه عقله غاية الإفساد، حتى آل الأمر إلى أن صار إمام المبطلين وقدوة الملحدين وشيخ الكفار والمنافقين، ثم تأمل كيف أفسد عقول من أعرض عن رسله وعارض ما أرسلوا به، فآل بهم فساد تلك العقول الى ما قصه الله عنهم في كتابه، ومن فساد تلك العقول أنهم لم يرضوا بنبي من النبيين، ورضوا بآلهة من الحجر[3] ومن فساد

(١) في الأصل: «الأحكام» ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) كادها: أرادها. اللسان: مادة «كيد».

(٣) قال تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ يونس/ ١٨.
وقال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ هود/ ١١.
وقال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: ﴿قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ الشعراء/ ٧١-٧٤.

تلك العقول أنهم استحبوا العمى على الهدى وآثروا عقوبة الدنيا والآخرة على سعادتهما، فبدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار[1] وأفسد عقول أهل الكتابين بكفرهم بالرسول حتى آل أمرهم الى مآل الفلاسفه التي قدموها على ما جاءت به الرسل حتى قالوا ما أضحكوا به كافة العقلاء، وإن كانوا أصحاب صنائع وأفكار استنبطوها بعقولهم يعجز غيرهم عنها، لكن أفسد عليهم العقل الذي ينال به سعادة الأبد حتى قالوا في «نفي»[2]سلسلة الموجودات عن واجب الوجود ماهو بسلسلة المجانين أشبه منه بكلام عقلاء الآدميين، وجعلوا العالم الذي شهدت عليه شواهد الصنعة والاحتياج والافتقار من كون «عاليه»[3] مسخرا مدبرا مقهورا على حركة لا يمكنه الخروج عنها، وعلى مكان لا يمكنه مفارقته، وعلى وضع لا يمكنه أن يزول عنه، وعلى ترتيب شهد العقل والفطرة أن غيره رتبه هذا الترتيب ووضعه في هذا الموضع، وقهره على هذه الحركة، وكون سافله منفعلا من فاعل متأثرا غير مؤثر، كل وقت في مبدأ ومعاد، وشواهد الفقر والحاجة والحدوث ظاهرة على أجزائه وأنواعه، فجعلوه قديماً غير مخلوق ولا مصنوع، فعطلوه عن صانعه وخالقه، ثم عطلوا الرب الذي فطر السموات والأرض عن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله، فلم يثبتوا له ذاتا ولا صفة ولا فعلا ولا تصرفا باختياره الممكن، ولا علما بشيء مما في العالم العلوي والسفلي، وعجّزوا من أنشأ النشأة الأولى أن يعيدها مرة ثانية، وفي الحقيقة لم يثبتوا ربا أنشأ شيئا ولا ينشئه، ولا أثبتوا لله ملائكة ولا رسلا ولا كلاما ولا إلهية ولا ربوبية.

---

(١) قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فصلت/ ١٧.
وقال: ﴿ذلك بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ النحل/١٠٧.
وقال: ﴿ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار، وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ إبراهيم / ٢٨-٣٠.
(٢) غير واضحة فى الأصل، ولعل ما أثبت هو المراد.
(٣) فى الأصل: «غالبه» وما أثبت هو الصحيح.

وأما الاتحادية فأفسد عقولهم فلم يثبتوا ربا، وظنوا أن في الخارج «إنساناً»(١) كلياً وحيوانا كلياً، وجعلوا وجود الرب وجودا مطلقا، مجردا عن الماهيات، وقالوا: لا وجود للمطلق في الخارج، وبالجملة فلم يصيبوا في الإلهيات في مسألة واحدة، بل قالوا في جميعها ما «أضحكوا»(٢) عليهم العقلاء.

وأما متكلمو الجهمية والمعتزلة فأفسد عقولهم عليهم حتى قالوا ما يسخر العقلاء من قائلة كما تقدم التنبيه على اليسير منه، وقالوا بتكلم الرب بغير كلام يقوم به، وخالق بلا خلق يقوم به، «وسميع وبصير بلا سمع ولا بصر»(٣) وحي بلا حياة، وقدير بلا قدرة، ومريد بلا إرادة، وفعال لما يريد، ولا فعل له ولا إرادة، وقالوا: الرب موجود قائم بنفسه، ليس في العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه، ولا فوقه ولا تحته، ولا عن يمينه ولا عن يساره، وقالوا: إنه لم يزل معطلا عن الفعل والفعل ممتنع، ثم انقلب من الإمتناع إلى الإمكان بغير تجدد سبب أصلا، وقالوا: إن الأعراض لا تبقى زمانين، وأنكروا القوى والطبائع والغرائز والأسباب والحكم، وجعلوا الأجسام كلها متماثلة، وأثبتوا أحوالاً لا موجودة ولا معدومة، وأثبتوا مصنوعا بلا صانع، ومخلوقا بلا خالق، إلى أضعاف ذلك مما يسخر منه العقلاء، وكلما كان الرجل عن الرسول أبعد كان عقله أقل وأفسد، فأكمل الناس عقولا أتباع الرسل، وأفسدهم عقولا المعرض عنهم وعما جاؤوا به، ولهذا كان أهل السنّة والحديث أعقل الأمة وهم في الطوائف كالصحابة في الناس.

وهذه القاعدة مطردة في كل شيء عصى الرب سبحانه به، فإنه يفسده على صاحبه فمن عصاه بماله أفسده عليه، ومن عصاه بجاهه أفسده

(١) فى الأصل: «أنشا» ولعل الصواب ما أثبت.
(٢) هكذا فى الأصل، ولعل الصواب «أضحك».
(٣) فى الأصل: «وسمع وبصر بلا بصيرة» ولعل الصواب ما أثبت.

عليه، ومن عصاه بلسانه أو قلبه أو عضو من أعضائه أفسده عليه وإن لم يشعر بفساده، فأي فساد أعظم من فساد قلب خرب من محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة اليه والطمأنينة بذكره والأنس به، والفرح بالإقبال عليه، وهل هذا القلب إلا قلب قد استحكم فساده، والمصاب لايشعر؟ وأي فساد أعظم من فساد لسان تعطل عن ذكره وما جاء به، وتلاوة كلامه، ونصيحة عباده وإرشادهم، ودعوتهم الى الله؟ وأي فساد أعظم من فساد جوارح عطلت عن عبودية فاطرها وخالقها، «وخدمته»(1) والمبادرة الى مرضاته.

وبالجملة فما عصى الله بشيء الا أفسده على صاحبه، ومن أعظم معصية العقل إعراضه عن كتابه ووحيه الذي هدي به رسوله واتباعه، والمعارضة بينه وبين كلام غيره، فأي فساد أعظم من فساد هذا العقل؟، وقد أرى الله سبحانه اتباع رسوله من فساد عقل هؤلاء ماهو من أقوى أسباب زيادة إيمانهم بالرسول وبما جاء به وموجبا لشدة تمسكهم به ولقد أحسن القائل:

وإذا نظرت الى أميري زادني ... نظري له حبا إلى الأمراء

الوجه الخامس والثلاثون: هذه القاعدة التي أسسها من عارض بين العقل والنقل «نقتضي»(2) أن لا ينتفع بخبر الأنبياء في باب الصفات والأفعال أحد من الخاصة والعامة، أما الخاصة: فإنهم مصرحون بأن علم ذلك ومعرفته موكول الى العقول «فما»(3) دلت عليه وشهدت به قبل، وما خالفها من السمع وجب رده، فلم يستفيدوا من جهة الخبر شيئا وإنما استفادوا الحق من جهة العقل المعارض لما أخبرت به الرسل.

وأما العامة: فإنهم اعتقدوا مادل عليه الخبر وهو باطل في نفس

---

(1) هكذا فى الأصل.

(2) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل، والعبارة لا تستقيم بدونه.

(3) فى الأصل: «فيها» والصواب ما أثبت.

الأمر، فلم يستفيدوا منه معرفة الحق، بل إنما حصلوا على اعتقاد الباطل، فأي معاداة لما جاء به الرسول أعظم من هذه ؟.

الوجه السادس والثلاثون: أن الرجل إما أن يكون مقراً بالرسل أو جاحدا برسالتهم، فإن كان منكرا فالكلام معه في تثبيت النبوة، فلا وجه للكلام معه في تعارض العقل والنقل، فإن تعارضهما فرع الإقرار بصحة كل واحد منهما لو تجرد عن المعارض، فمن لم يقر بالدليل العقلي «. . .»[1] لم يخاطب في تعارض الدليل العقلي والشرعي، وكذلك من لم يقر بالدليل الشرعي لم يخاطب في هذا التعـارض، فمن لم يقر بالأنبياء لم يستفد من خبرهم دليلا شرعيا، فهذا يُتَكلم معه في إثبات النبوات أولا.

وان كان مقرا بالرسالة فالكلام معه في مقامات:

أحدها: صدق الرسول فيما أخبر به، فإن أنكر ذلك أنكر الرسالة والنبوة، وإن زعم أنه مقر بهما، وأن الرسل خاطبوا الجمهور بخلاف الحق تقريبا إلى أفهامهم، ومضمون هذا أنهم كذبوا للمصلحة وهذا حقيقة قول هؤلاء، وهو عندهم كذب حسن، وإن أقر بأنه صادق فيما أخبر به فالكلام معه في:

المقام الثاني: وهو أنه هل يقر بأنه أخبر بهذا أو لا يقر به، فإن لم يقر به جهلا عرف ذلك بما يعرف به أنه ظهر ودعا الى الله وحارب أعداءه، فان أصر على إنكاره ذلك فقد خرج من جملة العقلاء وأنكر الأمور الضرورية، كوجود بغداد ومكة والهند وغيرها، وإن أقر بأنه أخبر بذلك فالكلام معه في:

المقـام الثـالث: وهو أنه هل أراد مادل عليه كلامه ولفظه أو أراد خلافه ؟ فإن ادعى أنه أراده فالكلام معه في:

---

(١) في الأصل: «لم يخاطب في الدليل» وقد حذفته لاستقامة الكلام بدونه ولأنه يبدو تكرارا لما بعده.

المقام الرابع: وهو أن هذا المراد حق في نفسه أم باطل؟ فإن كان حقا لم يتصور أن يعارضه دليل عقلي البتة، وإن كان باطلا انتقلنا معه الى:

مقـــام خامس: وهـو أنـه هل كان يعلم الحق في نفس الأمـر أو لا يعلمه؟ فإن قال: لم يكن عالما به فقد نسبه الى الجهل، وإن قال كان عالما به انتقلنا معه الى:

مقام سادس: وهو: أنه هل كان يمكنه التعبير والإفصاح عن الحق كما فعلتم أنتم بزعمكم، أم لم يكن ذلك ممكنا له؟، فإن لم يكن ذلك ممكنا له كان تعجيزا له ولمرسله عن أمر قدر عليه أفراخ الفلاسفة وتلامذة اليهود وأوقاح المعتزلة والجهمية، وإن كان ممكنا له ولم يفعله كان ذلك غشاً للأمة وتوريطا لها في الجهل بالله وأسمائه وصفاته، واعتقاد مالا يليق بعظمته فيه، وأن الجهمية والمعتزلة وأفراخ اليونان وورثة الصابئين والمجوس هم الذين نزهوا الله سبحانه عما لا يليق به، ووصفوه بما يليق به[1] وتكلموا بالحق الذي كتمه الرسول، وهذا أمر لا محيد لكم عنه، فاختاروا أي قسم شئتم من هذه الأقسـام، والظاهر أنكم متنازعون في الاختيار، وأن عقلاءكم مختارون «أن»[2] الرسول كان يعرف الحق في خلاف ما أخبر به، «وأنه»[3] كان قادرا على التعبير عنه، ولكن ترك ذلك خشية التنفير، فخاطب الناس خطابا جمهوريا يناسب عقولهم بما الأمر بخلافه، وهذا أحسن أقوالكم إذا آمنتم بالرسول وأقررتم بما جاء به.

الوجه السابع والثلاثون: أنه اذا جوز أن يكون في العقل ما يعارض ما أخـبر به الـرسـول كان الإيمان الجـازم موقوفا على العلم بانتفاء ذلك المعارض ومشروطا به، والمشروط بالشيء عدم عند عدمه، ومعلوم أن ما يستخرجه الناس بعقولهم أمر لا غاية له سواء كان حقا أو باطلا، فإذا جوز

---

(١) فى الأصل: «بما لا يليق» والسياق يقتضى حذف «لا».

(٢) فى الأصل: «إلى» وهو خطأ.

(٣) فى الأصل: «وإن» والتصحيح من المختصر.

المجوز أن يكون في المعقولات ما يناقض خبر الرسول لم يمكنه أن يثق به بشيء من أخبار الرسول، لجواز أن يكون في المعقولات التي لم تظهر له بعد ما يناقض خبره، فإن قال: أنا أقر من السمعيات بما لم ينفه العقل، وأثبت من الصفات مالم يخالفه العقل لم يكن لقوله ضابط، فإنه وقف التصديق بالسمع على أمر لا ضابط له، وما كان مشروطا بعدم أمر لا ينضبط لم ينضبط، فلا يبقى مع هذا الأصل إيمان جازم البتة.

ولهذا تجد من تعود معارضة الشرع بالرأي لا يستقر في قلبه إيمان أبدا، ولا يكون الرجل مؤمنا حتى يؤمن بالرسول إيمانا جازما ليس مشروطا بعدم معارض، فإذا قال: أنا أومن بما لم يظهر له معارض يدفعه لم يكن مؤمنا به، كما لو قال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله الا أن يكون في العقل دليل يدل على إثبات إله آخر، أو يقول: أنا أومن بالمعاد إلا أن يكون في العقل دليل ينفيه، أو يقول: أنا أومن بالرسول الا أن يكون في العقل ما يبطل رسالته، فهذا وأمثاله ليس بمؤمن جازم بإيمانه، وأحسن أحواله أن يكون شاكا.

الوجه الثامن والثلاثون: أن طرق العلم ثلاثة: الحس، والعقل، والمركب منهما، فالمعلومات ثلاثة أقسام:

أحدهما: مايعلم بالعقل.

والثاني: ما يعلم بالسمع.

والثالث: ما يعلم بالعقل والسمع.

وكل منها ينقسم إلى ضروري ونظري، وإلى معلوم ومظنون وموهوم، فليس كل ما يحكم به العقل علما، بل قد يكون ظنا، وقد يكون وهما كاذبا، كما أن ما يدركه السمع والبصر كذلك، فلابد من حاكم يفصل بين هذه الأنواع ويميز بين معلومها ومظنونها وموهومها، فإذا اتفق العقل والسمع، والعقل والحس على قضية كانت معلومة يقينية، وإن انفرد بها الحس عن العقل كانت وهمية، كما ذكر من أغلاط الحس في رؤية المتحرك

أشد الحركة، وأسرعها ساكنا، والساكن متحركاً، والواحد اثنين، والاثنين واحدا، والعظيم الجرم صغيرا، والصغير كبيرا، والنقطة دائرة، وأمثال ذلك.

فهذه الأمور يجزم بغلطها لتفرد الحس بها عن العقل، وكذلك حكم السمع، قد يكون كاذبا وقد يكون صادقا، ضرورة ونظرا، وقد يكون ظنيا، فإذا قارنه العقل كان حكمه علما ضروريا ونظريا كالعلم «بمجرد»[1] الأخبار المتواترة، فإنه حصل بواسطة السمع والعقل، فإن السمع أدى إلى العقل ما سمعه من ذلك، والعقل حكم بأن المخبرين لا يمكن تواطؤهم على الكذب، فأفاده علما ضروريا أو نظريا على الاختلاف في ذلك بوجود المخبر به، والنزاع في كونه ضروريا أو نظريا «. . .»[2] لا فائدة فيه، وكذلك الوهم يدرك أموراً لا يدري صحيحة هي أم باطلة، فيردها إلى العقل الصريح، فما صححه منها قبله، وما حكم ببطلانه رده، فهذا أصل «يجب الاعتناء به»[3] ومراعاته وبه يعلم الصحيح من الباطل، فإذا عرف هذا فمعلوم أن السمع الذي دل العقل على صحته أصح من السمع الذي لم يشهد له عقل، ولهذا كان الخبر المتواتر أعرف عند العقل من الآحاد، وما ذاك إلا لأن دلالة العقل قد قامت على أن المخبرين لا يتواطؤون على الكذب، وإن كان الذي أخبروا به مخالفا لما اعتاده المخبر وألفه وعرفه، فلا تجد محيدا عن تصديقهم «والأدلة»[4] العقلية البرهانية على صدق الرسل وتثبيت نبوتهم أضعاف الأدلة الدالة على صدق المخبرين خبر التواتر، فإن أولئك لم يقم على صدق كل واحد منهم دليل، وإنما أفاد اجتماعهم على الخبر دليلا على صدقهم، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد قامت البراهين اليقينية على صدق كل فرد منهم، وقد اتفقت كلمتهم وتواطأ

---

(١) في المختصر: «بمخبر».

(٢) في الأصل: كلمة «العظمى» ولعل الصواب حذفها.

(٣) في المختصر: «يجبر الاعتبار به».

(٤) من المختصر، وفي الأصل: «بالأدلة».

خبرهم على إثبات العلو والفوقية لله وأنه على عرشه فوق سمواته بائن من خلقه، وإنه مكلم متكلم، آمر ناه، يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويحب ويبغض، فإفادة خبرهم العلم المخبر عنه أعظم من إفادة الأخبار المتواترة لمخبرها، فإن الأخبار المتواترة مستندة الى حس قد يغلط، وأخبار الأنبياء مستندة الى وحي لا يغلط، فالقدح فيها بالعقل من جنس شبه السوفسطائية القادحة في الحس والعقل، ولو التفتنا إلى كل شبهة يعارض بها الدليل القطعي لم يبق لنا وثوق بشيء نعلمه بحس أو عقل أو بهما. يوضحه:

الوجه التاسع والثلاثون: أن المعلومات الغائبة التي لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحس والعقل، بل لا نسبة بينهما بوجه من الوجوه، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر، فإنه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة والعلوم التي لا تدرك بالحس، وهذا حجة من فضل السمع على البصر من النظار وغيرهم، وخالفهم آخرون فرجحوا البصر على السمع لقوة إدراكه وجزمه بما يدركه وبعده من الغلط، وبين الفريقين مباحثات يطول ذكرها، قد ذكرها ابن قتيبة[1] وأبو المعالي الجويني وغيرهما، وفصل النزاع بينهما: إن ما يدرك بالسمع أعم وأشمل وما يدرك بالبصر أتم وأكمل، فهذا له القوة والتمام وذاك له العموم والإحاطة.

والمقصود أن الأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس اليها كقطرة في بحر، ولا سبيل الى العلم بها إلا بخبر الصادق، وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من «أنباء»[2] الغيب بما يشاء وأطلعهم منه على ما لم

(١) الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي، الكاتب صاحب التصانيف. سكن بغداد وحدث بها. قال: أبو بكر الخطيب: كان ثقة دينا فاضلا. ولد سنة ٢١٣هـ، وتوفي سنة (٢٧٠) وقيل: (٢٧١)هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٦-٣٠٢، وتاريخ بغداد ١٠/١٧٠-١٧١، وتذكرة الحفاظ ٢/٦٣٣، والبداية والنهاية ١١/٤٨، وشذرات الذهب ٢/١٦٩-١٧٠.

(٢) في الأصل: «هذا» والتصحيح من المختصر.

يطلع عليه غيرهم كما قال تعالى: ﴿**ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء**﴾(١) وقال تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا**﴾(٢) وقال تعالى: ﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير**﴾(٣) فهو سبحانه يصطفي من يطلعه من أنباء الغيب على مالم يطلع عليه غيره، ولذلك سمي نبيا من الإنباء وهو الإخبار، لأنه مخبر من جهة الله ومخبر عنه فهو منبأ ومنبيء، وليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم، بل ولا أكثره، ولهذا كان أكمل الأمم علما أتباع الرسل وإن كان غيرهم أحذق منهم في علم الرمل والنجوم والهندسة والقسطة وعلم «الكم»(٤) المتصل والمنفصل، وعلم النبض والقارورة والأبوال ومعرفة قوامها وطعومها ورائحتها، ونحوها من العلوم التي لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بها، وآثروها على علوم الرسل وما جاءوا به، وهي كما قال الواقف على نهاياتها الواصل الى غاياتها: وهي بين ظنون كاذبة وإن بعض الظن إثم، وبين علوم «غير»(٥) نافعة، نعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة الى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها.

فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل طلبا وخبرا، فهو العلم المزكي للنفوس المكمل للفطر المصحح للعقول الذي خصه الله باسم العلم، وسمى ما عارضه ظنا لا يغني من الحق شيئا، وخرصا وكذباً فقال تعالى: ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من**

---

(١) سورة آل عمران/ ١٧٩.
(٢) سورة الجن/ ٢٦-٢٧.
(٣) سورة الحج/ ٧٥.
(٤) من المختصر، وفي الأصل: «الكلم».
(٥) كلمة «غير» لا توجد في الأصل وأضفتها من المختصر.

العلم﴾(١) وشهد لأهله أنهم أولوا العلم فقال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾(٢) وقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾(٣) والمراد: أولوا العلم بما أنزله على رسله ليس إلا، ليس المراد أولوا العلم بالمنطق والفلسفة وفروعهما، وقال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾(٤) فالعلم الذي أمره باستزادته هو علم الوحي لا علم الكلام والفلسفة والمنطق، وقال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه﴾(٥) أي «أنزله وفيه علمه الذي لا يعلمه البشر»(٦) فالباء للمصاحبة مثل قوله: ﴿فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾(٧) أي «أنزل وفيه علم الله، وذلك من أعظم البراهين على صحة نبوة من جاء به، ولم يصنع شيئا من قال: إن المعنى: أنزله وهو يعلمه.

وهذا وإن كان حقا فإن الله يعلم كل شيء، فليس في ذلك دليل ولا برهان على صحة الدعوى، فإن الله يعلم الحق والباطل، بخلاف ما إذا كان المعنى: أنزله متضمنا لعلمه الذي لا يعلمه غيره إلا من اطلعه عليه وأعلمه به، فإن هذا من أعظم أعلام النبوة والرسالة.

وقال فيما عارضه من الشبه الفاسدة التي يسميها أربابها قواطع عقلية: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾(٨) وقال: ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾(٩) وقال لمن أنكر المعاد

---

(١) سورة آل عمران/ ٦١.
(٢) سورة الروم/ ٥٦.
(٣) سورة آل عمران/ ١٨.
(٤) سورة طه/ ١١٤.
(٥) سورة النساء/ ١٦٦.
(٦) فى الأصل: «أنزل وفيه علمه لا يعلمه البشر» والتصحيح من المختصر.
(٧) سورة هود/ ١٤.
(٨) سورة النجم/ ٢٨.
(٩) سورة الأنعام/ ١٤٨.

بعقله: ﴿**وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وماهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون**﴾[1] والظن الذي أثبته سبحانه للمعارضين نصوص الوحي بعقولهم ليس هو الاعتقاد الراجح بل هو أكذب الحديث، وقال: ﴿**قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون**﴾[2] وأنت إذا تأملت ما عند هؤلاء المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كله خرصا، وعلمت أنهم هم الخراصون وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته وهدى به أنبياءه ورسله وأتباعهم به وامتن عليهم فقال: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون، فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾[3] وقال: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما**﴾[4] وقال: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[5] وقال: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[6] فهذه النعمة والمنة والتزكية إنما هي لمن عرف أن ما جاء به الرسول وأخبر به عن الله وصفاته وأفعاله هو الحق كما أخبر به، لا كمن زعم أن ذلك مخالف لصريح العقل وأن العقول مقدمة عليه والله المستعان.

الوجه الأربعون: أن علوم الأنبياء وما جاءوا به عن الله لا يمكن أن يدرك بالعقل ولا يكتب، وإنما هو وحي أوحاه الله اليهم بواسطة الملك،

(١) سورة الجاثية/ ٢٤.
(٢) سورة الذاريات/ ١٠-١١.
(٣) سورة البقرة/ ١٥١-١٥٢.
(٤) سورة النساء/ ١١٣.
(٥) سورة آل عمران/ ١٦٤.
(٦) سورة الجمعة/ ٢.

أو كلام يكلم به رسوله منه إليه بغير واسطة كما كلم موسى، وهذا متفق عليه بين جميع أهل الملل المقرين بالنبوة المصدقين للرسل، وإنما خالفهم في ذلك جهلة الفلاسفة وسفلهم الذين يقولون: إن الانبياء يعلمون ما يعلمونه بقوة عقلية، وهم أكمل من غيرهم في قوة الحدس، ويسمونها القوة القدسية. قالوا: ويتميز النبي عن غيره بقوة التخيل والتخييل، فتخييل الأمور للعقول في الصور المحسوسة وتخيلها إلى الناس في قوالب تلك الصور، ويتميز أيضا بقوة النفس، فيتصرف بقوتها في مواد العلم وعناصره بقلب بعضها الى بعض، فهذه عندهم خواص النبوة، فالأنبياء عندهم من جنس غيرهم من البشر، [1] ونبواتهم من جنس صنائع الناس وسياساتهم ورياضاتهم، حتى قال أقرب هؤلاء إلى الإسلام: إعلم ان أصول الصناعات أربعة: صنعة التجارة والحدادة والنساجة والسياسة، وأصعبها صنعة السياسة وأصعب هذه الصناعة صناعة النبوة.

هذا كلامه بعينه في كتابه[2] فلما كانت النبوة عندهم في هذه المرتبة، كانت علومها وأعمالها من جنس علوم البشر وأعمالهم، فالعقل مشترك بينهم وبين كافة العقلاء، فلما جاءت الرسل بما لا تدركه عقولهم وليس في

---

(١) الفلاسفة يجعلون النبوة فيضا يفيض من العقل الفعال على نفس النبى، ويجعلون ما يقع فى نفسه من الصور هى ملائكة الله، وما يسمعه فى نفسه من الأصوات هو كلام الله، ولهذا يجعلون النبوة مكتسبة، فإذا استعد الإنسان بالرياضة والتصفية فاض عليه ما فاض على نفوس الأنبياء. انظر: درء التعارض ٥/٣٥٣، والنبوات لابن تيمية ص١٦٨-١٧٢.

وللنبى عندهم ثلاث خصائص:

الخاصة الأولى: أن يكون له قوة قدسية، وهى قوة الحدس، بحيث يحصل له من العلم بسهولة ما لا يحصل لغيره إلا بكلفة شديدة.

الخاصة الثانية: قوة التخييل والحس الباطن بحيث يتمثل له ما يعلمه فى نفسه فيراه ويسمعه، فيرى فى نفسه صوراً نورانية هى عندهم ملائكة الله، ويسمع فى نفسه أصواتا هى عندهم كلام الله، من جنس ما يحصل للنائم فى منامه، ومن جنس ما يحصل لبعض أهل الرياضة.

الخاصة الثالثة: أن تكون له قوة نفسانية يتصرف بها فى هيولى العالم، كما أن العائن له قوة نفسانية يؤثر بها فى المعين، ويزعمون أن خوارق العادات التى للأنبياء والأولياء من هذا النمط. انظر: كتاب الصفدية ١/٦-٧.

(٢) لم أهتد إلى هذا القائل.

قواعـدهم ونـظرهم ومنـطقهم ما يدل عليه قابلوه بالإنكـار، وقالوا: قد تعارض العقل وما جئتم به، وإذا تعارض العقل وخبركم فلا سبيل إلى تقـديم أخباركم على العقل، لأن ذلك يتضمن القدح فيه، فهؤلاء هم الذين عارضوا أولاً بين العقل والوحي، وهم الذين أسسوا هذه القاعدة ووضعـوا هذا البناء، إذ كانت علوم الأنبياء وعقولهم عندهم من جنس علومهم وعقولهم، وربما رجحوا علم الفيلسوف وعقله، وبعضهم يرجح النبي من وجه والفيلسوف من وجه، فهؤلاء إذا عارضوا بين العقل والنقل ثم قدموا العقل على النقل عملوا بمقتضى أصولهم وقواعدهم، أما من عرف الرسل وآمن بهم وعلم أن الله أرسلهم وأوحى إليهم من غيبه مالم يطلع عليه سواهم، وأن نسبة عقول العالمين وعلومهم اليهم أقل بكثير من نسبة عقول صبيان المكاتب الى عقول العقلاء، وأن بين ما جاءوا به من عند الله وبين ما عندها إلا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم، والأمر فوق ذلك. يوضحـــه:

الـوجـه الحـادي والأربعـون: وهو أن يقال لهؤلاء المعارضين بين العقل ونصوص الوحي: أخبرونا عن خلق هذا النوع الإنساني من قبضة تراب وعن «رجل»[١] دعى «على»[٢] قومه أن لا يدع الله منهم على الأرض ديارا فأرسل السماء عليهم وأنبع الماء من تحتهم «. . . »[٣]، حتى علا الماء فوق رؤوس شواهق الجبال علوا عظيما ثم ابتلعته الأرض شيئا فشيئا حتى عادت يبسـا[٤]، وعن رجـل دعـا على قومـه وهم أعظم الناس أجساما وأشدهم قوة، فأرسلت عليهم بدعوته ريح عاصف جعلت تحملهم بين السـماء والأرض، ثم تدق أعناقهم[٥]، وعن أمة كذبت نبيها وسألوه آية

---

(١) لا توجد فى الأصل.

(٢) فى الأصل: «إلى».

(٣) هنا عبارة: «ترتيب النار» وقد حذفتها إذ لا معنى لوجودها ولاستقامة الكلام بدونها.

(٤) يشير إلى قصة نوح مع قومه، وقد قصها الله تبارك وتعالى فى كتابه. انظر: سورة نوح، وسورة هود من آية (٢٥-٤٩).

(٥) يشير إلى قصة هود مع قومه عاد، وقد قصها الله تعالى فى كتابه فى سورة هود/ ٥٠-٦٠.

فانفلقت صخرة بمحضرهم وتمخضت عن ناقة من أعظم النوق قامة وشكلا وهيئة، فلما تمادوا على تكذيبه سمعوا صيحة من السماء قطعت أكبادهم وقلوبهم في أجوافهم، فماتوا موتة رجل واحد[1]، وعن نار عظيمة أوقدت برهة من الدهر حتى كان الطير يمر عليها من عال فيقع مشويا، ألقي فيها رجل مكتوفا فصارت عليه بردا وسلاما، وعادت روضة خضراء وماء جار[2]، وعن رجل ألقى عصاً في يده فقامت ثعبانا عظيما ابتلع ما بحضرته من حبال وعصي لا يحصيها إلا الله، ثم عادت عصا كما كانت، وعن يد أدخلها صاحب هذه العصا الى جيبه ثم أخرجها فإذا لها شعاع كشعاع الشمس[3]، وعن ماء انقلب دما في آنيته ومواضعه، وعن كثيب عظيم ضربه بعصاه فاستحال قملا كله سلط على أهل بلد عظيم، وعن بحر ضربه بعصاه فانفلق اثنى عشر طريقا ثم أرسلت عليهم الريح والشمس فأيبسته في ساعة، وقام الماء بين تلك الطرق كالحياض فلما جاوزه وسلكه آخرون ضربه بعصاه فالتأم عليهم فلم يفلت منهم إنسانا[4]، وعن جبل قلع من مكانه على قدر عسكر عظيم حتى رفع فوق رؤوسهم وقيل لهم: إن تقبلوا ما أمرتم به وإلا أطبق عليكم ثم رد إلى مكانه[5]، وعن قوم أمسوا وهم في صور بني آدم فأصبحوا وهم في صورة القردة والخنازير[6]، وعن مدن قلعت من أصولها ثم رفعت في الهواء ثم أفلت بأهلها وجعل

---

(١) هم ثمود قوم صالح عليه السلام، ذكر الله تبارك وتعالى قصتهم فى سورة هود/ ٦١-٦٨.

(٢) أراد قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه. انظر: سورة الأنبياء ٥١-٧٣.

(٣) هو موسى عليه السلام. انظر: الآيات ٣١-٣٢ من سورة القصص، و٢٢-٢٣، ٦٥-٧٠ من سورة طه.

(٤) هذه من معجزات موسى عليه السلام ذكرها الله تبارك وتعالى فى كتابه، راجع الآيات ١٣٣-١٣٩ من سورة الأعراف. وانظر تفسير الطبرى ٩/ ٣٤.

(٥) يعنى قوم موسى عليه السلام. راجع الآية/ ١٧١ من سورة الأعراف.

(٦) هم جماعة من بنى إسرائيل نكثوا عهد الله وميثاقه. راجع الآيات ٦٥ من سورة البقرة و«٦٠» من سورة المائدة، و«١٦٦» من الأعراف.

عاليها سافلها واتبعت بمطر من الحجارة[1]، وعن رجل ولد من غير أب[2]، وامرأة خرجت من غير أم[3]، ورجل يمسح على عين الذي ولد أكمه ويدعو الله فإذا به يبصر بعينين كالصحيح، ويمسح الأبرص فيبرى كأن لم يكن به بأس، وينفخ في كبة من الطين فينقلب طائرا له لحم ودم وريش[4]، وجماعة ينامون في غار ثلثمائة وتسع سنين لم تأكل الأرض لحومهم ثم ينتبهون من نومهم قياما ينظرون[5]، وعن رجل أدركه الموت هو وحماره فمكثا مائة عام ثم قام الرجل حياً وشاهد عظام حماره وهي تكسي اللحم ويتصل بعضها ببعض حتى قام الحمار حيا وشاهد طعامه لم يتغير بل هو على حاله[6]، وعن قتيل قتل بين ظهراني قوم فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ففعلوا فقام القتيل حيا ناطقا وقال: فلان قتلني[7]، وعن رسول سأله قومه آية فأومأ إلى القمر فانشق فلقتين وهم يشاهدونهما ثم عاد فالتأم، وقدم السفر فأخبروا برؤية ذلك عيانا[8]، وأنه قبض قبضة من

---

(١) يشير إلى العقاب الذى حل بقوم لوط عليه السلام. راجع الآيات «٧٧-٨٣» من سورة هود، و«٦١-٧٥» من سورة الحجر.

(٢) هو عيسى عليه السلام. راجع سورة آل عمران آية (٤٣-٤٧) وسورة مريم آية (١٦-٣٥).

(٣) يعنى حواء، خلقها الله تبارك وتعالى من ضلع آدم عليه السلام. انظر: الآية (١٨٩) من سورة الأعراف، وتفسير الطبرى ٩/١٤٣.

(٤) هذه هى معجزات عيسى عليه السلام قصها الله تبارك وتعالى فى كتابه. انظر: سورة آل عمران آية (٤٩).

(٥) يشير إلى قصة أصحاب الكهف، التى ذكرها الله تبارك وتعالى فى كتابه. راجع الآيات (٩-٢٦) من سورة الكهف.

(٦) راجع سورة البقرة آية (٢٥٩).

(٧) راجع سورة البقرة آية (٧٢-٧٣).

(٨) راجع سورة القمر ١-٢. وهى إحدى معجزات نبينا محمد ﷺ، فقد سأله كفار أهل مكة آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر آية وحجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته، فلما أراهم أعرضوا وكذبوا. انظر: تفسير الطبرى ٢٧/٨٤، وصحيح البخارى، كتاب المناقب «باب سؤال المشركين أن يريهم النبى ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر» ح(٣٦٢٧) ٦/٦٣١. ومسلم، كتاب المنافقين «باب انشقاق القمر» ح(٢٨٠٠-٢٨٠٣) ٤/٢١٥٨-٢١٥٩.

تراب ثم رمى بها في وجوه عسكر لا يلتقي طرفاه فلم يبقى منهم أحد إلا ملأت عينه [1]، وأنه وضع يده في ماء لا يواريها فعاد الماء حتى ملأوا منه كل قربـة وكـل وعاء في العسكر الجرار[2]، وأن جماعة كثيرة شبعت من «برمه»[3]، بقدر جسم القطا[4]، وأن جذعا حن حنين الناقة العشار إلى ولدها إليه[5]، وأن الحصا كان يسبح في كفه وكف بعض أصحابه تسبيحا يسمعه الحاضرون[6]، وأن الحجر كان يسلم عليه سلاما يسمعه بأذنه[7]، وأن بطنه شق من ثغر نحره الى أسفله ثم استخرج قلبه فغسل ثم أعيد وهو حي ينظر[8]، وأن شجرتين دعا بهما فأقبلتا تجران الأرض حتى قامتا بين يديه فالتزقتا ثم رجعت كل واحدة منهما إلى مكانها[9]، وأن ذئبا تكلم[10]،

---

(١) وهذه إحدى معجزات الرسول ﷺ، كانت فى معركة بدر. انظر: دلائل النبوة للبيهقى ٣/٧٩.

(٢) انـظر: صحيح مسلم، كتـاب الـزهـد، «بـاب حديث جابـر الطويل» ح(٣٠١٣) ٤/٢٣٠٧-٢٣٠٨، ودلائل النبوة للبيهقى ٦/١٠-١٢.

(٣) فى الأصل: «بردة» ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) لعله يشير إلى ما تضمنه حديث أنس بن مالك، عند البخارى، وحديث جابر بن عبد الله عند مسلم. انظر صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى «كتاب علامات النبوة فى الإسلام» ح(٣٥٧٨) ٦/٥٨٦-٥٨٧، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، «باب جواز استتباعه غيره...» ح(٢٠٣٩) ٣/١٦١٠-١٦١١.

(٥) انظر: صحيح البخارى مع الشرح، كتاب المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام ح(٣٥٨٤) ٦/٦٠١، ودلائل النبوة للبيهقى ٦/٦٦.

(٦) انظر: دلائل النبوة للبيهقى ٦/٦٤.

(٧) تقدم الحديث الذى يدل على ذلك ص ٥١٠.

(٨) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان «باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموٰات وفرض الصلوات» ح(٢٦١) ١/١٤٧، ومسند أحمد ٣/١٤٩، ودلائل النبوة للبيهقى ٢/٥.

(٩) انـظر: صحيح مسلم، كتـاب الـزهـد «بـاب حديث جابـر الـطويل» ح(٣٠١٢) ٤/٢٣٠٦-٢٣٠٧، ودلائل النبوة للبيهقى ٦/٧-٩.

(١٠) انظر: مسند أحمد ٣/٨٣-٨٤، وسنن الترمذى، كتاب المناقب «باب فى مناقب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه» ح(٣٦٩٥) ٥/٦٢٣، ودلائل النبوة للبيهقى ٦/٤١.

وأن بقرة تكلمت[1]، وأن نبيا كان يأمر بعسكره فيقعد على بساط فرسخ في فرسخ فيأمر الريح فترتفع به بين السماء والأرض فتحمل العسكر على متنها مسيرة شهر مقبلة ومسيرة شهر مدبرة في كل يوم واحد، وأنه أمر بسرير عظيم للملكة فشق الأرض وصار بين يديه في أسرع من رد الطرف[2] إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا مما يشاهده الناس بأبصارهم عيانا، فهل مخالفة الأدلة القطعية لما أخبرت به الأنبياء عن الله أعظم من مخالفتها لهذه الأمور؟ والشبه العقلية التي تذكر على استحالة هذه الأمور أكثر وأقوى من الشبه التي يذكرونها في معارضة نصوص الوحي ؟، بل لا نسبة بينهما، فإذا تعارضت أدلة العقول بزعمكم وهذه الأمور ما تصنعون ؟ أتقدمونها على أدلة العقول فتدخلون في المؤمنين بالله ورسله ؟ أم تكذبون بذلك وتقولون: العقل يناقض ذلك ويبطله ؟ ومعارضة العقل عندكم لهذه الآيات من جنس معارضة خبر الأنبياء لا فرق بينهما البته، بل الشبه التي يقيمها أعداء الرسل من العقل على بطلان هذه الآيات أقوى من الشبه التي ذكرها الجهمية والنفاة على بطلان ما أخبرت به الرسل من صفات الله وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه وكلامه وتكليمه وقيام أفعاله به، فعلم أن من قدم ما يظنه من العقل على نصوص الوحي لم يبق معه من الإيمان بالرسل عين ولا أثر ولا حس ولا خبر، وإذا كان هذا حالهم في الأمور التي قد وقعت وشاهدها الناس بأبصارهم فكيف حالهم في الإيمان ببشر ينزل من السماء بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما والناس يرونه عيانا[3] وكيف

---

(١) انظر: صحيح البخارى، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبى ﷺ «لو كنت متخذا خليلا» ح(٣٦٦٣) ٧/١٨ . وفيه تكلم الذئب أيضا.

(٢) هو سليمان عليه السلام، والملكة هى بلقيس ملكة سبأ. وقد ذكر الله تبارك وتعالى تسخير الريح لسليمان فى سورة سبأ آية (١٣) وقصته مع بلقيس فى سورة النمل من آية (٢٠-٤٤).

(٣) يشير إلى نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان. انظر: صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، «باب فى خروج الدجال» ح(٢٩٤٠) ٤/٢٢٥٨ . وسنن أبى داود، كتاب الملاحم «باب خروج الدجال» ح(٤٣٢٤) ٤/٤٩٨ . وسنن الترمذى، كتاب الفتن، باب ما جاء فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام ح(٢٢٣٣) ٤/٥٠٦ .

حالهم في الإيمان بأن الشمس تطلع من مغربها والناس يرونها عيانا[1]، إلى غير ذلك مما أخبر به الصادق كدابة تنشق عنها الأرض فتخرج تكلم الناس وتخاطبهم[2]، إلى غير ذلك مما يقيمون بعقولهم شبهاً يسمونها أدلة عقلية تحيل ذلك، فمن قدم العقل على الوحي لم يمكنه أن يجزم بصدق شيء من ذلك. والله المستعان.

الوجه الثاني والأربعون: أن هؤلاء عكسوا شرعة الله وحكمته وضادوه في أمره، فإن الله سبحانه جعل الوحي إماما والعقل مؤتما به، وجعله حاكما والعقل محكوما عليه، ورسولا والعقل مرسلا اليه، وميزانا والعقل موزونا به، وقائدا والعقل منقادا له.

فصاحب الوحي مبعوث وصاحب العقل مبعوث اليه، والآتي بالشرع مخصوص بوحي من الله، وصاحب العقل مخصوص ببحث عن رأي وفكرة، وصاحب الوحي ملقى وصاحب العقل كادح طالب، هذا يقول: أمرت ونهيت، وأوحى إلى، وقيل لى، وما أقول شيئا من تلقاء نفسي ولا من قبل عقلي، ولا من جهة فكري ونظري، وذاك المتخلف يقول: نظرت ورأيت وفكرت وقدرت واستحسنت واستنتجت، والمتخلف يقول:

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، «باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان» ح(١٥٩) ١/ ١٣٨. وسنن الترمذى، كتاب الفتن، باب ما جاء فى طلوع الشمس من مغربها، ح(٢١٨٦) ٤/ ٤٧٩، ومسند أحمد ٥/ ١٦٥. وسنن أبى داود، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة ح(٤٣١٠-٤٣١٢) ٤/ ٤٩٠-٤٩٢.

(٢) انظر: الآية ٨٢ من سورة النمل. وكما أخبر القرآن بظهورها فقد أخبر رسول الله ﷺ بما أخبر به القرآن. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان، ح(١٥٨) ١/ ١٣٨، وكتاب الفتن، باب فى الآيات التى تكون قبل الساعة ح(٢٩٠١) ٤/ ٢٢٢٥-٢٢٢٦. وباب خروج الدجال ومكثه فى الأرض ح(٢٩٤١) ٤/ ٢٢٦٠. وسنن أبى داود، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة، ح(٤٣١٠-٤٣١) ٤/ ٤٩٠-٤٩١. وسنن الترمذى، كتاب الفتن، باب ما جاء فى الخسف، ح(٢١٨٣) ٤/ ٤٧٧. وكتاب التفسير، «باب: ومن سورة النمل» ح(٣١٨٧) ٥/ ٣٤٠.

معـي آلــة المنــطق والكليات الخمس والمقــولات العشر والمختلطات والموجهات(١) اهتدى بها، والرسول يقول: معي كتاب الله وكلامه ووحيه، والمتخلف يقـول: معي العقـل، والـرسول «يقول»: (٢) معي نور خالق العقل به أهدى وأهتدي، والرسول يقول: قال الله كذا، قال جبريل عن الله كذا، والمتخلف يقول: قال أفلاطون قال بقراط(٣) قال أرسطو، كذا قال ابن سينا، قال الفارابي، فيسمع من الرسول ظاهر التنزيل وصحيح التأويل وشرع سنة وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وخبر عن الله وأسمائه وصفـاتـه وأفعاله، وخبر عن السماء والملائكة واليوم الآخر، ويسمع من

---

(١) تقدم التعريف بالكليات الخمس والمقولات العشر.

أما آلة المنطق فإنه يشير إلى تعريف المنطق عند أصحابه حيث يزعمون أنه آلة قانونية تعصم مراعـاتهـا الـذهن أن يزل فى فكـره. انـظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية ص٧، والتعريفات للجرجانى ص٢٣٢.

أما الموجهات فهى قسم من أقسام القضية عند المناطقة، وقد عرفوا القضية الموجهة بأنها القضية التى لاحظ العقل كيفيتها من الضرورة وغيرها، أو ذكر لفظ يدل عليها، واللفظ الذى يدل على كيفيتها أو ملاحظة العقل لها يسمى جهة القضية، والقضية التى تذكر فيها كيفية النسبة تسمى رباعية.

والقضايا الموجهة عندهم تنحصر فى أربعة أنواع إجمالا وهى: الضرورة، والدوام، والإطلاق أو الفعل، والإمكان. انظر: المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم للدكتور عوض الله حجازى ص١٠٢.

أما المختلطات فهى نوع من أنواع التصورات التى تنقسم إلى واضحة وغامضة، ثم متميزة ومختلطة. انظر: المنطق الصورى والرياضى لعبد الرحمن بدوى ص٥٩.

(٢) لا توجد فى الأصل والسياق يستلزم إثباتها.

(٣) بقراط؛ ويقال: بقرات، بالتاء، وهو ابن إيراقليس، من تلاميذ أسقلبيوس الثانى، وهو طبيب فيلسوف، عاش فى أيام بهمن بن أردشير، توفى عن خمس وتسعين سنة، وله تلاميذ كثر. انظر: الفهرست ص٤٠٠، والملل والنحل ٢/١٠٩.

الآخر الهيولي والصورة[1] والطبيعة[2] والاستقص[3] والذاتي والعرضي والجنس والنوع والفصل والخاصة والأيس والكيس وعكس النقيض والعكس المستوى[4]، وما شاكل هذا مما لا يسمع من مسلم ولا يهودي ولا

---

(١) الهيولى والصورة اصطلاحان فلسفيان. فتقال الهيولى عند الفلاسفة على مراتب، فمنها عندهم: الهيولى الأولى، وهى غير الصورة عندهم، ومنها ما هى ذوات صور، كالحال فى الاستقصات الأربعة عندهم.

والصورة أيضا تقال على أوجه، فمنها: صورة الأجسام البسائط وهى غير آلية، ومنها صورة الأجسام الآلية وهى: النفوس، ومنها صورة الأجسام السماوية، وهى شبه البسائط من جهة أنها غير آلية، وتشبه الآلية من جهة قصد الحركة، وقد تقال الصورة على الكيفية والكمية الحاصلة فى الممتزج بما هو ممتزج، وبهذه الجهة تنفصل صورة الأجسام المتشابهة الأجزاء بعضها من بعض، وتلحقها خواصها، كعسر الفساد الذى يوجد للذهب، وغير ذلك من الخواص. انظر لباب العقول للمكلاتى يوسف بن محمد ص٥٥، ط الأولى سنة ١٩٧٧م.

(٢) الطبيعة: عبارة عن القوة السارية فى الأجسام، بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعى. التعريفات للجرجانى ص١٤٠.

(٣) تقدم تعريفه ص ٥٣١.

(٤) الذاتى والعرضى هما أقسام الكلى - عند المناطقة - باعتبار دخوله فى ماهية ما تحته من الجزئيات وعدم دخوله فيها.

فالذاتى: هو الكلى الذى لا يكون خارجا عن ماهية ما تحته من الأفراد بأن كان جزءا لها، مثل الحيوان، أو الناطق، بالنسبة للإنسان، أو كان تمام الماهية كالإنسان بالنسبة لأفراده، فإنه تمام ماهية أفراده المندرجة تحته.

والعرضى: هو الكلى الخارج عن ماهية ما تحته من الأفراد، سواء كان خاصا بها، كالضاحك بالنسبة لأفراده، أو غير خاص بها كالماشى والمتنفس بالنسبة للإنسان. انظر: المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم للدكتور عوض الله حجازى ص٥٦.

وقد حاول القوم التفريق بين الذاتى والعرضى من وجوه انظرها فى نفس المصدر. وأوضح الإمام ابن تيمية - رحمه الله - بطلان التفريق بينهما. انظر: الرد على المنطقيين ص٦٢-٦٤.

أما الجنس والنوع والفصل والخاصة، وقبلها العرض «العرض العام» فهى الكليات الخمس عند المناطقة وقد تقدمت الإشارة إليها. راجع تعريفاتها فى آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطى ١/٢٩-٣٤.

أما العكس فهو فى اللغة: قلب الشىء بجعل أوله آخره، وأعلاه أسفله مثلا. وهو فى اصطلاح المنطقيين ثلاثة أقسام: العكس المستوى، وإليه ينصرف اسم العكس عند الإطلاق، وعكس النقيض المخالف، وعكس النقيض الموافق. ولتعريف كل منها وإيضاحه بالأمثلة. راجع آداب البحث والمناظرة ١/٥٨-٦١.

وأما الأيس والكيس فلم أقف لهما على تعريف أو إيضاح.

نصراني ولا مجوسي، الا من رضي لنفسه بما رضي به هؤلاء المتخلفون لأنفسهم ورغب فيما رغبوا فيه

وبالجملة فهما طريقان متباينان، فمن أراد أن يتمعقل بعقول هؤلاء فليعزل نظره عن الوحي، ويخلي بينه وبين أهله، ومن أحب أن يكون من أهل العقل والوحي فليعتصم بالوحي ويستمسك بغرر من جاء به، «ويسلم»[1] اليه أعظم من تسليم الصبي لأستاذه ومعلمه بكثير، فإن التباين الذي بين النبي وبين صاحب المعقول أضعاف أضعاف التباين الذي بين الصبي والأستاذ، ومن العجب أن هؤلاء المقدمين عقولهم على الوحي خاضعون لأئمتهم وسلفهم، مستسلمون لهم في أمور كثيرة.

يقولون: هم أعلم بها منا، وعقولهم أكمل من عقولنا، فليس لنا أن نعترض عليهم، فكيف يعترض على الوحي بعقله من نسبته إليه أدق وأقل من نسبة عقل الطفل الى عقله، وجماع الأمر أن قضايا المعقول مشتملة على العلم والظن والوهم، وقضايا الوحي كلها حق، فأين قضايا مأخوذة عن عقل قاصر عاجز عرضة للخطأ من قضايا مأخوذة عن خالق العقول وواهبها هي كلامه وصفاته ؟!

الوجه الثالث والأربعون: أن العقل تحت حجر الشرع فيما يطلبه ويأمر به وفيما يحكم به، ويخبر عنه، فهو محجور عليه في الطلب والخبر، وكما أن من عارض أمر الرسل بعقله لم يؤمن بهم وبما جاءوا به فكذلك من عارض خبرهم بعقله، ولا فرق بين الأمرين أصلا، يوضحه: أن الله سبحانه وتعالى حكى عن الكفار معارضة أمره بعقولهم كما حكى عنهم معارضة خبره بعقولهم.

---

(١) في الأصل: «ويتسلم» ولعل الصواب ما أثبت.

أما الأول ففي قوله تعالى: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾[1] فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا والبيع، فهذا معارضة النص بالرأى، ونظير ذلك مما عارضوا به تحريم الميتة بقياسها على «المذكى»[2] وقالوا: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون «مما»[3] قتل الله[4]، وفي ذلك أنزل الله: ﴿**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتموهم إنكم لمشركون**﴾[5] وعارضوا أمره بتحويل القبلة بعقولهم إن كانت[6]، وقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد تركت الحق، وإن كانت باطلا فقد كنت على باطل، وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله وزعم أن العقل يقتضي خلافه.[7]

وأما الثاني: «وهو معارضة» خبره[8] بالعقل فكما حكى سبحانه عن منكرى المعاد أنهم عارضوا ما أخبر به عنه بعقولهم فقال تعالى: ﴿**وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم**﴾[9] وأخبر سبحانه أنهم عارضوا ما أخبر به من التوحيد بعقولهم وعارضوا إخباره عن النبوات

---

(١) سورة البقرة/ ٢٧٥.

(٢) فى المختصر: «المذكاة».

(٣) فى المختصر: «ما».

(٤) انظر: تفسير الطبرى ٨/١٦، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٠.

(٥) سورة الأنعام/ ١٢١.

(٦) أى إن كانت لهم عقول.

(٧) وذلك حين أمره الله تبارك وتعالى بالسجود لآدم عليه السلام، فعارض أمر الله تعالى زاعما أنه خير من آدم لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين، قال تعالى: ﴿**قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ الأعراف/١٢، وقال: ﴿**قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون**﴾ الحجر/٣٣.

(٨) من المختصر، وفى الأصل: «فهو معارض».

(٩) سورة يس/ ٧٨.

بعقولهم وعارضوا بعض الأمثال التي ضربها بعقولهم، وعارضوا أدلة نبوة رسوله «بمعارضة عقلية»[1] وهي قولهم: ﴿**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾[2] وأنت إذا صغت هذه المعارضة صوغا مزخرفا وجدتها من جنس معارضة المعقول للمنقول، وعارضوا آيات نبوية بمعارضة عقلية أخرى وهي قولهم: ﴿**ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها**﴾[3] أي لو كان رسولا لخالق السموات والأرض لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في طلب المعيشة، ولأغناه عن أكل الطعام، ولأرسل معه ملكا من الملائكة، ولألقي اليه كنز يغنيه عن طلب الكسب، وعارضوا شرعه سبحانه ودينه الذي شرعه لهم على لسان رسوله، وتوحيده بمعارضة عقلية استندوا فيها «إلى»[4] القدر فقال تعالى: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾[5]، وحكى مثل هذه المعارضة عنهم في سورة النحل وفي الزخرف[6].

واذا تأملتها حق التأمل رأيتها أقوى بكثير من معارضة النفاة آيات الصفات «وأخبارها»[7] بعقولهم، فإن إخوانهم عارضوا بمشيئة الله الكائنات، والمشيئة ثابته في نفس الأمر، والنفاة عارضوا بأصول فاسدة هم

---

(١) فى المختصر: «بعقولهم».
(٢) سورة الزخرف/ ٣١.
(٣) سورة الفرقان/ ٧-٨.
(٤) من المختصر.
(٥) سورة الأنعام/ ١٤٨-١٤٩.
(٦) آية/ ٢٠ من سورة الزخرف، و٣٥ من سورة النحل.
(٧) فى الأصل: «وأخبارهم».

وضعـوهـا من تلقـاء أنفسهم أو تلقـوهـا عن أعداء الرسل من الصابئة والمجوس والفلاسفة، وهي خيالات فاسدة، ووهميات ظنوها قضايا عقلية.

وبالجملة فمعارضة أمر الرسل وخبرهم بالمعقولات إنما هي طريقة الكفار فهم سلف للخلف بعدهم، فبئس السلف وبئس الخلف. ومن تأمل معارضة المشركين والكفار للرسل بالعقول وجدها أقوى من معارضة الجهمية والنفاة لخبرهم عن الله وصفاته وعلوه على خلقه، وتكليمه لملائكته ورسله بعقولهم، فإن كانت تلك المعارضة باطلة فهذه أبطل، وان صحت هذه المعارضة فتلك أولى بالصحة منها، وهذا لا محيد لهم عنه. يوضحـــه:

الوجه الرابع والأربعون: أن القرآن مملوء من ذكر الصفات والعلو على الخلق والاستواء على العرش، وتكلم الله وتكليمه للرسل، وإثبات الـوجـه واليدين والسمـع والبصر والحياة والمحبة والغضب والرضا للرب سبحـانـه، وهـذا عنـد النفاة «بمنزلة»[1] وصفه بالأكل والشرب والجوع والعطش والنوم والموت كل ذلك مستحيل عليه، ومعلوم أن إخبار الرسل عنه سبحانه بما هو مستحيل عليه من أعظم المنفرات عنه، ومعارضته فيه أسهل من معارضته فيما عداه، ولم يعارضه أعداؤه في حرف واحد من هذا الباب، ولا أنكروا عليه كلمة واحدة منه، مع حرصهم على معارضته بكل ما يقدرون عليه، فهلا عارضوه بما عارضته به الجهمية والنفاة، وقالوا: قد أخبرتنا بما يخالف العقل الصريح، فكيف يمكننا تصديقك؟ بل كان القوم - على شركهم وضلالهم - أعرف بالله وصفاته من النفاة الجهمية، وأقرب إلى إثبـات الأسـماء والصفـات والقدر والمشيئة والفعل من شيوخ هؤلاء الفلاسفة وأتباعهم من السيناوية والفارابية والطوسية[2] الذين ليس للعالم

(١) في المختصر: «مثل».

(٢) السيناوية: نسبة إلى ابن سينا، والفارابية: نسبة إلى الفارابى، والطوسية نسبة إلى نصير الدين الطوسى، وهم من رؤساء الفلاسفة، وقد تقدمت تراجمهم.

عندهم رب يعبد، ولا رسول يطاع، ولا معاد للخليفة، ولا يزيل الله هذا العالم ويأتي بعالم آخر، فهذه الأصول قد اشتركت فيها أعداء الرسل وامتازت كفار قريش باتباعها الربوبية والصفات والملائكة وخلق العالم، وكون الرب فاعلا، بمشيئته وقدرته، ولهذا لم يعارضوا الرسول في شيء من ذلك.

الوجه الخامس والأربعون: أنه لو جاز أن يكون في العقول ما يناقض خبر الرسول لم يتصور الإيمان به البته لوجهين:

أحدهما: أنه لا سبيل إلى «العلم»[1] بانتفاء جميع المعارض، وما علق على الممتنع فهو ممتنع.

الثاني: أن تصديقهم والإيمان بهم يكون موقوفا على الشرط، والإيمان لا يصح تعليقه بالشرط، فلو قال: آمنت بالرسول إن أذن لى أبي، أو إن أعطيتموني كذا، أو إن جعل لى الأمر من بعده، أو نحو ذلك، لم يكن مؤمنا بالاتفاق، كما قال مسيلمة:[2] ان جعل محمد الأمر لى من بعده آمنت به[3] فلم يصر مؤمنا بذلك وكان من أكفر الكفار، فهكذا إذا قال: آمنت بما أخبر به إلا أن يعارضه دليل عقلى، وهذا حقيقة قول هؤلاء، فإن هذا لم يؤمن به باتفاق الأمة، وهذا كما أنه كفر في الشرع فهو فاسد في العقل، فالواجب على الخلق الإيمان بالرسول إيمانا مطلقا جازما غير معلق على شرط، ومن قال: أصدق بما صدق عقلي به وأرد ما رده عقلي أو عقل من هو أعقل مني أو مثلي فهو كافر باتفاق الأمة فاسد العقل، وهو نظير

---

(١) فى الأصل: «العالم» وهو خطأ.

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث، من بنى حذيفة، ادعى النبوة وقدم مع وفد قومه إلى رسول الله ﷺ، قتل فى حروب الردة، قتله وحشى بن حرب، رماه بالحربة وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه وذلك بعقر داره فى الحديقة التى يقال لها حديقة الموت سنة إحدى عشرة من الهجرة. انظر: البداية والنهاية ٦/٣٤١.

(٣) انظر: صحيح البخارى، كتاب المغازى، باب وفد بنى حنيفة ح(٤٣٧٣) فتح البارى ٨/٨٩، وكتاب المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام ح(٣٦٢٠) ٦/٦٢٦، وصحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبى ﷺ، ح(٢٢٧٣) ٤/١٧٨٠، ودلائل النبوة للبيهقى ٥/٣٣٤.

طائفة من اليهود يقولون: نصدق أنه رسول الله حقا ولكن لم يبعث إلينا وإنما بعث إلى العرب، فهذا في إنكار عموم رسالته في المرسل إليهم نظير إنكار عموم رسالته في المرسل به فتأمله، وهو لأشر من الذي قال الله فيهم: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله**﴾(١) فأولئك وقفوا الإيمان على أن يؤثر نظير ما جاءت به الرسل، وهؤلاء وقفوه على ما يناقض ما جاءت به الرسل.

الوجه السادس والأربعون: أن هذه المعارضة ميراث بالتعصيب من الذين ذمهم الله في كتابه بجدالهم في آياته بغير سلطان وبغير علم، وأخبر أن مصدر تلك المجادلة كبر واستكبار عن قبول الحق ممن يرون أنهم أعلم منهم كما قال تعالى: ﴿**فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم**﴾(٢) وهذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة إذا كان عندها «شيء»(٣) من علم قد تميزت به عمن هو أجهل منها، وحصل لها به نوع رياسه ومال، فإذا جاءها من هو أعلم منها بحيث تمحى رسوم علومها ومعارفها في علمه ومعرفته عارضته بما عندها من العلم، وطعنت فيما عنده بأنواع المطاعن، قال تعالى: ﴿**كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**الذين يجادلون في أيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه**﴾(٥) والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء، وقال تعالى: ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾(٦) وقال تعالى: ﴿**وما نرسل المرسلين الا مبشرين**

---

(١) سورة الأنعام/ ١٢٤.
(٢) سورة غافر/ ٨٣.
(٣) فى الأصل: «شيئا» وهو خطأ.
(٤) سورة غافر/ ٣٤-٣٥.
(٥) سورة غافر/ ٥٦.
(٦) سورة غافر/ ٥.

ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾[1] وهذا كثير في القرآن، يذم به سبحانه الذين عارضوا كتبه ورسله بما عندهم من الرأي والمعقول والبدع، والكلام الباطل مشتق من الكفر، فمن عارض الوحي بآراء الرجال كان قوله مشتقا من أقوال هؤلاء الضلال.

قال مالك: أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ لجدله»[2]. ومن وقف على أصول هؤلاء المعارضين ومصدرها تبين «له»[3] أنها نشأت من أصلين: من كبر عن اتباع الحق وهو معمي البصيرة، وصادمته شبهات كالليل المظلم، فكيف لا يعارض من هذا وصفه خبر الأنبياء بعقله وعقل من يحسن به الظن؟ ثم دخلت تلك الشبهات في قلوب قوم لهم دين وعندهم إيمان وخير، فعجزوا عن دفعها فاتخذوها دينا وظنوها تحقيقا لما بعث الله به رسوله، فحاربوا عليها واستحلوا ممن خالفهم فيها ما حرمه الله ورسوله وهم بين جاهل مقلد، ومجتهد مخطىء حسن القصد، وظالم معتد متعصب، والقيامة موعد الجميع والأمر يومئذ لله.

الوجه السابع والأربعون: أن دلالة السمع على مدلوله متفق عليها بين العقلاء وإن اختلفوا في جهتها هل هي قطعية أو ظنية، وهل أرادت الرسل إفهام مدلولها واعتقاد ثبوته، أم أرادت إفهام غيره وتأويل تلك الأدلة وصرفها عن ظاهرها؟ فلا نزاع بين العقلاء في دلالتها على مدلولها، ثم قال أتباع الرسل: مدلولها ثابت في نفس الأمر وفي الإرادة، وقالت النفاة أصحاب التأويل: مدلولها منتف في نفس الأمر وفي الإرادة، وقال أصحاب التخييل: مدلولها ثابت في الإرادة منتف في نفس الأمر.

---

(١) سورة الكهف/ ٥٦.

(٢) انظر: شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادى ص٥ ـ تحقيق الدكتور محمد سعيد خطيب أوغلى، وصون المنطق للسيوطى ص١٤٣ تحقيق الدكتور على سامى النشار.

(٣) فى الأصل: «لها» وهو خطأ.

وأما دلالة ما عارضها من العقليات على مدلوله فلم يتفق أربابها على دليل واحد منها بل كل طائفة منهم تقول في أدلة خصومها: إن العقل يدل على فسادها لا على صحتها.

وأهل السمع مع كل طائفة تخالفه في دلالة العقل على فساد قول تلك الطائفة المخالفة للسمع، فكل طائفة تدعى فساد قول خصومها بالعقل يصدقهم أهل السمع على ذلك، ولكن يكذبونهم في دعواهم صحة قولهم بالعقل، فقد تضمنت دعوى الطوائف «فساد ما يفهمه العقل»[1] بشهادة بعضهم على بعض وشهادة أهل الوحي والسمع معهم، ولا يقال: هذا ينقلب عليكم باتفاق شهادة الفرق كلها على بطلان ما دل عليه السمع، وإن اختلفوا في أنفسهم، لأن المطلوب أنهم كلهم متفقون على أن السمع دل على الإثبات، ولم يتفقوا على ان العقل دل على نقيضه، فيمتنع تقديم الدلالة التي لم يتفق عليها على الدلالة المتفق عليها وهو المطلوب.

الوجه الخمسون:[2]: أن يقول: كلما عارض السمع من العقليات ففساده معلوم بالعقل، وإن لم يعارض السمع فليسا متوقفين في إبطاله والعلم بفساده على كونه عارض السمع، بل هو باطل في نفسه، ومعارضة السمع له دليل سمعي على بطلانه، فقد اتفق على فساده وبطلانه دليل العقل والسمع، وما كان هكذا لم يصلح أن يعارض به عقل ولا سمع، وتفصيل هذه الجملة ببيان شبه المخالفين للسمع، وبيان فسادها ومخالفتها لصريح العقل، وهذا أمر - بحمد الله - لم يزل أنصار الرسول يقومون به ويتكفلون ببيانه، وهم فيه درجات عند الله على منازلهم من العلم والإيمان والبيان، ولا نرى مثله واحدة عورض بها الرسول إلا وقد ردها أنصاره وحزبه، وبينوا فسادها وسخافة عقل أربابها المعارضين بها في

(١) فى الأصل: «فسادها يفهم من العقل» والتصحيح من المختصر.

(٢) هكذا فى الأصل، وقد نبه عليه الناسخ فى الهامش، ولعل هذا خطأ من الناسخ الأول، لأن الكلام مترابط. وقد بنى ترتيب الأوجه فيما بعد على هذا.

كل نوع من أنواع العلم، وقد أجرى الله سنتّه وعادته أن يكشف عن عورة المعارض ويفضحه ويخذله في عقله حتى يقول ما يضحك منه الإنسان، كما خذل المعارض لكلامه حتى أضحك عليه الناس فيما عارضه به، وهذا من تمام أدلة النبوة وبراهين صحة الوحي أن نجد المعارض له يأتي بما يضحك منه العقلاء، فلعل قائلا يقول: ما جاءت به الرسل قد يكون له معارض صحيح، فإذا «وقف»[1] على المعارض وسخفه وتحقق بطلانه زاده قوة في إيمانه ويقينه، وصار ذلك بمثابة رجل ادعى أن معه طيبا ليس مع أحد مثله ولا مثل ريحه، فعارضه آخر بأن معه مثله أو أفضل منه، فإذا أخرجه إذا هو أنتن شيء وأخبثه ريحا ولكن هناك عقول جُعْلِيّة[2] نشأت في النتن والحشوش، فلا تألف غير ما نشأت فيه.

الوجه الحادي والخمسون: أن الأمور السمعية التي يقال إن العقل عارضها كإثبات علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، وتكلمه، ورؤية العباد له في الآخرة، وإثبات الصفات له، هي «ما»[3] علم بالاضطرار أن الرسول جاء بها، وعلم بالاضطرار صحة نبوته ورسالته، وما علم بالاضطرار امتنع أن يقوم على بطلانه دليل، وامتنع أن يكون له معارض صحيح، «إذ»[4] لو جاز أن يكون له معارض صحيح لم يبق لنا وثوق بمعلوم أصلا لا حسي ولا عقلي، وهذا يبطل حقيقة الإنسانية، بل حقيقة الحيوانية المشتركة بين الحيوانات، فإن لها تمييزا وإدراكا للحقائق بحسبها، وهذا الوجه في غاية الظهور غني بنفسه عن التأمل، وهو مبني على مقدمتين قطعيتين:

---

(١) في الأصل: «وقفت» ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) نسبة إلى الجُعْل. وهو حيوان معروف كالخنفساء. انظر: اللسان مادة «جعل».

(٣) في المختصر: «مما».

(٤) في المختصر: «لأنه».

إحداهما: أن الرسول أخبر عن الله بذلك.

والثانية: أنه صادق.

ففي أى المقدمتين يقدح المعارض بين العقل والنقل؟

الوجه الثاني والخمسون: أن دليل العقل هو إخباره عن الذي خلقه وفطره أنه وضع فيه ذلك وعلمه إياه وأرشده إليه «ودليل»(١) السمع هو الخبر عن الله انه قال ذلك وتكلم به وأوحاه وعرف به «الرسول»(٢) وأمره أن يعرف الأمة ويخبرهم به، ولا يكون أحدهما صحيحا حتى يكون الآخر مطابقا لمخبره، وأن الأمر كما أخبر به، وحينئذ فقد شهد العقل لخبر الرسول بأنه صدق وحق، فعلمنا مطابقته لمخبره بمجموع الأمرين، بخبر الرسول به، وشهادة العقل الصريح بأنه لا يكذب في خبره، وأما خبر العقل عن الله بما يضاد ذلك بأن الله وضع فيه ذلك وعلمه إياه، فلم يشهد له الرسول بصحة هذا الخبر بل شهد ببطلانه فليس معه إلا شهادته لنفسه بأنه صادق فيما أخبر به، فكيف تقبل شهادته لنفسه مع عدم شهادة الرسول له؟ فكيف مع تكذيبه إياه؟ فكيف مع تكذيب العقل الصريح المؤيد بنور الوحي له؟ فكيف مع «تهاتر»(٣) أصحابه وتكاذبهم وتناقضهم؟،يزيده ايضاحا.

الوجه الثالث والخمسون: وهو أن الأدلة السمعية نوعان: نوع دل بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقلى، فهو عقلى سمعى «ومن»(٤) هذا غالب أدلة النبوة والمعاد والصفات والتوحيد «وما لا يقوم التنبيه على الدليل العقلى منه فهو يسير جدا»(٥)، وإذا تدبرت القرآن رأيت هذا أغلب النوعين عليه، وهذا النوع يمتنع أن يقوم دليل صحيح على معارضته لاستلزامه

---

(١) فى المختصر: «وذلك».

(٢) من المختصر، وفى الأصل: «الرسل».

(٣) فى المختصر: «اختلاف سائر».

(٤) فى المختصر: «فمن».

(٥) ما بين القوسين من المختصر، وفى الأصل: «ما يقدم التنبيه على اليسير جدا منه».

مدلوله، وانتقال الذهن فيه من الدليل إلى المدلول ضرورى، وهو أصل للنـوع الثانى الدال بمجرد الخبر، «فالقدح»(١) فى النوعين بالعقل ممتنع بالضرورة، أما الأول فلما تقدم، وأما الثانى فلاستلزام القدح فيه القدح فى العقل الذى أثبته، وإذا بطل العقل الذى أثبت السمع بطل ما عارضه من العقليات كما تقدم تقريره. . . يوضحه :

الـوجه الرابع والخمسون : أنه ليس فى القرآن صفة إلا وقد دل العقل الصريح على إثباتها لله، فقد تواطأ عليها دليل العقل ودليل السمع، فلا يمكن أن يعارض بثبوتها دليل صحيح البته، لا عقلى ولا سمعى، بل إن «كـان»(٢) المعارض سمعيا كان كذبا مفترى أو مما أخطأ المعارض فى فهمه، وإن كان عقليا «فهو»(٣) شبهة خيالية وهمية لا دليل عقلي برهاني.

واعلم أن هذه دعوى عظيمة ينكرها كل جهمى وناف وفيلسوف وقرمطى وباطنى، ويعرفها من نور الله قلبه بنور الإيمان، وباشر قلبه معرفة الذى دعت إليه الرسل وأقرت به الفطر، وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمـة لا المنكوسة «الموكوسة»(٤) التى نكست قلوب أصحابها، فرأت الحق باطـلا والباطل حقا، والهدى ضلالة والضلالة هدى، وقد نبه الله سبحانه فى كتابه على ذلك وأرشد إليه ودل عليه فى غير موضع منه، وبين أن ما وصف به نفسه هو الكمال الذى لا يستحقه سواه، فجاحده جاحد لكمال الرب، فإنه يمدح بكل صفة وصف بها نفسه وأثنى بها على نفسه ومجد بها نفسه وحمد بها نفسه، فذكرها سبحانه على وجه المدحة له والتعظيم والتمجيد، وتعرف بها إلى عباده ليعرفوا كماله وعظمته ومجده وجلاله، وكثيرا

---

(١) فى المختصر: «والقدح».
(٢) فى الأصل: «كل» والتصحيح من المختصر.
(٣) فى المختصر: «فهى».
(٤) فى المختصر: «المركوسة» وكلاهما صحيح.

ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التى عبدوها من دونه وجعلوها شركاء له، فيذكر سبحانه من صفات كماله وعلوه على عرشه وتكلمه وتكليمه وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته ما هو منتف عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدل الدليل على بطلان إلهيتها وفساد عبادتها من دونه، ويذكرك ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله ما «يجذب»[١] قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته، والمسارعة إلى طاعته، والتنافس فى القرب منه، ويذكر صفاته أيضا عند ترغيبه لهم وترهيبه وتخويفه، لتعرف القلوب من تخافه وترجوه وترغب إليه وترهب منه، ويذكر صفاته أيضا عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقلّ أن تجد آية حكم من أحكام المكلفين إلا وهى مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين، وقد يذكر الصفة فى أول الآية ووسطها وآخرها كقوله: ﴿**قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾[٢] «فيذكر»[٣] صفاته عند سؤال عباده لرسوله عنه، ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته فذكر أسمائه وصفاته روحها وسرها يصحبها من أولها إلى آخرها، وإنما أمر بإقامتها ليذكر بأسمائه وصفاته، وأمر عباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته، ففتح لهم باب الدعاء رغبا ورهبا ليذكره الداعى بأسمائه وصفاته فيتوسل إليه بها، ولهذا كان أفضل الدعاء وأجوبه ما توسل فيه الداعى إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾[٤] وكان اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين آية الكرسى وفاتحة آل عمران[٥]، لاشتمالهما على صفة الحياة المصححة لجميع

---

(١) فى المختصر: «يجدون».

(٢) سورة المجادلة/ ١.

(٣) فى المختصر: «ويذكر».

(٤) سورة الأعراف/ ١٨٠.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة، كتاب الدعاء، «باب اسم الله الأعظم» ح(٣٨٥٦) ٢/١٢٦٧، والجامع الكبير للطبرانى ح(٧٧٥٨) ٨/٢١٤ ونصه: «اسم الله الأعظم فى سور من القرآن ثلاث، فى البقرة، وآل عمران، وطه».

الصفات، وصفة القيومية المتضمنة لجميع الأفعال، ولهذا كانت سيدة آى القرآن وأفضلها، ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن[1] لأنها أخلصت «للخبر»[2] عن الرب تعالى وصفاته دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه.

وسمع النبى ﷺ رجلا يدعو: اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحى ياقيوم»[3]، وسمع آخر يدعو «اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»[4] فقال لأحدهما: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» وقال للآخر: «سل تعطه» وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وأحب ما دعاه الداعى به أسماءه وصفاته.

وفى الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال: «اللهم إنى عبدك وابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجا، قالوا: أفلا نتعلمهن يارسول الله؟

---

(١) انظر: صحيح البخارى مع شرحه، كتاب فضائل القرآن، «باب فضل قل هو الله أحد» ح(٥٠١٣) ٩/٥٨.

(٢) فى المختصر: «الإخبار».

(٣) سنن النسائى، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر ٣/٤٤، وسنن الترمذى، كتاب الدعوات، باب خلق الله مائة رحمة ح(٣٥٤٤) ٥/٥٥٠، وابن ماجة، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم ح(٣٨٥٨) ٢/١٢٦٨.

(٤) سنن الترمذى، كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات ح(٣٤٧٥) ٥/٥١٥، وسنن النسائى، باب الدعاء بعد الذكر ٣/٤٥، وابن ماجة، كتاب الدعاء، «باب اسم الله الأعظم» ح(٣٨٥٧) ٢/١٢٦٧.

قال: «بلى ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن»(١)، وقد نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول، فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية واستمرت على «رقدتها»(٢) العقول الميتة، فقال الله تعالى فى صفة العلم: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾(٣) فتأمل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره. وقال: ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق**﴾(٤) فما أصح هذا الدليل وما أوجزه. وقال تعالى فى صفة الكلام: ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا**﴾(٥) نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدى لا يصلح أن يكون إلها، وكذلك قوله فى الآية الأخرى عن العجل: ﴿**أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا**﴾(٦) فجعل امتناع صفة الكلام والتكلم، وعدم ملك الضر والنفع، دليلا على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلى سمعى على أن الإله لابد أن يكلم ويتكلم ويملك «لعابده»(٧) الضر والنفع وإلا لم يكن إلها. وقال: ﴿**ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين**﴾(٨) «نبهك»(٩) بهذا الدليل العقلى القاطع أن الذى جعلك «تبصر»(١٠) وتتكلم وتعلم أولى أن يكون بصيرا متكلما عالما، فأى دليل عقلى قطعى أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول؟، وقال تعالى فى آلهة المشركين المعطلين: ﴿**ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها**

---

(١) مسند أحمد ١/٣٩١، ٤٥٢، والأسماء والصفات للبيهقى ص١٧-١٨.
(٢) فى المختصر: «رقادها».
(٣) سورة الملك/ ٦٤.
(٤) سورة النحل/ ١٧.
(٥) سورة الأعراف/ ١٤٨.
(٦) سورة طه/ ٨٩.
(٧) فى المختصر: «لعباده».
(٨) سورة البلد/ ٨-١٠.
(٩) فى المختصر: «نبه».
(١٠) فى المختصر: «تنصرف».

أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾[1] فجعل سبحانه عدم البطش والمشى والسمع والبصر دليلا على عدم إلهية من عدمت «فيه»[2] هذه الصفات، فالبطش والمشى من أنواع الأفعال والسمع والبصر من أنواع الصفات، وقد وصف نفسه سبحانه بضد صفة «أوثانهم»[3] وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجىء والإتيان[4]، وذلك ضد صفات الأصنام التى جعل امتناع هذه الصفات «عليها منافيا لآلهيتها» [5]، فتأمل آيات التوحيد والصفات فى القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها كيف تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المنفرد بذلك الكمال، فليس له فيه «شبه ولا مثال» [6] وأى دليل فى العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره، ومالك السموات والأرض وقيومها؟، فإذا لم يكن فى العقل إثبات جميع أنواع الكمال له فأى قضية تصح فى العقل بعد هذا؟ ومن شك فى أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضا والفرح والرحمة والرأفة كمال، فهو ممن سلب خاصة الإنسانية، وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال فهو (. . . . . . .) [7] مصاب فى عقله، ومن شك إن

---

(١) سورة الأعراف/ ١٩٥.

(٢) فى المختصر: «منه».

(٣) فى الأصل: «أديانهم» والتصحيح من المختصر.

(٤) قال تعالى: ﴿إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ النساء/ ٥٨.

وقال: ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ الشورى/ ١١.

وقال: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾ ص/ ٧٥.

وقال: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما﴾ يس/ ٧١.

وقال: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ الفجر/ ٢٢.

وقال: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام﴾ البقرة/ ٢١٠.

(٥) فى المختصر: «فيها دليلا على عدم الهيتها».

(٦) فى المختصر: «شبيه ولا مثيل».

(٧) كلمة غير واضحة، وهى غير موجودة فى المختصر والكلام مستقيم بدونها.

كونـه يفعل باختياره ما يشاء، ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث شاء، ويجىء إلى حيث شاء كمال فهو جاهل بالكمال، و«الجامد»(١) عنده أكمل من الحى الذى تقوم به الأفعال الاختيارية، كما أن عند شقيقه الجهمى أن الفـاقـد لصفـات الكـمال أكمل من الموصوف بها، كما أن عند أستاذهما وشيخهما الفيلسوف أن من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا فعل ولا كلام ولا يرسل رسولا ولا ينزل كتابا ولا يتصرف فى هذا العـالم بتحـويل وتغيير وإزالة ونقل وإماتة وإحياء أكمل ممن يتصف بذلك، فهؤلاء كلهم قد خالفوا صريح المعقول وسلبوا الكمال عمن هو أحق بالكمال من كل ما سواه، ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال نقصا وعـدمـه كمالا، فعكسـوا الأمـر وقلبـوا الفـطر وأفسدوا العقول، فتأمل «شبههم»(٢) البـاطلة وخيالاتهم الفـاسدة التى عارضوا بها الوحى، هل تقاوم هذا الدليل الدال على إثبات الصفات والأفعال للرب سبحانه؟ ثم اختر لنفسك بعد ما شئت.

وهذا قطرة من بحر نبهنا «به»(٣) تنبيها يعلم به اللبيب ما وراءه، وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقه وهيهات أن يصل إلى ذلك علمنا أو قدرتنا لكتبنـا عدة أسفـار، وكذا كل وجه من هذه الوجوه فإنه لو بسط وفصل لاحتمل سفرا أو أكثر، والله المستعان وبه التوفيق.

الـوجـه الخـامس والخمسون : أن غاية ما ينتهى إليه من ادعى معـارضـة العقـل للوحى أحـد أمـور أربعـة لابد له منها : إما تكذيبها وجحـدهـا، وإما اعتقاد أن الرسل خاطبوا الخلق بها خطابا جمهوريا لا حقيقة له، وإنما أرادوا منهم التخييل وضرب الأمثال، وإما اعتقاد أن المراد تأويلها وصرفها عن حقائقها وما تدل عليه إلى المجازات والاستعارات،

---

(١) فى المختصر: «الجماد».
(٢) فى المختصر: «نسبتهم».
(٣) فى المختصر: «عليه».

وإما الإعراض عنها وعن فهمها وتدبرها واعتقاد أنه لا يعلم ما أريد بها إلا الله .

فهذه أربع مقامات ، وقد ذهب إلى كل مقام منها طوائف من بنى آدم :

المقام الأول : مقام التكذيب والجحد ، وهؤلاء استراحوا من كلفة النصوص والوقوع فى التجسيم والتشبيه ، وخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم ، وقالوا لسائر الطوائف : منكم إلى هذه النصوص ، وأما نحن فلسنا منها فى شىء ، لأن عقولنا لما عارضتها دفعنا فى صدر من جاء بها وقابلناه بالتكذيب .

المقام الثانى : مقام أهل التخييل ، قالوا : إن الرسل لم يمكنهم مخاطبة الخلق بالحق فى نفس الأمر فخاطبوهم بما يخيل إليهم ، وضربوا لهم الأمثال ، وعبروا عن المعانى المعقولة بالأمور القريبة من الحس ، وسلكوا ذلك فى باب الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر ، وأقروا باب الطلب على حقيقته ، ومنهم من سلك هذا المسلك فى الطلب أيضا وجعل الأمر والنهى «أمثالا»[1] وإشارات ورموزا ، فهم ثلاث فرق هذه إحداها ، والثانية : سلكت ذلك فى الخبر دون الأمر ، والثالثة : سلكت ذلك فى الخبر عن الله وصفاته دون المعاد والجنة والنار ، وذلك كله إلحاد فى أسماء الرب وصفاته ودينه واليوم الآخر ، والملحد لا يتمكن من الرد على الملحد ، وقد وافقه فى الأصل وإن خالفه فى فروعه ، فلهذا استطال على هؤلاء الملاحدة «كابن»[2] سينا وأتباعه غاية الاستطالة وقالوا : القول فى نصوص المعاد كالقول فى نصوص الصفات ، قالوا : بل الأمر فيها أسهل من نصوص الصفات لكثرتها وتنوعها وتعدد طرقها وإثباتها على وجه يتعذر معه التأويل ، فإذا كان الخطاب بها خطابا جمهوريا فنصوص المعاد أولى .

---

(١) فى الأصل : «امتثالا» والتصحيح من المختصر .

(٢) فى المختصر : «ابن» .

قال : فإن قلتم : نصوص الصفات قد عارضها ما يدل على انتفائها من العقل، قلنا : ونصوص المعاد قد عارضها من العقل ما يدل على «انتفائها»(١) ثم ذكر العقليات المعارضة للمعاد بما يعلم به العاقل أن العقليات المعارضة للصفات من جنسها أو أضعف منها(٢).

المقام الثالث: مقام أهل التأويل : قالوا : لم يرد منا اعتقاد حقائقها، وإنما أريد منا تأويلها بما يخرجها عن ظاهرها و«حقيقتها»(٣) فتكلفوا لها وجوه التأويلات المستكرهة والمجازات المستنكرة التى يعلم العقلاء أنها أبعد شىء عن احتمال ألفاظ النصوص لها، وأنها بالتحريف أشبه منها بالتفسير، والطائفتان اتفقتا على أن الرسول لم يبين الحق للأمة فى خطابه لهم ولا أوضحه لها بل خاطبهم بما ظاهره باطل ومحال، ثم اختلفوا، فقال أصحاب التخييل : أراد منهم اعتقاد خلاف الحق والصواب، وإن كان فى ذلك مفسدة فالمصلحة المترتبة عليه أعظم من المفسدة التى فيه، وقال أصحاب التأويل : بل أراد منا أن نعتقد خلاف ظاهره وحقيقته، ولم يبين لنا المراد تعريضا لنا إلى حصول الثواب بالاجتهاد والبحث والنظر وإعمال الفكر فى معرفة الحق بعقولنا، وصرف تلك الألفاظ عن حقائقها وظواهرها لننال ثواب الاجتهاد والسعى فى ذلك، فالطائفتان متفقتان على أن ظاهر خطاب الرسول ضلال وكفر وباطل، وأنه لم يبين الحق ولا هدى إليه «الخلق»(٤).

المقام(٥) الرابع : مقام اللا أدرية، الذين يقولون : لا ندرى معانى هذه الألفاظ، ولا ما أريد منا ولا ما دلت عليه، وهؤلاء ينسبون طريقتهم إلى السلف، وهى التى يقول المتأولون : إنها أسلم، ويحتجون عليها بقوله

---

(١) فى الأصل : «انتفائه» والتصحيح من المختصر.
(٢) راجع الفصل الحادى والعشرين من هذا الكتاب ١ / ٢٧٥.
(٣) فى المختصر : «حقائقها».
(٤) فى الأصل : «الحق» والتصحيح من المختصر.
(٥) فى الأصل : «الوجه» والتصحيح من المختصر».

تعالى : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾(١) ويقولون : هذا هو الوقف التام عند جمهور السلف، وهو قول أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعائشة وعروة بن الزبير «وغيرهم»(٢) من السلف والخلف، وعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء و«المرسلون» (٣) لا يعلمون معانى ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الصحابة(٤) ولا التابعون لهم بإحسان، بل يقرؤون كلاما لا يعقلون معناه(٥)، ثم هم متناقضون أفحش تناقض، فإنهم يقولون : تجرى على ظاهرها، وتأويلها باطل ثم يقولون : لها تأويل لا يعلمه إلا الله، وقول هؤلاء أيضا باطل، فإن الله سبحانه أمر بتدبر كتابه وفهمه وتعقله، وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء لما فى الصدور، وحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومن أعظم الاختلاف اختلافهم فى باب الصفات والقدر والأفعال، واللفظ الذى لا يعلم ما أراد به المتكلم لا يحصل به حكم ولا هدى ولا شفاء ولا بيان.

وهؤلاء طرقوا لأهل الإلحاد والزندقة والبدع أن يستنبطوا الحق من عقولهم وآرائهم، فإن النفوس طالبة لمعرفة هذا الأمر أعظم طلب، والمقتضى التام لذلك فيها موجود، فإذا قيل لها : إن ألفاظ القرآن والسنّة فى ذلك لها تأويل لا يعلمه إلا الله، ولا يعلم معناها وما أريد بها وما دلت عليه، «فروا إلى عقولهم ونظرهم وآرائهم»(٦) فسد هؤلاء باب الهدى والرشاد، وفتح أولئك باب الزندقة والبدعة والإلحاد، وقالوا : قد أقررتم بأن ما جاءت به الرسل فى هذا الباب لا يحصل فيه علم بالحق ولا يهدى

---

(١) سورة آل عمران/ ٧.

(٢) فى الأصل : «وغيره» والتصحيح من المختصر.

(٣) فى الأصل : «المرسلين» والتصحيح من المختصر.

(٤) فى المختصر : «أصحابهم».

(٥) لايضاح فساد هذه المقالة راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص٦٨-٧٢، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ١٤-١٩.

(٦) فى المختصر : «فرت إليه عقولهم وفطرهم وآراؤهم».

إليه، فهو فى طريقتنا لا فى طريقة الأنبياء، فإنا نحن نعلم ما نقول ونثبته بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا تأويل ما قالوه ولا بينوا مراد المتكلم به، وأصاب هؤلاء من الغلط على السمع ما أصاب أولئك من الخطأ فى العقل، وهؤلاء لم يفهموا مراد السلف بقولهم : لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله .

فإن التأويل فى عرف السلف المراد به التأويل فى مثل قوله تعالى : ﴿**هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿**ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾[2] وقول يوسف : ﴿**يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا**﴾[3] وقول يعقوب : ﴿**ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾[4] ﴿**وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله**﴾[5] وقال يوسف : ﴿**لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾[6] فتأويل الكلام الطلبى هو نفس فعل المأمور به و«ترك»[7] المنهى عنه، كما قال ابن عيينة : «السنّة تأويل الأمر والنهى» وقالت عائشة : «كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ـ اللهم اغفر لي ـ»[8] يتأول القرآن[9] .

وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التى أخبر الله عنها، وذلك فى حق الله هو كنه ذاته وصفاته التى لا

(١) سورة الأعراف/ ٥٣ .
(٢) سورة النساء/ ٥٩ .
(٣) سورة يوسف/ ١٠٠ .
(٤) سورة يوسف/ ٦ .
(٥) سورة يوسف/ ٤٥ .
(٦) سورة يوسف/ ٣٧ .
(٧) لا توجد فى الأصل، وأضفتها من المختصر.
(٨) عبارة «اللهم اغفر لي» أضفتها من المختصر.
(٩) تقدم تخريج هذا الحديث فى الجزء الأول ص٧٨ .

يعلمها غيره، ولهذا قال مالك وربيعة[1] : «الاستواء معلوم والكيف مجهول»[2] وكذلك قول ابن الماجشون[3] والإمام أحمد وغيرهما من السلف : إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه، وقد فسر الإمام أحمد الآيات التى احتج بها الجهمية من المتشابه وقال : إنهم تأولوها على غير تأويلها وبين معناها[4]، وكذلك الصحابة «والتابعون» [5] فسروا القرآن، وعلموا المراد بآيات الصفات، كما علموا المراد من آيات الأمر والنهى، وإن لم يعلموا الكيفية، كما علموا معانى ما أخبر الله به فى الجنة والنار وإن لم يعلموا حقيقة كنهه وكيفيته.

فمن قال من السلف : «إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله بهذا المعنى فهو حق، وأما من قال : إن التأويل الذى هو تفسيره وبيان المراد منه

---

(١) هو ربيعة بن أبى عبد الرحمن فرّوخ، الإمام، مفتى المدينة، وعالم الوقت، أبو عثمان. ويقال : أبو عبد الرحمن القرشى التيمى، مولاهم المشهور بربيعة الرأى من موالى آل المنكدر، كان من أئمة الاجتهاد، وعليه تفقه الإمام مالك. توفى بالمدينة سنة ست وثلاثين ومائة. سير أعلام النبلاء ٦/ ٨٩، والتاريخ الكبير للبخارى ٣/ ٢٨٦، وتاريخ بغداد ٨/ ٤٢٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٨٨، والعبر ١/ ١٤١.

(٢) قول مالك رواه البيهقى فى الأسماء والصفات ص٥١٦، واللالكائى فى شرح أصول اعتقاد أهل السنّة رقم (٦٦٤) ٢/ ٣٩٨، وأبو عثمان الصابونى فى عقيدة السلف ضمن الرسائل المنيرية ١/ ١١١، وأبو نعيم فى الحلية ٦/ ٣٢٥-٣٢٦، والدارمى فى الرد على الجهمية ص٢٧، والتمهيد لابن عبد البر ٧/ ١٥١، وابن قدامة فى إثبات صفة العلو رقم(٨٨). وانظر قول ربيعة شيخ مالك فى شرح أصول اعتقاد أهل السنّة للالكائى رقم (٦٦٥) ٢/ ٣٩٨، والأسماء والصفات للبيهقى ص٥١٦، وإثبات صفة العلو لابن قدامة رقم(٧٤)، والعلو للعلى الغفار للذهبى ص٩٨.

(٣) هو العلامة الفقيه، مفتى المدينة، أبو مروان، عبد الملك بن الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة، الماجِشُون التيمى، مولاهم المدنى المالكى تلميذ الإمام مالك. قال ابن عبد البر: كان فقيها فصيحا، دارت عليه الفتيا فى زمانه، وعلى أبيه قبله. توفى سنة ثلاث عشرة ومائتين، وقيل سنة أربع عشرة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٥٩، وطبقات ابن سعد ٥/ ٤٤٢، ووفيات الأعيان ٣/ ١٦٦، ونكت الهميان ص١٩٧.

(٤) راجع الجزء الأول ص٧٩.

(٥) فى الأصل : «والتابعين» والتصحيح من المختصر.

لا يعلمه إلا الله «فهذا»[1] غلط[2]. والصحابة والتابعون وجمهور الأمة على خلافه، قال مجاهد[3]: «عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها»[4] وقال عبد الله بن مسعود: «ما فى كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت»[5]. وقال الحسن البصرى[6]: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها». وقال مسروق[7]: «ما نسأل أصحاب محمد عن شىء إلا وعلمه فى القرآن ولكن علمنا قصر عنه»،

---

(١) فى المختصر: «فهو».

(٢) تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب إيضاح المصنف لمعانى التأويل، وبيان الصحيح منها والفاسد. راجع الفصلين الأول والثانى ص٧٧-٩٣.

(٣) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى، تابعى، شيخ القراء والمفسرين، قرأ التفسير على ابن عباس رضى الله عنهما ثلاث مرات، ولد سنة إحدى وعشرين، وتوفى سنة ثلاث ومائة، أو أربع ومائة. انظر: شذرات الذهب ١/١٢٥، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/٩٢، والأعلام ٦/١٦١، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٥. وسير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩-٤٥٧.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ١/٩٢، وسير أعلام النبلاء ٤/٤٥٠، ٤٥٧، وحلية الأولياء ٣/٢٧٩.

(٥) انظر: صحيح البخارى، فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبى ﷺ، ح(٥٠٠٢) ٩/٤٧.

(٦) هو الحسن بن أبى الحسن يسار، أبو سعيد البصرى، كان سيد أهل زمانه علما وعملا. قال ابن سعد: كان الحسن جامعا عالما عاليا، رفيعا، فقيها ثقة مأمونا عابدا ناسكا كبير العلم فصيحا جميلا وسيما. أهـ. توفى سنة عشر ومائة، انظر: التاريخ الكبير للبخارى ٢/٢٨٩، وسير أعلام النبلاء ٤/٥٦٣، وحلية الأولياء ٢/١٣١، وتاريخ خليفة بن خياط ص٣٤٠، وتذكرة الحفاظ ١/٧١، ووفيات الأعيان ٢/٦٩، وطبقات ابن سعد ٧/١٥٦.

(٧) الإمام القدوة، العلم، أبو عائشة الوادعى الهَمْدانى، الكوفى، وهو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله بن مرّ بن سلمان بن معمر، قال أبو بكر الخطيب: يقال إنه سُرق وهو صغير ثم وجد فسمى مسروقا، وعداده فى كبار التابعين، وفى المخضرمين الذين أسلموا فى حياة النبى ﷺ. توفى سنة اثنتين وستين، وقيل ثلاث وستين. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٦٣، وطبقات ابن سعد ٦/٧٦، وحلية الأولياء ٢/٩٥، وتاريخ بغداد ١٣/٢٣٢، وتذكرة الحفاظ ١/٤٩.

وقال الشعبى[1]: «ما ابتدع قوم بدعة إلا وفى كتاب الله بيانها»[2] والمقصود أن من ادعى معارضة العقل للسمع لابد له أن يسلك أحد هذه المسالك الأربعة الباطلة، وأسلمها هذا المسلك الرابع، وقد علمت بطلانه، وإنما كان أقلها بطلانا لأنه لا يتضمن الخبر الكاذب على الله ورسوله فإن صاحبه يقول: لا أفهم من هذه النصوص شيئا ولا أعرف المراد بها، وأصحاب تلك المسالك تتضمن أقوالهم تكذيب الله ورسوله، أو الإخبار عن النصوص بالتكذيب وبالله التوفيق.

الوجه السادس والخمسون: أن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنّة بعقلياتهم التى هى فى الحقيقة جهليات إنما «يبنون»[3] أمرهم فى ذلك على أقوال مشتبهة مجملة «تحمل»[4] معانى متعددة ويكون ما فيها من الاشتباه فى المعنى والاجمال فى اللفظ يوجب تأويلها بحق وباطل، فبما فيها من الحق يقبل من لم يحط بها علما بما فيها من الباطل لأجل الاشتباه والالتباس، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء، وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا، وهو منشأ البدع كلها، فإن «البدعة»[5] لو كانت باطلا محضا لما قبلت ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها، ولو كانت حقا محضا لم تكن بدعة، وكانت موافقة للسنّة، ولكنها تشتمل على «حق وباطل»[6] ويلتبس فيها الحق بالباطل، كما قال تعالى: ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل**

---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبى، الإمام، علامة العصر، أبو عمرو الهمدانى، ويقال: هو عامر بن عبد الله، ولد فى خلافة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها، وقيل ولد سنة احدى وعشرين، وتوفى سنة أربع ومائة، انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٢٩٤، وطبقات ابن سعد ٦/٢٤٦، وتاريخ خليفة بن خياط ص١٤٩، ٣٣٠.

(٢) انظر هذا القول وقولىّ الحسن البصرى ومسروق المتقدمين فى درء التعارض ١/٢٠٨.

(٣) فى الأصل: «يثبتون» والتصحيح من المختصر.

(٤) فى المختصر: «تحتمل».

(٥) فى المختصر: «البدع».

(٦) فى المختصر: «الحق والباطل».

وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[1] فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه، ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس وهو التدليس والغش الذى يكون باطنه خلاف ظاهره. فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل فى صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل، فهذا من الإجمال فى اللفظ، وأما الاشتباه فى المعنى فيكون له وجهان، هو حق من أحدهما وباطل من الآخر، «فيوهم»[2] إرادة الوجه الصحيح ويكون «مراده»[3] الباطل، فأصل ضلال بنى آدم من الألفاظ المجملة والمعانى المشتبهة، ولاسيما إذا صادفت أذهانا «مخبطة»[4]، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب؟ «فسل»[5] مثبت القلوب أن يثبت «قلبك»[6] على دينه، وأن لا يوقعك فى هذه الظلمات.

قال الإمام أحمد فى خطبة كتابه فى الرد على الجهمية: «الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون «بكتاب الله»[7] أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا «عنان»[8] الفتنة،

---

(١) سورة البقرة/ ٤٢.
(٢) فى الأصل: «فيتوهم» وما أثبت من المختصر.
(٣) فى المختصر: «غرضه».
(٤) فى المختصر: «سقيمة».
(٥) فى المختصر: «فنسأل».
(٦) فى المختصر: «قلوبنا».
(٧) فى الرد على الجهمية: «بنور الله».
(٨) فى الرد على الجهمية: «عقال».

فهم مختلفون فى الكتاب، مخالفون للكتاب، «متفقون على مخالفة»[1] الكتاب، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين»[2].

وهذه الخطبة تلقاها الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أو وافقه فيها «فقد»[3] ذكرها محمد بن وضاح[4] فى أول كتابه فى الحوادث والبدع[5] فقال: حدثنا أسد ثنا رجل يقال له يوسف ثقة، عن أبى عبد الله الواسطى رفعه إلى عمر بن الخطاب أنه قال:

«الحمد لله الذى امتن على العباد بأن جعل فى كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله «الموتى ويبصرون بكتاب الله»[6] أهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه وضال تائه قد هدوه، بذلوا دماءهم

---

(١) فى الرد على الجهمية: «مجمعون على مفارقة». وما ورد فى بعض النسخ مما أشار إليه المحقق فى الهامش موافق لما هنا.

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، ضمن مجموعة عقائد السلف، تحقيق الدكتور على سامى النشار ص٥٢.

(٣) فى المختصر: «وقد».

(٤) هو الإمام الحافظ محدث الأندلس، أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيغ المروانى، مولى صاحب الأندلس عبد الرحمن بن معاوية الداخل، ولد بقرطبة سنة تسع وتسعين ومائة، رحل مرتين إلى المشرق، وسمع إسماعيل بن أبى أويس، وسعيد بن منصور وغيرهم. توفى سنة سبع وثمانين وقيل: ست وثمانين ومائتين. سير أعلام النبلاء ١٣/٥٤٥، وتذكرة الحفاظ ٢/٦٤٦، وشذرات الذهب ٢/١٩٤، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٢٨٣، والعبر ١/٤١٢، ومعجم المؤلفين ١٢/٩٤.

(٥) هكذا فى الأصل، وإنما هو كتاب «البدع والنهى عنها». انظر: معجم المؤلفين ١٢/٩٤. أما كتاب «الحوادث والبدع» فإنما هو لأبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المتوفى بمصر سنة ٥٢٥هـ.

(٦) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل، وأثبته من المختصر، ومن كتاب «البدع والنهى عنها» لابن وضاح.

وأمـوالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، وما نسيهم ربك، ﴿وما كان ربك نسيا﴾ جعل قصصهم هدى، وأخبر عن حسن مقالاتهم، «فلا يقتصر»[1] عنهم فإنهم فى منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة»[2].

فقـولـه: «يتكلمـون بالمتشـابه من الكلام» هو الذى له وجهان، يخدعـون به جهـال الناس، كما ينفق أهل «الزغل»[3]، النقد المغشوش الذى له وجهان، يخدعون به من لم يعرفه من الناس، «فلا إله إلا الله»[4] كم قد ضل بذلك طوائف من بنى آدم لا يحصيهم إلا الله، واعتبر ذلك بأظهر الألفاظ والمعانى فى القرآن والسنّة، وهو التوحيد الذى حقيقته إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عن أضدادها، وعبادته وحده لا شريك له، فاصطلح أهل الباطل على وضعه للتعطيل المحض، ثم دعوا الناس إلى التـوحيد فخـدعوا به من لم يعرف معناه فى اصطلاحهم، وظن أن ذلك التوحيد هو الذى دعت إليه الرسل.

والتوحيد اسم لستة معان: توحيد الفلاسفة، وتوحيد الجهمية، وتوحيد القدرية الجبرية، وتوحيد الاتحادية، فهذه الأربعة أنواع من التوحيد جاءت الرسل بإبطالها ودل على بطلانها العقل والنقل.

فأما توحيد الفلاسفة فهو: إنكار ماهية الرب الزائدة على وجوده، وإنكار صفات كماله، وأنه لا سمع له ولا بصر ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة ولا كلام ولا وجه ولا يدين، وليس فيه «معنيان»[5] يتميز أحدهما عن الآخر

(١) فى المختصر: «تقصر».

(٢) انظر: «البدع والنهى عنها» لمحمد بن وضاح القرطبى ص٣، تحقيق محمد أحمد دهمان. ط الثانية عام ١٤٠٠هـ.

(٣) تقدم إيضاح معنى هذه الكلمة فى الجزء الأول ص٦٤.

(٤) فى المختصر: «فيالله».

(٥) فى المختصر: «معينان».

البتـة، قالوا: لأنه لو كان كذلك لكان مركبا وكان جسما مؤلفا ولم يكن واحدا من كل وجه، فجعلوه من جنس الجوهر الفرد الذى لا يحس ولا يرى ولا يتميز منـه جانب عن جانب، بل الجوهر الفرد يمكن وجوده، وهذا الواحد الذى جعلوه حقيقة رب العالمين يستحيل وجوده، فلما اصطلحوا على هذا المعنى فى التوحيد وسمعوا قوله: ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾[1] وقوله: ﴿**ومـا من إلـه إلا إلـه واحـد**﴾[2] نزلـوا لفظ القـرآن على هذا المعنى الاصطلاحى، وقالوا: لو كان له صفة أو كلام أو مشيئة أو علم أو حياة، أو قدرة أو سمع أو بصر لم يكن واحدا، وكان مركبا مؤلفا، فسموا أعظم التعطيل بأحسن الأسماء وهو التوحيد وكسوه بثوبه، وسموا أصح الأشياء وأحقهـا بالثبـوت وهـو صفـات الرب ونعوت كماله بأقبح الأسماء، وهو التركيب والتأليف، فتولد من بين هذه التسمية المنكرة للمعنى الصحيح، وتلك التسمية الصحيحـة للمعنى البـاطـل جحـد حقـائق أسماء الرب وصفـاتـه، بل وجحـد ماهيتـه وذاته وتكذيب رسله، ونشأ من نشأ على اصـطلاحهم، مع إعـراضه عن استفادة الهدى والحق من الوحى، فلم يعرف سوى الباطل الذى اصطلحوا عليه فجعله أصلا لدينه، فلما رأى ما جاءت به الرسل يعارضه قال: إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل.

التـوحيـد الثـانى: (تـوحيد)[3] الجهمية، وهو مشتق من توحيد الفلاسفة، وهو نفي صفات الرب كعلمه وكلامه وسمعه وبصره وحياته وعلوه على عرشه، ونفى وجهه ويديه.

وقطب رحى هذا التوحيد جحد حقائق أسمائه وصفاته.

التوحيد الثالث: توحيد القدرية الجبرية، وهو إخراج أفعال العباد أن تكون فعلا لهم، وأن تكون واقعة بكسبهم وإرادتهم، بل هى نفس فعل

---

(١) سورة البقرة/ ١٦٣.

(٢) سورة المائدة/ ٧٣.

(٣) لا توجد فى الأصل، وأثبتها من المختصر.

الله، فهو الفاعل لها دونهم، «و»[1] نسبتها إليهم وأنهم فعلوها ينافى التوحيد عندهم.

التوحيد الرابع: توحيد القائلين بوحدة الوجود، وأن الوجود عندهم واحد، ليس عندهم وجودان، قديم وحديث، وخالق ومخلوق، وواجب وممكن، بل الوجود عندهم واحد بالعين، والذى يقال له الخلق المشبه هو «الحق»[2] المنزه، والكل من عين واحدة بل هو العين الواحدة.

فهذه الأنواع الأربعة سماها أهل الباطل توحيدا، فاعتصموا بالاسم من إنكار المسلمين عليهم، وقالوا: نحن الموحدون، ودعوا الناس إلى الباطل باسم التوحيد، فجعلوه جُنّة وتُرساً ووقاية، وسموا التوحيد الذى بعث الله به رسله وأنبياءه: تركيبا وتجسيما وتشبيها، وجعلوا هذه الألقاب «له»[3] سهاما وسلاحا يقاتلون بها أهله، فتترسوا بها عند أهل الحق من الأسماء الصحيحة، «وقاتلوهم»[4] بالأسماء الباطلة التى سموا بها ما بعث الله به رسوله، فقاتلوهم باسم التركيب والتجسيم والتشبيه، وتترسوا منهم باسم التوحيد والتنزيه، وقد قال جابر فى الحديث الصحيح فى حجة الوداع: فأَهَلّ رسول الله ﷺ بالتوحيد «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[5].

فهذا توحيد الرسول المتضمن لإثبات صفات الكمال التى يستحق عليها الحمد، ولإثبات الأفعال التى «استحق»[6] بها أن يكون منعما،

---

(١) من المختصر.

(٢) فى المختصر: «الخلق».

(٣) فى المختصر: «لهم».

(٤) فى المختصر: «وقابلوهم».

(٥) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبى ﷺ ح(١٢١٨) ٢/٨٨٦. وسنن أبى داود، كتاب المناسك، باب صفة حجة النبى ﷺ، ح(١٩٠٥) ٢/٤٥٥. وسنن ابن ماجة، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ ح(٣٠٧٤) ٢/١٠٢٢. وسنن الدارمى، المناسك، باب فى سنّة الحاج ٢/٤٤.

(٦) فى المختصر: «يستحق».

ولإثبات القدرة والمشيئة والإرادة والتصرف والغضب والرضا والغنا والجود الذى هو حقيقة ملكه، وعند الفلاسفة والجهمية المعطلة لا حمد له فى الحقيقة ولا نعمة ولا ملك، والله يعلم أنا لم نجازف فى نسبة ذلك إليهم، بل هو حقيقة قولهم، فأى حمد لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يتكلم ولا يفعل، ولا هو فى هذا العالم ولا خارج عنه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا فوقه ولا تحته، ولا عن يمينه ولا عن «يساره»[1]؟! وأى نعمة لمن لا يقوم به فعل البتة، وأى ملك لمن لا وصف له ولا فعل؟.

فانظر إلى توحيد الرسل وتوحيد من خالفهم.

ومن العجب أنهم سموا توحيد الرسل شركا وتجسيما وتشبيها مع أنه غاية الكمال، وسموا تعطيلهم «واتحادهم»[2] ونفيهم توحيدا وهو غاية النقص، ثم نسبوا اتباع الرسل إلى «تنقيص»[3] الرب وقد سلبوه كل «كمال»[4] وزعموا أنهم أثبتوا له الكمال وقد نزهوه عنه، فهذا توحيد الملاحدة والجهمية والمعطلة.

وأما توحيد الرسل فهو: إثبات صفات الكمال له سبحانه، وإثبات كونه فاعلا بمشيئته وقدرته واختياره، وأن له فعلا حقيقة، وأنه وحده الذى يستحق أن يعبد ويخاف ويرجى ويتوكل عليه، فهو المستحق لغاية الحب بغاية الذل، وليس لخلقه من دونه وكيل ولا ولى ولا شفيع، ولا واسطة بينه وبينهم فى رفع حوائجهم إليه، وفى تفريج كرباتهم وإغاثة لهفاتهم وإجابة دعواتهم، وبينه وبينهم واسطة فى تبليغ أمره ونهيه «وخبره»[5] إليهم، فلا يعرفون ما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه، ولا حقائق أسمائه، وتفصيل ما يجب له ويمتنع عليه ويوصف به إلا من جهة هذه الواسطة، فجاء هؤلاء

---

(١) فى الأصل: «يسرته» وما أثبت من المختصر.

(٢) فى المختصر: «وإلحادهم».

(٣) فى الأصل: «نقص» والتصحيح من المختصر.

(٤) من المختصر، وفى الأصل: «جمال».

(٥) فى المختصر: «وأخباره».

الملاحدة فعكسوا الأمر وقلبوا الحقائق فنفوا كون الرسل وسائط في ذلك وقالوا: يكفي توسط العقل، ونفوا حقائق أسمائه وصفاته، وقالوا: هذا التوحيد، فهذا توحيدهم وهذا إيمانهم بالرسل، ويقولون: نحن ننزه «الله»(١) عن الأعراض والأغراض والأبعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث، فيسمع الغر المخدوع هذه الألفاظ فيتوهم منها أنهم ينزهون الله عما يفهم من معانيها عند الإطلاق من العيوب والنقائض والحاجة، فلا يشك أنهم يمجدونه ويعظمونه، ويكشف الناقد البصير ما تحت هذه الألفاظ، فيرى تحتها الإلحاد وتكذيب الرسل وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله.

«فتنزيهه»(٢) عن الأعراض هو جحد صفاته، كسمعه وبصره وحياته وعلمه «وكلامه»(٣) وإرادته، فإن هذه أعراض لا تقوم إلا بجسم، فلو كان متصفاً بها لكان جسما وكانت أعراضاً له وهو منزه عن الأعراض.

وأما الأغراض فهي الغاية والحكمة التي لأجلها يفعل ويخلق، ويأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، وهي الغايات المحمودة المطلوبة له من أمره ونهيه وفعله، فيسمونها عللا وأغراضا ثم ينزهونه عنها.

وأما الأبعاض فمرادهم بتنزيهه عنها: أنه ليس له وجه ولا يدان ولا يمسك السموات على أصبع والأرض على أصبع والشجر على أصبع والماء على أصبع(٤)، فإن ذلك كله أبعاض والله منزه عن الأبعاض.

---

(١) لا يوجد في الأصل، وأثبته من المختصر.

(٢) في المختصر: «فتنزيههم».

(٣) في المختصر: «كماله».

(٤) في حديث عبد الله بن مسعود أن رجلا من أهل الكتاب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد، أو يارسول الله، إن الله جعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال والشجر على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيهزهن فيقول: أنا الملك، قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر». متفق عليه. انظر: صحيح البخاري مع شرحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾ ح(٧٤١٤) ١٣/٣٩٣. وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين ح(٢٧٨٦) ٤/٢١٤٧.

وأما الحدود والجهات فمرادهم بتنزيهه عنها : أنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش إله ، ولا يشار إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه أعلم الخلق به[1]، ولا ينزل منه شيء ، ولا يصعد إليه شيء ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه ، ولا رفع المسيح إليه ، ولا عرج برسوله محمد ﷺ إليه ، إذ لو كان «ذلك» [2] لزم إثبات الحدود والجهات له ، وهو منزه عن ذلك .

وأما حلول الحوادث فيريدون به : أنه لا يتكلم بقدرته ومشيئته ، ولا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، ولا يأتى يوم القيامة ، ولا يجيء ، ولا يغضب بعد أن كان راضيا ، ولا يرضى بعد أن كان غضبان ، ولا يقوم به فعل البته ، ولا أمر مجدد بعد أن لم يكن ، ولا يريد شيئا بعد أن لم «يكن»[3] مريدا له ، ولا يقول له : كن حقيقة ، ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا عليه ، ولا يغضب يوم القيامة غضبا لم «يغضب»[4] قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله[5]، ولا ينادى عباده يوم القيامة بعد أن لم يكن مناديا لهم ، ولا يقول للمصلى إذا قال ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ حمدنى عبدى ، فإذا قال ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ قال أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال ﴿**مالك يوم**

---

(١) كما فعل عليه الصلاة والسلام حين خطب الناس يوم عرفه فى حجة الوداع ، فقد ورد فى حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبى ﷺ ، الذى تقدم تخريجه ص٦٠٨ أن رسول الله ﷺ قال : « . . . وأنتم مسؤولون عنى ، فما أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، ثم قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها ـ وفى رواية ينكتها ـ إلى الناس «اللهم أشهد ، اللهم أشهد» ثلاث مرات .

(٢) فى المختصر : «كذلك» .

(٣) فى الأصل : «يكون» والتصحيح من المختصر .

(٤) فى الأصل : «يغضبه» والتصحيح من المختصر .

(٥) كما فى حديث الشفاعة عن أبى هريرة ، رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه**﴾ ح(٣٣٤٠) ٦/ ٣٧١ ، وكتاب التفسير ، ح(٤٧١٢) ٨/ ٣٩٥ . ومسلم فى كتاب الإيمان ، «باب أدنى أهل الجنة منزلة» ح(١٩٤) ١/ ١٨٤ ، والترمذى فى كتاب القيامة ، باب ما جاء فى الشفاعة ح(٢٤٣٤) ٤/ ٦٢٢ ، وأحمد فى المسند ٢/ ٤٣٥ .

الدين﴾ قال مجدنى عبدى[1] فإن هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث.

وبعضهم يختصر العبارة ويقول: أنا أنزهه عن التعدد والتحدد والتجدد، فيتوهم السامع الجاهل بمراده أنه ينزهه عن تعدد الآلهة، وعن تحدد محيط به حدود وجودية تحصره وتحويه، كتحدد البيت ونحوه، وعن تجدد إلهيته وربوبيته.

ومراده بالتعدد الذى نزه عنه: تعدد أسمائه وصفاته، وأنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يتكلم. ومراده بالتحدد: أنه ليس فوق خلقه، ولا هو مستو على عرشه، ولا فوق العرش إله يعبد، وليس فوق العرش إلا العدم. ومراده بالتجدد: أنه لا يقوم به فعل ولا إرادة ولا كلام بمشيئته وقدرته.

وبعضهم يقتصر على حرفين فيقول: نحن ننزهه عن التكثر والتغير، فيتوهم السامع تكثر الآلهة، وتغيره سبحانه، واستحالته من حال إلى حال، وحقيقة هذا التنزيه أنه لا صفة له ولا فعل.

وكذلك قول الجهمية[2]: نحن نثبت قديما واحدا، ومثبتوا الصفات يثبتون عدة قدماء، قال: والنصارى أثبتوا قدماء مع الله «بكفرهم»[3]، فكيف من أثبت «سبعة»[4] قدماء أو أكثر؟. فانظر إلى هذا التلبيس والتدليس الذى يوهم السامع أنهم أثبتوا قدماء مع الله، وإنما أثبتوا قديما واحدا بصفاته، وصفاته داخلة فى مسمى اسمه، «كما أنهم»[5] إنما أثبتوا

---

(1) رواه مسلم فى كتاب الصلاة من حديث أبى هريرة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ح(٣٩٥) ١/٢٩٦، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة فى صلاته بفاتحة الكتاب، ح(٨٢١) ١/٥١٢. والترمذى، كتاب التفسير «باب ومن سورة فاتحة الكتاب» ح(٢٩٥٣) ٥/٢٠١. وابن ماجة، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، ح(٣٧٨٤) ٢/١٢٤٣، ومالك فى الموطأ، كتاب الصلاة، باب القراءة خلف الإمام ح(٣٩) ١/٨٤. وأحمد فى المسند ٢/٢٤١.

(2) فى المختصر: «وقالت الجهمية».

(3) فى المختصر: «فكفرهم».

(4) فى الأصل: «سمعه» والتصحيح من المختصر.

(5) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل، وأثبته من المختصر.

إلها واحدا ولم يجعلوا كل صفة من صفاته إلها، بل هو الإله الواحد بجميع أسمائه وصفاته، وهذا بعينه متلقى «عن»[١] عبّاد الأصنام، المشركين بالله، المكذبين لرسوله حيث قالوا: يدعو محمد إلى إله واحد ثم يقول: يا الله يا رحمن، يا سميع، يا بصير فيدعوا آلهة متعددة[٢] فأنزل الله عز وجل: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** [٣] **أى إنكم إنما «تدعون»**[٤] إلها واحداً له الأسماء الحسنى، فأى اسم دعوتموه فإنما دعـوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر سبحانه أنه إله واحد وإن تعددت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته، ولهذا كانت حسنى، وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله أسماء محضة فارغة من المعانى ليس لها حقائق لم تكن حسنى، ولكانت أسماء الموصوفين بالصفات والأفعال أحسن منها، «فنزلت»[٥] الآية على توحيد الذات وكثرة النعوت والصفات.

ومن ذلك قول هؤلاء المعطلة: أخص صفات الإله: القديم، فإذا أثبتم «معه»[٦] صفات قديمة لزم أن تكون آلهة، فلا يكون الإله واحدا، بل يكون لكم آلهة متعددة، فيقال لهؤلاء المدلسين الملبسين على أمثالهم من اشباه الأنعـام: المحـذور الـذى نفاه العقل والشرع والفطرة، وأجمعت الأنبياء من أولهم إلى آخرهم على بطلانه، أن يكون مع الله آلهة أخرى، لا أن يكون إله العالمين الواحد القهار حياً قيوما سميعا بصيرا متكلما، آمراً ناهيا، فوق عرشه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، فلم ينف العقل والشرع والفطرة أن يكون للإله الواحد صفات كمال ونعوت جلال يختص

---

(١) فى المختصر: «من».

(٢) انظر: تفسير الطبرى ١٨٢/١٥، وتفسير ابن كثير ١٢٦/٥، والدر المنثور للسيوطى ٣٤٨/٥.

(٣) سورة الإسراء/ ١١٠.

(٤) فى الأصل: «توعدون»، ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) فى المختصر: «فدلت».

(٦) فى المختصر: «له».

بها لذاته، فلبستم على المخدوعين المغرورين، وأوهمتموهم أنه لو كان فوق عرشه موصوفا بصفات الكمال، يرى بالأبصار عيانا يوم القيامة، لم يكن إلها واحدا، وكان هناك آلهة متعددة، وقدماء متغايرة، وأعراض وأبعاض، وحدود وجهات، وتكثر وتغير، وتحدد وتجرد وتجسيم وتشبيه وتركيب، وأكثر الناس إذا سمعوا هذه الألفاظ نفرت عقولهم من مسماها، ونبت أسماعهم عنها، وقد علم المؤمنون المصدقون للرسول، العارفون بالله وصفاته وأسمائه، أنكم توسلتم بها إلى نفى صفاته وأفعاله وحقائق أسمائه، فلم يرفعوا بها رأسا، ولم يروا لها حرمة، ولم يرقبوا فيها ذمة، وغرق ضعاف العقول الجاهلين بحقائق الإيمان، فضلوا بها وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

فلفظ الجسم لم ينطق به الوحى إثباتا فتكون له حرمة الإثبات، ولا نفيا فيكون له «الغا»[(١)] النفى، فمن أطلقه نفيا أو إثباتا سئل عما أراد به[(٢)]، فإن قال: أردت بالجسم معناه فى لغة العرب، وهو البدن الكثيف الذى لا يسمى فى اللغة جسم سواه، فلا يقال للهواء جسم لغة، ولا للنار

---

(١) هكذا فى الأصل، ولعل الصواب: «حكم».

(٢) يرى السلف وجوب التقيد بالألفاظ الشرعية الواردة فى حق الله تعالى، وما أطلقه المبتدعة من الألفاظ المجملة التى لم يرد بها نص شرعى وكانت تشتمل على معنى صحيح ومعنى فاسد فإنه لا يجوز إطلاقها نفيا ولا إثباتا، بل يستفصل عن المراد، فيثبت منه ما صح مما يتفق مع الأدلة الشرعية، وينفى ما سواه، مثل لفظ الجسم الذى أشار إليه المصنف هنا، ولفظ الجوهر، والتحيز، والجهة ونحوها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «أما الشرع فليس فيه ذكر هذه الأسماء فى حق الله، لا بنفى ولا إثبات، ولم ينطق أحد من سلف الأمة وأئمتها فى حق الله تعالى بذلك، لا نفيا ولا إثباتاً، بل قول القائل: أن لله جسم أو ليس بجسم، أو جوهر أو ليس بجوهر، أو متحيز أو ليس بمتحيز، أو فى جهة أو ليس فى جهة، أو تقوم به الأعراض والحوادث أو لا تقوم به، ونحو ذلك. كل هذه الأقوال محدثة بين أهل الكلام المحدث، لم يتكلم السلف والأئمة فيها لا بإطلاق النفى ولا بإطلاق الإثبات، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام الذين يتكلمون بمثل هذا النوع فى حق الله تعالى نفيا وإثباتا». درء التعارض: ١/ ٢٣٩.

ولا للماء، فهذه اللغة وكتبها بين أظهرنا، فهذا المعنى منفى عن الله عقلا وسمعا. وإن أردتم به المركب من المادة والصورة، أو المركب من الجواهر «المفـردة»[1]، فهـذا منفى عن الله قطعا، والصواب نفيه عن الممكنات أيضـا، فليس الجسم المخلوق مركبـا من هذا ولا من هذا، وإن أردتم بالجسم ما يوصف بالصفات، ويرى بالأبصار، ويتكلم ويكلم، ويسمع ويبصر، ويرضى ويغضب، فهذه المعانى ثابتة للرب تعالى، وهو موصوف بها، فلا ننفيهـا عنـه بتسميتكم للمـوصوف بها جسما، كما أنّا لا نسب الصحابة لأجل تسمية الروافض لمن يحبهم ويواليهم نواصب، ولا ننفى قدر الرب ونكذب به لأجل تسمية القدرية لمن أثبته جبريا، ولا نرد ما أخبر به الصـادق عن الله وأسـمائـه وصفاته وأفعاله لتسمية أعداء الحديث لنا حشوية، ولا نجحد صفات خالقنا وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه لتسمية الفرعونية[2] المعطلة لمن أثبت ذلك مجسما مشبها.

فإن كان تجسيما ثبــوت استـوائـه على عرشـــه «إنى»[3] إذاً لمجسم
وإن كان تشبيهـا ثبـوت صفـاتـه فمـن ذلــك الـتـشـبيه لا أتكتم
وإن كان تنـزيهـا جحـود استـوائه وأوصـــافــه أو كونــه يتــكــلم
فعن ذلــك التنــزيه نزهت ربنـا بتـــوفـيقــه والله أعــلى وأعــظم

«ورضى الله عن»[4] الشافعى حيث فتح للناس هذا الباب فى قوله:

يا راكبـــا قف بالمحصب من منى واهتف بقـاعـد خيفهـا والناهض
إن كان رفـضـــا حب آل محمــد فليشهـد الثقـلان أنى رافضى[5]

---

(١) فى المختصر: «الفردة».
(٢) راجع إيضاح هذه النسبة فى الجزء الأول ص١٠٨.
(٣) فى الأصل: «أنا» والتصحيح من المختصر.
(٤) فى المختصر: «ورحمة الله على».
(٥) انظر: ديوان الإمام الشافعى ص٧٣ ـ جمع نعيم زرزور، نشر دار الكتب بيروت ـ لبنان.

ورضى الله عن شيخنا إذ يقول:

فان كان نصباً ولاء الصحاب فإني كما زعموا ناصبي
وإن كان رفضا ولاء إلـه فلا برح الرفض من جانبى[1]

وهذا كله مأخوذ من قول الأول: [2]

وعيرنى الواشون أنى أحبها وذلك ذنب لست منه أتوب[3]

وقول الآخر:

فإن كان ذنبى حبكم وولاؤكم فإنى مصر ما بقيت على الذنب[4]

وإن أردتم بالجسم ما يشار إليه إشارة حسيّة فقد أشار إليه أعرف الخلق به بأصبعه رافعا «لها»[5] إلى السماء «يشهد»[6] الجمع الأعظم مستشهدا له لا للقبلة، «أو»[7] أردتم بالجسم ما يقال: أين هو؟ فقد سأل أعلم الخلق به عنه بأين[8]، منبها على علوه على عرشه، وسمع السؤال

(١) راجع درء التعارض ١/ ٢٤٠.
(٢) فى المختصر: «كأنه مأخوذ من قول الشاعر الأول».
(٣) لم أعثر على قائله.
(٤) لم أجد اسم قائله.
(٥) فى المختصر: «بها».
(٦) فى المختصر: «بمشهد».
(٧) فى المختصر: «وإن».
(٨) كما فى قصة الجارية، ففى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمى قال: كانت لى غنم بين أحد والجوانيّة فيها جارية لى، فاطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة، وأنا من بنى آدم آسف كما يأسفون، فرفعت يدى فصككتها صكة، فأتيت النبى ﷺ فذكرت له ذلك، فعظم ذلك علىّ، فقلت: يارسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: أدعها، فدعوتها، قال: فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله؟، قالت: فى السما، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال رسول الله ﷺ: أعتقها فإنها مؤمنة». مسلم، كتاب المساجد ح(٥٣٧) ١/ ٣٨٢. وأبو داود، كتاب الصلاة ح(٩٣٠) ١/ ٥٧٠. وابن أبى عاصم فى كتاب السنة ح(٤٨٩) ١/ ٢١٥، والنسائى كتاب السهو ١٣/٣، ومالك فى الموطأ، كتاب العتق والولاء ٢/ ٧٧٦. وانظر: تعليقى على هذا الحديث فى كتاب إثبات صفة العلو لابن قدامة ح رقم(٢).

بأين وأجاب عنه[1]، ولم يقل: هذا السؤال إنما يكون عن الجسم، وإن أردتم بالجسم ما يلحقه (من وإلى) فقد نزل جبريل من عنده، ونزل كلامه من عنده، وعرج برسوله إليه، وإليه يصعد الكلم الطيب، وعبده المسيح رفع إليه. وإن أردتم بالجسم ما يتميز منه أمر «عن» [2] أمر فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال جميعها، من السمع والبصر والعلم والقدرة والحياة، وهذه صفات متميزة متغايرة، ومن قال: إنها صفة واحدة فهو بالمجانين أشبه منه بالعقلاء، وقد قال أعلم الخلق به: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك»[3] والمستعاذ به غير المستعاذ منه.

وأما استعاذته ﷺ به منه فباعتبارين مختلفين، فإن الصفة المستعاذ بها والصفة المستعاذ منها صفتان لموصوف واحد ورب واحد، فالمستعيذ بإحدى الصفتين من الأخرى مستعيذ من الموصوف بهما منه.

وإن أردتم بالجسم ما له وجه ويدان، وسمع وبصر، فنحن نؤمن بوجه ربنا الأعلى وبيديه وبسمعه وبصره، وغير ذلك من «صفاته» [4] التي أطلقها على نفسه، وإن أردتم بالجسم ما يكون فوق غيره ومستويا على غيره، فهو سبحانه فوق عباده مستو على عرشه، وكذلك إن أردتم بالتشبيه والتركيب هذه المعاني التي دل عليها الوحي والعقل، فنفيكم لها بهذه

---

(١) لعله يشير إلى حديث أبي رَزين وفيه: قلت يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء». رواه أحمد في المسند ٤/١١، ١٢. والترمذي، كتاب التفسير، باب «ومن سورة هود» ح(٣١٠٩) ٥/٢٨٨، وابن ماجة في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ح(١٨٢) ١/٦٤.

(٢) في الأصل: «عين» وفي المختصر: «غير» ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح(٤٨٦) ١/٣٥٢، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود، ح(٨٧٩) ١/٥٤٧، والترمذي في الدعوات، ح(٣٤٩٣) ٥/٥٢٤، وح(٣٥٦٦) ٥/٥٦٠، وابن ماجة في الإقامة، باب ما جاء في القنوت في الوتر ح(١١٧٩) ١/٣٧٣.

(٤) في الأصل: «صفات» والتصحيح من المختصر.

الألقاب المنكرة خطأ فى اللفظ والمعنى، وجناية على ألفاظ الوحى والعقل وحقائق صفات الرب.

أما الخطأ اللفظى فتسميتكم الموصوف بذلك جسما مركبا مؤلفا مشبهـا لغيره، وتسميتكم هذه الصفات تجسيما وتركيبا وتشبيها، فكذبتم على القرآن وعلى الرسول وعلى اللغة، ووضعتم لصفاته ألفاظا منكم بدأت وإليكم تعود.

وإما خطؤكم فى المعنى فنفيكم وتعطيلكم لصفات كماله بواسطة هذه التسمية والألقاب، فنفيتم المعنى الحق، وسميتموه بالاسم المنكر، وكنتم فى ذلك بمنزلة من سمع أن فى العسل شفاء ولم يره، فسأل عنه فقيل له: مائع رقيق أصفر شبه العذرة تتقيؤه الزنانير، ومن لم يعرف العسل ينفر عنه بهذا التعريف، ومن عرفه وذاقه لم يزده هذا التعريف عنده إلا محبة له ورغبة فيه، «وما أحسن ما قال القائل»:[1]

تقول هذا جناء النحل تمدحه وان تشـأ قلت ذا قىء الزنابير
مدحا وذما ما جاوزت وصفهما والحق قد يعـتريه سوء تعبير[2]

وأشد ما «حاول»[3] أعداء الرسول «من»[4] التنفير عنه سوء التعبير عن ما جاء به، وضرب الأمثال القبيحة له، والتعبير عن تلك المعانى التى لا أحسن منها بألفاظ منكرة ألقوها فى مسامع المغترين المخدوعين، فوصلت إلى قلوبهم فنفرت «منه»[5] وهذا شأن كل مبطل، وكل من يكيد الحق وأهله هذه طريقه ومسلكه، وأكثر العقول كما عهدت تقبل القول بعبارة وترده بعينه بعبارة أخرى، وكذلك إذا قال الفرعونى: لو كان فوق السموات رب

(١) فى المختصر: «ولله در القائل».
(٢) لم أتمكن من معرفة قائله.
(٣) فى المختصر: «جادل».
(٤) فى المختصر: «فى».
(٥) فى المختصر: «عنه».

أو على العرش إله لكان مركبا، قيل له: لفظ المركب فى اللغة هو الذى ركبه غيره فى محله، كقوله تعالى: ﴿فى أى صورة ما شاء ركبك﴾[1] وقولهم: ركبت الخشبة والباب. «أو ما تركب»[2] من «أخلاط»[3] وأجزاء بحيث كانت أجزاؤه متفرقة فاجتمعت وركبت حتى صار شيئا واحدا كقولهم: ركبت الدواء وركبت الطعام من كذا وكذا، فإن أردتم بقولكم: لو كان فوق العرش كان مركبا هذا التركيب المعهود، أو أنه كان متفرقا فاجتمع، فهو كذب وفرية وبهت على الله وعلى الشرع وعلى العقل، وإن «أردتم»[4] أنه لو كان فوق «عرشه»[5] لكان عاليا على خلقه بائنا منهم مستويا على عرشه ليس فوقه شىء، فهذا المعنى حق، «وكأنك»[6] قلت: لو كان فوق العرش لكان فوق العرش، فنفيت الشىء بتغيير العبارة عنه وقلبها إلى عبارة أخرى، وهذا شأنكم فى أكثر مطالبكم.

وإن أردت بقولك كان مركبا أنه يتميز منه شىء عن شىء، فقد وصفته أنت بصفات يتميز بعضها عن بعض، فهل كان هذا عندك تركيبا؟ فإن قلت: هذا لا يقال لى وإنما يقال لمن أثبت شيئا من الصفات، و«أما»[7] أنا فلا أثبت له صفة واحدة فرارا من التركيب، قيل لك: العقل لم يدل على نفى المعنى الذى سميته أنت تركيبا، وهبك سميته «تركيبا»[8] وقد دل العقل والوحى والفطر على ثبوته، أفتنفيه لمجرد تسميتك الباطلة؟! فإن التركيب يطلق ويراد به «خمسة»[9] معان:

(١) سورة الإنفطار/ ٨.
(٢) فى المختصر: «وما يركب».
(٣) فى الأصل: «اختلاط» والتصحيح من المختصر.
(٤) فى الأصل: «أردت» وما أثبت من المختصر.
(٥) فى المختصر: «العرش».
(٦) فى المختصر: «فكأنك».
(٧) فى المختصر: «فأما».
(٨) فى المختصر: «مركبا».
(٩) فى الأصل: «خمس» والتصحيح من المختصر.

الأول : تركيب الذات من الوجود والماهية عند من يجعل وجودها زائدا على ماهيتها، فإذا نفيت هذا التركيب جعلته وجودا مطلقا إنما هو فى الأذهان، لا وجود له فى الأعيان.

الثانى : تركيب الماهية من الذات والصفات، فإذا نفيت هذا التركيب جعلته ذاتا مجردة عن كل وصف، لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم، ولا يقدر، ولا يريد، ولا له حياة، ولا مشيئة، ولا صفة أصلا، فكل ذات فى المخلوقات «أكمل»(١) من هذه الذات، «فاستفدت بنفيك هذا التركيب»(٢) كفرك بالله وجحدك لذاته وصفاته وأفعاله، فكان اسم التركيب ملقيا لك فى أعظم الكفر، وموجبا لك أشد التعذيب.

الثالث : تركيب الماهية الجسمية من الهيولى والصورة كما يقول الفلاسفة.

الرابع : تركيبها من الجواهر الفردة كما يقوله كثير من أهل الكلام.

الخامس : تركيب الماهية من أجزاء كانت متفرقة فاجتمعت وتركبت، فإن أردت بقولك : لو كان فوق العرش لكان مركبا «كما»(٣) تدعيه الفلاسفة والمتكلمون قيل لك : جمهور العقلاء عندهم أن الأجسام المحدثة المخلوقة ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا، فلو كان فوق العرش جسم مخلوق «محدث»(٤) لم يلزم أن يكون مركبا بهذا الاعتبار، فكيف يلزم ذلك فى حق خالق المفرد والمركب الذى يجمع المتفرق ويفرق المجتمع ويؤلف بين الأجزاء فيركبها كما يشاء؟.

والعقل «إنما»(٥) دل على إثبات إله واحد ورب واحد لا شريك له

---

(١) فى المختصر : «خير».

(٢) فى المختصر : «فاستفدت بهذا التركيب».

(٣) فى الأصل : «ما» والتصحيح من المختصر.

(٤) فى المختصر : «أو محدث».

(٥) فى المختصر : «لما».

ولا شبيه له «لم يلد ولم يولد»[1] ولم يدل على أن ذلك الرب الواحد لا اسم له، ولا صفة له ولا وجه ولا يدين، وهو فوق خلقه، ولا يصعد إليه شيء، ولا ينزل منه شيء، فدعوى ذلك على العقل كذب صريح عليه، كما هى كذب صريح على الوحى، وكذلك قولهم: ننزهه عن الجهة، إن أردتم أنه منزه عن جهة وجودية تحيط به وتحويه وتحصره إحاطة الظرف للمظروف وحصره له فنعم هو أعظم من ذلك وأكبر وأعلى، ولكن لا يلزم من كونه فوق عرشه هذا المعنى.

وإن أردتم بالجهة أمراً يوجب مباينة الخالق للمخلوق وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه فنفيكم لهذا المعنى باطل، وتسميتكم له جهة اصطلاح منكم توسلتم به إلى نفى ما دل عليه العقل والنقل والفطرة، فسميتم ما فوق العالم جهة وقلتم: منزه عن الجهات، وسميتم العرش حيزا وقلتم: الرب ليس بمتحيز، وسميتم الصفات أعراضا وقلتم: الرب منزه عن قيام الأعراض به، وسميتم حكمته غرضا وقلتم: إنه منزه عن الأغراض، وسميتم كلامه بمشيئته، ونزوله إلى سماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء، وإرادته ومشيئته المقارنة «لمراده»[2] وإدراكه المقارن لوجود المدرك، وغضبه إذا عصى، ورضاه إذا أطيع، وفرحه إذا تاب إليه العباد، ونداه لموسى حين أتى إلى الشجرة، ونداه للأبوين حين أكلا من الشجرة فى الجنة، ونداه لعباده يوم القيامة، ومحبته لمن كان يبغضه فى حال كفره ثم صار يحبه بعد إيمانه، وسميتم شئون ربوبيته التى هو «بها»[3] كل يوم فى شأن منها حوادث، وقلتم: «الرب»[4] منزه عن حلول الحوادث، وحقيقة هذا التنزيه أنه منزه عن الوجود، وعن الإلهية، وعن الربوبية، وعن

(١) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل، وأثبتّه من المختصر.
(٢) فى المختصر: «لمرادها».
(٣) من المختصر.
(٤) فى المختصر: «هو».

الملك، وعن كونه فعالا لما يريد، بل عن الحياة والقيومية، ولا يتقرر كونه ربا للعالمين وإلها للعباد إلا بالتنزيه عن هذا التنزيه، والإجلال عن هذا الإجلال. فانظر ماذا تحت تنزيه المعطلة النفاة بقولهم: ليس بجسم ولا جوهر ولا مركب، ولا تقوم به الأعراض، ولا يوصف بالأبعاض، ولا يفعل «الأغراض»[1]، ولا تحله الحوادث، ولا تحيط به الجهات، ولا يقال فى حقه أين، وليس بمتحيز، كيف كسوا حقائق أسمائه وصفاته وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه وتكليمه «لعباده»[2] ورؤيتهم له بالأبصار فى دار كرامته هذه الألفاظ، ثم توسلوا إلى نفيها بواسطتها، وكفّروا وضلّلوا من أثبتها، واستحلوا منه ما لم يستحلوه من أعداء الله من اليهود والنصارى، «فالله»[3] الموعد «وإليه الملجأ»[4] وإليه التحاكم وبين يديه التخاصم.

ونحن وإياهم نمـوت ولا ... أفلح عنـد الحساب من ندما

---

(١) في المختصر: «بالأغراض»، ولعل الصواب: «الأغراض».

(٢) فى المختصر: «لخلقه».

(٣) فى المختصر: «فإلى الله».

(٤) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل، وأثبتّه من المختصر.

« فصـــــل »

ومن ذلك لفظ العدل جعلته القدرية اسما لإنكار قدرة الرب على أفعال عباده وخلقه لها ومشيئته، فجعلوا إخراجها عن قدرته ومشيئته وخلقه هو «العدل»[1] وجعل سلفهم إخراجها عن تقدم علمه وكتابته من العدل، وسموا أنفسهم بالعدلية. وعمدوا إلى إثبات عموم قدرته على كل شيء من الأعيان والأفعال، وخلقه لكل شيء، وشمول مشيئته له، فسموه جبرا، ثم نفوا هذا المعنى الصحيح وعبروا عنه بهذا الاسم المنكر، وأثبتوا ذلك المعنى الباطل وعبروا عنه بالاسم المعروف، ثم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد[2]، وسموا من أثبت صفات الرب، وأثبت قدره وقضاءه أهل التشبيه والجبر، وكذلك فعل الرافضة سواء، موالاة الصحابة نصبا ومعاداتهم موالاة لأهل بيت رسول الله ﷺ، وكذلك المرجئة[3] سموا من قال في الإيمان بقول الصحابة والتابعين واستثنى فيه فقال: أنا مؤمن إن شاء الله - شكاكا[4]، وهذا شأن كل مبتدع وملحد، وهذا ميراث من

---

(١) فى الأصل: «العقل» والتصحيح من المختصر.

(٢) هم المعتزلة، ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية والعدْلية، والعدل والتوحيد أصلان من أصولهم التى اتفقوا عليها، ويعنون بالتوحيد نفى الصفات، وبالعدل إسناد أفعال العباد إلى قدرهم، وإنكارهم القدر فيها موافقة لرأى معبد الجهنى وغيلان الدمشقى، وهما أول من تكلم فى القدر. انظر: الملل والنحل ١/ ٤٣، والفرق بين الفرق ص١١٤.

(٣) تقدم التعريف بهم فى الجزء الأول ص٢٧٧.

(٤) ذهب المرجئة إلى القول بأن الإيمان هو مجرد المعرفة والتصديق بالقلب، ويرون أن أهله لا يتفاضلون فيه، فلا يرون القول بزيادة الإيمان ونقصانه كما هو مذهب السلف وكما تدل عليه الأدلة من الكتاب والسنّة والعقل، وبناء على هذا قالوا بكمال إيمان من تحققت فيه المعرفة القلبية، ولم يفرقوا فى ذلك بين المطيع والعاصى لأن الكل عندهم فى كمال الإيمان سواء، فلا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وبناء على هذا قالوا: بعدم جواز الاستثناء فى الإيمان، لأن الإيمان شىء واحد وأهله فى أصله سواء، والمستثنى شاك فى إيمانه. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادى ص٢٠٢، ولوامع الأنوار البهية للسفارينى ١/ ٤٢، ونهاية الأقدام فى علم الكلام للشهرستانى ص٤٧١، وفتاوى ابن تيمية ٧/ ٤٢٩. =

تسمية كفار قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه الصبيان، وصار هذا ميراثا منهم لكل مبطل وملحد ومبتدع يلقب الحق وأهله بالألقاب الشنيعة المنفّرة، فإذا أطلقوا لفظ الجسم صوروا فى ذهن السامع «جثة من الجثث الكثيفة»[1]، أو بدنا له حامل يحمله، ، وإذا قالوا: مركباً، صوروا فى ذهنه أجزاء متفرقة فركبها مركب، وهذا حقيقة المركب لغة وعرفا، فإذا قالوا: يلزم أن تحله الحوادث، صوروا فى ذهنه ذاتا «تعتور»[2] عليها الآفات وحوادث الزمان، وإذا قالوا: لا تقوم به الأعراض صوروا فى الذهن ذاتا تنزل بها الأعراض النازلة بالمخلوقين، كما مثل النبى ﷺ ابن آدم وأمله وأجله، والأعراض إلى جانبه، إن أخطأه هذا أصابه هذا[3].

وإذا قالوا: يقولون بالحيز والجهة، صوروا فى الذهن موجودا محصورا بالأحياز، وإذا قالوا: لزم «الجبر»[4] صوروا فى الذهن قادراً ظالما يجبر الخلق على ما لا يريدون، ويعاقبهم على ما لا يفعلون، وإذا قالوا: أنتم نواصب

= أما مذهب السلف فهو القول بجواز الاستثناء فى الإيمان، لا عن شك فى المعتقد، وإنما هو لأجل تجنب تزكية النفس بما يوهم استكمال الإيمان، وتزكية النفس منهى عنها كما فى قوله تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ النجم/ ٣٢.

والعمل ركن فى الإيمان ـ عند السلف ـ والأعمال كثيرة فلا يدرى الإنسان لعله قصر فى بعضها، والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فالاستثناء إنما يكون فى الإيمان من حيث الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان، لا فى القول، ولا فى التصديق القلبى. انظر: الشريعة للآجرى ص١٣٦، وكتاب الإيمان لابن تيمية ص٣٧٤.

(١) فى المختصر: «خشبة من الخشب الكثيف».

(٢) تعتور: تختلف وتتناوب. انظر: اللسان مادة «عور».

(٣) يشير بهذا إلى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خط النبى ﷺ خطا مربعا وخط خطا فى الوسط خارجا منه، وخط خططا صغارا إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذى هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا». البخارى، الرقاق، باب فى الأمل وطوله ح(٦٤١٧) ١١/ ٢٣٥. والدارمى، رقاق، باب فى الأمل والأجل ٢/ ٣٠٤. وابن ماجة، كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، ح(٤٢٣١) ٢/ ١٤١٤. ومسند أحمد ١/ ٣٨٥.

(٤) فى الأصل وفى المختصر: «الحيز» ولعل الصواب ما أثبت لدلالة السياق عليه.

صوروا فى الذهن قوما نصبوا العداوة لآل رسول الله ﷺ وأهل بيته واستحلوا حرماتهم، وإذا قالوا لمن قال: أنا مؤمن إن شاء الله شكاكا صوروا فى الذهن قوما يشكون فى الإيمان بالله وملائكته ورسوله ولقائه لا يجزمون بذلك، وإذا قالوا لمن أثبت الصفات: إنه مشبه، صوروا فى الذهن قوما يقولون إن الله مثلهم، وله وجه كوجوههم، وسمع كأسماعهم، وبصر كأبصارهم، ويدان كأيديهم، ونزول كنزولهم واستواء كاستوائهم، وفرح كفرحهم، وإذا قالوا: حشوية صوروا فى «ذهن»[١] السامع قوما قد حشوا فى الدين ما ليس منه، وأدخلوه فيه، وهو حشو لا أصل له. فتنفر القلوب من هذه الألقاب وأهلها، ولو ذكروا حقيقة «قولهم»[٢] لما قبلت «العقول»[٣] السليمة والفطر المستقيمة سواه، والله يعلم وملائكته ورسله وهم أيضا أنهم براء من هذه المعانى الباطلة، وأنهم أبعد الخلق منها، وأن خصومهم جمعوا بين أذى الله ورسوله بتعطيل صفاته، وبين أذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقعدوا تحت قوله: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا**﴾[٤] أفيظن الجاهلون أنّا نجحد صفات ربنا وعلوه على خلقه، واستواءه على عرشه، وتكلمه بالقرآن العزيز، وتكليمه لموسى حقيقة كلاما أسمعه إياه بغير واسطة، وننكر سمعه وبصره وعلمه وقدرته وحياته وإرادته ووجهه الكريم ويديه اللتين كلتا يديه يمين، اللتين يقبض سمواته بإحداهما والأرض بالأخرى، ورؤية وجهه الكريم فى جنات عدن، ومحبته ورضاه، وفرحه بتوبة التائبين، ونزوله إلى سماء الدنيا حين يمضى شطر الليل، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق لأسماء سموها هم وسلفهم ما أنزل الله بها من سلطان، وألقاب

---

(١) فى الأصل: «الذهن» والتصحيح من المختصر.

(٢) فى الأصل: «كقولهم» والتصحيح من المختصر.

(٣) فى المختصر: «القلوب».

(٤) سورة الأحزاب/ ٥٧-٥٨.

وضعوها من تلقاء أنفسهم لم يأت بها سنّة ولا قرآن، وشبهات قذفت بها قلوب ما استنارت بنور الوحى، ولا خالطتها بشاشة الإيمان، وخيالات هى بتخيلات الممرورين وأصحاب الهوس أشبه منها بقضايا العقل والبرهان، ووهميات نسبتها إلى العقل الصحيح كنسبة السراب «إلى»(١) الأبصار فى القيعان، وألفاظ مجملة ومعان مشتبهة قد لبس فيها الحق بالباطل فصار ذا إخفاء وكتمان، فدعونا من هذه الدعاوى الباطلة التى لا تفيد إلا أتعاب الإنسان وكثرة الهذيان، وحاكمونا إلى الوحى والميزان، لا إلى منطق يونان ولا إلى قول فلان ورأى فلان.

فهذا كتاب الله ليس فوق بيانه مرتبة فى البيان، وهذه سنّة رسوله مطابقة له أعظم من مطابقة البيان للسان، وهذه أقوال أعقل الأمم بعده والتابعين لهم بإحسان، لا يختلف منهم فى هذا الباب اثنان، ولا يوجد عنهم فيه قولان متنافيان، بل قد تتابعوا كلهم على إثبات الصفات وعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه وإثبات تكلمه وتكليمه، وسائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله كتتابع الأسنان، وقالوا للأمة هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم وإلى من بعدكم إلى آخر الزمان، وهذا هو الذى نادى به المنادى وأذن به على رؤوس الملأ فى السر والإعلان، فحىّ على الصلاة وراء هذا الإمام يا أهل الإيمان، وحىّ على الفلاح بمتابعته يا أهل القرآن، والصلاة خير من النوم فى ظلمة ليل الشكوك والإفك والكفران، فلا تصح القدوة بمن أقر على نفسه وصدقه المؤمنون بأنه تائه فى بيداء الآراء والمذاهب حيران، وأنه لم يصل إلى اليقين بشىء منها لا هو ولا من قبله من أمثاله على تطاول «الأزمان»(٢) وأن غاية ما وصلوا إليه الشك والتشكيك والحيرة ولقلقة اللسان.

---

(١) فى المختصر: «فى».

(٢) فى المختصر: «الزمان».

فالحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وخصهم بكمال العقول وصحة الفطر ونور البرهان، وجعلهم هداة مهتدين مستبصرين مبصرين أئمة للمتقين يهدون بأمره، ويبصرون بنوره ويدعون إلى داره «ويحاربون»(١) كل مفتن فتان، فحي على خير العمل بمتابعة المبعوث بالفرقان، وتحكيمه وتلقي حكمه بالتسليم والقبول والإذعان، ومقابلة ما خالف حكمه بالإنكار والرد والهوان، ومطاعنة المعارضين له بعقولهم بالسيف والسنان، وإلا «فبالقلم»(٢) واللسان، فالعقول السليمة والفطر المستقيمة لنصوص الوحي يسجدان، ويصدقان بها شهدت به ولا يكذبان، ويقران أن لها عليهما أعظم السلطان، وأنهما إن خرجا عنها غلبا ولا ينتصران، «وإن تمسكا بها ولم يخرجا عنها»(٣) ظفرا بالهدى والعلم واليقين والإيمان. والله المستعان وعليه التكلان.

الوجه السابع والخمسون: أن المعارضة بين العقل ونصوص الوحي لا تتأتى على قواعد المسلمين المؤمنين بالنبوة حقا، ولا على أصول أحد من أهل الملل المصدقين بحقيقة النبوة، وليست هذه المعارضة من الإيمان بالنبوة في شيء، وإنما تتأتى هذه المعارضة ممن يقر بالنبوة على قواعد الفلسفة ويجريها على أوضاعها، وإن الإيمان بالنبوة عندهم «هو الاعتراف»(٤). بموجود «حكيم»(٥) له طالع مخصوص يقتضي طالعه أن يكون متبوعا، فإذا أخبرهم بما لا تدركه عقولهم عارضوا خبره بعقولهم وقدموها على خبره.

فهؤلاء هم الذين عارضوا بين العقل ونصوص الأنبياء، فعارضوا نصوص الأنبياء في باب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر في

---

(١) في المختصر: «ويجادلون».

(٢) في المختصر: «بالعلم».

(٣) ما بين القوسين لا يوجد في الأصل وأضفته لاقتضاء السياق.

(٤) في المختصر: «والاعتراف».

(٥) في المختصر: «حليم».

هذه الأصول «الخمسة»[1] بعقولهم، فلم يصدقوا بشيء منها على طريقة الرسل.

ثم سرت معارضتهم في المنتسبين إلى الرسل «فتقاسموها»[2] تقاسم الوارث لتركة مورثهم، فكل طائفة كانت نصوص الوحي على خلاف مذهبهم وقول من قلدوه لجأوا إلى هذه المعارضة واعتصموا بها دون نصوص الوحي.

ومعلوم ان هذا يناقض الإيمان بالنبوة، وأن تناقض القائل به فغايته أن يثبت كون النبي رسولا «للعمليات دون العلميات»[3] أو في بعض العلميات التي أخبر بها دون البعض، وهذا أسوأ حالا ممن جعله رسولا إلى بعض الناس دون بعض، فإن القائل بهذا يجعله رسولا في العلميات والعمليات، ولا يعارض بين خبره وبين العقل، وإن تناقض في جحده عموم رسالته بالنسبة إلى كل مكلف، فهذا جحد عموم رسالته إلى المدعوين وذاك جحد عموم رسالته في المدعو اليه المخبر به، ولم يؤمن في الحقيقة برسالته لا هذا ولا هذا.

فإنه يقال لهذا: إن كان رسول الله إلى هؤلاء حقا فهو رسوله إلى الآخرين قطعا لأنه أخبر بذلك، ومن ضرورة تصديقه الإيمان بعموم رسالته، ويقال للآخر: «إن»[4] كان رسول الله في العمليات وأنها حق من عند الله فهو رسوله في العلميات فإنه أخبر عنه بهذا وهذا.

الوجه الثامن والخمسون: إن أمر النبوة وما يخبر به الرسول عن الله هو طور آخر وراء مدارك الحس والعقل والخيال والوهم والمنام والكشف،

---

(١) في الأصل: «الخمس» والتصحيح من المختصر.
(٢) في المختصر: «فتقاسموهم».
(٣) في المختصر: «في العمليات لا في العلميات».
(٤) «ان» من المختصر.

والعقـل معـزول عما يدرك بنور النبوة وطرق الوحي، كعزل السمع عن إدراك الأكـوان والبصر عن إدراك الأصوات، وسائر الحواس عن إدراك المعقولات، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات والحواس معزولة عنها، فالنبوة طور آخر يحصل فيه عين لها نور، يظهـر في نورها أمور لا يدركها العقل بل هو معزول عنها كعـزل الحـواس عن مدارك العقل، فتكذيب ما يدرك بنور النبوة لعجز العقـل عن إدراكـه وكـونـه معزولا عنه كتكذيب ما يدركه العقل لعجز الحواس عن إدراكه وكونها معزولة عنه، فإن الإنسان كما قال الله عز وجل: ﴿**والله أخـرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا**﴾[1] فهو في أصل الخلقة، خلق خاليا ساذجا لا علم له بشيء من المعقولات ولا المحسوسات البته، فأول ما يخلق فيه حاسة اللمس فيدرك بها أجناسا من الموجودات كالحـرارة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات بل هي كالمعدومة بالنسبة إليه، ثم يخلق له البصر فيدرك به الألوان والأشكال والقرب والبعد والصغر والكبر والطول والقصر والحركة والسكـون وغـير ذلك، ثـم ينفتح له السمع فيسمع الأصوات الساذجة والنغمات، ثم يترقى في مدارك هذه الحاسة على التدريج حتى يسمع من البعد مالم يكن يسمعه قبل ذلك، ويتفاوت الناس في قوة هذين الإدراكين وضعفهما تفاوتا بينا حتى يدرك الواحد ما يجزم الآخر بكذبه فيه، والمدرك مشاهد له لا يمكنه تكذيب نفسه فيه، وذنبه عند المكذب له أنه اختص بإدراكه دونه.

ثم يخلق له الذوق فيدرك به تفاضل الطعوم من الحلاوة والحموضة والمرارة وما بين ذلك مالم يكن له به شعور قبل ذلك، وكذلك الشم هو أكمله وليس عنده من المعقولات عين ولا أثر ولا حس ولا خبر، ثم يخلق فيه التمييز، وهو طور آخر من أطوار وجوده فيدرك في هذا الطور أمورا أخر

---

(١) سورة النحل ٧٨.

زائدة على المحسوسات لم يكن يدركها قبل ذلك، ثم يترقى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل، وأن حكم الشيء مثله، والضد لا يجتمع مع ضده، والنقيضان إذا صدق أحدهما كذب الآخر، ونحو ذلك من أوائل العلوم الضرورية، ثم يترقى إلى طور آخر يستنتج فيه العلوم النظرية من تلك الضروريات التي تقدم علمه بها، ثم يترقى في هذا الطور من أمر إلى أمر فوقه وأغمض منه، نسبة ماقبله إليه كنسبة الحس إلى العقل، ثم وراء ذلك كله طور آخر، نسبة ماقبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة، ينفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمور العقل معزول عنها كعزل الحس عن مدركات العقل، وهذا هو طور النبوة الذي نسبة نور العقل المجرد إليه دون نسبة ضوء السراج إلى الشمس فإنكار العقل لما يخبر به النبي عين الجهل، ولا مستند له في إنكاره إلا أنه لم يبلغه ولم يصل إليه فيظن أنه غير ثابت في نفسه. يوضحه:

الوجه التاسع والخمسون: وهو أنك إذا جعلت العقل ميزانا ووضعت في أحد كفتيه كثيراً من الأمور المشاهدة المحسوسة التي ينالها العيان ووضعت في الكفة الأخرى الأمور «التي»(١) أخبرت بها الرسل عن الله وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجدت ترجيحه لهذه الكفة وتصديقه بها فوق ترجيحه للتي قبلها وتصديقه بها أقوى، ولولا الحس والمشاهدة تمنعه من إنكار ذلك لأنكره، وهذه دعوى تعلم أنك تتعجب «ممن»(٢) يدعيها، وتنسبه إلى المجازفة وقلة التحصيل والخطابة التي تليق بالعامة، ولعمر الله إن مدعيها ليعجب من «إنكارك»(٣) لها وتوقفك فيها بعد البيان.

---

(١) في الأصل: «الذي» والتصحيح من المختصر.
(٢) في الأصل: «من» والتصحيح من المختصر.
(٣) في الأصل: «انكارها» والتصحيح من المختصر.

«فتقـول»[1] وبالله التوفيق: أنسب إلى العقل حيوانا يرى ويسمع ويحس ويتكلم ويعمل، فغشيه أمر «القي له»[2] كأنه خشبة لا روح فيها، وزال إحساسه وإدراكه، وتوارى عنه سمعه وبصره وعقله بحيث لا يعلم شيئـا، فأدرك في هذه «الحال»[3] من العلوم العجيبة والأمور الغائبة مالم يدركـه حال حضـور ذهنه واجتماع حواسه ووفور عقله، وعلم من أمور الغيب المستقبلة مالم يكن له دليل ولا طريق إلى العلم به[4].

وأنسب إليه أيضـا حيوانـا خرج من إحليله مجة ماء مستحيلة عن حصـول الـطعـام والشراب كالمخـطة، فامتزجت بمثلها في مكان ضيق فأقامت هناك برهة من الدهر، فانقلبت دما قد تغير لونها وشكلها وصفاتها، فأقامت كذلك مدة ثم انقلبت «بعد ذلك»[5] قطعة لحم، فأقامت كذلك مدة، ثم انقلبت عظامـا وأعصـابـا وعـروقـا وأظفـارا مختلفـة الأشكـال والأوضاع، وهي جماد لا إحساس «لها»[6] ثم عادت حيوانا يتحرك ويتغذى ويتقلب، ثم أقام ذلك الحيوان مدة طويلة في مكان لا يجد فيه «متنفسا»[7] وهـو داخل أوعية بعضها فوق بعض، ثم انفتح له باب «ضيق عن»[8]

---

(١) في الأصل: «فيقول» والتصحيح من المختصر.

(٢) في المختصر: «ألقاه».

(٣) في المختصر: «الحاله».

(٤) يشير المصنف ـ رحمه الله ـ إلى أحدى طرق الوحي وهي أشدها على رسول الله ﷺ كما في حديث الحارث بن هشام رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.

رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، ح «٢» ١/١٨

(٥) مابين القوسين من المختصر.

(٦) في المختصر «بها».

(٧) في المختصر «منفسا».

(٨) في المختصر «يضيق عنه».

مسلك الذكر، «فلا»[1] يسلكه إلا بضغطه وعصره، فوسع له ذلك الباب حتى خرج منه[2].

وانسب اليه أيضا شيئا بقدر الحبة ترسله في مدينة عظيمة من أعظم المدن فيأكل المدينة وكل من فيها ثم يقبل على نفسه فيأكلها، وهو النار.

وأنسب إليه أيضا شيئا بقدر بذر الخشخاش[3] يحمله الإنسان بين ثيابه مدة فينقلب حيوانا يتغذى بورق الشجر برهة، ثم إنه يبني على نفسه قبابا مختلفة الألوان من أبيض وأصفر وأحمر بناء محكما متقنا، فيقيم في ذلك مدة من الزمان لا يتغذى بشيء ألبتة، فينقلب في القبة طائرا له أجنحة يطير بها بعد أن كان دودا يمشي على بطنه، فيفتح «على»[4] نفسه باب القبة ويطير، وذلك دود القز.

إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا مما يشاهد بالعيان مما لو حكى لمن لم يره لعجب من عقل من حكاه له وقال: وهل يصدق بهذا عاقل، وضرورة العقل تدفع هذا؟ وأقام الأدلة العقلية على استحالته، «فقال»[5] في النائم مثلا: القوى الحساسة أسباب لإدراك الأمور الوجودية وآلة لها، «فمن لا»[6] يدرك «الأشياء»[7] مع وجودها واستجماعها ووفورها، فأن يتعذر عليه إدراكه مع وجودها وبطلان أفعالها أولى وأحرى.

---

(١) في المختصر «لا».

(٢) يشير ـ رحمه الله ـ إلى أطوار خلق الإنسان التي ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه حيث قال: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ المؤمنون ١٢ـ١٤

وقال تعالى: ﴿**خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون**﴾ الزمر ٦.

(٣) قال في اللسان: الخشخاش: نبت ثمرته حمراء، وهو ضربان: أسود وأبيض واحدته خشخاشة.

(٤) في المختصر: «عن».

(٥) من المختصر، وفي الأصل: «فقام».

(٦) في المختصر: «لم».

(٧) من المختصر، وفي الأصل: «الشيء».

وهذا قياس أنت تجده أقوى من الأقيسة التي يعارض بها خبر الأنبياء والحس والعيان يدفعه، ومن له خبره بمواد الأدلة وترتيب مقدماتها وله أدنى بيان، يمكنه أن ينظم أدلة عقلية على استحالةَ كثير من الأمور المشاهدة المحسوسة، وتكون مقدمات تلك الأدلة من جنس مقدمات الأدلة التي تعارض بها النصوص أو أصح منها.

وانسب الى العقل وجود ما أخبرت به الرسل عن الله وصفاته وأفعاله وملائكته، وعن اليوم الآخر وثبوت هذه الأمور التي ذكرنا اليسير منها، ومالم نذكره ولم يخطر لنا ببال أعجب من ذلك بكثير، تجد تصديق العقل بما أخبرت به الرسل أقرب اليه من تصديقه بهذه الأمور، ولولا المشاهدة لكذب بها، فيالله العجب كيف يستجيز العقل «إنكار»[1] ما أخبرت به الرسل بعد أن رأى وعاين وسمع، مالولا الحس لأنكره غاية الإنكار؟ ومن ها هنا قال من صح عقله وإيمانه: إن نسبة العقل إلى الوحي أقل وأدق بكثير من نسبة مباديء «. . .»[2] التمييز إلى العقل.

الوجه الستون: إن هؤلاء المعارضين بين العقل والوحي لا يمكنهم إثبات الصانع «بل نفيه بالكلية لازم قولهم»[3] لزوما بينا، ولا أن العالم مخلوق له، ولا يمكنهم إقامة «الدليل»[4] على استحالة إلـهين، ولا يمكنهم إقامة دليل واحد على استحالة كون الصانع جسما، ولا يمكنهم إثبات كونه عالما ولا قادرا ولا ربا، فهم عاجزون عن إثبات وجود الصانع فضلا عن تنزيهه، ونقتصر من هذه الجملة على بيان عجزهم عن إثبات وجوده سبحانه وتعالى، فضلا عن تنزيهه عن صفات كماله فنقول: «المعارضون بين الوحي

---

(١) في المختصر: «تكذيب».
(٢) في الأصل كلمة «شز» ولا معنى لها ولذلك حذفتها. وهي غير موجودة في المختصر.
(٣) في المختصر: «بل يلزم من قولهم نفيه بالكلية».
(٤) في المختصر: «دليل».

والعقـل»[1] في الاصل هم الزنادقة المنكرون للنبوات، وحدوث العالم، والمعـاد، ووافقهم في هذا الأصـل الجهمية «المعـطلة»[2] لصفات الرب «تعـالى»[3] وأفعاله، والطائفتان لم تثبت للعالم صانعا ألبتة، فإن الصانع الذي أثبتوه وجوده مستحيل فضلا عن كونه واجب الوجود قديما.

أمـا زنادقة الفلاسفة فإنهم أثبتوا للعالم صانعا لفظا لا معنى، ثم لبّسوا على الناس وقالوا: إن العالم صنعه وفعله وخلقه، وهو في الحقيقة عنـدهم غير مصنوع ولا مخلوق ولا مفعول، ولا يمكن على أصلهم أن يكون العالم مخلوقا ولا مفعولا.

قال أبو حامد:[4] وذلك لثلاثة أوجه: وجه في الفاعل، ووجه في الفعل، ووجه في نسبة مشتركة بين ا لفعل والفاعل.

أما الذي في الفاعل فهو أنه لابد أن يكون مريدا مختارا عالما بما يريده «حـين»[5] يكـون فاعلا لما يريده، والله تعالى عندهم ليس مريدا بل لا «صفة»[6] له أصلا، وما يصدر عنه فيلزم «منه»[7] لزوما ضروريا.

والثاني: أن العالم قديم «عندهم»[8] والفعل هو الحادث.

والثـالـث: أن الله تعـالى عندهم واحد من كل وجه، والواحد لا يصـدر «عنـه»[9] عندهـم إلا واحد «من كل وجه»[10] والعالم مركب من مختلفات فكيف يصدر عنه؟

---

(١) في المختصر: «المعارض بين العقل والنقل».

(٢) في الأصل: «والمعطله» وما أثبت موافق لما في المختصر.

(٣) من المختصر.

(٤) يعني الغزالي، وقد نقل المصنف هذا النص عن كتابه «تهافت الفلاسفة» انظره ص ١٣٤ من التهافت.

(٥) في التهافت: «حتى».

(٦) في الأصل، وفي المختصر: «صنعة» والتصحيح من التهافت.

(٧) «منه» لا توجد في الأصل ولا المختصر، واثبتها من التهافت.

(٨) ما بين القوسين لا يوجد في التهافت.

(٩) في التهافت: «منه».

(١٠) ما بين القوسين أضفته من التهافت.

قال: ولنحقق وجه كل واحد من هذه الوجوه الثلاثة مع «حالهم»[1] في دفعه فنقول: الفاعل عبارة عمن يصدر عنه الفعل مع الإرادة للفعل على سبيل الاختيار «مع»[2] العلم بالمراد.

«وعندهم»[3] أن العالم مع الله كالمعلول مع العلة يلزم لزوما ضروريا لا يتصور «من»[4] الله تعالى دفعه «لزوم»[5] الظل «للشخص والنور للشمس»[6] وليس هذا من الفعل في شيء، بل من قال: إن السراج يفعل الضوء والشخص يفعل الظل، فقد «تجوز»[7] وتوسع في «التجوز»[8] توسعا خارجا عن الحد، واستعار اللفظ واكتفي بوقوع المشاركة بين المستعار له والمستعار «عنه»[9] في وصف واحد وهو: إن الفاعل سبب على الجملة، والسراج سبب للضوء، والشمس سبب للنور «والفاعل»[10] لم يسم فاعلا صانعا «بمجرد»[11] كونه سببا، بل «بكونه»[12] سببا على وجه «مخصوص وهو وقوع الفعل منه على وجه»[13] الإرادة والاختيار حتى لو قال قائل: الجدار ليس بفاعل، والحجر ليس بفاعل، والجماد ليس بفاعل وإنما الفعل للحيوان، «لم ننكر ذلك»[14] ولم يكن قوله كذبا، وللحجر فعل عندهم

---

(١) هكذا في الأصل وفي المختصر. وفي التهافت «خيالهم».
(٢) في التهافت: «ومع» بزيادة «و».
(٣) في التهافت: «وعندكم».
(٤) في المختصر: «مع».
(٥) في التهافت: «كلزوم».
(٦) في التهافت: «من الشخص والنور من الشمس».
(٧) في الأصل والمختصر: «جاوز» والتصحيح من التهافت.
(٨) في المختصر: «التجاوز».
(٩) في التهافت: «منه».
(١٠) في التهافت: «ولكن الفاعل».
(١١) في التهافت: «لمجرد».
(١٢) في التهافت: «لكونه».
(١٣) ما بين القوسين من التهافت.
(١٤) في التهافت: «لم ينكر عليه في ذلك».

«وهـو الهـوى إلى الأسفـل والميل إلى المـركـز»[1] كما أن للنـار فعلا وهو التسخين، وللحائط فعلا وهو الميل إلى المركز ووقوع الظل لأن ذلك صادر عنه «وهذا»[2] محال.

قال: فإن قيل كل: موجود ليس بواجب الوجود «لذاته بل»[3] هو موجود بغيره، فإنا نسمي ذلك الشيء مفعولا ونسمي سببه «فاعلا»[4] ولا نبالي كان المسبب فاعلا بالطبع «أو»[5] بالإرادة، كما أنكم لا تبالون «أنه»[6] كان فاعلا بآلة «أو»[7] بغير آلة، بل الفعل جنس ينقسم إلى مايقع بآلة وإلى ما يقع بغير آلة، فكذلك هو جنس «و»[8] ينقسم إلى ما يقع بالطبع وإلى ما يقـع بالاختيار، بدليل أنـا «إذا»[9] قلنـا: فعـل بالـطبـع، لم يكن قولنا «بالطبع»[10] ضدا لقولنا فعل ولا دفعا ولا نقضا له، بل كان بيانا لنوع الفعل، كما إذا قلنا: «فعل مباشرة من غير آلة»[11] لم يكن نقضا بل كان تنويعا وبيانا، وإذا قلنا: فعل بالاختيار، لم يكن تكرارا بل كان بيانا لنوع الفعل، كقولنا: فعل بآلة.

ولو كان قولنا فعل يتضمن الإرادة وكانت الإرادة «ذاتية»[12] للفعل من حيث إنه فعل لكان قولنا: فعل بالطبع متناقضا، كقولنا فعل وما فعل.

---

(١) في التهافت: «وهو الهوى والثقل والميل إلى المركز».
(٢) في التهافت: «وهو».
(٣) في التهافت: «بذاته وإنما».
(٤) في المختصر: «فعلا» وهو خطأ.
(٥) في التهافت: «أم».
(٦) في المختصر: «ان».
(٧) في التهافت: «أم».
(٨) «و» من التهافت.
(٩) في المختصر: «لو».
(١٠) في المختصر: «فعل بالطبع».
(١١) في الأصل: «مباشر بغير آلة» وما أثبت من التهافت.
(١٢) في المختصر: «ثابتة».

قلنا: هذه التسمية فاسدة، لا يجوز أن يسمى كل سبب بأي وجه كان فاعلا، ولا كل «مسبب»[1] مفعولا، ولو كان «كذلك»[2] ماصح أن يقال: الجماد لا فعل له وإنما الفعل للحيوان، وهذه من «الكليات»[3] المشهورة الصادقة، فإن سمي الجماد فاعلا فبالاستعارة، كما «قد»[4] يسمى طالبا مريدا على سبيل المجاز إذ يقال: الحجر يهوى لأنه يريد المركز ويطلبه، والطلب «والإرادة»[5] حقيقة لا «يتصوران»[6] إلا مع العلم بالمراد المطلوب «ولا يتصوران»[7] إلا مع الحيوان.

وأما قولكم: إن قولنا: «فعَلَ» عام وينقسم إلى ما هو بالطبع وإلى ماهو بالإرادة «فهو»[8] غير مسلم، وهو كقول القائل: قولنا أراد عام، وينقسم إلى من يريد مع العلم بالمراد، وإلى من يريد ولا يعلم ما يريد، وهو فاسد إذ الإرادة تتضمن العلم بالضرورة، «وكذلك»[9] الفعل يتضمن الإرادة بالضرورة.

وأما قولكم: إن قولنا: «فعل» بالطبع ليس بنقض للأول فليس كذلك فإنه نقض له من حيث الحقيقة، ولكنه لا يسبق «إلى فهم المتناقض»[10] ولا يشتد نفور الطبع عنه «لأنه يبقى مجازا»[11] فانه لما إن كان سببا موجبا والفاعل أيضا سبب سمي فعلا مجازا.

---

(١) في الأصل «سبب» والتصحيح من التهافت.
(٢) في الأصل «ذلك» والتصحيح من التهافت.
(٣) في الأصل «الكلمات» والتصحيح من التهافت.
(٤) من التهافت.
(٥) في الأصل: «والأمر» والتصحيح من التهافت.
(٦) في الأصل: «يتصور» بالافراد. والتصحيح من التهافت.
(٧) في الأصل: «فلا يتصور» والتصحيح من التهافت.
(٨) من التهافت.
(٩) في التهافت: «فكذلك».
(١٠) في التهافت: «الا لفهم التناقض».
(١١) من التهافت.

وإذا «قال»[1] فعل بالاختيار، فهو تكرير على التحقيق، كقوله: أراد، وهو عالم بما «أراد»[2] إلا أنه لما تصور أن يقال: فعل، وهو مجازا، ويقال: فعل، وهو حقيقة، لم تنفر النفس عن قوله: فعل بالاختيار، وكان معناه فعل فعلا حقيقيا لا مجازيا، كقول القائل: تكلم بلسانه ونظر بعينه، فإنه لما جاز أن يستعمل النظر في القلب مجازا، والكلام في تحريك الرأس واليد «مجازا»[3].

لم يستقبح أن يقال: قال بلسانه ونظر بعينه ويكون معناه نفي احتمال المجاز، فهذه مزلة القدم.

فإن قيل تسمية الفاعل فاعلا إنما تعرف من اللغة، وإلا فقد ظهر في العقل أن ما يكون سببا للشيء ينقسم إلى ما يكون مريدا وإلى مالا يكون «فوقع»[4] النزاع في أن اسم الفاعل على «كلا»[5] القسمين حقيقة أم لا؟[6] إذ العرب تقول: النار تحرق والثلج يبرد، والسيف يقطع، والخبز يشبع، والماء يروي، فقولنا: يقطع معناه: يفعل القطع وقولنا: تحرق معناه تفعل الإحراق، فإن قلتم إن ذلك مجاز فأنتم متحكمون من غير مستند.

«قال»: [7] والجواب ان ذلك بطريق المجاز، وإنما الفعل الحقيقي ما يكون بالإرادة، والدليل عليه: أنا لو فرضنا حادثا توقف «حصوله»[8] على أمرين، أحدهما: إرادي، والآخر غير إرادي أضاف العقل الفعل إلى

---

(١) في التهافت: «قيل».

(٢) في التهافت: «أراده».

(٣) لا توجد في التهافت وفي التهافت: والكلام في تحريك اليد والرأس حتى يقال: قال برأسه، أي نعم...».

(٤) في التهافت: «ووقع».

(٥) في المختصر: «كل من».

(٦) في التهافت عبارة: «ولا سبيل إلى إنكاره» بعد الاستفهام.

(٧) أي الغزالي.

(٨) في التهافت: «في حصوله».

الإرادي «فكـذا»[1] اللغـة، فإن من ألقى إنسـانـا في «نـار»[2] فمات «فيقال»: [3] هو القاتل دون النار، حتى إذا قيل: ما قتله الا فلان «كان صادقا»[4] «فإن»[5] كان اسم الفاعل «المريد وغير المريد»[6] على وجه واحد لا بطريق كون أحدهما أصلا «والآخر مستعارا»[7] فلم يضف القتل إلى المريد لغة وعرفا وعقلا، مع أن النار هي العلة القريبة في «العقل»[8] وكأن الملقى لم يتعاط إلا الجمع بينه وبين النار، ولكن لما كان الجمع بالإرادة، وتـأثـير النـار بغـير إرادة سمي قاتـلا، ولم تسم النـار قاتلة «إلا بمعنى الاستعارة»[9] «فعلم»[10] أن الفاعل من يصدر الفعل عن إرادته، وإذا لم يكن الله مريدا عندهم ولا مختارا «للفعل»[11] لم يكن صانعا ولا فاعلا إلا مجازا.

قال: فان قيل: نحن نعني بكون الله فاعلا أنه سبب لوجود كل موجود سواه، وأن العالم قوامه به، ولولا وجود الباري لما تصور وجود العالم، ولو قدر عدم الباري لانعدم العالم كما لو قدر عدم الشمس لانعدم الضوء، فهذا ما نعنيه بكونه فاعلا، فإن كان الخصم يأبى أن يسمي هذا المعنى فعلا فلا مشاحة في الأسامي بعد ظهور المعنى.

قلنا: غرضنا أن نبين أن هذا المعنى لا يسمى فعلا وصنعا، وإنما المعنى بالفعل والصنع ما يصدر عن الإرادة حقيقة، وقد نفيتم حقيقة معنى

---

(١) في التهافت: «وكذا».
(٢) في التهافت: «النار».
(٣) في التهافت: «يقال».
(٤) في التهافت: «صدق قائله».
(٥) في المختصر: «وإذا».
(٦) في التهافت: «على المريد وعلى غير المريد».
(٧) في التهافت: «وكون الآخر مستعارا منه».
(٨) في التهافت: «القتل».
(٩) في التهافت: «الا بنوع من الاستعارة».
(١٠) في التهافت: «فدل».
(١١) في التهافت: «لفعل العالم».

الفعل ونطقتم بلفظه تجملا «بالإسلام»[١] ولا يتم الدين بإطلاق الألفاظ الفارغة عن المعاني، فصرحوا بأن الله لا فعل له حتى يتضح أن معتقدكم مخالف لدين المسلمين، ولا تلبسوا «بقولكم»[٢] إن الله صانع العالم وإن العالم صنعه، فإن هذه لفظة اطلقتموها ونفيتم حقيقتها «ومقصود»[٣] هذه المسألة الكشف عن هذا التلبيس فقط[٤].

ثم ساق الكلام الى آخر المسألة.

قلت: ولا ريب أن أصولهم التي عارضوا بها الوحي تنفي وجود الصانع فضلا عن كونه صانعا للعالم، بل تجعله ممتنع الوجود فضلا عن كونه واجب الوجود، لأن الصفات التي وصفوه بها صفات معدوم ممتنعة في العقل والخارج، فالعقل لا يتصور إلا على سبيل الفرض الممتنع كما تفرض المستحيلات، ولا يمكن في الخارج وجوده، فإن ذاتا هي وجود مطلق لا ماهية لها سوى الوجود المطلق المجرد عن كل ماهية ولا صفة لها ألبتة، ولا فيها معنيان متغايران في المفهوم، ولا هي هذا العالم ولا صفة من صفاته، ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه، ولا متصلة به ولا منفصلة عنه، ولا محايثة له، ولا مباينة، ولا فوقه ولا تحته «ولا يمينه ولا يسرته»[٥] ولا ترى ولا يمكن أن ترى، ولا تدرك شيئا ولا تدرك هي بشيء من الحواس، ولا هي متحركة ولا ساكنة، ولا توصف بغير السلوب والإضافات العدمية، ولا تنعت بشيء من الأمور الثبوتية، هي بامتناع الوجود أحق منها بإمكان الوجود، فضلا عن وجوبه، وتكليف العقل الاعتراف بوجود هذه الذات ووجوبها كتكليفه الجمع بين النقيضين، ومعلوم أن مثل هذه الذات لا

---

(١) في التهافت: «بالإسلاميين».
(٢) لا توجد في التهافت.
(٣) في التهافت: «والمقصود من».
(٤) إلى هنا ينتهي النص المنقول عن الغزالي وهو في التهافت (ص ١٣٨).
(٥) في المختصر: «ولا عن يمينه ولا يساره».

تصلح لفعل ولا ربوبية ولا إلهية، وأي ذات فرضت في الوجود فهي أكمل منها، فالذي جعلوه واجب الوجود هو أعظم استحالة من كل مايقدر مستحيلا.

فلا يكثر «عليهم بعد هذا»[1] إنكارهم لصفاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره، ولا إنكارهم لكلامه وتكليمه، فضلا عن استوائه على عرشه ونزوله إلى سماء الدنيا، ومجيئه وإتيانه وفرحه وحبه وغضبه ورضاه، فمن هدم قواعد البيت من أصلها «هان عليه هدم السقف والجدران»[2].

ولهذا كان حقيقة قول هؤلاء القول بالدهر[3] وإنكار الخالق بالكلية، وقولهم: «ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»[4] وإنما صانعوا المسلمين بألفاظ لا حقيقة لها واشتق إخوانهم الجهمية النفي والتعطيل من أصولهم، فسدوا على أنفسهم طريق العلم بإثبات الخالق وتوحيده بمشاركتهم لهم في الأصل المذكور، وإن باينوهم في بعض لوازمهم كإثباتهم كون الرب تعالى قادرا مريدا فاعلا بالاختيار، وإثباتهم معاد الأبدان والنبوة، ولكن لم يثبتوا ذلك على الوجه الذي جاءت به الرسل، ولانفوه نفي إخوانهم الملاحدة، بل اشتقوا مذهبا بين المذهبين، وسلكوا طريقا بين الطريقين، لا للملاحدة فيه وافقوا، ولا للرسل اتبعوا، ولهذا عظمت بهم البلية على الإسلام وأهله بانتسابهم إليه، وظهورهم في مظهر ينصرون به الإسلام، ويردون به على الملاحدة، فلا للإسلام نصروا ولا لأعدائه كسروا، بل أتباع الرسل كفروهم وضللوهم وصاحوا بهم من أقطار الأرض: امتازوا من المسلمين أيها المعطلون، وانحازوا إلى إخوانكم من الملاحدة الذين هم بربهم يعدلون، وخلوا عن نصوص الوحي فكم بها تتلاعبون، فمرة يقولون: هي أدلة لفظية معزولة عن إفادة العلم واليقين،

---

(١) في المختصر: «بعد هذا عليهم».
(٢) في المختصر: «وكان عليهم هدم السقف والجدران أهون».
(٣) راجع التعريف بالدهرية (ص ٥٢).
(٤) سورة الجاثية (٢٤).

ومرة يقولون: هي مجازات واستعارات لا حقيقة لها عند العارفين، ومرة يقولون: لا سبيل إلى تحكيمها والالتفات إليها وقد عارضها «المعقول»[1] وقواطع البراهين، ومرة يقولون: أخبار آحاد فلا يحتج بها في المسائل القطعية التي يطلب منها اليقين فأرضيتم بذلك إخوانكم من الملاحدة أعداء الدين، وكنتم بذلك لهم موافقين.

فصالوا عليكم به فيما أثبتوه وكنتم به من الإسلام وأهله متقربين، «وصال»[2] عليكم «المسلمون»[3] بما وافقتم فيه إخوانكم من الضلال المبين، فتدافعكم الفريقان تدافع الكرة بين الضاربين، فدعونا من التلبيس والمصانعة، بالله هل أثبتم للعالم ربا بائناعنه؟، وهل عندكم فوق العرش إله يعبد ويصلى له ويسجد؟ أم ليس فوق العرش إلا العدم الذي لاشيء هو؟، وهل أثبتم لصانع العالم سبحانه صفة ثبوتية تقوم به؟ فهل أثبتم له علما حقيقة؟ وسمعا وبصرا وحياة ومشيئة وإرادة حقيقية؟ وهل يعتقدون أنه تكلم أو كلم أحدا حقيقة؟ أو أمر أو نهى أو قال أو يقول أو نادى أو ينادى أو أخبر أو نبأ أو أنبأ أو عهد أو وصى أو خاطب أو ناجى أو أثنى على نفسه أو على أحد من خلقه؟ أو قال قط: ﴿**إنني أنا الله لا إله إلا أنا**﴾؟[4] أو نزل من عنده شيء أو صعد إليه شيء أو قام به فعل ألبتة يجب «أن»[5] يكون به فاعلا؟ أو قام به حب أو بغض أو رضى أو سخط؟ أو له وجه «أعلى»[6] أو خلق آدم بيديه أو «غرس»[7] جنة عدن بيده، أو كتب التوراة بيده[8] أو يقبض سمواته السبع بيده والأرضين السبع بيده[9] أو

---

(١) في المختصر: «العقل».
(٢) في الأصل: «وصاله» ولعل ما أثبت هو الصواب.
(٣) في الأصل: «المسلمين».
(٤) سورة طه (١٤).
(٥) لا توجد في الأصل وأضفتها ليستقيم الكلام.
(٦) يشير إلى ما ورد في سورة الليل آية (٢٠) وهي قوله تعالى ﴿**إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**﴾.
(٧) في الأصل: «أغرس».
(٨) راجع الجزء الأول (ص ١٤٥).
(٩) راجع الجزء الأول (ص ١٤٤).

كتب بيده كتابا فهو عنده موضوع على العرش أن رحمته سبقت غضبه[1] أو يراه أنبياؤه أو رسله والمؤمنون في دار الجزاء فضلا عن أن يتجلى لهم من فوقهم يضحك إليهم ويسلم عليهم ؟ «فبالله»[2] هل لهذا كله عندكم حقيقة ؟ أم إذا تجملتم وأجملتم قلتم : كل ذلك مجازات واستعارات ليس له حقيقة ؟ فسلوا بالله إذن إخوانكم من أرباب المعقولات هل يصدق أحد منكم أن إنسانا خلق من تراب وأنه يعود حيا بعد ما صار إلى التراب ؟، وأن عصا انقلبت حية عظيمة أكلت ما مرت عليه ثم انقلبت فصارت عصا كما كانت ؟، وأن يداً خرجت بيضاء لها ضوء مثل ضوء الشمس، وأن «بحراً»[3] من بحار العالم انفلق بعسكر عظيم اثنا عشر طريقا وصار الماء بين الطرق كالحيطان ؟، وأن جبلا قلع من موضعه على قدر عسكر عظيم ووقف على رؤوسهم بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه عيانا ثم عاد إلى مكانه ؟، وأن حجراً مربعا يحمل مع قوم يضرب بعصى فينفجر منه اثنا عشر نهرا كل نهر لطائفة عظيمة يختصون بمشربه لا يشركهم فيه الآخرون ؟، وأن قتيلا ضرب بعضو من بقرة مذبوحة فقام القتيل حيا ؟، وأن إنسانا رمي به في نار تأجج فلم تحرق منه شيئا وعادت خضراً وروضة ؟، وأن مدائن قلعت من أصولها كما يقلع الشجر ثم رفعت في الهوى ثم قلبت بمن فيها فماتوا موتة رجل واحد ؟، وأن صخرة تمخضت وتحركت ثم انفلقت عن ناقة كأحسن النوق ؟، وأن قمراً انشق في السماء شقتين ثم عاد فالتأم كما كان ؟، وأن يداً وضعت في ماء لايغمرها فتفجر

---

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش : ان رحمتي غلبت غضبي» وفي رواية «سبقت غضبي» انظر صحيح البخاري مع الشرح «كتاب بدء الخلق» باب ما جاء في قول الله تعالى﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ح ٣١٩٤ (٦/٢٨٧) وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**﴾ح ٧٤٥٣ (١٣/٤٤٠)، وصحيح مسلم، كتاب التوبة، «باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه» ح ٢٧٥١ (٤/٢١٠٧).

(٢) في الأصل : «فبارد» ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في الأصل : «بحارا».

الماء من بين أصابعها وثار كأمثال العيون حتى روى منه عسكر عظيم جرار وملأوا منه كل قربة وكل إناء معهم ؟، وأن رجلا ولد من غير أب ؟، وأن امرأة ولدت من غير أم ؟، وأن رجلا حُمل من مكة الى بيت المقدس ثم رفع حتى جاوز السموات السبع ثم عاد إلى فراشه في ليلته ؟، وأن عسكراً عظيما قاموا بدوابهم وخدمهم وعددهم على بساط واحد بين السماء والأرض على متن الريح مسيرة شهر في مقدار غدوة من النهار ثم يرجعون في مقدار ذلك ولا تمس ركابهم الأرض؟،[1] فبالله يا أرباب المعقولات ويا أهل «الذاتي والعرضي»[2] وأهل «المقولات»[3] العشر والكليات الخمس، ويا أهل المختلطات والموجهات والقضايا «المسورات»[4] والمهملات[5] ويا أهل الشكل الأول والثاني «والثالث»[6] والرابع وأصحاب القياس الحملي

(١) راجع التعليق على هذه المعجزات (ص ٥٧٣ ـ ٥٧٨).

(٢) في الأصل: «أشياء عرض» ولعل ما أثبت هو الصواب راجع تعريف الذاتي والعرضي (ص ٢٥٠).

(٣) في الأصل: «المعقولات» وهو خطأ. وقد تقدم بيان المقولات العشر والكليات الخمس (ص ١٩١-١٩٢).

(٤) في الأصل: «المستورات» وهو خطأ. وسور القضية في الاصطلاح هو اللفظ الدال على الإحاطة بجميع الأفراد أو بعضها إيجابا أو سلبا وهو أربعة أقسام:

الأول: سور كلي إيجابي نحو: كل وعامه ونحوهما.

الثاني: سور كلي سلبي نحو لا شيء ولا واحد، ونحوهما.

الثالث: سور جزئي إيجابي نحو: بعض.

الرابع: سور جزئي سلبي نحو: بعض ليس، وليس بعض.

انظر أدب البحث والمناظر للشيخ محمد الأمين الشنقيطي القسم الأول (ص ٤٩) والمرشد السليم للدكتور عوض الله حجازي (ص ٩٨).

(٥) القضية المهملة هي التي يكون موضوعها كليا، وحكم فيها على الأفراد ولكن لم يبين كمية الأفراد، لا كلا ولا جزءاً مثل:

الإنسان حيوان، ليست الفضة ذهبا، وسميت مهملة لإهمال بيان كمية الأفراد فيها، إذ أنها قد حكم على الأفراد ولم يبين كميتها. انظر المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم (ص ٩٦).

(٦) ساقط من الأصل.

والشرطي[1] وأهل العقول المقدمة بزعم أربابها على الوحي، هل تصدقون بشيء من هذا؟، وهل يصدق أفراخكم وتلامذتكم بشيء مما ذكرنا من شأن الربوبية؟، أم التكذيب بهذا وهذا ثمرة عقولكم وحاصل معقولكم؟.

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... عاديتم المعقول والمنقولا
وطلبتم أمراً محالا وهو إد ... راك الهدى لا تبتغون رسولا
وزعمتم أن العقول كفيلة ... بالحق، أين العقل كان كفيلا
وهو الذي يقضي فينقض حكمه ... عقل ترون كليهما معقولا
وتراه يجزم بالقضاء وبعد ذا ... يلقى لديه باطلا معلولا
لا يستقل العقل دون هداية ... بالوحي تأصيلا ولا تفصيلا
كالطرف دون النور ليس بمدرك ... حتى تراه بكرة وأصيلا
فإذا الظلام تلاطمت أمواجه ... وطمعت بالأبصار كنت محيلا
فإذا النبوة لم ينلك ضياؤها ... فالعقل لا يهديك قط سبيلا
نور النبوة مثل نور الشمس للعـ ... ـين البصيرة فاتخذة دليلا
طرق الهدى مسدودة إلا على ... من أم هذا الوحي والتنزيلا
فإذا عدلت عن الطريق تعمدا ... فاعلم بأنك ما أردت وصولا
ياطالبا درك الهدى بالعقل دو ... ن النقل لن تلقى لذاك دليلا
كم رام قبلك ذاك من متلدد[2] ... حيران عاش مدى الزمان جهولا

(١) القياس الحملي والشرطي هما قسما القياس الاقتراني عند المناطقة، وقد عرفوا القياس الحملي بأنه ما تركب من قضايا حملية صرفه مثل:

النحو علم وكل علم مفيد. إذاً النحو مفيد. فإن المقدمتين في هذا القياس حمليتان فقط. ولذلك سمي هذا القياس حمليا.

وينقسم هذا النوع من القياس باعتبار هيئته وصورته إلى شكل وضرب وعدد أشكاله أربعة وهي التي أشار اليها المصنف هنا.

أما القياس الشرطي فهو الذي لم يتركب من حمليات بحته، وذلك بأن تركب من شرطيات صرفه أو من شرطيات وحمليات. انظر المرشد السليم للدكتور عوض الله حجازي (ص ١٣٢-١٤١) والمنطق الصوري لعبد الرحمن بدوي (ص ١٨١).

(٢) «التلدد»: التلفت يميناً وشمالاً تحيّرا. انظر اللسان مادة «لدد».

مازالت الشبهـات تغـزو قلبـه حتـى تشـحط بينهـن قتـيلا
فتراه بالكـلّي والجـزئي والـذاتي والعـرضي طول زمـانـه مشغـولا
فإذا أتـاه الـوحي لم «يأذن له»[1] ويقـوم بين يدي عداه مثـيلا
ويقـول تلك أدلـة لفـظية معـزولـة عن أن تكـون دلـيلا
وإذا تمر عليه قال لها اذهـبـي نحـو المجسم أو خذي التـأويلا
وإذا أبـت الا الـنـزول عليه كا ن لها القـرى التحريف والتبديلا
فيحـل بالأعـداء ما تلقـاه من كيد يكـون لحقـهـا تعـطيلا
واضرب لهم مثـلا بعـميان خلوا في ظلمـة لا يهتـدون سبـيلا
فتـصـادمـوا بأكـفـهم وعصيهم ضربـا يدير رحى القتـال طويلا
حتـى إذا ملوا الـقـتـال رأيتـهم مشجـوجـا أو«مفجوجا»[2]أو مقتولا
وتـسـامـع الـعميان حتى أقبلوا للصـلح فازداد الـصياح عويلا

يوضحـــه:

الـوجـه الحـادي والستـون: وهـو ان الـطرق التي سلكها هؤلاء المعارضون بين الوحي والعقل في إثبات الصانع هي بعينها تنفي وجوده، فإنها متضمنة لنفي صفاته وأفعاله صريحا، وهي تنفي وجوده لزوما، فإن هؤلاء المعارضين صنفان: الفلاسفة والجهمية، أما الفلاسفة فأثبتوا وجود الصـانـع بطريق الـتركيب وهو: أن الأجسام مركبة، والمركب يفتقر إلى أجزائه، وكل مفتقر ممكن والممكن لابد له من وجود واجب، ويستحيل الكثرة في ذات الواجب بوجه من الوجوه، إذ يلزم تركيبه وافتقاره، وذلك

---

(١) في المختصر: «يأبه له» ولعله أولى.
(٢) في المختصر: «مبعوجا» والمعنى مشقوق البطن.
انظر اللسان مادة «بعج»
أمـا «مفجوجا» فهو قريب المعنى من لفظ المختصر حيث جاء في اللسان: الفج في كلام العرب: تفريجك بين الشيئين. انظر مادة «فجج». فكلا اللفظين يؤديان المعنى المراد.

ينافي وجوبه، وهذا هو غاية توحيدهم وبه أثبتوا الخالق على زعمهم.

ومعلوم أن هذا من أعظم الأدلة على نفي الخالق، فإنه ينفي قدرته ومشيئته وعلمه وحياته، إذ لو ثبتت له هذه الصفات بزعمهم لكان مركبا، والمركب مفتقر إلى غيره فلا يكون واجبا بنفسه، وفي هذه الشبهة من التلبيس والتدليس والألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة ما يطول وصفه، وقد انتدب لإفسادها جنود الإسلام على اختلاف مذاهبهم، فإن المركب لفظ مجمل يراد به ما ركبه غيره، وما كان متفرقا فاجتمعت أجزاؤه، وما يمكن تفريق بعضه عن بعض، والله سبحانه منزه عن هذه التراكيب، ويراد به في اصطلاح هؤلاء ماله ماهية خاصة يتميز بها عن سائر الماهيات، وما له ذات وصفات بحيث يتميز بعض صفاته عن بعض، وهذا ثابت «للرب»[1] سبحانه وإن سماه هؤلاء تركيبا كما تقدم.

وكذلك لفظ الافتقار لفظ مجمل يراد به فقر الماهية الى «موجد»[2] غيرها «يتحقق»[3] وجودها به، والله سبحانه غني عن هذا الافتقار.

ويراد به أن الماهية مفتقرة في ذاتها إلى ذاتها، ولا قوام لذاتها إلا بذاتها، وأن الصفة لا تقوم بنفسها وإنما تقوم بالموصوف، وهذا المعنى حق وإن سماه هؤلاء الملبسون فقرا، وكذلك لفظ الغير فيه إجمال، يراد بالغيرين ما مفارقة أحدهما للآخر ذاتا أو مكانا أو زمانا، فصفات القديم سبحانه ليست غيرا له بهذا الاعتبار، ويراد بالغيرين ما جاز العلم بأحدهما دون الآخر، وهذا المعنى حق في ذاته وصفاته سبحانه وإن سماها هؤلاء أغيارا، فإن المخلوق يعلم من الخالق صفة «بعد»[4] صفة، وقد قال أعلم الخلق

---

(١) من المختصر.
«للرب تعالى».
(٢) في المختصر: «موجود».
(٣) في الأصل: «بتحقيق» والتصحيح من المختصر.
(٤) في المختصر: «دون» ولعله أولى.

به: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] وهذا لكثرة أسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله.

وقال: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك»[1] والمستعاذ به غير المستعاذ منه.

والمقصود أن تسمية هذا تركيبا وافقارا وغيرا وضع وضعه هؤلاء، وليس الشأن في الألفاظ إنما الشأن في المعاني.

وقولهم: إنه مفتقر الى جزئه تلبيس، فإن القديم الموصوف بالصفات اللازمة له تمتنع أن تفارقه صفاته، وليست له حقيقة غير الذات الموصوفة حتى يقال: إن تلك الحقيقة مفتقرة إلى غيرها، وإن سميت تلك الصفة غيرا فالذات والصفات «متلازمان»[2] لا يوجد أحدهما إلا مع الآخر، وهذا «التلازم»[3] «لا»[4] يقتضي حاجة الذات والصفات إلى «موجد»[5] أوجدها وفاعل فعلها، والواجب بنفسه يمتنع أن يكون مفتقرا إلى ما هو خارج عن نفسه، فأما أن لا يكون له صفة ولا ذات ولا يتميز منه أمر عن أمر، فلا يلزم ذلك من وجوبه وكونه غنيا بنفسه عن كل ما سواه، فقول الملبس: إنه مفتقر إلى ذلك كقوله: لو كان له ماهية لكان مفتقرا إلى ماهيته، والله سبحانه اسم للذات المتصفة بكمال العلم والقدرة والحياة والمشيئة وسائر صفات الكمال، ليس «اسما»[6] لذات مجردة عن الأوصاف والنعوت، فكل

(١) من حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم وغيره ونصه: قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»

راجع تخريجه (ص ٦١٧) من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: «ملازمان» والتصحيح من المختصر.

(٣) في المختصر: «الالتزام».

(٤) «لا» غير موجودة في المختصر.

(٥) في المختصر: «موجود».

(٦) في الأصل: «اسم» وهو خطأ والتصحيح من المختصر.

ذات أكمل من هذه الذات، تعالى الله عن قول الملحدين في أسمائه وصفاته علوا كبيرا.

والمقصود: أن هذه الطريق التي سلكها هؤلاء في إثبات الصانع هي أعظم الطرق في نفيه وإنكار وجوده، «ولذلك»[1] كان سالكوها لا يؤمنون بالله ولا بملائكته «وكتبه»[2] ولا رسله ولا باليوم الآخر وإن صانع من صانع منهم «لأهل»[3] الملل «بألفاظ»[4] لا حاصل لها.

«فصــــــل»

وأما المتكلمون فلما رأو بطلان هذه الطريق عدلوا عنها إلى طريق الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، وتماثل الاجسام وتركبها من الجواهر المفردة وأنها قابلة للحوادث وما يقبل الحوادث فهو حادث، فالأجسام كلها حادثة، فإذن يجب أن يكون لها محدث ليس بجسم «فبنوا»[5] العلم بإثبات الصانع على حدوث الأجسام، واستدلوا على حدوثها بأنها مستلزمة للحركة والسكـون والاجتماع والافتراق ثم قالوا: إن تلك أعراض، والأعراض حادثة، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

«فاحتاجوا»[6] في هذه الطريق إلى إثبات الأعراض أولا، ثم إثبات لزومها للجسم ثانيا، ثم إبطال حوادث لا أول لها ثالثا، ثم «التزام»[7] بطلان حوادث لا نهاية لها رابعا، عند فريق «منكم»[8] وإلزام الفرق عند

(١) في الأصل: «وكذلك» والتصحيح من المختصر.
(٢) في المختصر: «ولا كتبه».
(٣) في المختصر: «أهل» وهو أولى.
(٤) في الأصل: «بالألفاظ» والتصحيح من المختصر.
(٥) في الأصل: «فنفوا» والتصحيح من المختصر.
(٦) في المختصر: «واحتاجوا».
(٧) في المختصر: «الزام».
(٨) في المختصر: «منهم».

فريق آخر، ثم إثبات الجوهر الفرد خامسا،[1] ثم إلزام كون العرض لا يبقى زمانين سادسا،[2] فيلزم حدوثه، والجسم لا يخلو منه وما لا يخلو «عن»[3] الحوادث فهو حادث، ثم إثبات تماثل الأجسام سابعا، فيصح على بعضها ما يصح على جميعها، فعلمهم بإثبات الخالق سبحانه مبني على هذه الأمور «الشنيعة»[4] فلزمهم من سلوك هذه الطريق إنكار كون الرب تعالى فاعلا في الحقيقة، وإن سموه فاعلا بألسنتهم فإنه لا يقوم به عندهم فعل، وفاعل بلا فعل كقائم بلا قيام، وضارب بلا ضرب وعالم بلا علم.

وضم الجهمية إلى ذلك أنه لو قام به صفة لكان جسما، ولو كان جسما لكان حادثا، فيلزم من إثبات صفاته إنكار ذاته.

فعطلوا صفاته وأفعاله بالطريق «التي»[5] أثبتوا بها وجوده، فكانت أبلغ الطرق في تعطيل صفاته وأفعاله، وعن هذه الطريق أنكروا علوه على عرشه، وتكلمه بالقرآن وتكليمه لموسى، ورؤيته بالأبصار في الآخرة، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، ومجيئه لفصل القضاء بين الخلائق، وغضبه ذلك اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وجميع ما وصف به نفسه من وصف ذاتي أو معنوي أو فعلي، فأنكروا وجهه الأعلى، وأنكروا أن له يدين وأن له سمعا وبصرا وحياة، وأنه يفعل شيئا حقيقة، وإن سمي فاعلا فلم يستحق ذلك «لفعل»[6] قام به، بل فعله هو عين مفعوله، وكذلك الطريق التي سلكوها في إثبات النبوة لم يثبتوا بها نبوة في الحقيقة، فإنهم بنوها على مجرد خرق العادة، وهو مشترك بين النبي

---

(١) اختلف مثبتو الجوهر الفرد في معناه على أربعة أقوال. راجع مقالات الإسلاميين للأشعري (٢/٨).

(٢) راجع (ص ٣٩٤).

(٣) في المختصر: «من».

(٤) في المختصر: «السبعة».

(٥) في الأصل: «الذي» والتصحيح من المختصر.

(٦) في الأصل: «الفعل» والتصحيح من المختصر.

وغيره، وحاروا في الفرق فلم يأتوا فيه بما «يثلج له الصدر»[1] ولا يحصل به برد اليقين، مع أن النبوة التي أثبتوها لاترجع إلى وصف وجودي بل هي تعلق الخطاب الأزلي بالنبي، والتعلق عندهم أمر عدمي، فعادت النبوة عندهم إلى أمر عدمي، وقد صرحوا بأنها لا ترجع إلى صفة ثبوتية قائمة بالنبي، وأيضا فحقيقة النبوة والرسالة: إنباء الله سبحانه وتعالى لرسوله، وأمره بتبليغ كلامه إلى عباده، وعندهم أن الله تعالى لا يتكلم ولا يقوم به كلام. وأما اليوم الآخر فإن جمهورهم بنوه على إثبات الجوهر الفرد وقالوا: «لا يتأتى»[2] التصديق بالمعاد إلا بإثباته، وهو في الحقيقة باطل لا أصل له، والمثبتون له «لا»[3] يعترفون بأن القول به في غاية الإشكال، وأدلته متعارضة، وكثير منهم له قولان في إثباته ونفيه، وسلكوا في تقرير المعاد ما خالفوا فيه جمهور العقلاء، ولم يوافقوا ما جاءت به الأنبياء فقالوا: «إن»[4] الله سبحانه يعدم أجزاء العالم كلها حتى تصير عدما محضا، ثم يعيد المعدوم ويقلبه «وجودا»[5] حتى إنه يعيد زمنه بعينه وينشئه لا من مادة كما قالوا في المبدأ.

فجنوا على العقل والشرع، وأغروا أعداء الشرع به وحالوا بينهم وبين تصديق الرسل.

وأما المبدأ فإنهم قالوا: «كان الله سبحانه»[6] معطلا في الأزل، والفعل غير ممكن، مع قولهم: كان قادرا عليه ثم صار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا «من»[7] غير تجدد أمر أصلا، وانقلب الفعل من الامتناع الذاتي إلى

---

(١) في المختصر: «تثلج له الصدور».
(٢) في المختصر: «لا ينافي».
(٣) «لا» غير موجودة في المختصر. ولعل الحذف أولى.
(٤) في المختصر: «لو أن».
(٥) في المختصر: «موجودا».
(٦) في المختصر: «إن الله تعالى كان».
(٧) لا توجد في الأصل وأضفتها من المختصر.

الإمكان الذاتي، وذات الفاعل قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل واحدة، فهذا غاية عقولهم التي عارضوا بها بين الوحي والعقل[1] وهذه طرقهم العقلية التي لم يثبتوا بها رباً ولا رسالة ولا مبدأ ولا معادا.

ونحن إنما أشرنا إلى ذلك أدنى إشارة وإلا فبسط ذلك في غير هذا الموضع، وقد بسطه شيخنا في عامة كتبه المطولات والمبسوطات[2] وبينه بيانا شافيا، فمن أحب الوقوف عليه وجده في مظانه وبالله التوفيق.

الوجه الثاني والستون: إن هؤلاء المعارضين للوحي بعقولهم ارتكبوا أربع عظائم.

إحداها: ردهم لنصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

الثانية: إساءة الظن «به»[3] وجعله منافيا للعقل مناقضا له.

الثالثة: جنايتهم على العقل بردهم ما يوافق النصوص من المعقول، فإن موافقة العقل للنصوص التي زعموا أن العقل يردها أظهر للعقل من معارضته لها.

الرابعة: تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم لمن خالفهم في أصولهم التي اخترعوها، وأقوالهم التي ابتدعوها، مع أنها مخالفة للعقل والنقل، فصوبوا رأي من تمسك بالقول المخالف للعقل والنقل، وخطَّأوا من تمسك بما يوافقهما، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نورا ولم يشرق على قلبه نور النبوة.

الوجه الثالث والستون: أن من عارض بين الوحي والعقل فقد قال بتكافؤ الأدلة، لأن العقل الصحيح لا يكذب والوحي أصدق منه وهما

---

(١) في المختصر: «التي عارضوا بها الوحي».

(٢) يقصد الإمام ابن تيمية رحمه الله ومن أهم كتبه التي بسط فيها هذه المسألة كتابه الكبير «درء تعارض العقل والنقل».

(٣) لا توجد في الأصل. وأضفتها ليستقيم الكلام. والضمير يعود على الوحي.

دليلان صادقـان فإذا تعارضا تكافأا، فإن لم يقدم أحدهما بقي في الحيرة والشك وإن قدم أحدهما على الآخر أبطل موجب الدليل الصحيح وأخرجه عن كونه دليلا، فيبقى حائرا بين أمرين لابد له من أحدهما، إما أن يسيء الظن بالوحي أو بالعقل، والعقل عنده أصل الوحي فلا يمكنه أن يسيء الـظن به، فبسـطوا على الـوحي تارة بالتحـريف والتـأويل، «وتـارة بالتخييل»[1] وتـارة «بالدفع»[2] والتكذيب إن أمكن، وذلك في نصوص السنة، وتارة يدعي ذلك في نصوص القرآن كما يدعيه غلاة الرافضة، وكثير من القرامطة وأشباههم، وهذا كله انما نشأ من ظنونهم «الفاسدة»[3] أن العقل الصحيح يعارض الوحي الصريح.

وأما أهل العلم والإيمان، أهل السمع والعقل فعندهم أن فرض هذه المسألة محال، وأن فرضها كفرض مسألة إذا تعارض العقل وأدلة ثبوت النبـوة والـرسـالـة، وإذا تعـارض العقـل وأدلـة ثبوت الخالق وتوحيده، والمعارضة بين العقل والوحي كالمعارضة بين العقل وإثبات الصانع وتوحيده ورسـالة رسله، ولهذا طرد واضع هذه القاعدة في الأصل، ذلك وقال: الباب كله واحد.

الـوجه الرابع والستون: أن هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل بنوا أمـرهم على أصـل فاسـد، «وهـو»[4] أنهم جعلوا أقوالهم التي ابتدعوها وجعلوها أصول دينهم ومعتقدهم في رب العالمين هي المحكمة، وجعلوا قول الله ورسوله هو المتشابه الذي لا يستفاد منه علم ولا يقين، فجعلوا المتشـابـه من كلامهم هو المحكم، والمحكم من كلام الله ورسـولـه هو المتشابه، ثم ردوا متشابه الوحي إلى محكم كلامهم، وقواعدهم، وهذا كما

---

(١) ما بين القوسين مكرر في الأصل.
(٢) في الأصل: «بالرفع» ولعل ما أثبت هو الصواب.
(٣) في الأصل: «الفاسد».
(٤) في الأصل: «وهم» والصواب ما أثبت.

جعلوا ما أحدثوه من الأصول التي نفوا «بها»[1] صفات الرب جل جلاله ونعوت كماله، ونفوا بها كلامه وتكليمه وعلوه على عرشه ورؤيته في الدار الآخرة محكما، وجعلوا النصوص الدالة على خلاف تلك القواعد والأصول متشابهة يقضي بتلك القواعد عليها وترد النصوص اليها، فتارة يحرفون النصوص عن موضعها ويسمون ذلك التحريف تأويلا في اللفظ وتنزيها في المعنى، يقول من تجمل منهم فأحسن: أراد الله ورسوله من هذه النصوص أموراً لا نعرفها ولا ندري ما أراد، وتارة يقولون: قصد خطاب الجمهور «فأفهمهم»[2] الأمر على خلاف حقيقته لأن مصلحتهم في ذلك، وتارة يفسرون صفة بصفة كما يفسرون الحب والبغض والغضب والرضا والرحمة بالإرادة، والسمع والبصر والكلام بالعلم، ثم يجعلون ذلك نفس الذات.

ومنهم من يجعل العلم نفس المعلوم كما قاله أفضل متأخريهم عندهم وأجهلهم بالله وأكفرهم نصير الكفر والشرك الطوسي[3].

فأما أهل العلم والإيمان فطريقتهم عكس هذه الطريقة من كل وجه، يجعلون كلام الله ورسوله هو الأصل الذي يعتمد عليه، ويرد ما تنازع الناس فيه إليه، فما وافقه كان حقا وما خالفه كا باطلا، وإذا ورد عليهم لفظ مشتبه ليس في القرآن ولا في السنة لم يتلقوه بالقبول ولم يردوه بالإنكار حتى يستفصلوا قائله عن مراده، فإن كان حقا موافقا للعقل والنقل قبلوه، وإن كان باطلا مخالفا للعقل والنقل ردوه.

ونصوص الوحي عندهم أعظم وأكبر في صدورهم من أن يقدموا عليها ألفاظاً مجملة لها معان مشتبهة.

وبنوا أصولهم على أربع قواعد:

أحدها: أن بيان ماجاء به الوحي هو الهدى والحق واليقين.

---

(١) في الأصل: «انها».

(٢) في الأصل: «فإفهامهم» ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٥١٧).

الثانية: بيان أن ما يقدر من الاحتمالات المعارضة لظاهره وحقيقته باطلة لغة.

الثالثة: بيان أن ما يدعى أنه معارض لذلك من العقل فهو باطل.

الرابعة: بيان أن العقل موافق له معاضد لا معارض مناقض.

﴿**فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾[1].

الوجه الخامس والستون: إن هؤلاء المعارضين بين العقل والنقل قد فارقوا العقل والنقل، فلا عقل ولا نقل، وهم الذين يقولون: ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾[2]

أما النقل: فإنهم قد سمحوا بمفارقته وهان عليهم أمره.

وأما العقل فلو تدبروا أقوالهم ومعقولهم الذي عارضوا به النقل لاستحيوا من أهل العقل الذين هم أهله، فإن هؤلاء يجعلون الاثنين واحدا والواحد اثنين، والمستحيل واجبا والواجب ممتنعا، والكلي جزءا من المعين الجزئي، والمعدوم موجودا والموجود معدوما، والثابت منتفيا والمنتفي ثابتا، ويفرقون بين الشيء ونظيره في الحكم «ويحكمون»[3] على الشيء بحكم ضده ونقيضه «وينفون»[4] النقيضين [5] تارة «ويثبتونهما»[6] تارة، ويثبتون الشيء وينفون لازمه البين للزوم «اللازم»[7] ويثبتون ملزومه، فيجعلون الصفة هي عين الصفة الأخرى ثم يجعلونها هي نفس الموصوف،

---

(١) سورة الأنعام (٨١).

(٢) سورة الملك (١٠).

(٣) في الأصل: «ويحملون» ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) في الأصل: «ويعرفون» والصواب ما أثبت.

(٥) ضابط النقيضين أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان، بل لابد من وجود أحدهما وعدم الآخر، كالسواد والبياض، والحركة والسكون ونحو ذلك.

انظر آداب البحث والمناظرة (ص ٢٦).

(٦) في الأصل: «ويثبتونها» والصواب ما أثبت.

(٧) في الأصل: «اللام» والصواب ما أثبت.

كما يقولون: العلم هو القدرة، والقدرة هي الإرادة، والسمع هو البصر، ثم يقولون: إن ذلك هو نفس العالم القادر المريد.

ويجعلون تارة العلم هو المعلوم، وتـارة يجعلون الفعـل هو عين المفعـول، ويجعلون الصفـة التي لا تقـوم إلا بمحـل قائمة بنفسها، كما يقولون: الرب تعالى مريد بإرادة قديمة لا في محل، ويجعلون الأمر هو عين النهي، وهما عين الخبر، وهي عين الاستفهام، ويجعلون وجود الرب تعالى وجودا مطلقا بشرط الإطلاق أو بلا شرط، ثم يصرحون بأن المطلق لا وجود له في الخارج، ويجعلون الشيء المعين لهذا الإنسان مثلا عدة جواهر، حيوانا وناطقا وحساسا، ويجعلون كلا من هذه الجواهر غير الآخر، ومعلوم أنه جوهر واحد له صفات متعددة، ويفرقون بين المادة والصورة «ويجعلونهما»[1] جوهرين عقليين قائمين بأنفسهما، والمعقول قيام الصفات بالموصوفات، والأعراض بالجواهر، ويجعلون الصور الذهنية ثابتة في الخارج، كقولهم في المجردات المفارقات المادة، وليس معهم ما يثبت أنه مفارق «الا النفس»[2] الناطقة إذا فارقت البدن بالموت، والمجردات هي: الكليات التي تجردها النفس من الأعيان المشخصـة، فيرجـع الأمـر إلى النفس وما يقوم بها، ويجعلون المعدوم الممتنع الذي لا يتصور وجوده هو الواجب الذي يمتنع عدمه، كما أثبتوا صانع العالم وجودا مطلقا مقيدا بسلب الأمور الثبوتية، ليس له ماهية غير ذلـك الوجود، ويثبتون كونه حيا بلا حياة، وعالما بلا علم، وقادرا بلا قدرة، إلى أضعاف أضعاف ذلك من ضلالهم في عقلياتهم التي جعلوها معارضة للوحي وقدموها عليه.

وكلما تدبر العاقل الذكي المنصف «أحوال هؤلاء ومن»[3] وافقهم

(١) في الأصل: «ويجعلونها» والصواب ما أثبت.
(٢) في الأصل: «الا لنفس» والصواب ما أثبت.
(٣) في الأصل: «أحوالها ولا من» ولعل ما أثبت هو الصواب.

على بعضها تبين له أن القوم لا عقل ولا نقل «وتفصيل»[1] هذا يستدعي بسطا طويلا، والله المستعان.

الوجه السادس والستون: أن هؤلاء في معارضتهم للوحي سلكوا طريقا سحروا بها عقول ضعفاء الناس وبصائرهم، فشبهت عليهم، وخيل إليهم أنها حق، فأصابهم في ذلك مثل ما أصاب السحرة حين «عارضوا»[2] عصى موسى بما خيل إلى أبصار الناظرين أنه حق[3] وأن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة تحتها معان مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وأدخلوا فيها من المعاني غير المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركبوها وألفوها تأليفا طويلا بنوا بعضه على بعض، ففكروا فيه وقدروا وأطالوا التفكير والتقدير، ثم عظموا قولهم وهولوه في نفوس من لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقة وغموضا، لما فيه من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، فإذا دخل معهم الطالب وسمع «معهم»[4] ما تنفر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم، قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، وهذا أمر قد صقلته الأذهان على تطاول الأزمان، وتلقته العقول بالقبول والتسليم، وفزعت إليه عند التخاصم «والتحاكم»[5] فيبقى ما في النفوس من الحمية والأنفة يحملها على تسليم تلك الأمور قبل تحقيقها، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه الى نقص العلم والعقل، فيأخذها مسلمة، فإذا جاءت لوازمها لم يجد بدا من التزامها، ويرى أن التزام تلك اللوازم أهون عليه من القدح في تلك القواعد وإبطالها، فهذا أصل ضلال من ضل من أهل النظر والبحث في المعقولات، وأما الأعمى المقلد فليس معه أكثر من: هكذا قال العقلاء.

---

(١) في الأصل: «ولا تفصيل» وبحذف «لا» يستقيم الكلام.

(٢) في الأصل: «رضوا» ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٣) انظر الآية (١١٣-١٢٢) من سورة الأعراف.

(٤) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: «منهم».

(٥) في الأصل: «والتحكم» ولعل الصواب ما أثبت.

وهذا القدر الذي وقع من ضلال هؤلاء لم يقصده عقلاؤهم ابتداء، بل كان قصدهم تحصيل العلوم والمعارف، ولكن أخطأوا بطلبها من غير طريقها فضلوا وأضلوا.

وقد سُئل شيخنا[1] رضي الله عنه عن بعض رؤساء هؤلاء ممن له علم وعقل وسلوك وقصد، ثم أخطأ الصواب، فقال: «طلب الأمور العليّة من غير الطرق النبوية، فقادته قسرا إلى المناهج الفلسفية» وما أحسن ما قال، فإن من طلب أمراً عاليا من غير طريقه لم يحصل إلا على ضده، فالواجب على من يريد كشف ضلال هؤلاء وأمثالهم أن لا يوافقهم على لفظ مجمل حتى يتبين معناه ويعرف مقصوده، فيكون الكلام في معنى معقول يتوارد النفي والإثبات فيه على محل واحد، لا في لفظ مجمل مشتبه المعنى وهذا نافع في الشرع والعقل والدين والدنيا.

• وبالله التوفيـــق.

الوجه السابع والستون: أن الله سبحانه نهى المؤمنين أن يتقدموا بين يدي رسوله، وأن يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وحذرهم من حبوط أعمالهم بذلك فقال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم، يآيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾[2] الآية.

فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه فأي تقدم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به، قال غير واحد من السلف: لاتقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر.

ومعلوم قطعـا أن من قدم عقله أو عقـل غيره على ما جاء به فهو أعصى الناس لهذا النبي ﷺ، وأشدهم تقدما بين يديه، وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعـوا أصواتهم فوق صوته، فكيف برفع معقولاتهم فوق كلامه وما جاء به.

---

(١) يريد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وقد بحثت عن هذا القول في كتبه فلم أجده.
(٢) سورة الحجرات آية (١-٢).

ومن المعلوم قطعـــا أنـه لم يكن يفعـل هذا في عهـده إلا الكفـار «والمنـافقـون»[1] فهم الذين حكى الله سبحانه عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم، وصارت تلك المعارضة ميراثا في أشباههم، كما حكى الله عن المشركـين معـارضـة شرعه وأمره بقضائه وقدره،[2] وورثهم في هذه المعارضة طائفتان:

إحـداهمـا: إخوانهم «المباحية»[3] الذين خلعوا ربقة الشريعة من أعناقهم ودانوا بالقدر.

---

(١) في الأصل: «والمنافقين» وهو خطأ.

(٢) قال تعالى حكاية عنهم: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون**﴾الأنعام (١٤٨).

(٣) يذكـر الرازي أنهم إحدى فرق الصوفية يدّعون محبة الله تعالى، ويخالفون الشريعة، ويقولون: إن الرسول ﷺ رفع عنهم التكاليف، وذكر بأنهم شر الطوائف وأنهم في الحقيقة على دين مزدك. انظر اعتقاد فرق المسلمين والمشركين (ص ١١٧، ١٤٢) ويصفهم الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله بقوله: المباحية: الذين يسقطون الأمر والنهي مطلقا، ويحتجون بالقضاء والقدر، وأنهم أسوأ حالا من اليهود والنصارى ومشركي العرب، فإن هؤلاء مع كفرهم يقرون بنوع من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ولكن كان لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله، بخلاف المباحية المسقطة للشرائع مطلقا فإنما يرضون بما تهواه أنفسهم ويغضبون لما تهواه أنفسهم، لا يرضون لله ولا يغضبون لله، ولا يحبون لله ولا يبغضون لله، ولا يأمرون بما أمر الله به، ولا ينهون عما نهى الله عنه، إلا إذا كان لهم في ذلك هوى، فيفعلونه لأجل هواهم، لا عبادة لمولاهم، ولهذا لا ينكرون ما وقع في الـوجـود من الكفـر والفسـوق والعصيان، إلا اذا خالف أغراضهم، فينكرونه إنكارا طبيعيا شيطانيا، لا إنكارا شرعيا رحمانيا... وهؤلاء يكثرون في الطوائف الخارجين عما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، الذين يسلكون طرقا في العبادات والاعتقادات مبتدعة في الدين ولا يتحرون في عبـاداتهم واعتقـاداتهم موافقـة الـرسـول، والاعتصـام بالكتاب والسنة، فتكثر فيهم الأهواء والشبهات وتغويهم الشياطين، وتصير فيهم شبهة من المشركين بحسب بعدهم عن الرسول.

وكما يجب إنكار قول القدرية المضاهين للمجوس، فإنكار قول هؤلاء أولى، والرد عليهم أحرى، وهؤلاء لم يكونوا موجودين في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن البدع إنما يظهر منها أولا فأولا الأخف فالأخف، كما حدث في آخر عهد الصحابة بدعة الخوارج والشيعة، ثم في آخر عصر الصحـابـة بدعـة المرجئة والقدرية، ثم في آخر عصر التابعين بدعة الجهمية معطلة الصفات، وأما هؤلاء المباحية المسقطون للأمر والنهي محتجين على ذلك بالقدر فهم شر من جميع هذه الطوائف، وإنما حدثوا بعد هؤلاء كلهم.

مجموع الفتاوى (٨/٤٥٧-٤٥٨).

والثانية: الذين «عارضوا»[1] قضاءه وقدره بأمره وقالوا: لا يمكن الجمع بينهما، فأبطلوا القدر بالأمر، وأولئك أقعد[2] بالميراث من هؤلاء، وقد ذكر سبحانه الأمثال العقلية التي عارض «المشركون»[3] بها الوحي لتكون عبرة للمؤمنين ومثلا للمعارضين ليهلك من هلك عن «بينة»[4] ويحيى من حيي عن «بينه»[4] وإن الله لسميع عليم[5].

الوجه الثامن والستون: أن معارضة الوحي بالعقل ميراث عن الشيخ أبي مرة،[6] فهو أول من عارض السمع بالعقل وقدمه عليه، فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عارض أمره بقياس عقلي مركب من مقدمتين حمليتين:

إحداهما: [7] قوله (أنا خير منه) فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول.

وذكر مستند المقدمة الأولى، وهو أيضا قياس حملي حذف إحدى مقدمتيه، فقال: (خلقتني من نار وخلقته من طين).

والمقدمة الثانية: «كأنها»[8] معلومة، أي: ومن خلق من نار «أفضل»[9] ممن خلق من طين، فهما قياسان متداخلان، وهذه يسميها المنطقيون: الأقيسة المتداخلة.

---

(١) في الأصل: «عرضوا» ولعل ما أثبت هو الصواب.

(٢) معناه: أولى. أي أن المباحية أولى بميراث المشركين من هؤلاء، وهو المعنى الذي تضمنه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية السابق.

(٣) في الأصل: «المنزلون» ولعل ما أثبت هو الأولى والصواب.

(٤) في الأصل: «أبيه» وهو خطأ.

(٥) الأنفال (٤٢).

(٦) أبو مرة كنية إبليس لعنه الله.

(٧) في الأصل: «أحدهما» والتصحيح من المختصر.

(٨) في المختصر: «كلها».

(٩) في المختصر: «خير».

فالقياس الأول هكذا: أنا خير منه، وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه.

وهذا من الشكل الأول.

والقياس الثاني هكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين، والمخلوق من النار خير من المخلوق من طين.

فنتيجة هذا القياس العقلي: أنا خير منه، ونتيجة الأول: «ولا»[1] ينبغي لي أن أسجد له.

وأنت إذا تأملت مادة هذا القياس وصورته رأيته أقوى من كثير من قياساتهم التي عارضوا بها الوحي، وقدموها عليه والكل باطل.

وقد اعتذر أتباع الشيخ «أبي مرة»[2] له بأعذار منها: أنه لما تعارض عنده العقل والنقل قدم العقل.

ومنها: أن الخطاب بصيغة الضمير في قوله: (اسجدوا)، ولا عموم له، فإن الضمائر ليست من صيغ العموم.

ومنها: أنه وإن كان اللفظ عاما فإنه خصه بالقياس المذكور.

ومنها: أنه لم يعتقد أن الأمر للوجوب، بل حمله على الاستحباب لأنه المتيقن، أو على الرجحان دفعا للاشتراك والمجاز.

ومنها: أنه حمله على التراخي ولم يحمله على الفور.

ومنها: أنه صان جناب الرب أن يسجد لغيره، ورأى أنه لايليق به السجود لسواه.

«فبالله»[3] تأمل هذه التأويلات، وقابل بينها وبين كثير من التأويلات التي يذكرها كثير من الناس، والمعارضات التي يعارض بها

---

(١) في المختصر: «فلا».
(٢) من المختصر.
(٣) في المختصر: «وبالله».

النصوص، وفي بني آدم من يصوب رأي إبليس وقياسه ويقول: الصواب معه، ولهم في ذلك تصانيف، وكان بشار بن برد[1] الأعمى الشاعر على هذا المذهب، ولهذا يقول في قصيدته الرائية:

الأرض مظلمة سوداء «مقتمة»[2] والنـار معبـودة مذكـانت النـار[3]

ولما علم الشيخ أنه قد أصيب من معارضة الوحي بالعقل، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقصة الوحي والشرع وإبطاله من معارضته بالمعقول، أوحي الى تلامـذتـه وإخـوانـه من الشبهـات الخيالية ما «يعارض»[4] به الـوحي، وأوهم أصحـابه وتلاميذه أنها قواطع عقلية، وقال: إن قدمتم «الوحي»[5] عليها فسدت عقولكم، قال تعالى: **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾**[6].

ومن المعلوم أن وحيهم إنما هو شبه عقلية.

---

(١) هو: بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء، أبو معاذ البصري الضرير. يلقب بالمرعَّث لأنه كان يلبس وهو صغير رِعَاثاً في أذنه وهي القرط. قال عنه أبو تمام: هو أشعر الناس، وقال الصفدي: وقيل إنه كان يفضل النار على الأرض، ويصوب رأي إبليس في امتناعه عن السجود لآدم وقال:

إبـليس خير من أبـيكـم آدم فتـنـبـهـوا يامعشر الـفـجـار
إبـليس من نار وآدم طينـة والأرض لا تسـمـو سمـو النـار

وقال الذهبي: اتهم بالزندقة، فضربه المهدي سبعين سوطا ليقر فمات منها. هلك سنة ١٦٧ انظر سير أعلام النبلاء (٧/٢٤-٢٥٦) ونكت الهميان للصفدي (ص ١٢٥-١٣٠) والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/١٤٩).

(٢) في المختصر: «معتمه» وكلاهما صحيح.

(٣) لم أجده في ديوانه، وقد ذكره محقق الديوان محمد الطاهر بن عاشور في الملحق الذي وضعه لديوان بشار ٤/٩٣ ط سنة (١٩٧٦) بالشركة التونسية، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر. وشكك في صحة نسبته إليه مع أن جل من ترجم لبشار نسبه إليه مع فظائع أخرى، فقد نسبه إليه كل من الصفدي في نكت الهميان ص ١٢٧، وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/١٥ وغيرهما.

وقد أوردوه بلفظ:

الأرض مظلمـة والنـار مشرقـة والنـار معبـودة مذ كانت النسار

(٤) في المختصر: «يعارضون» ولعله أولى.

(٥) في المختصر: «النقل».

(٦) سورة الأنعام (١٢١).

وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون الا الظن وإن هم إلا يخرصون إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾(1).

الوجه التاسع والستون: في بيان فساد معقول الشيخ الذي عارض به الوحي وذلك من وجوه:

أحدها: أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياسا باطلا، ويسمى قياسا إبليسيا، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل وتقديمه عليه، ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته، وقد بينا فيما تقدم أنه ما عارض أحد الوحي بعقله الا أفسد الله عليه عقله حتى يقول ما يضحك منه العقلاء.

الثاني: أن قوله: (أنا خير منه) كذب، ومستنده في ذلك باطل، لأنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى، فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ماهو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته سبحانه، ولهذا كان محمد(2) وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل(3) أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة

(١) سورة الأنعام (١١٢-١١٧).
(٢) في المختصر: «فإن محمداً ﷺ».
(٣) في المختصر: «والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نورا ومادة البشر ترابا.

فالتفضيل ليس بالمواد والأصول، ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيرا وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم، وهذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثا في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الايمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله عز وجل بقوله: ﴿**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾[1] وقال النبي ﷺ: «إن الله وضع عنكم «عُبيِّةَ»[2] الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس مؤمن تقي وفاجر شقي»[3] وقال ﷺ «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض الا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب»[4].

فانظر الى سريان هذه النكته الإبليسية في نفوس أكثر الناس من تفضيلهم بمجرد الأصول والأنساب.

الثالث: أن ظنه أن النار خير من التراب باطل، مستنده ما فيها من الإضاءة والخفة، وما في التراب من الثقل والظلمة، ونسى الشيخ مافي النار من الطيش والخفة، وطلب العلو والإفساد بالطبع، حتى لو وقع منها شواظ

---

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) في الأصل: «عيبه» والتصحيح من المختصر ومن مصادر الحديث والعُبيَّه معناها: الكِبْر، تضم عينها وتكسر، وهي فُعُّولة أو فُعِّلية، فان كانت فُعُّولة فهي من التَّعْبية، ولأن المتكبر ذو تكلف وتَعْبية، خلاف من يسترسل على سَجيته، وإن كانت فُعِّيلة فهي من عبَاب الماء، وهو أوله وارتفاعه. النهاية في غريب الحديث (٣/١٦٩).

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب ح ٥١١٦ (٥/٣٣٩) والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الحجرات ح ٣٢٧٠ (٥/٣٨٩) وكتاب المناقب، باب فضل الشام واليمن ح ٣٩٥٥ (٥/٧٣٤) وأحمد في المسند (٢/٣٦١، ٥٢٤).

(٤) رواه أحمد في المسند (٥/٤١١).

بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومن فيها، بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعددة:

منها: أن طبعه السكون والرزانة، والنار بخلافه.

ومنها: أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه.

ومنها: أنه لا يمكن «لأحد أن يعيش»[1] بدونه، ودون ما خلق منه البته، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار.

قالت عائشة: «كان يمر بنا الشهر والشهران ما نوقد في بيوتنا نارا، أو مانرى نارا، قال لها عروة: «فما كان قوتكم»[2] قالت: الأسودان التمر والماء»[3].

ومنها: أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك، وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك وتمحق بركته.

ومنها: أن الأرض مهبط وحي الله ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه «وكفاتهم»[4] أحياء وأمواتا، والنار مسكن أعدائه ومأواهم.

ومنها: أن في الأرض بيته الذي جعله إماما للناس وقياما لهم، وجعل حجه محطا لأوزارهم، ومكفرا لسيئاتهم، وجالبا لهم مصالح معايشهم ومعادهم.

ومنها: أن النار طبعها العلو والفساد، وأن الله لا يحب المستكبرين

---

(١) في الأصل: «أحدا يعيش» وما أثبت من المختصر.

(٢) في المختصر: «فما عيشكم».

(٣) رواه البخاري كتاب الهبة وفضلها ح ٢٥٦٧ (١٩٧/٥) وكتاب الرقاق باب كيف كان يعيش النبي ﷺ وأصحابه ح ٦٤٥٩ فتح الباري (٥٨٣/١١) ومسلم، كتاب الزهد، ح ٢٩٧٢ (٢٢٨٢/٤) والترمذي، كتاب القيامة ح ٢٤٧١ (٦٤٥/٤) وابن ماجة، كتاب الزهد، باب معيشة آل محمد ﷺ ح ٤١٤٤ (١٣٨٨/٢) وأحمد في المسند (٤٠٥/٢، ٥٠/٦، ٧١، ٨٦، ١٠٨).

(٤) قال الجوهري: الكِفات: الموضع الذي يكفت فيه شيء، أي يضم ومنه قوله تعالى: ﴿**ألم نجعل الأرض كفاتا، أحياء وأمواتا**﴾المرسلات ٢٥، ٢٦، انظر الصحاح مادة «كفت».

ولا يحب المفسدين، والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين.

وقد ظهر هذا بخلق إبراهيم ومحمد وموسى وعيسى والرسل من المادة الأرضية.

وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية.

نعم وخلق من المادة الأرضية الكفار «والمشركين»[1] ومن المادة النارية صالحوا الجن ولكن ليس في هؤلاء مثل إبليس، «وليس»[2] في أولئك مثل الرسل والأنبياء، فمعلم الخير من المادة الأرضية، ومعلم الشر من المادة النارية.

ومنها: أن النار لا تقوم بنفسها بل لابد من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها لاتحتاج إلى محل تقوم به ولا تفتقر «في»[3] قوامها ونفعها إلى النار.

ومنها: أن التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه.

ومنها: أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها وتحيا بها وتخرج زينتها وأقواتها وتشكر ربها، وتنزل على النار فتأباها وتطفئها وتمحوها وتذهب بها.

فبينها وبين الرحمة معاداة، وبين الأرض وبين الرحمة موالاة وإخاء.

ومنها: أن النار تطفأ عند التكبير «فتضمحل»[4] عند ذكر كبرياء الرب، ولهذا يهرب المخلوق منها عند الأذان حتى لا يسمعه[5]، والأرض تبتهج بذلك وتفرح به وتشهد به لصاحبه يوم القيامة.

---

(١) في الأصل: «والمشركون» والتصحيح من المختصر.

(٢) في الأصل: «فليس» وما أثبت من المختصر.

(٣) من المختصر.

(٤) في المختصر: «وتضمحل».

(٥) يشير بذلك إلى حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أذن المؤذن هرب الشيطان حتى يكون بالروحاء» رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣١٦).

ويكفي في فضل المخلوق من الأرض على المخلوق من النار أن الله سبحانه خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء.

فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هذه؟ فقد تبين لك حال هذه المعارضة العقلية للسمع وفسادها من هذه الوجوه، وأكثر منها، وهي من شيخ القوم ورئيسهم ومعلمهم الأول، فما الظن بمعارضة التلامذة؟.

ونحن نقول قولاً نقدم بين يديه مشيئة الله وحوله والاعتراف بمنته علينا وفضله لدينا، وأنه محض منته وجوده وفضله، فهو المحمود أولا وآخرا على توفيقنا له وتعليمنا إياه: أن كل شبهة من شبه أرباب المعقولات عارضوا بها الوحي فعندنا ما يبطلها بأكثر من الوجوه التي أبطلنا بها معارضة شيخ القوم، وإن مد الله في الأجل أفردنا في ذلك كتابا كبيرا.

ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذلك ويقوم به تبلغ إليه أكباد الإبل لاقتدينا «في المسير»[1] إليه بموسى في سفره إلى الخضر، وبجابر بن عبد الله في سفره إلى عبد الله بن أنيس لسماع حديث واحد[2] ولكن أزهد الناس في عالم قومه.

وقد قام قبلنا بهذا الأمر من برز على أهل الأرض في عصره وفي «الأعصار»[3] قبله، فأدرك من قبله وحيدا وسبق من بعده سبقا بعيدا[4] واستنقذ النصوص من أيدي الملحدين ونفي عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وجعل ملوك أرباب المعقولات والمعارضين لها أسرى في أيدي المسلمين، وأخذ عليهم بمجامع الطرق حتى لم يبق لهم

---

(١) في الأصل: «بالمسير» والتصحيح من المختصر.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٩٥) وأورده الخطيب البغدادي في كتابه: الرحلة في طلب الحديث (ص ١٠٩).

(٣) في المختصر: «أعصار».

(٤) هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذ لم يعرف من حاز هذه المكانة غيره، وله في هذا الباب كتابه العظيم «درء تعارض العقل والنقل».

مدد ولا كمين، فجرى عليه من تلامذة هذا الشيخ وأتباعه من الجاهلين والمعاندين والمعطلين ما جرى على من قام مقامه على ممر السنين.

مضوا ومضى ثم التقوا عند ربهم   فأخـــرهم للحكم يوم التخـاصم

الوجه السبعون: أن العقل الذي عارض به هؤلاء «السمع»[1] هو النفي، والذي دل عليه السمع هو الإثبات، فإن السمع دل على اثبات الصفـات، والكـلام والتكليم، وعلو الـرب على خلقـه، واستوائه على عرشـه، ونـزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، ومجيئه وإثباته، وإثبات وجهه الأعلى، ويديه اللتين كلتاهما يمين وغير ذلك.

والعقل عندهم دل على نفي ذلك كله، فالمعارضة التي ادعوها هي معـارضة بين النفي والإثبات، فالرسل جاءوا بالإثبات المفصل للأسماء والصفات والأفعال، فجاء أرباب هذا العقل بالنفي المفصل لها، وادعوا التعـارض بين دليل هذا الإثبـات ودليل النفي، ثم قدموا دليل النفي، فيقال: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: أن العقل لم يدل على ثبوتها.

والثاني: أنه دل على انتفائها.

فإن أردتم بدلالة العقل المقام الأول فنفيها خطأ، فإنه لو نفي كل مالم يدل عليه عقل أو حس نفيت أكثر الموجودات التي لا ندركها بعقولنا ولا حواسنا، وهذ هو حاصل ما عند القوم عند التحقيق.

ومن تدبر أدلتهم حق التدبر علم أنه ليس فيها دليل واحد يدل على النفي، ومعلوم أن الشيء لا ينفي لانتفاء دليل يدل عليه، وإن انتفى العلم به فنفى العلم لا يستلزم نفي المعلوم، فكيف والعقل الصريح دل على ثبوتها كما نبهنا عليه، وسنذكره.

---

(١) في الأصل: «للسمع».

وإن أردتم الثاني، وهو أن العقل «دل على انتفائها»[1] فيقال: العقل إنما يدل على نفي الشيء إذا علم ثبوت نقيضه، فيعلم حينئذ أن النقيض الآخر منتف، فأين في العقل المقطوع بحكمه او المظنون ما يدل على نقيض ما أخبرت به الرسل بوجه من «وجوه»[2] الأدلة الصحيحة.

فالمسلمون يقولون: قد دل العقل والوحي معا على إثبات علم الرب تعالى آمرا ناهيا، وعلى كونه فوق العالم كله، وعلى كونه يفعل بقدرته ومشيئته، وعلى أنه يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويحب ويبغض فقد شهد بذلك العقل والنقل.

أما النقل فلا يمكنكم المكابرة فيه، وأما العقل فلأن ذات الرب أكمل من كل ذات على الإطلاق، بل ليس الكمال المطلق التام من كل وجه إلاله وحده، فيستحيل وصفه بما يضاد كماله، وكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فهو صفة كمال ثبوتها له أكمل من نفيها عنه، وقد اتفقت الأمم على أن الله سبحانه موصوف بالكمال منزه عن أضداده، وإن تنازعوا في كون الصفة المعينة والفعل المعين كمالا أو ليس بكمال، والذين نفوه تخيلوا أن إثباته يستلزم النقص والحدوث، وأن الكمال في نفيه، وإن كان كثيرا من طوائف بني آدم يستجيزون وصفه بالنقائص والعيوب، مع علمهم بأنها عيوب ونقائص، كما صرحت به اليهود من قولهم: إنه فقير[3] وإنه تعب لما خلق العالم[4] وأنه بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة،

---

(١) مابين القوسين لا يوجد في الأصل والسياق يقتضي وجوده، وقد تقدم ما يدل عليه، لأنه أحد المقامين المذكورين آنفا.

(٢) في الأصل: «الوجوه» ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) قال تعالى رادا عليهم: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق**﴾الآية آل عمران ١٨١.

(٤) وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿**ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب**﴾سورة ق ٣٨

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: قالت اليهود عليهم لعائن الله ـ خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوا وتأولوه. تفسير ابن كثير (٧/٣٧٦).

وأنه ندم على خلق آدم وذريته ندما عظيما حتى عض أنامله[١] ويقولون في صلاتهم: «ياإلهنا انتبه من رقدتك كم تنام» ونحو ذلك، والنصارى لا يخفى على أحد منهم أن نزوله عن عرشه، ودخوله في رحم امرأة، وإقامته هناك تسعة أشهر بين الحيض والبول، ثم خروجه طفلا صغيرا يرضع ويبكي، ويأكل ويشرب، ويبول وينام، ويألم، ثم تمكن أعدائه منه، وضعفه، وتسمير يديه ورجليه، وصلبه بين نصبين وعلى رأسه تاج من الشوك، إن هذا غاية التنقص المنافي لكماله، والاتحادية مصرحون بأنه موصوف بكل صفة مذمومة عقلا وعرفا وشرعا.

ومعلوم أن هذه «النقائص»[٢] هي التي دل العقل الصريح واتفاق المرسلين من أولهم الى آخرهم على نفيها عن الله، وتنزيهه عنها، فمن جعل دلالته على نفي علمه وسمعه وبصره وقوته وقدرته وحياته وإرادته وكماله وتكليمه وعلوه على عرشه، ووجهه الأعلى ويديه وغضبه ورضاه كدلالته على نفي تلك العيوب والنقائص، وإثباتها له كإثبات تلك العيوب والنقائص وأن العقل يوجب نفي هذا وهذا، فهو من أسخف الناس عقلا، وأعظمهم جهلا، وأفسدهم فطرة، وكان الذين وصفوه سبحانه بتلك العيوب والنقائص أقرب الى العقل منه، فإنهم وصفوه بالكمال والنقص، وهؤلاء نزهوه عن الكمال، وهو يستلزم وصفه بالنقص فقط.

ومعلوم أن ذاتا موصوفه بالكمال والنقائص أكمل من ذات لا توصف بشيء من الكمالات البته، وتوصف بأضدادها، وأيضا فإن تلك الذات يمكن وجودها وهذه الذات يمتنع وجودها.

والمقصود أنه قد دل العقل مع السمع على إثبات ما يقول هؤلاء: إن العقل عارضه، وغاية ما معهم أن عقولهم لم تدل على إثباته، وقد بينا

---

(١) راجع (ص ٥٤٢) من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: «التناقض».

أنه يستحيل دلالة العقل على نفيه، فإن العقل إنما يدل على نفي ما علم ثبوت نقيضه بالعقل، والعقل لم يعلم به ثبوت نقيض الصفات العلى والأسماء الحسنى، واستواء الرب على عرشه وتكلمه، ورؤية أوليائه له في الآخرة عيانا بالأبصار فوق رؤوسهم، حتى يكون نفي ذلك معلوما «بالعقل»[1] فإن قيل: نحن ما نفينا ذلك إلا لدلالة العقل على نفيه، فإنه لو كان فوق العرش، أو كان يُرى بالأبصار أو كان مكلما متكلما، أو كان له وجه ويد وسمع وبصر، لزم أن يكون جسما، ويلزم من كونه جسما أن يكون مركبا من الجواهر المفردة، أو من المادة والصورة، وإن قلنا بتماثل الأجسام لزم أن يكون مماثلا لكل جسم، ويلزم من كونه مركبا أن يكون مفتقرا إلى أجزائه، وأجزاء المركب غيره، ويلزم من افتقاره الى غيره أن يكون مخلوقا مصنوعا.

فهذا الدليل العقلي الذي أوجب لنا أن ننفي ما «نفيناه»[2] لنثبت إلهيته وربوبيته وقدمه، وأما أنتم فلما أثبتم له هذه الصفات لزمكم نفي قدمه ونفي ربوبيته.

قيل: هذا الدليل هو الذي خرب دياركم وقلع الإيمان «بسرسه»[3] من قلوبكم، وسهل عليكم الاتحاد في أسماء الرب وصفاته، وتعطيله عن كل كمال، وسلبه عنه، وهو في الحقيقة مستلزم لجحد وجود الخالق سبحانه، وإنكار أن يكون للعالم صانع على الحقيقة، ففررتم من إثبات الكمالات له سبحانه، لظنكم أنها تستلزم افتقاره وحدوثه، فوقعتم في «شر»[4] من ذلك وهو تعطيل العالم عن رب يدبره، وعطلتم الصانع عن كماله، وعطلتم العالم عن صانعه.

---

(١) في الأصل: «بل العقل».

(٢) في الأصل: «أنفيناه».

(٣) هكذا في الأصل بمهملتين، ولم أقف له على معنى.

(٤) في الأصل: «شيء» ولعل الصواب ما أثبت.

ولقد أقامت الدهرية والمعطلة أربعين شبهة، التي ذكرتموها واحدة من تلك الأربعين فقالوا: لو كان للعالم رب أو صانع أو خالق لكان إما جسما وإما عرضا، ودليل هذا الحصر أنه إما أن يكون قائما بنفسه وهو الذي يعني بالجسم، وإما أن يكون قائما بغيره وهو الذي يعني بالعرض، فلا يجوز أن يكون عرضا لأنه لا يقوم بنفسه فهو مفتقر إلى محل يقوم به، ولا يجوز أن يكون جسما لما ذكرتم من الدليل المتقدم بعينه.

وكلما تجيبون به إخوانكم في الأصل عن هذه الشبهة فهو جواب أهل السمع والعقل لكم بعينه، فإن قلتم: بل هو قائم بنفسه وليس بجسم قال لكم أهل السمع والعقل: فقولوا هو فوق عرشه موصوف بصفات كماله ونعوت جلاله وحقائق أسمائه وليس بجسم.

فإن قلتم: هذا لا يعقل، قيل لكم: فكيف عقلتم ذاتا قائمة بنفسها فاعلة لغيرها ليست بجسم؟ فإن قلتم: دل الدليل على انتهاء الممكنات والمصنوعات إلى ذات هذا شأنها فأثبتناها بالدليل.

قيل لكم: ودل الدليل على انتهاء المخلوقات والمصنوعات إلى ذات موصوفه بالصفات التي يؤثر بها في المخلوقات، ومقاديرها وصفاتها وأشكالها وهيآتها، وإعدامها بعد إيجادها «وإيجادها»[1] وإيجاد «بدل»[2] منها، ودلالته على ذات هذا شأنها أعظم من دلالته على ذات مجردة لا فعل لها، ولا صفة ولا قدرة ولا مشيئة ولا إرادة.

فإن قلتم: يلزم من ثبوت صفاتها حدوثها، ولا يلزم من تجردها عنها حدوثها، قيل لكم: بل يلزم من تجردها عنها عدمها وامتناع وجودها، فلو لزم من ثبوت صفاتها ما لزم كان خيرا من جحدها ونفيها بالكلية، كيف وتلك اللوازم التي ركبتم بعضها على بعض فيها من التلبيس والتدليس

---

(١) هكذا في الأصل ولعلها زائدة.

(٢) في الأصل: «بدلها».

والإجمال اللفظي، والاشتباه المعنوي، إذا كشف أمره فبين أنها «زغل»[1] ومحال، وأشد شيء منافاة للعقل والسمع، وكل مقدماتها دعاوي كاذبة باطلة بصريح العقل والسمع، فلا يلزم من كونه فوق سمواته على عرشه يسمع ويرى، ويأمر وينهى، ويتكلم ويكلم، أن يكون مركبا من جواهر فرده، ولا من مادة وصورة، ولا أن يكون مماثلا لخلقه، فدعوى هذا اللزوم عين البهت والكذب الصراح، بل العرش خلق من خلقه، ولا يلزم من كونه فوق السموات كلها أن يكون مركبا من الجواهر المفردة، ولا من المادة والصورة، ولا مماثلا لغيره من الأجسام.

وكذلك جبريل مخلوق من مخلوقاته، وهو ذو قوة وحياة وسمع وبصر وأجنحة، ويصعد وينزل، ويرى بالأبصار، ولا يلزم من وصفه بذلك أن يكون مركبا من الجواهر المفردة، ولا من المادة والصورة، ولا أن يكون جسمه مماثلا لأجسام الشياطين، فدعونا من هذا الفشر والهذيان والدعاوى الكاذبة.

والتفاوت الذي بين الله وخلقه أعظم من التفاوت الذي بين جسم العرش وجسم الثرى والهواء والماء، وأعظم من التفاوت الذي بين أجسام الملائكة وأجسام الشياطين.

والعاقل إذا أطلق على جسم صفة من صفاته، وضده من كل وجه موصوف بتلك الصفة، لم يلزم من ذلك تماثلها.

فإن أطلق على الرجيع الذي قد بلغ غاية الخبث أنه جسم قائم بنفسه ذو رائحة ولون، وأطلق ذلك على المسك لم يقل ذو حس سليم ولا عقل مستقيم أنهما متماثلان، وأين التفاوت الذي بينهما من التفاوت الذي بين الله وخلقه؟ فكم تلبسون وكم تدلسون وتموهون؟ فاشتراك الذاتين في معنى من المعاني لا يستلزم تماثلهما عند أحد من العقلاء، وإن المختلفات والمتضادات تشترك في أشياء متعددة، فمشاركة الماء للنار في مسمى

---

(١) راجع معنى «زغل» في الجزء الأول ص ٢٦٤.

الجسمية والحركة وإدراك الحس لهما لا يوجب تماثلهما، وليس معكم دليل واحد صحيح يدل على تركب الأجسام كما ذكرتم، فكيف ولو أقمتم الدليل على ذلك لم يلزم منه تركب خالق الأجسام وجواهرها وأعراضها مما تركبت منه الأجسام بوجه من الوجوه، سوى الدعوى الكاذبة، وهو: أنه لو كان فوق عرشه أو موصوفا بالصفات أو يرى بالأبصار لزم أن يكون مركبا.

وليس العجب من عقول رضيت لنفسها بمثل هذا الهذيان، حتى اعتقدته غاية الغايات العقلية، ونهايات المعارف الإلهية، والمباحث الحكمية، ثم قدمته على نصوص الوحي، فإن هذا في الأصل وضع من قصد معارضة الأنبياء، ورد ما جاؤا به، بل العجب من قوم صدقوا الأنبياء وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم بالبينات، وعلموا أنه الصادق المصدوق الذي **﴿ماينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾** ثم ولج هذا الهذيان في آذانهم فسمعوا، ودخل إلى قلوبهم فقلبوه وعظموا أصحابه، وسموهم المحققين، وقدموا أقوالهم على نصوص الوحي المبين، فضلا عن تقديمه على كلام الصحابة والتابعين، ولقد أحسن القائل فيهم - وإن قصد سواهم - :

خفافيش أغشاها النهار بضوئه ... ولائمها قطع من الليل مظلم

وهذه الحجة الداحضة باطلة من أكثر من سبعين وجها تذكر في غير هذا الموضع.

فلا يلزم من استوائه على عرشه، وثبوت صفات كماله، وتكلمه وتكليمه ورؤيته بالأبصار، أن يكون جسما بالمعنى الذي اصطلحوا عليه، ولو لزم أن يكون جسما لم يلزم أن يكون مركبا بالاعتبار الذي ذكروه، ولو لزم أن يكون مركبا لم يلزم أن يكون مفتقرا إلى مركب ركبه، ولا محتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، ولو لزم أن يكون جسما مركبا لم يلزم أن يكون مماثلا

للأجسام بوجه من الوجوه، فشيء من ذلك غير لازم لعلوه على عرشه، وثبوت صفاته، لا عقلا ولا سمعا، إلا بالدعاوى الكاذبة، حتى لو قدر لزوم ذلك كله لكان التزامه أسهل من تعطيل علوه على عرشه، وتعطيل كلامه، وإبطال أمره ونهيه، وتعطيل صفاته وأفعاله، وجعله بمنزلة المعدوم الممتنع الذي لا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا له فعل يقوم به ولا صفة، «كمال»[1] يتصف بها، فلا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم ولا يقدر، ولا يريد ولا يعقل شيئا، فأي ذات من الذوات المخلوقة المتصفة بذلك فرضت فهي أكمل من هذه الذات.

وقد تقدم أن الدليل العقلي الصحيح إنما دل على انتهاء المخلوقات إلى خالق واحد قديم، غير مخلوق ولا مصنوع، ولا محتاج إلى سواه بوجه من الوجوه، وكل ما عداه محتاج إليه من جميع الوجوه.

ولم يدل على أن هذا الواحد سبحانه معطل عن الأفعال والصفات، وحقائق الأسماء الحسنى، وأن الدليل العقلي إنما دل على خلاف ذلك، وأنه أحق بكل صفة كمال من غيره، وأن كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه فلا يستلزم نقصا، فمعطيه وموجده أحق به وأولى،[2] فكيف يكون المخلوق يتكلم وخالقه لا يتكلم ؟ وكيف يكون سميعا وبصيرا وخالقه لا يسمع ولا يبصر ؟ وكيف يكون حيا عليماً قديراً حكيماً وخالقه ليس كذلك ؟ وكيف يكون ملكا آمراً ناهياً، مرسلا مثيبا معاقبا، وخالقه ليس كذلك ؟ وكيف يكون فاعلاً باختياره ومشيئته وخالقه ليس كذلك ؟ وكيف

(١) في الأصل: «كما».

(٢) هذا هو قياس الأولى، ذكره الإمام ابن تيمية رحمه الله في معرض استدلاله على إثبات صفات الكمال لله تعالى فقال: والله سبحانه وتعالى لاتضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه، فإن الله لا مثل له، بل له المثل الأعلى، فلا يجوز أن يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل، ولا في قياس شمول تستوي أفراده، ولكن يستعمل في حقه المثل الأعلى وهو: أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به، وكل ما تنزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزيه عنه، فإذا كان المخلوق منزها عن مماثلة المخلوق مع المماثلة في الاسم، فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق وإن حصلت موافقة في الاسم» التدمرية (ص ٥٠) تحقيق محمد بن عوده.

يكون قوياً وخالقه ليس له قوة ؟ وكيف يكون رحيماً وخالقه لم تقم به صفة رحمة ولا رأفة ؟ وكيف يكون كريماً حليماً جواداً ماجداً وخالقه ليس كذلك ؟.

هذا، ومن المعلوم بالضرورة أن ما يُرى أكمل ممن لا يمكن أن يُرى فإنه إما معدوم وإما عرض، والمرئي أكمل منهما، وما يتكلم أكمل مما لا يتكلم فإنه إما جماد وإما عرض وإما معدوم، والمتكلم أكمل من ذلك، وماله سمع وبصر ووجه ويدان أكمل من الفاقد لذلك بالضرورة، وهكذا سائر الصفات، فلا أحسن الله في تلك العقول عن أصحابها إذا أحسن عن الصابئين، ولا حياها بما حيا به عباده المرسلين، ولا زكاها بما زكى به أتباعهم من المؤمنين، ونسأله أن لا يبتلينا بما ابتلاهم به من مفارقة المنقول والمعقول وتلقى العلم واليقين من غير مشكاة الرسول، ولا يجعلنا من أتباع قوم ضلوا من قبل وأضلوا «كثيرا»[1] وضلوا عن سواء السبيل.

الوجه الحادي والسبعون: أنه سبحانه وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء، وأنه لا سمي له ولا كفؤ له، وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين، واستحق بقيامها به أن يكون (ليس كمثله شيء)، وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا من يكافيه فيها ولو كان مسلوب الصفات والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين، ومنفياً عنه مباينه العالم ومحايثته، واتصاله به وانفصاله عنه، وعلوه عليه، وكونه يمنته ويسرته وأمامه أو وراءه، لكان كل عدم مثلا له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه «مشابهة»[2] الموجودات، وأثبت لها مماثلة المعدومات، فهذا النفي واقع على أكمل الموجودات وعلى العدم المحض، فإن العدم المحض لا مثل له ولا كفؤ ولا سمي، فلو كان المراد بهذا نفي

---

(١) في الأصل: «كثير».
(٢) في المختصر: «مماثلة».

صفاته وأفعاله، واستوائه على عرشه، وتكلمه بالوحي، وتكليمه لمن يشاء من خلقه، لكان ذلك وصفا له بغاية العدم.

فهذا النفي واقع على العدم المحض، وعلى من كثرت أوصاف كماله ونعوت جلاله وأسماؤه الحسنى حتى تفرد بذلك الكمال، فلم يكن له «شبه»[(١)] في كماله ولا سمي ولا كفؤ، فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح تعين ذلك المعنى الباطل قطعا، وصار المعنى: أنه لا يوصف بصفة أصلا «ولا»[(٢)] يفعل فعلا، ولا له وجه ولا يد، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم ولا يقدر، تحقيقا لمعنى (ليس كمثله شيء)، وقال إخوانكم من الملاحدة: ليس له ذات أصلا تحقيقا لهذا النفي، وقال غلاتهم: «ولا»[(٣)] وجود له، تحقيقا لهذا النفي.

وأما الرسل وأتباعهم «فقالوا: إنه»[(٤)] حي وله حياة، وليس كمثله شيء في حياته، وهو قوي وله القوة، وليس «مثله»[(٥)] شيء في قوته «وهو سميع بصير له السمع والبصر يسمع ويبصر»[(٦)] وليس كمثله شيء في سمعه وبصره، ومتكلم ومكلم، وليس كمثله شيء في كلامه وتكليمه، وله وجه ويدان وليس كمثله شيء، وهو مستو على عرشه «وليس كمثله شيء»[(٧)] «وهذا»[(٨)] النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال فإنه مدح له، وثناء أثنى به على نفسه، والعدم المحض لا يمدح «به»[(٩)] أحد ولا يثنى به عليه، ولا يكون كمالاً له، بل هو أنقص النقص، وإنما يكون كمالاً إذا

---

(١) في المختصر: «شبيه».
(٢) في المختصر: «فلا».
(٣) في المختصر: «لا».
(٤) في المختصر: «فإنهم قالوا إن الله».
(٥) في المختصر: «كمثله».
(٦) في المختصر: «وهو السميع البصير يسمع ويبصر».
(٧) في المختصر: «وليس له في هذه الصفات مثل».
(٨) في المختصر: «فهذا».
(٩) لا توجد في الأصل، وأضفتها من المختصر.

تضمن الإثبات كقوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾[1] لكمال حياته وقيوميته، وقوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾[2] لكمال غناه وملكه وربوبيته، وقوله: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾(٣) ﴿**ولا يظلم ربك أحدا**﴾[4] ﴿**وما الله يريد ظلما للعباد**﴾[5] لكمال عدله وغناه ورحمته، وقوله: ﴿**وما مسنا من لغوب**﴾[6] لكمال قدرته، وقوله: ﴿«**وما**»[7] **يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء**﴾[8] ﴿**وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء**﴾[9] ونظائر ذلك لكمال علمه، وقوله: ﴿**لاتدركه الأبصار**﴾[10] لعظمته وإحاطته بما سواه وأنه أكبر من كل شيء وأنه واسع، فيرى ولكن لا يحاط به إدراكا كما يعلم ولا يحاط به علما فيرى ولا يحاط به رؤية.

«فهكذا»[11] «ليس كمثله شيء» هو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإجمال، وهذا هو المعقول في «نظر»[12] الناس وعقولهم.

«وإذا»[13] قالوا: فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس، أو ماله شبيه ولا له من يكافيه، إنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد «بما لم»[14] يلحقه فيه غيره، فصار واحداً من

---

(١) سورة البقرة (٢٥٥).
(٢) سورة البقرة (٢٥٥).
(٣) سورة فصلت (٤٦).
(٤) سورة الكهف (٤٩).
(٥) سورة غافر (٣١).
(٦) سورة ق (٣٨).
(٧) في الأصل: «لا» وهو خطأ.
(٨) سورة يونس (٦١).
(٩) سورة ابراهيم (٣٨).
(١٠) سورة الأنعام (١٠٣).
(١١) في المختصر: «وهكذا».
(١٢) في المختصر: «فطر».
(١٣) في المختصر: «فإذا».
(١٤) في المختصر: «بما لا».

الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده لكان ذلك عندهم غاية الذم والتنقص له، فإذا أطلقوا ذلك في سياق المدح والثناء لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه التي لها حقائق تحمل عليها، فهل يقول عاقل لمن لا علم له ولا قدرة، ولا سمع ولا بصر، ولا يتصرف بنفسه، ولا يفعل شيئا، ولا يتكلم ولا له وجه ولا يد، ولا قوة ولا فضيلة من الفضائل: أنه لا «شبيه»[1] له ولا مثل له، وأنه وحيد دهره وفريد عصره ونسيج وحده؟ وهل فطر الله الأمم وأطلق ألسنتهم ولغاتهم إلا على ضد ذلك؟

وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنى؟ وإلا فبماذا يثني عليه المثنون، وبماذا يثني على نفسه أعظم مما يثني به على جميع خلقه؟ ولأي شيء يقول أعرف خلقه به «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت عل نفسك»؟ ![2]

ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا يحصيه لو كان بالنفي لكان هؤلاء أعلم به منه، وأشد إحصاء له، فإنهم نفوا عنه حقائق الأسماء والصفات نفيا مفصلا، وذلك مما يحصيه المحصي بلا كلفة ولا تعب، وقد فصّله النفاة وأحصوه وحصروه.

يوضحه:

الوجه الثاني والسبعون: أن الله سبحانه لما نفى عن نفسه ما يناقض الإثبات ويضاد ثبوت الصفات والأفعال، «فلم ينف إلا أمراً عدميا»[3] وما يستلزم العدم «كنفي»[4] السنة والنوم المستلزم لعدم كمال الحياة والقيومية، ونفى العزوب والخفاء المستلزم لنفي كمال العلم، ونفى اللغوب المستلزم

---

(١) في المختصر: «شبه».

(٢) تقدم تخريجه راجع (ص ٦١٧) من هذا الجزء.

(٣) في المختصر: «فلم يبق الأمر عدميا».

(٤) في الأصل: «أنفي» والتصحيح من المختصر.

لنفي كمال القدرة، ونفى الظلم المستلزم «لنفي»[1] كمال الغنى والعدل ونفى العبث المستلزم لنفي كمال الحكمة والعلم، ونفى الصاحبة والولد المستلزمين لعدم كمال الغنى، وكذلك نفى الشريك والظهير والشفيع «المقدم»[2] بالشفاعة المستلزم لعدم كمال الغنى والقهر والملك، ونفى الشبيه والمثيل والكفء المستلزم لعدم التفرد بالكمال المطلق، ونفى إدراك الأبصار له وإحاطة العلم به المستلزمين لعدم كمال عظمته وكبريائه وسعته وإحاطته، وكذلك نفى الحاجة والأكل والشرب عنه سبحانه لاستلزام ذلك عدم غناه الكامل.

وإذا كان إنما نفى عن نفسه العدم أو ما يستلزم ذلك العدم علم أنه أحق بكل وجود وثبوت، وكل أمر وجودي لا يستلزم عدما ولا نقصا ولا عيبا، وهذا هو الذي دل عليه صريح العقل، فإنه سبحانه له الوجود الدائم القديم الواجب «لنفسه»[3] الذي لم يستفده من غيره، ووجود كل موجود «فمفتقر»[4] إليه ومتوقف في تحققه عليه، والكمال وجود كله، والعدم نقص كله، فإن العدم كإسمه لا شيء، فعاد النفي الصحيح إلى نفي النقائص والعيوب ونفى المماثلة في الكمال، وعاد الأمران إلى نفي النقص، وحقيقة ذلك نفي العدم وما يستلزم العدم، فتأمل: هل نفى القرآن والسنة عنه سبحانه سوى ذلك؟ وتأمل هل نفى العقل الصحيح الذي لم يفسد بشبه هؤلاء الضلّال الحيارى غير ذلك؟ فالرسل جاءوا بإثبات ما يضاده، وهو سبحانه «أخبر أنه»[5] ﴿ **لم يكن له كفواً أحد** ﴾، بعد وصفه نفسه بأنه الصمد، والصمد: السيد الذي كمل في سؤدده، ولهذا كانت العرب

(١) في المختصر: «لعدم».
(٢) في المختصر: «المتقدم».
(٣) في المختصر: «بنفسه».
(٤) في المختصر: «مفتقر».
(٥) في المختصر: «قد وصف نفسه بأنه».

تسمي أشرافها بهذا الاسم لكثرة «الصفات»[1] المحمودة «في المسمى»[2] به.

قال شاعرهم:

الابكـر النـاعي بخير بني أسـد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمد: من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، ولهذا قال جمهور السلف: منهم عبد الله بن عباس ـ: الصمد: السيد الذي كمل سؤدده «فهو»[3] العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، «الحكيم الذي كمل حكمه»[4] الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده،[5] ومن قال: إنه الذي لا جوف له، فقوله لا يناقض هذا التفسير[6] فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال، ولا جوف له، فإنما لم يكن أحد كفواً له لما كان صمدا كاملا في «صمديته»[7] فلو لم يكن «له»[8]

(١) في المختصر: «الأوصاف».

(٢) في المختصر: «للمسمى».

(٣) في المختصر: «وهو».

(٤) في المختصر: «الحليم الذي كمل حلمه».

(٥) ذكره الطبري في تفسيره (٣٤٦/٣٠).

(٦) للسلف في تفسير اسم «الصمد» آراء متعددة، ذكر شيخ الإسلام أنها لاتعني اختلافا وتباينا حيث قال رحمه الله: والاسم «الصمد» للسلف أقوال متعددة، قد يظن أنها مختلفه وليس كذلك، بل كلها صواب. والمشهور منها قولان:

أحدهما: أن الصمد هو الذي لا جوف له.

والثاني: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج، والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين، وطائفة من أهل اللغة.

والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين... وتفسير الصمد بأنه الذي لا جوف له معروف عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا، وعن ابن عباس والحسن البصري، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، والسدي وقتادة... وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهذا أيضا مروى عن ابن عباس موقوفا ومرفوعا ـ تفسير سورة الإخلاص (ص ٥ـ٧)

وقد استقصى رحمه الله ـ جميع الأقوال الواردة في تفسير هذا الاسم راجع نفس المصدر (ص ٥ـ٢٣).

(٧) في المختصر: «صمدانيته».

(٨) من المختصر.

صفات كمال ونعوت جلال، ولم يكن له علم ولا قدرة، ولا حياة ولا إرادة ولا كلام، ولا وجه ولا يد، ولا سمع ولا بصر، ولا فعل يقوم به، ولا يفعل شيئا البتة، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق عرشه، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يحب ولا يبغض، ولا هو فعال لما يريد، ولا يرى ولا يمكن أن يُرى، ولا يشار اليه ولا يمكن أن يشار إليه، لكان العدم المحض كفواً له، فإن هذه «الصفات»[1] منطبقة على المعدوم، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صَمَدًا، وكان العدم كفواً له، وكذلك قوله: ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته، هل تعلم له سميا**﴾[2] فأخبر أنه لا سمي له عقيب قول العارفين به: ﴿**وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا**﴾[3] فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا «ينزلون»[4] إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك «فهو»[5] الذي قد كملت قدرته، وسلطانه وملكه، وكمل علمه فلا ينسى شيئا أبدا، وهو القائم بتدبير أمر السموات والأرض وما بينهما كما هو الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال.

فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له، وكذلك قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[6] فإنه سبحانه ذكر ذلك «بعد»[7] ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال: ﴿**حم. عسق. كذلك يوحي إليك وإلى الذين من**

---

(١) في المختصر: «الصفة».
(٢) سورة مريم (٦٥).
(٣) سورة مريم (٦٤-٦٥).
(٤) في المختصر: «يتنزلون».
(٥) في المختصر: «وهو».
(٦) الجزء الثاني من الآية (وهو السميع البصير) لا يوجد في الأصل وهو في المختصر.
(٧) في المختصر: «عقب».

قبلك الله العزيز الحكيم. له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم. تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾[١] إلى قوله: ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[٢] فهذا الموصوف بهذه الصفات، والنعوت، والأفعال، والعلو، والعظمة، والحفظ، والعزة، والحكمة، والملك، والحمد، والمغفرة، والرحمة[٣] والكلام، والمشيئة، والولاية، وإحياء الموتى، والقدرة التامة الشاملة، والحكم بين عباده، وكونه فاطر السموات والأرض، وهو السميع البصير.

فهذا هو الذي «ليس كمثله شيء» لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء، فالمثبت للصفات[٤] والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه سبحانه بأنه «ليس كمثله شيء»، وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه له بأنه «ليس كمثله شيء» مجاز لا حقيقة له، كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه. ولهذا قال من قال من السلف: إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل، فسموا تعطيلهم تنزيها، وسموا ما وصف به نفسه تشبيها، وجعلوا ما يدل على ثبوت صفات الكمال وكثرتها دليلا على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نورا واغتر به من شاء الله، وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة ﴿والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾.

---

(١) سورة الشورى (١-٦).
(٢) سورة الشورى (١١).
(٣) في الأصل أعاد كلمة: «الرحمة» مرة ثانية بعد «والمشيئة».
(٤) في المختصر: «فالمثبت لصفات كماله».

الوجه التاسع والسبعون(*): أنه سبحانه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿**للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾[2].

فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده «ولهذا»[3] كان المثل الأعلى، وهو أفعل تفضيل أي أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أوفى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوا كبيرا.

فمثل السوء «لعادم»[4] صفات الكمال، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملا، وهي: الإيمان والعلم والمعرفة واليقين،[5] والعبادة لله والتوكل عليه والإنابة إليه والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والصبر والرضى والشكر، وغير ذلك من الصفات «التي اتصف بها من آمن بالآخرة»[6] فلما سلبت تلك الصفات عنهم وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته، وسائر ما وصف به نفسه، فقد جعل له مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى، «فإن»[7] مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده

(*) هكذا في الأصل، ولعله خطأ من الناسخ لأن الأوجه مترابطة.
(١) النحل (٦٠).
(٢) الروم (٢٧).
(٣) في المختصر: «وبهذا».
(٤) في المختصر: «العادم».
(٥) في المختصر: «واليقين والاخلاص».
(٦) في المختصر: «التي من اتصف بها كان ممن آمن بالآخرة».
(٧) في المختصر: «وان».

المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى وسمعه الأعلى وبصره الأعلى وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى «وكان»[١] أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ «لم»[٢] يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع من اثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق من الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحدا، إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهارا على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤا وكان القهار واحدا.

فتأمل كيف كان قوله ﴿**ليس كمثله شيء**) وقوله (**وله المثل الأعلى**﴾ من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه.

فإن قلت: قد فهمت هذا وعرفته فما حقيقة المثل الأعلى ؟

قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين، واستشكلوا «قول»[٣] السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: مثل السوء: العذاب والنار، ولله المثل الأعلى شهادة[٤] أن لا إله إلا الله، وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

---

(١) في المختصر: «وهو».
(٢) في الأصل: «ألم».
(٣) في المختصر: «أقوال».
(٤) في الأصل: «على شهادة» ولعل «على» زائدة، وهي غير موجودة في المختصر.

قال الواحدي:[1] هذا قول المفسرين في هذه الآية ولا أدري لم قيل: للعذاب مثل السوء، والإخلاص المثل الأعلى؟ قال: وقال قوم: المثل السوء الصفة السوء من احتياجهم «إلى الولد»[2] وكراهتهم للإناث خوف العيلة والعار، «ولله المثل الأعلى» الصفة العليا من تنزهه وبراءته «عن»[3] الولد.

قال: وهذا قول صحيح «فالمثل كثير»[4] يرد بمعنى الصفة. وقاله جماعة من المتقدمين.

وقال ابن كيسان:[5] مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره**﴾ الآية.

وقال ابن جرير: وله المثل الأعلى نحو قوله: هو الأطيب «والأفضل» والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره[6].

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها،

---

(١) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّوْيَه، أبو الحسن الواحدي النيسابوري، من أئمة التفسير، صنف فيه ثلاثة كتب: البسيط، والوسيط، والوجيز. ومن مؤلفاته أيضا: أسباب النزول، والمغازي، والإغراب في الاعراب، وشرح الأسماء الحسنى، وشرح ديوان المتنبي، ونفي التحريف عن القرآن الشريف. وغيرها. توفي بنيسابور سنة ٤٦٨هـ.

طبقات المفسرين للداودي (١/٣٩٤) وطبقات الشافعية للسبكي (٥/٢٤٠) والأعلام للزركلي (٥/٥٩).

(٢) في المختصر: «للولد».

(٣) في المختصر: «من».

(٤) في المختصر: «والمثل كثيرا» ولعله أولى.

(٥) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن المعروف بابن كيسان، عالم بالعربية نحوا ولغة، أخذ عن المبرد وثعلب.

من مؤلفاته: تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها، والمهذب في النحو، وغلط أدب الكاتب، وغريب الحديث، ومعاني القرآن والمختار في علل النحو. توفي سنة ٢٩٩هـ.

الأعلام للزركلي (٦/١٩٧) وانظر شذرات الذهب (٢/٢٣٢).

(٦) راجع جامع البيان لمحمد بن جرير الطبري (١٤/١٢٥).

ووجـودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه.

فهـا هنـا أربعة أمور: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في «العلم»[1] والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وجلاله وتعظيمه.

وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه بل يختص به في قلوبهم كما اختص به في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحـدهـا، فكـل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاشعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿**بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون**﴾[2] فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأكمل وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الـرابـع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

«فعبارات»[3] السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها.

(١) في الأصل: «العالم» والتصحيح من المختصر.
(٢) سورة البقرة (١١٦).
(٣) في المختصر: «فعبارة».

وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئا وهي مخلوقة، ولا تملك «لأنفسها»[1] ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وقال تعالى: ﴿**ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾[2].

فهذان مثلان ضربهما لنفسه وللأصنام، «فللأصنام»[3] مثل السوء وله المثل الأعلى.

وقال تعالى: ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز**﴾[4].

فهذا المثل الأعلى الذي له سبحانه، والأول مثل السوء للصنم وعابديه، وقد ضرب «الله»[5] سبحانه للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السوء بالكلب تارة، وبالحمر تارة، وبالأنعام تارة، وبأهل القبور تارة وبالعمي الصم تارة، وغير ذلك من «الأمثال»[6] السوء التي ضربها لهم ولأوثانهم، وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال.

ومن تدبر القرآن فهو المراد بالمثل الأعلى ومثل السوء.

وبالله التوفيق.

---

(١) في المختصر: «لنفسها».
(٢) سورة النحل (٧٥، ٧٦).
(٣) في المختصر: «للأصنام».
(٤) سورة الحج (٧٣، ٧٤).
(٥) من المختصر.
(٦) في المختصر: «أمثال».

الوجه الثمانون: أن كل من عارض بين الوحي والعقل، ورد نصوص الكتاب والسنة بالرأي الذي سماه عقلا لابد أن ينقض تلك النصوص المخالفة لعقله ويعاديها ويود أنها لم تكن جاءت، وإذا سمعها وجد لها على قلبه من الثقل والكراهة بحسب حاله واشمأز لها قلبه، والله يعلم ذلك من قلوبهم وهم يعلمونه أيضا حتى حمل جسمها الإنكار والبغض لقوله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ على أن قال: لو أمكنني كشطها من المصحف «كشطتها»[1] وحمل «آخر»[2] بغض قوله ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾[3] على أن حرفها وقرأها بالنصب «وكلم اللهَ موسى تكليما»، أي أن موسى هو الذي كلم الله وخاطبه والله لم يكلمه فقال له أبو عمرو ابن العلاء[4]: فكيف تصنع بقوله ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾[5] فبهت المعطل[6].

وجرى بيني وبين بعض رؤساء هؤلاء مناظرة في مسئلة الكلام، فقال: نحن وسائر الأمة نقول: القرآن كلام الله، لا ينازع في هذه الإضافة أحد، ولكن لا يلزم منها أن يكون الله بنفسه متكلما ولا أنه يتكلم، فمن أين لكم ذلك؟

فقال له بعض من كان معي من أصحابنا: قد قال النبي ﷺ: «إذا

---

(١) في الأصل: «كشطها» ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في الأصل: «أخرى» ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) سورة النساء (١٦٤).

(٤) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري، أحد القراء السبعة، وهو من علماء الطبقة الرابعة من النحويين. وكان من أعلم الناس بالقراءات والعربية، وأيام العرب، والشعر. اختلف في اسمه فقيل: زبّان، وقيل: العريان، وقيل: ليس له اسم.

وثقة يحيى بن معين وغيره. توفي بالاسكندرية سنة ١٥٤هـ.

سير أعلام النبلاء (٤٠٧/٦) ووفيات الأعيان (٤٦٦/٣).

(٥) سورة الاعراف (١٤٣).

(٦) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٠٧).

تكلم الله بالوحي»[1] وقالت عائشة: «ولشأني كان أحقر من أن يتكلم الله في بوحي يتلى»[2].

فرأيت الجهمي قد عبس وبسر وكلح وزوى وجهه عنه كالذي شم رائحة كريهة أعرض عنها بوجهه، أو ذاق طعاما مرا كريها مذاقه، وهذا «أمر»[3] لم يزل عليه كل مبطل، وإذا واجهته بالحق المخالف له وصدمته به وقل من يتبصر «منهم»[4] عند الصدمة الأولى، ولهذا قال بعض السلف: ما ابتدع أحد بدعة إلا خرجت حلاوة الحديث من قلبه.

وقال بعض رؤساء الجهمية أما بشر المريسي[5] أو غيره: ليس شيء أبغض لقولنا من القرآن فأقروا به ثم أولوه، وقال بشر أيضا: إذا احتجوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجوا بالأخبار فادفعوها بالتكذيب[6].

وقال الإمام أحمد: قل من نظر في الكلام إلا وفي قلبه غل على الإسلام[7].

وجاء أفضل متأخريهم فنصب على حصون الوحي أربعة (مجانيق)[8].

---

(١) تقدم تخريجه. راجع الجزء الأول (ص ١٠٨).

(٢) من حديث الإفك، أخرجه البخاري بطوله في كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا ح ٢٦٦١ (٥/٢٦٩) وكتاب المغازي، باب حديث الإفك ح ٤١٤١ (٧/٤٣١) وكتاب التفسير باب «لولا إذ سمعتوه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا» الآية ح ٤٧٥٠ (٨/٤٥٢) وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿**يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾ ح ٧٥٠٠ (١٣/٤٦٥) باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البرره» ح ٧٥٤٥ (١٣/٥١٨).

ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الافك ح ٢٧٧٠ (٤/٢١٢٩) وأحمد في المسند (٦/١٩٧).

(٣) في الأصل: «أمره» ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) في الأصل: «عنهم» والصواب ما أثبت.

(٥) راجع ترجمته (ص ٥١٤).

(٦) ذكر هذين القولين لبشر المريسي شيخ الإسلام ابن تيمية في درء التعارض (٥/٢١٨).

(٧) أورده الخطيب البغدادي في جامع بيان العلم وفضله (٢/٢٥) بلفظ: «لايفلح صاحب كلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل» وذكره السيوطي في صون المنطق (ص ١٣٦).

(٨) في الأصل: «مناجنيق» والمجانيق جمع منجنيق، وهو آلة ترمي بها الحجارة، أصلها فارسية معربه. انظر الصحاح للجوهري (٤/١٤٥٥).

الأول: أنها أدلة لفظية لا تفيد اليقين.
الثاني: أنها مجازات واستعارات لا حقيقة لها.
الثالث: أن العقل عارضها فيجب «تقديمه»[1] عليها.
الرابع: أنها أخبار آحاد.

وهذه المسائل علمية فلا يجوز أن يحتج فيها بالأخبار، ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية أو إظهارها وإشاعتها، وقد يشترطون في أماكن يقفونها أن لا تقرأ فيها أحاديث الصفات.

«وقام»[2] بعض متأخريهم وهو أفضلهم عندهم[3] بإعدام كتب السنة المصنفة في الصفات وكتمانها وإخفائها، وبلغني عن كثير منهم أنه كان يهم بالقيام والانصراف عند ختم صحيح البخاري وما فيه من التوحيد والرد على الجهمية، وسمع منه الطعن في محمد بن إسماعيل، وما ذنب البخاري وقد بلغ ما قاله رسول الله ﷺ؟

وقال آخر من هؤلاء: لقد شان البخاري صحيحه بهذا الذي أتى به في آخره.

ومعلوم أن هذه مضادة صريحه لما يحبه الله ورسوله من التبليغ عنه حيث قال: «ليبلغ الشاهد الغائب»[4] وقال: «بلغوا عني»

---

(١) في الأصل: «تقديمها» وهو خطأ. (٢) في الأصل: «وكان» والسياق يقتضي ماأثبت.

(٣) في الأصل: «عندهم كلا بإعدام» وحذفت «كلا» إذ لا وجه لوجودها.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع». ح ٦٧ فتح الباري (١/١٥٧)، وكتاب الحج، باب الخطبة أيام منى ح ١٧٣٩ (٣/٥٧٣) وكتاب الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم ح ١٨٣٢ (٤/٤١) وكتاب المغازي، ح ٤٢٩٥ (٨/٢٠) وكتاب الأضاحي، باب من قال: الأضحى يوم النحر ح ٥٥٥٠ (١٠/٧) وكتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا...» ح ٧٠٧٨ (١٣/٢٦) وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ح ٧٤٤٧ (١٣/٤٢٤) ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، ح ١٣٥٣ (٢/٩٨٦) وكتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ح ١٦٧٩ (٣/١٣٠٥). والترمذي في كتاب الحج، باب ما جاء في حرمة مكة ح ٨٠٩ (٣/١٦٤) والنسائي، كتاب الحج، باب تحريم القتال في الحرم (٥/١٦١) وابن ماجة في المقدمة، باب من بلغ علما ما، ح ٢٣٣ (١/٨٥). وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده. انظر مثلا (٤/٣١، ٤/٥، ٦/٣٨٥).

«ولو»(١) «آية»(٢) وقال: «نضر الله(٣) امرأ سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(٤).

وقد ذم الله في كتابه الذين يكتمون ما أنزله من البينات والهدى، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزل الله لأنه يخالف ما يقولونه ويعارض ما حكمت به عقولهم وآراؤهم، وهؤلاء الذين قال فيهم عمر: «إنهم أعداء السنن»(٥).

يوضحه.

الوجه الحادي والثمانون: أن كل من أبغض شيئا من نصوص الوحي ففيه من عداوة الله ورسوله بحسب ذلك، «ومن»(٦) أحب نصوص الوحي ففيه من ولاية الله ورسوله بحسب ذلك.

وأصل العداوة البغض، كما أن أصل الولاية الحب.

قال عبد الله بن مسعود: «لايسأل أحدكم عن نفسه غير القرآن فإن

---

(١) في الأصل: «فلو».

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح ٣٤٦١ (٦/٤٩٦) والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ح ٢٦٦٩ (٥/٤٠) والدارمي في المقدمة، باب البلاغ عن رسول الله ﷺ وتعليم السنن (١/١٣٦). وأحمد في مسنده (٢/١٥٩، ٢٠٢، ٢١٤).

(٣) قال أبو سليمان الخطابي: نضر الله معناه: الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة، معالم السنن بحاشية سنن أبي داود (٤/٦٨).

(٤) رواه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، حـ ٢٧٩٤-٢٧٩٥ (٥/٣٣-٣٤) وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود في كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، ح٣٦٦٠ (٤/٦٨) وابن ماجة في المقدمة، باب من بلغ علما ما، ح ٢٣٠-٢٣٢ (١/٨٤، ٨٥)، والدارمي في المقدمة، باب الاقتداء بالعلماء (١/٧٥).

(٥) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة بلفظ: «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا» رقم ٢٠١ (١/١٢٣). وذكره الخطيب البغدادي بروايات عدة في كتابه جامع بيان العلم وفضله (٢/١٣٥) وأورد الروايات ذاتها الإمام ابن القيم في أعلام الموقعين، وعلق عليه بقوله: وأسانيد هذه الآثار عن عمر في غاية الصحة. انظر (١/٥٨) وأورده الامام ابن تيمية في درء التعارض (٥/٢١٩).

(٦) في الأصل: «وما» ولعل الصواب ما أثبت.

كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله»[1].

ومن تأمل قوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾[2].

وجده منطبقا على هؤلاء أتم انطباق، فإنهم يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، والزخرف هو الكلام المزين، كما يزين الشيء بالزخرف وهو الذهب، وهو غرور لأنه يغر المستمع، والشبهات المعارضة للوحي هي كلام زخرف يغر المستمع ﴿**ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون**﴾[3].

فانظر إلى إصغاء المستجيبين لهؤلاء، ورضاهم بذلك، واقترافهم المترتب عليه، فتأمل.

الوجه الثاني والثمانون:[4] وهو قوله تعالى: ﴿**أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا**﴾[5].

«وهذا»[6] يبين أن الحكم بين الناس هو الله عز وجل وحده بما «أنزله»[7] من الكتاب المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾[8] وقال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾[9] وقال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾[10] وقال: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى**

(١) لم أجد من خرجه.
(٢) سورة الأنعام (١١٢).
(٣) سورة الأنعام (١١٣).
(٤) في الأصل: «والثمانين».
(٥) سورة الأنعام (١١٤).
(٦) في المختصر: «فهذا».
(٧) في المختصر: «أنزل».
(٨) سورة الشورى (١٠).
(٩) سورة البقرة (٢١٣).
(١٠) سورة النساء (١٠٥).

يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[١] فقوله: ﴿**أفغير الله ابتغي حكما**﴾ استفهام إنكار، يقول: كيف «أطلب»[٢] حكَماً غير الله وقد أنزل كتابا مفصلا ؟ فإن قوله: ﴿**وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا**﴾ جملة في موضع الحال، وقوله: (مفصلا) يبين أن الكتاب الحاكم مفصل «بين»[٣] ضد ما يصفه به من يزعم أن عقول الرجال وآراءهم تعارض بعض نصوصه، «وأن»[٤] نصوصه خيلت وأفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معان لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة خلاف ما دلت عليه ظواهرها.

فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلا بل مجمل، «مؤول ولا يعلم»[٥] المراد منه «والمراد منه»[٦] خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق.

ثم قال: ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين**﴾[٧] وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن فمن نظر فيه علم علما يقينا أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لا سيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة مطابقة للقرآن في ذلك موافقة له، وهذا يدل على أن ما في التوراة من ذلك ليس هو من المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم، بل هو من الحق الذي «شهد للقرآن»[٨] وصدقه، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ عليهم ما في التوراة من الصفات، ولا عابهم به، ولا جعله تشبيها وتجسيما وتمثيلا، كما فعل كثير من النفاة، وقالوا: اليهود

---

(١) سورة النساء (٦٥).
(٢) في المختصر: «ابتغى».
(٣) في المختصر: «مبين».
(٤) في المختصر: «أو أن».
(٥) في الأصل: «ما دل أو لا يعلم» وما أثبت نقلا عن المختصر أولى.
(٦) مابين القوسين لا يوجد في الأصل، وأثبته نقلا عن المختصر.
(٧) سورة الأنعام (١١٤).
(٨) في المختصر: «شهد له القرآن».

«أمة»[1] التشبيه والتجسيم، ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم قرؤوا ما في التوراة.

فالـذي عابهم الله به من تأويل التحـريف والتبـديل لم يعبهم به المعـطلة والنفاة بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله سبحانه على نبوة رسوله به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات، عابوهم به ونسبوهم فيه إلى التجسيم والتشبيه، وهذا ضد ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئا من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيما وتشبيها صدقهم عليه وأقرهم ولم ينكره، كما صدقهم في خبر الحبر المتفق على صحته من حديث عبد الله بن مسعود[2] وضحك تعجبا وتصديقا له، وفي غير ذلك.

ثم قال: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته**﴾[3].

فقدر أن ما أخبر به فهو صدق وما أمر به فهو عدل، وهذا «يميز»[4] أن مافي النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به، لا نعرض عنه ولا نعارضه، ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدق به، ولو صدقه تصديقا مجملا ولم يصدقه تصديقا مفصلا في أعيان ما أخبر به لم يكن مؤمنا، ولو أقر بلفـظه مع جحد معناه أو صرفه إلى معان أخر غير ما أريد به، لم يكن مصدقا بل هو إلى التكذيب أقرب.

الـوجـه الثالث والثمانون: أنه سبحانه أخبر أن كل حكم خالف حكمه الذي أنزل على رسوله فهو من أحكام الهوى لا من أحكام العقل،

---

(١) في المختصر: «أئمة».

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿**لما خلقت بيدي**﴾ح ٧٤١٤، ٧٤١٥ فتح الباري (١٣/٣٩٣) ومسلم، كتاب صفات المنافقين، ح ٢٧٨٦ (٤/٢١٤٧) والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الزمر ح ٣٢٣٨ (٥/٣٧١) ومسند أحمد (١/٤٢٩).

(٣) سورة الأنعام (١١٥).

(٤) في المختصر: «يبين».

وهو من أحكام الجاهلية لا من حكم العلم والهدى، فقال تعالى: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾[1] فأخبر سبحانه وتعالى أنه ليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى الذي يضل عن سبيله، وليس وراء حكمه الا حكم الجاهلية، وكل هذه الآراء والمعقولات المخالفة لما جاء به الرسول هي من قضايا الهوى وأحكام الجاهلية، وإن سماها أربابها بالقواطع العقلية والبراهين اليقينية، كتسمية المشركين أوثانهم وأصنامهم آلهة، وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحا وإحسانا وتوفيقا.

وقال تعالى: ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله. إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾[2] وقال: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم**[3] **بعد**[4] **الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير**﴾[5] وقال: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين**﴾[6].

وقال: ﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم**﴾[7]

وقال: ﴿**ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون**﴾[8].

وهؤلاء وإن أقروا بألفاظ الوحي فقد كذبوا بمعاني آياته وجحدوا

---

(١) سورة المائدة (٤٩، ٥٠).
(٢) سورة القصص (٥٠).
(٣) كلمة أهواءهم ساقط من الأصل.
(٤) في الأصل: «بغير».
(٥) سورة البقرة (١٢٠).
(٦) سورة البقرة (١٤٥).
(٧) سورة الشورى (١٥).
(٨) سورة الأنعام (١٥٠).

حقائقها، ولهذا اتفق السلف على تسميتهم أهل الأهواء، وأخبروا أن سبب ظهورهم خفاء السنن كما قال عبد الله بن المبارك[1] «إذا خفيت السنة ظهرت الأهواء وإذا قل العلم ظهر الجفا»[2]. بل أهل الأهواء أحسن حالا من المعارضين للوحي بعقولهم، فإنهم عند السلف إنما سموا أهل الأهواء لأنهم تأولوا النصوص على تأويلات نزلوها على أهوائهم، وهؤلاء عارضوا بينها وبين معقولاتهم.

الوجه الرابع والثمانون: أن من عارض نصوص الوحي بالعقل لزمه لازم «من»[3] خمسة لا محيد له البتة، إما تكذيبها، وإما كتمانها، وإما تحريفها، وإما تخييلها، وإماتجهيلها، وهو نسبة المصدقين لها إلى الجهل إما البسيط وإما المركب.

وفساد اللازم يدل على فساد «الملزوم»[4].

وبيان الملازمة: أنه إذا اعتقد أن العقل يخالف ظاهرها فقد اعتقد أن ظاهرها باطل ومحال، فإما أن يقر بلفظها وأن الرسول جاء به أولا، فإن لم يقر بذلك فهو مكذب، وإن أقر بألفاظها فإما أن يقر بأنه أراد معانيها وحقائقها أم لا، فإن أقر بذلك لزمه اعتقاد التخييل فيها والخطاب الجمهوري، وإن لم يقر بأنه أراد حقائقها وما دلت عليه، فإما أن يقول: إنه أراد خلاف ظواهرها وحقائقها أولا، فإن قال: أراد خلاف حقائقها وظواهرها «لزمه»[5] التحريف والتأويل الباطل، وإن قال: لم يرد ذلك، فإما أن يقول: لم يرد بها معنى أصلا بل هي بمنزلة الألفاظ المهملة التي لا

(١) هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة، الحافظ شيخ الإسلام، ولد سنة ١١٨ وتوفي سنة ١٨١ وقيل ١٨٢هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد (١٠/١٥٢) وسير أعلام النبلاء (٨/٣٣٦) وحلية الأولياء (٢/٢٣٧) وشذرات الذهب (١/٢٩٥).

(٢) لم أجد له مصدرا.

(٣) في الأصل: «في».

(٤) في الأصل: «اللازم».

(٥) في الأصل: «لزم».

معنى لها، أو يقول: أراد بها معنى لا يفهمه ولا يعرفه وهذا هو التجهيل.

وقد ذهب إلى كل تقدير من هذه التقادير طائفة من الناس، وقد ذم الله سبحـانه الجميع، قال تعالى: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾[1].

فذم سبحانه وتعالى المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني، والذين يكتبون فيكتمون الباطل ويقولون هذا حق وهو من عند الله، وذم في عدة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدى.

وهـذه الأنـواع الأربعـة المـذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصـوص الـوحي، المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم، فإنهم تارة يكتمـون الأحـاديث والآيات المخـالفـة لأقـوالهم. ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون: هذا من عند الله.

وتـارة يضعـون كتبـاً بآرائهم وعقـولهم «وأهوائهم»[2] وخيالاتهم، ويدعون أنها «الدين»[3] الذي يجب اتباعه، ويقدمونها على نصوص الوحي.

---

(١) سورة البقرة (٧٥-٧٩).

(٢) في الأصل: «واذا وافقهم» ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في الأصل: «دين» ولعل الصواب ما أثبت.

وأما تحريفهم للنصوص بأنواع التأويلات الفاسدة التي يحرفون بها الكلم عن مواضعه فأكثر وأشهر من أن تذكر، كتأويلات القرامطة والباطنية والفلاسفة والرافضة والجهمية والقدرية.

وأما التخييل فكثير منهم يصرحون بأن الرسل قصدت من النصوص إفهام خلاف الحق للمصلحة الجمهورية.

وأما التجهيل فكثير منهم يصرح بأن هذه النصوص لا معنى لها وإنما هي ألفاظ مجردة، ومن أحسن منهم وأجمل يقول: لها معان استأثر الله بعلمها ولم يجعل لنا سبيلا إلى العلم بها، وأكثر هذه الطوائف لا يعرف الحديث ولا يسمعه، وكثير منهم لا يصدق به إذا طرق سمعه، ثم إذا صدقوا به فإن تحريفهم له وإعراضهم عن معانيه أعظم من تحريف القرآن والإعراض عنه.

ولهذا يقر بعض هؤلاء بما في القرآن من الصفات دون ما في الحديث وحـــده.

الوجه الخامس والثمانون: أن المعارضين للوحي بآرائهم خمس طوائف:

طائفة عارضته بعقولهم في الخبريات، وقدمت عليه العقل فقالوا لأصحاب الوحي: لنا «العقل ولكم النقل»(١).

وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم فقالوا لأهل الحديث: لكم الحديث ولنا الرأي والقياس.

وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم وقالوا: لكم الشريعة ولنا الحقيقة.

وطائفة عارضته بسياساتهم وتدبيرهم فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة.

---

(١) في الأصل: «لنا النقل ولكم العقل» وهو خطأ.

وطائفة عارضته بالتأويل الباطن فقالوا: أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن.

ثم إن كل طائفة من هذه الطوائف لا ضابط لما تأتي به من ذلك بل ما تأتي به تبع لأهوائها كما قال تعالى: ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**﴾(١) وقال: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم**﴾(٢) فما هو الا «الهوى»(٣) أو الوحي كما قال تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى**﴾(٤) فجعل النطق نوعين: نطقا عن الوحي ونطقا عن الهوى.

ثم إذا رد على كل من هؤلاء باطله رجع إلى طاغوته وقال: في العقل مالا يقتضيه النقل، وقال الآخر: في الرأي والقياس مالا يجيزه الحديث.

وقال الآخر: في الذوق والحقيقة مالا تسوغه الشريعة، وقال الآخر: في السياسة ما تمنع منه الشريعة، وقال الآخر: في الباطن ما يكذبه الظاهر، فباطل هؤلاء كلهم لا ضابط له، بخلاف الوحي، فإنه أمر مضبوط مطابق لما عليه الأمر في نفسه، تلقاه الصادق المصدوق من لدن حكيم عليم.

الوجه السادس والثمانون: أن الصحابة كانوا يستشكلون بعض النصوص فيه «فيوردون إشكالاتهم»(٥) على النبي ﷺ فيجيبهم عنها، وكانوا يسألونه عن الجمع بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض، ولم يكن أحد منهم يورد عليه معقولاً يعارض النص البتة، ولا عرف فيهم أحد - وهم أكمل الأمم عقولا - عارض نصا بعقله يوماً من الدهر، وإنما حكى الله سبحانه ذلك عن الكفار كما تقدم.

---

(١) سورة القصص (٥٠).
(٢) سورة المائدة (٤٩).
(٣) في الأصل: «الوحي» والصواب ما أثبت إذ السياق يدل عليه.
(٤) سورة النجم (٣، ٤).
(٥) في المختصر: «ويوردون استشكالاتهم».

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نوقش الحساب عذب» فقالت عائشة: «يارسول الله، أليس الله يقول: ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا**﴾[1] فقال: بلى ولكن ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذب[2] فأشكل عليها الجمع بين النصين حتى بين لها صلوات الله وسلامه عليه أنه لا تعارض بينهما، وأن الحساب اليسير هو العرض الذي لابد أن يبين الله فيه لكل عامل عمله، كما قال تعالى: ﴿**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾[3] حتى إذا ظن أنه لن ينجو نجاه الله تعالى بعفوه ومغفرته ورحمته، فإذا ناقشه الحساب عذبه ولابد، ولما قال: «لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[4] قالت له حفصة: أليس الله يقول: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾[5] قال: الم تسمعي قوله تعالى: ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا**﴾[6] فأشكل عليها الجمع بين النصين، وظنت الورود دخولها[7] كما يقال: «ورد المدينة» إذا دخلها، فأجابها النبي ﷺ بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين، فإن المتقين يردونها ورودا ينجون به من عذابها، والظالمين يردونها ورودا يصيرون جثيا فيها به.

---

(١) سورة الانشقاق (٧، ٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من سمع شيئا فراجع حتى يعرفه ح ١٠٣، فتح الباري (١/١٩٦) وكتاب التفسير، باب «فسوف يحاسب حسابا يسيرا» ح ٤٩٣٩ (٨/٦٩٧)، وكتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب ح ٦٥٣٦ (١١/٤٠٠) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إثبات الحساب ح ٢٨٧٦ (٤/٢٢٠٤) والترمذي في سننه كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في العرض ح ٢٤٢٦ (٤/٦١٧) وكتاب التفسير، باب «ومن سورة إذا السماء انشقت» ح ٣٣٣٧ (٥/٤٣٥).

وأحمد في مسنده (٦/٤٧).

(٣) سورة الحاقة (١٨).

(٤) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة ح ٢٤٩٦ (٤/١٩٤٢) وأبو داود في سننه، باب في الخفاء ح ٤٦٥٣ (٥/٤١)، وأحمد في مسنده (٣/٣٥٠، ٦/٤٢٠).

(٥) سورة مريم (٧١).

(٦) سورة مريم (٧٢).

(٧) في المختصر: «هو دخولها».

فليس الورود كالورود.

وقال عمر[1] يوم الحديبية: «ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ فقال: هل قلت لك، إنك تدخله العام؟ قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»[2].

فأشكل على عمر رجوعهم عام الحديبية ولم يدخلوا المسجد الحرام ولا طافوا بالبيت، وظن أن الدخول والطواف الذي بشرهم به ووعدهم النبي ﷺ بذلك العام، فبين «له»[3] أن اللفظ مطلق لا دليل فيه على ذلك العام بعينه، فتنزيله على ذلك العام غلط، فرجع عمر وعلم أنه غلط في فهمه.

ولما أنزل الله عز وجل ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به**﴾[4] قال أبو بكر الصديق: «يارسول الله جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر ألست تنصب الست تحزن، أليس يصيبك الأذى؟ قال: بلى، قال: فذلك مما تجزون به»[5] فأشكل على الصديق أمر النجاة من هذه الآية، وظن أن الجزاء في الآخرة ولابد، فأخبره النبي ﷺ أن جزاءه وجزاء المؤمنين بما يعملون من السوء في الدنيا «ما»[6] يصيبهم من النصب والحزن والمشقة والأذى، فيكون ذلك كفارة لسيئاتهم «ولا»[7] يعاقبون عليها في الآخرة، وهذا مثل قوله: ﴿**وما أصابكم من**

(١) في المختصر: «وقال له عمر».

(٢) من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب الشروط من صحيحه باب الشروط في الجهاد ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢ فتح الباري ٥/ ٣٢٩) وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٠).

(٣) في المختصر: «لهم».

(٤) سورة النساء (١٢٣).

(٥) رواه أحمد في المسند (١/ ١١) والحاكم في مستدركه (٣/ ٧٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص. انظر حاشية المستدرك، نفس الجزء والصفحة.

(٦) في الأصل: «بما» والتصحيح من المختصر.

(٧) في المختصر: «فلا».

مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾[1] ومثل قوله: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾[2] وقوله: ﴿**أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾[3] وإن كان قوله: (**من يعمل سوءا يجز به**) أعم لأنه يتناول الجزاء في الدنيا والآخرة.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾[4] قال الصحابة: «رضي الله عنهم»[5] وأينا يارسول الله[6] لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «ذلك الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم)[7] فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان «لا يكون»[8] آمنا «ولا مهتديا»[9] أجابهم صلوات الله وسلامه عليه «بأن»[10] الظلم الرافع للأمن والهداية على الاطلاق هو الشرك.

وهذا والله الجواب[11] الذي يشفي العليل ويروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام هو الشرك الذي «هو»[12] وضع العبادة في غير

(١) سورة الشورى (٣٠).
(٢) سورة النساء (٧٩).
(٣) سورة آل عمران (١٦٥).
(٤) سورة الأنعام (٨٢).
(٥) ما بين القوسين من المختصر.
(٦) في المختصر: «يارسول الله وأينا».
(٧) سورة لقمان (١٣) والحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله...**﴾ح ٣٤٢٨، ٣٤٢٩ فتح الباري (٦/٤٦٥) ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، ح ١٢٤ (١/١٢٤)، وأحمد في المسند (١/٤٢٤).
(٨) في المختصر: «لم يكن».
(٩) ما بين القوسين لا يوجد في الأصل وأضفته من المختصر.
(١٠) في المختصر: «أن».
(١١) في المختصر: «هو الجواب».
(١٢) «هو» لا يوجد في الأصل. وأضفته من المختصر.

موضعها، والأمن والهدى المطلق هو الأمن في الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم.

فالظلم المطلق التام «مانع من الأمن والاهتداء المطلق»[1] ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانع من مطلق الأمن ومطلق الهدى فتأمله، فالمطلق للمطلق والحصة للحصة.

«ولما أنزل الله سبحانه»[2] ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾[3] أشكل ذلك على بعض الصحابة وظنوا أن ذلك من تكليفهم مالا يطيقونه، فأمرهم النبي ﷺ أن يقابلوا النص بالقبول لا بالعصيان،[4] فبين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أنه لايكلف نفسا إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه وأخطأوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصرا كما حمله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحملهم مالا طاقة لهم به، وأنهم إن قصروا في بعض ما أمروا به أو نهوا عنه ثم استعفوه واستغفروه عفى عنهم وغفر لهم ورحمهم.

---

(١) مابين القوسين لا يوجد في الأصل ولا المختصر، وبإضافته يستقيم الكلام.

(٢) في المختصر: «ولما نزل قوله تعالى».

(٣) سورة البقرة (٢٨٤).

(٤) روى الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة. وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير». فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في أثرها: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير**﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. فأنزل الله عز وجل: ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**. . .﴾ الى آخر السورة. انظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه لم **يكلف إلا** ما يطاق ح ١٢٥ (١/ ١١٥) ومسند أحمد (٢/ ٤١٢).

فانـظر ماذا أعطاهم الله لما قابلوا خبره بالرضى والتسليم والقبول والانقياد دون المعارضة والرد.

ومن ذلك أن عائشة لما سمعت قوله ﷺ: «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»[1] عارضته بقوله تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[2] ولم تعارضه بالعقل بل غلطت الراوي[3].

والصـواب عدم المعارضة وتصويب الرواة «فإنهم»[4] ممن لا يتهم وهم عمر وابنه والمغيرة بن شعبة وغيرهم.

والعذاب الحاصل للميت ببكاء أهله عليه هو: تألمه وتأذيه ببكائهم عليـه.

والـوزر المنفى حمل غير صاحبـه له هو: عقـوبـة الـبريء وأخذه «بجريمة»[5] غيره، وهذا لا «ينفي»[6] تأذي البريء السليم بمصيبة غيره.

فالقـوم لم يكونوا يعارضون النصوص بعقولهم وآرائهم، وإن كانوا يطلبون الجمع بين نصين يوهم ظاهرهما التعارض.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» ح ١٢٨٦ فتح الباري (١٥١/٣) ومسلم في كتاب الجنائز أيضا، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ح ٩٢٧ (٦٣٨/٢) وأبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في النوح ح ٣١٢٩ (٤٩٤/٣) والترمذي في الجنائز باب ما جاء في كراهية البكاء على الميت ح ١٠٠٢ (٣١٧/٣).

(٢) سورة الأنعام (١٦٤).

(٣) ففي صحيح البخاري بعد أن أورد الحديث السابق: قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه». وقالت: حسبكم القرآن ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ ح رقم ١٢٨٨ (١٥٠/٣) ورواه مسلم أيضا في كتاب الجنائز ح ٩٢٩ (٦٤١/٢) وانظر الإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٦٧.

(٤) في الأصل: «فإنه» والتصحيح من المختصر.

(٥) في المختصر: «بجريرة».

(٦) في المختصر: «ينافي».

ولهـذا لما عارض بلال بن عبد الله[1] قوله ﷺ «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» برأيه وعقله وقال: والله لنمنعهن.

أقبل عليه أبوه عبد الله فسبه سبا ما سبه مثله، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لتمنعهن؟[2]

ولما حدث عمران بن حصين عن النبي ﷺ بقوله: «إن الحياء خير كله» فعـارضـه معارض[3] بقوله: إن منه وقارا ومنه ضعفا، «فاشتد»[4] غضب عمران بن حصين وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ «وتقول: إن منه»[5] كذا ومنه كذا، وظن أن المعارض زنديق فقيل له: يا أبا «نجيد»[6] إنه لا بأس به[7].

ولما حدث عبادة بن الصامت بقول النبي ﷺ: «الفضة بالفضة ربا إلا هاوها. . .» الحديث، قال معاوية: ما أرى بهذا بأسا - يعني بيع آنية الفضة بالفضة متفاضلا - غضب عبادة وقال: تراني أقول: قال رسول الله

---

(١) هو بلال بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي، ثقة من الثالثة. انظر التقريب ١/١١٠.

(٢) حديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» متفق عليه وهذا لفظ البخاري. انظر صحيح البخاري، كتاب الجمعة ح ٩٠٠ فتح الباري (٢/٣٨٢) ورواه مسلم في كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة. .» ح ٤٤٢ (١/٣٢٦) ولفظه: «إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها».

أما قصة بلال مع أبيه عبد الله بن عمر فقد رواها الإمام مسلم رحمه الله في نفس الموضع.

(٣) المعارض هو بشير بن كعب كما في رواية الحديث عند مسلم وأحمد.

(٤) في الأصل: «واشتد» والتصحيح من المختصر.

(٥) ما بين القوسين من المختصر. وفي الأصل «أمنه» بعد ﷺ.

(٦) في الأصل: «باعبد» والتصحيح من المختصر. وأبو نجيد هو لقب عمران بن حصين رضي الله عنه. وقد ورد في رواية الحديث عند مسلم. وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٥٠٨).

(٧) الحديث مع هذه القصة رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ح ٣٧ (١/٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٤/٤٤٠).

ﷺ، وتقول: ما أرى بهذا بأسا ؟ لا أساكنك بأرض أنت بها أبدا[١].

ومعاوية لم يعارض النص بالرأي، وكان أتقى لله من ذلك، وإنما خصص عمومه وقيد مطلقه بهذه الصورة وما شابهها، ورأى أن التفاضل في مقابل أثر الصنعة فلم يدخل في الحديث، وهذ مما يسوغ فيه الاجتهاد، وإنما أنكر عليه عبادة مقابلته لما رواه بهذا الرأي، ولو قال له: نعم، حديث رسول الله ﷺ على الرأس «والعين»[٢]، ولا يجوز مخالفته بوجه، ولكن هذه الصورة لا تدخل في لفظه، فإنه إنما قال: الفضة بالفضة مثلا بمثل وزنا بوزن، وهذه الزيادة ليست في مقابلة الفضة، وإنما هي في مقابلة الصنعة، ولا تذهب الصنعة هدراً لما أنكر عليه عبادة، فإن هذا من تمام فهم النصوص وبيان ما أريد بها.

كما أنه هو[٣] ومعاذ بن جبل وغيرهما من الصحابة لما ورثوا المسلم من الكافر ولم يورثوا الكافر من المسلم «لم»[٤] يعارضوا قوله: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»[٥] بآرائهم وعقولهم، بل قيدوا مطلق هذا اللفظ

---

(١) هذه القصة رواها الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساقاه، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا ح ١٥٨٧ (٣/١٢١٠).

(٢) في الأصل: «والعينين» والتصحيح من المختصر.

(٣) أي معاوية، كما في مصنف ابن أبي شيبة عن عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضاءً بعد قضاء أصحاب رسول الله ﷺ أحسن من قضاء قضى به معاوية في أهل الكتاب، قال: نرثهم ولا يرثوننا كما يحل لنا النكاح فيهم ولا يحل لهم النكاح فينا المصنف (١١/٣٧٤).

وقال ابن حزم: روينا عن معاذ بن جبل، ومعاوية، ويحيى بن يعمر، وإبراهيم - يعني النخعي - ومسروق، توريث المسلم من الكافر ولا يرث الكافر المسلم وهو قول إسحاق بن راهويه، وهو عن معاوية ثابت، كما روينا عن طريق حماد بن سلمة أنا داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق أن معاوية كان يورث المسلم من الكافر ولا يورث الكافر من المسلم. قال مسروق: ما حدث في الإسلام قضاء أعجب منه. المحلى (٩/٣٠٤، ٣٠٥). وهذا خلاف قول الجمهور. قال ابن حجر: وحجة الجمهور أنه قياس في مقابلة النص وهو صريح في المراد ولا قياس مع وجوده. فتح الباري (١٢/٥٠).

(٤) في الأصل: «ولم» والتصحيح من المختصر.

(٥) رواه البخاري في كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، ح ٦٧٦٤ فتح الباري (١٢/٥٠) ومسلم كتاب الفرائض ح ١٦١٤ (٣/١٢٣٣) وأحمد في المسند (١/٢٠١، ٢٠٢ز، ٢٠٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢١٨).

أو خصوا عمومه، وظنوا أن المراد به الحربى كما فعل ذلك بعض الفقهاء بقوله «لا يقتل مسلم بكافر»[1] حيث حملوه على الحربى دون الذمى والمعاهد والصحابة في ذلك التقييد والتخصيص أعذر من هؤلاء من وجوه كثيرة، ليس هذا موضعها.

وقد كان السلف يشتد عليهم معارضة النصوص بآراء الرجال، ولا يقرون المعارض على ذلك.

وكان عبد الله بن عباس يحتج في مسألة متعة الحج بسنة رسول الله ﷺ وأمره لأصحابه بها فيقولون له: إن أبا بكر وعمر أفردا الحج ولم يتمتعا، فلما أكثروا عليه قال: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر ؟[2] فرحم الله ابن عباس كيف لو رأي «أقواما»[3] يعارضون قول الله ورسوله بقول أرسطو وأفلاطون[4] وبن سينا[5] والفارابي وجهم بن صفوان وبشر المريسي وأبي الهذيل العلاف[6] وأضرابهم ؟

ولقد سئل عبد الله بن عمر عن متعة الحج فأمر بها فقيل له: إن أباك

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول (ص ٣١٢) هامش رقم (٣).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وقد رواه الإمام أحمد بلفظ: «أراهم سيهلكون أقول. قال النبي ﷺ ويقولون: قال أبو بكر وعمر» المسند (١/ ٣٣٧).

(٣) في المختصر: «قوما».

(٤) أرسطو وأفلاطون تقدمت ترجمتها (ص ٥١٢، ٥١٣).

(٥) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، شرف الملك، الفيلسوف المعروف بالرئيس، صاحب التصانيف الكثيرة في الطب والفلسفة، من أشهرها: القانون والشفا في الطب، والإشارات والتنبيهات في الفلسفة، كان هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين. ولد في إحدى قرى بخارى سنة ٣٧٠هـ وتوفي سنة ٤٢٨. انظر الأعلام للزركلي (١/ ٢٦١-٢٦٢) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ١٥٧-١٦٢).

(٦) الفارابي وبشر المريسي وأبو الهذيل العلاف تقدمت ترجمتهم ص٥١٣-٥١٤، أما جهم فترجمته في الجزء الأول ص١٠٦.

نهى عنها فقال: إن أبي لم يرد ما تقولون، فلما أكثروا عليه قال: «أفرسول الله أحق أن تتبعوا أم عمر؟»[1]

ولما حدث «حماد»[2] عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ في تفسير قوله﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾[3] قال «وضع إصبعه على «طرف»[4] خنصره فساخ الجبل»[5] أنكر عليه بعض الحاضرين وقال أتحدث بهذا؟ فضرب حميدا في صدره وقال: أحدثك عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ وتقول: أتحدث بهذا؟ وهذا كثير[6] جدا لا يتسع له الموضع، فكانت نصوص رسول الله ﷺ أجل في صدورهم وأعظم في قلوبهم من أن يعارضوها، بقول أحد

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء في التمتع ح ٨٢٤ (١٧٦/٣) وهو صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي للألباني (٢٤٦/١).

(٢) في الأصل وفي المختصر: «حميد» وإنما هو حماد بن سلمة كما في سند الحديث عند جميع من رواه، وإنما حميد هو المنكر كما في رواية الحاكم وابن خزيمة، وهو حميد بن أبي حميد الطويل.

(٣) سورة الاعراف (١٤٣).

(٤) في الأصل: «ظفر» والتصحيح من المختصر ومن سنن الترمذي.

(٥) رواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف ح ٣٠٧٤ (٢٦٥/٥) من طريقين إحداهما عن طريق عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة... وقال بعد أن أورد الحديث: هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة.

والأخرى عن طريق عبد الوهاب الوراق حدثنا معاذ بن معاذ عن حماد بن سلمة... وقال: هذا حديث حسن.

ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير (٣٢٠/٢، ٣٢١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التلخيص.

ورواه الإمام أحمد في المسند (٢٠٩/٣) بدون قصة إنكار حميد على ثابت. وابن خزيمة في كتاب التوحيد ح رقم ١٦٢ (٢٥٨/١) وابن جرير الطبري في التفسير (٥٣/٩) وكلهم من طريق حماد بن سلمة. ورواه ابن أبي عاصم من ثلاث طرق حكم الشيخ الألباني بصحتها جميعا. انظر كتاب السنة ح ٤٨٠-٤٨٣ (٢١٠/١، ٢١١).

ولا يلتفت إلى قول ابن الجوزى عنه: «هذا حديث لا يثبت» الموضوعات (١٢٢/١) لأنه قد رواه الأئمة كما رأيت وحكموا بصحته ولذلك رد عليه السيوطي قوله هذا وقال: هذا حديث صحيح رواه خلق عن حماد وأخرجه الأئمة من طرق عنه وصححوه. انظر اللآليء المصنوعة (٢٥/١).

(٦) في الأصل: «كثير عليهم» والكلام يستقيم بحذف كلمة «عليهم».

من النـاس كائنا من كان، ولا تثبت قدم «أحد على»[1] الإيمان إلا على ذلك، وفتح باب هذه المعارضة الباطلة سد لباب الإيمان.

والله المستعان.

الوجه السابع والثمانون: أن حقيقة قول المعارضين بين النصوص الالهية الثبوتية وآراء الرجال، وتقديم الآراء عليها: ألا يحتج بالقرآن والسنة على شيء معين من المسائل العلمية، بل ولا يستفاد التصديق الجازم بشيء من إخبار الله ورسوله البتة، «فإذا»[2] جاز أن يكون فيما أخبر الله به ورسوله في الكتـاب والسنـة أخبار يعارضها صريح العقل، ويجب تقديم العقل عليها من غير بيان من الله ورسوله للحق الذي يطابق مدلول العقل ولا «لمعـاني»[3] تلك الأخبار المناقضة لصريح العقل، فالإنسان لا يخلو من حالين، فإنه إذا سمع النصوص التي أخبر الله ورسوله فيها عما لا يدركه عقله، فإما أن يقدر أن له رأيا مخالفا للنص، أو ليس له رأي يخالفه، فإن كان عنده معقول بزعمه يناقض خبر الله ورسوله قدم «معقوله»[4] وألقى خبر الله ورسوله.

وحينئذ فكل من اقتضى عقله مناقضة خبر من أخبار الله ورسوله قدم عقله، ولم يستفد بخبر الرسول العلم «بثبوت»[5] مخبره، ولم يستفد منه فائدة علمية، بل غايته أن يستفيد إتعاب قلبه وإعمال فكره فيما يحتمله ذلك اللفظ من المعاني التي لا يدل عليها الخطاب ليصرف دلالة الخطاب إليها، ومعلوم أن المقصـود من الخـطاب الإفهـام، وهذا لم يستفد من الخطاب الإفهام ولا الصواب، فإن الحق إنما استفاده من عقله، والمعنى الذي دل عليه الخـطاب الدلالة المألوفة لم يقصد بالخطاب إفهامه، والمعنى البعيد

---

(١) ما بين قوسين لا يوجد في الأصل وأضفته من المختصر.

(٢) في الأصل: وردت «إذا» مكررة.

(٣) في الأصل: «المعاني» والصواب حذف الألف.

(٤) في الأصل: «منقولة» وهو خطأ والصواب ما أثبت.

(٥) في الأصل: «يكبوت».

الذي صرف اللفظ إليه وحمله عليه هو عالم بثبوته بدون الخطاب، فلم يكن في خطاب الله ورسوله عند هؤلاء فائدة علمية البتة، «ولذا»[1] صرحوا بهذا وقالوا: المقصود تعريض متأوليه للثواب، ومضمون هذا: أن «نصوص»[2] الوحي إنما أفادت تضليل الإنسان وإتعاب الأذهان، والتفريق بين أهل الإيمان وإلقاء العداوة بينهم والشنآن، وتمكين أهل الإلحاد من الطعن في القرآن والإيمان.

هذا إن كان في عقله معارض لخبر الله ورسوله، وإن لم يكن عنده معقول يعارض النصوص لم يجزم بأنه ليس في عقول جميع الناس ما يعارض ذلك الخبر، وعدم العلم بالمعارض لا يستلزم العلم بعدمه، فهو يجوز أن يكون ثم معارض ولا علم له به، وهذا يمنع الجزم بالتصديق قطعاً كما تقدم التنبيه عليه، فظهر أن هذه الطريقة تمنع التصديق الجازم فيما أخبر به الرسول من الغيب وتحول بين القلب وبين الإيمان، ويكسر المسألة أنه متى جوز أن يكون في العقل ما يناقض خبر الله ورسوله امتنع منه الإيمان الجازم. والإيمان اليقيني الجازم وهذا التجويز لا يجتمعان أبداً.

يوضحه:

الوجه الثامن والثمانون: أن المعقولات ليس لها ضابط يضبطها، ولا هي «منحصرة»[3] في نوع معين، فإنه ما من أمة من الأمم إلا ولهم عقليات «يختصمون إليها»[4] ويختصون بها، فللفرس عقليات، وللهند عقليات ولليونان عقليات، وللمجوس عقليات، وللصابئة عقليات، «بل كل»[5] طائفة من هذه الطوائف ليسوا متفقين على العقليات، بل بينهم فيها من

(١) في الأصل: «ولد» ولعل الصواب ما أثبت.
(٢) في الأصل: «النصوص» والصواب حذف «ال»التعريف.
(٣) في المختصر: «محصورة».
(٤) ما بين القوسين أثبته من المختصر.
(٥) في المختصر: «وكل».

الاختـلاف والتبـاين ماهـو معروف عند المعتنين به، ونحن نعفيكم من المعقولات واضطرابها، ونحاكمكم إلى المعقولات التي في هذه الأمة، فإنه مامن مدة من المدد إلا وقد ابتدعت فيه بدع يزعم أربابها أن العقل دل عليها، ونحن نسوق لك الأمر من أوله إلى أن يصل إليك بعون الله وحسن توفيقـه فنقـول: لما أظلمت الأرض وبعد «عهد أهلها»[(١)] بنور الوحي، وتفرقوا في الباطل فرقا وأحزابا، لا يجمعهم جامع ولا يحصيهم إلا الذي خلقهم فإنهم فقـدوا نور النبوة ورجعوا إلى مجرد العقول، فكانوا كما قال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه «عز وجل»[(٢)] أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[(٣)] عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[(٤)].

فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي، فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشمس والقمر، والحيرة والشك، أو السحر «أو»[(٥)] تعطيل الصانع والكفر به.

فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم، فأطلع الله شمس الرسالة في تلك «الظلم»[(٦)] سراجا منيرا، وأنعم بها على أهل الأرض في عقـولهم وقلوبهم ومعـاشهم ومعادهم نعمة لا يستطيعون لها شكورا، فأبصروا بنور الوحي مالم يكونوا بعقولهم يبصرونه، ورأوا في ضوء الرسالة

---

(١) في المختصر: «عهدها».

(٢) من المختصر.

(٣) أي استخفتهم فجالوا معهم في الضلال. يقال: جال واجتال: إذا ذهب وجاء ومنه الجولان في الحرب، واجتال الشيء إذا ذهب به وساقه. النهاية لابن الأثير(١/٣١٧).

(٤) تقدم تخريجه في الجزء الأول (ص ٥٩).

(٥) في المختصر: «و» للعطف، بدل «أو» في كل ما تقدم من قوله أو الصلبان... الخ.

(٦) في المختصر: «الظلمة».

مالم يكونوا بآرائهم يرونه، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿**الله ولي الذين أمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[1] وقال «تعالى»[2] ﴿**آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾[3] وقال «تعالى»[4] ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾[5].

وقال: ﴿**أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾[6] فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم «تطفه»[7] عواصف الأهواء ولم تلتبس به ظلم الآراء[8] وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم، وأن لا يخرجوا عن طريقهم، فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأمة، ومع هذا فلم يفارقوه بالكلية، بل كانوا للنصوص معظمين، وبها مستدلين، ولها على العقول والآراء مقدمين، ولم يدع «أحد»[9] منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص[10]، وإنما «أتوا»[11] من سوء الفهم فيها، والاستبداد

---

(١) البقرة (٢٥٧) ومن قوله ﴿**والذين كفروا**...﴾ إلى نهاية الآية لا يوجد في الأصل ويوجد في المختصر.

(٢) من المختصر.

(٣) سورة إبراهيم (١).

(٤) من المختصر.

(٥) سورة الشورى (٥٢).

(٦) سورة الأنعام (١٢٢).

(٧) في المختصر: «تطفئه».

(٨) في المختصر: «ولم تلتبس بظلم الآراء».

(٩) في الأصل: «أحداً» والتصحيح من المختصر.

(١٠) في المختصر: «تعارض الوحي النصوص».

(١١) في الأصل: «أوتوا» والتصحيح من المختصر.

بما ظهر لهم منها دون من قبلهم، ورأوا أنهم إن ابتغوا أثرهم كانوا مقلدين لهم.

فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر، ورموهم بالعظائم وتبرؤوا منهم، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير «ولا يرون»[(١)] السلام عليهم «ولا مجالستهم»[(٢)] وكلامهم فيهم معروف في كتب السنة وهو أكثر من أن يذكر ها هنا، «فلما»[(٣)] كثرت الجهمية في أواخر عصور التابعين كانوا هم أول من عارض الوحي بالرأي، ومع هذا «كانوا»[(٤)] قليلين أذلاء مقموعين مذمومين عند الأمة، وأولهم وشيخهم الجعد بن درهم[(٥)] وإنما نفق عند الناس بعض الشيء لأنه كان معلم مروان بن محمد[(٦)] وشيخه، ولهذا كان يسمى مروان الجعدي، وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة، وشتتهم في البلاد ومزقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة.

«فلما»[(٧)] اشتهر أمره في المسلمين «طلبه»[(٨)] خالد بن عبد الله

---

(١) في المختصر: «وكانوا لا يرون».

(٢) في المختصر: «ومجالستهم» بدون «لا».

(٣) في المختصر: «ولما».

(٤) في الأصل: «وكانوا» وفي المختصر: «فكانوا» ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) الجعد بن درهم، أصله من خراسان ويقال: إنه من موالي بني مروان، مبتدع ضال، وهو أول من قال بخلق القرآن وأخذ عنه الجهم بن صفوان الترمذي. قتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى بالكوفة سنة ١٢٤.

البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠) والأعلام (٢/ ١٢٠).

(٦) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي آخر خلفاء بني أمية الملقب بالحمار، وكان يقال له مروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم، ولد سنة ٧٢ وقتل سنة ١٣٢

البداية والنهاية (١٠/ ٤٦) وفوات الوفيات (٤/ ١٢٧).

(٧) في المختصر: «ولما».

(٨) في الأصل: «فطلبه» والتصحيح من المختصر.

القسري [1]- وكان أميراً على العراق - حتى ظفر به، فخطب الناس في يوم الأضحى وكان آخر ما قال في خطبته: «أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً[2] ثم نزل فذبحه في أصل المنبر «فكان»[3] ضحيته، ثم طفئت تلك البدعة، فكانت كأنها حصاة رمى بها، والناس إذ ذاك عنق واحد[4] أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال، وأنه كلم عبده ورسوله موسى تكليما، وتجلى للجبل فجعله دكا هشيما، إلى أن جاء أول المائة الثالثة، وولي على الناس عبد الله المأمون[5] وكان يحب أنواع العلوم وكان مجلسه عامرا بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات فأمر «بتعريب»[6] كتب اليونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، «فعربت»[7] له واشتغل بها الناس، والملك سوق «ما سوق فيه»[8] جلب إليه، فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن كان أبوه الرشيد قد أقصاهم، وتتبعهم بالحبس والقتل، فحشوا بدعة التجهم في

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري، أبو الهيثم البجلي اليماني، أمير مكة والحجاز، ثم العراق، قتل بالكوفة سنة ١٢٦

البداية والنهاية (١٠/١٧) والتاريخ الكبير للبخاري (٣/١٥٨).

(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٧) والتاريخ الكبير (٣/١٥٨) وابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).

(٣) في المختصر: «وكان».

(٤) أي جماعة واحدة لا اختلاف بينها. قال في اللسان: العنق: الجماعة الكثيرة من الناس، والجمع أعناق، انظر مادة «عنق».

(٥) هو عبد الله بن هارون الرشيد، بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس، سابع خلفاء بني العباس، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨، فتمم ما بدأ جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، من أمثال كتب أفلاطون وارسطاليس، وأبقراط وجالينوس وغيرهم. وحض الناس على قراءتها، وأطلق حرية الكلام لأهل الجدل، بدأ في أواخر عهده محنة القول بخلق القرآن، توفي سنة ٢١٨

تاريخ بغداد (١٠/١٨٣) والأعلام (٤/٢٨٧) والكامل لابن الأثير (٥/٢٢٢).

(٦) في المختصر: «بتعبير».

(٧) في المختصر: «وعبرت».

(٨) في المختصر: «ما ينفق فيه».

أذنه وقلبه، فقبلها واستحسنها ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها.

فلم تطل مدته، فصار الأمر بعده إلى المعتصم[١] وهو الذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل، فقام بالدعوة بعده، والجهمية تصوب فعله «وتدعوه»[٢] إليه، وتخبره أن ذلك هو تنزيه الرب عن التشبيه والتمثيل والتجسيم.

وهم الذين قد غلبوا على قربه ومجلسه، والقضاة والولاة منهم فإنهم تبع لملوكهم، ومع هذا فلم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص وتقديم «الآراء والعقول»[٣] عليها، فإن الإسلام كان في ظهور وقوة، وسوق الحديث نافقة، «ورؤوس»[٤] السنة على ظهر الأرض، ولكن كانوا على ذلك يحومون وحوله «يدندنون»[٥] وأخذوا الناس «بالرغبة»[٦] والرهبة فمن بين أعمى مستجيب، ومن بين مكره «مفتدٍ»[٧] «نفسه»[٨] منهم بإعطاء ما سألوه وقلبه مطمئن بالإيمان، وثبت الله أقواما جعل قلوبهم في نصر دينه أقوى من الصخر وأشد من الحديد، «وأقامهم»[٩] لنصر دينه، وجعلهم أئمة يقتدى بهم المؤمنون لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون، فإنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

---

(١) هو الخليفة العباسي أبو اسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور، ولد سنة ١٨٠ بويع بالخلافة بعهد من أخيه المأمون وكان قليل العلم. واشتدت في عهده محنة القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الأمصار، وعلى يده كانت محنة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل حيث ضرب بالسياط فلم يجب. توفي سنة ٢٢٧

انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٩٠) والبداية والنهاية (١٠/٢٩٥) وتاريخ بغداد (٣/٣٤٢).

(٢) في المختصر: «تدعو».

(٣) في المختصر: «العقول والآراء».

(٤) في المختصر: «وأعلام».

(٥) في الأصل: «يدنون» والتصحيح من المختصر.

(٦) في الأصل: «الرغبة» والتصحيح من المختصر.

(٧) في الأصل: «مقيد» والتصحيح من المختصر.

(٨) في المختصر: «بنفسه».

(٩) في المختصر: «فأقامهم».

قال الله تعالى: ﴿**وجعلنا منهم** [1] **أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾[2] فصبروا من الجهمية على الأذى الشديد ولم يتركوا سنة رسول الله ﷺ لما أرغبوهم به من الوعد «وما تهددوهم به»[3] من الوعيد، ثم أطفأ الله برحمته تلك الفتنة، وأخمد تلك الكلمة، ونصر السنة نصراً عزيزاً، وفتح لأهلها فتحاً مبيناً، حتى صُرِّخ بها على رؤوس المنابر، ودُعي إليها في كل باد وحاضر، وصُنِّف في ذلك الزمان في السنة مالا يحصيه إلا الله.

ثم «انقضى»[4] ذلك العصر وأهله، وقام بعدهم ذريتهم يدعون إلى كتاب الله وسنة رسوله على بصيرة، إلى أن جاء مالا قبل لأحد به، وهم جنود إبليس حقا، المعارضون لما جاءت به الرسل بعقولهم وآرائهم من القرامطة والباطنية والملاحدة، ودعوتهم إلى العقل المجرد، وأن أمور الرسل تعارض «المعقول»[5]، «فهم»[6] القائمون بهذه الطريقة حق القيام بالقول والفعل، فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى، وكسروا عسكر الخليفة مرارا عديدة، وقتلوا الحاج قتلاً ذريعا، وانتهوا إلى مكة فقتلوا بها من وصل من الحاج إليها، وقلعوا الحجر الأسود من مكانه[7] وقويت شوكتهم،

---

(١) في المختصر: «وجعلناهم» وهو خطأ.

(٢) سورة السجدة (٢٤).

(٣) في المختصر: «ولا لما أرعبوهم به».

(٤) في المختصر: «انقرض».

(٥) في الأصل: «المنقول» وما أثبت من المختصر.

(٦) في الأصل: «منهم» والتصحيح من المختصر.

(٧) يذكر ابن كثير في حوادث سنة ٣١٧ أنه لما اجتمع الحجيج بمكة وتوافت ركوبهم من كل مكان وجانب وفج، فاجأهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي، فخرج عليهم في جماعته يوم التروية، فانتهب أموالهم، واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام، وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقا كثيرا. وجلس ـ لعنه الله ـ على باب الكعبة والرجال تصرع حوله وهو يقول: أنا الله وبالله أنا، أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا، فكان الناس يفرون منهم ويتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدي ذلك عنهم شيئا، فلما قضى ـ لعنه الله ـ أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة، أمر أن يدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمر رجلا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه، فسقط على أم رأسه فمات، فعند ذلك انكف الخبيث عن الميزاب، ثم قلع الحجر الأسود، وأخذوه إلى بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة، حتى ردوه سنة ٣٣٩ انظر البداية والنهاية (١١/ ١٦٠-١٦١).

واستفحل أمرهم، وعظمت بهم الرزية، واشتدت بهم البلية.

وأصل طريقهم: أن الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل.

قالوا: فنحن أنصار العقل الداعين إليه، المخاصمين به، المحاكمين إليه، وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام «في الشرق والغرب»[1] وكاد الإسلام أن «ينهد»[2] ركنه لولا دفاع الذي ضمن حفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها[3] ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق، وظهرت من المغرب قليلاً، حتى استفحلت وتمكنت، واستولى أهلها على كثير من بلاد «المغرب»[4] ثم أخذوا «يطوون»[5] البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر، فملكوها، وبنوا بها القاهرة، وأقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها، غير «محاسين»[6] منها هم وولاتهم وقضاتهم وأتباعهم.

وفي زمانهم صنفت رسائل «إخوان الصفا»[7] والإشارات والشفا[8]

---

(١) في المختصر: «بالمشرق والمغرب».

(٢) في المختصر: «ينهدم».

(٣) قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ سورة الحجر (٩).

(٤) في الأصل: «الغرب» والتصحيح من المختصر.

(٥) في المختصر: «يطأون».

(٦) هكذا في الأصل، ولم يتبين المراد منها. وهي غير موجودة في المختصر ففي المختصر: مصرحين بها هم وولاتهم...

(٧) جماعة من الإسماعيلية الباطنية، ألفوا رسائل عرفت برسائل إخوان الصفا وعددها أكثر من خمسين مقالة. راجع درء التعارض (١١/١) هامش رقم (١)

ويقول الإمام ابن تيمية واصفا مقالاتهم: ما يقوله أصحاب «رسائل إخوان الصفا» مخالف للملل الثلاث... فإن في ذلك من مخالفة الرسل فيما أخبرت به، وأمرت به، والتكذيب بكثير مما جاءت به، وتبديل شرائع الرسل كلهم مالا يخفى على عارف بملة من الملل، فهؤلاء خارجون عن الملل الثلاث، ومن أكاذيبهم زعمهم: أن هذه الرسائل من كلام جعفر بن محمد الصادق، والعلماء يعلمون أنها إنما وضعت بعد المئة الثالثة زمان بناء القاهرة... وجعفر بن محمد توفي سنة ١٤٨ قبل بناء القاهرة بأكثر من مئتي سنة. انظر مجموع الفتاوى (١٣٤/٣٥).

(٨) الإشارات والشفا كلاهما من مؤلفات ابن سيناء.

وكتب ابن سينا فإنه قال: كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية[1] وعطلت في زمـانهم السنـة وكتبهـا، والآثار جملة إلا في الخفية، بحيث يكون قارئها وذاكـرها وكاتبها على أعظم خطر،وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي، واستولوا على بلاد الغرب ومصر والشام والحجاز، واستولوا على العراق سنة، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم «ماليس لأحد»[2] من أهل السنة ولا يطمـع فيه، فكم أغمـدت سيوفهم في أعنـاق العلماء، وكم مات في «سجونهم»[3] من ورثة الأنبياء، وكم ماتت بهم سنة وقامت «بهم»[4] بدعة وضلالة، حتى استنقذ الله الأمة والملة من أيديهم في أيام نور الدين[5] وابن أخيه صلاح الـدين[6] فأبـل[7] الإسلام من علته بعد ما وطن المسلمون

---

(١) انظر الأعلام للزركلي (٢/٢٦١) وهي نسبة الى الحاكم العبيدي أحد خلفاء الدولة الفاطمية. وسيأتي التعريف بالطائفة المنتسبة إليه ص ٣٧٩.

(٢) في الأصل: «مالا يحصل إليه أحد» والتصحيح من المختصر.

(٣) في الأصل: «شجونهم» والتصحيح من المختصر.

(٤) في الأصل: «به» والصواب ما أثبت.

(٥) هو نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، المعروف بنور الدين الشهيد، ويلقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم.
توفي سنة ٥٦٩. الكامل لابن الأثير (٩/٢٤) والنجوم الزاهرة (٦/٧١) والأعلام للزركلي (٨/٤٦).

(٦) هو يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك المسلمين، ولد بتكريت سنة (٥٥٩)، عقد الألوية وقاد الجيوش لمحاربة الصليبيين، فكان قائداً مظفراً حقق الله النصر للمسلمين على يديه، فأخرج الصليبيين من بلاد المسلمين، وكان أعظم انتصار له عليهم في فلسطين والساحل الشامي يوم «حطين» وكان رجل سياسة وحرب بعيد النظر، متواضعا مع جنده وأمراء جيشه.
توفي سنة ٥٨٩. انظر: الكامل لابن الأثير (٩/٢٢٥) والأعلام (٩/٢٩١).

(٧) أي برأ منها. يقال: بلَّ من مرضه يَبِلّ بالكسر، أي صح. قال الشاعر:
إذا بَلّ من داءٍ به خال أنـه ... نجـا وبـه الـداء الـذي هو قاتله
يعني الهرم. وكذلك أَبَلَّ واستَبَلَّ، أي برأ من مرضه.
قال الشاعر يصف عجوزا:
صَمَحْمَحَةٌ لا تشتكي الدهرَ رأسها ... ولـو نكـزتهـا حية لأبَـلَّتِ
انظر الصحاح للجوهري مادة «بلل».

أنفسهم على العزاء، وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء وأبدر هلاله بعد أن دخل في المحاق[1] وثابت إليه روحه «بعدما»[2] بلغت التراقي وقيل من راق، واستنقذ الله سبحانه بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب، وأخذ كل من أنصار الله ورسوله من نصرة دينه بنصيب، وعلت كلمة الإسلام والسنة وأذّن بها على رؤوس الأشهاد ونادى المنادي: ياأنصار الله لا تنكلوا عن الجهاد فإنه أبلغ الزاد ليوم المعاد، فعاش الناس في ذلك النور مدة حتى استولت الظلمة على بلاد الشرق، وطفى نور النبوة والوحي، وقدموا العقول والآراء والسياسة والأذواق والرأي على الوحي «فظهرت»[3] فيهم الفلسفة والمنطق وتوابعهما، فبعث الله عليهم عباداً له أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وعاثوا في القرى والأمصار، وكاد الإسلام أن يذهب اسمه وينمحي رسمه، وكان مشار[4] هذه المعرفة، وعالمها الذي يرجعون إليه، وزعيمها الذي يعولون عليه[5] شيخ شيوخ المعارضين بين الوحي والعقل وإمامهم في وقته نصير الكفر والشرك الطوسي، فلم يعلم في عصره أحد عارض بين العقل والنقل «معارضته فرام إبطال السمع بالكلية وأقام»[6] الدعوة الفلسفية، وجعل الإشارات «بدلاً»[7] عن السور والآيات.

---

(١) المحاق من الشهر: ثلاث ليال من آخره. وقال أبو عمرو - من علماء اللغة: الإمحاق: أن يهلك الشيء، كمحاق الهلال وأنشد:

أبوك الذي يكوي أنوف عنوقه ... بأظفاره حتى أنَسَّ وأمحقا

انظر الصحاح، مادة «محق».

(٢) في المختصر: «بعد أن».

(٣) في المختصر: «وظهرت».

(٤) مشار: يعني مصدر المشورة فيها، يقال: أشار يشير، إذا ما وجه الرأي، واستشاره طلب منه المشورة.

انظر القاموس المحيط، وتاج العروس مادة: «شور».

(٥) في المختصر: «المعول فيها عليه».

(٦) في المختصر: «معارضة رام بها إبطال النقل بالكلية مثله فإنه أقام».

(٧) في المختصر: «عوضا».

وقال: هذه عقليات قطعية برهانية قد «عارضت»[1] تلك النقليات الخطابية.

واستعرض «علماء»[2] الإسلام «وأهل القرآن»[3] والسنة على السيف، فلم يبق منهم إلا «من»[4] أعجزه، قصداً لإبطال الدعوة الإسلامية وجعل مدارس المسلمين وأوقافهم «للنجسة»[5] السحرة والمنجمين والفلاسفة والملاحدة والمنطقيين «ورام»[6] إبطال الأذان، وتحويل الصلاة إلى القطب الشمالي[7] فحال بينه وبين ذلك من تكفل بحفظ الإسلام ونصره.

وهذا كله من ثمرة المعارضين بين الوحي والعقل، وتقديم العقل على السمع، ولتكن قصة شيخ هؤلاء القديم[8] منك على ذكر كل وقت، فإنه أول من عارض بين العقل والنقل، وقدم العقل، فكان من أمره ماقص الله عليك.

وورث هذا الشيخ تلامذته هذه المعارضة، فلم يزل يجري على الأنبياء وأتباعهم منها كل محنة وبلية.

---

(١) في المختصر: «قابلت».

(٢) في المختصر: «أهل».

(٣) في المختصر: «وعلماء أهل الإيمان».

(٤) في المختصر: «من قد».

(٥) في المختصر: «للنجسية».

(٦) في المختصر: «ورأى».

(٧) يذكر الإمام ابن تيمية أن المشركين من قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الكواكب ويدعونها ويبنون لها الهياكل، ويعبدون فيها أصنامهم، وأن هذا كان دين كثير من أهل الأرض بالشام والجزيرة والعراق وغيرها، وكان جامع دمشق وجامع حران وغيرهما موضع بعض هياكلهم، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، وبدمشق محاريب قديمة إلى الشمال، والفلاسفة اليونانيون كانوا من جنس هؤلاء المشركين يعبدون الكواكب والأصنام، ويصنعون السحر. انظر مجموع الفتاوي (٥/٤٨٤-٤٨٥) فنصير الكفر الطوسي كان يريد إحياء ما كان عليه أسلافه من مشركي الفلاسفة.

(٨) يريد إبليس لعنه الله.

وأصل كل بلية في العالم كما قال محمد الشهرستاني: (١) من معارضة النص بالرأي، وتقديم الهوى على الشرع(٢).

والناس إلى اليوم في شرور هذه المعارضة وشؤم عاقبتها، فإلى الله المشتكى وبه المستعان.

ثم إنه خرج مع هذا الشيخ المتأخر المعارض بين العقل والنقل أشياء لم تكن تعرف قبله جست(٣) «العميدي»(٤) وحقائق ابن عربى(٥) وتشكيكات الرازي، وقام سوق الفلسفة والمنطق، وعلوم أعداء الرسل التي فرحوا بها لما جاءتهم رسلهم بالبينات، وصارت الدولة والدعوة لأرباب هذه العلوم.

ثم نظر الله إلى عباده، وانتصر لكتابه ودينه، وأقام جندا «تغزوا»(٦) ملوك هؤلاء بالسيف والسنان، وجندا «تغزوا»(٧) علماءهم بالحجة والبرهان.

---

(١) هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، كان إماماً في علم الكلام، وأديان الأمم، ومذاهب الفلاسفة، أشعري المذهب، ولد في شهرستان (بين نيسابور وخوارزم) سنة ٤٧٩ وصفه ياقوت الحموي بقوله: «الفيلسوف المتكلم، صاحب التصانيف، كان وافر الفضل كامل العقل لولا تخبطه في الاعتقاد ومبالغته في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم»

من أشهر مؤلفاته: «الملل والنحل، ونهاية الاقدام في علم الكلام» توفي سنة ٥٤٨

انظر وفيات الأعيان (٤/٢٧٣) ومعجم البلدان (٣/٣٧٧)، والأعلام (٤/٨٣).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/١٦).

(٣) الجست لفظة فارسية معناها البحث، وقد أصبحت تطلق على نوع من فروع الخلاف. وكان العميدي أول من أفرده بالتصنيف، ومن تقدمه كان يمزجه بخلاف المتقدمين.

انظر وفيات الأعيان (٤/٢٥٧) وهامش رقم (٢) من المصدر نفسه.

(٤) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد - وقيل أحمد - العميدي الفقيه الحنفي المذهب السمرقندي، الملقب ركن الدين، كان إماما في فن الخلاف والجدل توفي في بخارى سنة ٦١٥

انظر وفيات الأعيان (٤/٢٥٧) والأعلام (٧/٢٥٤).

(٥) هو أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بابن عربي، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، وهو من أصحاب القول بوحدة الوجود، من مؤلفاته فصوص الحكم، والفتوحات المكية وغيرها. ولد سنة ٥٦٠ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨.

انظر: شذرات الذهب (٥/١٩٠-٢٠٢) والأعلام (٧/١٧١).

(٦، ٧) في المختصر: «يغزو».

ثم نبغت نابغة منهم في رأس القرن «الثامن»[1] فأقام الله لدينه شيخ الإسلام أبا العباس ابن تيمية قدس الله روحه، فأقام على غزوهم مدة حياته باليد والقلب واللسان، وكشف للناس باطلهم وبين تلبيسهم وتدليسهم، وقابلهم بصريح المعقول وصحيح المنقول، وشفى واشتفى، وبين «مناقضتهم»[2] ومفارقتهم لحكم العقل الذي به يدلون وإليه يدعون، وأنهم أترك الناس لأحكامه وقضاياه، فلا وحي ولا عقل.

فأرداهم في حفرهم، ورشقهم بسهامهم، وبين أن صحيح معقولاتهم خدم لنصوص الأنبياء، شاهدة لها بالصحة.

وتفصيل هذه الجملة موجودة في كتبه[3] فمن نصح نفسه ورغب عن قوله: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[4] يتبين له حقيقة الأمر﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[5] والمقصود أن كل بلية طرقت العالم عامة أو خاصة، فأصلها من معارضة الوحي بالعقل، وتقديم الهوى على الأمر، والمعصوم من عصمه الله.

الوجه التاسع والثمانون: أنه قد ثبت بالعقل الصريح والنقل الصحيح ثبوت صفات الكمال للرب سبحانه، وأنه أحق بالكمال من كل ما سواه وأنه يجب أن تكون القوة كلها له، «والعزة كلها له والعلم كله له والقدرة كلها له، والجمال كله له وكذلك سائر صفات الكمال»[6].

وقام البرهان السمعي والعقلي على أنه يمتنع أن يشترك في الكمال التام اثنان، وأن الكمال التام لا يكون إلا لواحد، وهاتان مقدمتان يقينيتان

---

(١) في المختصر: «السابع».
(٢) في المختصر: «تناقضهم».
(٣) من أراد أن يقف على تفصيل ذلك فليرجع إلى كتابه «درء تعارض العقل والنقل».
(٤) سورة الزخرف (٢٣).
(٥) سورة النور (٤٠).
(٦) في المختصر: «وكذا العزة والعلم والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال».

معلومتـان بصريح العقـل، وجـاءت نصوص الأنبياء مفصلة «لما»[1] في صريح العقل إدراكه قطعا، فاتفق على ذلك العقل والنقل.

قال تعالى: ﴿**ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا**﴾[2].

وقد اختلف في تعلق قوله: (أن القوة لله جميعا) بماذا؟

فقالت طائفة: هو مفعول يرى، أي: «ولو»[3] يرون أن القوة لله جميعا لما عصـوه، ولـما كذبوا رسله وقدموا عقولهم على وحيه، وقالت طائفة: بل المعنى: لأن القوة لله جميعا، وجواب «لو» محذوف على التقديرين.

أي «لو»[4] يرى هؤلاء حالهم وما أعد الله لهم إذ يرون العذاب لرأوا أمراً عظيما.

ثم قال: (أن القوة لله جميعا) وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد.

وقال تعالى: ﴿**بل لله الأمر جميعا**﴾[5] وقال: ﴿**إن الأمر كله لله**﴾[6] وقـال النبي ﷺ في دعـاء الاستفتـاح: «لبيك وسعـديك والخير كله «بيديك»[7] [8] وفي الأثر الآخر «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله»[9] فلله سبحانه كل صفة كمال، وهو موصوف بتلك «الصفات»[10] كلها، ونذكر من ذلك صفة واحدة تعتبر بها سائر الصفات وهو: أنك لو فرضت جمال الخلق كلهم من أولهم إلى

(١) في المختصر: «بها».
(٢) سورة البقرة (١٦٥).
(٣) في المختصر: «فلو».
(٤) في المختصر: «ولو».
(٥) سورة الرعد (٣١).
(٦) سورة آل عمران (٥٤).
(٧) في المختصر: «في يديك».
(٨) راجع تخريج الحديث (ص ١٤٥) من الجزء الأول.
(٩) أثر عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه. رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٩٦).
(١٠) في الأصل: «الصفة» والتصحيح من المختصر.

آخرهم اجتمع لشخص واحد منهم، ثم كان الخلق كلهم على جمال ذلك الشخص، لكـان نسبتـه إلى جمال الـرب تبارك وتعالى دون نسبة سراج ضعيف إلى جرم الشمس.

وكذلك قوته سبحانه، وعلمه، وسمعه، وبصره، وكلامه، وقدرته، ورحمته، وحكمته، «وجوده»[1] وسائر صفاته.

وهذا مما دلت عليه آياته الكونية «و»[2] السمعية، وأخبرت به رسله عنه، كما في الصحيح عنه ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل[3] حجـابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه[4] ما انتهى إليه بصره من خلقه»[5] فإذا كانت سبحات وجهه الأعلى لا يقوم لها شيء من خلقه، ولو كشف حجاب النور عن تلك السبحات «لاحترق»[6] العالم العلوي والسفـلي، فما الـظن بجـلال ذلـك الـوجه الكريم، وعظمته، وكـبريائـه، وكـماله، وجماله؟ وإذا كانت السموات مع عظمتها وسعتها يجعلها على أصبع من أصابعه، والأرض على أصبع، والجبال على أصبع والبحار على أصبع فما الظن باليد الكريمة التي هي صفة من صفات ذاته؟ وإذا كان يسمـــع ضجيج الأصـــوات، باختـلاف اللغـات، على تفنن الحاجات، في أقطار الأرض والسموات، فلا تشتبه عليه، ولا تختلط، ولا تلتبس، ولا يغ لطه سمـع[7] ويرى دبيب النملة السـوداء على الصخرة

---

(١) في المختصر: «ووجوده». (٢) من المختصر.

(٣) في المختصر: «عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل».

(٤) سبحـات، جمع سبحه، وهي: جلال وجهه ونوره. انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (١٧٣/٣).

(٥) رواه الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام...» ح ١٧٩ (١٦١/١) وابن ماجة، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ح ١٩٥، ١٩٦ (٧٠/١-٧١) وأحمد في المسند (٤٠١/٤، ٤٠٥).

(٦) في المختصر: «لأحرق».

(٧) في المختصر: «سمع عن سمع».

الصماء، تحت أطباق الأرض، في الليلة الظلماء، ويعلم ما تسره القلوب وأخفى منه، وهو مالم يخطر لها أنه سبحانه سيخطر لها، ولو كان البحر المحيط بالعالم مدادا، ويحيط به من بعده سبعة أبحر كلها مداد، وجميع أشجار الأرض، وهو كل نبت قام على ساق مما يحصد ومما لا يحصد أقلام يكتب بها، نفدت البحار والأقلام ولم ينفد كلامه، وهذا وغيره بعض ما تعرف به إلى عباده من «كماله»[1]، وإلا فلا يمكن «أحداً»[2] قط أن يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، فكل الثناء، وكل الحمد، وكل المجد، وكل الكمال، له سبحانه، «هذا»[3] الذي وصلت إليه عقول أهل الإثبات، وتلقوه عن الرسل، ولا يحتاجون في ثبوت علمهم وجزمهم بذلك إلى الجواب عن الشبه القادحة في ذلك، وإذا وردت عليهم لم تقدح فيما علموه وعرفوه ضرورة، من كون ربهم تبارك وتعالى كذلك، وفوق ذلك.

فلو قال لهم قائل: هذا الذي علمتموه لا يثبت إلا «بجواب»[4] عما عارضه من العقليات، قالوا لقائل هذه المقالة: هذا كذب وبهت، فإن الأمور الحسية والعقلية واليقينية قد وقع فيها شبهات كثيرة تعارض ما علم بالحس والعقل.

فلو توقف علمنا بذلك على الجواب عنها وحلها، لم يثبت لها ولا لأحد علم بشيء من الأشياء، ولا نهاية لما تقذف به النفوس من الشبه «الخيالية»[5] وهي من جنس الوساوس والخطرات والخيالات التي لا تزال تحدث في النفوس شيئا فشيئا، بل إذا جزمنا بثبوت الشيء جزمنا ببطلان ما يناقض ثبوته، ولم يكن ما يقدر من الشبه الخيالية على نقيضه مانعاً من جزمنا به، ولو كانت الشبه ما كانت.

---

(١) في الأصل: «كلامه» وما أثبت نقلا عن المختصر أولى.
(٢) في المختصر: «لأحد».
(٣) في المختصر: «هو».
(٤) في المختصر: «بالجواب».
(٥) ما بين القوسين من المختصر.

فما من موجود يدركه الحس إلا ويمكن كثيراً من الناس أن يقيم على عدمه شبها كثيرة يعجز السامع عن حلها.

ولو شئنا لذكرنا لك طرفا منها تعلم أنه أقوى من شبهة الجهمية النفاة لعلو الرب على خلقه وكلامه وصفاته.

وقد رأيت أو سمعت ما أقامه كثير من المتكلمين من الشبه على أن الإنسان «تبدل»(١) نفسه «الناطقة»(٢) في الساعة الواحدة أكثر من ألف مرة، وكل لحظة تذهب روحه «وتفارق»(٣) وتحدث له روح أخرى غيرها، هكذا أبدا، وما أقاموه من الشبه على أن السموات والأرض والجبال والبحار تتبدل كل لحظة ويخلفها غيرها، وما أقاموه من الشبه على أن روح الإنسان ليست فيه ولا خارجة عنه، زعموا أن هذا أصح المذاهب في الروح، وما أقاموه من الشبه على أن الإنسان إذا انتقل من مكان إلى مكان، لم يمر على تلك «الأجزاء التي بين»(٤) مبدأ حركته ونهايتها، ولا قطعها ولا حاذاها، وهي مسألة طفرة النظام(٥) وأضعاف أضعاف ذلك.

وهؤلاء طائفة الملاحدة من الاتحادية كلهم «يقول»(٦): إن ذات الخالق هي عين ذات المخلوق، «لا»(٧) فرق بينهما البتة، وأن الاثنين واحد، وإنما الحس والوهم يغلط في التعدد، ويقيمون على ذلك شبها كثيرة، قد نظمها ابن الفارض(٨) في قصيدته، وذكرها صاحب الفتوحات

---

(١) في المختصر: «تتبدل». (٢) في الأصل: «الناقضه» والتصحيح من المختصر.
(٣) في المختصر: «وتفارقه». (٤) في المختصر: «الأمكنة الأخرى التي من...».
(٥) راجع التعريف بالنظام وقوله بالطفره (ص ٤٧٣).
(٦) في المختصر: «يقولون». (٧) في المختصر: «ولا».
(٨) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العاشقين، في شعره فلسفة تتصل بوحدة الوجود.
ولد سنة ٥٧٦، له ديوان شعر مطبوع ضم قصيدته التائيه التي ملأها بفلسفته في القول بوحدة الوجود، والتي قال عنها الإمام الذهبي: فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال، توفي بالقاهرة في جماد الأولى سنة ٦٣٢هـ.
انظر التكمله لوفيات النقله للمنذري (٣/٣٨٨) وسير أعلام النبلاء (٢٢/٣٦٨) والأعلام (٥/٢١٦).

في فصوصه(١) وغيرها: وهذه الشبه كلها من واد واحد، ومشكاة واحدة، وخزانة واحدة، وهي مشكاة الوساوس، وخزانة الخيال، «فلو»(٢) لم نجزم بما علمناه إلا بعد «التعرض لتلك»(٣) «الشبهة»(٤) على التفصيل وحلها والجواب عنها، لم يثبت لنا علم بشيء ابدا، فالعاقل إذا علم أن هذا الخبر صادق، علم أن كل ما عارضه فهو كذب، ولم يحتج «أن»(٥) يعرف أعيان الأخبار المعارضة له ولا وجوهها.

والله المستعان.

الوجه التسعون: أن هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم، ليس عندهم علم ولا هدى ولا كتاب مبين، فمعارضتهم باطلة، وهم فيها أتباع كل ﴿**شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير**﴾(٦) فهذه حال كل من عارض آيات الله، بمعقوله، ليس عنده إلا الجهل والضلال، ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب، فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ماهو أخص وهو الهدى، ثم انتقل إلى ماهو أخص وهو الكتاب المبين(٧)، فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله، فإن الهدى قد يكون كتابا، وقد يكون «سنة»(٨)، وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطعا.

أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل فقد قالوا: إنه لا يفيد علماً ولا يقينا، والمعقول يعارضه، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا «سنة»(٩)، وبقي العلم فهم يدعونه، والله تعالى قد نفاه عنهم، وقد قام

---

(١) يعني فصوص الحكم لمحيى الدين بن(٢)بي في المختصر: «ولو».
(٣) في المختصر: «العلم برد».   (٤) في المختصر: «الشبهات».
(٥) في المختصر: «لأن».   (٦) سورة الحج (٣، ٤).
(٧) قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**﴾ سورة الحج (٨).
(٨، ٩) في الأصل: «شبه» والصواب ما أثبت.

البرهان والدليل العقلي المستلزم لمدلوله على صدق الرب في خبره، فعلم قطعا أن هذا الذي عارضوا به الوحي ليس بعلم، إذ لو كان علما بطل دليل العقل الدال على صدق الرب تعالى في خبره، فهذا يكفي في العلم بفساد كون ما عارضوا به علما، فكيف وقد قام الدليل العقلي الصحيح المقدمات على فساد تلك المعارضة، وأنها تخص الجهل المركب، فكيف وقد اتفق على. فساد تلك المعارضة العقل والنقل، ونحن نطالب هؤلاء المعارضين بواحدة من تلك، إما كتاب منزل، أو أثارة من علم يؤثر عن نبي من الأنبياء، أو معقـول صحيح المقـدمـات قد اتفق العقلاء على صحة مقدماته، وهم يعلمون والله شهيد عليهم بأنهم عاجزون «عن»[1] هذا وهذا، فترك ما علمناه من كتاب ربنا وسنة نبينا «وما نزل»[2] به جبريل من رب العالمين، على قلب رسـولـه الأمـين، بلسان عربي مبين، لوحي الشياطين، وشبه الملحدين، وتأويلات المعطلين.

فإن قيل: فما الفرق بين الصنف الأول الذي يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، والصنف الثاني الذي يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، كما ذكرهم سبحانه صنفين؟

قيل: قد ذكر سبحانه ثلاثة أصناف: صنفاً يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، مكتوباً عليه إضلال من تولاه، وهذه حال المتبع لأهل الضلال.

وصنفاً «. . . يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله»[3] وهذه حال المتبوع المستكبر الصاد عن سبيل الله، فالأول حال الأتباع، والثاني حال المتبوعين، ثم ذكر حال من يعبد

(١) في الأصل: «على» وما أثبت هو الصواب.
(٢) في الأصل: «ونزل» والسياق يقتضي إضافة «ما».
(٣) سورة الحج (٨-٩).

الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به دنياه ارتد عن دينه، وهذه حال من كان مريضا في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء، ولهذا ذكر ذلك في العبادة أصلها القصد والإرادة، وأما الأولان فحال الضال والمضل، وذلك مرض في العلم والمعرفة، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد، والجدال بالباطل، والله سبحانه يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، ولا صلاح للعبد إلا بمعرفة الحق وقصده، كما قال تعالى: ﴿**إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1] فمن لم يعرف الحق كان ضالا، ومن عرفه ومن لم يتبعه كان مغضوبا عليه، ومن عرفه واتبعه فقد هدي إلى الصراط المستقيم، وأول «الشر»[2] الضلال، ومنتهاه الغضب، كما أن أول الخير الهدى، ومنتهاه الرحمة والرضوان، فذكر سبحانه في آيات الحج ما يعرض في العالم من الضلال والإضلال، وما يعرض في الإرادة والعمل من اتباع الأهواء، كما جمع بينهما في قوله: ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾[3] فقال أولاً: ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد**﴾[4] وهذا يتضمن الجدال فيه بغير هدى ولا كتاب منير، فإن من جادل بغير ذلك فقد جادل بغير علم، فبقي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علما بأي طريق حصل، وذلك منفي أن يكون مجادلا بهدى أو كتاب منير، هذه حال الضال المتبع لمن يضله، فلم يحتج إلى تفصيل، فبين أنه يجادل بغير علم ويتبع شيطان مريد، كتب على ذلك الشيطان أن من اتبعه فإنه يضله

(١) سورة الفاتحة (٦، ٧).
(٢) في الأصل: «الشهر» والصواب ما أثبت.
(٣) سورة النجم (٢٣).
(٤) سورة الحج (٣).

«ويهديه»[1] إلى عذاب السعير، وهذه حال مقلدة أئمة الضلال من الكفار وأهـل الأهواء والبدع، ثم ذكر حال المتبوع الذي ثنى عطفه تكبرا، كما قال: ﴿**وإذا تتـلى عليـه آيـاتنـا ولى مستكـبراً كأن لم يسمعها**﴾[2] وذكر التفصيل في مجادلة المتبوع الباغي، وأنه «يجادل»[3] في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، واكتفى في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم لنفي هذه الثـلاثـة، فإن مجادلـة المتبـوع أصـل وهو أقعد[4] بها من مجادلة التابع، ومصدرها كبر، ومصدر مجادلة التابع ضلال وتقليد، فذكر حال المتبوع على التفصيل، ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه، وذكر من عقوبته أشد «مما»[5] ذكر من عقوبة التابع، وهذا وأمثاله من أسرار القرآن التي حرمها الله على من عارض بينه وبين العقل، وقدم العقل عليه.

الوجه الحادي والتسعون: [6] أن العقل ملزوم لعلمنا بالشرع ولازم له، ومعلوم أنه إذا كان اللزوم من أحد الطرفين لزم من وجود الملزوم وجود اللازم، ومن نفي اللازم نفي الملزوم، فكيف إذا كان التلازم من الجانبين، «فإن هذا التلازم يستلزم أربع»[7] نتائج، إذ يلزم من ثبوت هذا الملزوم ثبوت لازمه، ومن ثبت لازمه المساوي ثبوته، ومن نفى اللازم نفى ملزومه، «ومن نفى ملزومه»[8] المساوي نفيه، وهذا شأن كل شيئين بينهما تلازم من الطرفين، وبيان ذلك ها هنا: أنه إذا كان العقل هو الأصل الذي به عرف صحة السمع كما تقدم، وقد بينا أن العقل ليس أصلا للسمع في ثبوته في

(١) في الأصل: «يهدي» والصواب ما أثبت.

(٢) سورة لقمان (٧).

(٣) لا توجد في الأصل، والسياق يقتضي وجودها.

(٤) أقعـد بمعنى أقرب، يقال: فلان أقعد نسبا، إذا كان أقرب إلى الأب الأكبر. انظر معجم مقاييس اللغة مادة قعد.

(٥) في الأصل: «من» ولعل الصواب ما أثبت.

(٦) في الأصل: «السبعون» وهو خطأ.

(٧) في الأصل: «فإن هذا التزام التلازم سيلزم أربعة».

(٨) ما بين القوسين مكرر في الأصل.

نفس الأمر، بل هو أصل في ثبوت (علمنا)[1] أي دليل لنا على صحته، وإذا كان كذلك، فمن المعلوم أن الدليل يجب طرده، وهو ملزوم للمدلول عليه، فيلزم من ثبوت الدليل ثبوت المدلول عليه، ولا يجب عكسه، فلا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فإن المخلوقات آيات ودلائل على الخالق سبحانه يلزم من ثبوتها ثبوته، ولا يلزم من عدمها عدمه، ولا من وجوده وجودها.

وكذلك الآيات الدالة على نبوة رسله، هذا إذا لم يكن الدليل لازما للمدلول عليه، فإن كان لازما أمكن أن يكون مدلولا له، إذا المتلازمان يمكن أن يستدل بكل منهما على الآخر، مثل الحكم الشرعي الذي لا يثبت إلا بدليل شرعي، فإنه يلزم من عدم دليله عدمه، وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، إذا لم ينقل فإنه يلزم من عدم نقله عدمه، وإذا كان من المعقول ما هو دليل على صحة الشرع لزم من ثبوت ذلك المعقول ثبوت الشرع، ولم يلزم من ثبوت الشرع، ثبوته في نفس الأمر، لكن نحن إذا لم يكن لنا طريق إلى العلم بصحة الشرع إلا ذلك العقل، لزم من علمنا بالشرع علمنا بدليله العقلي الدال عليه، ولزم من علمنا بذلك الدليل العقلي علمنا به، فإن العلم بالدليل يستلزم العلم بالمدلول عليه، فإذا كان صحة الشرع لا تعلم إلا بدليل عقلي، فإنه يلزم من علمنا بصحة الشرع علمنا بالدليل العقلي الدال عليه، ويلزم من علمنا بذلك الدليل العقلي علمنا بصحة الشرع، ويلزم أيضا من ثبوت ذلك الدليل المعقول ثبوت الشرع، ولا يلزم من ثبوت الشرع ثبوت ذلك الدليل، وإذا كان العلم بصحة الشرع لازما للعلم بالمعقول الدال عليه وملزوما له، فمن الممتنع تناقض اللازم والملزوم، فضلا عن تعارض المتلازمين، فإن المتعارضين هما المتنافيان اللذان يلزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، كالضدين

(١) في الأصل: «علمناه» ولعل الصواب حذف الهاء.

والنقيضين، والمتلازمين يلزم من ثبوت كل منهما ثبوت الآخر، ومن انتفائه انتفاؤه، فكيف يكون المتلازمان متعارضين متنافيين متناقضين أو متضادين، فهؤلاء عمدوا إلى المتلازمين المتصادقين فأبطلوا أحدهما بالآخر، ولزم من بطلانه بطلانهما جميعا كما تقدم بيانه، وقد تبين أن الدليل العقلي الذي به تعلم صحة الشرع مستلزم للعلم بصحة الشرع، ومستلزم ثبوت الشرع في نفس الأمر، وعلمنا بالشرع يستلزم العلم بالدليل العقلي الذي قيل إنه أصل الشرع، والعلم بصحة الشرع موقوف عليه، وليس ثبوت الشرع في نفسه مستلزما لثبوت ذلك الدليل العقلي، فعلم أن ثبوت الشرع في نفس الأمر أقوى من ثبوت دليله العقلي في نفس الأمر، فإن ثبوت الشرع في علمنا أقوى من ثبوت دليله العقلي إن قيل إنه يمكن أن تعلم صحته بغير ذلك الدليل، وإلا لكان العلم بهذا والعلم بهذا متلازمين، وإذا كان كذلك كان القدح في الشرع قدحاً في دليله العقلي على صحته بخلاف العكس، وكان القدح في الشرع قدحاً في هذا العقلي، وليس القدح في الشرع قدحاً في هذا العقلي، وليس القدح في هذا العقل مستلزما للقدح في الشرع مطلقا، وأما ما سوى المعقول الدال على صحة الشرع فذلك لا يلزم من بطلانه بطلان الشرع، كما لا يلزم من صحته صحة الشرع.

الوجه الثاني والتسعون: أن هؤلاء المعارضين بين العقل والوحي هم في الأصل فرقتان: الفلاسفة وجهمية المتكلمين[1] وهؤلاء لهم طريق قد سلكوها، وأولئك لهم طريق أخرى، وكل من الفريقين ينقض حجج الفريق الآخر، ويبين فساد طريقته، ثم كل فرقة منهما تنقض بعضهم حجج بعض، واعتبر هذا بالرازي والآمدي[2] فإنهما جمعا خلاصة ما ذكره

(١) جهمية المتكلمين يعني بهم من تأثر برأي جهم في تقديم العقل على النقل وقال بقوله في نفي الصفات وتأويلها، كالمعتزلة، والأشاعرة.

(٢) الرازي والآمدي من أئمة الأشاعرة، وقد تقدمت ترجمتهما.

النفاة من أهل الفلسفة والكلام، ثم إنهما أفسدا عامة تلك الطرق التي سلكوها، فكل طائفة تبطل الطريقة العقلية التي اعتمدت عليها الأخرى بما يظهر به بطلانها بالعقل الصريح، وليسوا متفقين على طريقة واحدة، وهذا يبين خطأهم كلهم من وجهين: من جهة العقل الصريح الذي يبين به كل قوم فساد ما قاله الآخرون، ومن جهة أنه ليس معهم معقول اشتركوا فيه، فضلا عن أن يكون من صريح المعقول، بل المقدمة التي تدعى طائفة من النظار صحتها وتقول الأخرى هي باطلة.

وهذا بخلاف مقدمات أهل الإثبات الموافقة لما جاء به الرسول، فإنها من العقليات التي تقبلها فطر العقلاء السليمة، بل الفطر التي لم تفسد متفقة عليها، ولا ينازع فيها إلا من تلقى تعلما من غيره لا من موجب فطرته، فإنما يقدح فيها بمقدمة تقليدية وهو يدعي أنها عقلية فطرية، ومن تدبر ما عند المعارضين ولم يقلدهم فيه تبين له أن جميع المقدمات التي ترجع إليها أدلة المعارضين إنما ترجع إلى تقليد منهم لأسلافهم، لا إلى ما يعلم بضرورة العقل ولا نظره، فهم يعارضون ما قامت الأدلة العقلية على ثبوت تصديقه وسلامته من الخطأ، بما قامت الأدلة العقلية على أنه لا يجب تصديقه، بل قد علم جواز الخطأ عليه، وعلم وقوع الخطأ فيه فيما هو دون الإلهيات، فضلا عن الإلهيات التي يتيقن خطأ من خالف الرسل فيها بالأدلة المجملة والمفصلة، بل يعارضون ما يجب تصديقه بما يعلم بصريح العقل أنه خطأ، بل يعارضون السمعيات التي يعلم أن العقل الصريح موافق لها، بما يعلم العقل الصريح أنه باطل.

والمقصود أن الطرق التي سلكها الفلاسفة في إبطال الصفات والأفعال، قد أفسدها عليهم المتكلمون، وبينوا خطأهم فيها بصريح العقل، كما هو موجود في كتب هؤلاء وهؤلاء، فانظر ما فعل أبو علي[1]،

---

(١) يقصد أبا علي الجبائي من شيوخ المعتزلة راجع ترجمته (ص ٥١٤).

وأبو هاشم[1]، والقاضي عبد الجبار[2]، والأشعري[3]، وأبو بكر بن الباقلاني[4] وأبو الحسين البصري، والجويني، والغزالي، وأمثالهم بطريق الفلاسفة، وانظر ما فعل ابن سينا وابن رشد والطوسي وأمثالهم بطرق المتكلمين، فإنك تجد ذلك من أعظم النصرة للنصوص النبوية، والمثال المنطبق عليهم بعسكر الإسلام خرج عليه عسكر كثيف يغزونهم، فخرج على ذلك العدو عدو من ورائهم، فأقبلوا إليهم وأشتغلوا بهم، فيصادم بعضهم بعضا، ويكسر بعضهم سلاح بعض، وعسكر الإسلام في حصن من الطائفتين، ولكن إذا اصطلح العسكران فإنهما يصطلحون على المسلمين ومن علم مافي الوجود تبين له مطابقة هذا المثال.

وبالله التوفيق.

---

(١) أما أبو هاشم فهو ابن الجبائي السابق واسمه: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المتكلم، شيخ المعتزلة ومصنف الكتب على مذاهبهم سكن بغداد إلى حين وفاته، ولد سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٣٢١

تاريخ بغداد (١١/٥٥-٥٦) وسير أعلام النبلاء (١٥/٦٣-٦٤) والبداية والنهاية (١١/١٧٦) وشذرات الذهب (٢/٢٨٩).

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل، أبو الحسن الهمداني، برع في علم الكلام وهو شيخ المعتزلة في عصره من كبار فقهاء الشافعية، ولي قضاء القضاة بالري، وله مصنفات كثيرة منها: دلائل النبوة، وشرح الأصول الخمسة، وتنزيه القرآن عن المطاعن. وأكبر مؤلفاته في علم الكلام كتاب المغنى يتألف من سبعة عشر مجلدا، وغيرها. توفي في ذي القعدة سنة ٤١٥

تاريخ بغداد (١١/١١٣-١١٥) وشذرات الذهب (٣/٢٠٢-٢٠٣) وسير أعلام النبلاء (١٧/٢٤٤-٢٤٥).

(٣) يعني أبا موسى علي بن إسماعيل الأشعري الذي يدعي الأشاعرة الأنتماء إليه. تقدمت ترجمته في الجزء الأول (ص ١٣٦).

(٤) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري، ثم البغدادي، المعروف بابن الباقلاني، أصولي متكلم على مذهب الأشعري، من مؤلفاته: التمهيد، والاستبصار، ودقائق الكلام، وإعجاز القرآن. وغيرها، ذكر ابن العماد الحنبلي في الشذرات أن ابن تيمية وصفه بأنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده.

وفيات الأعيان (٤/٢٧١) وشذرات الذهب (٣/١٦٨-١٧٠) وسير أعلام النبلاء (١٧/١٩٠-١٧٣).

الـوجه الثالث والتسعون: أن الطريق التي سلكها نفاة الصفات والعلو «والتكليم»[1] من معـارضـة النصوص الإلهية بآرائهم وما يسمونه معقولاً، هي بعينها الطريق التي سلكها إخوانهم من الملاحدة في معارضة نصوص المعاد بآرائهم وعقولهم «ومقدماتها»[2] ثم نقلوها بعينها إلى ما أمروا به من الأعمال، كالصلوات الخمس، والزكاة، والحج، والصيام، فجعلوها للعامة دون الخاصة، فآل بهم الأمر إلى أن ألحدوا في الأصول الثلاثة التي اتفق عليهـا جميع الملل، وجاءت بها جميع الرسل، وهي: الأيمان بالله، واليوم الآخر، والأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن [3] بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[4].

فهؤلاء المـلاحدة يحتجون على نفاة الصفات بما وافقوهم عليه من الإعراض عن نصوص الوحي ونفي الصفات، كما ذكر ابن سينا في الرسالة الأضحوية، فإنه قال فيها لما ذكر حجة من أثبت معاد البدن، وأن الداعي لهم إلى ذلك ما ورد به الشرع من بعث الأموات فقال: «وأما أمر الشرع فينبغي أن يعلم فيه قانون واحد وهو: أن الشرع «والملة»[5] الآتية على لسان نبي من الأنبياء يرام بها خطاب الجمهور كافة، ثم من المعلوم الواضح أن التحقيق الذي ينبغي أن يرجع إليه في صحة التوحيد، من الإقرار بالصانع موحـدا مقـدسـاً عن: الكم، والكيف، والأين، «والمتى»[6] والـوضع، والتغير[7] حتى يصير الاعتقاد به: أنه ذات واحدة لا يمكن أن يكون لها

---

(١) في المختصر: «والتكلم».

(٢) «ومقدماتها» مكررة في الأصل.

(٣) في المختصر: «من آمن منهم» وزيادة «منهم» خطأ.

(٤) سورة البقرة (٦٢).

(٥) في الأضحوية: «والملل» وفي المختصر: «وهو أن الملل . . .» بدون كلمة الشرع.

(٦) في المختصر: «ومتى» وهو كذلك في إحدى نسخ الأضحوية المخطوطة أشار إليها المحقق.

(٧) هذه من المقولات العشر عند الفلاسفة، راجع بيانها (ص ٥٣٢).

شريك في النوع، أو يكون لها جزء وجودي كمي أو معنوي، ولا يمكن أن تكون خارجه عن العالم، ولا داخلة فيه، ولا «حيث»[1] تصح الإشارة «إليه بأنه هنا أو هناك»[2] «وهذا»[3] ممتنع إلقاؤه إلى الجمهور، ولو ألقى هذا على هذه الصورة إلى العرب العاربة «أو»[4] العبرانيين «الأجلاف»[5] «لسارعوا»[6] إلى العناد، واتفقوا على أن الإيمان المدعو إليه إيمان «بمعدوم لا وجود له أصلا»[7] ولهذا ورد «مافي»[8] التوراة تشبيها كله، «ثم إنه لم يرد»[9] في «الفرقان»[10] من «الإشارة»[11] إلى هذا الأمر «الأهم»[12] شيء، «ولا إلى تصريح ما يحتاج إليه في التوحيد»[13] بيان مفصل، بل أتى بعضه على سبيل التشبيه في الظاهر، وبعضه جاء تنزيها مطلقا عاماً جدا، لا تخصيص ولا تفسير له، وأما «الأخبار التشبيهية»[14] فأكثر من أن تحصى، ولكن «القوم لا يقبلوها»[15] فإذا كان الأمر في التوحيد «هكذا»[16] فكيف «بما»[17] هو بعده من الأمور الاعتقادية ؟.

---

(١) في الأضحوية: «بحيث».
(٢) في الأضحوية: «إليه أنه هناك» وفي المختصر: «إليها بأنها هنا أو هناك».
(٣) لا توجد في «الأضحوية» وفي الأصل: «هذا»وأضفت الواو من المختصر.
(٤) في المختصر: «و». (٥) في الأضحوية: «والأجلاف».
(٦) في الأضحوية: «لتسارعوا». (٧) في الأضحوية: «معدوم أصلا».
(٨) لا توجد في الأضحوية.
(٩) في الأضحوية: «ثم لم يرد».
(١٠) في الأضحوية: «القرآن» وأشار المحقق إلى ورودها كما وردت هنا في نسخة أخرى للأضحوية.
(١١) في المختصر: «الإشارات».
(١٢) في الأضحوية: «المهم».
(١٣) في الأضحوية: «ولا أتى بصريح ما يحتاج إليه من التوحيد».
(١٤) في الأضحوية: «أخبار التشبيه وفي المختصر: «الآحاد التشبيهية» وأشار المحقق إلى وجودها في أحد نسخ الأضحوية كما أوردها ابن القيم هنا.
(١٥) في الأصل: «لقوم أن لا يقبلوه» وفي المختصر: «أبى القوم إلا أن يقبلوها» وما أثبت من الأضحوية.
(١٦) في الأصل، وفي المختصر: «هذا» وما أثبت من الأضحوية.
(١٧) في الأضحوية: «فيما».

ولبعض الناس أن يقولوا: إن للعرب توسعاً في الكلام ومجازا، وإن «الألفاظ التشبيهية»[1] مثل الوجه، واليد، والإتيان في ظلل من الغمام، والمجيء، والذهاب، والضحك، والحياء، والغضب، صحيحة، ولكن «هي مستعملة استعارة ومجازا»[2] قال: ويدل على استعمالها غير «مجازية»[3] ولا مستعارة بل محققة «أن المواضع»[4] التي يوردونها حجة في أن العرب تستعمـل هذه المعاني «بالاستعارات»[5] والمجاز على غير معانيها الظاهرة مواضع في مثلها «يصلح»[6] أن تستعمل على «غير»[7] هذا الوجه، ولا يقع فيها تلبيس ولا تدليس، وأما قوله: **﴿في ظلل من الغمام﴾**[8] وقوله: **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾**[9] على «القسمة»[10] المذكورة، «وما جرى»[11] مجراه، فليس تذهب الأوهام فيه البتة إلى أن العبارة مستعارة «أو مجازية»[12]، فإن كان أريد فيها ذلك إضـماراً فقد رضى بوقوع الغلط «والتشبيه»[13] والاعتقاد المعوج بالإيمان بظاهرها تصريحا.

وأما قوله: **﴿يد الله فوق أيديهم﴾**[14] وقوله: **﴿مافرطت في جنب الله﴾**[15] فهو موضع الاستعارة والمجاز، والتوسع في الكلام، ولا يشك في

---

(١) في الأضحوية: «ألفاظ التشبيه» وأشار المحقق إلى وجودها في نسخة أخرى مثل اللفظ الذي أورده ابن القيم هنا.

(٢) «هي» في أول الجملة لا توجد في المختصر، وعبارة الأضحوية: «نحو الاستعمال وجهة العبارة تدل على استعمالها استعارة ومجازا».

(٣) في الأضحوية: «مجازة».

(٤) في الأضحوية: «والمواضع».

(٥) في الأضحوية: «بالاستعارة».

(٦) في الأضحوية: «تصلح».

(٧) «غير» لا توجد في الأضحوية.

(٨) سورة البقرة (٢١٠).

(٩) سورة الأنعام (١٥٨).

(١٠) في الأضحوية: «التسمية».

(١١) في الأضحوية: «وما يجري».

(١٢) في الأضحوية: «أو مجازه».

(١٣) في الأضحوية: «والتشبيه».

(١٤) الفتح (١٠).

(١٥) سورة الزمر (٥٦).

ذلك اثنان من فصحاء العرب، ولا يلتبس على ذي معرفة في لغتهم، كما «يلتبس»(١) «في تلك الأمثلة، فإن هذه الأمثلة»(٢) لاتقع شبهة في أنها «استعارة»(٣) مجازية «كذلك»(٤) في تلك لا تقع شبهة في أنها ليست «استعارية»(٥) ولا مراداً فيها شيء غير الظاهر، ثم هب أن هذه كلها «موجودة»(٦) على الاستعارة، «فأين التوكيد والعبارة المشيرة بالتصريح إلى التوحيد المحض»(٧) الذي تدعو إليه حقيقة هذا «الدين»(٨) المعترف بجلالته على لسان حكماء العالم قاطبة.

ثم قال في ضمن كلامه «إن الشريعة الجائية على لسان نبينا جاءت أفضل ما يمكن أن تجيء عليه الشرائع وأكمله ولهذا صلحت أن تكون خاتمة للشرائع وآخر الملل»(٩).

قال: وأين الإشارة إلى الدقيق من المعاني «المشيرة»(١٠) الى علم التوحيد، مثل: أنه عالم بالذات، أو عالم بعلم، قادر بالذات، أو قادر بقدره، واحد «الذات»(١١) على كثرة الأوصاف، أو قابل «للكثرة - تعالى عنها -»(١٢) بوجه من الوجوه، متحيز «الذات»(١٣) أو «منزه»(١٤) عن

---

(١) في الأصل: «تلبس» والتصحيح من الأضحوية ومن المختصر.
(٢) في الأضحوية: «في الأمثلة الأولى بل كما أنه في هذه الأمثلة».
(٣) فى الأصل وفى المختصر: «مستعارة» وما أثبت من الأضحوية.
(٤) فى الأصل: «لذلك» والتصحيح من الأضحوية ومن المختصر.
(٥) فى الأضحوية: «استعاره» وفى المختصر زيادة «ولا مجازية».
(٦) فى الأضحوية: «مأخوذة».
(٧) فى الأضحوية: «فأين النصوص التوحيدية المشيرة إلى التصريح بالتوحيد المحض».
(٨) فى الأضحوية: الدين القيم».
(٩) ما بين القوسين كلام استنتجه ابن القيم من كلام لابن سينا لم يورده هنا. والكلام بعد ذلك متصل مع ما قبل قوله: «ثم قال فى ضمن كلامه».
(١٠) فى الأضحوية: «المستندة» وفى المختصر: «الميسرة».
(١١) فى الأضحوية وفى المختصر: «بالذات».
(١٢) فى الأضحوية: «لكثرة تعالى الله عن ذلك».
(١٣) فى الأضحوية: «بالذات».
(١٤) فى الأصل: «منزهاً» وما أثبت من الأضحوية، ومن المختصر.

الجهات، فإنه لا يخلو إما أن تكون هذه المعاني واجباً تحققها، وإتقان المذهب الحق فيها، أو يسع الصدوف[١] عنها وإغفال البحث والرويّة فيها، فإن كان البحث عنها معفواً عنه، وغلط الاعتقاد الواقع فيها غير «مؤاخذ»[٢] به، فجل مذهب هؤلاء القوم المخاطبين بهذه الجملة تكلف وعنه غنيه، وإن كان فرضاً محكماً[٣] فواجب «أن»[٤] يكون «مما»[٥] صرح به في الشريعة، وليس التصريح المعمي «أو الملبَّس»[٦] والمقتصر فيه «بالإشارة»[٧] والإيماء «بل»[٨] التصريح المستقصى فيه، والمنبه عليه، والموفى حق البيان والإيضاح، «والتعريف على معانيه»[٩] فإن «المبرزين»[١٠] المنفقين «أيامهم ولياليهم»[١١] وساعات عمرهم على تمرين أذهانهم وتذكية أفهامهم، وترشيح نفوسهم «لسرعة»[١٢] الوقوف على المعاني الغامضة، يحتاجون في «تفهم»[١٣] هذه المعاني إلى فضل «بيان»[١٤] وشرح عبارة، فكيف «غُتْم»[١٥] العبرانيين وأهل الوبر من العرب؟

(١) الصدوف: الميل والإعراض. انظر الصحاح مادة «صدف».

(٢) فى المختصر: «مأخوذ».

(٣) فى الأضحوية: «وإن كان فرضاً لازما محتوماً محكوما».

(٤) فى المختصر: «أو».

(٥) فى الأصل وفى المختصر: «بما» والتصحيح من الأضحوية.

(٦) فى الأضحوية: «الملتبس».

(٧) فى الأضحوية: «على الإشارة» وأشار المحقق إلى ورودها فى نسخة أخرى بلفظ «بالإشارة» كما أوردها المصنف هنا.

(٨) فى الأصل: «بل بلى».

(٩) فى الأضحوية: «والتفهيم والتعريف لمعانيه».

(١٠) فى الأصل: «المبرين» والتصحيح من الأضحوية، ومن المختصر.

(١١) فى الأضحوية: «لياليهم وأيامهم» وأشار المحقق إلى وجودها فى نسخة أخرى كالذى أورده المصنف هنا.

(١٢) فى الأضحوية: «بسرعة».

(١٣) فى الأصل: «تفرسهم» وما أثبت من الأضحوية، وفى المختصر ونسخة أخرى للأضحوية: «فهم».

(١٤) فى الأضحوية: إيضاح».

(١٥) فى الأصل: «فهم» وما أثبت من إحدى نسخ الأضحوية، وهو كذلك فى المختصر واختار المحقق لفظة «غشم» والغُتْم معناه: الذين لا يفصحون. قال فى اللسان: الغُتْمَة: عجمة فى المنطق، ورجل أغْتم وغُتميّ: لا يُفصِح شيئا. انظر مادة «غَتَم».

«لعمري»[1] لو كلف الله رسولاً من الرسل أن يلقي حقائق هذه الأمور إلى الجمهور من العامة الغليظة طباعهم، المتعلقة بالمحسوسات الصرفة أوهامهم، ثم سامه أن «يستنجز منهم»[2] الإيمان والإجابة غير «متمهل»[3] فيه، «وسامه»[4] أن يتولى رياضة نفوس الناس قاطبة حتى تستعد للوقوف عليها لكلفه شططا، وأن يفعل ما ليس في قوة البشر، اللهم إلا أن «يدركه»[5] خاصة إلهية، وقوة علوية، وإلهام سماوي، فتكون حينئذ وساطة الرسول مستغني عنها، وتبليغه غير محتاج إليه، ثم هب «أن»[6] الكتاب العربي «جاء»[7] على لغة العرب «وعادة»[8] لسانهم «في»[9] الاستعارة والمجاز، «فما قولهم في الكتاب العبراني وكله»[10] من أوله الى آخره تشبيه صرف؟ وليس لقائل أن يقول: إن ذلك الكتاب محرف كله «وأنى»[11] يحرف كلية كتاب «منتشر»[12] في أمم لا يطاق «تعديدهم»[13] وبلادهم «متباينة»[14] وأوهامهم متباينة، منهم «يهودي ونصراني»[15] وهم أمتان «متعاديتان»[16] فظاهر من هذا كله أن الشرائع واردة «بخطاب»[17]

---

(١) فى الأضحوية: «ولعمرى».
(٢) فى الأضحوية: «يكون منجزا لعامتهم» وفى الأصل: «منجز منهم».
(٣) فى الأضحوية: «ممهل».
(٤) فى الأضحوية: «ثم سامه» وأشار المحقق إلى وجودها فى نسخة بلفظ «أو سامه».
(٥) فى الأصل وفى المختصر: «تدركهم» وما أثبت من الأضحوية.
(٦) «أن» لا توجد فى الأضحوية.
(٧) فى الأضحوية: «جائيا».
(٨) فى الأصل «وعبارة» وما أثبت من الأضحوية، ومن المختصر.
(٩) فى الأضحوية: «من».
(١٠) فى الأضحوية: «فما قولهم فى الكتاب العبرانى كله وهو...».
(١١) فى الأصل: «أنى» بدون واو قبلها، وما أثبت من الأضحوية ومن المختصر.
(١٢) فى الأصل: «مبشر» وما أثبت من الأضحوية، ومن المختصر.
(١٣) فى الأصل: «تعدديهم» وفى المختصر: «تعدادهم» وما أثبت من الأضحوية.
(١٤) فى الأضحوية: «متنائيه».
(١٥) فى الأضحوية: «يهود ونصارى».
(١٦) فى الأضحوية: «متعاندتان».
(١٧) فى الأضحوية: «لخطاب».

الجمهور بما يفهمون، مقربا ما لا يفهمون إلى أفهامهم بالتمثيل والتشبيه، ولو كان غير ذلك لما أغنت الشرائع البتة.

قال: فكيف يكون ظاهر الشرائع حجة في هذا الباب؟ «يعني أمر المعاد»[1] ولو فرضنا الأمور الأخروية روحانية غير مجسمة، بعيدة عن إدراك بداية الأذهان «تحقيقها»[2] لم يكن سبيل «للشرائع إلى الدعوة»[3] إليها والتحذير عنها «إلا بالتعبير عنها»[4] بوجوه من التمثيلات المقربة إلى الأفهام، فكيف يكون وجود شيء حجة على وجود شيء آخر؟ ولو لم يكن الشيء الآخر على الحالة المفروضة لكان الشيء الأول على حالته، فهذا كله هو الكلام على تعريف من طلب أن يكون خاصا من الناس لا عاما، أن ظاهر الشرائع غير محتج به في مثل هذه الأبواب[5].

فتأمل كلام هذا الملحد، بل رأس ملاحدة الملة، ودخوله إلى الإلحاد من باب نفي الصفات، وتسلطه في إلحاده على المعطلة النفاة بما وافقوه عليه من النفي، وإلزامه لهم أن يكون الخطاب بالمعاد جمهوريا، أو مجازا، واستعارة، كما قالوا في نصوص الصفات التي اشترك هو وهم في تسميتها تشبيها وتجسيما، مع أنها أكثر تنوعا، وأظهر معنى، وأبين دلالة من نصوص المعاد.

فإذا ساغ لكم أن تصرفوها عن ظاهرها بما لا تحتمله اللغة فصرف هذه عن ظواهرها أسهل.

ثم زاد هذا الملحد عليهم باعترافه بأن نصوص الصفات لا يمكن حملها كلها على المجاز والاستعارة، وأن يقال: إن المراد غير ظاهرها، وإن

---

(١) ما بين القوسين جملة تفسيرية من كلام ابن القيم رحمه الله.

(٢) فى الأضحوية: «لحقيقتها».

(٣) فى الأضحوية: «الشرائع فى الدعوة».

(٤) فى الأضحوية: «منتهيا بالدلالة عليها، بل بالتعبير عنها».

(٥) إلى هنا انتهى كلام ابن سينا. انظر الأضحوية فى المعاد بتحقيق الدكتور حسن عاصى (ص ٩٧-١٠٣).

لذلك الاستعمال مواضع تليق به، «بحيث»[1] تكون دعوى ذلك في غيرها غلطا محضا، كما في مثل قوله: ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك**﴾[2] فمع هذا التقسيم والتنويع يمتنع المجاز والاستعارة، فإنما أريد مادل اللفظ عليه ظاهراً، ومع هذا فقد «ساعدتهم»[3] على امتناعه لقيام الدليل العقلي عليه، فهكذا نفعل نحن في نصوص المعاد سواء.

فهذا حاصل كلامه وإلزامه، ودخوله إلى «الإلحاد»[4] من باب نفي الصفات والتجهم.

وطريق الرد المستقيم «بإبطال»[5] قوله وقول المعطلة جميعا، والمقصود: أن هؤلاء الجهمية والمعتزلة لما وافقوا هذا الملحد على نفي الصفات، وأن هذا النفي هو التوحيد الحق، احتج عليهم بهذه الموافقة على أن الرسل لم يثبتوا ماهو الحق في نفسه في معرفة توحيد الله ومعرفة اليوم الآخر، ولم يذكروا ماهو الذي يصلح لخاصة بني آدم، وأولى العقول بينهم أن يفهموه ويعقلوه من هذا الباب، وأن نصوص الوحي من كتب الله المنزلة، وكلام رسله، لا يحتج بها في باب الإيمان بالله، ولا في اليوم الآخر، لا في الخلق ولا في البعث، لا المبدأ ولا المعاد، وأن الكتب الإلهية إنما أفادت تخييلا ينتفع به العامة، لا تحقيقا يفيد العلم والمعرفة، وأن أعظم العلوم وأجلها وأشرفها هو العلم بالله، لم تثبته الرسل، ولم تنطق به، ولم يُهْدَ إليه الخلق، فلم تبين معرفة الله، ولا معرفة المبدأ ولا المعاد، بل نطقت فيه بخلاف الصواب، فاشتركت المعطلة الجهمية والملاحدة في نسبة الرسول إلى ذلك في باب الصفات، وامتازت عليها الملاحدة بأن الرسول

---

(١) فى المختصر: «حيث».

(٢) سورة الأنعام (١٥٨).

(٣) فى المختصر: «ساعدتهم».

(٤) فى الأصل: «الحاد» والتصحيح من المختصر.

(٥) فى المختصر: «فى إبطال».

أراد إفهام ظاهرها، وقالت المعطلة: أراد إتعاب الأذهان في إفهام خلاف ظاهرها، وعرّض الأمة إلى الباطل في اعتقاد ظاهرها.

الوجه الرابع والتسعون: أن يقال: لايخلو «إما أن يكون»[1] الرسول يعرف ما دل عليه العقل بزعمكم من إنكار علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، وتكليمه لرسله وملائكته، أو لم يكن يعرف ذلك، فإن قلتم: لم يكن يعرفه كانت «الجهمية والمعطلة»[2] والملاحدة، والمعتزلة، والقرامطة الباطنية، والنصيريه[3] والإسماعيلية، وأمثالهم وأفراخهم وتلامذتهم، أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وما يجب له ويمتنع عليه من رسله وأتباعهم، وإن كان يعرفه امتنع أن لا يتكلم به يوما من الدهر مع أحد من خاصته «والمطلعين»[4] على سره، ومن المعلوم قطعا أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يتكلم مع أحد بما يناقض ما «أظهره»[5] للناس، ولا كان خواص أصحابه يعتقدون فيه نقيض ما «أظهره»[6] للناس بل كل من كان به أخص، وبحاله أعرف، كان أعظم موافقة له وتصديقا له على ما أظهره وبينه وأخبر به.

فلو كان الحق في الباطن خلاف ما «أظهره»[7] لزم أحد الأمرين:

---

(١) فى المختصر: «ما يكون». (٢) فى المختصر: «الجهمية المعطلة» بدون عطف.

(٣) النصيرية: تقدم التعريف بها فى الجزء الأول (ص ٢٦٧-٢٦٨).

وقد وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار، والفرنج، وغيرهم فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع، وموالاة أهل البيت وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله، ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ، ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها، يدّعون أنها علم الباطن... من جنس قولهم: إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، والصيام المفروض كتمان أسرارهم وحج البيت العتيق زيارة شيوخهم...».

انظر كلام ابن تيمية هذا وتفصيل مذاهب القوم وتفنيدها فى مجموع الفتاوى (٣٥/١٤٩-١٦٠).

(٤) فى الأصل: «والمعطلين» وفى المختصر: «وأهل» (٥) فى المختصر: «أظهر».

(٦، ٧) فى المختصر: «أظهر».

إما أن يكون جاهلا به، أو كاتما له عن الخاصة والعامة، ومظهراً خلافه للخاصة والعامة، وهذا من أعظم الأمور «امتناعا»[1] ومدعيه في غاية الوقاحة والبهت.

ولهذا لما علم هؤلاء أنه يستحيل كتمان ذلك عن خواصه وضعوا أحاديث بينوا فيها أنه كان له خطاب مع خاصته غير الخطاب العامي، مثل الحديث المختلق المفترى عن عمر أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يتحدث مع أبي بكر وكنت كالزنجى بينهما)[2]، ومثل ما تدعيه الرافضة أنه كان عند علي علم خاص باطن يخالف هذا الظاهر.

ولما علم «الله»[3] سبحانه أن ذلك يُدّعى في علي وفق من سأله: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء خصكم به دون الناس؟ فقال: (لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما أسر إلينا رسول الله ﷺ شيئا كتمه عن غيرنا، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقول[4] «والديات» وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»[5] وهذ الحديث متفق على صحته[6] وفي لفظ في الصحيح: «عهد إليك رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس، فقال: لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة».

الوجه الخامس والتسعون: أن الله سبحانه أنزل كتبه حاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله**

---

(١) فى الأصل: «وامتناعا» وحذف الواو موافق لما فى المختصر.

(٢) الحديث موضوع، أورده الشوكانى فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة بتحقيق عبدالرحمن المعلمي (ص ٣٣٥) رقم ١٠٥٣ وذكر حكم الإمام ابن تيمية بوضعه.

(٣) فى الأصل: «أنه» والتصحيح من المختصر.

(٤) العقول: جمع «عقل» والعقل: الدية. قال الأصمعى: وإنما سميت بذلك لأن الإبل كانت تُعْقَل بفناء ولى المقتول، ثم كثر استعمالهم هذا الحرف حتى قالوا: عَقَلْتُ المقتول، إذا اعطيت ديته دراهم أو دنانير. انظر الصحاح مادة «عقل».

(٥) راجع تخريج الحديث فى الجزء الأول (ص ٣١٢) وكلمة «والديات» لم ترد فى لفظ الحديث. ولعلها من الراوى لتفسير العقول كما وردت عند المصنف فى الموضع المشار إليه.

(٦) فى المختصر: «وهذا الحديث فى الصحيحين».

النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[1] وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[2] وقال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[3] فكيف يحكم بين الناس في مواطن الخلاف والنزاع كلام وخطاب ليس فيه علم ولا هدى ينتفع به أولو الألباب؟ كما زعم هؤلاء أن الكتب الالهية لا يحتج بها في مثل هذه الأبواب فكيف تكون حاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه؟ وأي اختلاف أعظم من الاختلاف في أجل الأمور وهو معرفة الله تعالى واليوم الآخر؟ والخلاف الحقيقي إنما يكون في الأمور العلمية، والقضايا الخبرية التي لا تقبل النسخ والتغيير، فأما العمليات التي تقبل النسخ فتلك تنوع في الشريعة الواحدة، فكيف بالشرائع المتنوعة؟ وما جاز تنوعه لم يكن الخلاف فيه حقيقيا، فإنهما إن كانا مشروعين في وقتين أو برسولين فكلاهما حق، وإن كان الخلاف في المشروع منهما أيهما، فهذا العلم بالخبر المنقول عن الصادق وحينئذ فنقول في:

الوجه السادس والتسعون: «أن ما»[4] ذكره ابن سينا وأمثاله في أنه لم يرد في القرآن من الإشارة إلى توحيدهم شيء «فكلام صحيح»[5] وهذا دليل على أنه باطل لا حقيقة له، وأن من وافقهم عليه فهو جاهل ضال.

وكذلك ما ذكره «أن من المواضع»[6] التي ذكرت فيها الصفات مالا يحتمل اللفظ «فيها»[7] إلا معنى واحدا، لا يحتمل ما يدعيه أهل التأويل من الاستعارة والمجاز كما ذكره في قوله ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في

---

(١) سورة البقرة (٢١٣).
(٢) سورة النساء (١٠٥).
(٣) سورة النساء (٥٩).
(٤) في المختصر: «وما».
(٥) في المختصر: «فكلام غير صحيح».
(٦) في المختصر: «من أن من المواضع».
(٧) في المختصر: «فيه».

ظلل من الغمام والملائكة﴾[1] وقوله: ﴿أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾[2] وهذا حجة على من نفى حقيقة ذلك ومدلوله من المعطلة نفاة الصفات، وهو حجة عليه وعليهم جميعا، وموافقتهم له على التعطيل لا تنفعه، فإن ذلك حجة جدلية لا علمية، إذ تسليمهم له ذلك لا يوجب على غيرهم أن يسلم ذلك له، فإذا تبين بالعقل الصريح ما يوافق النقل الصحيح دل ذلك على فساد قوله وقولهم جميعا.

وكذلك قوله: هب أن هذه كلها موجودة على الاستعارة «فأين»[3] التوحيد؟ والدلالة «بالتصريح»[4] على التوحيد المحض الذي تدعو إليه حقيقة هذا الدين القيم المعترف بجلالته على لسان حكماء العالم قاطبة كلام صحيح لو كان ما قاله النفاة حقا، فإنه على قولهم لا يكون «هذا»[5] الدين القيم قد بين التوحيد الحق أصلا، وحينئذ فنقول في:

الوجه السابع والتسعون: أن التوحيد الذي دعا إليه هؤلاء الملاحدة وذكروا أنه التوحيد الحق، هو من أعظم الإلحاد في أسماء الرب وصفاته وأفعاله، وهو حقيقة الكفر به وتعطيل العالم عن صانعه، وتعطيل الصانع الذي أثبتوه عن صفات كماله.

«فشرك»[6] عبّاد الأصنام والأوثان والكواكب والشمس والقمر، خير من توحيد هؤلاء بكثير، فإنه شرك في الإلهية مع إثبات صانع العالم وصفاته وأفعاله وقدرته ومشيئته وعلمه بالكليات والجزئيات، وتوحيد هؤلاء تعطيل «الربوبية والإلهية»[7] وسائر صفاته، وهذا التوحيد ملازم لأعظم أنواع

---

(١) سورة البقرة (٢١٠).
(٢) سورة الأنعام (١٥٨).
(٣) فى الأصل: «فإلى» والتصحيح من المختصر.
(٤) فى المختصر: «والتصريح».
(٥) فى الأصل: «لهذا» والتصحيح من المختصر.
(٦) فى الأصل: «فسر لى» والتصحيح من المختصر.
(٧) فى المختصر: «لربوبيته والهيته».

الشرك، ولهذا كلما كان الرجل أعظم تعطيلا كان أعظم شركا، ولا تجد معطلاً نافيا إلا وفيه من الشرك بقدر ما فيه من التعطيل.

وتوحيد الجهمية والفلاسفة مناقض لتوحيد الرسل من كل وجه، فإن مضمون توحيد الجهمية: إنكار حياة الرب، وعلمه وقدرته، وسمعه وبصره، وكلامه، واستوائه على عرشه، ورؤية المؤمنين له بأبصارهم عيانا من فوقهم يوم القيامة، وإنكار وجهه الأعلى، ويديه، ومجيئه، وإتيانه، ومحبته، ورضاه، وغضبه، وضحكه، وسائر ما أخبر به الرسول عنه.

ومعلوم أن هذا التوحيد هو نفس تكذيب الرسول «فيما»[1] أخبر به عن الله وجحده، فاستعار له أصحابه اسم التوحيد، وقالوا: نحن الموحدين، كما استعار المنكرون للقدر اسم العدل بجحده ودفعه وقالوا: نحن أهل التوحيد والعدل[2]، «فهذا»[3] توحيدهم وهذا عدلهم، والعدل والتوحيد الذي جاء به الرسول خلاف هذا وهذا، قال الله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام**﴾[4].

الوجه الثامن والتسعون: أنه لو كان الحق «فيما»[5] يقوله هؤلاء النفاة المعطلون وإخوانهم من الملاحدة «لكان»[6] قبول الفطر له أعظم من قبولها للإثبات الذي هو ضلال وباطل عندهم، فإن الله سبحانه نصب على الحق الأدلة والأعلام الفارقة بين الحق والباطل، والنور والظلام، وجعل فطر عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من

---

(١) في المختصر: «بما».
(٢) وهم المعتزلة راجع (ص ٢٤٧).
(٣) في الأصل: «فبهذا» ولعل الصواب ما أثبت.
(٤) سورة آل عمران (١٨-١٩).
(٥) في الأصل: «فيها» والتصحيح من المختصر.
(٦) في الأصل: «فكان» والتصحيح من المختصر.

الاستعداد لمعرفة الحقائق لم يمكن النظر والاستدلال، «ولا الخطاب»[1] والكلام والفهم والإفهام، «وكما»[2] أنه سبحانه جعل الأبدان مستعدة للاغتذاء بالطعام والشراب، ولولا ذاك لما أمكن تغذيتها وتربيتها «وكما»[3] أن في الأبدان قوة تفرق بين الغذاء الملائم والمنافي، ففي القلوب قوة تفرق بين الحق والباطل أعظم من ذلك، «فخاصة»[4] العقل «التفريق»[5] بين الحق والباطل، وتمييز هذا من هذا، كما أن خاصة السمع «التمييز»[6] بين الأصوات حسنها وقبيحها، وخاصة «الشم»[7]: التمييز بين أنواع الروائح طيبها وخبيثها، وكذلك خاصة الذوق في الطعوم «وخاصة البصر التمييز بين المرئيات وأشكالها وألوانها ومقاديرها»[8].

فإذا ادعيتم على العقول أنها لا تقبل الحق، وأنها لو صرح لها به لأنكرته، ولم «تذعن»[9] إلى الإيمان، فقد سلبتم العقول خاصتها، وقلبتم الحقيقة التي خلقها الله وفطرها «عليها»[10]، وكان نفس ماذكرتم: أن الرسل لو خاطبت به الناس لنفروا عن الإيمان، من أعظم الحجج عليكم، وأنه مخالف للعقل والفطرة، كما هو مخالف للسمع والوحي.

فتأمل هذا الوجه، فإنه كافٍ في إبطال قولهم، ولهذا إذا أراد أهله أن يدعوا الناس إليه ويقبلوه منهم «وطأوا له توطئات»[11] وقدموا له مقدمات

---

(١) فى المختصر: «والخطاب».
(٢) فى المختصر: «كما».
(٣) فى المختصر: «فكما».
(٤) فى المختصر: «وخاصة».
(٥) فى الأصل: «الفرق» والتصويب من المختصر.
(٦) فى المختصر: «التفريق».
(٧) فى الأصل: «السمع» والصواب ما أثبت.
(٨) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل، وأثبته نقلا عن المختصر.
(٩) فى الأصل: «تدعي» والتصحيح من المختصر.
(١٠) فى الأصل: «عليه» والتصويب من المختصر.
(١١) فى الأصل: «وتاطوله موطيات» والتصحيح من المختصر.

«يثبتونها»[1] في القلب درجة بعد درجة، ولا يصرحون به أولاً، حتى إذا أحكموا ذلك البناء استعاروا له ألفاظا مزخرفة، واستعاروا «لما خالفه»[2] ألفاظاً شنيعة، فتجتمع تلك المقدمات التي قدموها، وتلك الألفاظ التي زخرفوها، وتلك الشناعات التي على «من خالفهم»[3] شنعوها، فهنالك إن لم يمسك الإيمان من يمسك السموات والأرض أن تزولا، وإلا ترحل عن القلب ترحل الغيث استدبرته الريح.

يوضحـه:

الوجه التاسع والتسعون: أن نعرض على الفطر السليمة، والعقول التي لم تفسد بتلقى المقالات الفاسدة، وتلقيها عن المعلمين: خصمين اختصموا في ربهم، فقال أحدهما: هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه، حي له الحياة، قدير له صفة القدرة، مريد له صفة الإرادة، كلم موسى تكليما، وتجلى للجبل فجعله دكا هشيما، فوق سمواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، يرى من فوق سبع سموات، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن اللهجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في غياهب الظلمات، لا تتحرك ذرة الا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، ترفع إليه الحاجات وتصعد إليه الكلمات الطيبات، وينزل من عنده الأمر بتدبير المخلوقات، له القوة كلها، والعز كله، والجمال كله، والعلم كله، والكمال كله، وهو الحي القيوم «الذي»[4] لا تأخذه سنة «ولا نوم»[5] موصوف بكل جمال، منزه

---

(١) في الأصل: «سنوها» والتصحيح من المختصر. (٢) في المختصر: «لمخالفه».
(٣) في الأصل: «ما خالفه» والتصويب من المختصر.
(٤) في الأصل: «التى» وما أثبت هو الصواب. (٥) «ولا نوم» مكررة في الأصل.

عن كل نقص وعيب، لا تضرب له الأمثال، ولا يشبه بالمخلوقات، فعّال لما يريد، لوجهه سبحات الجلال، وهو الجميل الذي له كل الجمال، إحدى يديه للجود والفضل، والأخرى للقسط والعدل، يقبض سمواته السبع بإحدى يديه، والأرضين السبع باليد الأخرى، ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك، لاينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، قريب، مجيد، رحيم، ودود، لطيف، خبير.

فصل

وقال الآخر: بل هو موصوف بالسلوب والإضافات، فلا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا إرادة، ولا يتكلم، ولا يكلم أحدا من خلقه، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق العرش ولا تحته، ولا يمينه ولا يساره، ولا خلفه ولا أمامه، ولا له وجه ولا يد، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يسخط ولا يضحك ولا يفرح بتوبة تائب، ولا استوى على عرشه، ولا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا يأتي يوم القيامة ولا يجيء لفصل القضاء، ولا يراه المؤمنون بأبصارهم، ولا يستمعون كلامه، ولا يقوم به فعل البتة، ولا وصف، ولا له حقيقة وماهية غير وجود مطلق، وهو وجه كله، وسمع كله، وبصر كله، ويد كله، علمه ذاته، وسمعه وبصره علمه، ليس له يد غير القدرة، خلق بها آدم، وكتب بها التوراة، وغرس بها جنة عدن، يقبض بها السموات، وليس له وجه يراه المؤمنون بأبصارهم، ليس بجوهر، ولا جسم، ولا متحيز، ولا متحرك، ولا ساكن، ولا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يحبه أحد ولا يحب أحدا، إلى أمثال ذلك من النفي.

فاعرض أقوال هذين الخصمين على الفطرة الصحيحة، والعقل، واجلس مجلس الحكومة[1] بينهما، ثم تخير إلى أي الفئتين شئت، فما ثم إلا الإثبات من كل وجه لما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله، والتعطيل الصرف، والنفي المحض، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، واجعلها مع إحدى الفئتين، فالمرء مع من أحب.

وحينئذ فنقول في:

الوجه المائة: أن الأعمال الصالحة والفاسدة نتائج الاعتقادات الصحيحة والباطلة، فانظر رؤوس المثبتة والنفاة، وملوكهم وأتباعهم، يتبين لك حقيقة الأمر، فرؤوس المثبتة: آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وإبراهيم الخليل وسائر الأنبياء من ذريته، وموسى الكليم وعيسى، وجاء خاتمهم وآخرهم وأعلمهم بالله سيد ولد آدم محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، فجاء بالإثبات المفصل الذي لم يأت «رسول»[2] بمثله، فصرح من إثبات الصفات والأفعال بما لم يصرح به نبي قبله، وذلك لكمال عقول أمته، وكمال تصديقهم، وصحة أذهانهم.

فرسول الله ﷺ حامل لواء الإثبات، وتحت ذلك اللواء آدم وجميع الأنبياء وأتباعهم، ثم المهاجرون والأنصار، وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان، وسائر الصحابة، ثم «التابعون»[3] لهم بإحسان ممن لا يحصيهم إلا الله، ثم أتباع التابعين، ثم أئمة الفقه في الأعصار والأمصار، منهم الائمة الأربعة، ثم أهل الحديث قاطبة، وأئمة التفسير، والتصوف،

---

(١) أى اجلس مجلس الحاكم بينهما، يقال: حكم عليه بالأمر يحكم حكما وحكومة، إذا قضى، وجمع الحكومة: حكومات، يقال: هو يتولى الحكومات ويفصل الخصومات. وأصل الحكومة: رد الرجل عن الظلم، وإنما سمى الحاكم بين الناس لأنه يمنع الظالم من الظلم. انظر القاموس، وتاج العروس، مادة «حَكَم».

(٢) فى الأصل: «رسوله».

(٣) فى الأصل: «التابعين».

والزهد، والعبادة، المقبولون عند الأمة ممن لا يحصي عددهم إلا الله، فهل سمع في الأولين والآخرين بمثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وسائر المهاجرين والأنصار؟ وهل سمع بقوم أتم عقولا، وأصح أذهانا، وأكمل علما ومعرفة، وأزكى قلوبا، من هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[1].

قال غير واحد من السلف:[2] هم أصحاب محمد ﷺ.

قال فيهم عبد الله بن مسعود: «من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[3] فهؤلاء أمراء هذا الشأن، وأما الجند والعساكر فالتابعون كلهم، ثم الذين يلونهم، مثل: مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد[4]، وحماد بن سلمة[5]، وعبد الله

---

(١) سورة النمل (٥٩).

(٢) منهم ابن عباس رضى الله عنهما، وعبد الله بن المبارك، والثورى، والسدى.
انظر جامع البيان للطبرى (٩/٢) وتفسير ابن كثير (٦/٢١٠).

(٣) رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله بسنده عن قتادة عن ابن مسعود رضى الله عنه. باب ما يكره فى المناظرة والجدال والمراء (٢/٩٧) وذكره الإمام ابن تيمية فى مناهج السنة (٢/٧٦-٧٧) وقال: رواه غير واحد منهم ابن بطة عن قتادة. وأورده التبريزى فى مشكاة المصابيح (١/٦٧) رقم ١٩٣ بتحقيق الألبانى، وقال الألبانى معلقا عليه: رواه الهروى من طريق قتادة عنه فهو منقطع.

(٤) هو: حماد بن زيد بن درهم، أبو إسماعيل الأزدى، مولى آل جرير بن حازم، حافظ ثبت، أصله من سجستان، وهو أحد أئمة الناس فى زمانه كما قال عبد الرحمن بن مهدى: أئمة الناس فى زمانهم أربعة: سفيان الثورى بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعى بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة. مات سنة ١٧٩. انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/٢٨٦) والتاريخ الكبير للبخارى (٣/٢٥) وسير أعلام النبلاء (٧/٤٥٦-٤٦٦).

(٥) هو: حماد بن سلمة بن دينار، أبو سلمة البصرى. مولى آل ربيعة بن مالك، وابن أخت حميد الطويل، الإمام القدوة، شيخ الإسلام، قال الذهبى: كان بحراً من بحور العلم، توفى سنة ١٦٧. انظر طبقات ابن سعد (٧/٢٨٢) والمعارف لابن قتيبة (ص ٥٠٣) وسير أعلام النبلاء (٧/٤٤٤-٤٥٦).

بن المبارك، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه[1]، والإمام أحمد، والشافعي، وعلي بن المديني[2]، ويحيى بن معين[3]، والبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، ومحمد بن أسلم الطوسي[4]، وأبي حاتم، وأبي زرعة الرازيان[5] وأمثالهم، وأما عامتهم فأهل الدين والصدق، والورع والزهد، والعبادة والإخلاص، واجتناب المحارم، وتوقي المآثم.

وأما رؤوس النفاة والمعطلين ففرعون، إذ يقول: «ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا»[6] وجنوده كلهم، ونمرود بن كنعان هذا خصم إبراهيم

---

(١) هو: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم، أبو يعقوب الحنظلي المروزي، وصفه الذهبي بالعالم الكبير، شيخ المشرق سيد الحفاظ، ولد سنة ١٦١ وتوفى سنة ٢٣٨. انظر التاريخ الكبير (١/٣٧٩) وتاريخ بغداد (٦/٣٤٥، ٣٥٥) والبداية والنهاية (١٠/٣١٧) وسير أعلام النبلاء (١١/٣٥٨-٣٨٣).

(٢) هو: أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر بن نجيح بن بكر بن سعد السعدي، مولاهم البصري المعروف بابن المديني، الإمام الحجة، أمير المؤمنين في الحديث. توفى سنة ٢٣٤. انظر التاريخ الكبير (٦/٨٤) وتاريخ بغداد (١١/٤٥٨-٤٧٣) والبداية والنهاية (١٠/٣١٢) وشذرات الذهب (٢/٨١) وسير أعلام النبلاء (١١/٤٠-٦٠).

(٣) هو: الإمام الحافظ الجهبذ شيخ المحدثين أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام الغطفاني ثم المري، مولاهم البغدادي أحد الأعلام، ولد سنة ١٥٨ وتوفى سنة ٢٣٣. انظر التاريخ الكبير (٨/٣٠٧) وتارريخ بغداد (١٤/١٧٧-١٨٧) وطبقات الحنابلة (١/٤٠٢-٤٠٧) وسير أعلام النبلاء (١١/٧١-٩٦).

(٤) هو: محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد الكندي مولاهم، الإمام الرباني، شيخ المشرق أبو الحسن الطوسي. كان مولده في حدود الثمانين ومائة، كان من الثقات الحفاظ. توفى سنة ٢٤٢ قال عنه الذهبي: كان يشبه أحمد بن حنبل. وقال بعض أهل العلم: كان محمد بن أسلم وفي وقته يشبه بابن المبارك. انظر حلية الأولياء (٩/٢٣٨-٢٥٤) وسير أعلام النبلاء (١٢/١٩٥-٢٠٧) وتذكرة الحفاظ (٢/٥٣٢-٥٣٤).

(٥) أبو حاتم الرازي هو: الإمام الحافظ محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، أحد الأعلام ولد سنة ١٩٥ وتوفى سنة ٢٧٧. انظر تاريخ بغداد (٢/٧٣) وتذكرة الحفاظ (٢/٥٦٧-٥٦٩) والأعلام (٦/٢٥٠).

أما أبو زرعة الرازي فهو: عبيد الله بن عبدالكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء، من حفاظ الحديث الأئمة ولد سنة ٢٠٠ وتوفى سنة (٢٦٤). انظر تاريخ بغداد (١٠/٣٢٦) وطبقات الحنابلة (١/١٩٩) والأعلام (٤/٣٥٠).

(٦) سورة غافر (٣٦، ٣٧).

الخليل، وذاك خصم موسى الكليم، وأرسطاطاليس، وبقراطيس، وأضرابهما.

وطمطم[1] وتنكلوسا[2] وابن وحشية[3] وأضرابهم، وابن سينا والفارابي، وكل فيلسوف لا يؤمن بالله، ولا ملائكته، ولا كتبه، ولا رسله، ولا لقائه.

وأما عوامهم فاعتبر عوام النصيريه، والإسماعيلية، والدرزية، والحاكمية[4] والطرقية[5]، والغرباء[6]، وعبادهم، البخشية،[7] والطوسية، وعلماؤهم السحرة، وعساكرهم المشركون، والقرامطة الذين

---

(١) طمطم يدل السياق هنا على أنه اسم لشخص. أما عن معناه لغة فراجع الجزء الأول (ص ١٤٠، ١٤١).

(٢) لعله تينكلوس البابلي، ذكره ابن النديم وقال: هذا أحد السبعة العلماء الذين رد إليهم الضحاك البيوت السبعة التى بنيت على أسماء الكواكب السبعة، وله من الكتب: كتاب الوجود والحدود. الفهرست (ص ٣٧٧).

(٣) فى الأصل: «ابن وخشية، بالخاء المعجمة ولعله ابن وحشية الكلدانى وهو: أبو بكر أحمد بن علي بن المختارين عبدالكريم بن جرثيا بن بدنا الكسدانى، الصوفى، من أهل قُسّين، وهو من نقلة الكتب من النبطية إلى العربية، وقد نقل كتباً كثيرة، وكان يدّعى أنه ساحر، وله من الكتب فى السحر والطلسمات: كتاب طرد الشياطين، وكتاب السحر الكبير له، وكتاب السحر الصغير نقله من النبطية، وغيرها. انظر الفهرست لابن النديم (ص ٣٤٢، ٣٤٣).

(٤) الدرزية طائفة من الاسماعيلية، قالوا بألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى وصفه الإمام ابن كثير بأنه كان جبّاراً عنيدا، وشيطاناً مريدا، ويلقبون أحيانا بالحاكمية، ويسمون أنفسهم بالموحدين. نشأ مذهبهم فى عهد الحاكم ابن المعز الفاطمى على يد رجلين فارسيين هما حمزة ودرزى، وقالوا بألوهية الحاكم. انظر عن نشأتهم وآرائهم كتاب عقيدة الدروز تأليف محمد أحمد الخطيب ط الأولى سنة ١٤٠٠هـ والنجوم الزاهرة (٤/ ١٨٤) والبداية والنهاية (١٢/ ٩-١٠).

(٥) الطرقية نسبة إلى الطرق، جمع طريقة، وهم أصحاب الطرق الصوفية. والطريقة كما يقول الجرجانى: هى السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقى فى المقامات. التعريفات (ص ١٤١). وهى اصطلاح صوفى.

(٦) الغرباء: الأباعد. انظر الصحاح مادة «غرب».

(٧) ذكر بارتولد فى دائرة المعارف الإسلامية أن «بخشي» كلمة سنسكريتية الأصل هى «بهشكوا» وتدل على كهنة بوذا، فلعل هذه الطائفة التى كانت تجعل بوذا محورا لعبادتها هى نفس طائفة البخشية. راجع درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥/ ٦٧) هـ (٣).

هم أعـظـم الأمم إفسـادا للدنيا والـدين، فليعتبر العاقل خواص هؤلاء وهؤلاء وعوام هؤلاء وهؤلاء، وليقابل بين الطائفتين، وحينئذ يتعين له أنه ما كان ولا يكـون ولي الله إلا من أهل الأثبات، وما كان ولا يكون ولي الشيطان إلا من أهل النفي والتعطيل، إما تعطيل الصانع من صفات كماله ونعوت جلاله، وإما تعطيل القلب عن توحيده وعبوديته وإخلاص الدين له، واعتبر ذلك بإمام النفاة في زمانه، وما جرى على أهل السنة منه ابن أبي دؤاد[1] وأصحابه الذين سعوا في ضرب الإمام أحمد، وقتل كثير من أهل السنة وحبسهم وتشتيتهم في البلاد، وقطع أرزاقهم، ثم إمامهم في زمانه نصير الكفر والشرك الطوسي، وما جرى على المسلمين منه من قتل خليفتهم وعلمائهم وعبـادهم[2] وإذا اعتـبرت أحـوال القـوم رأيت عوام اليهـود

---

(١) في الأصل: «داود» وابن أبى دؤاد هو: أحمد بن أبى دؤاد بن جرير بن مالك الأيادى (أبو عبدالله) أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن، قيل ولد بالبصرة سنة ١٦٠هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٤٠هـ. قال الذهبى: كان جهميا بغيضا حمل الخلفاء على امتحان الناس فى القرآن. انظر ترجمته فى وفيات الأعيان (١/٨١-٩١) والنجوم الزاهرة (٢/٣٠٠-٣٠٢) والبداية والنهاية (١٠/٣١٩) ولسان الميزان (١/١٧١) وسير أعلام النبلاء (١١/١٦٩-١٧٠).

(٢) يذكـر الإمام ابن كثير فى تاريخه أن هولاكو حينما قدم بغداد كان فى صحبة مستشاره النصير الطوسي، الذى كان يزين له الفتك بأهل السنة، فكان أول من برز له ابن العلقمي وزير الخليفـة العباسى المعتصم، وهو ومستشار هولاكو رافضيان فاجتمعوا ورسموا خطة للقضاء على الخليفة وأئمة المسلمين وعلمائهم، ثم عاد ابن العلقمي وأشار على الخليفة العباسي بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه، فخرج ومعه سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حُجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسا، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت، وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدى هولاكو، ثم عاد إلى بغداد فى صحبة الخواجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي، وغيرهما فأحضر معه من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار عليه الطوسي وابن العلقمي أن لا يصالح الخليفة واغروه بقتله، فقتل رفسا فى جوالق، ثم انقض هولاكو بجنده على بغداد فقتل كل من وقع تحت يده من أهلها، ومستشاره الأول فى كل ذلك وزيره نصير الكفر الطوسي، وابن العلقمي الوزير الخائن، فباءوا بإثم خيانتهم، وما ترتب عليها من قتل لسادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء وأهل الحل والعقد، وعامة المسلمين الذين وقعوا فى قبضة هولاكو وجنده، نتيجة هذا الغدر والخيانة التى لم يعرف لها التاريخ مثيلا، والتى تدل على ما يضمره الرافضة من شر لأمة الإسلام، وعلى أنهم لا يسعدون بقدر سعادتهم إذا أصيب المسلمون بسوء، فإنا لله وإنا إليه راجعون. راجع البداية والنهاية (١٣/٢٠٠-٢٠٦).

والنصارى أقل فسادا في الدين والدنيا من أئمة هؤلاء المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم، وغاية الواحد من هؤلاء إذا أراد الجاه أن يتقرب إلى الملوك الجهلة الظلمة بما يناسبهم من السحر، فيصنف لهم فيه، ويتقرب به اليهم، فهؤلاء علماؤهم وملوكهم وعوامهم، فكيف يكون هؤلاء أحظى بالعقل وأسعد به من الرسل وأتباعهم ؟ وسيرة هؤلاء وهؤلاء معلومة في العالم، وأعمالهم وعلومهم ومعارفهم وآثارهم دالة لمن له أدنى عقل على حقيقة الحال، والله أعلم.

انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث
وأولـه الوجـه الحادي والمائة

الفهارس

فهرس موضوعات الجزء الثاني من كتاب «الصواعق المنزلة»

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع **الصفحة**

مطابع الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة